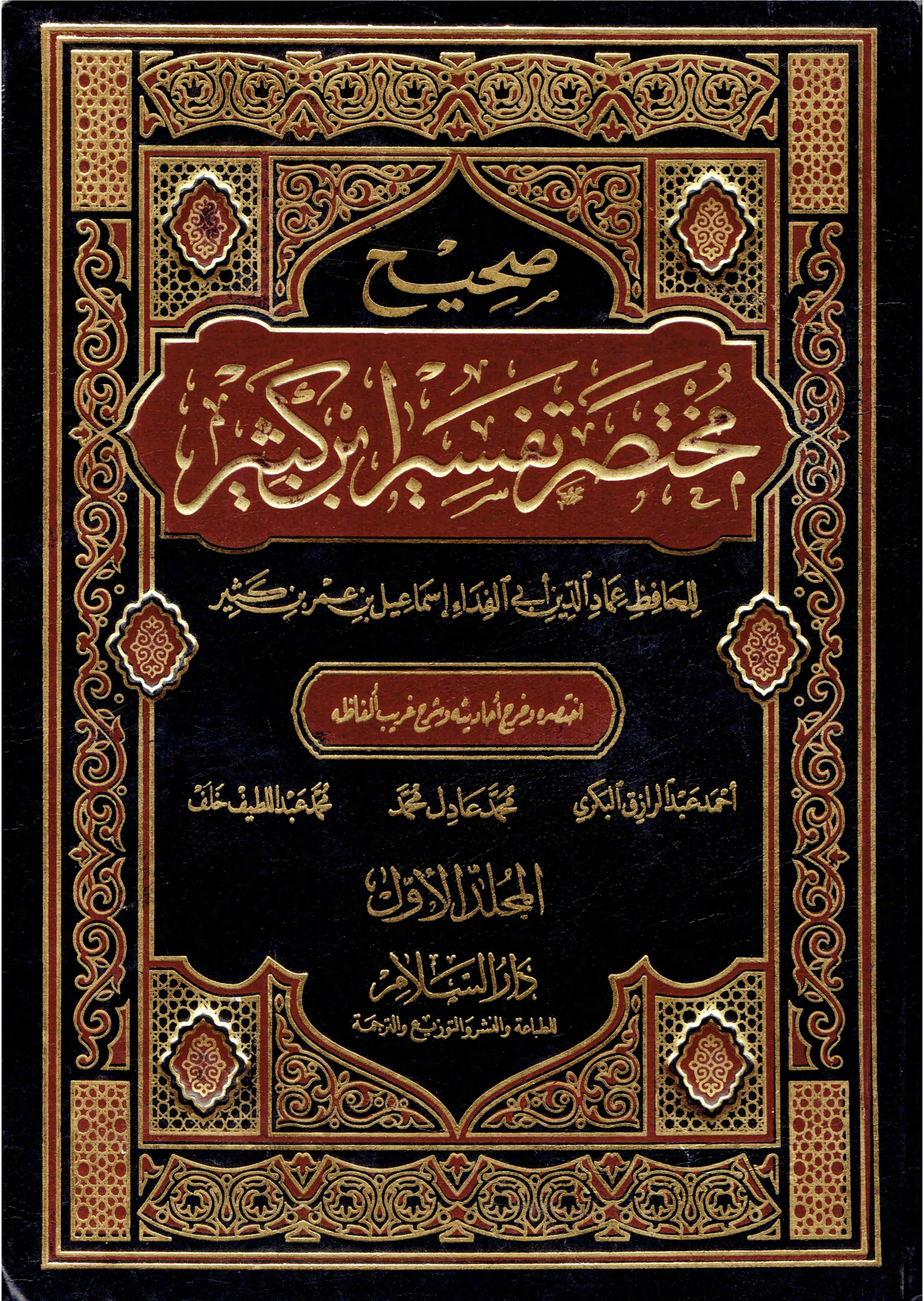
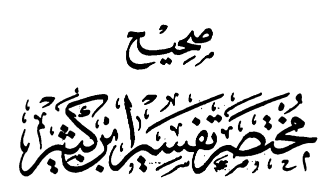

صحيح
مختصر تفسير ابن كثير
للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير
اختصره وخرج أحاديثه وشرح غريب ألفاظه
أحمد عبد الرازق البكري
محمد عادل محمد
محمد عبد اللطيف خلف
المجلد الأول
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


صحيح
مختصر تفسير ابن كثير

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م
الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م
الطبعة الثالثة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

القاهرة - جمهورية مصر العربية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

صحيح

مختصر تفسير ابن كثير

للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير

اختصره وخرج أحاديثه وشرح غريب ألفاظه

أحمد عبد الرازق البكري | محمد عادل محمد | محمد عبد اللطيف خلف

المجلد الأول

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمدك اللهم حمدًا يوافي النعم ، ونشكرك اللهم أن هيأتنا لخدمة كتابك وسنة نبيك ، ونسألك من فضلك العميم مزيدًا من الرعاية والتوفيق .

ونصلي ونسلم على خير الخلق عندك ، وأحبهم إليك ، وأكرمهم لديك ، سيدنا محمد ﷺ الذي اصطفيته للرسالة ، وأيدته بالمعجزة ، وآتيته من جوامع الكلم ما طوى به غزير المعاني في اليسير من الألفاظ ، فكان بيانه النبوي الشريف أبلغ ما عرفت العربية بعد كتاب اللّه العزيز ، وبهما هدى اللّه الضال ، وعلَّم الجاهل ، وأرشد الحائر .

فصلواتك اللهم وسلامك على نبيك الكريم ، وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته ، واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد :

هذا مختصرٌ محققٌ لتفسير القرآن العظيم للعلامة الإمام الحافظ الثبت الثقة أبي الفداء إسماعيل ابن كثير ، والذي تقدمة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة التي دأبت على تقديم كتب التراث للقارئ في ثوب قشيب ؛ ولما كان لهذا العالم الجليل وكتابه « تفسير القرآن العظيم » دور عظيم في عالم التفسير ، فنود أن نلقي الضوء على حياة هذا العالم الجليل وذلك من خلال عرض لترجمة خاصة به .

فما لاشك فيه أن « علم التفسير » من أهم العلوم الإسلامية التي حرص المسلمون منذ عهد النبي ﷺ وحتى عصرنا الحالي على تعلمها ، والنهل من معينها ؛ لذا فقد عني الصحابة ومن بعدهم التابعين ثم تابعيهم على تعليم هذا العلم حتى أطلق الصحابة على الصحابي الجليل عبد اللّه بن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن ، ثم كما فقد عني العلماء منذ القرن الأول بموضع الكتب التي تجمع علم التفسير واستمرت هذه العناية بذلك العلم حتى عصرنا الحالي .

ويعد « تفسير القرآن العظيم » المشهور بتفسير ابن كثير ، من الكتب الجامعة التي لا غنى لكل بيت مسلم عنها ، وذلك لما يحويه بين دفتيه من علم غزير ونفع للإسلام والمسلمين ، لذا فإن هذا الكتاب قد ظل على مر العصور مرجعًا مهمًّا للعلماء وطلاب العلم يستقون من معينه ما يروون به ظمأهم ، لذا فقد حرصنا على تقديم هذا التفسير في صورة معاصرة ، وطريقة سهلة واضحة خالية من الإسرائيليات والآثار الموضوعة ، مع الاحتفاظ بروح المؤلف ومنهجه في كتابه ، وذلك حتى يستفيد القارئ المسلم .

ترجمة ابن كثير

حياته :

هو الإمام الحافظ الحجة عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن كثير بن درع القرشي من بني حصلة .

ولد في قرية مجدل إحدى قرى بصرى سنة (٧٠١ هـ) لأب كان يعمل خطيبًا لتلك القرية ، وقد توفي أبوه وهو في الثانية من عمره فنشأ يتيمًا .

انتقل ابن كثير بعد وفاة والده مع إخوته من مجدل إلى دمشق ، وكان ذلك في سنة (٧٠٧ هـ) وقام على رعايته وتعليمه شقيقه الأكبر عبد الوهاب .

كانت نشأة الإمام الحافظ ابن كثير مليئة بالأحداث الخطيرة ، فقد شهد هجوم التتار على الشام ، ومحاولات الصليبيين الهجوم على البلاد الإسلامية ، ومع ذلك فلم تزده هذه الأحداث إلا قوة وصلابة .

تعلمه :

بدأ ابن كثير في تعلم القرآن الكريم ككثير من علماء عصره ، واستطاع حفظه وتلاوته وهو في العاشرة من عمره .

وتلقى ابن كثير العلم على يد نخبة كبيرة من علماء عصره ، وعلى رأسهم صهره الحافظ المزي المتوفى سنة (٧٤٢ هـ) (مؤلف كتاب تهذيب الكمال) الذي تأثر به ابن كثير تأثرًا كبيرًا . كما تأثر بمؤرخ الشام القاسم بن محمد البرزالي المتوفى سنة (٧٣٩ هـ) .

كما كان لشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية المتوفى سنة (٧٢٨ هـ) أثر كبير في حب ابن كثير للعلم ، إذ كانت له به خصوصية ، حيث كان من تلامذته المخلصين ، وكان يفتي برأيه .

شيوخه :

تلقى الإمام الحافظ ابن كثير العلم على يد نخبة كبيرة من العلماء ، إضافة إلى ما سبق ذكرهم ، ومن هؤلاء :

في الحديث والتاريخ :

- مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨ هـ) .

أصول الفقه :

الإمام ابن قاضي شهبة المتوفى سنة (٧٢٦ هـ) .

الحديث :

القاسم ابن عساكر المتوفى سنة (٧٢٣ هـ) .

أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري المعروف بالفركاح المتوفى سنة (٧٢٩ هـ) .

أحمد بن أبي طالب الحجار المعروف بابن الشحنة المتوفى سنة (٧٣٠ هـ) .

الشعر :

نجم الدين موسى بن علي محمد المتوفى سنة (٧١٦ هـ) .

كما أخذ بقية العلوم عن مجموعة من العلماء والشيوخ أمثال ابن الشيرازي وإسحاق الآمدي وأبي موسى القرافي وأبي الفتح الدبوسي .

مكانته العلمية :

يعد الإمام الحافظ ابن كثير من الحفاظ المحدثين ، وقد ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ في الطبقة الثالثة والعشرين .

استطاع الإمام الحافظ ابن كثير أن يكوّن لنفسه شخصية متميزة مكنته من أن يكون أحد علماء عصره الذين يشار إليهم بالبنان ؛ لذا فقد كان يقصده طلاب العلم من كل بقاع الأرض لتلقي العلم على يديه ، كما كانت له الريادة والمكانة العلمية المتميزة والتي تمكنه من أن يتولى مشيخة أم صالح بعد وفاة شيخه الإمام الذهبي سنة (٧٤٨ هـ) ومشيخة دار الحديث الأشرفية بعد وفاة شيخها تقي الدين السبكي سنة (٧٥٦ هـ) .

كما درس بالنجيبية والجامع الفوقاني ، كما كانت له مشاركة في صنع القرارات الحربية كما فعل مع السلطان بإرشاده إلى ما يفعله مع أهل قبرص لردعهم .

آثاره ومؤلفاته :

خلف الإمام الحافظ إسماعيل بن كثير بعد وفاته تراثًا علميًا كبيرًا ، لم يصلنا منه إلا النذر اليسير ، ومن أشهر هذه المؤلفات .

- كتاب البداية والنهاية ، وهو يعد من أهم المراجع التاريخية ، استقى منه جميع المؤرخين ممن أتوا بعده ، حيث اعتمد فيه على منهج المحدثين في ذكر سلسلة السند حيث قام بدمج التاريخ بالرواية والتفسير .
- الاجتهاد في طلب الجهاد الذي حكى فيه أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين خلال القرن الثامن ، ويعتبر الكتاب وثيقة تاريخية ؛ نظرًا لأن مؤلفها قد عاصر الأحداث .
- اختصار علوم الحديث الذي اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث .
- السيرة النبوية الذي أخرج من كتابه البداية والنهاية .
- أحاديث التوحيد والرد على الشرك .
- جامع المسانيد .
- طبقات الشافعية .
- **هذا إضافة إلى غيرها من الكتب المفقودة مثل :**

- التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل .
- الكواكب الدراري في التاريخ .
- سيرة الشيخين .
- الواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بن إدريس .
- شرح صحيح البخاري .

وغيرها من الكتب التي ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون والداوودي في طبقات المفسرين والسيوطي في ذيل تذكرة الحفاظ .

ويأتي على رأس مصنفاته تفسير القرآن العظيم المشهور بتفسير ابن كثير .

رأي علماء عصره فيه :

- قال عنه الداودي في طبقات المفسرين : (كان أحفظ من أدركناه لمتون الحديث ، وأعرفهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه يعترفون بذلك ... وكان (فقيها جيد الفهم ، صحيح الدين) .
- وقال عنه النعيمي : (وكانت له أجوبة مسكتة) .
- وقال عنه الحافظ الذهبي : (خرج وناظر وصنف وفسر وتقدم) وقال أيضًا : (الإمام المفتي المحدث البارع ، فقيه متفنن ، ومحدث متقن ، ومفسر نقال) .
- وقال عنه أبو المحاسن الحسيني : (أفتى ودرس وناظر وبدع في الفقه والتفسير والنحو ، وأمعن النظر في الرجال والعلل) .
- وقال عنه السيوطي : (له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله) .
- وقال عنه السبكي : (اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ وبينهم عموم وخصوص : المزي والبرزالي والذهبي ، والشيخ الوالد (يقصد ابن كثير) لا خامس لهم في عصرهم) .

أسلوبه في الحياة :

كان يتحاشى الإدلاء برأيه الصريح في القضايا السياسية ؛ لذا فقد امتنع عند الإفتاء في أمور كثيرة كانت ستؤدي إلى الانقلاب على السلطان ، والثورة عليه ، كما كان يمتنع عن الإفتاء ضد أي قاض ؛ لأن في الفتوى تشويش على الحكام [١] .

وعلى الرغم من تحفظه في إبداء رأيه حول التغيير إلا أنه كان صريحًا في التعامل .

منهجه في التفسير :

غلب على أسلوبه طابع التحديث ويتضح ذلك في مؤلفاته الكثيرة التي بين أيدينا ، فقد اشتملت هذه المصنفات على موسوعة تفسيرية وحديثية وتاريخية ، ويتضح ذلك بشكل كبير في تفسيره الذي

---

(١) البداية (٢١٦/١٤) .

حرص أن يفسر فيه القرآن بالقرآن ثم بالسنة الصحيحة ثم بأقوال السلف الصالح .

وفاته :

توفي الإمام الحافظ حجة عصره أبو الفداء إسماعيل بن كثير في (شعبان ٧٧٤ هـ) عن عمر يقارب ٧٣ سنة ، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه الإمام تقي الدين ابن تيمية ورثاه بعض طلابه بقوله :

لفَقْدِك طلابُ العلومِ تأَسَّفُوا ... وجادوا بدمعٍ لا يَبيدُ غزير

ولو مَزَجُوا ماءَ المدامعِ بالدِّما ... لكان قليلًا فيكَ يا ابن كثير

منهج الاختصار والتحقيق

أولًا : الاختصار :

اعتمدنا في اختصار هذا الكتاب على خمس نسخ مختلفة ، قديمة وحديثة لتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) حتى نتفادى أي خطأ أو سقط في أي نسخة من النسخ .

اختصرنا الكتاب على النحو التالي :

١ - قمنا بحذف سلسلة السند كلها عدا راوي الحديث أو الأثر .

٢ - حذفنا جميع الإسرائيليات الموجودة بالكتاب ، سواء كانت هذه الإسرائيليات أخبارًا أو آثارًا .

٣ - قمنا بحذف جميع الأحاديث الموضوعة والمنكرة .

٤ - قمنا بحذف جميع الأحاديث الضعيفة التي ليس لها ما يقويها من السند ، وأبقينا على الحديث الضعيف الذي له روايات أخرى تقويه عملًا بالقول القائل : (الأحاديث الضعيفة يقوي بعضها بعضًا) . وكذلك أبقينا على الأحاديث الضعيفة المشتهرة على ألسنة الناس ، وقد أشرنا إلى ضعف هذه الأحاديث في الهامش ، وذلك حتى يعلم القارئ وضع هذه الأحاديث وضعفها .

٥ - قمنا بحذف الأحاديث المكررة بنفس المعنى ، وكان اختيارنا لأصح هذه الأحاديث ، وإذا كان الحديث مكررًا لمرات كثيرة كنا نبقي على حديثين أو ثلاثة ، وذلك حتى لا يتعرض القارئ للضجر أو الملل مع المحافظة على الانسجام والترابط في المعنى .

ثانيًا : التحقيق :

- قمنا بضبط الأحاديث النبوية والآثار ضبطًا كاملًا حتى نسهل على القارئ نطق الحديث أو الأثر بشكله الصحيح ، ورغبة في الوصول إلى المعنى بدقة ووضوح .

٢ - قمنا بتخريج جميع الأحاديث والآثار الواردة في الكتاب تخريجًا علميًا من المصادر الأصيلة ، حيث قمنا بذكر اسم الكتاب ورقم الحديث ، وإذا كان الكتاب غير مقسم إلى أبواب كمسند الإمام أحمد ، فقد قمنا بذكر الجزء ورقم الصفحة .

٣ - قمنا بتخريج جميع القراءات القرآنية الموجودة في الكتاب من مصادرها الأصلية ، وعزونا القراءة إلى قارئها ، وذكرنا القراءات المختلفة في اللفظ الواحد ، وذكرنا مصدرنا في هذا التخريج بذكر اسم الكتاب ورقم الجزء أو الصفحة ، وأعددنا فهرسًا لها في نهاية الكتاب .

٤ - قمنا بعزو الشعر إلى قائليه على قدر ما أتيح لنا ، وذكرنا مكان هذا الشعر وقائليه ، والكتب التي ذكر فيها .

٥ - قمنا بشرح غريب الألفاظ التي رأينا أن قارئ اليوم ربما لا يعرفها ، فشرحنا معانيها ومقصودها في الآية أو الحديث ، وذلك بعد الرجوع إلى كتب غريب الحديث وأمهات معاجم اللغة كلسان العرب والقاموس المحيط والمعجم الوسيط وغيرها .

٦ - اعتمدنا في تخريج بعض الآثار على كتب التفسير الكبيرة مثل : تفسير الطبري والدر المنثور للسيوطي وتفسير القرطبي ، وذلك لتوثيق الأثر وبيان وجوده ، وذلك بذكر الجزء والصفحة .

٧ - قمنا بإعداد فهارس علمية للكتاب جمعنا فيها جميع الأحاديث والآثار الواردة بالكتاب ، مرتبة ترتيبًا ألفبائيًا ، وذلك بذكر طرف الحديث أو الأثر ، ومكان وجوده في الكتاب بذكر الجزء والصفحة . وإذا كان الحديث أو الأثر ذكر أكثر من مرة في الاستشهاد ، فإننا نذكر مكان وجوده ، وذلك بهدف عموم الفائدة وسهولة الوصول إلى مواضع الأحاديث والآثار داخل الكتاب .

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا

قسم التحقيق والمراجعة بدار السلام

أحمد عبد الرازق البكري   محمد عادل محمد   محمد عبد اللطيف خلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة ابن كثير

قال الشيخ الإمام الأوحد ، البارع الحافظ المتقن ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب أبي حفص عمر بن كثير البصروي الشافعي ، رحمه الله تعالى ورضي عنه :

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ وافتتح خلقه بالحمد فقال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ واختتمه بالحمد فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ فله الحمد في الأولى والآخرة ، أي في جميع ما خلق وما هو خالق ، هو المحمود في ذلك كله كما يقول المصلي « اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد » ولهذا يُلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يُلهمون النَّفَس ، أي يسبِّحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم ؛ لما يرون من عظيم نعمه عليهم ، وكمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، وتوالي مننه ، ودوام إحسانه إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

والحمد لله الذي أرسل رسله ﴿ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ وختمهم بالنبي الأمي العربي المكّي الهادي لأوضح السبل ، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن ، من لدن بعثته إلى قيام الساعة كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم ، وأسود وأحمر ، وإنس وجان ، فهو نذير له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده ، بنص الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ وقال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ » [1] قال مجاهد : يعني الإنس والجن . فهو صلوات الله وسلامه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده(١١٦/٤) ، وابن حبان في صحيحه(٢٠٠) والهيثمي في مجمع الزوائد(٦٥/٦) .

عليه رسول الله إلى جميع الثقلين : الإنس والجن ، مبلِّغًا لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى تفهُّمه فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ .

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك ، وطلبه من مظانه ، وتعلُّم ذلك وتعليمه كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فذمّ الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم بغير ما أُمروا به من اتباع كتاب الله .

فعلينا - أيها المسلمون - أن ننتهي عمّا ذمَّهم الله تعالى به ، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلُّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه ، وتفهُّمه وتفهيمه ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها ، كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي ، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم .

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟

فالجواب : إنَّ أصح الطرق في ذلك أن يفسَّر القرآن بالقرآن ، فما أُجمِلَ في مكانٍ فإنه قد بسط في موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنَّة ؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمّد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى : كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » (١) يعني السنّة . والسنة أيضًا تنزل عليهم بالوحي كما ينزل القرآن إلّا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن ، وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنّة كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « فَبِمَ تَحْكُمُ ؟ » قال : بكتاب الله . قال : « فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ » قال بسنّة رسول الله ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣١/٤) ، وأبو داود في السنن (السنة ب ٦) بلفظ : « أوتيت الكتاب » .

قال : « فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ » قال : أجتهد رأيي ، قال : فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال : « الحَمْدُ لله الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّه لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّه »[(١)] . وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنّة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح ، لا سيّما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود ﷺ . قال ابن مسعود : والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلّا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلمُ مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته . وقال أيضًا : كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : حدَّثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ ، وكانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا .

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ، ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ »[(٢)] وعن عبد الله بن مسعود قال : نعم الترجمان للقرآن ابن عبّاس . وقد مات ابن مسعود ﷺ في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح ، وعمَّر بعده عبد الله بن عباس ستًّا وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود . وقال أبو وائل : استخلف عليٌّ عبدَ الله بن عباس على . الموسم ، فخطب الناس ، فقرأ في خطبته سورة البقرة ، وفي رواية : سورة النور ، ففسرها تفسيرًا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السّدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين : ابن مسعود وابن عبّاس ، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله حيث قال : « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ »[(٣)] ولهذا كان عبد الله بن عمرو ﷺ قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك .

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد ، فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ؛ فذاك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ؛ فلا نؤمن به ولا نكذّبه ، ويجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرًا ، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعددهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياها الله

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧/١) وأبو داود في السنن (الأقضية ١٩) وابن ماجه في السنن (مناسك ٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٧٥) ومسلم في فضائل الصحابة (١٣٨) وأحمد في مسنده (٣٢٧/١) .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) والترمذي في السنن (٢٦٦٩) والدارمي في السنن (١٣٦/١) .

لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلَّم اللَّه منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه اللَّه تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم . ولكن نَقْلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا ، فإنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال ضعَّف القولين الأولين وسكت عن الثالث ، فدل على صحته ؛ إذ لو كان باطلًا لرده كما ردهما ، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته فقال في مثل هذا : ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلَّا قليل من الناس ممن أطلعه اللَّه عليه فلهذا قال : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك ؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلَّا رجم الغيب ؛ فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف ، أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام ، وأن تنبه على الصحيح منها ، وتبطل الباطل ، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فتشتغل به عن الأهم فالأهم .

فأما من حكى خلافًا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ؛ إذ قد يكون الصواب في الذي تركه . أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضًا ، فإن صحح غير الصحيح عامدًا فقد تعمد الكذب ، أو جاهلًا فقد أخطأ . وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالًا متعددة لفظًا ، ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان ، وتكثَّر بما ليس بصحيح ، فهو كلابس ثوبي زور ، واللَّه الموفق للصواب .

فصل : إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر ؛ فإنه كان آية في التفسير ، كما قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته ، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها . وقال ابن أبي مليكة : رأيت مجاهدًا سأل ابن عبّاس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه قال : فيقول له ابن عباس : اكتب ، حتى سأله عن التفسير كله . ولهذا كان سفيان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . وكسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء ابن أبي رباح ، والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيَّب ، وأبي العالية ، والربيع ابن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم ، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافًا فيحكيها أقوالًا ، وليس كذلك ؛ فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه ، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك واللَّه الهادي .

وقال شعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير ؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم وهذا صحيح . أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض ولا على من

بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنَّة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك .

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام لما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ ؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » [١] وعن جندب أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَقَدْ أَخْطَأَ » . وفي لفظ لهم « مَنْ قَالَ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ » [٢] أي لأنه قد تكلَّف ما لا علم له به وسلك غير ما أُمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرمًا ممن أخطأ والله أعلم . وهكذا سمى الله القذفة كاذبين فقال : ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فالقاذف كاذب ، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر ؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ، ولو كان أخبر بما يعلم ؛ لأنه تكلف ما لا علم له به والله أعلم . ولهذا تحرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روي عن أبي معمر قال : قال أبو بكر الصدّيق ﷺ : وأيّ أرض تقلّني ؟ وأي سماء تظلني ؟ إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم . وعن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصدِّيق سئل عن قوله تعالى ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني ؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم . وعن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر . وقال حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : كنا عند عمر بن الخطاب ﷺ وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : فما الأب ، ثم قال : إن هذا لهو التكلف فما عليك أن لا تدريه ؟ .

وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب ، وإلا فكونه نبتًا من الأرض ظاهر لا يجهل كقوله تعالى : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا ﴾ الآية . وعن ابن عبّاس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبى أن يقول فيها .

وعن ابن أبي مليكة قال : سأل رجل ابن عبّاس ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فقال له ابن عبّاس : فما ﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فقال له الرجل : إنما سألتك لتحدثني ، فقال ابن عبّاس : هما يومان ذكرهما الله في كتابه ، الله أعلم بهما ، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم . وعن الوليد بن مسلم قال : جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن ؟ فقال : أحرج عليك إن كنت مسلمًا لما قمت عني ، أو قال : أن تجالسني . وعن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سُئل عن تفسير آية من القرآن قال : إنا لا نقول في القرآن شيئًا . وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلَّا في المعلوم من القرآن . وعن عمرو بن مرة قال : سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال : لا تسألني عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء يعني عكرمة . وعن يزيد بن أبي يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥١) وأحمد في مسنده (٢٣٣/١) والطبراني في الكبير (١٧٥/٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (العلم باب ٥) .

القرآن سكت كأن لم يسمع . وعبيد الله بن عمر قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير ، منهم : سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمّد ، وسعيد بن المسيب ، ونافع . وعن هشام بن عروة قال : ما سمعت أبي يؤول آية من كتاب الله قط . وقال محمّد بن سيرين : سألت عبيدة يعني السلماني عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أُنزل القرآن ، فاتق الله وعليك بالسداد . وعن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال : إذا حدثت عن الله حديثًا فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده ، وعن مغيرة عن إبراهيم قال : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه . وقال الشعبي : والله ما من آية إلّا وقد سألت عنها ولكنها الرواية عن الله ﷻ وعن مسروق قال : اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله .

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه . فأما من تكلّم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه ، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ، ولا منافاة ؛ لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عمّا لا علم له به ، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ ولما جاء في الحديث الذي روي من طرق « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ »[1] .

وأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير عن عائشة قالت : ما كان النبيّ ﷺ يفسر شيئًا من القرآن إلّا آيات بعدد ، علمهن إياه جبريل عليه السلام . فإنه حديث منكر غريب وجعفر هذا هو ابن محمّد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيري ، قال البخاري : لا يتابع في حديثه ، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي : منكر الحديث ، وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلّا بالتوقيف عن الله تعالى مما وقفه عليها جبرائيل ، وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث ؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه ، ومنه ما يعلمه العلماء ، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ، ومنه ما لا يعذر أحد في جهالته كما صرح بذلك ابن عبّاس عن أبي الزناد قال : قال ابن عبّاس : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه أحد إلّا الله .

مقدمة مفيدة

تذكر في أول التفسير قبل الفاتحة

عن قتادة قال : نزل في المدينة من القرآن : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ، و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ إلى رأس العشر و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ و ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ هؤلاء السور نزلت بالمدينة وسائر السور

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٩٥) والترمذي في السنن (٢٦٤٩) .

بمكة .

فأمّا عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية ، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال : فمنهم من لم يزد على ذلك ، ومنهم من قال : ومائتا آية وأربع آيات ، وقيل : وأربع عشرة آية ، وقيل : ومائتان وتسع عشرة آية ، وقيل ومائتان وخمس وعشرون آية ، أو ست وعشرون آية ، وقيل : ومائتان وست وثلاثون آية ، حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه البيان . وأما كلماته فقال عطاء ابن يسار : سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة . وأما حروفه فقال مجاهد : هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثمائة ألف حرف وواحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفًا ، وقال الفضل عن عطاء بن يسار : ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفًا وخمسة عشر حرفًا . وقال سلام أبو محمّد الحماني : إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتّاب فقال : أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو ؟ قال : فحسبنا فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف حرف وأربعون ألفًا وسبعمائة وأربعون حرفًا ، قال : فأخبروني عن نصفه فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ وثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة ، والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء ، والثالث إلى آخره ، وسُبُعُه الأول إلى الدال من قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ والسبع الثاني إلى الباء من قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ ﴾ والثالث إلى الألف الثانية من قوله تعالى في الرعد : ﴿ أُكُلُهَا ﴾ والرابع إلى الألف في الحج من قوله : ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ والسادس إلى الواو من قوله تعالى في الفتح : ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ والسابع إلى آخر القرآن .

وأما التحزيب والتجزئة : فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس وغيرها وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن ، والحديث في مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه وغيرهم عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته : كيف تحزّبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل من قاف حتى تختم [١] .

فصل : واختلف في معنى السورة مما هي مشتقة ؟ فقيل : من الإبانة والارتفاع ، قال النابغة :

ألم تر أن اللّه أعطاكَ سورةً ... ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذبُ

فكان القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة . وقيل : لشرفها وارتفاعها كسور البلدان . وقيل : سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءًا منه مأخوذ من أسآر الإناء وهو البقية ، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزًا ، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واوًا لانضمام ما قبلها . وقيل : لتمامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة . (قلت) : ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما يسمى سور البلد لإحاطته بمنازله ودوره . وجمع السورة سور بفتح الواو وقد تجمع على سورات

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٩) وابن ماجه في السنن (إقامة ١٧٨) .

وسوّرات .

وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله ، أي هي بائنة عن أختها ومنفردة ، قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ ﴾ وقيل : لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه كما يقال : خرج القوم بآياتهم أي بجماعاتهم قال الشاعر :

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا

وقيل : سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها ، قال سيبويه : وأصلها أيية مثل أكمة وشجرة ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفًا فصارت آية بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائي : أصلها آيية على وزن آمنة فقلبت ألفًا ثم حذفت لالتباسها . وقال الفراء : أصلها أيّية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفًا كراهية التشديد فصارت آية وجمعها آي وآيات وآياي .

وأما الكلمة فهي اللفظة الواحدة وقد تكون على حرفين مثل ما ولا ولك . وقد تكون أكثر ، وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ و ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ و ﴿ فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ ﴾ . وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾ وكذلك ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ طه ﴾ و ﴿ يسٓ ﴾ و ﴿ حمٓ ﴾ في قول الكوفيين و ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾ عندهم كلمتان وغيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول : هذه فواتح السور ، وقال أبو عمرو الداني : لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ بسورة الرحمن .

فصل : قال القرطبي : أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية ، وأجمعوا أن فيه أعلامًا من الأعجمية كإبراهيم ونوح ولوط ، واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالا : ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات .

سورة الفاتحة

يقال لها : (الفاتحة) أي فاتحة الكتاب خطًا وبها تفتح القراءة في الصلوات ، ويقال لها : (أم الكتاب) عند الجمهور وقد ثبت ذلك في الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « الحَمْدُ للَّه ربِّ العَالَمِينَ أمُّ القُرْآن ، وَأمُّ الكتابِ ، وَالسَّبعُ المَثَاني ، وَالقُرْآنُ العَظيم » [(١)] ويقال لها : (الحمد) ويقال لها : (الصلاة) لقوله ﷺ عن ربه : « قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْني وَبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ، فإذا قالَ العَبْدُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قالَ اللَّه : حَمِدَني عَبْدِي » [(٢)] فسميت الفاتحة : صلاة لأنها شرط فيها . ويقال لها (الشفاء) لما روي عن أبي سعيد مرفوعًا « فَاتِحَةُ الكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُمٍّ » [(٣)] ويقال لها : (الرقية) لقوله ﷺ : لرجل رقى بها « وَمَا يُدرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟ » [(٤)] وروى الشعبي عن ابن عبّاس أنه سماها : (أساس القرآن) قال :وأساسها بسم اللَّه الرَّحمن الرَّحيم ، وسماها سفيان بن عيينة (بالواقية) وسماها يحيى بن أبي كثير (الكافية) لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها ، كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة « أم القرآن عوض من غيرها وليس من غيرها عوض منها » [(٥)] .

وهي مكية وقيل : مدنية ويقال : نزلت مرتين : مرة بمكة ومرة بالمدينة . والأول أشبه لقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ وهي سبع آيات بلا خلاف ، واختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها ، أو بعض آية ، أو لا تعد من أولها بالكلية ، والفقهاء على ثلاثة أقوال كما سيأتي تقريرها في موضعه إن شاء اللَّه تعالى .

وكلماتها خمس وعشرون كلمة ، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفًا . وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف ، ويبدأ بقراءتها في الصلاة ، وقيل : إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته . قال ابن جرير : والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع : أمًّا ، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ : أم الرأس ، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أمًّا ومنه قول ذي الرمة :

على رأسه أم لنا نقتدي بها ... جماع أمور ليس نعصي لها أمرًا

وسميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها ، وقيل : لأن الأرض دحيت منها . وصح تسميتها بالسبع المثاني ؛ لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة .

عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال في أم القرآن : « هِيَ أُمُّ القُرْآنِ ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَاني ، وَهِيَ القُرْآنُ العَظِيمُ » [(٦)] . وعن أبي هريرة أيضًا قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « الحَمْدُ للَّه رَبِّ العَالَمِينَ سَبْعُ آيَاتٍ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إِحْدَاهُنَّ ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَاني وَالقُرْآنُ العَظِيمُ ، وَهِيَ أُمُّ الكِتَابِ ، وَفَاتِحَةُ الكِتَابِ » [(٧)] وروى عن علي وابن عبّاس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى : ﴿ سَبْعًا

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٤٥٧) والهندي في كنز العمال (٢٥٠٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥٣) والبيهقي في السنن (٢/٣٧) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٣٦٧) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/٥) ، والعجلوني في كشف الخفا (٢/١٠٦) .

(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٧) ومسلم في فضائل الصحابة (١٦٩) وأبو داود في السنن (٣١٨٥) والترمذي في السنن (٢٠٦٤) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/٢٣٨) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٤٨) .

(٧) أخرجه البيهقي في السنن (٢/٤٥) والهندي في كنز العمال (٢٥١٩) .

﴿مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ بالفاتحة وأن البسملة هي الآية السابعة منها ، وقيل لابن مسعود : لَمَ لمْ تكتب الفاتحة في مصحفك ؟ فقال : لو كتبتها لكتبتها في أول كل سورة ، يعني حيث يقرأ في الصلاة ، قال : واكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها وقد قيل : إن الفاتحة أول شيء أنزل من القرآن .

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

عن أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال : كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ ، فلم أجبه حتى صليت قال : فأتيته فقال : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي ؟ » قال : قلت : يا رسول الله إني كنت أصلي قال : « ألم يقل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ » ثم قال : « لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ » قال : فأخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت : لأعلمنَّك أعظم سورة في القرآن قال : « نَعَم ، ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُه » (١) .

وعن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا أَنْزَلَ اللَّه فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ القُرْآنِ ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ » (٢) . وعن جابر قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهرق الماء فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، فلم يرد عليَّ قال : فقلت : السلام عليك يا رسول الله فلم يرد عليَّ قال : فقلت : السلام عليك يا رسول الله فلم يرد عليَّ قال : فانطلق رسول الله ﷺ يمشي وأنا خلفه حتى دخل رحله ، ودخلت أنا المسجد فجلست كئيبًا حزينًا فخرج عليَّ رسول الله ﷺ وقد تطهر فقال : « عَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ ، وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ ، وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّه » ثم قال : « أَلاَ أُخْبِرُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَابِرٍ بِأَخْيَرِ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ ؟ » قلت : بلى يا رسول الله قال : « اقْرَأْ الحَمْدُ للَّه رَبِّ العَالَمِينَ حَتَّى تَخْتِمَهَا » (٣) .

وعن أبي سعيد الخدري قال : كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحي سليم وإن نفرنا غيب ، فهل منكم راق ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبه برقيه فرقاه فبرأ فأمر له بثلاثين شاة وسقانا لبنًا فلما رجع قلنا له : أكنت تحسن رقية أو كنت ترقي ؟ قال : لا ما رقيت إلا بأم الكتاب قلنا : لا تحدثوا شيئًا حتى نأتي ونسأل رسول الله ﷺ ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال : « وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْم » (٤) .

وعن ابن عبّاس قال : بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل إذ سمع نقيضًا فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال : فنزل منه ملك فأتى النبيّ ﷺ فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفًا منها إلا أوتيته (٥) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٥٠) وابن خزيمة في صحيحه (٨٦٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٢٥) والنسائي في السنن (٢/١٣٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٧٧) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٨١ ، ٣١٠) .

(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٧) . (٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٦) .

الكلامُ على مَا يَتَعلَّقُ بِهذَا الحَدِيثِ مِما يَخْتَصُّ بِالفَاتِحَةِ مِنْ وُجُوه

أحدها : أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة ، والمراد القراءة كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ أي بقراءتك . كما جاء مصرحًا به في الصحيح عن ابن عبّاس ، وهكذا قال في هذا الحديث : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » ثم بيَّن تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة ، فدل على عظمة القراءة في الصلاة ، وأنها من أكبر أركانها ؛ إذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة ، كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ، والمراد صلاة الفجر . كما جاء مصرحًا به في الصحيحين « أَنَّه يَشْهَدُهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ » (١) فدل هذا كله على أنه لابد من القراءة في الصلاة ، وهو اتفاق من العلماء ، ولكن اختلفوا في مسألة نذكرها في الوجه الثاني ، وذلك أنه هل يتعين للقراءة في الصلاة غير فاتحة الكتاب أم تجزئ هي أو غيرها ؟ على قولين مشهورين :

القول الأول : فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم ، أنها لا تتعين ، بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه في الصلاة ، واحتجوا بعموم قوله تعالى : ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة في قصة المسيء في صلاته أن رسول الله ﷺ قال له : « إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ » (٢) قالوا : فأمره بقراءة ما تيسّر ، ولم يعيِّن له الفاتحة ، ولا غيرها فدل على ما قلنا .

والقول الثاني : أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ، ولا تجزئ الصلاة بدونها ، وهو قول بقية الأئمة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم ، وجمهور العلماء ، واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور حيث قال صلوات الله وسلامه عليه : « مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ » (٣) والخداج هو الناقص كما فُسِّر به في الحديث « غير تمام » ، واحتجوا أيضًا بما روي عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ » (٤) .

ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم أنه تجب قراءتها في كل ركعة ، وقال آخرون : إنما تجب قراءتها في معظم الركعات ، وقال الحسن وأكثر البصريين : إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات أخذًا بمطلق الحديث « لا صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ » وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي : لا تتعين قراءتها ، بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله تعالى : ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ وقد روي عن أبي سعيد مرفوعًا « لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِالحَمْدِ وَسُورَةٍ فِي فَرِيضَةٍ أَوْ غَيْرِهَا » (٥) .

والوجه الثالث : هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٥٧) ، (٢/٣١٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٢) والبيهقي في السنن (٢/٣٨٠) ، والطبراني في الكبير (٥/٣٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨) والترمذي في السنن (٣١٢) وأبو داود في السنن (٨٢١) .

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) وأبو داود في السنن (٨٢٢) والترمذي في السنن (٢٤٧) .

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (٧٣٧) والبغوي في شرح السنة (٣/٤٥) .

أحدها : أنه تجب عليه قراءتها ، كما تجب على إمامه لعموم الأحاديث المتقدمة .

والثاني : لا تجب على المأموم قراءة بالكلية للفاتحة ولا غيرها ، لا في صلاة الجهرية ، ولا في صلاة السرية لما روي عن جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ أنه قال : « مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَةُ الإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ » (١) .

والقول الثالث : أنه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم ، ولا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا ، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا » (٢) ، وهو قول قديم للشافعي ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل .

والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور . وروي عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا وَضَعْتَ جَنْبَكَ عَلَى الفِرَاشِ وَقَرَأْتَ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فَقَدْ أَمِنْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا المَوْت » (٣) .

تَفْسِيرُ الاسْتِعَاذَةِ وَأَحْكَامِهَا

قال الله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها ، وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي ، والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة ؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانًا ، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وقال : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ وقد أقسم للوالد آدم ﷺ أنه له لمن الناصحين ، وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ .

قالت طائفة من القراء وغيرهم : يتعوذ بعد القراءة ، واعتمدوا على ظاهر سياق الآية ، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة ، وعن مالك رحمه الله : أن القارئ يتعوذ بعد الفاتحة ، واستغربه ابن العربي ! . وحكى قولا ثالثًا ، وهو الاستعاذة أولًا وآخرًا جمعًا بين الدليلين ، والمشهور الذي عليه الجمهور ، أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس عنها ، ومعنى الآية عندهم ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٨٥٠) والبيهقي في السنن (١٦٠/٢) والألباني في الضعيفة (٥٩١) .
(٢) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١١٣) ومسلم في الصلاة (٧٩ ، ٨٠) وأبو داود في السنن (٦٠٣) .
(٣) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٦/١) .

ﵟٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِﵞ أي إذا أردت القراءة ، كقوله تعالى : ﵟإِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡﵞ الآية أي إذا أردتم القيام ، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك . فعن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبّر قال : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ ، وَلاَ إِلَه غَيْرُكَ ، ثُمَّ يَقُولُ : لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّه - ثَلاثًا ثُمَّ يَقُولُ - أَعُوذُ بِاللَّه السَّمِيعِ العَلِيمِ ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، مِنْ هَمْزِه وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ » [(١)] ، وقال الترمذي : هو أشهر شيء في هذا الباب ، وقد فسّر الهمز بالموتة وهي الخنق ، والنفخ بالكبر ، والنفث بالشعر . وعن جبير بن مطعم قال : رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة قال : « اللَّه أَكْبَرُ كَبِيرًا - ثَلاثًا - الحَمْدُ للَّه كَثِيرًا - ثَلاثًا - سُبْحَانَ اللَّه بُكْرَةً وَأَصِيلاً - ثَلاثًا - اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ » [(٢)] قال عمر : وهمزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر . وعن معاذ بن جبل ﷺ قال : استب رجلان عند النبيّ ﷺ فغضب أحدهما غضبًا شديدًا حتى يخيل إليّ أن أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه فقال النبيّ ﷺ : « إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ مِنَ الغَضَبِ » فقال : ما هي يا رسول الله ؟ قال : يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم » قال : فجعل معاذ يأمره فأبى وجعل يزداد غضبًا [(٣)]

وقد روي أن جبريل عليه السلام أول ما نزل بالقرآن على رسول الله ﷺ أمره بالاستعاذة .

مسألة : وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة يأثم تاركها . وحكى الرازي عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال : وقال ابن سيرين : إذا تعوّذ مرة واحدة في عمره ، فقد كفى في إسقاط الوجوب ، واحتج الرازي لعطاء بظاهر الآية ﵟفَٱسۡتَعِذۡﵞ وهو أمر ظاهره الوجوب ، وبمواظبة النبيّ ﷺ عليها ، ولأنها تدرأ شر الشيطان ، وما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب ؛ ولأن الاستعاذة أحوط ، وهو أحد مسالك الوجوب ، وقال بعضهم : كانت واجبة على النبيّ ﷺ دون أمته ، وحكي عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة ، ويتعوذ لقيام رمضان في أول ليلة منه .

مسألة : وقال الشافعي في الإملاء : يجهر بالتعوذ ، وإن أسرَّ فلا يضر ، وقال في الأم بالتخيير ؛ لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة ، واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى هل يستحب التعوذ فيها على قولين ؟ ورجح عدم الاستحباب ، والله أعلم ، فإذا قال المستعيذ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة ، وزاد بعضهم : أعوذ بالله السميع العليم ، وقال آخرون : بل يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إن الله هو السميع العليم . وحكي عن بعضهم أنه يقول : أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ لمطابقة أمر الآية .

مسألة : ثم الاستعاذة في الصلاة ، إنما هي للتلاوة وهو قول أبي حنيفة ومحمّد . وقال أبو

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦٩/٣) والترمذي في السنن (٢٤٢) وأبو داود في السنن (٧٧٥) وابن ماجه في السنن (٨٠٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٢٠) وأبو داود في السنن (٧٦٤) والحاكم في المستدرك (٤٣٥/١) ، ابن ماجه في السنن (٨٠٧) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٨٠) والطبراني في الكبير (١١٦/٧) والترمذي في السنن (٣٤٥٢) .

يوسف : بل للصلاة ؛ فعلى هذا يتعوذ المأموم ، وإن كان لا يقرأ ، ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد . والجمهور بعدها قبل القراءة .

ومن لطائف الاستعاذة : أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث ، وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة ، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه ، ولا يقبل مصانعة ، ولا يدارى بالإحسان ، بخلاف العدو من نوع الإنسان ، كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ ، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيدًا ، ومن قتله العدو الباطني كان طريدًا ، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجورًا ، ومن قهره العدو الباطني كان مفتونًا أو موزورًا ، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان .

فصل : والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى ، والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر ، والعياذة تكون لدفع الشر ، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي :

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ   وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّنْ أُحَاذِرُهُ
لاَ يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ   وَلاَ يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي ، أو يصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه . فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ، ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن ؛ لأنه لا يقبل رشوة ، ولا يؤثر فيه جميل ؛ لأنه شرير بالطبع ، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه . وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة ؛ قوله في الأعراف : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر ثم قال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ .

والشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر ، وبعيد بفسقه عن كل خير .

ولهذا يسمون كل من تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطانًا ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ ، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذرٍ تَعوذْ باللهِ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ » فقلت : أو للإنس شياطين ؟ قال : « نعم » (١) . وعن أبي ذر أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقْطَعُ الصَّلاَةَ : المَرْأَةُ ، والحِمَارُ ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٦٥) والنسائي في السنن (٨/٢٧٥) .

والكَلْبُ الأَسْوَدُ » فقلت : يا رسول الله ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال : « الكَلْبُ الأَسْوَدِ شَيْطَانٌ » (١) .

والرجيم فعيل بمعنى مفعول أي أنه مرجوم مطرود من الخير كله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة(٢٦٦) وأحمد في مسنده(٨٦/٤) والبيهقي في السنن(٢٧٤/٢) والزيعلي في نصب الراية(٨١/٢) .

تفسير البسمَلة وأحكامها

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ افتتح بها الصحابة كتاب الله ، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة ، أو من أول كل سورة كتبت في أولها ؟ أو أنها بعض آية من كل سورة ، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها ، أو أنها إنما كتبت للفصل لا أنها آية ؟ والعلماء في ذلك على أقوال : فعن ابن عبّاس ﵄ ، أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ (١) . وعن أم سلمة ﵂ أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة ، وعدها آية .

وممن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلّا براءة : ابن عبّاس وابن عمر وابن الزبير وأبو هريرة وعلي ، ومن التابعين عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري ، وبه يقول عبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد ابن حنبل وغيرهم .

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور ، وقال داود : هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها ، وهذا رواية عن الإمام أحمد بن حنبل ، وحكاه أبو بكر الرازي عن أبي الحسن الكرخي وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله .

فأما الجهر بها فمفرع على هذا فمن رأى أنها ليست من الفاتحة ، فلا يجهر بها ، وكذا من قال : إنها آية في أولها ، وأما من قال : بأنها من أوائل السور ، فاختلفوا ؛ فذهب الشافعي ﵀ إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة ، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين سلفًا وخلفًا فجهر بها من الصحابة : أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية ، ومن التابعين عن سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والزهري ، وعلي بن الحسن وسعيد بن المسيب ، وعطاء وطاوس ومجاهد ، وغيرهم كثيرون ، والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة فيجهر بها كسائر أبعاضها ، وروي عن أبي هريرة : أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة وقال بعد أن فرغ : إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ ، وروي عن ابن عبّاس ، أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم ، وعن ابن عبّاس قال : كان رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم (٢) .

وعن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبيّ ﷺ فقال : كانت قراءته مدًّا ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم (٣) . وعن أم سلمة ﵂ قالت : كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٤) . وعن أنس أن معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة ، فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك ، فلما صلى المرة الثانية بسمل . وذهب آخرون أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل وطوائف من سلف التابعين والخلف ، وهو مذهب أبي حنيفة والثوري وأحمد بن حنبل . وعند الإمام مالك أنه لا يقرأ البسملة

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٧٨٨) والبيهقي في السنن (٢/٤٢) .
(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (١/٣٠٢) . (٣) أخرجه الدارقطني في السنن (١/٣٠٨) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣٠٢) والترمذي في السنن (٢٩٤٧) والحاكم في المستدرك (٢/٢٣٢) .

بالكلية لا جهرًا ولا سرًّا ، واحتجوا بما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بالحمد لله رب العالمين (١) ، وبما ورد عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ، فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين ، ولمسلم : لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها (٢) .

فَصْلٌ في فَضْلِهَا

عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم؟ فقال : « هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّه وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اسْمِ اللَّه الأَكْبَرِ إِلَّا كَمَا بَيْنَ سَوَادِ العَيْنَيْنِ وَبَيَاضِهِمَا مِنَ القُرْبِ » (٣) وعن عاصم قال : سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف النبيّ ﷺ قال : عثر بالنبيّ ﷺ ، فقلت : تعس الشيطان ، فقال النبيّ ﷺ : « لاَ تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : تَعِسَ الشَّيْطَانُ ، تَعَاظَمَ وَقَالَ : بِقُوَّتِي صَرَعْتُهُ ، وَإِذَا قُلْتَ : بِاسْمِ اللَّه ؛ تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ » (٤) . فهذا من تأثير بركة بسم الله ، ولهذا تُستحب في أول كل عمل وقول . فتستحب في أول الخطبة ، وتستحب البسملة عند دخول الخلاء . وتستحب في أول الوضوء ، لما ورد عن أبي هريرة مرفوعًا : « لاَ وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّه عَلَيْهِ » (٥) .

ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا ، ومنهم من قال بوجوبها مطلقًا . وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة ، وأوجبها آخرون عند الذكر ومطلقًا في قول بعضهم . وتستحب عند الأكل لما ورد أن رسول الله ﷺ قال لربيبه عمر بن أبي سلمة : « قُلْ بِاسْمِ اللَّه ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ » (٦) ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه ، وكذلك تستحب عند الجماع ؛ لما ورد عن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ قال : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ : بِاسْمِ اللَّه ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا » (٧) .

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالباء في قوله : باسم الله هل هو اسم أو فعل متقاربان ، وكل قد ورد به القرآن ، أما من قدّره باسم تقديره باسم الله ابتدائي ، فلقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ، ومن قدّره بالفعل أمرًا أو خبرًا نحو : أبدأ باسم الله ، أو ابتدأت باسم الله ، فلقوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ وكلاهما صحيح . فإن الفعل لابدَّ له من مصدر ، فلك أن تقدّر الفعل ومصدره ، وذلك بحسب الفعل الذي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٩٤/٦) وأبو داود في السنن (٧٨٣) والدارمي في السنن (٢٨١/١) ، والبيهقي في السنن (٨٥/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١١٤/٣) ، والدارمي في السنن (٢٨٣/١) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٥٢/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٥) ، والحاكم في المستدرك (٢٩٢/٤) ، وأبو داود في السنة (٤٩٨٢) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥) وأبو داود في السنن (١٠١) وابن ماجه في السنن (٣٩٧) وأحمد في مسنده (٤١/٣) .

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١٤/٩) .

(٧) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤١) ومسلم في النكاح (١١٦) وأبو داود في السنن (٢١٦١) .

سميت قبله ، إن كان قيامًا أو قعودًا أو أكلًا أو شربًا أو قراءة أو وضوءًا أو صلاةً ؛ فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله تبركًا وتيمنًا واستعانة على الإتمام والتقبل .

وأما مسألة الاسم هل هو المسمى أو غيره ؟ ففيها للناس ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الاسم هو المسمى .

قالت الحشوية والكرامية والأشعرية : الاسم نفس المسمى وغير نفس التسمية .

وقالت المعتزلة : الاسم غير المسمى ونفس التسمية .

والمختار عندنا : أن الاسم غير المسمى وغير التسمية . ثم نقول : إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات متقطعة وحروف مؤلفة ، فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى . وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى ، فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات ، وهو عبث . فثبت أن الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يجري مجرى العبث . ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى ، بأنه قد يكون الاسم موجودًا والمسمى مفقودًا كلفظة المعدوم ، وبأنه قد يكون للشيء أسماء متعددة كالمترادفة ، وقد يكون الاسم واحدًا والمسميات متعددة كالمشترك ، وذلك دال على تغاير الاسم والمسمى . وأيضًا فالاسم لفظ وهو عرض، والمسمى قد يكون ذاتًا ممكنة أو واجبة بذاتها . وأيضًا فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد اللافظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك ، ولا يقوله عاقل .

﴿ ٱللَّهُ ﴾ علم على الرب تبارك وتعالى ، يقال : إنه الاسم الأعظم ؛ لأنه يوصف بجميع الصفات ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ » (١) .

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ، ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل يفعل ، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له ، وقد نقله القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم ، وروي عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة . قال الخطابي : ألا ترى أنك تقول : يا أللّٰه ولا تقول : يا ألرحمن ؟ فلولا أنه من أصل الكلمة ؛ لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام ، وقيل : إنه مشتق ، واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج :

لِلَّهِ دَرُّ الغَانِيَاتِ المُدَّهِ سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في السنن (٣٥٠٧) وأحمد في مسنده (٤٩٩/٢) ، والحاكم في المستدرك (١٦/١) .

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر ، وهو التأله من أله يأله إلاهة وتألهًا . وقد استدل بعضهم على كونه مشتقًّا بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ ونقل سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه مثل فعال ، فأدخلت الألف واللام بدلًا من الهمزة ، قال سيبويه : مثل الناس أصله أناس وقيل : أصل الكلمة لاه فدخلت الألف واللام للتعظيم .

وقيل : هو مشتق من وله إذا تحير والوله ذهاب العقل ، يقال : رجل واله وامرأة ولهى ومولوهة إذا أرسل في الصحراء ، فالله تعالى يحير أولئك والفكر في حقائق صفاته ، فعلى هذا يكون ولاه فأبدلت الواو همزة : كما قالوا : في وشاح : إشاح وقال الرازي : إنه مشتق من ألهت إلى فلان أي سكنت إليه فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره ، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره قال الله تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ، والمعنى أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال . وقد اختار الرازي أنه اسم غير مشتق البتة ، وذكر أنه لو كان مشتقًّا لاشترك في معناه كثيرون ، ومنها أن بقية الأسماء تذكر صفات له ، فتقول : الله الرحمن الرحيم الملك القدوس ، فدل أنه ليس بمشتق قال : فأما قوله تعالى : ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ﴾ على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان ، ومنها قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ ، وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامدًا غير مشتق نظر ، والله أعلم .

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم . وزعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال : ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ وذكر عن المبرد أن الرحمن اسم عبراني ليس بعربي ، قال أحمد بن يحيى : الرحيم عربي والرحمن عبراني فلهذا جمع بينهما ، قال أبو إسحاق : وهذا القول مرغوب عنه . وقال القرطبي : والدليل على أنه مشتق ما ورد عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا الرَّحْمنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِي ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ » (١) وهذا نص في الاشتقاق ، فلا معنى للمخالفة والشقاق ، وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له . قال أبو علي الفارسي : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ وقال ابن عباس : هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي أكثر رحمة ، ثم حكي عن الخطابي وغيره ، أنهم استشكلوا هذه الصفة وقالوا : لعله أرفق كما في الحديث « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ ، وَإِنَّهُ يُعْطِي عَلَىَ الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى العُنْفِ » (٢) وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسأل يغضب ، وقد ورد عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ » (٣) وقال الشاعر :

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٤٨/١) والبيهقي في السنن (٢٦/٧) .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٧) وأبو داود في السنن (٤٨٠٧) وأحمد في المسند (٨٧/٤) ومالك في الموطأ (٩٧٩) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٧٣) .

مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، ولما تجهرم مسيلمة الكذاب ، وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهّر به ، فلا يقال إلّا مسيلمة الكذّاب ، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر ، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب .

وقد زعم بعضهم ، أن الرّحيم أشد مبالغة من الرّحمن ؛ لأنه أكّد به والمؤكد لا يكون إلّا أقوى من المؤكد ، والجواب أن هذا ليس من باب التأكيد ، وإنما هو من باب النعت ولا يلزم ما ذكروه ، وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره ، ووصفه أولًا بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة .

وأما ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ : فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره ، ومنها ما لا يسمى به غيره كاسم الله والرّحمن والخالق والرّازق ونحو ذلك ، فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن لأنه أخص وأعرف من الرحيم ؛ لأن التسمية أولًا إنما تكون بأشرف الأسماء ، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص . فإن قيل : فإذا كان الرحمن أشد مبالغة ، فهلا اكتفى به عن الرحيم ؟ فقد روي أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن جيء بلفظ الرحيم ليقطع الوهم بذلك ؛ فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى ، وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى رد الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وقال كفار قريش يوم الحديبية ، لما قال رسول الله ﷺ لعلي : « اكْتُبْ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ » ، فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم »[1] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ ، والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم ، فإنه قد وجد في أشعارهم الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن .

قال سلامة بن جندب الطهوي :

عَجِلْتُمْ عَلَيْنَا إِذْ عَجِلْنَا عَلَيْكُمْ وَمَا يَشَأْ الرَّحْمنُ يَعْقِدْ وَيُطْلِق

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

القراء السبعة على ضم الدال في قوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ هو مبتدأ وخبر ، وروي عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج أنهما قالا : ﴿ الحمدَ لِلَّهِ ﴾ بالنصب وهو على إضمار فعل ، وقرئ ﴿ الحمدِ لِلَّهِ ﴾ بكسر الدال إتباعًا للأول والثاني[2] .

قال ابن جرير : معنى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الشكر للّه خالصًا دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، في تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح الأجسام المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع ما نبههم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٥/٤) والبيهقي في السنن (٢٢٠/٩) والزيلعي في نصب الراية (٣٨٩/٣) .

(٢) قراءة الكسر هي قراءة أبو نهيك ، أما قراءة الفتح فهي قراءة ابن السميفع وهما قراءتان شاذتان (انظر : زاد المسير ١١/١) .

عليه ودعاهم إليه ، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولًا وآخرًا . وقال ابن جرير : الحمد للّه ثناء أثنى به على نفسه ، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه ، فكأنه قال : قولوا الحمد للّه . قال : وقد قيل : إن قول القائل : الحمد للّه ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وقوله : الشكر للّه ثناء عليه بنعمه وأياديه ، ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلًّا من الحمد والشكر مكان الآخر ، واشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين ، أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلَّا على المتعدية ، ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر :

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعم الحمد أو الشكر ؟ فقيل : الحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه ؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية ، تقول : حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه ، وهو أخص لأنه لا يكون إلَّا بالقول ، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه ؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية . وهو أخص لأنه لا يكون إلَّا على الصفات المتعدية ، لا يقال شكرته لفروسيته ، وتقول : شكرته على كرمه وإحسانه إلي . هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين .

وقيل : الحمد نقيض الذم تقول : حمدت الرجل أحمده حمدًا ومحمدة فهو حميد ومحمود . والتحميد أبلغ من الحمد ، والحمد أعمّ من الشكر ، والشكر : هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف ، يقال : شكرته وشكرت له وباللام أفصح ، وأما المدح فهو أعمّ من الحمد لأنه يكون للحي وللميت وللجماد أيضًا ، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك ، ويكون قبل الإحسان وبعده ، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضًا .

ذِكرُ أقوَالِ السَّلَفِ فِي الحَمْد

قال عمر لعلي - وأصحابه عنده - لا إله إلَّا اللّٰه وسبحان اللّٰه واللّٰه أكبر قد عرفناها ، فما الحمد للّه ؟ قال علي : كلمة أحبها اللّٰه تعالى لنفسه ، ورضيها لنفسه ، وأحب أن تقال . وعن جابر بن عبد اللّٰه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « أَفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَه إِلَّا اللّٰه ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ للّه »[١] ، وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « مَا أَنْعَمَ اللّٰه عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ : الحَمْدُ للّه ، إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعْطَى أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ »[٢] وعن ابن عمر أن رسول اللّٰه ﷺ حدثهم : « أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللّٰه قَالَ : يَا رَبِّ لَكَ الحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ ، فَعَضَلَتْ بِالمَلَكَيْنِ فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا فَصَعَدَا إلى اللّٰه ، فَقَالَا : يَا رَبَّنَا إِنَّ عَبْدًا قَدْ قَالَ مَقَالَةً لاَ نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا ؟ قَالَ اللّٰه - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُه - مَاذَا قَالَ عَبْدِي ؟ قَالَا : يَا رَبِّ إِنَّهُ قَالَ : لَكَ الحَمْدُ يَا رَبِّ ، كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ . فَقَالَ اللّٰه لَهُمَا : اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي حَتَّى يَلْقَانِي فَأَجْزِيهِ بِهَا »[٣] .

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه للّه تعالى ، كما جاء في الحديث :

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٨٣) وابن ماجه في السنن (٣٨٠٠) والحاكم في المستدرك (٤٩٨/١) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٠٧/١) ، وابن ماجه في السنن (٣٨٠٥) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٤٤/١٢) .

« اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كُلُّهُ ، وَلَكَ المُلْكُ كُلُّهُ ، وَبِيَدِكَ الخَيْرُ كُلُّهُ ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ »[١] .

والربُّ هو المالك المتصرِّف ، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح وكل ذلك صحيح في حق اللَّه تعالى . ولا يستعمل الرب لغير اللَّه ، بل بالإضافة تقول : رب الدار رب كذا ، وأما الرب فلا يقال إلاَّ للَّه ﷻ ، وقد قيل : إنه الاسم الأعظم .

و ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ جمع عالم ، وهو كل موجود سوى اللَّه عزّ وجلّ والعالم جمع لا واحد له من لفظه ، والعوالم أصناف المخلوقات في السموات وفي البر والبحر ، وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضًا .

عن ابن عبّاس ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الحمد للَّه الذي له الخلق كله السموات والأرض ، وما فيهن ، وما بينهن مما نعلم ومما لا نعلم . وفي رواية : رب الجن والإنس ، واستدل القرطبي لهذا القول بقوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وهم الجن والإنس .

والعالم مشتق من العلامة قلت : لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز :

فَيَا عَجَبا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال القرطبي : إنما وصف نفسه بالرَّحمن الرَّحيم بعد قوله رب العالمين ليكون من باب قرن الترغيب بالترهيب ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ ما عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العُقُوبَةِ مَا طَمِعَ فِي جَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ ما قَنِطَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَحَدٌ »[٢] .

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قرأ بعض القراء ﴿ ملكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وقرأ آخرون ﴿ مَٰلِكِ ﴾ وكلاهما صحيح متواتر في السبع[٣] ، ويقال : ملك بكسر اللام وبإسكانها ، ويقال : مليك أيضًا ، وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ ﴿ ملكي يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ . وقد روي من طرق متعددة أن رسول اللَّه ﷺ كان يقرؤها ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ومالك مأخوذ من الملك كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ وملك مأخوذ من الملك كما قال تعالى : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه لأنه قدم تقدم الإخبار بأنه رب العالمين ، وذلك عام في الدنيا والآخرة ، وإنما أضيف إلى يوم الدين ؛ لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئًا ولا يتكلم أحد إلَّا بإذنه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ وعن ابن عبّاس في ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يقول : لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكمًا كملكهم في الدنيا .

قال : و ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يوم الحساب للخلائق ، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، إلا من عفا عنه ، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر .

والملك في الحقيقة هو اللَّه ﷻ قال اللَّه تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا : « أَخْنَعُ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلَاكِ وَلَا مَالِكَ إِلَّا

(١) ذكره المنذري في الترغيب (٢/٤٤١) .
(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٣) والترمذي في السنن (٣٥٤٢) وأحمد في مسنده (٢/٣٩٧) والألباني في الصحيحة (١٦٣٤) .
(٣) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف (مالك) والباقون بغير الألف (انظر : تقريب النشر ص ٧) .

الله » (١) وعنه عن رسول الله ﷺ قال : « يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِه ثُمَّ يَقُولُ أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ ؟ أَيْنَ الجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ ؟ » (٢) وفي القرآن العظيم ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ وقوله ﷺ : « مثل الملوك على الأسرة » (٣) .

و ﴿ ٱلدِّينِ ﴾ الجزاء والحساب كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ وفي الحديث : « الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ » (٤) أي حاسب نفسه لنفسه كما قال عمر ﷺ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم (٥) .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ العبادة في اللغة من الذلة يقال : طريق معبد وبعير معبد أي مذلّل . وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف . وقدّم المفعول وهو إياك وكرّر للاهتمام والحصر ، أي لا نعبد إلّا إيّاك ، ولا نتوكّل إلّا عليك ، وهذا هو كمال الطاعة . والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين ، وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فالأول تبرؤ من الشرك ، والثاني تبرؤ من الحول والقوة ، والتفويض إلى الله ﷻ وهذا المعنى في غير آية من القرآن ، وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب ، وهو مناسبة لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى ، وإرشاده لعباده بأن يثنوا عليه بذلك ، ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك ، وهو قادر عليه ، وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ » (٦) . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، إِذَا قَالَ العَبْدُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قَالَ اللَّه : حَمِدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قَالَ اللَّه : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قَالَ اللَّه : مَجَّدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ : هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قَالَ : هَذَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » (٧) . وعن ابن عبّاس ﷺ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يعني إياك نوحد ، ونخاف ، ونرجوك يا ربنا لا غيرك ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ على طاعتك ، وعلى أمورنا كلها . وقال قتادة :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٣٧) والبيهقي في السنن (٣٠٧/٩) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٢) ومسلم في صفات المنافقين (٢٣) وابن ماجه في السنن (١٩٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٧٩٩) ومسلم في الإمارة (١٦٠) ، وأحمد في مسنده (٢٤٠/٣) .
(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٤/٤) والحاكم في المستدرك (٥٧/١) ، والبيهقي في السنن (٢٥١/٤) والطبراني في الكبير (٣٤١/٧) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٥٩) .
(٦) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) وأبو داود في السنن (٨٢٢) والنسائي في السنن (١٣٧/٢) .
(٧) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨ ، ٤٠) ، والنسائي في السنن (١٣٦/٢) وأحمد في المسند (٢٤١/٢) ، والترمذي في السنن (٩٥٣) .

يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم ، وإنما قدم ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ لأن العبادة له هي المقصودة ، والاستعانة وسيلة إليها ، والاهتمام والجزم تقديم ما هو الأهم فالأهم .

فإن قيل : فما معنى النون في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ فإن كانت للجمع ، فالداعي واحد ، وإن كانت للتعظيم ، فلا يناسب هذا المقام ؟

وقد أجيب بأن المراد من ذلك ، الإخبار عن جنس العباد ، والمصلي فرد منهم ، ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم ، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها وتوسط لهم بخير . ومنهم من قال : يجوز أن تكون للتعظيم ، كأن العبد قيل له : إذا كنت داخل العبادة ، فأنت شريف ، وجاهك عريض ، فقال : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ وإن كنت خارج العبادة ، فلا تقل نحن ، ولا فعلنا ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع إلى الله ﷻ وفقرهم إليه . ومنهم من قال : إياك نعبد ، ألطف في التواضع من إياك عبدنا ، لما في الثاني من تعظيم لنفسه من جعله نفسه وحده أهلًا لعبادة الله تعالى ، الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته ، ولا يثني عليه كما يليق به ، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى .

وقد سمى الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ ﴾ ، ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾ فسمّاه عبدًا عند إنزاله عليه ، وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به ، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول : ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ .

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ قراءة الجمهور بالصاد ، وقرئ السراط وقرئ بالزاي [1] .

لما تقدم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال : « فَنِصْفُهَا لِي ، وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسئوله ، ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة ، ولهذا أرشد الله إليه لأنه الأكمل . وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه ، كما قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ ، وقد يتقدّمه مع ذلك وصف مسئول كقول ذي النون : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . وقد يكون بمجرد الثناء على المسئول كقول الشاعر :

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ المَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

والهداية ههنا الإرشاد والتوفيق ، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

---

(١) روى رويس وابن مجاهد عن قنبل (السراط ، وسراط) حيث أتى بالسين والباقون بالصاد ، وأشم خلف عن حمزة الصاد زايًا (الزراط) في جميع القرآن واختلف عن خلاد ، وبه قرأ أبو عمرو الداني (انظر : تقريب النشر ص ٧) .

فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا .

وأمّا ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فقال الطبري : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ، وذلك في لغة جميع العرب . والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر ، قال : ثم تستعير العرب الصِّراط فتستعمله في كل قول وعمل ووصف باستقامه أو اعوجاج ، فتصف المستقيم باستقامته ، والمعوج باعوجاجه .

ثم اختلفت عبارات المفسِّرين من السلف والخلف في تفسير الصِّراط ، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد وهو المتابعة للّه وللرسول .

فروي أنه كتاب اللّه ، فعن علي بن أبي طالب ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ كِتَابُ اللّه » (١) .

وقيل : هو الإسلام ، فعن ابن عباس قال : قال جبريل لمحمّد عليه السلام : « قل يا محمد اهدنا الصراط المستقيم » يقول : ألهمنا الطريق الهادي ، وهو دين اللّه الذي لا اعوجاج فيه ، وعنه في قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال : ذاك الإسلام ، وقال ابن الحنفية في قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال : هو دين اللّه الذي لا يقبل من العباد غيره . وعن النواس بن سمعان عن رسول اللّه ﷺ قال : « ضَرَبَ اللّه مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلاَ تَعْوجُوا . وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ : وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ ، فَالصِّرَاطُ الإِسْلاَمُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللّه ، وَالأَبْوَابُ المُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللّه ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللّه ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللّه فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ » (٢) .

وقال مجاهد : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال : الحق وهذا أشمل ، ولا منافاة بينه وبين ما تقدَّم .

وعن أبي العالية ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال : هو النبيّ ﷺ وصاحباه من بعده ، قال عاصم : فذكرنا ذلك للحسن فقال : صدق أبو العالية ونصح .

وكل هذه الأقوال صحيحة وهي متلازمة . فإن من اتبع النبي ﷺ ، واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر ، فقد اتبع الحق ، ومن اتبع الحق ، فقد اتبع الإسلام ، ومن اتبع الإسلام ، فقد اتبع القرآن ؛ وهو كتاب اللّه وحبله المتين وصراطه المستقيم ، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضًا وللّه الحمد .

فإن قيل : فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك ؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا ؟ .

فالجواب : أن لا ، ولولا احتياجه ليلًا ونهارًا إلى سؤال الهداية لما أرشده اللّه تعالى إلى ذلك ، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى اللّه تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٩٦٧) وعزاه للديلمي في مسند الفردوس .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢/٤) والحاكم في المستدرك (٧٣/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٤٤/٣) .

واستمراره عليها ، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله ، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق ؛ فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله ؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه ، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار وقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ الآية فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل ؛ لأن المراد الثبات والاستمرار ، والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك ، والله أعلم . وقال تعالى آمرًا لعباده المؤمنين أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ وقد كان الصدّيق ﷺ يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سرًّا ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره .

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ مفسّر للصراط المستقيم ، وهو بدل منه عند النحاة ، ويجوز أن يكون عطف بيان .

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ وعن ابن عبّاس : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصدّيقين والشهداء والصالحين .

وقوله تعالى : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ غَيْرِ ﴾ بالجر على النعت ، وقرئ بالنصب على الحال ، والمعنى : اهدنا الصّراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم ، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله ، وامتثال أوامره ، وترك نواهيه وزواجره ، غير صراط المغضوب عليهم ، وهم الذين فسدت إرادتهم ، فعلموا الحق وعدلوا عنه ، ولا صراط الضّالّين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق . وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى . وقد زعم بعض النحاة أن غير ههنا استثنائية ، فيكون على هذا منقطعًا لاستثنائهم من المنعم عليهم ، وليسوا منهم وما أوردناه أولى . ومنهم من زعم أن لا في قوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ زائدة وأن تقدير الكلام عنده غير المغضوب عليهم والضالين واستشهد ببيت العجاج :

فـي بِـئْـرِ لا حُـوَرْ سَـرَى وَمَـا شَـعَـرْ

أي في بئر حور والصحيح ما قدمناه ، وروي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يقرأ غير المغضوب عليهم وغير الضالين ، وهذا إسناد صحيح . وكذلك حكي عن أُبيّ بن كعب أنه قرأ كذلك ، وهو محمول على أنه صدر منهما على وجه التفسير . فيدل على ما قلناه من أنه إنما جيء بلا لتأكيد النفي لئلا يتوهم أنه معطوف على الذين أنعمت عليهم ، وللفرق بين الطريقتين ليجتنب كل واحدٍ منهما ، فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به ، واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم ، ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى ؛ لأن من علم وترك استحق الغضب ، بخلاف من لم يعلم ، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئًا لكنهم لا يهتدون إلى طريقه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه وهو اتباع الحق ضلوا ، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه ، لكن أخصّ أوصاف اليهود الغضب

كما قال تعالى عنهم : ﴿ مَن لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم : ﴿ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار ؛ فعن عدي بن حاتم قال : جاءت خيل رسول الله ﷺ فأخذوا عمتي وناسًا ، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صفوا له فقالت : يا رسول الله ! نأى الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة فمُنّ علي منّ الله عليك ، قال : « مَنْ وَافِدُكِ ؟ » قالت : عدي بن حاتم ، قال : « الَّذِي فَرَّ مِنَ اللَّه وَرَسُولِهِ » قالت : فمُنَّ علي ، فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه علي قال : سليه حملانًا ، فسألته ، فأمر لها ، قال : فأتتني ، فقالت : لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها ، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان وذكر قربهم من النبيّ ﷺ قال : فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر فقال : « يَا عَدِيُّ مَا أَفَرَّكَ ؟ أَنْ يُقَالَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّه ؟ ما أَفَرَّكَ ؟ أَنْ يُقَالَ : اللَّه أَكْبَرُ ، فَهَلْ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنَ اللَّه ﷻ ؟ » قال : فأسلمت ، فرأيت وجهه استبشر ، وقال : « إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ الْيَهُودَ ، وَإِنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَى » . قلت : عن عدي بن حاتم قال : سألت رسول اللَّه ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ قال : « هم اليهود » ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال : « النَّصارى هم الضالون » [١] .

وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف قالت له اليهود : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب اللَّه فقال : أنا من غضب اللَّه أفر ، وقالت له النصارى : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط اللَّه فقال : لا أستطيعه ، فاستمّر على فطرته وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين ، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى ، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية ، لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك ، وكان منهم ورقة بن نوفل حتى هداه اللَّه بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي ﷺ .

مسألة : والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ؛ ولأن كلًّا من الحرفين من الحروف المجهورة ، ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة ، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك واللَّه أعلم ، وأما حديث « أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ » [٢] ، فلا أصل له واللَّه أعلم .

فصل : اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد اللَّه وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرّع إليه والتبرئ من حولهم وقوّتهم ، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصّراط المستقيم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/٤) ، والطبراني في الكبير (١٠٠/١٧) .

(٢) هذا الحديث من الأحاديث المشتهرة عند العامة ، وقد ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٣٣٢/١) ، والفتني في تذكرة الموضوعات (٨٧) والشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة (٣٤١) .

وهو الدين القويم ، وتثبيتهم عليه حتى يقضي لهم بذلك إلى جواز الصِّراط الحسية يوم القيامة المفضي بهم إلى جنَّات النعيم في جوار النبيّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين . واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، والتحذير من مسالك الباطل ، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة ، وهم المغضوب عليهم والضالون ، وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ . وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ الآية ، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به ، وإن كان هو الذي أضلهم بقدره كما قال تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال ، لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ، ويحتجّون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحًا في الرد عليهم ، وهذا حال أهل الضلال والغي ، وقد ورد في الحديث الصحيح : « إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّه فَاحْذَرُوهُمْ » [١] يعني في قوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ فليس ، بحمد اللَّه ، لمبتدع في القرآن حجة صحيحة لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقًا بين الهدى والضلال وليس فيه تناقض ولا اختلاف ؛ لأنه من عند اللَّه تنزيل من حكيم حميد .

فصل : يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين ، ومعناه اللَّهمّ استجب والدليل على استحباب التأمين ما روي عن أبي هريرة قال : كان رسول اللَّه ﷺ إذا تلا ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال : « آمين » حتى يسمع من يليه من الصف الأول [٢] . ولمسلم أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلاَةِ آمِين وَالمَلاَئِكَةُ فِي السَّمَاءِ آمِين فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » [٣] قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان ، وقيل في الإجابة ، وقيل في صفة الإخلاص .

وعن ابن عبّاس ، قال : قلت : يا رسول اللَّه ما معنى آمين ؟ قال : « رَبِّ افْعَلْ » . وقال الترمذي : معناه لا تخيب رجاءنا . وقال الأكثرون : معناه اللَّهمّ استجب لنا .

وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية ، وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولًا واحدًا ، وإن أمَّن الإمام جهرًا فالجديد أنه لا يجهر المأموم ، وهو مذهب أبي حنيفة ورواية عن مالك ؛ لأنه ذكر من الأذكار ، فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة . والقديم أنه يجهر به وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل والرواية الأخرى عن مالك لما تقدم « حَتَّى يُرْتَجَ المَسْجِدُ » . ولنا قول آخر ثالث أنه : إن كان المسجد صغيرًا لم يجهر المأموم لأنهم يسمعون قراءة

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٤٥٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٩٣٤) وأحمد في مسنده (٣١٦/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٨١) ومسلم في الصلاة (٧٤) وأحمد في مسنده (٤٥٩/٣) والبيهقي في السنن (٥٥/٢) .

الإمام ، وإن كان كبيرًا جهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد .

قلت : ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون أمَّن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ فدل ذلك على أن من أمَّن على دعاء فكأنما قاله ، فلهذا قال من قال : إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها ولهذا جاء في الحديث « وَمَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَةُ الإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ » (١) وكان بلال يقول : لا تسبقني بآمين يا رسول الله (٢) . فدل هذا المنزع على أن المأموم لا قراءة عليه في الجهرية .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٦١/٢) والدارقطني في السنن (٣٢٦/١) وابن ماجه في السنن (٨٥٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٩/١) والبيهقي في السنن (٥٦/٢) والطبراني في الكبير (٣١١/٦) .

سورة البقرة

وآياتها ست وثمانون ومائتان

ذِكْرُ مَا وَرَدَ في فَضْلِها

عن معقل بن يسار أن رسول اللَّه ﷺ قال : « البَقَرَةُ سَنَامُ القُرْآنِ وَذرْوَتُهُ ، نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا ، وَاسْتُخْرِجَتْ ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ فَوُصِلَتْ بِهَا - أَوْ فَوُصِلَتْ بِسُورَةِ البَقَرَةِ - ويس قَلْبُ القُرْآنِ لاَ يَقْرَؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّه وَالدَّارَ الآخِرَةَ إِلاَّ غُفِرَ لَهُ ، وَاقْرَأُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ »[(١)] وعن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ؛ فَإِنَّ البَيْتَ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ لاَ يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ »[(٢)] . وعن عبد اللَّه بن مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَضَعُ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الأُخْرَى يَتَغَنَّى وَيَدَعُ سُورَةَ البَقَرَةِ يَقْرَأُوهَا ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ ، وَإِنَّ أَصْغَرَ البُيُوتِ الجُوفُ الصِّفْرُ مِنْ كِتَابِ اللَّه »[(٣)] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بَعْثًا وَهُمْ ذَوُو عَدَدٍ فَاسْتَقْرَأَهُمْ فَاسْتَقْرَأَ كل واحد منهم ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سنًّا فقال : « مَا مَعَكَ يَا فُلاَنُ ؟ » فقال : معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال : « أَمَعَكَ سُورَةُ البَقَرَةِ ؟ » قال : نعم ، قال : « اذْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ » فقال رجل من أشرافهم : واللَّه ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إِلَّا أني خشيت أن لا أقوم بها . فقال رسول اللَّه ﷺ : « تَعَلَّمُوا القُرْآنَ وَاقْرَؤُوهُ ، فَإِنَّ مَثَلَ القُرْآنِ لِمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَرَأَهُ وَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكًا يَفُوحُ رِيحُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَيَرْقُد وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ أُوكِيَ عَلَى مِسْكٍ »[(٤)] وعن أسيد بن حضير ﷺ قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة - وفرسه مربوطة عنده - إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريبًا منها ، فأشفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبيّ ﷺ فقال : « اقْرَأْ يَا ابْنَ حضير » قال : قد أشفقت يا رسول اللَّه على يحيى ، وكان منها قريبًا ، فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها قال : « وَتَدْرِي مَا ذَاكَ ؟ » قال : لا ، قال : « تِلْكَ المَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ »[(٥)] وعن جرير بن يزيد أن أشياخ أهل المدينة حدَّثوه أن رسول اللَّه ﷺ قيل له : ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح قال : « فَلَعَلَّهُ قَرَأَ سُورَةَ البَقَرَةِ » قال : فسألت ثابتًا ، فقال : قرأت سورة البقرة[(٦)] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٦٩/٢) ، والسيوطي في جمع الجوامع (١٠٣١١) .
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢١٢) والترمذي في السنن (٢٨٧٧) وأحمد في مسنده (٣٣٧/٢) .
(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٢/٦) والهندي في كنز العمال (٢٥٥١) .
(٤) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٢٨٧٦) . (٥) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٨) .
(٦) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٥٧/٩) .

ذِكرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا مَعَ آلِ عِمْرَان

عن عبد اللَّه بن بريدة عن أبيه قال : كنت جالسًا عند النبي ﷺ فسمعته يقول « تَعَلَّمُوا سُورَةَ البَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ » قال : ثم سكت ساعة ثم قال : « تَعَلَّمُوا سُورَةَ البَقَرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ يُظِلاَّنِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ ، وَإِنَّ القُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ تَعْرِفُنِي ؟ فَيَقُولُ : مَا أَعْرِفُكَ فَيَقُولُ : أَنَا صَاحِبُكَ القُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ ، وَإِنَّكَ اليَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ ، فَيُعْطَى المُلْكَ بِيَمِينِهِ وَالخُلْدَ بِشِمَالِهِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَانِ لاَ يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا فَيَقُولاَنِ : بِمَ كُسِينَا هَذَا ؟ فَيُقَالُ : بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا القُرْآنَ ، ثُمَّ يُقَالُ : اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الجَنَّةِ وَغُرَفِهَا فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا » (١) .

الزهراوان : المنيرتان ، والغياية ما أظلك من فوقك . والفرق : القطعة من الشيء ، والصواف : المصطفة المتضامة ، والبطلة : السحرة ، ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها ، وقيل : لا تستطيع النفوذ في قارئها . ومن ذلك حديث النواس بن سمعان قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « يُؤْتَى بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُمْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَآل عِمْرَانَ » وضرب لهما رسول اللَّه ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال : « كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ وَبَيْنَهُمَا شَرْقٌ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فرقانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا » (٢) .

ذِكرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ السَّبْعِ الطِّوَال

عن واثلة بن الأسقع عن النبيّ ﷺ قال : « أُعْطِيتُ السَّبْعَ الطُّوَلَ مكان التَّوْرَاةِ ، وَأُعْطِيتُ المِئِينَ مَكَانَ الإِنْجِيلِ ، وَأُعْطِيتُ المَثَانِيَ مَكَانَ الزَّبُورِ وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّلِ » (٣) ، وعن عائشة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الأُوَلَ مِنَ القُرْآنِ فَهُوَ حَبْرٌ » (٤) وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ قال : هي السبع الطول ؛ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس ، قال : وقال مجاهد هي السبع الطول .

فصل : والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهي من أوائل ما نزل بها ، ولكن قوله تعالى فيه : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الآية يقال : إنها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها ، وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل ، وكان خالد بن معدان يسمي البقرة فسطاط القرآن . وعن ابن عبّاس : نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وعن عبد اللَّه بن الزبير قال : نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وعن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادي ، فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ، ثم قال : هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٨/٥) والدارمي في السنن (٤٥٠/٢) ، والحاكم في المستدرك (٥٦٠/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٣/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/٤) والطبراني في الكبير (٧٦/٢٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧٣/٦) والحاكم في المستدرك (٥٦٤/١) .

وعن عتبة بن مرثد قال : رأى النبيُّ ﷺ في أصحابه تأخرًا فقال : « يَا أَصْحَابَ سُورَةِ البَقَرَةِ »[1] وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم : « يَاأَصْحَابَ الشَّجَرَةِ » يعني أهل بيعة الرضوان لينشطهم بذلك فجعلوا يقبلون من كل وجه وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون يا أصحاب سورة البقرة حتى فتح اللّٰه عليهم رضي اللّٰه عن أصحاب رسول اللّٰه أجمعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴾ قد اختلف المفسِّرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور ، فمنهم من قال : هي ممّا استأثر اللّٰه بعلمه فردوا علمها إلى اللّٰه ولم يفسروها .

ومنهم من فسرها ، واختلف هؤلاء في معناها ، قال ابن زيد بن أسلم : إنما هي أسماء السور . وعن مجاهد أنه قال : ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ حمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ و ﴿ صٓ ﴾ فواتح افتتح اللّٰه بها القرآن ، وعن ابن أبي نجيح أنه قال : ﴿ الٓمٓ ﴾ اسم من أسماء القرآن ، ولعل هذا يرجع إلى معنى أنه اسم من أسماء السور ، فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فإنه يبعد أن يكون ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ اسمًا للقرآن كله ؛ لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول : قرأت ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن .

وقيل : هي اسم من أسماء اللّٰه تعالى ، فقال الشعبي وغيره : فواتح السور من أسماء اللّٰه تعالى ، وعن شعبة قال : سألت السدي عن ﴿ حمٓ ﴾ و ﴿ طسٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓ ﴾ فقال : قال ابن عبّاس : هي اسم اللّٰه الأعظم .

وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ﴿ الٓمٓ ﴾ قال : أما ﴿ الٓمٓ ﴾ فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء اللّٰه تعالى .

قلت : مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفًا وهي (ا ، ل ، م ، ص ، ر ، ك ، هـ ، ي ، ع ، ط ، س ، ح ، ق ، ن) يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سر . وهي نصف الحروف عددًا والمذكور منها أشرف من المتروك وبيان ذلك من صناعة التصريف . قال الزمخشري : وهذه الحروف الأربعة عشرة مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة ، ومن الرخوة والشديدة ، ومن المطبقة والمفتوحة ، ومن المستعلية والمنخفضة ، ومن حروف القلقلة . وقد سردها مفصلة ثم قال : فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته . وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها . وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله ، ومن ههنا لخص بعضهم في هذا المقام كلامًا فقال : لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثًا ولا سدى ؛ ومن قال من الجهلة : إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأ كبيرًا ، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر ، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به ، وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا : ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ .

قال الزمخشري : ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدّي والتبكيت ، كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي الصريح في أماكن قال : وجاء منها على

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه(٥٤٦٥) وسعيد بن منصور في سننه(٢٩٠٨)

حرف واحد كقوله : ﴿ صٓ ﴾ ﴿ نٓ ﴾ ﴿ قٓ ﴾ . وحرفين مثل ﴿ حمٓ ﴾ وثلاثة مثل ﴿ الٓمٓ ﴾ وأربعة مثل ﴿ الٓمٓرٰ ﴾ و﴿ الٓمٓصٓ ﴾ وخمسة مثل ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ و ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ﴾ لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك .

قلت : ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن ، وبيان إعجازه وعظمته . وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة .

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم ، فقد ادعى ما ليس له ، وطار في غير مطاره .

﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي هذا الكتاب وذلك بمعنى هذا ، والعرب تعارض بين اسمي الإشارة ، فيستعملون كلًّا منهما مكان الآخر وهذا معروف في كلامهم ، وقال الزمخشري : ذلك إشارة إلى ﴿ الٓمٓ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ وقد ذهب بعض المفسرين أن ذلك إشارة إلى القرآن الذي وعد الرسول ﷺ بإنزاله عليه .

ومن قال : إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل ، كما حكاه ابن جرير وغيره فقد أبعد النجعة ، وأغرق في النزع ، وتكلّف ما لا علم له به .

والريب الشك ، وعن أناس من أصحاب رسول اللّه ﷺ قالوا : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ : لا شك فيه .

ومعنى الكلام أن هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند اللّه ، وقال بعضهم : هذا خبر ومعناه النهي أي لا ترتابوا فيه .

ومن القراء من يقف على قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ ﴾ ويبتدئ بقوله تعالى : ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ، والوقف على قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أولى للآية التي ذكرناها ؛ ولأنه يصير قوله تعالى : ﴿ هُدًى ﴾ صفة للقرآن وذلك أبلغ من كون ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾ .

و ﴿ هُدًى ﴾ يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعًا على النعت ومنصوبًا على الحال ، وخصت الهداية للمتقين كما قال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن لأنه هو في نفسه هدى ولكن لا يناله إلّا الأبرار ، وعن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول اللّه ﷺ ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني نورًا للمتّقين . وقال ابن عباس : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : هم المؤمنون الذين يتّقون الشرك بي ويعملون بطاعتي .

وعن ابن عباس ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : الذين يحذرون من اللّه عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به . وقيل : الذين يجتنبون كبائر الإثم . واختيار ابن جرير أن الآية تعم ذلك كله . وهو كما قال . وقد روي عن عطية السعدي قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لَا يَبْلُغُ

العَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ »[(١)] وعن ميمون أبي حمزة قال : كنت جالسًا عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له : أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة : يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل ؟ قال : بلى ، سمعته يقول : يحبس الناس يوم القيامة في بقيع واحد فينادي مناد أين المتقون ؟ فيقومون في كنف الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر ، قلت : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان ، وأخلصوا الله العبادة فيمرون إلى الجنة .

ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان ، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله ﷻ. قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ، وقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وأصل التقوى التوقي مما يكره لأن أصلها وقى من الوقاية قال النابغة :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ

وقد قيل : إن عمر بن الخطاب سأل أُبيّ بن كعب عن التقوى ، فقال له : أما سلكتَ طريقًا ذا شوك ؟ قال : بلى ، قال : فما عملت ؟ قال : شمرت واجتهدت قال : فذلك التقوى . وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال :

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لاَ تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

وعن أبي أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا اسْتَفَادَ المَرْءُ بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرًا مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ ، إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ »[(٢)] .

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ .

عن عبد الله قال : الإيمان التصديق . وقال ابن عباس ﷺ : يؤمنون يصدقون . وعن الزهري : الإيمان العمل . وعن الربيع بن أنس : يخشون .

قال ابن جرير : والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولًا واعتقادًا وعملًا ، وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق بالعمل ، والإيمان كلمة جامعة للإيمان بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل .

قلت : أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض ، وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك . كما قال تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وكما قال إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ ، وكذلك إذا استعمل مقرونًا مع الأعمال كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فأما إذا استعمل مطلقًا فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولًا وعملًا . هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٥١) وابن ماجه في السنن (٤٢١٥) والبيهقي في السنن (٣٣٥/٢) .
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٦٤/٨) وابن ماجه في السنن (١٨٥٧) والمنذري في الترغيب (٤١/٣) .

بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة وغير واحد إجماعًا : أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ والخشية خلاصة الإيمان والعلم .

وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه ، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد ، قال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ قال : يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث ، فهذا غيب كله . وعن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ : أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنّة وأمر النار وما ذكر في القرآن . وقال ابن عباس ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ قال : بما جاء منه – يعني من الله تعالى وقيل : الغيب : القرآن .

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

أي يقيمون الصلاة بفروضها . وقال الضحاك عن ابن عباس : إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها . وقال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها . وقال مقاتل بن حيان : إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبيّ ﷺ فهذا إقامتها .

وقال ابن عبّاس : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قال : زكاة أموالهم . وعن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قال : نفقة الرجل على أهله ، وهذا قبل أن تنزل الزكاة . وقال الضحاك : كانت النفقات قربانًا يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم ، حتى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات في سورة براءة مما يذكر فيهن الصدقات ؛ هن الناسخات المثبتات .

واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات ، فإنه قال : وأولى التأويلات وأحقّها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدين ، زكاة كانت ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل أو عيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك ؛ لأن الله تعالى وصفهم ومدحهم بذلك ، وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه .

قلت : كثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال . فإن الصلاة حق الله وعبادته ، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده ، والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه ، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم ، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك ، ثم الأجانب ، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ولهذا ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِله إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ البَيْتِ » [1] وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء . ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة . قال ابن جرير : وأرى أن الصلاة سميت صلاة لأن المصلي يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله ، مع ما يسأل ربه من حاجاته . وقيل هي مشتقة من الصلي ، وهو الملازمة للشيء من قوله

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ومسلم في الإيمان (٢٠) والترمذي في السنن (٢٦٠٩) وأحمد في مسنده (٣٦٤/٤) .

تعالى : ﴿ لَا يَصْلَنهَآ ﴾ أي لا يلزمها ويدوم فيها ﴿ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ .

أي يصدِّقون بما جئت به من اللّه ، وما جاء به مَنْ قبلك من المرسلين ، لا يفرِّقون بينهم ، ولا يجحدون ما جاءوهم به من ربِّهم . ﴿ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أي بالبعث والقيامة والجنَّة والنار والحساب والميزان . وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا . وقد اختلف المفسّرون في الموصوفين هنا ومن هم : على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير :

أحدها : أن الموصوفين أولًا هم الموصوفون ثانيًا وهم كل مؤمنٍ ، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم .

والثاني : هما واحد وهم مؤمنو أهل الكتاب ، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات .

والثالث : أن الموصوفين أولًا مؤمنو العرب والموصوفون ثانيًا بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ لمؤمني أهل الكتاب ، ويستشهد لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى أن رسول اللّه ﷺ قال : « ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي ، وَرَجُلٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ ، وَرَجُلٌ أَدَّبَ جَارِيَتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا » (١) . وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إِلَّا بمناسبة ، وهي أن اللّه وصف في أول هذه السورة المؤمنين والكافرين ، فكما أنه صنَّف الكافرين إلى صنفين كافر ومنافق ، فكذلك المؤمنون صنفهم إلى صنفين عربي وكتابي .

قلت : والظاهر قول مجاهد أنه قال : أربع آيات من سورة البقرة في نعت المؤمنين ، وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاث عشرة في المنافقين ، فهذه الآيات الأربع عامات في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي وكتابي من إنسي وجني وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى ، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها ، فلا يصح الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة والزكاة ، إِلَّا مع الإيمان بما جاء به رسول اللّه ﷺ ، وما جاء به من قبله من الرسل صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين ، والإيقان بالآخرة ، كما أن هذا لا يصح إِلَّا بذاك وقد أمر اللّه المؤمنين بذلك كما قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان باللّه وكتبه . لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية وذلك أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلًا فإذا دخلوا في الإسلام وآمنوا به مفصلًا كان لهم على ذلك الأجر مرتين ، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدم مجملًا ، كما جاء في الصحيح « إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ فَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلكِنْ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ » (٢) . ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بعث به محمّد ﷺ أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم في الإسلام ، فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيثية فغيرهم يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١١١٦) والنسائي في السنن (٦/١١٥) ، وأحمد في مسنده (٤/٤٠٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٣٦) .

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ أي المتصفون بما تقدّم من الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة ، والإنفاق من الذي رزقهم الله ، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل ، والإيقان بالدار الآخرة ، وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات ﴿ عَلَىٰ هُدًى ﴾ أي على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

وقال ابن جرير : فإنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديده إياهم وتوفيقه لهم ، وتأويل قوله تعالى : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب ، والخلود في الجنات والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي غطوا الحق وستروه ، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك ، سواء عليهم إنذارك وعدمه ، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به . أي إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له ، ومن أضله فلا هادي له ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وبلغهم الرسالة ، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر ، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهمنك ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ وقال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ : كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلّا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ، ولا يضل إلّا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول .

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ خَتَمَ اللَّهُ ﴾ أي طبع الله ، وقال قتادة في هذه الآية : استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، فلا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ، ولا يفقهون ، ولا يعقلون . قال مجاهد : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ قال : الطبع ثبتت الذنوب على القلب فحفّت به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه ، فالتقاؤها عليه الطبع ، والطبع الختم . وقال ابن جرير ، وقال بعضهم : إنما معنى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم ، وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق ، كما يقال : إن فلانًا أصم عن هذا الكلام ، إذا امتنع من سماعه ، ورفع نفسه عن تفهمه تكبرًا ، قال : وهذا لا يصح لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم .

قلت : وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير ههنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدًا وما جرأه على ذلك إلّا اعتزاله لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه في اعتقاده ولو فهم قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الهدى ، جزاء وفاقًا على تماديهم في الباطل وتركهم الحق ، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح ، فلو أحاط علمًا بهذا ما قال : والله أعلم .

قال القرطبي : وأجمعت الأمة على أن الله ﷻ قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال : ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ وذكر حديث تقليب القلوب : « وَيَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ » (١) وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال : « تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مِرْبَادٌّ كَالكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا » (٢) وقال ابن جرير : والحق عندي في ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ ؛ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ؛ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » (٣)

قال ابن جرير : فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها ، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه وحله رباطه عنها .

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ جملة تامة فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع ، والغشاوة وهي الغطاء يكون على البصر ، فعن ابن عبّاس : الغشاوة على أبصارهم ، وقال ابن جريج : الختم على القلب والسمع ، والغشاوة على البصر .

لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات ، ثم عرَّف حال الكافرين بهاتين الآيتين ، شرع الله تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس ، أطنب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق ، كما أنزل سورة براءة فيهم ، وسورة المنافقين فيهم ، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور ، تعريفًا لأحوالهم لتجتنب ويجتنب من تلبس بها .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

النفاق هو إظهار الخير ، وإسرار الشر وهو أنواع : اعتقادي ، وهو الذي يخلد صاحبه في النار ، وعملي وهو من أكبر الذنوب ، قال ابن جريج : المنافق يخالف قوله فعله ، وسره علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه ، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكّة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه ، فمن الناس من كان يظهر الكفر مستكرهًا ، وهو في الباطن مؤمن ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج ، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب ، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم ، وكانوا ثلاث قبائل بنو

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٢٢) وأحمد في مسنده (٢٥١/٦) والحاكم في المستدرك (٢٨٩/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٣١) والمنذري في الترغيب (٢٣١/٣) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٤٤) والحاكم في المستدرك (٥١٧/١) وأحمد في مسنده (٢٩٧/٢) والبيهقي في السنن (١٨٨/١٠) .

قينقاع حلفاء الخزرج ، وبنو النضير ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج ، وقلة من أسلم من اليهود إلّا عبد الله بن سلام ﷺ ، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضًا ؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة ، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته ، وأعز الإسلام وأهله ، قال عبد الله بن أبي ابن سلول وكان رأسًا في المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية ، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم ، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه ، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله ، فلما كانت وقعة بدر قال : هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته ، وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق ؛ لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهًا بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة .

عن ابن عبّاس ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني المنافقين من الأوس والخزرج ، ومن كان على أمرهم ، ولهذا نبّه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون ، فيقع لذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ، ومن اعتقاد إيمانهم وهو كفار في نفس الأمر ، وهذا من المحذورات الكبار أن يظنَّ بأهل الفجور خير فقال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يقولون ذلك قولًا ليس وراءه شيء آخر .

وقوله تعالى : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان ، مع إسرارهم الكفر ، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه ، كما قد يروج على بعض المؤمنين ؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول : وما يغرون بصنيعهم هذا ، ولا يخدعون إلّا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم .

عن ابن جريج في قوله تعالى : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ قال : يظهرون لا إله إلّا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفي أنفسهم غير ذلك . وقال قتادة : نعت المنافق عند كثير : خنع الأخلاق ، يصدق بلسانه ، وينكر بقلبه ، ويخالف بعمله ، يصبح على حال ويمسي على غيره ، ويمسي على حال ويصبح على غيره ، ويتكفأ تكفؤ السفينة كلما هبت ريح هبت معها .

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ .

عن ابن مسعود وابن عبّاس وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ في هذه الآية ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال : شك ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ قال : شكًا ، وعن طاووس : يعني الرياء . وقال ابن عبّاس : نفاق ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ قال : نفاقًا وهذا كالأوّل .

وقوله : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ وقرئ (يكذّبون) [1] وقد كانوا متصفين بهذا وهذا ، فإنهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب يجمعون بين هذا وهذا .

وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفّه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع

---

(١) وهي قراءة جمهور القراء(انظر : زاد المسير ٣١/١) .

علمه بأعيان بعضهم ، وذكروا أجوبة عن ذلك منها : أنه ﷺ قال لعمر ﷺ : « أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ العَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » [1] ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام ، ولا يعلمون حكمة قتله لهم ، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر ، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم ، فيقولون : إن محمّدًا يقتل أصحابه ، قال القرطبي : وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطي المؤلفة مع علمه بسوء اعتقادهم . قال ابن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمّد بن الجهم والقاضي إسماعيل والأبهري وعن ابن الماجشون . ومنها : ما قال مالك : إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه . قال القرطبي : وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه ، وإن اختلفوا في سائر الأحكام قال : ومنها ما قال الشافعي : إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ؛ لأن ما يظهرونه يجبّ ما قبله . ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، فَإِذَا قَالُوها ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ﷻ » [2] ومعنى هذا : أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهرًا ، فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة ، وإن لم يعتقدها لم ينفعه جريان الحكم عليه في الدنيا . ومنها ما قاله بعضهم أنه : إنما لم يقتلهم لأنه كان لا يخاف من شرهم مع وجوده ﷺ بين أظهرهم ، يتلو عليهم آيات الله مبينات ، فأما بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون قال مالك : المنافق في عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم .

قلت : وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا ، أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا ، أو يتكرر منه ارتداده أم لا ، أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه ؟

تنبيه : قول من قال : كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين ، إنما مستنده حديث حذيفة ابن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقًا في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله ﷺ في ظلماء الليل عند عقبة هناك ، عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها ، فأوحى الله إليه أمرهم فأطلع على ذلك حذيفة ، ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم .

فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴾ ففيها دليل على أنه لم يغر بهم ، ولم يدرك على أعيانهم ، وإنما كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي ابن سلول ، وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذي سبق في صفات المنافقين ، ومع هذا لما مات صلى عليه النبيّ ﷺ وشهد دفنه ، كما يفعل ببقية المسلمين ، وقد عاتبه عمر بن الخطاب ﷺ فيه فقال : « إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ العَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣٣/٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) ومسلم في الإيمان (٣٦) والنسائي في السنن (٦/٦ ، ٧) .

عن ابن مسعود قال : هم المنافقون ، أما ﴿ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية ، وعن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : يعني لا تعصوا في الأرض وكان فسادهم ذلك معصية الله ؛ لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : إذا ركبوا معصية الله فقيل لهم : لا تفعلوا كذا وكذا قالوا : إنما نحن على الهدى مصلحون . وعن سلمان الفارسي في هذه الآية قال : ما جاء هؤلاء . قال ابن جرير : يحتمل أن سلمان ﷺ أراد بها أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادًا من الذين كانوا في زمن النبي ﷺ لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد ، قال ابن جرير : فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم ، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه ، وتضييعهم فرائضه ، وشكّهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل إلّا بالتصديق به ، والإيقان بحقيقته ، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم مقيمون من الشك والريب ، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلًا ، فذلك إفساد المنافقين في الأرض ، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ أي نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن عباس : ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادًا .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ ﴾ للمنافقين ﴿ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أي كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنّة والنار ، وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه ، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ ﴾ يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم ، يقولون : أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء ؟ والسفهاء جمع سفيه ؛ لأن الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حليم . والسفيه : هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار ، وقد تولّى سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل ، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ⁽١٤⁾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافات غرورًا منهم للمؤمنين ونفاقًا ومصانعة وتقية ، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ ﴾ يعني إذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم ، فضمّن خلوا معنى انصرفوا لتعديته بإلى ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به ، ومنهم من قال : (إلى) هنا بمعنى (مع) والأول أحسن ، وقال أبو مالك : ﴿ خَلَوْا ﴾ يعني مضوا و ﴿ شَيَاطِينِهِمْ ﴾ سادتهم وكبراؤهم ورؤساؤهم من أحبار اليهود

ورؤوس المشركين والمنافقين . وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ ﴾ : يعني هم رؤساؤهم في الكفر . وقال الضحاك عن ابن عباس : وإذا خلوا إلى أصحابهم وهم شياطينهم . وقوله تعالى : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم . وعن ابن عبّاس : قالوا إنما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمّد ﷺ .

وقوله تعالى جوابًا لهم ومقابلة لهم على صنيعهم : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ﴾ الآية ، قال : فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين ، وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ، وقال آخرون : بل استهزاؤه بهم توبيخه إياهم ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه والكفر به . وقال آخرون : إن معنى ذلك أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا دخلوا إلى مردتهم قالوا : إنا معكم على دينكم في تكذيب محمّد ﷺ وما جاء به ، وإنما نحن بما نظهر لهم من قولنا لهم مستهزئون ، فأخبر تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا يعني من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة ، يعني من العذاب والنكال . ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره ؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله ﷻ بالإجماع ، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبيّ ﷺ : يمدهم يملي لهم . وقال مجاهد : يزيدهم ، قال ابن جرير : والصواب نزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم ، والطغيان هو المجاوزة في الشيء . وقال ابن جرير : والعمه : الضلال يقال : عمه فلان يعمه عمهًا وعموهًا إذا ضل ، قال : وقوله ﴿ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ في ضلالتهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه ، يترددون حيارى ضلالًا لا يجدون إلى المخرج منه سبيلًا ؛ لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها ، فلا يبصرون رشدًا ولا يهتدون سبيلًا . وقال بعضهم : العمى في العين والعمه في القلب وقد يستعمل العمى في القلب أيضًا .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ .

عن ابن عبّاس ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي الكفر بالإيمان . وقال مجاهد : آمنوا ثم كفروا . وقال قتادة : استحبوا الضلالة على الهدى . وحاصل قول المفسرين فيما تقدّم : أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال ، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي بذلوا الهدى ثمنًا للضلالة وسواءً في ذلك من كان قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر ، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى ، كما يكون حال فريق آخر منهم ، فإنهم أنواع وأقسام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ، وما كانوا مهتدين أي راشدين في صنيعهم ذلك ، وقال قتادة : قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنّة إلى البدعة .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

يقال : مَثَل ومِثْل ومثيل والجمع أمثال ، وتقدير هذا المثل : أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وتأنس بها ، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، وهو مع هذا فهو أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى لو كان ضياء لما أبصر ، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى ، واستحبابهم الغي على الرشد ، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع ، والله أعلم .

وقال بعضهم : تقدير الكلام مثَل قصتهم كقصة الذين استوقدوا نارًا .

قلت : وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ وهذا أفصح في الكلام وأبلغ في النظام ، وقوله تعالى : ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أي ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور ، وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها وهم مع ذلك ﴿ صُمٌّ ﴾ لا يسمعون خيرًا ﴿ بُكْمٌ ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿ عُمْىٌ ﴾ في ضلالة وعماية البصيرة فلهذا ﴿ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة .

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين ، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ، ويشكون تارة أُخرى ، فقلوبهم في حال شكّهم وكفرهم وترددهم ﴿ كَصَيِّبٍ ﴾ والصيب المطر ، وقال الضحاك : هو السحاب ، والأشهر : هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات : وهي الشكوك والكفر والنفاق ، ورعد : وهو ما يزعج القلوب من الخوف ، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع .

والبرق : هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ، ولهذا قال : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي ولا يجدي عنهم حذرهم شيئًا ؛ لأن الله محيط بقدرته ، وهم تحت مشيئته وإرادته ثم قال : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ أي لشدته وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان . وقال ابن عبّاس : يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين ؛ لشدة ضوء الحق ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾ أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه ، وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين . وقال ابن عبّاس ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾ يقول : كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه ، وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر ، يعرفون الحق ويتكلّمون به فهم من قولهم به على استقامة ، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين . وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم ، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر

من ذلك ، وأقل من ذلك ، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى ، ومنهم من يمشي على الصراط تارة ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ .

فتلخص من ذلك : أن المؤمنين صنفان : مقربون وأبرار ، وأن الكافرين صنفان دعاة ومقلدون ، وأن المنافقين أيضًا صنفان : صنف منافق خالص ، ومنافق فيه شعبة من نفاق ، فعن عبد اللّه بن عمرو عن النبيّ ﷺ « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ » [(١)] استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق ، وعن أبي سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « القُلُوبُ أَرْبَعَةٌ ؛ قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلافِهِ ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ ، وَقَلْبٌ مُصفحٌ ، فَأَمَّا القَلْبُ الأَجْرَدُ فَقَلْبُ المُؤْمِنِ فَسِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ ، وَأَمَّا القَلْبُ الأَغْلَفُ فَقَلْبُ الكَافِرِ ، وَأَمَّا القَلْبُ المَنْكُوسُ فَقَلْبُ المُنَافِقِ الخَالِصِ ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ ، وَأَمَّا القَلْبُ المُصفحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ ، وَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ البَقْلَةِ يُمِدُّهَا المَاءُ الطَّيِّبُ ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ القَرْحَةِ يُمِدُّهَا القَيْحُ والدَّمُ ، فَأَيُّ المَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ » [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال ابن عبّاس : لما تركوا من الحق بعد معرفته ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وعنه : أي إن اللّه على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير . وقال ابن جرير : إنما وصف اللّه تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع ؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ، ومعنى قدير قادر ، كما معنى عليم عالم ، وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسّرين إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين .

قلت : وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فإنهم أصناف ، ولهم أحوال وصفات ، كما ذكرها اللّه تعالى في سورة براءة يذكر أحوالهم وصفاتهم ، فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم ، واللّه أعلم ، كما ضرب المثلين في سورة النور لصنفي الكفار الدعاة والمقلّدين في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ الآية فالأول للدعاة الذين هم في جهل مركب ، والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلّدين .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود ، وإسباغه عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ، بأن جعل لهم الأرض فراشًا أي مهدًا كالفراش مقررة

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (١٠٦) والترمذي في السنن (٢٦٣٢) وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) جميعهم بلفظ « أربع من كن فيه » وليس « ثلاث » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٣) والطبراني في الصغير (١١٠/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣/١) .

موطأة ، مثبتة كالرواسي الشامخات ، والسماء بناء وهو السقف ، وأنزل لهم من السماء ماء ، والمراد به السحاب ههنا في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد ، رزقًا لهم ولأنعامهم كما قرر هذا في غير موضع من القرآن ، ومضمونه : أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم ، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ، ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ للّه نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » [(١)] . وعن معاذ : « أتدري ما حقّ الله على عباده ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » [(٢)] .

وعن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة أم المؤمنين لأمها قال : رأيت فيما يرى النائم كأني على نفر من اليهود فقلت من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود ، قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : عزيرًا ابن الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمّد ، قال : ثم مررت بنفر من النصارى فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن النصارى ، قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمّد ، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبيّ ﷺ فأخبرته فقال : « هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا ؟ » قلت : نعم ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا فَلاَ تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللّه وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللّه وَحْدَهُ » [(٣)] .

عن ابن عبّاس قال : قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ للفريقين جميعًا من الكفّار والمنافقين ، أي وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم . وعنه في قول الله ﷻ ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ قال : الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان لا تجعل فيها فلان .

ذِكْرُ حَدِيثٍ فِي مَعنى هَذهِ الآيةِ الكَرِيمَة

عن الحارث الأشعري أن نبيَّ الله ﷺ قال : « إِنَّ اللّه عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بنَ زَكَرِيّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِخَمْس كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ ، وأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ، وَأَنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِىءَ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى ﷺ : إِنَّكَ قَدْ أُمِرتَ بِخَمْسٍ كلمات أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ، فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغُهَنَّ ؟ فَقَالَ : يَا أَخِي إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي ، قَالَ : فَجَمَعَ يَحْيَى بنُ زَكَريا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ حَتَّى امْتَلأَ المَسْجِدُ ، فَقَعَدَ عَلَى الشَّرَفِ فَحَمِدَ اللّه وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ اللّه أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ . أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللّه وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ ، فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذلِكَ ؟ وَإِنَّ اللّه خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . وَأَمَرَكُمْ بِالصَّلاَةِ ، فَإِنَّ اللّه

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٦١) ومسلم في الإيمان (١٤١) والنسائي في السنن (٩٠/٧) والترمذي في السنن (٣١٨٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٤/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٢/٥) والطبراني في الكبير (٣٨٩/٨) .

يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلاَ تَلْتَفِتُوا . وَأَمَرَكُمْ بِالصِّيَامِ ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ المِسْكِ ، وَإِنَّ خَلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ . وَأَمَرَكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنَّ مَثَلَ ذلك كمثل رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ ، وَقَالَ لَهُمْ : هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ . وَأَمَرَكُمْ بِذِكْرِ اللَّه كَثِيرًا ، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ ، وَإِنَّ العَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونَ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّه » قال : وقال رسول اللَّه ﷺ : « وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ ، اللَّه أَمَرَنِي بِهِنَّ : الجَمَاعَةُ وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ والهِجْرَةُ والجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ ، إِلَّا أَنْ يُرَاجِعَ ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ فَهُوَ جِثِيُّ جَهَنَّمَ » قالوا : يا رسول اللَّه وإن صام وصلّى ؟ فقال : « وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ فَادْعُوا المُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ عَلَى مَا سَمَّاهُمُ اللَّه ﷻ المُسْلِمِينَ المُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّه » (١) .

وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم : دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ، ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر ، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها ، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد ، فقالوا : هذا شيء لا يقوله عاقل ! فقال : ويحك هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي ، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ، ليس لها صانع ! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه . وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع فقال : هذا ورق التوت طعمه واحد ، تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم ، وتأكله النحل فيخرج منه العسل ، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرًا وروثًا ، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد . وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد :

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ المَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلّا هو ، فقال مخاطبًا للكافرين : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ من مثل ما جاء به ، إن زعمتم أنه من عند غير اللَّه فعارضوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون اللَّه ، فإنكم لا تستطيعون ذلك . قال ابن عبّاس : شهداءكم أعوانكم . وقال أبو مالك : شركاءكم أي قومًا آخرين يساعدونكم على ذلك ، أي استعينوا بآلهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم . وقد تحدّاهم اللَّه تعالى بهذا في غير موضع من القرآن

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٦٣) والحاكم في المستدرك (١/١١٨) ، وأحمد في مسنده (٤/٢٠٢) .

فقال في سورة القصص : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وقال في سورة سبحان : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ وقال في سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وكل هذه الآيات مكية ، ثم تحدّاهم بذلك أيضًا في المدينة فقال في هذه الآية : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أي شك ﴿ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يعني من مثل القرآن ، فإنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيهم ، وذلك أكمل في التحدي وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ، ممن لا يكتب ولا يعاني شيئًا من العلوم ، ولهذا قال تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ أي ولن تفعلوا ذلك أبدًا ، وهذه أيضًا معجزة أخرى ، وهو أنه أخبر خبرًا جازمًا مقدمًا غير خائف ولا مشفق ، أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ، ولا يمكن ، وأنّى يتأتى ذلك لأحد . والقرآن كلام اللَّه خالق كل شيء ، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ، ومن جهة المعنى قال اللَّه تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه ، أو بالعكس على الخلاف ، فكلّ من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يداني ، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ، ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ أي صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام ، فكله حق وصدق وعدل وهدى ، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء ، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلَّا بها ، كما قيل في الشعر : إن أعذبه أكذبه ، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شيء من المشاهدات المتعينة ، التي لا تفيد شيئًا إلَّا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفي أو الدقيق ، أو إبرازه إلى الشيء الواضح ، ثم تجد له فيه بيتًا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته .

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلًا وإجمالًا ، ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير ، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة ، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة ، وسواء تكررت أم لا ، وكلما تكرَّر حلا وعلا ، لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء ، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات ، فما ظنك بالقلوب الفاهمات ، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن ، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف ، حسن نافع ، طيب محبوب ، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف : إذا سمعت اللَّه تعالى يقول في القرآن : يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه ، وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال ، وفي وصف الجنّة والنار وما أعد اللَّه فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم بشرت به وحذرت وأنذرت ، ودعت إلى فعل

الخيرات واجتناب المنكرات ، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى ، وثبتت على الطريقة المثلى ، وهدت إلى صراط الله المستقيم ، وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم . فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ البَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ » (١) وقوله ﷺ : « وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا » أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلهية ، فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أما الوقود فهو ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه ، والمراد بالحجارة ههنا : هي حجارة الكبريت ، العظيمة السوداء الصلبة المنتنة ، وهي أشد الأحجار حرًّا إذا حميت أجارنا الله منها ، كما قال عبد الله بن مسعود وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ الأظهر أن الضمير في أعدت عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة ، ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود ، ولا منافاة بين القولين في المعنى ، لأنهما متلازمان . و ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أي أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله ، قال ابن عبّاس : أي لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر . وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أي أرصدت وهيئت ، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها « تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ » (٢) وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى .

تَنْبِيهٌ يَنْبَغِي الوُقُوفُ عَلَيْهِ

قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ وقوله في سورة يونس ﴿ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ يعم كل سورة في القرآن ، طويلة كانت أو قصيرة ؛ لأنها نكرة في سياق الشرط ، فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين ، كما هو مقرر في موضعه ، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها ، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعًا بين الناس سلفًا وخلفًا ، وقد قال الرازي في تفسيره : فإن قيل : قوله تعالى ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر وقل يا أيها الكافرون ، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله ، أو بما يقرب منه ، ممكن . فإن قلتم : إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر ، كان مكابرة ، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين قلنا : فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني ، وقلنا : إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز ، فقد حصل المقصود ، وإن لم يكن كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزًا ، فعلى التقديرين يحصل المعجز ، هذا لفظه بحروفه . والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها ، طويلة كانت أو قصيرة . قال الشافعي رحمه الله : لو تدبّر الناس هذه السورة لكفتهم ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥١/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٦) وأحمد في مسنده (٣١٤/٢) .

صاحبكم بمكة في هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال : ولقد أنزل عليّ مثلها فقال : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر فقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أنك لأعلم أن تكذب .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال ، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله ، الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، وهذا معنى تسمية القرآن مثاني ، وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه ، أو السعداء ثم الأشقياء أو عكسه ، وحاصله ذكر الشيء ومقابله . قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار ، أي من تحت أشجارها وغرفها وفي الحديث : « أَنْهَارُ الجَنَّةِ تَفَجَّرُ مِنْ تَحْتِ تِلاَلٍ ، أَوْ مِنْ تَحْتِ جِبَالِ المِسْكِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ عن ابن عبّاس وابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل ، قال : إنهم أتوا بالثمرة في الجنّة فلما نظروا إليها قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا . وقال عكرمة : ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ : معناه مثل الذي كان بالأمس . ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ يؤتى أحدهم بالصحفة من الشيء فيأكل منها ، ثم يؤتى بأخرى فيقول : هذا الذي أتينا به من قبل ، فتقول الملائكة : كُلْ فاللون واحد والطعم مختلف . وهو قول الله تعالى : ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ وقال أبو العالية : يشبه بعضه بعضًا ، ويختلف في الطعم . وقال عبد الرَّحمن بن يزيد بن أسلم : يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا ، التفاح بالتفاح ، والرمان بالرمان ، قالوا في الجنة : هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا ، وأتوا به متشابهًا يعرفونه ، وليس هو مثله في الطعم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أي من القذر والأذى . وقال مجاهد : من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ هذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ، ولا انقضاء ، بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس وابن مسعود وناس من الصحابة : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ، قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ وعن

(١) ذكره الهيثمي في موارد الظمآن (٢٦٢٢) .

قتادة : لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب ، قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ وعن الربيع بن أنس في هذه الآية قال : هذا مثل ضربه الله للدنيا أن البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن ، إذا امتلأوا من الدنيا رِيًّا أخذهم الله عند ذلك ، فهذا اختلافهم في سبب النزول . وقد اختار ابن جرير ما حكاه السدي ، لأنه أمس بالسورة وهو مناسب ، ومعنى الآية : أنه تعالى أخبر أنه لا يستحيي أي لا يستنكف ، وقيل : لا يخشى ، أن يضرب مثلًا ما ؛ أي : أيَّ مثل كان ، بأي شيء كان ، صغيرًا كان أو كبيرًا ، وما ههنا للتقليل ، وتكون ﴿ بَعُوضَةً ﴾ منصوبة على البدل ، كما تقول : لأضربن ضربًا ما ، فيصدق بأدنى شيء ، أو تكون ﴿ مَّا ﴾ نكرة موصوفة ببعوضة ، واختار ابن جرير أن ﴿ مَّا ﴾ موصولة ، و ﴿ بَعُوضَةً ﴾ معربة بإعرابها ، قال : وذلك سائغ في كلام العرب ؛ أنهم يعربون صلة ما ومن بإعرابهما ؛ لأنهما يكونان معرفة تارة ونكرة أخرى ، كما قال حسان بن ثابت :

يَكْفِي بِنَا فَضْلًا عَلَى منْ غَيْرِنا ... حبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إيَّانَا

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ فيه قولان : أحدهما : فما دونها في الصغر والحقارة ، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح ، فيقول السامع : نعم ، وهو فوق ذلك - يعني فيما وصفت - والثاني : فما فوقها لما هو أكبر منها ؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة ، وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فوقها إِلَّا كُتِبَ لَهُ بها دَرَجَةٌ ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ »[1] فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة ، كما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها ، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ وفي القرآن أمثال كثيرة : قال بعض السلف إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله قال : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها .

وقال قتادة : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي يعلمون أنه كلام الرحمن ، وأنه من عند الله . وقال أبو العالية : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني هذا المثل .

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة : يضل به كثيرًا ، يعني به المنافقين ، ويهدي به كثيرًا ، يعني به المؤمنين ، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقًّا يقينًا من المثل الذي ضربه الله بما ضرب لهم ، وأنه لما ضرب له موافق ، فذلك إضلال الله إياهم به ، ويهدي به - يعني المثل - كثيرًا من أهل الإيمان والتصديق ، فيزيدهم هدى إلى هداهم ، وإيمانًا لتصديقهم بما قد علموه حقًّا يقينًا أنه موافق لما ضربه الله له مثلًا ، وإقرارهم به ، وذلك هديًا من الله لهم به ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ : هم

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٢٦) والطبراني في الصغير (١/ ٢٥٠) .

المنافقون . وعن مصعب بن سعد قال : سألت أبي فقلت : قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ إلى آخر الآية ، فقال : هم الحرورية . وهذا الإسناد وإن صح عن سعد بن أبي وقاص ﷺ ، فهو تفسير على المعنى ، لا أن الآية أريد منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ بالنهروان ، فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية ، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل ؛ لأنهم سموا خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام والقيام بشرائع الإسلام ، والفاسق في اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضًا ، وتقول العرب : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها ، ولهذا يقال للفأرة : فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد . وثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « خَمْس فَوَاسِق يُقْتَلْنَ في الحِلِّ وَالحَرَمِ ؛ الغُرَابُ والحِدَأَةُ والعَقْرَبُ والفَأْرَةُ وَالكَلْبُ العَقُورُ » [١] فالفاسق يشمل الكافر والعاصي ولكن فسق الكافر أشد وأفحش ، والمراد به من الآية الفاسق الكافر بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ وهذه الصفات صفات الكفّار المباينة لصفات المؤمنين .

وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه ، فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره إيّاهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه إيّاهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به .

وقال آخرون : بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها ، واتباع محمَّد ﷺ إذا بعث ، والتصديق به بما جاء به من عند ربهم ، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك على الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلًا .

وقال آخرون : بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق ، وعهده إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلة على ربوبيته ، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثله ، الشاهدة لهم على صدقهم ، قالوا : ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق . وقال آخرون : العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصِف في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾ ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به .

قال أبو العالية : هي ست خصال من المنافقين ، إذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا في الأرض ، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا . وقوله : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ قيل : المراد به صلة الأرحام والقرابات . وقيل : المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله ، فقطعوه وتركوه .

---

(١) أخرجه البخاري في جزاء الصيد (١٨٢٩) ومسلم في الحج (٧٣) والنسائي في السنن (٥/٢١٠) وأحمد في مسنده (٦/١٦٤) .

وقال مقاتل بن حيان في قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ قال : في الآخرة ، وقال ابن عبّاس : كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر فإنما يعني به الكفر ، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب . وقال ابن جرير : الخاسرون هم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته ، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يضع من رأس ماله في بيعه ، وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة ، أحوج ما كانوا إلى رحمته .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى محتجًا على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ أي وقد كنتم عدمًا فأخرجكم إلى الوجود . عن ابن عبّاس : كنتم أمواتًا في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئًا حتى خلقكم ، ثم يميتكم موتة الحق ، ثم يحييكم حين يبعثكم قال : وهي مثل قوله ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ قال : كنتم ترابًا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ، أحياكم فخلقكم فهذه حياة ، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى : فهذه ميتتان وحياتان ، فهو كقوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ، ذكر دليلًا آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ أي قصد إلى السماء ، والاستواء ههنا متضمن معنى القصد والإقبال ؛ لأنه عدي بإلى فسواهن أي فخلق السماء سبعًا ، والسماء ههنا اسم جنس فلهذا قال : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي وعلمه محيط بجميع ما خلق ، كما قال : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ وتفصيل هذه الآية في سورة السجدة وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولًا ، ثم خلق السموات سبعًا ، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك ، فقد قيل : إن ثم ههنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر ، لا لعطف الفعل على الفعل كما قال الشاعر :

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ... ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ قال : خلق الله الأرض قبل السماء ، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ قال : بعضهن فوق بعض ، وسبع أرضين يعني بعضها تحت بعض ، وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كما قال في آية السجدة : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي

أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء ، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعًا بين العلماء ، إلَّا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض ، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ قالوا : فذكر خلق السماء قبل الأرض . وفي صحيح البخاري أن ابن عبّاس سئل عن هذا بعينه ، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء ، وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء . وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديمًا وحديثًا ، وعن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « خَلَقَ اللَّه التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ الجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الاثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ العَصْرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ ، مِنْ آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ العَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ » (1) .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي واذكر يا محمّد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك . ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أي قومًا يخلف بعضهم بعضًا ، قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل ، وليس المراد هنهنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين ، بل الخلاف في ذلك كثير ، والظاهر أنه لم يرَ آدم عينًا ، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك ، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية ، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون ، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم ، قاله القرطبي ، أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك .

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على اللّه ولا على وجه الحسد لبني آدم ، كما قد يتوهمه بعض المفسرين ، وقد وصفهم اللّه تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئًا لم يأذن لهم فيه ، وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقًا . قال قتادة : وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ الآية ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون : يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ، أي نصلّي لك كما سيأتي ، أي ولا يصدر منا شيء من ذلك ، وهلّا وقع الاقتصار علينا ؟ قال اللّه تعالى مجيبًا لهم

---

(1) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٢) والبيهقي في السنن (٣٠/٩) .

عن هذا السؤال : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ، ويوجد منهم الصدّيقون والشهداء والصالحون والعبّاد والزهاد ، والأولياء والأبرار والمقرّبون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبّون له تبارك وتعالى ، المتّبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهو يصلون وتركناهم وهم يصلون ، وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام : « يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » (١) فقولهم : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون ، من تفسير قوله لهم : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ وقيل : معنى قوله تعالى جوابًا لهم ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ إني لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء ، والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها ، وقيل : إنه جواب ﴿ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ فقال : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي من وجود إبليس بينكم ، وليس هو كما وصفتم أنفسكم به ، وقيل بل تضمن قولهم : ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ طلبًا منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم ، فقال الله تعالى لهم : ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ من أن بقاءكم أصلح لكم وأليق بكم ، ذكرها الرازي من غيرها من الأجوبة ، والله أعلم .

ذِكْرُ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِين بِبَسْطِ مَا ذَكَرْنَاه

قال ابن جرير فيما رواه عن ابن عبّاس قال : إن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضًا قال : فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، ثم خلق آدم فأسكنه إياها ، وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم : قال الله للملائكة : إني أريد أن أخلق في الأرض خلقًا وأجعل فيها خليفة ، وليس لله ﷻ خلق إلَّا الملائكة والأرض ، وليس فيها خلق ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا ﴾ . وعن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ قال : خلق الله الملائكة يوم الأربعاء ، وخلق الجان يوم الخميس ، وخلق آدم يوم الجمعة ، فكفر قوم من الجن ، فكانت الملائكة تهبط إليهم من الأرض فتقاتلهم ببغيهم ، وكان الفساد في الأرض ، فمن ثم قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن ، ويسفك الدماء كما سفكوا (٢) .

وقال محمّد بن إسحاق : ﴿ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ قال : لا نعصي ، ولا نأتي شيئًا تكرهه . وقال ابن جرير : التقديس هو التعظيم والتطهير . ومنه قولهم : سبوح قدوس ، يعني بقولهم : سبوح ، تنزيه له ، وبقولهم : قدوس ، طهارة وتعظيم له . وكذلك قيل للأرض : أرض مقدسة ، يعني بذلك المطهرة ، فمعنى قول الملائكة إذًا : ﴿ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٤) وابن ماجه في السنن (١٩٥) وأحمد في مسنده (٤٠١/٤) .

(٢) تفسير الطبري (٢٩٢/١ ، ٢٩٣) .

من الأدناس ، وما أضاف إليك أهل الكفر بك (١) . وعن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ سُئِل : أي الكلام أفضل ؟ قال : « مَا اصْطَفَى اللَّه لِمَلَائِكَتِهِ سُبْحَانَ اللَّه وَبِحَمْدِهِ » (٢) .

﴿ قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال قتادة : فكان في علم الله أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنوا الجنة .

وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويقطع تنازعهم ، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ، ويقيم الحدود ، ويزجر عن تعاطي الفواحش ، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلّا بالإمام ، وما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب . والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنّة في أبي بكر ، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم ، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصدّيق بعمر بن الخطاب ، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر ، أو باجتماع أهل الحَلّ والعقد على مبايعته ، أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور ، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع والله أعلم . أو بقهر واحد الناس على طاعته ، فتجب لئلا يؤدي ذلك إلى الشقاق والاختلاف ، وقد نص عليه الشافعي . وهل يجب الإشهاد على عقد الإمامة ؟ فيه خلاف فمنهم من قال : لا يشترط وقيل : بلى ، ويكفي شاهدان . وقال الجبائي : يجب أربعة وعاقد ومعقود له ، كما ترك عمر ﷺ الأمر شورى بين ستة ، فوقع الأمر على عاقد ، وهو عبد الرّحمن بن عوف ، ومعقود له ، وهو عثمان ، واستنبط وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقين ، وفي هذا نظر والله أعلم .

ويجب أن يكون ذكرًا حرًّا بالغًا عاقلًا مسلمًا عدلًا مجتهدًا بصيرًا سليم الأعضاء خبيرًا بالحروب والآراء قرشيًّا على الصحيح ، ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ ، خلافًا للغلاة والروافض . ولو فسق الإمام هل ينعزل أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام : « إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّه فِيهِ بُرْهَانٌ » (٣) . وهل له أن يعزل نفسه فيه خلاف ، وقد عزل الحسن بن علي ﷺ نفسه وسلم الأمر إلى معاوية ، لكن هذا لغذر ، وقد مدح على ذلك . فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ جَاءَكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَكُمْ فَاقْتُلُوهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ » (٤) وهذا قول الجمهور . وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد ، منهم إمام الحرمين ، وقالت الكرامية : يجوز اثنان فأكثر ، كما كان علي ومعاوية إمامين واجبي الطاعة ، قالوا : وإذا جاز بعث نبيين في وقت واحد وأكثر جاز ذلك في الإمامة ، لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف . وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما ، وتردد إمام الحرمين في ذلك ، قلت : وهذا يشبه حال الخلفاء بني العباس بالعراق ، والفاطميين بمصر ، والأمويين بالمغرب ، ولنقرر هذا كله في موضع آخر من كتاب الأحكام ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) تفسير الطبري (٣٠٤/١) .
(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٤) والألباني في الصحيحة (٤٨٤/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٥٦) ومسلم في الإمارة (٤٢) وأحمد في مسنده (٣١٤/٥) .
(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (٥٩) وأحمد في مسنده (٢٤/٥) .

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

هذا مقام ذكر اللّه تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم ، وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام ، وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ، ولهذا ذكر اللّه هذا المقام عقيب هذا ، ليبيّن لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال ابن عبّاس : علّمه أسماء ولده إنسانًا إنسانًا ، والدوابَّ فقيل : هذا الحمار ، هذا الجمل ، هذا الفرس . وقال : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

عن أنس عن النبيّ ﷺ قال : « يَجْتَمِعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُونَ : لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ : أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللّه بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحْيِي ، ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللّه إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، فَيَأْتُونَهُ ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحْيِي ، فَيَقُولُ : ائْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمنِ فَيَأْتُونَهُ فَيَقولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، فَيَقُولُ ائْتُوا مُوسَى عَبْدًا كَلَّمَهُ اللّه وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحْيِي مِنْ رَبِّهِ ، فَيَقُولُ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللّه وَرَسُولَهُ وَكَلِمَةَ اللّه وَرُوحَهُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، ائْتُوا مُحَمَّدًا عَبْدًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَيَأْتُونِي فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي فَيَأْذَنُ لِي فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللّه ، ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي مِثْلَهُ ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ ، ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ ، فَأَقُولُ : مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ » (١) . ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ يعني المسميات ، ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة فقال : ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أني لم أخلق خلقًا إلا كنتم أعلم منه ، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .

قال ابن عباس ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ : إن كنتم تعلمون أني لم أجعل في الأرض خليفة ، وقال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومعنى ذلك فقال : أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ من غيرنا أم منا ، فنحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك . إن كنتم صادقين في قيلكم إني جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته ، وأفسدوا وسفكوا الدماء ، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس ، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم ، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هذا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٧٦) ومسلم في الإيمان (٣٢٣) وأحمد في مسنده (٣/١١٦) .

تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلَّا بما شاء ، وأن يعلموا شيئًا إلَّا ما علّمهم الله تعالى ولهذا قالوا : ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء لك الحكمة في ذلك والعدل التام .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال زيد بن أسلم : قال : أنت جبرائيل ، أنت ميكائيل ، أنت إسرافيل ، حتى عدَّد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ ﴾ قال : اسم الحمامة والغراب واسم كل شيء ، قال الله تعالى للملائكة ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال ابن عباس : أعلم السر كما أعلم العلانية ، يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار . وقال الحسن وقتادة : هو قولهم : ما يخلق ربنا خلقًا إلَّا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه . وقال الربيع بن أنس : فكان الذي أبدوا هو قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، وكان الذي كتموا بينهم هو قولهم : لن يخلق ربنا خلقًا إلَّا كنا أعلم منه وأكرم ، فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم . وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عبّاس وهو أن معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ... ﴾ وأعلم مع علمي غيب السموات والأرض ما تظهرونه بألسنتكم وما كنتم تخفون في أنفسكم ، فلا يخفى علي شيء ، سواء عندي سرائركم وعلانيتكم ، والذي أظهروه بألسنتهم قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ، والذي كانوا يكتمون ما كان عليه منطويًا إبليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبير عن طاعته ، قال : وصح ذلك كما تقول العرب : قتل الجيش وهزموا ، وإنما قتل الواحد أو البعض وهزم الواحد أو البعض ، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته ، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وقد دل على ذلك أحاديث أيضًا كثيرة .

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، دخل إبليس في خطابهم ؛ لأنه وإن لم يكن من عنصرهم ، إلَّا أنه كان قد تشبّه بهم وتوسم بأفعالهم ، فلهذا دخل في الخطاب لهم وذم في مخالفة الأمر ، ولهذا قال ابن عباس : كان إبليس اسمه عزازيل ، وكان من أشراف الملائكة من ذوي الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد .

وقال عبد الله بن بريدة في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ : من الذين أبوا فأحرقتهم النار . وقال أبو العالية : من العاصين . وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ : فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته . وقال بعض الناس : كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام كما قال تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ ﴾ وقد كان هذا مشروعًا في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملّتنا . قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم ، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك فقال :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٢٧) .

« لاَ ، لَوْ كُنْتُ آمِرًا بَشَرًا أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا » (١) .

وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة ، وقال أنا ناري وهو طيني وكان بدء الذنوب الكبر استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام .

قلت : وقد ثبت في الصحيح « لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبرٍ » (١) وقد كان في قلب إبليس من الكبر ، والكفر ، والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس . قال بعض المعربين ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي وصار من الكافرين بسبب امتناعه .

وقال ابن فورك : تقديره : وقد كان في علم الله من الكافرين ، ورجحه القرطبي ، وذكر ههنا مسألة فقال : قال علماؤنا : من أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات ، فليس ذلك دالًا على ولايته ، خلافًا لبعض الصوفية والرافضة . هذا لفظه ثم استدل على ما قال بأنا لا نقطع بهذا الذي جرى الخارق على يديه أنه يوافي الله بالإيمان ، وهو لا يقطع لنفسه بذلك ، يعني والولي الذي يقطع له بذلك في نفس الأمر ، قلت : وقد استدل بعضهم على أن الخارق قد يكون على يدي غير الولي ، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضًا بما ثبت عن ابن صياد أنه قال : هو الدخ حين خبأ له رسول الله ﷺ : ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ وبما كان يصدر عنه أنه كان يملأ الطريق إذا غضب ، حتى ضربه عبد الله بن عمر . وبما ثبتت به الأحاديث عن الدجال ؛ بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة ، من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر ، والأرض أن تنبت فتنبت ، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب ، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه ، إلى غير ذلك من الأمور المهولة . وكان الليث بن سعد يقول : إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ، ويطير في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة . فقال الشافعي : قصر الليث رحمه الله ، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ، ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة . وقد حكى الرازي وغيره قولين للعلماء ؛ هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض ، أو عام في ملائكة السماوات والأرض ، وقد رجح كلًا من القولين طائفة ، وظاهر الآية الكريمة العموم ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم والله أعلم ..

﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ .

يقول الله تعالى إخبارًا عما أكرم به آدم ، بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس ، أنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ، ويأكل منها ما شاء رغدًا ، أي هنيئًا واسعًا طيبًا .

وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم هي في السماء أم في الأرض ؟ فالأكثرون على الأول .

وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة . وأما قوله : ﴿ وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم ، وقد اختلف في هذه الشجرة ما هي ؟ فقال ابن عباس : الشجرة التي نهي عنها آدم عليه السلام هي الكرم . وعن عكرمة عن ابن عباس قال : هي السنبلة ، وعن مجاهد عن ابن

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) والترمذي في السنن (١٩٩٩) وأبو داود في السنن (٤٠٩١) .

عباس قال : هي البر ، وعن أبي مالك قال : هي النخلة ، وعن مجاهد قال : هي التينة .

فهذه أقوال ستة في تفسير هذه الشجرة . والصواب في ذلك أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنّة ، دون سائر أشجارها ، فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين ؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلًا على ذلك في القرآن ولا من السنّة الصحيحة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ يصح أن يكون الضمير في قوله : ﴿ عَنْهَا ﴾ عائدًا إلى الجنّة ، فيكون معنى الكلام كما قرأ عاصم فأزالهما أي فنحاهما ، ويصح أن يكون عائدًا على أقرب المذكورين وهو الشجرة فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة : فأزلهما أي من قبل الزلل ، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ أي بسببها ، قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أي من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي قرار وأرزاق وآجال إلى حين أي إلى وقت مؤقت ومقدار معين ، ثم تقوم القيامة .

وعن ابن عبّاس قال : ما أسكن آدم الجنة إلّا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس [١] ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ يَوْمٍ طَلُعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا » [٢] .

وقال الرازي : اعلم أن في هذه الآية تهديدًا عظيمًا عن كل المعاصي من وجوه ؛ الأول : أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي قال الشاعر :

يَا نَاظِرًا يَرْنُو بِعَيْنَيْ رَاقِدِ ... وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدِ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرَجَ الجِنَانِ وَنَيْلَ فَوْزِ العَابِدِ
أَنَسِيتَ رَبَّكَ حِينَ أَخْرَجَ آدَمًا ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ

عن فتح الموصلي أنه قال : كنا قومًا من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا ، فليس لنا إلّا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها . فإن قيل : فإذا كانت جنّة آدم التي أخرج منها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء ، فكيف تمكن إبليس من دخول الجنّة وقد طرد من هنالك طردًا قدريًا ، والقدري لا يخالف ولا يمانع ؟ فالجواب أن هذا بعينه استدل به من يقول : إن الجنّة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء ، وأجاب الجمهور بأجوبة ؛ أحدها أنه منع من دخول الجنّة مكرمًا ، فأما على وجه السرقة والإهانة فلا يمتنع . وقد قال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لهما ، وهو خارج باب الجنّة . وقال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض وهما في السماء .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

قال أبو إسحاق السبيعي عن رجل من بني تميم قال : أتيت ابن عباس فسألته ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه ؟ قال : علم شأن الحج . وعن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ آدَمُ عليه السلام أَرَأَيْتَ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٤٢/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (١٧) وأبو داود في السنن (١٠٤٦) والترمذي في السنن (٤٩١) والنسائي في السنن (١١٤/٣) .

يَا رَبِّ إِنْ تُبْتُ وَرَجِعْتُ أَعَائِدِي إِلَى الجَنَّةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي إنه يتوب على من تاب إليه وأناب .

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنّة ، والمراد الذرية ، إنه سينزل الكتب ، ويبعث الأنبياء والرسل .

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ ﴾ أي من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا ، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي مخلّدون فيها ، لا محيد لهم عنها ولا محيص . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلاَ يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْنَ ، وَلكِنْ أَقْوَامٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً ، حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ » [٢] وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير كما يقال قم قم ، وقال آخرون : بل الإهباط الأول من الجنّة إلى السماء الدنيا ، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض .

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ .

يأمر تعالى بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ، ومتابعة محمّد عليه من الله أفضل الصّلاة والسّلام ، ومهيجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل ، وهو نبي الله يعقوب عليه السلام ، وتقديره : يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق ، كما تقول يا ابن الكريم افعل كذا ؛ يا ابن الشجاع بارز الأبطال ، يا ابن العالم اطلب العلم ، وعن عبد الله بن عبّاس قال : حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقال لهم : « هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبُ ؟ » ، قالوا : اللهم نعم ، فقال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » [٣] .

وقوله تعالى ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ قال مجاهد : نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى ، وفيما سوى ذلك ، أن فجر لهم الحجر ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، ونجاهم من عبودية آل فرعون . وقال أبو العالية : نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، قلت : وهذا كقول موسى عليه السلام لهم فعن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم من فرعون وقومه .

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ قال : بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذ جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه ، بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم . وقال آخرون : هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة ،

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٨١/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٠٨) وابن ماجه في السنن (٣٤٠٩) وأحمد في مسنده (١١/٣) ، والحاكم في المستدرك (٦١٩/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٣/١ ، ٢٧٨) .

أنه سيبعث من بني إسماعيل نبيًا عظيمًا يطيعه جميع الشعوب ، والمراد به محمّد ﷺ ، فمن اتبعه غفر الله له ذنبه ، وأدخله الجنّة ، وجعل له أجرين . قال أبو العالية : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى ﴾ قال : عهده إلى عباده دين الإسلام وأن يتبعوه . ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أرضى عنكم وأدخلكم الجنّة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ أي فاخشون ، قال ابن عبّاس : أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التي قد عرفتم ، من المسخ وغيره ، وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب ، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة ، لعلهم يرجعون إلى الحق ، واتباع الرسول ﷺ ، والاتّعاظ بالقرآن وزواجره ، وامتثال أوامره ، وتصديق أخباره ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ولهذا قال : ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ يعني به القرآن الذي أنزل على محمّد ﷺ النبيّ الأمي العربي ، بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا ، مشتملاً على الحق من الله تعالى ، مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل . قال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ يقول : يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدّقًا لما معكم ، يقول : لأنهم يجدون محمّدًا ﷺ مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾ قال ابن عبّاس : ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم . قال أبو العالية : يقول : ولا تكونوا أول من كفر بمحمّد ﷺ يعني من جنسكم أهل الكتاب ، بعد سماعكم بمبعثه . واختار ابن جرير أن الضمير في قوله : به عائد على القرآن الذي تقدم ذكره في قوله : ﴿ بِمَآ أَنزَلْتُ ﴾ وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان ؛ لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمّد ﷺ ، ومن كفر بمحمّد ﷺ فقد كفر بالقرآن وأما قوله : ﴿ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل ؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير ، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة ، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن ، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يقول : لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية ، قال سعيد بن جبير : إن آياته كتابه الذي أنزله إليهم ، وإن الثمن القليل الدنيا وشهواتها . وقيل : معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس ، بالكتمان واللبس ، لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب . فعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَي بِهِ وَجْهَ اللَّه لا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ »[(١)] فأما تعليم العلم بأجرة ، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة ، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله ، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب فهو كما لم يتعين عليه ، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء ؛ فعن أبي سعيد في قصة اللديغ « إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّه »[(٢)] وقوله في قصة المخطوبة : « زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ »[(٣)] .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٨/٢) ، والحاكم في المستدرك (٨٥/١) ، وابن ماجه في السنن (٢٥٢) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٢٤/٦) ، والدارقطني في السنن (٦٥/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٧) وأبو داود في السنن (٢١١١) والترمذي في السنن (١١١٤) والدارمي في السنن (١٤٢/٢) .

وقوله : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ التقوى : أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله . ومعنى قوله : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ، ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل ، وتمويهه به ، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل : ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فنهاهم عن الشيئين معًا ، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به . ولهذا قال ابن عبّاس : ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ لا تخلطوا الحق بالباطل ، والصدق بالكذب . وقال أبو العالية : ولا تخلطوا الحق بالباطل ، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمّد ﷺ ، وقال قتادة : ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله .

﴿ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به ، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم . وقال مجاهد والسدي وغيرهما : ﴿ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ يعني محمّدًا ﷺ .

قلت : وتكتموا يحتمل أن يكون مجزومًا ، ويحتمل أن يكون منصوبًا ، أي لا تجمعوا بين هذا وهذا ، كما يقال : لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، قال الزمخشري : وفي مصحف ابن مسعود وتكتموا الحق ، أي في حال كتمانكم الحق ، ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ حال أيضًا ، ومعناه وأنتم تعلمون الحق . ويجوز أن يكون المعنى وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس ، من إضلالهم عن الهدى ، المفضي بهم إلى النار إن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم ، والبيان : الإيضاح ، وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل .

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أمرهم أن يصلّوا مع النبيّ ﷺ وأن يؤتوا الزكاة أي يدفعونها إلى النبيّ ﷺ ، وأن يركعوا مع الراكعين من أمة محمّد ﷺ ، يقول : كونوا معهم ومنهم . وقال ابن عبّاس : يعني بالزكاة طاعة الله والإخلاص . وقيل : صدقة الفطر . وقوله تعالى : ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أي وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم ، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة . وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة .

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب ، وأنتم تأمرون النّاس بالبر ، وهو جماع الخير ، أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به ، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصّر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم ، فتنتبهوا من رقدتكم ، وتتبصروا من عمايتكم . عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال : كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ، ويخالفون ، فعيَّرهم الله ﷻ .

﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من

التوراة ، وتتركون أنفسكم أي وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي ، وتنقضون ميثاقي ، وتجحدون ما تعلمون من كتابي . وقال ابن عبّاس في هذه الآية : أتأمرون الناس بالدخول في دين محمّد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة وتنسون أنفسكم . والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم ، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم له ، فإن الأمر بالمعروف معروف ، وهو واجب على العالم ، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم .

قلت : لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة ، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ، ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَؤُلاءِ ؟ قَالُوا : خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ » (١) .

وعن أبي وائل قال : قيل لأسامة وأنا رديفه : ألا تكلم عثمان ؟ فقال : إنكم ترون أني لا أكلمه إلّا أسمعكم ، إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمرًا أحب أن أكون أول من افتتحه ، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان عليّ أميرًا بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول . قالوا : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : « يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ بِهِ أَقْتَابُهُ ، فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ ، فَيطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فُلانُ مَا أَصَابَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ » (٢) . وقد ورد في بعض الآثار أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ، ليس من يعلم كمن لا يعلم . وعن ابن عبّاس أنه جاءه رجل فقال : يا ابن عبّاس : إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، قال : أبلغت ذلك ؟ قال : أرجو ، قال : إن لم تخشَ أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ، قال : وما هن ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثاني ، قال : قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثالث ، قال : قول العبد الصالح شعيب عليه السلام ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ ﴾ أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا ، قال : فابدأ بنفسك .

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة ، قال مقاتل في تفسير هذه الآية : استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة ، فأما الصبر فقيل إنه الصيام

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٠/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٢٤/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٣٨) وأحمد في مسنده (٢٠٥/٥) والبيهقي في السنن (٩٥/١٠) والألباني في الصحيحة (٢٩٢) .

نص عليه مجاهد ، قال القرطبي وغيره : ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر ، فعن رجل من بني سليم عن النبيّ ﷺ قال : « الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ » [١] وقيل : المراد بالصبر الكف عن المعاصي ، ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة . وعن عمر بن الخطّاب ﷺ قال : الصبر صبران ، صبر عند المصيبة حسن ، وأحسن منه الصبر عن محارم اللّه . وعن سعيد بن جبير قال : الصبر اعتراف العبد للّه بما أصيب فيه ، واحتسابه عند اللّه ، ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلّا الصبر . وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ قال : على مرضاة اللّه واعلموا أنها من طاعة اللّه ، وأما قوله : ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ إن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر كما قال تعالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ الآية . قال حذيفة ، يعني ابن اليمان ﷺ : كان رسول اللّه ﷺ إذا حزبه أمر صلى [٢] . وقال ابن جرير : وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه مر بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له : « أشكم درد » ومعناه أيوجعك بطنك ؟ قال : نعم ، قال : « قُمْ فَصَلِّ فَإِنَّ الصَّلاةَ شِفَاءٌ » [٣] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ أي مشقة ثقيلة . ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني المصدقين بما أنزل اللّه ، وقال مجاهد : المؤمنين حقًّا ، وقال أبو العالية : إلّا على الخاشعين الخائفين ، وقال مقاتل ، وقال الضحّاك : إنها لثقيلة إلّا على الخاضعين لطاعته ، الخائفين سطوته ، المصدقين بوعده ووعيده . وفي الحديث : « لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ » [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله أي أن الصلاة أو الوصاة لثقيلة ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ أي يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة ، معروضون عليه ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، أي أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله ، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات .

فأما قوله : ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : العرب قد تسمي اليقين ظنًّا والشك ظنًّا ، نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة ، والمغيث صارخًا والمستغيث صارخًا ، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده .

قال : والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصر . وعن مجاهد قال : كل ظن في القرآن فهو علم .

قلت : وفي الصحيح : أن اللّه تعالى يقول للعبد يوم القيامة : « أَلَمْ أُزَوِّجْكَ ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ ، أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرَأَسُ وَتَرْبَعُ ؟ » فيقول : بلى فيقول اللّه تعالى : « أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ ؟ » فيقول : لا ، فيقول اللّه : « اليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي » [٥]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٥) .

(٢) أخرجه أبو داود (١٣١٩) وأحمد في مسنده (٣٨٨/٥) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٤٥٨) والعقيلي في الضعفاء (٤٨/٢) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦١٦) وأحمد في مسنده (٢٣٧/٥) والمنذري في الترغيب (٥٢٨/٣) .

(٥) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم ، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم ، وإنزال الكتب عليهم ، وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم ، عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب ، على عالم من كان في ذلك الزمان ، فإن لكل زمان عالمًا . ويجب الحمل على هذا ؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم ؛ لقوله تعالى خطابًا لهذه الأمة : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ ﴾ وقوله ﷺ : « أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ » (١) . وقيل : إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم ، حكاه القرطبي في تفسيره وفيه نظر ؛ لأن العالمين عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء ، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم ، ومحمّد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، صلوات اللَّه وسلامه عليه .

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ .

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولًا عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ أي لا يغني أحد عن أحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ ﴾ يعني من الكافرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ ﴾ أي لا يقبل منها فداء . وقال : ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ ﴾ الآية فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ، ووافوا اللَّه يوم القيامة على ما هم عليه ، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ، ولا شفاعة ذي جاه ، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهبًا . وقال علي ﵁ في حديث طويل : والصرف والعدل التطوع والفريضة . وهذا القول غريب ههنا ، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية ، وقد ورد حديث يقويه ، وهو ما قال ابن جرير : فعن عمرو بن قيس الملائي عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء ، قال : قيل : يا رسول اللَّه ، ما العدل ؟ قال : « الْعَدْلُ الْفِدْيَةُ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ أي ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب اللَّه ، كما تقدّم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ، ولا يقبل منهم فداء ، هذا كله من جانب التلطف ، ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم أي أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحدًا من عذابه منقذ ، ولا يخلص منه أحد ، ولا يجير منه أحد . قال ابن جرير وتأويل قوله : ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ، كما لا يشفع لهم شافع ، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ، بطلت هنالك المحاباة ، واضمحلت الرُّشى والشفاعات ، وارتفع من القوم التناصر والتعاون ، وصار الحكم إلى الجبار العدل ، الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء ، فيجزي بالسيئة مثلها ، وبالحسنة أضعافها ، وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝ مَا لَكُمۡ لَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥) والحاكم في المستدرك (٨٤/٤) والطبراني في الكبير (٤٢٤/١٩) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٨/١) والطبري في تفسيره (٣٨٣/١) .

نَاصِرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ ، أي خلصتكم منهم ، وأنقذتكم من أيديهم ، صحبة موسى عليه السلام ، وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب ، وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته ، رأى نارًا خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر ، إلا بيوت بني إسرائيل ، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل . ويقال بعد تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة ، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل ، وأن تترك البنات ، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها ، وههنا فسر العذاب بذبح الأبناء ، وفي سورة إبراهيم عطف عليه كما قال : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ ومعنى يسومونكم : يولونكم .

وقيل : يديمون عذابكم . و ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ علم على كل من ملك مصر كافرًا من العماليق ، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرًا ، وكسرى لمن ملك الفرس ، وتبع لمن ملك اليمن كافرًا ، والنجاشي لمن ملك الحبشة ، وبطليموس لمن ملك الهند ، ويقال : كان اسم فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام الوليد بن مصعب بن الريان ، وقيل : مصعب بن الريان ، فكان من سلالة عمليق بن الأود بن إرم بن سام بن نوح وكنيته أبو مرة ، وأصله فارسي من اصطخر .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ قال ابن جرير : وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم ، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك . وقال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ قال : نعمة . وأصل البلاء الاختبار وقد يكون للخير والشر كما قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ قال ابن جرير : وأكثر ما يقال في الشر : بلوته أبلوه بلاء ، وفي الخير : أبليه إبلاء وبلاء .

جَزَى اللَّه بالإِحْسَانِ مَا فَعَلاَ بِكُمْ وَأَبْلاَهُمَا خَيْرَ البَلاَءِ الَّذِي يَبْلُو [١]

قال : فجمع بين اللغتين ؛ لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم ، التي يختبر بها عباده . وقيل : المراد بقوله ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ ﴾ إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء . وقال الجمهور : الإشارة إلى الذبح ونحوه والبلاء ههنا في الشر ، والمعنى : وفي الذبح مكروه وامتحان .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ معناه وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام ، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر ، ﴿ فَأَنجَيْنَٰكُمْ ﴾ أي خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون ، ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم . قال ابن عبّاس : قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة يمدح بها سنان بن حارثة المري (انظر : تفسير الطبري ١/٣٩٢) .

يوم عاشوراء ، فقال : « مَا هَذَا اليَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَ ؟ » قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجّى الله عزّ وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى عليه السلام ، فقال رسول الله ﷺ : « أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ » فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه (١) .

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة ، وكانت أربعين يومًا ، قيل : إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذي الحجة ، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني التوراة ﴿ وَٱلْفُرْقَانَ ﴾ وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وكان ذلك أيضًا بعد خروجهم من البحر .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل . قال الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ فقال : ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حتى قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ الآية . قال : فذلك حين يقول موسى : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ وقال سعيد بن جبير وغيره : ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ أي إلى خالقكم قلت : وفي قوله ههنا ﴿ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ تنبيه على عظم جرمهم ، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره . وعن ابن عبّاس قال : قال موسى لقومه : ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، قال : أمر موسى قومه عن أمر ربه عزّ وجلّ ، أن يقتلوا أنفسهم قال : وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم ، وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضًا ، فانجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل ، كل من قتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقي كانت له توبة . وقال قتادة : أمر القوم بشديد من الأمر ، فقاموا يتناحرون بالشفار ، يقتل بعضهم بعضًا ، حتى بلغ الله فيهم نقمته ، فسقطت الشفار من أيديهم فأمسك عنهم القتل ، فجعل لحيهم توبة ، وللمقتول شهادة . وقال ابن إسحاق : لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل ، وذراه في اليم ، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه ، فأخذتهم الصاعقة ، ثم بعثوا فسأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل ، فقال : لا إلّا أن يقتلوا أنفسهم ، قال : فبلغني أنهم قالوا لموسى : نصبر لأمر الله ، فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده ، فجلسوا بالأفنية ، وأصلت عليهم القوم السيوف ، فجعلوا يقتلونهم ، فهش موسى فبكى إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم ، فتاب الله عليهم وعفا عنهم ، وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١٢٨) وأحمد في مسنده (٣١٠/١) .

بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ في بعثي لكم بعد الصعق ، إذ سألتم رؤيتي جهرة عيانًا ، مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم قال ابن عبّاس في هذه الآية : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ قال : علانية ، وقال الربيع بن أنس : هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه ، قال : فسمعوا كلامًا فقالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ قال : فسمعوا صوتًا فصعقوا ، يقول : ماتوا . وقال مروان بن الحكم فيما خطب به على منبر مكة : الصاعقة صيحة من السماء . وقال السدي في قوله ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ الصاعقة : نار . وقال عروة بن رويم في قوله : ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ قال : صعق بعضهم وبعض ينظرون ، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء . وقال الربيع بن أنس : كان موتهم عقوبة لهم ، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم .

قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ والمراد السبعون المختارون منهم ، ولم يحك كثير من المفسرين سواه وقد أغرب الرازي في تفسيره حين حكى في قصة هؤلاء السبعين أنهم بعد إحيائهم قالوا : يا موسى إنك لا تطلب من اللَّه شيئًا إلّا أعطاك فادعه أن يجعلنا أنبياء ، فدعا بذلك فأجاب اللَّه دعوته ، وهذا غريب جدًّا إذ لا يعرف في زمان موسى نبي سوى هارون ، ثم يوشع بن نون ، وقد غلط أهل الكتاب أيضًا في دعواهم أن هؤلاء رأوا اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون ؟

القول الثاني في الآية : قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية : قال لهم موسى ، لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل ، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا ، فتاب اللَّه عليهم ، فقال : إن هذه الألواح فيها كتاب اللَّه فيه أمركم الذي أمركم به ، ونهيكم الذي نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا واللَّه حتى نرى اللَّه جهرة حتى يطلع اللَّه علينا فيقول : هذا كتابي فخذوه ، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى وقرأ قول اللَّه : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ قال : فجاءت غضبة من اللَّه فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم ، فماتوا أجمعون ، قال : ثم أحياهم اللَّه من بعد موتهم وقرأ قول اللَّه ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فقال لهم موسى : خذوا كتاب اللَّه فقالوا : لا ، فقال أي شيء أصابكم ؟ فقالوا : أصابنا أنا متنا ثم أحيينا ، قال : خذوا كتاب اللَّه ، قالوا : لا ، فبعث اللَّه ملائكة فنتقت الجبل فوقهم . وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعدما أحيوا . وقد حكى الماوردي في ذلك قولين : أحدهما أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق ، والثاني أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف قال القرطبي : وهذا هو الصحيح ؛ لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم ، لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أمورًا عظامًا من خوارق العادات ، وهم في ذلك مكلفون ، وهذا واضح واللَّه أعلم .

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم ، شرع يذكرهم أيضًا بما أسبغ عليهم من النعم فقال : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ وهو جمع غمامة ، سمي بذلك لأنه يغم السماء أي يواريها ويسترها ، وهو السحاب

الأبيض ظللوا به في التيه ليقيهم حر الشمس . قال ابن عبّاس ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ قال : غمام أبرد من هذا وأطيب ، وهو الذي يأتي اللّٰه فيه في قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر . قال ابن عبّاس : وكان معهم في التيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ ﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المنّ ما هو ؟ .

والظاهر واللّٰه أعلم أنه كل ما امتن اللّٰه به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك ، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد ، فالمنّ المشهور إن أكل وحده كان طعامًا وحلاوة ، وإن مزج مع الماء صار شرابًا طيبًا ، وإن ركب مع غيره صار نوعًا آخر ، لكن ليس هو المراد من الآية وحده ، والدليل على ذلك قول سعيد بن زيد ﷺ قال : قال النبيّ ﷺ : « الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ » [(١)] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « العَجْوَةُ مِنَ الجَنَّةِ وَفِيهَا شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ ، وَالكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ » [(٢)] .

وأما السلوى فقال ابن عبّاس : السلوى طائر يشبه بالسماني ، كانوا يأكلون منه . وعن عكرمة : السلوى طير كطير يكون بالجنة ، أكبر من العصفور أو نحو ذلك . وقال قتادة : السلوى كان من طير إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب ، وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك ، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده ، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه ؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه . وقال وهب بن منبه : السلوى طير سمين مثل الحمامة كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت .

وقال السدي : لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى ﷺ : كيف لنا بما ههنا ؟ أين الطعام ؟ فأنزل اللّٰه عليهم المنّ ، فكان ينزل على شجر الزنجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السماني أكبر منه ، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سمينًا ذبحه ، وإلّا أرسله فإذا سمن أتاه ، فقالوا هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا ، فشرب كل سبط من عين ، فقالوا : هذا الشراب فأين الظل ؟ فظلل عليهم الغمام ، فقالوا : هذا الظل فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتخرق لهم ثوب فذلك قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ قال ابن عطية : السلوى طير بإجماع المفسرين ، وقد غلط الهذلي في قوله : إنه العسل .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ أمر إباحة وإرشاد وامتنان ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم ، هذا ما شاهدوه من الآيات البينات ، والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات ، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمّد ﷺ ورضي عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم ، مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته منها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد ، لم يسألوا خرق عادة

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن(٤٦٣٩) ومسلم في الأشربة(١٥٧) والبيهقي في السنن(٣٤٥/٩)

(٢) أخرجه الترمذي في السنن(٢٠٦٨) وأحمد في مسنده(٣٥٦/٢) والدارمي في السنن(٣٣٨/٢) .

ولا إيجاد أمر ، مع أن ذلك كان سهلًا على النبي ﷺ ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم ، فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة ، فدعا اللّه فيه وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم ، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل اللّه تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم ، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم ، ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر . فهذا هو الأكمل في اتباع الشيء مع قدر اللّه مع متابعة الرسول ﷺ .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ .

يقول تعالى لائمًا لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر بصحبة موسى عليه السلام ، فأمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل ، وقتال من فيها من العماليق الكفرة ، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا ، فرماهم اللّه في التيه عقوبة لهم ، وقيل : إن هذه البلدة هي بيت المقدس وقيل : هي أريحاء . ويحكى عن ابن عبّاس وعبد الرّحمن بن زيد ، وهذا بعيد لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء ، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر ، والصحيح الأول أنها بيت المقدس ، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام ، وفتحها اللّه عليهم عشية جمعة ، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلًا حتى أمكن الفتح ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب ، باب البلد ﴿ سُجَّدًا ﴾ أي شكرًا للّه تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ، ورد بلدهم عليهم ، وإنقاذهم من التيه والضلال .

وكان ابن عبّاس يقول في قوله تعالى : ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أي ركعًا ، وحكي عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته . وقال ابن عبّاس : كان الباب قبل القبلة . وقال الضحاك : هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس . وعن عبد اللّه بن مسعود : قيل لهم : ادخلوا الباب سجدًا فدخلوا مقنعي رءوسهم أي رافعي رءوسهم خلاف ما أمروا .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ أي : مغفرة استغفروا . وقال ابن عباس : قولوا هذا الأمر حق كما قيل لكم . وقال عكرمة : قولوا لا إله إلّا اللّه ، ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قال قتادة : هذا جواب الأمر ، أي إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات ، وضاعفنا لكم الحسنات .

وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا للّه تعالى عند الفتح بالفعل والقول ، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها ، والشكر على النعمة عندها ، والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند اللّه تعالى ، فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر . وفسّره ابن عبّاس بأنه نعي إلى رسول اللّه ﷺ أجله فيها . وأقرّه على ذلك عمر رضي الله عنه ، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك ، ونعى إليه روحه الكريمة أيضًا ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جدًّا عند النصر ، كما روي أنه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلًا إليها من الثنية العليا وإنه لخاضع لربه حتى أن عثنونه ليمس مورك رحله شكرًا للّه على ذلك ، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات ، وذلك ضحى ، فقال بعضهم : هذه صلاة الضحى ، وقال آخرون : بل هي صلاة الفتح ، فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه ثماني ركعات عند

أول دخوله ، كما فعل سعد بن أبي وقاص ﷺ لما دخل إيوان كسرى ، صلى فيه ثماني ركعات ، والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم ، وقيل يصليها كلها بتسليم واحد والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ عن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ ، فَبَدَّلُوا وَقَالُوا : حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ »(١) .

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دلّ عليه السياق أنهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل ، فأمروا أن يدخلوا سجدًا ، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم ، رافعي رءوسهم ، وأمروا أن يقولوا : حطة ، أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا ، فاستهزأوا فقالوا : حنطة في شعيرة ، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته . ولهذا قال : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ عن ابن عبّاس : كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب . وقال أبو العالية : الرجز الغضب . وقال الشعبي : الرجز إما الطاعون وإما البرد . وعن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت ﷺ قالوا : قال رسول الله ﷺ : « الطَّاعُونُ رِجْزُ عَذَابٍ ، عُذِّبَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ »(٢) ، وعن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ هَذَا الوَجَعَ وَالسَّقَمَ رِجْزٌ ، عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ »(٣) .

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى ﷺ حين استسقاني لكم ، وتيسيري لكم الماء ، وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم ، وتفجيري الماء لكم منه من ثنتي عشرة عينًا ، لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها ، فكلوا من المنّ والسلوى ، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم ، بلا سعي منكم ولا كد ، واعبدوا الذي سخّر لكم ذلك ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها وقد بسطه المفسرون في كلامهم كما قال ابن عبّاس ﷺ : وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع ، وأمر موسى ﷺ فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا ، في كل ناحية منه ثلاث عيون ، وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها ، لا يرتحلون من منقلة إلّا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المنّ والسلوى طعامًا طيبًا نافعًا هنيئًا سهلًا ، واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم ، وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة ، من البقول ونحوها مما سألتم .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤١) ومسلم في التفسير (٦٥) وأحمد في مسنده (٣١٢/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٣) ومسلم في السلام (٩٢) .
(٣) أخرجه مسلم في السلام (٩٦) والطبراني في الكبير (٩٣/١) .

قال الحسن البصري : فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه ، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه ، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبقل وفوم ، فقالوا : ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ ﴾ وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المنّ والسلوى ؛ لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم . فهو مأكل واحد .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ﴾ فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع . وقوله تعالى : ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف في مصاحف الأئمة العثمانية ، وهو قراءة الجمهور بالصرف . قال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف على ذلك . وقال ابن عبّاس : ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ قال : مصرًا من الأمصار . وقال ابن جرير : وقع في قراءة أبيّ بن كعب وابن مسعود ﴿ ٱهۡبِطُواْ مصرَ ﴾ من غير إجراء يعني من غير صرف [(١)] . ثم روي عن أبي العالية والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون . قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضًا . ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف كما في قوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرَاْ ۝ قَوَارِيرَاْ ﴾ ثم توقف في المراد ما هو أمصر فرعون أم مصر من الأمصار ، وهذا الذي قاله فيه نظر ، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روي عن ابن عبّاس وغيره ، والمعنى على ذلك لأن موسى عليه السلام يقول لهم : هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه ، فلن يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه . ولهذا قال : ﴿ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ ﴾ أي ما طلبتم ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم .

﴿ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ ﴾ أي وضعت عليهم ، وألزموا بها شرعًا وقدرًا ، أي لا يزالون مستذلين ، من وجدهم استذلهم وأهانهم ، وضرب عليهم الصغار ، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾ قال الضحاك : استحقوا الغضب من الله . وقال الربيع بن أنس : فحدث عليهم غضب من الله . وقال سعيد بن جبير : استوجبوا سخطًا . وقال ابن جرير : انصرفوا ورجعوا ، ولا يقال : باء إلّا موصولًا إما بخير وإما بشر ، يقال منه باء فلان بذنبه يبوء به بوءًا وبواء ، إذا رجعوا منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله غضب ، ووجب عليهم من الله سخط .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ﴾ يقول تعالى : هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة ، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وكفرهم بآيات الله ، وإهانتهم حملة الشرع ، وهم الأنبياء وأتباعهم ، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم ، فلا كفر أعظم من هذا ، إنهم كفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق ،

---

(١) وهي قراءة الحسن وطلحة بن مصرف والأعمش (انظر : زاد المسير ٨٩/١) .

ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاسِ »[١] وقال ابن مسعود : كنت لا أحجب عن النجوى ، ولا عن كذا ، ولا عن كذا ، فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوي فأدركته من آخر حديثه وهو يقول : يا رسول الله قد قسم لي من الجمال ما ترى ، فما أحب أن أحدًا من الناس فضلني بشراكين فما فوقهما ، أليس ذلك هو البغي ؟ فقال : « لاَ لَيْسَ ذَلِكَ مِنَ البَغْيِ وَلكِنَّ البَغْيِ مَنْ بَطِرَ ، أَوْ قَالَ : سَفِه الحقَّ وَغَمَطَ النَّاسَ »[٢] يعني رد الحق ، وانتقاص الناس ، والازدراء بهم ، والتعاظم عليهم ، ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله ، وقتلهم أنبياءه ، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وكساهم ذلًا في الدنيا موصولًا بذل الآخرة ، جزاءً وفاقًا . وعن عبد الله بن مسعود قال : كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار . وعن ابن مسعود أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا وَإِمَامُ ضَلاَلَةٍ ، وَمُمَثِّلٌ مِنَ المُمَثِّلِينَ »[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون ، فالعصيان فعل المناهي ، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه ، والمأمور به .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَٰرَىٰ وَالصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

لما بيَّن تعالى حال من خالف أوامره ، وارتكب زواجره ، وتعدَّى في فعل ما لا إذن فيه ، وانتهك المحارم ، وما أحلّ بهم من النكال ، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع ، فإن له جزاءَ الحسنى ، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة ، كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه .

وقال سلمان ﷺ : سألت النبيَّ ﷺ عن أهل دين كنت معهم ، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم ، فنزلت ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَٰرَىٰ وَالصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ ﴾ إلى آخر الآية ، وقال السدي : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَٰرَىٰ وَالصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ الآية نزلت في أصحاب سلمان الفارسي بينما هو يحدث النبيَّ ﷺ إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم ، فقال : كانوا يصلون ، ويصومون ، ويؤمنون بك ، ويشهدون أنك ستبعث نبيًّا ، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبي الله ﷺ : « يَا سَلْمَانُ هُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » فاشتد ذلك على سلمان ، فأنزل الله هذه الآية فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام ، حتى جاء عيسى ، فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكًا ، وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنًا مقبولًا منه ، حتى جاء محمّد ﷺ فمن لم يتبع محمَّدًا ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكًا . قلت : وهذا لا ينافي ما روي عن ابن عبّاس ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَٰرَىٰ وَالصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ ﴾ الآية - قال - فأنزل الله بعد ذلك

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٥/١) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٠/١٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨١/١) والهندي في كنز العمال (٩٣٦٦) .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ . فإن هذا الذي قاله ابن عبّاس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملًا ، إلّا ما كان موافقًا لشريعة محمّد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به ، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة .

فاليهود أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم . واليهود من الهوادة ، وهي المودة أو التهود ، وهي التوبة كقول موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي تبنا فكأنهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض ، وقيل لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب ، وقال أبو عمرو بن العلاء : لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة ، فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له ، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى ، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم ، وقد يقال لهم أنصار أيضًا كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ وقيل : إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضًا يقال لها ناصرة ، والله أعلم . والنصارى جمع نصران ، كنشاوى جمع نشوان ، وسكارى جمع سكران ، ويقال للمرأة نصرانة .

فلما بعث الله محمّدًا ﷺ خاتمًا للنبيين ورسولًا إلى بني آدم على الإطلاق وجب عليهم تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانكفاف عما عنه زجر ، وهؤلاء هم المؤمنون حقًّا ، وسميت أمة محمّد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم ، وشدة إيقانهم ؛ ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية .

وأما الصابئون فقد اختلف فيهم ، فقال مجاهد : هم قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين ، وقال الضحاك : فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور ؛ ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق : لا باس بذبائحهم ومناكحتهم . وقال الحسن : هم قوم يعبدون الملائكة .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مذكرًا بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله ، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق ، رفع الجبل فوق رءوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه ، ويأخذوه بقوة وحزم وامتثال ، فالطور هو الجبل ، ونص على ذلك ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد ، وهذا ظاهر ، وفي رواية عن ابن عبّاس الطور ما أنبت من الجبال ، وما لم ينبت فليس بطور . وقال الحسن في قوله : ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ يعني التوراة . وقال قتادة : القوة : الجد وإلّا قذفته عليكم ، قال : فأقروا أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة ، ومعنى قوله : وإلّا قذفته عليكم أي أسقطته عليكم ، يعني الجبل . قوله ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ ﴾ أي : اقرأوا ما في التوراة واعملوا به .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ ﴾ يقول تعالى : ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه ، وانثنيتم ونقضتموه ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ أي بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ﴾ يا معشر اليهود ، ما أحل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله ، وخالفوا عهده وميثاقه ، فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره ، إذ كان مشروعًا لهم فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت ، بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل ، فلم تخلص منها يومها ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة ، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر ، وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ، ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ قال مجاهد : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة . وإنما هو مثل ضربه الله ، وقال ابن عبّاس : فجعل الله منهم القردة والخنازير ، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة وأن الشيخة صاروا خنازير . وقال الضحّاك عن ابن عبّاس : فمسخهم الله قردة بمعصيتهم يقول : إذ لا يحيون في الأرض إلّا ثلاثة أيام ، قال : ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل ، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه ، فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء ، ويحوله كما يشاء .

قلت : والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، من أن مسخهم إنما كان معنويًّا لا صوريًّا ، بل الصحيح أنه معنوي صوري والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا ﴾ الضمير في ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا ﴾ عائد إلى القردة ، وقيل على الحيتان ، وقيل : على العقوبة ، وقيل : على القرية ، حكاها ابن جرير . والصحيح أن الضمير عائد على القرية ، أي فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿ نَكَٰلًا ﴾ أي عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون : ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي من القرى ، قال ابن عبّاس : يعني جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة ، عبرة لما حولها من القرى . وقال أبو العالية والربيع : ﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾ لما بقي بعدهم من الناس من بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم ، وكان هؤلاء يقولون : المراد لما بين يديها وما خلفها في الزمان . وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتي بعدهم من الناس أن تكون أهل تلك القرية عبرة لهم ، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن يكون عبرة لمن سبقهم ؟ وهذا لعل أحدًا من الناس لا يقوله - بعد تصوره - فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان وهو ما حولها من القرى .

وحكي الرازي ثلاثة أقوال : أحدها : أن المراد بما بين يديها وما خلفها من تقدمها من القرى بما عندهم من العلم ، بخبرها بالكتب المتقدمة ومن بعدها . والثاني : المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم . والثالث : أنه تعالى جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل وما بعده ، وهو قول الحسن .

قلت : وأرجح الأقوال المراد بما بين يديها وما خلفها من بحضرتها من القرى ، يبلغهم خبرها وما حل بها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال ابن عباس : هم الذين من بعدهم إلى يوم القيامة . وقال السدي : أمة محمّد ﷺ .

قلت : المراد بالموعظة ههنا الزجر ، أي جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال ، في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله ، وما تحيلوا به من الحيل ، فليحذر المتقون صنيعهم ، لئلا يصيبهم ما أصابهم . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تَرتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ اليَهُودُ ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الحِيَلِ »[1] .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة ، وبيان القاتل من هو بسببها ، وإحياء الله المقتول ، ونصه على من قتله منهم .

ذِكْرُ بَسْطِ القِصَّة

عن عبيدة السلماني قال : كان رجل من بني إسرائيل عقيمًا لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلًا ، فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأي منهم والنهى : علامَ يقتل بعضكم بعضًا وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ قال : فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم ، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبًا ، فأخذوها بملء جلدها ذهبًا ، فذبحوها ، فضربوه ببعضها فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ فقال : هذا - لابن أخيه - ثم مال ميتًا ، فلم يعط من ماله شيئًا ، فلم يورث قاتل بعد .

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ۝ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ .

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ، ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم ، كما قال ابن عبّاس وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ أي ما هذه البقرة ، وأي شيء صفتها ، قال ابن جريج : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا أُمِرُوا بِأَدْنَى بَقَرَةٍ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا شَدَّدُوا شَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَثْنُوا لَمَا بُيِّنَتْ لَهُمْ آخِرَ الأَبَدِ »[2] قال : ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أي لا كبيرة هرمة ، ولا صغيرة لم يلحقها الفحل ، وقال الضحاك عن ابن عبّاس ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾

(١) ذكره الألباني في إرواء الغليل (٣٧٥/٥) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٧/١) .

نصف بين الكبيرة والصغيرة ، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر ، وأحسن ما تكون . وقال السدي : العوان النصف التي بين ذلك ، التي قد ولدت وولد ولدها . وقال عطية العوفي : ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ تكاد تسود من صفرتها . وقال سعيد بن جبير : صافية اللون . وقال شريك عن معمر : صاف . وقال العوفي في تفسيره عن ابن عبّاس : شديدة الصفرة ، تكاد من صفرتها تبيض . وقال السدي ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ : أي تعجب الناظرين . وقال وهب بن منبه : إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها . وفي التوراة أنها كانت حمراء فلعل هذا خطأ في التعريب ، أو كما قال الأول : إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ أي لكثرتها فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ إذا بينتها لنا ﴿ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إليها .

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾ أي إنها ليست مذللة بالحراثة ، ولا معدة للسقي في الساقية ، بل هي مكرمة حسنة صبيحة مسلَّمة صحيحة لا عيب فيها .

﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي ليس فيها لون غير لونها . وقال قتادة ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ : لا عيب فيها . وقال عطاء الخرساني : مسلَّمة القوائم والخلق لا شية فيها . وقال مجاهد : لا بياض ولا سواد . وقال أبو العالية والحسن : ليس فيها بياض .

﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ قال قتادة : الآن بينت لنا . ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : كادوا أن لا يفعلوا ، ولم يكن ذلك الذي أرادوا لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها ، يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلَّا بعد الجهد ، وفي هذا ذم لهم ، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلَّا التعنت ، فلهذا ما كادوا يذبحونها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنهم اشتروها بمال كثير ، وفيه اختلاف ، ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك .

مسألة : استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق على صحة السلم في الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا ، بدليل ما ثبت عن النبيّ ﷺ : « لاَ تَنْعَتُ المَرْأَةُ المَرْأَةَ لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا »[(١)] وكما وصف النبي ﷺ إبل الدية في قتل الخطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث . وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون : لا يصح السلم في الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال البخاري : ﴿ فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ﴾ اختلفتم . وقال الضحاك : اختصمتم فيها . وقال ابن جريج : قال بعضهم : أنتم قتلتموه ، وقال آخرون : بل أنتم قتلتموه .

﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال مجاهد : ما تغيبون . وقال المسيب بن رافع : ما عمل رجل

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/١٧٣) بلفظ « لا تصف » بدلًا من « لا تنعت » .

حسنة في سبعة أبيات إلَّا أظهرها الله ، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلَّا أظهرها ، وتصديق ذلك في كلام الله ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة ، فالمعجزة حاصلة به ، وخرق العادة به كائن ، وقد كان معينًا في نفس الأمر ، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيَّنه الله تعالى لنا ، ولكنه أبهمه ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نبهمه كما أبهمه الله . ولهذا قال ابن عبّاس : إن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل في بقر له ، وكانت بقرة تعجبه ، قال : فجعلوا يعطونه بها فيأبى ، حتى أعطوه ملء مسكها دنانير فذبحوها ، فضربوه - يعني القتيل - بعضو منها فقام تشخب أوداجه دمًا ، فقالوا له : من قتلك ، قال : قتلني فلان .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي فضربوه فحيي ، ونبَّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل ، جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد ، وفاصلًا ما كان بينهم من الخصومة والعناد ، والله تعالى قد ذكر في هذه السورة ما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع . ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ وهذه القصة ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة ، ونبَّه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميمًا ، فعن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : « أَمَا مَرَرْتَ بِوَادٍ مُمْحِلٍ ، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ خَضِرًا » ؟ قال : بلى . قال : « كَذَلِكَ النُّشُورُ » أو قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[1] .

مسألة : استدل لمذهب الإمام مالك في كون قول الجريح : فلان قتلني لوثًا ، بهذه القصة لأن القتيل لما حيي سئل عمن قتله فقال : فلان قتلني . فكان ذلك مقبولًا منه ؛ لأنه لا يخبر حينئذ إلَّا بالحق ولا يتهم والحالة هذه ، ورجحوا ذلك لحديث أنس أن يهوديًا قتل جارية على أوضاح لها ، فرضخ رأسها بين حجرين فقيل : « من فعل بك هذا ، أفلان ؟ أفلان ؟ » حتى ذكروا اليهودي فأومأت برأسها ، فأخذ اليهودي فلم يزل به حتى اعترف ، فأمر رسول الله ﷺ أن يرض رأسه بين حجرين[2] . وعند مالك إذا كان لوثًا ، حلف أولياء القتيل قسامة ، وخالف الجمهور في ذلك ، ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثًا .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى توبيخًا لبني إسرائيل ، وتقريعًا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ كله ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾ التي لا تلين أبدًا ، ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : لما ضرب المقتول يعض البقرة جلس أحيا ما كان قط ، فقيل له : من قتلك ؟ قال : بنو أخي قتلوني ، ثم قبض ، فقال بنو أخيه حين قبضه الله : والله ما قتلناه ، فكذبوا بالحق بعد

(١) أخرجه أحمد في مسنده(١٢/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في القسامة(١٧)

أن رأوه ، فقال الله : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ يعني أبناء أخي الشيخ ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية ، بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات ، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها ، أو أشد قسوة من الحجارة ، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريًا ، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه ، عن مجاهد أنه كان يقول : كل حجر يتفجر منه الماء ، أو يتشقق عن ماء ، أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله ، نزل بذلك القرآن . وقال ابن عبّاس ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ أي وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وقال أبو علي الجياني في تفسيره : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ هو سقوط البرد من السحاب . وقال يحيى بن يعقوب في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ﴾ قال كثرة البكاء ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ ﴾ قال : قليل البكاء ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ قال : بكاء القلب من غير دموع العين .

وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز ، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة ، كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله : ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة : ولا حاجة إلى هذا ، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ وفي الصحيح : « هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » (١) ، وكحنين الجذع المتواتر خبره . وفي الصحيح « إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ » (٢) وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلم بحق يوم القيامة ، وغير ذلك مما في معناه ، وحكى القرطبي قولًا أنها للتخيير أي مثلًا لهذا وهذا .

تنبيه : اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى : ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك فقال بعضهم : أو ههنا بمعنى الواو وتقديره : فهي كالحجارة وأشد قسوة : كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ .

وقال آخرون : معنى ذلك ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ عندكم . وقال آخرون : المراد بذلك الإبهام على المخاطب ، كما قال أبو الأسود :

أُحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا ... وَعَبَّاسًا وَحَمْزَةَ وَالوَصِيَّا

فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِبْهُ ... وَلَيْسَ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيَّا

وقال ابن جرير : قالوا : ولا شك أنّ أبا الأسود لم يكن شاكًا في أن حب من سمى رشد ، ولكنه أبهم على من خاطبه . قال : وقد ذكر عن أبي الأسود ، أنه لما قال هذه الأبيات قيل له : شككت فقال : كلا والله ، ثم انتزع بقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فقال : أو كان شاكًا من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٤٩) .
(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (٢) وأحمد في مسنده (٥/٩٥) والدارمي في السنن (١/١٢) .

أخبر بهذا من الهادي منهم ومن الضال ؟ وقال بعضهم : معنى ذلك : فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين ، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة ، وإما أن تكون أشد منها في القسوة . قال ابن جرير : ومعنى ذلك على هذا التأويل فبعضها كالحجارة قسوة ، وبعضها أشد قسوة من الحجارة ، قلت : وهذا القول الأخير يبقى شبيهًا بقوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ مع قوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي : أن منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا . وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ تُكْثِرُوا الكَلاَمَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الكَلاَمِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةُ القَلْبِ ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ القَلْبُ القَاسِي » (١) .

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أي ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالّة من اليهود ، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ﴾ وليس قوله : يسمعون التوراة كلهم قد سمعها ، ولكن هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها . وقال السدي : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾ قال : هي التوراة حرَّفوها . وهذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عبّاس وابن إسحاق ، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق ؛ فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ﴾ أي مبلغًا إليه ، ولهذا قال قتادة في قوله : ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قال : هم اليهود ، كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ قال ابن عباس : أي أن صاحبكم رسول الله ، ولكنه إليكم خاصة وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لا تحدثوا العرب بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم ، فأنزل الله ﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ ﴾ أي تقرون بأنه نبي ، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا ، اجحدوه ولا تقروا به . يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وقال الضحاك عن ابن عبّاس : يعني المنافقين من اليهود ، كانوا إذا لقوا أصحاب محمّد ﷺ قالوا : آمنا . وقال السدي : هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ، ثم نافقوا . قال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : كان رسول الله ﷺ قد قال : « لاَ يَدْخُلَنَّ عَلَيْنَا قَصَبَةَ المَدِينَةِ إِلَّا مُؤْمِنٌ » فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤١١) والمنذري في الترغيب (٥٣٨/٣) والألباني في الضعيفة (٩٢٠) .

اذهبوا فقولوا : آمنا واكفروا إذا رجعتم إلينا ، فكانوا يأتون المدينة بالبكر ، ويرجعون إليهم بعد العصر . وقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وكانوا يقولون ، إذا دخلوا المدينة : نحن مسلمون ، ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره ، فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر ، فلما أخبر الله نبيّه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون . وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون : أليس قد قال الله لكم كذا وكذا ؟ فيقولون بلى . فإذا رجعوا إلى قومهم يعني الرؤساء فقالوا : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية ، يعني بما أنزل عليكم في كتابكم من نعت محمّد ﷺ قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم ، فقال : « يا إخوان القردة والخنازير ويا عبدة الطاغوت » فقالوا : من أخبر بهذا الأمر محمّدًا ؟ ما خرج هذا القول إلَّا منكم ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بما حكم الله للفتح ليكون لهم حجة عليكم [(١)] . قال ابن جريج عن مجاهد : هذا حين أرسل إليهم عليًا فآذوا محمّدًا ﷺ .

﴿ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ هؤلاء الناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به ، فقال بعضهم لبعض ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ من العذاب ليقولوا : نحن أحب إلى الله منكم .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قال أبو العالية : يعني ما أسروا من كفرهم بمحمّد ﷺ وتكذيبهم به ، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم ، وقال الحسن : كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمّد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمّد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم ، خشية أن يحاجّهم أصحاب محمّد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم ، ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يعني حين قالوا لأصحاب محمّد ﷺ آمنا .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٥ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ أي ومن أهل الكتاب . والأميون جمع أمي وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة . وهو ظاهر في قوله تعالى : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي لا يدرون ما فيه . ولهذا في صفات النبيّ ﷺ : أنه الأمي لأنه لم يكن يحسن الكتابة . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّا أُمَّةٌ أُمِيةٌ لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا » [(٢)] أي لا نفتقر في عباداتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا حساب . وقال ابن جرير : نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه .

قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ يقول : إلَّا قولًا يقولونه بأفواههم كذبًا . وقال مجاهد : إلَّا كذبًا . وقال ابن جريج عن مجاهد : أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئًا ، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ، ويقولون : هو من الكتاب ، أماني يتمنونها .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨١/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١٥) وأبو داود في السنن (٢٣١٩) وأحمد في مسنده (٥٢/٢) .

وقال قتادة ﴿ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ : يتمنون على الله ما ليس لهم ، قال ابن جرير : والأشبه بالصواب قول ابن عبّاس . وقال مجاهد : إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئًا ، ولكنهم يتخرصون الكذب ، ويتخرصون الأباطيل كذبًا وزورًا ، والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه ، ومنه الخبر المروي عن عثمان بن عفان ﷺ ما تغنيت ولا تمنيت يعني ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب .

قال ابن عبّاس : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أي ولا يدرون ما فيه ، وهم يجدون نبوتك بالظن . وقال مجاهد ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ يكذبون . وقال قتادة وأبو العالية والربيع : يظنون بالله الظنون بغير الحق .

قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الآية هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل . والويل : الهلاك والدمار ، وهي كلمة مشهورة في اللغة . ويل : صديد في أصل جهنم . وقال عطاء بن يسار : الويل وادٍ في جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت . وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « وَيْلٌ وَادٍ في جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ » (١) . وعن ابن عبّاس : الويل المشقة من العذاب . وقال الخليل بن أحمد : الويل شدة الشر . وقال سيبويه : ويل لمن وقع في الهلكة ، وويح لمن أشرف عليها . وقال الأصمعي : الويل تفجع ، والويح ترحم . وقال غيره : الويل الحزن . وقال الخليل : وفي معنى ويل ويح وويش وويه وويك وويب ، ومنهم من فرق بينها . وقال بعض النحاة : إنما جاز الابتداء بها وهي نكرة لأن فيها معنى الدعاء ، ومنهم من جوز نصبها بمعنى ألزمهم ويلًا . قلت : لكن لم يقرأ بذلك أحد .

وعن ابن عبّاس ﷺ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ قال : هم أحبار اليهود . وقال السدي : كان ناس من اليهود كتبو كتابًا من عندهم يبيعونه من العرب ، ويحدثونهم أنه من عند الله ، فيأخذوا به ثمنًا قليلًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ أي فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء ، وويل لهم مما أكلوا به من السحت .

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسّهم النار إلَّا أيامًا معدودة ، ثم ينجون منها ، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ أي بذلك ، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ، ولكن هذا ما جرى ولا كان ولهذا أتى بأم التي بمعنى بل ، أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه .

عن ابن عبّاس : إن اليهود كانوا يقولون : إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب بكل ألف سنةٍ يومًا في النار ، وإنما هي سبعة أيام معدودة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ إلى

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٦٤) وأحمد في مسنده (٧٥/٣) والحاكم في المستدرك (٥٩٦/٤) .

قوله : ﴿ خَٰلِدِينَ ﴾ . وقال عكرمة : خاصمت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا : لن ندخل النار إلّا أربعين ليلة ، وسيخلفنا فيها قوم آخرون ، يعنون محمّدًا ﷺ وأصحابه ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم « بَلْ أَنْتُمْ خَالِدُونَ وَمُخَلَّدُونَ لاَ يَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَحَدٌ » ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ الآية [١] . وعن أبي هريرة قال : لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم ، فقال رسول الله ﷺ : « اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ ههُنَا » فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَنْ أَبُوكُمْ » ؟ قالوا : فلان ، قال : « كَذَبْتُمْ بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ » ، فقالوا : صدقت وبررت ، ثم قال لهم : « هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ ؟ » قالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَنْ أَهْلِ النَّارِ ؟ » ، فقالوا : نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « اخْسَؤُوا وَاللَّهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا » ثم قال لهم رسول الله ﷺ : « هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ ؟ » قالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال : « هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا » فقالوا : نعم ، قال : « فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ » فقالوا : أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك ، وإن كنت نبيًّا لم يضرك [٢] .

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ليس الأمر كما تمنيتم ، ولا كما تشتهون ، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته ، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة ، بل جميع أعماله سيئات ، فهذا من أهل النار ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي آمنوا بالله ورسوله ، وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة ، فهم من أهل الجنّة .

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ أي عمل مثل أعمالكم ، وكفر بمثل ما كفرتم به ، حتى يحيط به كفره فما له من حسنة . وفي رواية عن ابن عبّاس قال : الشرك . وقال السدي : السيئة الكبيرة من الكبائر وقال مجاهد : ﴿ وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ بقلبه . وقال الربيع بن خيثم : الذي يموت على خطاياه من قبل أن يتوب . وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى والله أعلم . ويذكر ههنا الحديث الذي روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ » [٣] وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلًا كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا ، فأنضجوا ما قذفوا فيها [٤] .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

يذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر ، وأخذه ميثاقهم على ذلك ، وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصدًا وعمدًا وهم يعرفونه ويذكرونه ، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وبهذا أمر جميع خلقه ، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها ، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٢٤٦/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥١/٢) والبغوي في شرح السنة (٢٣/١٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣١/٥) والألباني في الصحيحة (٣٨٩) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/١) .

وحده لا شريك له ، ثم بعده حق المخلوقين ، وآكدهم بذلك حق الوالدين ، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : « الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا » قلت : ثم أي ؟ قال : « بِرُّ الوَالِدَيْنِ » قلت : ثم أيّ ؟ قال : « الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه » [١] . ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلًا قال : يا رسول الله من أبر ؟ قال : « أُمَّكَ » قال : ثم مَن ؟ قال : « أُمَّكَ » قال ثم من ؟ قال : « أَبَاكَ ، ثُمَّ أَدْنَاكَ ، ثُمَّ أَدْنَاكَ » [٢]

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ قال الزمخشري : خبر بمعنى الطلب وهو آكد ، وقيل : كان أصله ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ كما قرأها من قرأها من السلف ، فحذفت أن فارتفع . وحكي عن أبيّ وابن مسعود أنهما قرآها (لا تعبدوا إلا الله) ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه . قال واختاره الكسائي والفراء . قال : ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم . وقوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ أي كلموهم طيبًا ولينوا لهم جانبًا ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف ، كما قال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحلم ويعفو ويصفح ، ويقول للناس حسنًا ، كما قال الله ، وهو كل خلق حسن رضيه الله .

عن أبي ذر ﷺ ، عن النبيّ ﷺ أنه قال : « لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؛ فَالْقَ أَخَاكَ بِوَجْهٍ مُنْطَلِقٍ » [٣] وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنًا ، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل ، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي ، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله ، أي تركوه وراء ظهورهم ، وأعرضوا عنه عن عمد ، بعد العلم به ، إلّا القليل منهم . وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها ولله الحمد والمنة .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٣٤) ومسلم في الإيمان (١٣٩) وأحمد في مسنده (٤١٠/١) .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٢) والترمذي في السنن (١٨٩٧) .
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٤) وأحمد في مسنده (٦٣/٥) .

يقول تبارك وتعالى منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار ، كانوا في الجاهلية عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه ، فيقتل اليهودي أعداءه ، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر ، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم ، ويخرجونهم من بيوتهم ، وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملًا بحكم التوراة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضًا ، ولا يخرجه من منزله ، ولا يظاهر عليه كما قال تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ بِمَنْزِلَةِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أي ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ ﴾ .

عن السدي قال : كانت قريظة حلفاء الأوس ، وكانت النضير حلفاء الخزرج ، فكانوا يقتتلون في حرب بينهم ، فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها ، النضير وحلفاءهم ، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها ويغلبونهم ، فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها ، فإذا أسر رجل من الفريقين كلاهما ؛ جمعوا له حتى يفدوه ، فتعيرهم العرب بذلك ويقولون : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا : إنا أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ، قالوا : فلمَ تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحيي أن تستذل حلفاؤنا ، فذلك حين عيَّرهم الله تبارك وتعالى فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ ﴾ الآية . وقال الشعبي : نزلت هذه الآية في قيس بن الحطيم ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ ﴾ الآية . وقال السدي عن عبد خير : غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بلنجر ، فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا ، واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة ، فلما مر برأس الجالوت نزل به فقال له عبد الله : يا رأس الجالوت هل لك في عجوز ههنا من أهل دينك تشتريها مني ، قال : نعم ، قال : أخذتها بسبعمائة درهم ، قال : فإني أربحك سبعمائة أخرى ، قال : فإني قد حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلاف ، قال : لا حاجة لي فيها ، قال : والله لتشترينها مني أو لتكفرن بدينك الذي أنت عليه ، قال : ادن مني ، فدنا منه فقرأ في أذنه مما في التوراة : إنك لا تجد مملوكًا من بني إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته ، ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ قال : أنت عبد الله بن سلام ؟ قال : نعم ، قال : فجاء بأربعة آلاف فأخذ عبد الله ألفين ورد عليه ألفين .

والذي أرشدت إليه الآية الكريمة وهذا السياق ، ذمُّ اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٦) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٤) والبيهقي في السنن (٣٥٣/٣) .

صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك ، وشهادتهم له بالصحة ، فلهذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها ، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره ، وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام ، واليهود - عليهم لعائن الله - يتكاتمونه بينهم ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ أي بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ أي استحبوها على الآخرة واختاروها ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجيرهم منه .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ .

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم ، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة ، فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها ، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِالرُّسُلِ ﴾ قال السدي عن أبي مالك : أتبعنا . وقال غيره : أردفنا . والكل قريب كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم . فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ، ولهذا أعطاه الله من البينات وهي المعجزات . قال ابن عبّاس من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس وهو جبريل ‹عليه السلام› ، ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحسدهم وعنادهم ، لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ الآية فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ، ففريقًا يكذبونه ، وفريقًا يقتلونه ، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها ، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم ، وربما قتلوا بعضهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ .

والدليل على أن روح القدس هو جبريل ما روي عن عائشة أن رسول الله ﷺ وضع لحسّان بن ثابت منبرًا في المسجد فكان ينافح عن رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ أَيِّدْ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ كَمَا نَافَحَ عَنْ نَبِيِّكَ » (١) وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهْجُهُمْ - أو هاجهم - وَجِبْرِيلُ مَعَكَ » (٢) وفي شعر حسان قوله :

وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا ... وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

أقوال أخر : وقال ابن عباس ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يحيي به

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٥١) وأحمد في مسنده (٥/٢٢٢) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٢٣) ومسلم في فضائل الصحابة (١٥٣) وأحمد في مسنده (٤/٣٠٢) .

الموتى . وقال ابن أبي نجيح : الروح هو حفظة على الملائكة . وقال الربيع بن أنس : القدس هو الرب تبارك وتعالى . وقال السدي : القدس البركة . وقال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ إنما لم يقل وفريقًا قتلتم ؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضًا ، لأنهم حاولوا قتل النبيّ ﷺ بالسم والسحر ، وقد قال عليه السلام في مرض موته : « مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي ، فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي » (١) .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أي في أكنة ، وقال : أي لا تفقه . وقال : هي القلوب المطبوع عليها فلا تعي ولا تفقه . وقرأ ابن عبّاس وعطاء : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي طردهم الله وأبعدهم من كل خير ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال قتادة : معناه لا يؤمن منهم إلّا القليل ، وعن حذيفة قال : « القلوب أربعة » فذكر منها « وقلب أغلف مغضوب عليه ، وذاك قلب الكافر » (٢) . وعن الحسن في قوله : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ قال : لم تختن ، وهذا القول يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم ، وأنها بعيدة من الخير . وعن ابن عبّاس ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ : أي أوعية للعلم ، وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيها ، حكاه ابن جرير ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلُفٌ ﴾ بضم اللام نقلها الزمخشري أي جمع غلاف أي أوعية بمعنى أنهم ادَّعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر ، كما كانوا يفتون بعلم التوراة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها .

وقد اختلفوا في معنى قوله : ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فقال بعضهم : فقليل من يؤمن منهم ، وقيل : فقليل إيمانهم ، بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ، ولكنه إيمان لا ينفعهم ، لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمّد ﷺ وقال بعضهم : إنما كانوا غير مؤمنين بشيء وإنما قال : ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم بالجميع كافرون كما تقول العرب قلما رأيت مثل هذا قط . تريد ما رأيت مثل هذا قط .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعني اليهود ﴿ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ وهو القرآن الذي أنزل على محمّد ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعني من التوراة وقوله : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون : إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، وعن قتادة الأنصاري عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم ، يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ قالوا : كنا قد علوناهم قهرًا دهرًا في الجاهلية ، ونحن أهل شرك وهم

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي(٤٤٢٨) والدارمي في المقدمة(٧) وأحمد في مسنده(١٨/٦) .
(٢) أخرجه أحمد في المسند(١٧/٣) والطبراني في الصغير(١١٠/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد(٦٣/١) .

أهل كتاب ، وهم يقولون : إن نبيًّا سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به ، قال ابن عبّاس : أن يهودًا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمّد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلاّم بن مشكم - أخو بني النضير - ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم . فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ الآية .

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ : يهود شروا الحق بالباطل ، وكتمان ما جاء به محمّد ﷺ بأن يبينوه . وقال السدي : بئسما أعتاضوا لأنفسهم فرضوا به ، وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمّد ﷺ ، عن تصديقه ومؤازرته ونصرته ، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية لـ ﴿ أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ولا حسد أعظم من هذا . قال ابن عبّاس : ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أي أن الله جعله من غيرهم ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ : فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم ، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم .

قلت : ومعنى ﴿ فَبَآءُو ﴾ استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب . وقال أبو العالية : غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمّد ﷺ وبالقرآن . قال السدي : أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم في العجل ، وأما الغضب الثاني فغضب عليهم حين كفروا بمحمّد ﷺ . وعن ابن عبّاس مثله .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ، ومنشأ ذلك التكبّر ، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة ، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبيّ ﷺ قال : « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيامَةِ أَمْثالَ الذَّرِّ في صُوَرِ النَّاسِ ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغارِ ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا في جَهَنَّمَ يُقالُ لَهُ بُولَسَ ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيارِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الخَبالِ عُصارَةِ أَهْلِ النَّارِ » (١) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ على محمّد ﷺ وصدقوه واتبعوه ﴿ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ، ولا نقر إلّا بذلك ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ يعني بما بعده ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ أي

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٢) وأحمد في مسنده (١٧٨/٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٨/٤) .

وهم يعلمون أن ما أنزل على محمّد ﷺ ﴿ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ منصوبًا على الحال ، أي في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل ، فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم ، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم ، والحكم بها ، وعدم نسخها ، وأنتم تعلمون صدقهم ؟ قتلتموهم بغيًا وعنادًا واستكبارًا على رسل اللَّه ، فلستم تتبعون إلَّا مجرد الأهواء والآراء والتشهي .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالآيات الواضحات ، والدلائل القاطعات ، على أنه رسول اللَّه ، وأنه لا إله إلَّا اللَّه ، والآيات البينات هي : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتظليلهم بالغمام والمنّ والسلوى والحجر ، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها ، ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي معبودًا من دون اللَّه في زمان موسى وأيامه ، وقوله : ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة اللَّه ﷿ .

﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أي وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل ، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلَّا اللَّه .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

يعدد ﷻ عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق ، وعتوهم وإعراضهم عنه ، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ، ثم خالفوه ولهذا ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ وقد تقدم تفسير ذلك ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ قال قتادة : أي أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم . وعن بلال بن أبي الدرداء عن النبيّ ﷺ قال : « حُبُّكَ الشَّيءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ » [(١)] .

وقوله : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه ، من كفركم بآيات اللَّه ، ومخالفتكم الأنبياء ، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمّد ﷺ ، وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم ، إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث إلى الناس أجمعين ، فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان ، وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة ، من نقضكم المواثيق ، وكفركم بآيات اللَّه ، وعبادتكم العجل من دون اللَّه !؟.

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس ﵄ : يقول اللَّه تعالى لنبيّه محمّد ﷺ : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب ،

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٥١٣٠) وأحمد في مسنده (٤٥٠/٦) .

فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي يعلمهم بما عندهم من العلم ، بل والكفر بذلك ولو تمنوه يوم قال لهم : ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات . وقال ابن عبّاس : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ : فسلوا الموت . وقال عكرمة قوله : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال : قال ابن عبّاس : لو تمنى يهود الموت لماتوا . وقال ابن جرير في تفسيره : وبلغنا أن النبيّ ﷺ قال : « لَوْ أَنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوا المَوتَ لَمَاتُوا ، وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لاَ يَجِدُونَ أَهْلاً وَلاَ مَالاً »[1] . فهم - عليهم لعائن اللّه تعالى - لما زعموا أنهم أبناء اللّه وأحباؤه ، وقالوا : ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ دعوا إلى المباهلة ، والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين ، فلما نكلوا عن ذلك ، علم كل أحد أنهم ظالمون ؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا علم كذبهم . وهذا كما دعا رسول اللّه ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة ، وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة ، فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض : واللّه لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف ، فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فضربها عليهم ، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أمينًا .

وأما من فسر الآية على معنى ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي في دعواكم ، فتمنوا الآن الموت ، ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة ، كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم . ومال إليه ابن جرير بعدما قارب القول الأول ، فإنه قال : القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ ﴾ الآية . فهذه الآية مما احتج اللّه سبحانه لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره ، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم ، وذلك أن اللّه تعالى أمر نبيه ﷺ إلى قضية عادلة فيما كان بينه وبينهم من الخلاف ، كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه في عيسى ابن مريم عليه السلام وجادلوه فيه إلى مفاصلة بينه وبينهم من المباهلة ، فقال لفريق اليهود : إن كنتم محقين فتمنوا الموت ، فإن ذلك غير ضاركم إن كنتم محقين فيما تدّعون من الإيمان وقرب المنزلة من اللّه لكم ، لكي يعطيكم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم ، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها ، والفوز بجوار اللّه في جناته ، إن كان الأمر كما تزعمون من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا ، وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا ، وانكشف أمرنا وأمركم لهم ، فامتنعت اليهود عن الإجابة إلى ذلك لعلمها ، أنها إن تمنت الموت هلكت ، فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها ، كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبيّ ﷺ في عيسى إذ دعوا للمباهلة من المباهلة .

فهذا الكلام منه أوله حسن ، وآخره فيه نظر ، وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل ، إذ يقال : إنه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أنهم يتمنون الموت ، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمني الموت ، وكم من صالح لا يتمنى الموت ، بل يود أن يعمر ليزداد خيرًا ، وترتفع درجته

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٤/٦) .

في الجنة ، ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا : فها أنتم تعتقدون أيها المسلمون أنكم أصحاب الجنّة ، وأنتم لا تتمنون في حال الصحة الموت ، فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم ، وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى ، فأما على تفسير ابن عبّاس فلا يلزم عليه شيء من ذلك ، بل قيل لهم كلام نصف ، إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس ، وأنكم أبناء الله وأحباؤه ، وأنكم من أهل الجنّة ومن عداكم من أهل النار ، فباهلوا على ذلك ، وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة ، فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه ، نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم ، وكتمانهم الحقّ من صفة الرسول ﷺ ونعته ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه ، فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . وسميت هذه المباهلة تمنيًا ؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ، ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره ، وكانت المباهلة بالموت ؛ لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة ، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ أي على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة ؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم ، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة ، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم ، وهذا من باب عطف الخاص على العام .

عن ابن عبّاس ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ قال : الأعاجم . وقال الحسن البصري ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ قال : المنافق أحرص الناس ، وأحرص من المشرك على حياة ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾ أي يود أحد اليهود وقال أبو العالية : يود أحد المجوس . قال ابن عبّاس ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : هو كقول الفارسي : (ده هزارسال) يقول عشرة آلاف سنة .

وعن ابن عبّاس ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ أي وما هو بمنجيه من العذاب ، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثًا بعد الموت ، فهو يحب طول الحياة ، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما ضيع ما عنده من العلم . وقال العوفي عن ابن عباس : هم الذين عادوا جبرائيل . ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر ، وسيجازي كل عامل بعمله .

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ .

قال الطبري : أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولي لهم ، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك ، فقال بعضهم : إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوّته .

ذكر من قال ذلك : عن ابن عبّاس قال : حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلّا نبي ، فقال رسول الله ﷺ : « سَلُوا عَمَّا شِئْتُمْ ، وَلَكِنِ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةً وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيه ، لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَعَرَفْتُمُوهُ لَتُتَابِعُنِّي عَلَى الإِسْلَامِ » فقالوا : ذلك لك ، فقال رسول الله ﷺ : « سَلُوا عَمَّا شِئْتُمْ » قالوا : أخبرنا عن أربع خلال

نسألك عنهن ، أخبرنا أي الطعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل ، وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في التوراة ، ومن وليه من الملائكة ؟ فقال النبيّ ﷺ : « عَلَيْكُمْ عَهْدُ اللَّهِ لَئِنْ أَنَا أَنْبَأْتُكُم لَتُتَابِعُنِّي ؟ » فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق فقال : « نَشَدْتُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَطَالَ سَقَمُهُ مِنْهُ ، فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ مَرَضِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحُومَ الإِبِلِ ، وَأَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانَهَا ؟ » فقالوا : اللهم نعم ، فقال رسول اللّه ﷺ : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ غَلِيظٌ أَبْيَضُ ، وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ رَقِيقٌ أَصْفَرُ ، فَأَيُّهُما عَلاَ كَانَ لَهُ الوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ ؟ ، وَإِذَا عَلاَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ كَانَ الوَلَدُ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَإِذَا عَلاَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ الوَلَدُ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ» قالوا : اللهم نعم قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، وَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ ؟ » قالوا : اللهم نعم ، قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » قالوا : أنت الآن فحدِّثنا من وليك من الملائكة ، فعندها نجامعك أو نفارقك قال : « فَإِنَّ وَلِيِّي جِبْرِيلُ ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ » قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك ، قال : « فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُصَدِّقُوهُ ؟ » قالوا : إنه عدونا فأنزل اللّه ﷻ : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ إلى قوله ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ فعندها باءوا بغضب على غضب [1] .

قال البخاري : قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ قال عكرمة : جبرا ، وميك ، وإسراف : عبد ، إيل : اللّه [2] . وعن أنس بن مالك قال : سمع عبد اللّه بن سلام بمقدم رسول اللّه ﷺ وهو في أرض يخترف ، فأتى النبيّ ﷺ فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلّا نبي : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنّة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : « أَخْبَرَنِي بِهَذِهِ جِبْرَائِيلُ آنِفًا » قال : جبريل ؟ قال : « نَعَمْ » قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ « وَأَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ : فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ : فَزِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتِ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدُ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَتْ » قال : أشهد أن لا إله إلّا اللّه وأنك رسول اللّه . يا رسول اللّه إن اليهود قوم بهت ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني ، فجاءت اليهود فقال لهم رسول اللّه ﷺ : « أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ فِيكُمْ ؟ » قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا قال : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ » قالوا : أعاذه اللّه من ذلك ، فخرج عبد اللّه فقال : أشهد أن لا إله إلّا اللّه وأشهد أن محمّدًا رسول اللّه ، فقالوا : هو شرنا وابن شرّنا وانتقصوه ، فقال : هذا الذي كنت أخاف يا رسول اللّه [3] . ومن الناس من يقول : إيل عبارة عن عبد ، والكلمة الأخرى هي اسم اللّه ؛ لأن كلمة إيل لا تتغير في الجميع ، فوازنه عبد اللّه ، عبد الرّحمن ، عبد الملك ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٨/١) وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢٦٦/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب قوله : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٠) .

عبد القدوس ، عبد السَّلام ، عبد الكافي ، عبد الجليل ، فعبد موجودة في هذا كله ، واختلفت الأسماء المضاف إليها ، وكذلك جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ونحو ذلك . وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف ، والله أعلم .

عن الشعبي قال : نزل عمر الروحاء ، فرأى رجالًا يبتدرون أحجارًا يصلون إليها ، فقال : ما بال هؤلاء؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا ، قال : فكفر ذلك ، وقال : أيما رسول أدركته الصلاة بواد صلاها ثم ارتحل فتركه ، ثم أنشأ يحدثهم فقال : كنت أشهد اليهود من مدراسهم [١] فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ، ومن القرآن كيف يصدق التوراة ، فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك ، قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : لأنك تغشانا وتأتينا ، فقلت : إني آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ، ومن التوراة كيف تصدق القرآن ، قالوا : ومر رسول الله ﷺ فقالوا : يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به ، قال : فقلت لهم عند ذلك : نشدتكم بالله الذي لا إله إلَّا هو ، وما استرعاكم من حقه ، وما استودعكم من كتابه ، هل تعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا ، فقال لهم عالمهم وكبيرهم : إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه ، قالوا : فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت ، قال : أما إذا نشدتنا بما نشدتنا ، فإنا نعلم أنه رسول الله ، قلت : ويحكم إذًا هلكتم ، قالوا : إنا لم نهلك ، قلت : كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه ؟!! قالوا : إن لنا عدوًّا من الملائكة وسلمًا من الملائكة ، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة ، قلت : ومن عدوكم ومن سِلْمكم ؛ قالوا : عدونا جبريل ، وسلمنا ميكائيل ، قالوا : إن جبرائيل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا ، قال : قلت : وما منزلتهما من ربهما ﷻ ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، قال : فقلت : فوالذي لا إله إلَّا هو إنهما والذي بينهما لعدوّ لمن عاداهما ، وسلم لمن سالمهما ، وما ينبغي لجبرائيل أن يسالم عدو ميكائيل ، وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدوَّ جبرائيل ، قال : ثم قمت فاتبعت النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من خوخة لبني فلان فقال : « يَا ابْنَ الخَطَّابِ أَلاَ أُقرِئُكَ آياتٍ نَزَلْنَ قَبْلُ » فقرأ عليّ : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ حتى قرأ الآيات ، قال : قلت : بأبي وأمي أنت يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ، لقد جئت أنا أريد أن أخبرك ، وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر [٢] .

وأما تفسير الآية فقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين ، الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك ، فهو رسول من رسل الله ملكي ، ومن عادى رسولًا فقد عادى جميع الرسل ، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل ، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزم الكفر بجميع الرسل ، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدوّ لله ؛ لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه ، وإنما ينزل بأمر ربه ، وقد روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالحَرْبِ » [٣] ولهذا غضب

---

(١) مدراسهم : المكان الذي يتذاكرون فيه كتابهم .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره ١/٦٠٨ .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (١٠/٢١٩) .

الله لجبرائيل على من عاداه ، فقال تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المتقدمة ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي هدى لقلوبهم ، وبشرى لهم بالجنة ، وليس ذلك إلا للمؤمنين ثم قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ يقول تعالى من عاداني وملائكتي ورسلي ، ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر ، ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام ، فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل ، ثم خصصا بالذكر ؛ لأن السياق في الانتصار لجبرائيل ، وهو السفير بين الله وأنبيائه ، وقرن معه ميكائيل في اللفظ ؛ لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم ، وميكائيل وليهم ، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر ، وعادى الله أيضًا ؛ ولأنه أيضًا ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان ، كما قرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر ، ولكن جبرائيل أكثر وهي وظيفته ، وميكائيل موكل بالنبات والقطر ، هذا بالهدى وهذا بالرزق ، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة ، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول : « اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمواتِ والأرْضِ ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ فيه إيقاع المظهر مكان المضمر ، حيث لم يقل فإنه عدو ، بل قال : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ كما قال الشاعر :

لاَ أَرَى المَوْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيْءٌ سَبَقَ المَوْتُ ذَا الغِنَى وَالفَقِيرا

وإنما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره ، وإعلامهم أن من عادى وليًا لله ، فقد عادى الله ، ومن عادى الله فإن الله عدو له ، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال الإمام أبو جعفر في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ الآية أي أنزلنا إليك يا محمّد علامات واضحات دالّات على نبوّتك ، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ، ومكنونات سرائر أخبارهم ، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل ، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم ، وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة ، فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيّه محمّد ﷺ ، فكان في

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٠) والترمذي في السنن (٣٤٢٠) والنسائي في السنن (٢٧٨/٨) .

ذلك من أمره الآيات البيّنات لمن أنصف من نفسه ، ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي ، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمّد ﷺ من الآيات البينات ، التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر ، ولا أخذ شيئًا منه عن آدمي . قال ابن عبّاس : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ يقول : فأنت تتلوه عليهم ، وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك ، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتابًا ، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه ، يقول اللّه تعالى لهم في ذلك عبرة وبيان ، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون .

وقال ابن عبّاس : قال ابن صوريا القطويني لرسول اللّه ﷺ : يا محمّد ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل اللّه عليك من آية بينة فنتبعك ، فأنزل اللّه في ذلك : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ . وقال مالك بن الصيف : حين بعث رسول اللّه ﷺ ، وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق ، وما عهد إليهم في محمّد ﷺ : واللّه ما عهد إلينا في محمّد ، وما أخذ علينا ميثاقًا . فأنزل اللّه تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ وقال الحسن البصري : ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إِلّا نقضوه ونبذوه ، يعاهدون اليوم وينقضون غدًا . وقال السدي : لا يؤمنون بما جاء به محمّد ﷺ . وقال قتادة : ﴿ نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ أي نقضه فريق منهم . وقال ابن جرير : أصل النبذ الطرح والإلقاء ، ومنه سمي اللقيط منبوذًا ، ومنه سمي النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء .

قلت : فالقوم ذمهم اللّه بنبذهم العهود التي تقدم إليهم في التمسك بها والقيام بحقها ، ولذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، الذي في كتبهم نعته وصفته وأخباره ، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته .

وقال السدي : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ لما جاءهم محمّد ﷺ ، عارضوه بالتوراة فخاصموه بها ، فاتفقت التوراة والقرآن ، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت ، فلم يوافق القرآن فذلك قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال قتادة في قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال : إن القوم كانوا يعلمون ، ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به ، وقال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ : وكان حين ذهب ملك سليمان ، ارتد فئام من الجن والإنس واتبعوا الشهوات ، فلما أرجع اللّه إلى سليمان ملكه ، وقام الناس على الدين كما كان ، وإن سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه ، وتوفي سليمان عليه السلام حدثان ذلك ، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان ، وقالوا : هذا كتاب من اللّه نزل على سليمان فأخفاه عنه ، فأخذوا به فجعلوه دينًا ، فأنزل اللّه تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ الآية . واتبعوا الشهوات التي كانت تتلو الشياطين وهي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر اللّه .

وقال الربيع بن أنس : إن اليهود سألوا محمّدًا ﷺ زمانًا عن أمور من التوراة ، لا يسألونه عن شيء من ذلك إِلّا أنزل اللّه ﷻ ما سألوه عنه فيخصمهم ، فلما رأوا ذلك قالوا : هذا أعلم بما أنزل

الله إلينا منا ، وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب ، فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك ، فدفنوه تحت كرسي مجلس سليمان ، وكان عليه السلام لا يعلم الغيب ، فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس ، وقالوا : هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه ، فأخبرهم النبيّ ﷺ بهذا الحديث فرجعوا من عنده ، وقد خرجوا وقد أدحض الله حجتهم .

وقال الحسن : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ قال : ثلث الشعر ، وثلث السحر ، وثلث الكهانة . وعنه أيضًا قال : وتبعته اليهود على ملكه ، وكان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها ، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان .

فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام ، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها ، وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم والله الهادي .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ﴾ أي واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب ، من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ، ومخالفتهم لرسول الله محمّد ﷺ ، ما تتلوه الشياطين ، أي ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان ، وعداه بعلى ؛ لأنه تضمن تتلو تكذب . وقال ابن جرير : ﴿ عَلَىٰ ﴾ ههنا بمعنى في ، أي ، تتلو في ملك سليمان قلت : والتضمن أحسن وأولى والله أعلم . وقول الحسن البصري رحمه الله : وكان السحر قبل زمن سليمان بن داود ، صحيح لاشك فيه ؛ لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام ، وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾ الآية ثم ذكر القصة بعدها ، وفيها ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ، وقال قوم صالح – وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام – لنبيهم صالح ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ أي المسحورين على المشهور .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ اختلف الناس في هذا المقام ، فذهب بعضهم إلى أن (ما) نافية ، أعني التي في قوله : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ ﴾ قال القرطبي : ما نافية ومعطوف على قوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ ﴾ وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل ، فأكذبهم الله وجعل قوله : ﴿ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ﴾ بدلًا من الشياطين ، قال : وصح ذلك ، إما لأن الجمع يطلق على الاثنين كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ ﴾ أو لكونهما لهما أتباع ، أو ذكرا من بينهم لتمردهما . تقدير الكلام عنده : يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، ثم قال : وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ، ولا يلتفت إلى ما سواه . وروي عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ الآية ، يقول : لم ينزل الله السحر . وبإسناده عن الربيع بن أنس قال : ما أنزل الله عليهما السحر . قال ابن جرير : فتأويل الآية على هذا : واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، ولا أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا

يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فيكون قوله : ﴿ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم ، قال : فإن قال لنا قائل : كيف وجه تقديم ذلك ؟ قيل : وجه تقديمه أن يقال : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ من السحر ، وما كفر سليمان ، وما أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فيكون معنيًا بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام ؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكرت كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك ، وأخبر نبيّه محمّدًا ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر ، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت ، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردًّا عليهم .

ذِكْرُ الحَدِيث الوَارِد في ذلك إن صَحَّ سَنده وَرَفْعُه وَبَيَان الكَلام عليه : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع نبي الله ﷺ يقول : « إِنَّ آدَمَ عليه السلام لَمَّا أَهْبَطَهُ اللَّهُ إِلَى الأَرْضِ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ : أَيْ رَبِّ ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قَالُوا : رَبَّنَا نَحْنُ أَطْوَعُ لَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلاَئِكَةِ : هَلُمُّوا مَلَكَيْنِ مِنَ المَلاَئِكَةِ حَتَّى نُهْبِطَهُمَا إِلَى الأَرْضِ فَنَنْظُر كَيْفَ يَعْمَلاَنِ ، قَالُوا : رَبَّنَا هَارُوتُ وَمَارُوتُ ، فَأُهْبِطَا إِلَى الأَرْضِ ، وَمُثِّلَتْ لَهُمَا الزُّهْرَةُ امْرَأَةً مِنْ أَحْسَنِ البَشَرِ ، فَجَاءَتْهُمَا فَسَأَلاَهَا نَفْسَهَا ، فَقَالَتْ : لاَ وَاللَّهِ حَتَّى تَتَكَلَّمَا بِهَذِهِ الكَلِمَةِ مِنَ الإِشْرَاكِ ، فَقَالاَ : وَاللَّهِ لاَ نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا ، فَذَهَبَتْ عَنْهُمَا ثُمَّ رَجَعَتْ بِصَبِيٍّ تَحْمِلُهُ ، فَسَأَلاَهَا نَفْسَهَا ، فَقَالَتْ : لاَ وَاللَّهِ حَتَّى تَقْتُلا هَذَا الصَّبِيَّ ، فَقَالاَ : لاَ واللَّهِ لاَ نَقْتُلُهُ أَبَدًا ، فَذَهَبَتْ ثُمَّ رَجَعَتْ بِقَدَحِ خَمْرٍ تَحْمِلُهُ ، فَسَأَلاَهَا نَفْسَهَا فَقَالَتْ : لا واللَّهِ حَتَّى تَشْرَبَا هَذَا الخَمْرَ ، فَشَرِبَا فَسَكِرَا ، فَوَقَعَا عَلَيْهَا ، وَقَتَلاَ الصَّبِيَّ ، فَلَمَّا أَفَاقَا قَالَتِ المَرْأَةُ : وَاللَّهِ مَا تَرَكْتُمَا شَيْئًا أَبَيْتُمَاهُ عَلَيَّ إِلَّا قَدْ فَعَلْتُمَاهُ حِينَ سَكِرْتُمَا ، فَخُيِّرَا بَيْنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ فَاخْتَارَا عَذَابَ الدُّنْيَا » (١) .

ذِكْرُ الآثَارِ الوَارِدَةِ فِي ذلكَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعين رضي الله عنهم أجمعين

روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال .

وقد ورد في ذلك أثر غريب وسياق عجيب في ذلك أحببنا أن ننبه عليه ، عن عائشة زوج النبيّ ﷺ أنها قالت : قدمت عليَّ امرأة من أهل دومة الجندل ، جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته حداثة ذلك ، تسأله عن أشياء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به ، وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٢) والبيهقي في السنن (٥/١٠) والألباني في الضعيفة (١٧٠) .

يا ابن أختي ، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفيها ، فكانت تبكي حتى إني لأرحمها وتقول : إني أخاف أن أكون قد هلكت : كان لي زوج فغاب عني ، فدخلت عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها ، فقالت : إنْ فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك ، فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين ، فركبت أحدهما وركبت الآخر ، فلم يكن شيء حتى وقفنا ببابل ، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا : ما جاء بك ؟ قلت : نتعلم السحر ، فقالا : إنما نحن فتنة فلا تكفري ، فارجعي فأبيت ، وقلت : لا ، قالا : فاذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه ، فذهبت ففزعت ولم أفعل ، فرجعت إليهما ، فقالا : أفعلت ؟ فقلت : نعم ، فقالا : هل رأيت شيئًا ؟ فقلت : لم أرَ شيئًا ، فقالا : لم تفعلي ، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري ، فأربيت وأبيت ، فقالا : اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه ، فذهبت فاقشعررت وخفت ، ثم رجعت إليهما وقلت : قد فعلت ، فقالا : فما رأيت ؟ قلت : لم أرَ شيئًا ، فقالا : كذبت لم تفعلي ارجعي إلى بلادك ولا تكفري ، فإنك على رأس أمرك فأربيت وأبيت ، فقالا : اذهبي إلى التنور فبولي فيه فذهبت إليه فبلت فيه ، فرأيت فارسًا مقنعًا بحديد خرج مني فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه ، فجئتهما فقلت : قد فعلت ، فقالا : فما رأيت ، قلت : رأيت فارسًا مقنعًا خرج مني ؛ فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه ، فقالا : صدقت ذلك إيمانك خرج منك . اذهبي ، فقلت للمرأة : والله ما أعلم شيئًا ، وما قالا لي شيئًا ، فقالت : بلى لم تريدي شيئًا إلَّا كان ، خذي هذا القمح فابذري فبذرت وقلت : اطلعي فطلعت ، وقلت : احقلي فأحقلت ، ثم قلت ، افركي فأفركت ، ثم قلت : ايبسي فأيبست ، ثم قلت : اطحني فأطحنت ، ثم قلت : اخبزي فأخبزت ، فلما رأيت أني لا أريد شيئًا ، إلَّا كان سقط في يدي وندمت ، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئًا ولا أفعله أبدًا .

وقد استدل بهذا الأثر من ذهب إلى أن الساحر له تمكن في قلب الأعيان ؛ لأن هذه المرأة بذرت واستغلت في الحال . وقال آخرون : بل ليس له قدرة إلَّا على التخييل كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ استدل به على أن بابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق ، لا بابل دنباوند كما قاله السدي وغيره ، ثم الدليل على أنها بابل العراق : ما قال أبو صالح الغفاري أن علي بن أبي طالب ﷺ مر ببابل وهو يسير ، فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر ، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة ، فلما فرغ قال : إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلي بأرض المقبرة ، ونهاني أن أصلي ببابل فإنها ملعونة [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ عن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية : نعم أنزل الملكان بالسحر ، ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس ، فأخذ عليهم الميثاق أن لا يعلما أحدًا حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر . وقال ابن جريج في هذه الآية : لا يجترئ على السحر إلَّا كافر ، وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار ومنه قول الشاعر :

وَقَدْ فُتِنَ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ وَخَلَّى ابْنُ عَفَّانَ شَرًّا طَوِيلا

---

(١) أخرجه : البيهقي في السنن ٢/٤٥١ .

وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر ، واستشهد له بالحديث : « مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ أي فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ، ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف ، وهذا من صنيع الشياطين وسبب التفريق بين الزوجين ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك ، أو عقد أو بغضة أو نحو ذلك ، من الأسباب المقتضية للفرقة ، والمرء عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة ، ويثنى كل منهما ولا يجمعان ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قال سفيان الثوري : إلَّا بقضاء الله . وقال محمّد بن إسحاق : إلَّا بتخلية الله بينه وبين ما أراد . وقال الحسن البصري : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قال : نعم من شاء الله سلطه عليه ، ومن لم يشأ الله لم يسلط ، ولا يستطيعون من أحد إلَّا بإذن الله ، كما قال الله تعالى . وفي رواية عن الحسن أنه قال : لا يضر هذا السحر إلَّا من دخل فيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ أي يضرهم في دينهم ، وليس له نفع يوازي ضرره ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ ، لمن فعل فعلهم ذلك أنه ما له في الآخرة من خلاق . قال ابن عبّاس وغيره : ما له في الآخرة من جهة عند الله ، وقال الحسن : ليس له دين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝١٠٢ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ يقول تعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ ﴾ البديل ما استبدلوا به من السحر عوضًا عن الإيمان ومتابعة الرسول ، لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي ولو أنهم آمنوا بالله ورسله ، واتقوا المحارم ، لكان مثوبة الله على ذلك خيرًا لهم مما استخاروا لأنفسهم ، ورضوا به .

وقد استدل بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر ، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف ، وقيل : بل لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه ، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل ، عن جندب الأزدي أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ » (٢) . وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه ، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه ، فقال الناس : سبحان الله يحيي الموتى ، ورآه رجل من صالحي المهاجرين ، فلما كان الغد جاء مشتملًا على سيفه ، وذهب يلعب لعبه ذلك ، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر ، وقال : إن كان صادقًا فليحيي نفسه ، وتلا قوله تعالى :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٩/٢) وأبو داود في السنن (٣٩٠٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٦٠) والحاكم في المستدرك (٣٦٠/٤) ، والطبراني في الكبير (١٧٢/١٢) والدارقطني في السنن (١١٤/٣) .

﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه ، والله أعلم . وعن حارثة قال : كان عند بعض الأمراء رجل يلعب ، فجاء جندب مشتملاً على سيفه فقتله ، قال : أراه كان ساحرًا ، وحمل الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركًا ، والله أعلم .

فصل : حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر ، قال : وربما كفَّروا من اعتقد وجوده ، قال : وأما أهل السنَّة فقد جوَّزوا أن يقدر الساحر أن يطير في الهواء ، ويقلب الإنسان حمارًا ، والحمار إنسانًا ، إلَّا أنهم قالوا : إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر : تلك الرقى والكلمات المعينة ، فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا ، خلافًا للفلاسفة والمنجمين والصابئة ، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سحر ، وأن السحر عمل فيه ، وبقصة المرأة مع عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها وتعلمها السحر ، قال : وبما يذكر في هذا الباب من الحكايات كثيرة ، ثم قال بعد هذا :

مسألة : في أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور : اتفق المحققون على ذلك ؛ لأن العلم لذاته شريف ، وأيضًا لعموم قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولأن السحر لو لم يكن يعلم ، لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة ، والعلم بكون المعجز معجزًا واجب ، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب ، فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبًا ، وما يكون واجبًا فكيف يكون حرامًا وقبيحًا ؟ هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة . وهذا الكلام فيه نظر من وجوه : أحدها : قوله : العلم بالسحر ليس بقبيح ، إن عني به ليس بقبيح عقلًا ، فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا ، وإن عني أنه ليس بقبيح شرعًا ، ففي هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر ، وفي الصحيح : « مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ »[1] وفي السنن « مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً وَنَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ »[2] . وقوله : ولا محظور ، اتفق المحققون على ذلك ، كيف لا يكون محظورًا مع ما ذكرناه من الآية والحديث ، واتفاق المحققين يقتضي أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة من العلماء أو أكثرهم ، وأين نصوصهم على ذلك ؟ ثم إدخاله علم السحر في عموم قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيه نظر ؛ لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين العلم الشرعي ، ولم قلت إن هذا منه ، ثم ترقيه إلى وجوب تعلمه بأن لا يحصل العلم بالمعجز إلَّا به ضعيف ، بل فاسد ؛ لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هي القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلًا ، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا يعلمون المعجز ويفرقون بينه وبين غيره ، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ، ولا علموه ، والله أعلم .

ثم قد ذكر أبو عبد الله الرازي أن أنواع السحر ثمانية :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٩/٢) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١١٢/٧) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٢/٤) .

النوع الأول : سحر الكذّايين والكشدانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة وهي السيارة ، وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم ، وأنها تأتي بالخير والشر ، وهم الذين بعث الله إليهم إبراهيم الخليل ﷺ مبطلًا لمقالتهم ، ورادًّا لمذهبهم ، وقد استقصى في (كتاب السر المكتوم ، في مخاطبة الشمس والنجوم) المنسوب إليه كما ذكرها القاضي ابن خلكان وغيره ، ويقال : إنه تاب منه ، وقيل : بل صنفه على وجه إظهار الفضيلة ، لا على سبيل الاعتقاد ، وهذا هو المظنون به ، إلا أنه ذكر فيه طريقهم في مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة ، وكيفية ما يفعلون وما يلبسونه وما يتنسكون به .

والنوع الثاني : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية : ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجسر الموضوع على وجه الأرض ، ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدودًا على نهر أو نحوه ، قال : وكما أجمعت الأطباء على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر ، والمصروع إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران ، وما ذاك إلّا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام . قال : وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق . وله أن يستدل على ذلك بما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « العَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيءٌ سَابِقَ القَدَرَ لَسَبَقَتْهُ العَيْنُ » [1] قال : فإذا عرفت هذا فنقول : النفس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جدًّا فتستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات ، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات ، وتحقيقه أن النفس إذا كانت متعلية على البدن ، شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات ، صارت كأنها روح من الأرواح السماوية ، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم ، وإذا كانت ضعيفة ، شديدة التعلق بهذه الذات البدنية ، فحينئذ لا يكون لها تأثير البتة إلّا في هذا البدن ، ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء ، والانقطاع عن الناس والرياء .

قلت : وهذا الذي يشير إليه هو التصرف بالحال ، وهو على قسمين : تارة تكون حالًا صحيحة شرعية ، يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ ويترك ما نهى الله تعالى عنه ورسوله ﷺ ، فهذه الأحوال مواهب من الله تعالى ، وكرامات للصالحين من هذه الأمة ، ولا يسمى هذا سحرًا في الشرع . وتارة تكون الحال فاسدة ، لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ ، ولا يتصرف بها في ذلك ، فهذه حال الأشقياء المخالفين للشريعة ولا يدل إعطاء الله إياهم هذه الأحوال على محبته لهم ، كما أن الدجال له من الخوارق للعادات ما دلت عليه الأحاديث الكثيرة ، مع أنه مذموم شرعًا - لعنه الله - وكذلك من شابهه من مخالفي الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وبسط هذا يطول جدًّا وليس هذا موضعه .

والنوع الثالث من السحر : الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن ، خلافًا للفلاسفة والمعتزلة وهم على قسمين : مؤمنون ، وكفار وهم الشياطين . قال : واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية ، لما بينهما من المناسبة والقرب ، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجويد ، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير .

النوع الرابع من السحر التخيلات : والأخذ بالعيون والشعبذة ، ومبناه على أن البصر قد يخطئ

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٤٤) ومسلم في السلام (٤٢) والترمذي في السنن (٢٠٦١) وأحمد في مسنده (٤٢٠/٢) .

ويشتغل بالشيء المعين دون غيره ، ألا ترى ذا الشعبذة الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به ، ويأخذ عيونهم إليه ، حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه ، عمل شيئًا آخر عملًا بسرعة شديدة ، وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جدًا ، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله ، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه ، لفطن الناظرون لكل ما يفعله . قال : وكلما كانت الأحوال تفيد حسن البصر نوعًا من أنواع الخلل أشد ، كان العمل أحسن ، مثل أن يجلس المشعبذ في موضع مضيء جدًا أو مظلم ، فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها والحالة هذه .

قلت : وقد قال بعض المفسّرين : إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبذة .

النوع الخامس من السحر : الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب الهندسية ، كفارس على فرس في يده بوق ، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد ، ومنها الصور التي تصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان ، حتى يصورونها ضاحكة وباكية ، إلى أن قال : فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل قال : وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل .

قلت : يعني ما قاله بعض المفسرين : إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصي فحشوها زئبقًا ، فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق ، فيخيل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها .

قال الرازي : ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات ، ويندرج في هذا الباب علم جر الأثقال بالآلات الخفيفة . قال : وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر ؛ لأن لها أسبابًا معلومة يقينية من اطلع عليها قدر عليها .

قلت : ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم ، بما يرونهم إياه من الأنوار ، كقضية قمامة الكنيسة التي لهم ببلد المقدس ، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة ، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على الطغام منهم ، وأما الخواص فهم معترفون بذلك ، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم ، فيرون ذلك سائغًا لهم . وفيه شبهة على الجهلة الأغبياء من متعبدي الكرامية ، الذين يرون جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب ، فيدخلون في عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » [1] وقوله : « حَدِّثُوا عَنِّي وَلاَ تَكْذِبُوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَكْذِب عَلَيَّ يَلِج النَّارَ » [2] ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان ، وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة ، فإذا سمعته الطيور ترق له ، فتذهب فتلقي في وكره من ثمر الزيتون ليتبلغ به ، فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله ، وتوصل إلى أن جعله أجوف ، فإذا دخلته الريح يسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر ، وانقطع في صومعة ابتناها وزعم أنها على قبر بعض صالحيهم ، وعلق ذلك الطائر في مكان منها ، فإذا كان زمان الزيتون فتح بابًا من ناحيته ، فيدخل الريح إلى داخل هذه الصورة ، فيسمع صوتها كل طائر في شكله أيضًا ، فتأتي الطيور فتحمل من

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٠٧) وأبو داود في السنن (٣٦٥١) وأحمد في مسنده (١٦٧/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦/٣) والحميدي في مسنده (١١٦٥) .

الزيتون شيئًا كثيرًا ، فلا ترى النصارى إلَّا ذلك الزيتون في هذه الصومعة ولا يدرون ما سببه ، ففتنهم بذلك وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر ، عليهم لعائن اللَّه المتتابعة إلى يوم القيامة .

النوع السادس من السحر : الاستعانة بخواص الأدوية يعني في الأطعمة والدهانات قال : واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص ، فإن تأثير المغناطيس مشاهد .

قلت : يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعي الفقر ، ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص ، مدعيًا أنها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات .

النوع السابع من السحر : التعليق للقلب ، وهو أن يدعي الساحر أنه عرف الاسم الأعظم ، وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور ، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز ، اعتقد أنه حق وتعلّق قلبه بذلك ، وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة ، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة ، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء .

قلت : هذا النمط يقال له : التنبلة ، وإنما يروج على ضعفاء العقول من بني آدم . وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه ، فإذا كان النبيل حاذقًا في علم الفراسة ، عرف من ينقاد له من الناس من غيره .

النوع الثامن من السحر : السعي بالنميمة ، والتقريب من وجوه خفيفة لطيفة : وذلك شائع في الناس .

قلت : النميمة على قسمين : تارة تكون على وجه التحريش بين الناس ، وتفريق قلوب المؤمنين ، فهذا حرام متّفق عليه ، فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس ، وائتلاف كلمة المسلمين كما جاء في الحديث « لَيْسَ بِالكَذَّابِ مَنْ يَنُمُّ خَيْرًا » [(١)] أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة ، فهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث : « الحَرْبُ خُدْعَةٌ » [(٢)] وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة ، جاء إلى هؤلاء فنمَّ إليهم عن هؤلاء كلامًا ، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئًا آخر ، ثم لأم بين ذلك فتناكرت النفوس وافترقت ، وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء ذو البصيرة النافذة ، واللَّه المستعان .

ثم قال : فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه .

قلت : وإنما أدخل كثيرًا من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر للطافة مداركها ؛ لأن السحر في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه ، ولهذا جاء في الحديث : « إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا » [(٣)] وسمي السحور لكونه يقع خفيًّا آخر الليل ، والسحر : الرئة وهي محل الغذاء ، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه ، كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة : انتفخ سحره ، أي انتفخت رئته من الخوف . وقال تعالى : ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي أخفوا عنهم عملهم ، واللَّه أعلم .

وقال أبو عبد اللَّه القرطبي : وعندنا أن السحر حق ، وله حقيقة يخلق اللَّه عنده ما يشاء ، خلافًا للمعتزلة وأبي إسحاق الإسفراييني من الشافعية حيث قالوا : إنه تمويه وتخييل ، قال : ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة ، والشعوذي البريد ، لخفة سيره ، قال ابن فارس : وليست هذه الكلمة من كلام أهل البادية .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٠١) والبيهقي في السنن (١٩٧/١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٧) وأبو داود في السنن (٢٦٣٦) والترمذي في السنن (١٦٧٥) وأحمد في مسنده (٣١٤/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٥٠٠٧) وأحمد في مسنده (٢٦٣/٤) والحاكم في المستدرك (٦١٣/٣) .

قال القرطبي : ومنه ما يكون كلامًا يحفظ ، ورقى من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهود الشياطين ، ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك قال : وقوله عليه الصلاة السّلام : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » يحتمل أن يكون مدحًا كما تقوله طائفة ، ويحتمل أن يكون ذمًّا للبلاغة ، قال : وهذا أصح ، قال : لأنها تصوب الباطل حتى توهم السامع أنه حق ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ » [1] الحديث .

فصل : وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمّد بن هبيرة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (الإشراف على مذاهب الأشراف) بابًا في السحر فقال : أجمعوا على أن السحر له حقيقة ، إلّا أبا حنيفة فإنه قال : لا حقيقة له عنده ، واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك ، ومن أصحاب أبي حنيفة من قال : إن تعلّمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ، ومن تعلّمه معتقدًا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر . وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ إذا تعلّم السحر قلنا له صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرّب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر ، قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم ، وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا فأما إن قتل بسحره إنسانًا ؛ فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد ، وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك ، أو يقر بذلك في حق شخص معين ، وإذا قتل ؛ فإنه يقتل حدًّا عندهم ، إلّا الشافعي فإنه قال : يقتل والحالة هذه قصاصًا ، قال : وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم : لا تقبل ، وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى : تقبل ، وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم ، وقال مالك وأحمد والشافعي : لا يقتل ، يعني لقصة لبيد بن الأعصم ، واختلفوا في المسلمة الساحرة ؛ فعند أبي حنيفة أنها لا تقتل ولكن تحبس ، وقال الثلاثة : حكمها حكم الرجل والله أعلم . وقال أبو بكر الخلال : أخبرنا أبو بكر المروزي قال : قرأ على أبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - عمر بن هارون أخبرنا يونس عن الزهري قال : يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين ؛ لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها . وقد نقل القرطبي عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال في الذمي : يقتل إن قتل سحره ، وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين في الذمي إذا سحر : إحداهما : أنه يستتاب ، فإن أسلم وإلّا قتل ، والثانية : أنه يقتل وإن أسلم ، وأما الساحر فإن تضمن سحره كفرًا ؛ كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ لكن قال مالك : إذا ظهر عليه لم تقبل توبته ؛ لأنه كالزنديق ؛ فإن تاب قبل أن يظهر عليه ، وجاءنا تائبًا قبلناه ، فإن قتل سحره قتل ، قال الشافعي : فإن قال : لم أتعمد القتل ؛ فهو مخطئ تجب عليه الدية .

مسألة : وهل يسأل الساحر حلًّا لسحره ؟ فأجازه سعيد بن المسيّب فيما نقله عنه البخاري ، وقال عامر الشعبي : لا بأس بالنشرة ، وكره ذلك الحسن البصري ، وفي الصحيح عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠) ومسلم في الأقضية (٤) وأحمد في مسنده (٢٠٣/٦) .

هلا تنشرت ، فقال : « أَمَّا اللَّه فَقَدْ شَفَانِي وَخَشِيتُ أَنْ أَفْتَحَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا » [١] .

وحكى القرطبي عن وهب : أنه قال : يؤخذ سبع ورقات من سدر ، فتدق بين حجرين ، ثم تضرب بالماء وهو يقرأ عليها آية الكرسي ، ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ، ثم يغتسل بباقيه فإنه يذهب ما به ، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته .

قلت : أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل اللَّه على رسوله في إذهاب ذلك ، وهما المعوذتان ، وفي الحديث : « لَمْ يَتَعَوَّذِ الْمُتَعَوِّذُ بِمِثْلِهِمَا » [٢] ، وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ .

نهى اللَّه تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص - عليهم لعائن اللَّه - فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا يقولوا : راعنا ، ويورُّون بالرعونة ، وقد جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون : السام عليكم ، والسام هو الموت ، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم (وعليكم) وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا ، والغرض أن اللَّه تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولًا وفعلًا ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَجَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجَعَلْتُ الذِّلَّةَ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي . وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » [٣] . وعن ابن معن وعون أو أحدهما أن رجلًا أتى عبد اللَّه بن مسعود فقال : اعهد إليّ ، فقال : إذا سمعت اللَّه يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك ؛ فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه . وقال الأعمش عن خيثمة قال : ما تقرأون في القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فإنه في التوراة يا أيها المساكين . وقال ابن عبّاس : ﴿ رَٰعِنَا ﴾ أي أرعنا سمعك . وقال أيضًا : كانوا يقولون للنبي ﷺ : أرعنا سمعك ، وإنما راعنا كقولك : عاطنا . وقال مجاهد : ﴿ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾ : لا تقولوا : خلافًا ، وفي رواية : لا تقولوا : اسمع منا ونسمع منك . وقال عطاء : ﴿ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾ كانت لغة تقولها الأنصار فنهى اللَّه عنها . وقال السدي : كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبيّ ﷺ فإذا لقيه فكلمه قال : أرعني سمعك واسمع غير مسمع ، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا ، فكان ناس منهم يقولون : اسمع غير مسمع غير صاغر : وهي كالتي في سورة النساء ، فتقدم اللَّه إلى المؤمنين أن لا يقولوا : راعنا . وقال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك عندنا أن اللَّه نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيّه ﷺ راعنا ؛ لأنها كلمة كرهها اللَّه تعالى أن يقولوها لنبيّه ﷺ نظير الذي ذكر عن النبيّ ﷺ أنه قال : « لا تَقُولُوا لِلْعِنَبِ : الكَرْم ، وَلَكِنْ قُولُوا : الحَبَلَةُ ، وَلاَ تَقُولُوا : عَبْدِي ، وَلَكِنْ قُولُوا : فَتَايَ » [٤] وما أشبه ذلك .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٩٦) .
(٢) أخرجه النسائي في السنن (٨/٢٥١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٩٢) والزيلعي في نصب الراية (٤/٣٤٧) .
(٤) أخرجه مسلم في الأدب (١١) وأحمد في مسنده (٢/٥٠٩) .

وقوله تعالى : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يبيِّن بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، الذين حذَّر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين ، ليقطع المودة بينهم وبينهم ، ونبَّه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل ، الذي شرعه لنبيّهم محمّد ﷺ حيث يقول تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ ما نبدل من آية . وقال مجاهد : أي ما نمحو من آية ، وقال نثبت خطها ونبدل حكمها ، حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وقال الضحاك : ما ننسك ، وقال عطاء : أما ﴿ مَا نَنسَخْ ﴾ فما تترك من القرآن . وقال ابن أبي حاتم : يعني ترك فلم ينزل على محمّد ﷺ . وقال السدي : نسخها قبضها . وقال ابن جرير : ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيّره ، وذلك أن نحول الحلال حرامًا ، والحرام حلالًا ، والمباح محظورًا ، والمحظور مباحًا ، ولا يكون ذلك إلّا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة ، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب ، وهو نقله من نسخة أخرى إلى غيرها ، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره ، إنما هو تحويله ، ونقل عبارة إلى غيرها ، وسواء نسخ حكمها أو خطها ؛ إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة . وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم في حد النسخ ، والأمر في ذلك قريب ؛ لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء ، ولحظ بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر ، فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل وعكسه ، والنسخ لا إلى بدله . وأما تفاصيل أحكام النسخ ، وذكر أنواعه وشروطه فمبسوطة في أصول الفقه . وعن سالم عن أبيه قال : قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله ﷺ ، فكانا يقرآن بها ، فقاما ذات ليلة يصليان ، فلم يقدرا منها على حرف ، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ ، فذكرا ذلك له ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا مِمَّا نُسِخَ وَأُنْسِيَ فَالهَوْا عَنْهَا » (١) فكان الزهري يقرؤها : ﴿ ما ننسخ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ بضم النون الخفيفة .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فقرئ على وجهين ﴿ ننسأها ﴾ و ﴿ نُنسِهَا ﴾ فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها . قال ابن عبّاس : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسأها ﴾ يقول : ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها . وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود : نثبت خطها ونبدل حكمها . وقال عبد بن عمير ومجاهد وعطاء : يعني الناسخ من المنسوخ . وقال أبو العالية نؤخرها ونرجئها . عن ابن عبّاس قال : خطبنا عمر رضي الله عنه فقال : يقول الله عز وجل : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسأها ﴾ (٢) أي نؤخرها . وأما على قراءة : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فقال قتادة : كان الله عز وجل ينسي نبيّه ﷺ ما يشاء ، وينسخ ما يشاء .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٨/١٢) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٤/٧) .

(٢) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو (انظر : زاد المسير ١٢٧/١) .

وقال الحسن : إن نبيكم ﷺ قرأ قرآنًا ثم نسيه . وقال ابن عبّاس : كان مما ينزل على النبيّ ﷺ الوحي بالليل ، وينساه بالنهار ، فأنزل اللّه ﷻ ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ . عن القاسم بن ربيعة قال : سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ قال : قلت له : فإن سعيد بن المسيب يقرأ ﴿ أَوْ ننساها ﴾ قال : فقال سعد : إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب قال : قال اللّه جل ثناؤه : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ . وعن ابن عبّاس قال : قال عمر عَليٌّ أقضانا ، وأُبي أقرؤنا ، وإنَّا لندع من قول أُبيٍّ وذلك أن أبيًّا يقول : لا أدع شيئًا سمعته من رسول اللّه ﷺ ، واللّه يقول : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [(١)] .

وقوله : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ أي في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين ، قال ابن عبّاس : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ يقول : خير لكم في المنفعة ، وأرفق بكم . وقال السدي : نأت بخير من الذي نسخناه ، أو مثل الذي تركناه . وقال قتادة : آية فيها تخفيف ، فيها رخصة ، فيها أمر ، فيها نهي .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، فله الخلق والأمر ، وهو المتصرّف ، فكما خلقهم كما يشاء ، ويسعد من يشاء ، ويشقي من يشاء ، ويصح من يشاء ، ويمرض من يشاء ، ويوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم في عباده بما يشاء ، فيحل ما يشاء ويحرّم ما يشاء ، ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء ، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى ، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى ، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره ، واتباع رسله في تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أمروا وترك ما عنه زجروا ، وفي هذا المقام رد عظيم ، وبيان بليغ ، لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم اللّه - في دعوى استحالة النسخ إما عقلًا كما زعمه بعضهم جهلًا وكفرًا ، وإما نقلًا كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكًا . قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : فتأويل الآية : ألم تعلم يا محمّد أن لي ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيري ، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وأنهى عما أشاء ، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي بما أشاء ، إذ أشاء ، وأقر فيهما ما أشاء ، ثم قال : وهذا الخبر وإن كان خطابًا من اللّه تعالى لنبيّه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته ، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود ، الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة ، وجحدوا نبوة عيسى ومحمَّد عليهما الصلاة والسلام ، لمجيئهما بما جاءا به من عند اللّه ، بتغيير ما غير اللّه من حكم التوراة ، فأخبرهم اللّه أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما ، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته ، وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ، وأن له أمرهم بما يشاء ونهيهم عما يشاء ، ونسخ ما يشاء ، وإقرار ما يشاء ، وإنشاء ما يشاء ، من إقراره وأمره ونهيه .

قلت : الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ ، إنما هو الكفر والعناد ؛ فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام اللّه تعالى ؛ لأنه يحكم ما يشاء ، كما أنه يفعل ما يريد ، مع أنه قد

---

(١) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨١) وأحمد في مسنده ١١٣/٥ .

وقع في كتبه المتقدمة ، وشرائعه الماضية ، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ، ثم حرَّم ذلك ، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ، ثم نسخ حل بعضها ، وكان نكاح الأختين مباحًا لإسرائيل وبنيه ، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها ، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل ، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل ، وأشياء كثيرة يطول ذكرها ، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه ، وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية ، فلا يصرف الدلالة في المعنى ؛ إذ هو المقصود ، وكما في كتبهم مشهورًا من البشارة بمحمّد ﷺ والأمر باتباعه ، فإنه يفيد وجوب متابعته عليه الصلاة والسلام ، وأنه لا يقبل عمل إلَّا على شريعته ، وسواء قيل : إن الشرائع المتقدمة مغياة إلى بعثه عليه الصلاة والسلام فلا يسمى ذلك نسخًا ؛ لقوله : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ ﴾ وقيل : إنها مطلقة ، وإن شريعة محمّد ﷺ نسختها ، فعلى كل تقدير ، فوجوب متابعته متعين ؛ لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهدًا بالله تبارك وتعالى ، ففي هذا المقام بيَّن تعالى جواز النسخ ردًّا على اليهود - عليهم لعنة الله - حيث قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية فكما أن له الملك بلا منازع ، فكذلك له الحكم بما يشاء ، والمسلمون كلهم متّفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى ؛ لما في ذلك من الحكمة البالغة ، وكلهم قال بوقوعه . وقال أبو مسلم الأصفهاني المفسر : لم يقع شيء من ذلك في القرآن ، وقوله ضعيف مردود مرذول ، وقد تعسف في الأجوبة عما وقع من النسخ ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول ، لم يجب عن ذلك بكلام مقبول ، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس لم يجب بشيء ، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة ، إلى مصابرة الاثنين ، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك ، والله أعلم .

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبيّ ﷺ عن الأشياء قبل كونها ، وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم ، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه ، فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة ؛ ولهذا جاء في الصحيح : « إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ » (١) . ولما سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلًا ، فإن تكلم تكلم بأمر عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك ، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها ، ثم أنزل الله حكمَ الملاعنة . وعن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال (٢) . وفي صحيح مسلم : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِنْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ » (٣) وهذا إنما قاله بعدما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثًا ، ثم قال عليه الصلاة والسّلام : « لاَ ، وَلَوْ قُلْتُ :

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٩) ومسلم في الفضائل (١٣٢) وأبو داود في السنن (٤٦١٠) والحاكم في المستدرك (٦٢٦/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٠/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (١٣١) وأحمد في مسنده (٤٨٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٥٣/٤) .

نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ » ثم قال : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ »[١] الحديث . ولهذا قال أنس بن مالك : نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع . وعن البراء بن عازب قال : إن كان ليأتي علي السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشيء فأتهيب منه ، وإن كنا لنتمنى الأعراب .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي بل تريدون ، أو هي على بابها في الاستفهام ، وهو إنكاري ، وهو يعمّ المؤمنين والكافرين ، فإنه عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى الجميع ، قال ابن عبّاس : قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد : يا محمّد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، وفجر لنا أنهارًا نتبعك ونصدقك . فأنزل الله من قولهم : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ قال : قال رجل : يا رسول الله لو كانت كفارتنا ككفارة بني إسرائيل فقال النبيّ ﷺ : « اللَّهُمَّ لا نَبْغِيها - ثلاثًا - مَا أَعْطَاكُمُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا أَصَابَ أَحدهم الخَطِيئَة وَجَدَهَا مَكْتُوبَةً عَلَى بَابِهِ وَكَفَّارتها ، فإن كفّرها كَانَت لَهُ خزيًا في الدُّنْيَا ، وَإِنْ لم يُكَفِّرْهَا كَانَتْ لَهُ خِزْيًا فِي الآخِرَةِ ، فَمَا أَعْطَاكُمُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا أَعْطَى بَنِي إِسْرَائِيلَ »[٢] قال : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وقال : « الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ والجُمُعَةِ إِلَى الجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ »[٣] وقال : « مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً وَاحِدَةً ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا ، وَلاَ يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ »[٤] فأنزل الله ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ .

والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنُّت والاقتراح ، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتًا وتكذيبًا وعنادًا .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أي ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال . وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

يحذّر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفّار من أهل الكتاب ، ويعلمهم بعداوتهم لهم في

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣١٣) . (٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/١٠٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (١٤) والترمذي في السنن (٢١٤) وأحمد في مسنده (٢/٤٠٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٣٤) والطبراني في الكبير (١٢/١٦١) .

الباطن والظاهر ، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيِّهم ، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح ، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ويحثّهم على ذلك ويرغبهم فيه ، عن ابن عبّاس قال : كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسدًا ؛ إذ خصهم الله برسوله ﷺ وكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ الآية . وقال الزهري في قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال : هو كعب بن الأشرف . وقال عبد الله بن كعب عن أبيه : أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرًا ، وكان يهجو النبيّ ﷺ ، وفيه أنزل الله ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ إلى قوله : ﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ ﴾ وقال ابن عبّاس : إن رسولًا أميًّا يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات ، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم ، ولكنهم جحدوا ذلك كفرًا وحسدًا وبغيًا ، وكذلك قال الله تعالى : ﴿ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ يقول : من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئًا ، ولكن الحسد حملهم على الجحود فعيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة ، وشرع لنبيّه ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم ، وما أنزل من قبلهم ، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم . وقال الربيع بن أنس : ﴿ مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ : من قبل أنفسهم . وقال أبو العالية : ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ : من بعد ما تبيّن أن محمّدًا رسول الله يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ، فكفروا به حسدًا وبغيًا إذ كان من غيرهم .

وقوله : ﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ نسخ ذلك قوله : ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ فنسخ هذا عفوه عن المشركين ، قال السدي : إنها منسوخة بآية السيف ، ويرشد إلى ذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ وقال أسامة بن زيد : كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى [1] . قال الله : ﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وكان رسول الله ﷺ يتأول من العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم بالقتل فقتل الله به من قتل من صناديد قريش [2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم ، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يعني أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ، ولا يضيع لديه ، سواء كان خيرًا أو شرًّا ، فإنه سيجازي كل عامل بعمله . وقال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ : هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين أنهم مهما فعلوا من خير أو شر ، سرًّا أو علانية ، فهو به بصير ، لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزيهم بالإحسان خيرًا ، وبالإساءة مثلها ، وهذا

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٠٧) والهندي في كنز العمال (٣٧٢٧١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٠٧) والبيهقي في السنن (٩/ ١٠) .

الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر ، فإن فيه وعدًا ووعيدًا وأمرًا وزجرًا ؛ وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ، ليجدُّوا في طاعته إذ كان ذلك مذخورًا لهم عنده ، حتى يثيبهم عليه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾ وليحذروا معصيته . قال : وأما قوله : ﴿ بَصِيرٌ ﴾ فإنه مبصر ، صرف إلى بصير كما صرف مبدع إلى بديع ، ومؤلم إلى أليم ، والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنّة إلّا من كان على ملّتها ، كما أخبر اللّه عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ فأكذبهم اللّه تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلّا أيامًا معدودة ، ثم ينتقلون إلى الجنّة ، ورد عليهم تعالى في ذلك ، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ وقال أبو العالية : أماني تمنوها على اللّه بغير حق . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمّد ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي حجتكم ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي فيما تدعونه .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي من أخلص العمل للّه وحده لا شريك له ، وقال أبو العالية : من أخلص للّه . وقال سعيد بن جبير : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ : أخلص ﴿ وَجْهَهُ ﴾ قال : دينه ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي اتبع فيه الرسول ﷺ ، فإن للعمل المتقبل شرطين ؛ أحدهما : أن يكون خالصًا للّه وحده ، والآخر : أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة ، فمتى كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يتقبل ، ولهذا قال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » (١) فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه للّه ، فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعًا للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، وفيهم وأمثالهم قال اللّه تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد للّه ، فهو أيضًا مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين .

وقوله : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور ، وآمنهم مما يخافونه من المحذور ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى مما يتركونه ، كما قال سعيد بن جبير : ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني في الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يعني لا يحزنون للموت .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ بيّن به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم ، عن ابن عبّاس قال : لما قدم أهل

---

(١) أخرجه مسلم في الأقضية (١٨) وأحمد في مسنده (١٨٠/٦) .

نجران من النصارى على رسول الله ﷺ ، أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والإنجيل ، وقال من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله في ذلك من قولهما : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ قالا : إن كلًّا يتلو في كتابه تصديق من كفر به ، أن يكفر اليهود بعيسى ، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى ، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى ، وما جاء من التوراة من عند الله ، وكل يكفر بما في يد صاحبه . وقال مجاهد : قد كان أوائل اليهود والنصارى على شيء . وقال قتادة : بلى قد كانت أوائل النصارى على شيء ، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا وقال الربيع بن أنس : هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، وهذا القول يقتضي أن كلًّا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى ، ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه ، مع علمهم بخلاف ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أي وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل ، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت ، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عنادًا وكفرًا ومقابلة للفاسد بالفاسد .

وقوله ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ بيَّن بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول ، وهذا من باب الإيماء والإشارة . وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فقال قتادة : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال : وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم . وقال ابن جريج : قلت لعطاء : من هؤلاء الذين لا يعلمون ؟ قال : أمم كانت قبل اليهود والنصارى ، وقبل التوراة والإنجيل . وقال السدي : فهم العرب قالوا : ليس محمَّد على شيء ، وقال الطبري : إنها عامة تصلح للجميع ، وليس ثم دليل قاطع يعين واحدًا من هذه الأقوال ، والحمل على الجميع أولى .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد . ويفصل بينهم بقضائه العدل ، الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها على قولين :

أحدهما : هم النصارى . حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس .

القول الثاني : المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة ، حتى نحر هدية بذي طوى ، وهادنهم وقال لهم : « مَا كَانَ أَحَدٌ يَصُدُّ عَنْ هَذَا البَيْتِ ، وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ فَلاَ يَصُدُّهُ » فقالوا : لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق .

وفي قوله : ﴿ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ قال : إذ قطعوا من يعمرها بذكره ، ويأتيها للحج والعمرة . وقال ابن عبّاس : إن قريشًا منعوا النبيّ ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام ، فأنزل الله :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ ثم اختار ابن جرير القول الأول ، واحتج بأن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة ، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس .

قلت : والذي يظهر والله أعلم ، القول الثاني ؛ لأن النصارى إذا منعت اليهود من الصلاة في بيت المقدس ، كان دينهم أقوم من دين اليهود ، وكانوا أقرب منهم ، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولًا إذ ذاك ؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، وأيضًا فإنه تعالى لما وجه الذم في حق اليهود والنصارى ، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة ، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام ، وأما اعتماده على أن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة ، فأي خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه ، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم فأي خراب لها أعظم من ذلك ، وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط ، إنما عمارتها بذكر الله فيها ، وإقامة شرعه فيها ، ورفعها عن الدنس والشرك .

وقوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ هذا خبر معناه الطلب ، أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها ، إلَّا تحت الهدنة والجزية ، ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل في تسع أن ينادى برحاب منى : « أَلَا لَا يَحُجَّنَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ أَجَلٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ »(١) وهذا إذا كان تصديقًا وعملًا بقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ ، وقال بعضهم : ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلَّا خائفين ، على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم ، فضلًا أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها . والمعنى : ما كان الحق والواجب إلَّا ذلك ، لولا ظلم الكفرة وغيرهم . وقيل : إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد ، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلَّا خائفًا يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم . وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام ، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان(٢) ، وأن يجلي اليهود والنصارى(٣) منها ولله الحمد والمنة ، وما ذاك إلَّا تشريف أكناف المسجد والحرام ، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام ، صُدوا عنه ، وكما أجلوهم من مكة أُجلوا عنها ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه ، من نصب الأصنام حوله ، ودعاء غير الله عنده ، والطواف به عريًا ، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله .

قلت : وهذا لا ينفي أن يكون داخلًا في معنى عموم الآية ، فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٦٢٢) . (٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/١٢١) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٩/٢٠٨) وأحمد في مسنده (١/١٩٦) .

بامتهان الصخرة التي كانت تصلي إليها اليهود ، عوقبوا شرعًا وقدرًا بالذلة فيه إلَّا في أحيان من الدهر أشحن بهم بيت المقدس ، وكذلك اليهود لما عصوا اللَّه فيه أيضًا أعظم من عصيان النصارى ، كانت عقوبتهم أعظم ، واللَّه أعلم . وفسر هؤلاء الخزي في الدنيا بخروج المهدي ، وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون . والصحيح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله ، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، عن بشر بن أرطأة قال : كان رسول اللَّه ﷺ يدعو « اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الأُمُورِ كُلِّها ، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ » (١) .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وهذا - واللَّه أعلم - فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة ، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم ، وقد كان رسول اللَّه ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه . فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا ، ثم صرفه اللَّه إلى الكعبة بعد ، ولهذا يقول تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ : عن ابن عبّاس قال : أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا واللَّه أعلم شأن القبلة . قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ فاستقبل رسول اللَّه ﷺ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ، ثم صرفه إلى بيته العتيق ونسخها ، فقال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ وقال مجاهد : حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها ، الكعبة . وقال ابن جرير : وقال آخرون : بل أنزل اللَّه هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة ، وإنما أنزلها ليعلم نبيّه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب ؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهًا من ذلك وناحية إلَّا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية ؛ لأن له تعالى المشارق والمغارب ، وأنه لا يخلو منه مكان ، قالوا : ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم ، التوجه إلى المسجد الحرام هكذا قال . وفي قوله : وأنه تعالى لا يخلو منه مكان إن أراد علمه تعالى فصحيح ، فإنَّ علمه تعالى محيط بجميع المعلومات ، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة في شيء من خلقه ، تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا . قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية علي رسول اللَّه ﷺ إذنًا من اللَّه أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب ، في سفره وفي حال المسايفة وشدة الخوف . وعن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته . ويذكر أن رسول اللَّه ﷺ كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (٢) . وعن ابن عمر أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ، ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالًا قيامًا على أقدامهم ، وركبانًا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها . قال نافع : ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلَّا عن النبيّ ﷺ .

مسألة : ولم يفرق الشافعي في المشهور عنه بين سفر المسافة وسفر العدوى ، فالجميع عنه يجوز

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٤) والحاكم في المستدرك (٥٩١/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤٤/٢ والطبراني في الكبير ٤٤٨/١٢ .

التطوع فيه على الراحلة ، وهو قول أبي حنيفة خلافًا لمالك وجماعته ، واختار أبو يوسف وأبو سعيد الإصطخري التطوع على الدابة في المصر ، وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك ﷺ ، واختاره أبو جعفر الطبري حتى للماشي أيضًا .

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية في قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها ، فصلوا على أنحاء مختلفة ، فقال اللَّه تعالى : لي المشارق والمغارب فأين وليتم وجوهكم ، فهناك وجهي وهو قبلتكم ، فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية .

عن جابر قال : كنا مع رسول اللَّه ﷺ في مسير فأصابنا غيم فتحيرنا ، فاختلفنا في القبلة ، فصلى كل رجل منا على حدة ، وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا ، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ فلم يأمرنا بالإعادة ، وقال : « قد أجزأت صلاتكم » (١) . وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء وهذه دلائل على عدم القضاء ، واللَّه أعلم .

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي ، فعن قتادة أن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ أَخًا لَكُمْ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ » (٢) وذكر القرطبي أنه لما مات صلى عليه رسول اللَّه ﷺ فأخذ بذلك من ذهب إلى الصلاة على الغائب ، قال : وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه عليه الصلاة والسلام شاهده حين سوِّي عليه ، طويت له الأرض . الثاني : أنه لما لم يكن عنده من يصلي عليه صلى عليه ، واختاره ابن العربي ، قال القرطبي : ويبعد أن يكون ملك مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه ، وقد أجاب ابن العربي عن هذا لعلهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت ، وهذا جواب جيد . الثالث : أنه عليه الصلاة والسلام إنما صلى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك ، واللَّه أعلم .

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ » (٣) وله مناسبة ههنا . قال ابن جرير : ويحتمل فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهنالك وجهي ، أستجيب لكم دعاءكم ، قال مجاهد : لما نزلت ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قالوا : إلى أين ، فنزلت ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن جرير : ومعنى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال ، وأما قوله : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فإنه يعني عليم بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء ، ولا يعزب عن علمه ، بل هو بجميعها عليم .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها على الرد على النصارى - عليهم لعائن اللَّه - وكذا من

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٠٦/١) والبيهقي في السنن (١٠/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٦٦) وأحمد في مسنده (٣٣٣/٤) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٢) وابن ماجه في السنن (١٠١١) والنسائي في السنن (١٧٢/٤) .

أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ، ممن جعل الملائكة بنات الله ، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم : إن لله ولدًا فقال تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ أي تعالى وتقدّس وتنزّه عن ذلك علوًّا كبيرًا ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ليس الأمر كما افتروا ، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهنّ ، وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء ، والجميع عبيد له وملك له ، فكيف يكون له ولد منهم ، والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين ، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ، ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد ؟ كما قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فقرر تعالى أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له ، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة ، فكيف يكون له منها ولد ؟ وعن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ ؛ فَيَزْعُمُ أَنِّي لا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ ؛ فَقَوْلُهُ : إِنَّ لِي وَلَدًا ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا » (١) .

وقوله : ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ قال ابن عباس : مصلون . وقال أبو مالك : مقرّون له بالعبودية . وقال الربيع بن أنس : قائم يوم القيامة . وقال السدي : مطيعون يوم القيامة . وقال مجاهد : طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره ، وهو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها ، وهو أن القنوت الطاعة والاستكانة إلى الله وهو شرعي وقد روي ، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ . عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ حَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ يُذْكَرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي خالقهما على غير مثال سبق . قال مجاهد والسدي : وهو مقتضى اللغة ، ومنه يقال للشيء المحدث بدعة ، والبدعة على قسمين : تارة تكون بدعة شرعية ، كقوله : « فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ » (٣) وتارة تكون بدعة لغوية كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم : نعمت البدعة هذه ، وقال ابن جرير : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ : مبدعهما وإنما هو مفعل فصرف إلى فعيل ، كما صرف المؤلم إلى الأليم ، ومعنى المبدع المنشئ والمحدث ما لا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد ، قال : ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعًا لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره ، وكذلك كل محدث قولًا أو فعلًا لم يتقدم فيه متقدم ، فإن العرب تسميه مبتدعًا .

قال ابن جرير : فمعنى الكلام : سبحان الله أن يكون له ولد ، وهو مالك ما في السموات والأرض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية ، وتقرّ له بالطاعة ، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه ، وهذا إعلام من الله لعباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بنوته ، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال ، هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته .

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (١١٢/٤) والطبراني في الكبير (٣٧٦/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٠/٦)
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٦/٤) والطبراني في الكبير (٢٤٦/١٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يبيّن بذلك كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه إذا قدّر أمرًا وأراد كونه ، فإنما يقول له : كن ؛ أي مرة واحدة ، فيكون ؛ أي فيوجد على وفق ما أراد .

ونبه بذلك أيضًا على أن خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره اللّٰه ، قال اللّٰه تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : قال رافع بن حرملة لرسول اللّٰه ﷺ : يا محمّد إن كنت رسولًا من اللّٰه ، كما تقول ، فقل للّٰه فيكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل اللّٰه في ذلك من قوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾ [(١)] . وحكى القرطبي ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي يخاطبنا بنبوتك يا محمّد قلت : وهو ظاهر السياق . وقال السدي في تفسير هذه الآية : هذا قول كفّار العرب ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ هم اليهود والنصارى ، ويؤيد هذا القول ، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ الآية إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على كفر مشركي العرب ، وعتوهم وعنادهم ، وسؤالهم ما لا حاجة لهم به إنما هو الكفر والمعاندة كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي أشبهت قلوب مشركي العرب ، قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى ، لمن أيقن وصدق واتبع الرسل ، وفهم ما جاءوا به عن اللّٰه تبارك وتعالى ، وأما من ختم اللّٰه على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، فأولئك قال اللّٰه فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « أُنْزِلَتْ عَلَيَّ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ قَالَ : « بَشِيرًا بِالجَنَّةِ وَنَذِيرًا مِنَ النَّارِ » .

وقوله : ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قراءة أكثرهم (ولا تُسأل) بضم التاء على الخبر ، وفي قراءة أبي بن كعب (وما تسأل) وقرأ آخرون (لا تسأل) بضم التاء على النهي ؛ أي لا تسأل عن حالهم [(٢)] . عن محمّد بن كعب القرظي : قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ ، لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ ؟ » فنزلت ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فما ذكرهما حتى توفاه اللّٰه ﷻ [(٣)] . قال القرطبي : وهذا كما يقال : لا تسأل عن فلان أي قد بلغ فوق ما تحسب

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٧١٥/١ .

(٢) قرأ نافع (ولا تسأل) بفتح التاء والباقون بضمها (انظر : حجة القراءات ص ١١١) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١١/١) .

وقد ذكرنا في التذكرة أن الله أحيا له أبويه حتى آمنا به ، وأجبنا عن قوله : « إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ »[١] . قلت : والحديث المروي في حياة أبويه عليه الصلاة والسلام ، ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها ، وإسناده ضعيف والله أعلم . وقد رد ابن جرير هذا القول المروي عن محمّد بن كعب وغيره في ذلك لاستحالة الشك من الرسول ﷺ في أمر أبويه ، واختار القراءة الأولى ، وهذا الذي سلكه ههنا فيه نظر ؛ لاحتمال أن هذا كان في حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما ، فلما علم ذلك تبرأ منهما وأخبر عنهما من أهل النار ، كما ثبت هذا في الصحيح ، ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ولا يلزم ما ذكر ابن جرير ، والله أعلم .

وعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلّا الله ، فيفتح به أعينًا عميًا ، وآذانًا صمًّا ، وقلوبًا غلفًا[٢] .

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : يعني قوله جلّ ثناؤه : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ وليست اليهود يا محمّد ولا النصارى براضية عنك أبدًا ، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي قل يا محمّد : إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى ، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل . وقال قتادة : وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّه »[٣] ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى ، بعدما علموا من القرآن والسنّة عياذًا بالله من ذلك ، فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته . وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله : ﴿ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة ، فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفّار ، وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا ؛ لأنهم كلهم ملة واحدة ، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه ، وقال في الرواية الأخرى كقول مالك : إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ قال قتادة : هم اليهود والنصارى ، وقال : هم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٧) وأحمد في مسنده (٣/١١٩) والبيهقي في السنن (٧/١٩٠) ، وأبو داود في السنن (٤٧١٨) .

(٢) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٤٣٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٧) وأبو داود في السنن (٢٤٨٤) والترمذي في السنن (١٢٢٩) وأحمد في مسنده (٤/٤٢٥) .

أصحاب رسول الله ﷺ . قال ابن مسعود : والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرّم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئًا على تأويله . وقال الحسن البصري : يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه .

وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ ﴾ خبر عن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته ، آمن بما أرسلتك به يا محمّد كما قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ ﴾ الآية . أي إذا أقمتموها حق الإقامة ، وآمنتم بها حق الإيمان ، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث بمحمّد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته ، قادكم ذلك إلى الحق ، وإتباع الخير في الدنيا والآخرة ، وفي الصحيح : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ لاَ يُؤْمِنُ بِي ؛ إِلَّا دَخَلَ النَّارَ »(١) .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ .

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة ، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته ، فحذرهم من كتمان هذا ، وكتمان ما أنعم به عليهم ، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية ، ولا يحسدوا بني عمّهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم ، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين .

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى منبهًا على شرف إبراهيم خليله عليه السلام ، وإن الله تعالى جعله إمامًا للناس يقتدى به في التوحيد ، حين قام بما كلّفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي ، ولهذا قال : ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ ﴾ أي : واذكر يا محمّد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين ، الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها ، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين ، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم ؛ أي اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ أي قام بهن كلهن . وقوله تعالى ﴿ بِكَلِمَٰتٖ ﴾ أي بشرائع وأوامره ونواه ، فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية ، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام : ﴿ وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴾ وتطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ ﴾ أي كلماته الشرعية ، وهي إما خبر صدق ، وإما طلب عدل إن كان أمرًا أو نهيًا ، ومن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ أي قام بهن ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ ﴾ أي جزاء على ما فعل ، كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة وإمامًا يقتدى به ، ويحتذى حذوه .

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام ، فروي عن ابن عباس : أن

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) والألباني في الصحيحة (١٥٧) .

الله ابتلاه بالمناسك ، وروي أيضًا : ابتلاه بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد ، في الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس ، وفي الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء . قلت : وقريب من هذا ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « عَشْرٌ مِنَ الفِطْرَةِ : قَصُّ الشَّارِبِ ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ ، والسِّوَاكِ ، وَاسْتِنْشَاقُ المَاءِ ، وَقَصُّ الأَظْفَارِ ، وَغَسْلُ البَرَاجِمِ ، وَنَتْفُ الإِبِطِ ، وَحَلْقُ العَانَةِ ، وَانْتِقَاصُ المَاءِ » وَنَسِيتُ العَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ المَضْمَضَةُ [١] . قال وكيع : انتقاص الماء يعني الاستنجاء ، وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « الفِطْرَةُ خَمْسٌ : الخِتَانُ ، والاسْتِحْدَادُ ، وَقَصُّ الشَّارِبِ ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ ، وَنَتْفُ الإِبْطِ » [٢] . وعن ابن عبّاس أنه كان يقول في تفسير هذه الآية : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ عشر ؛ ست في الإنسان وأربع في المشاعر ، فأما التي في الإنسان : حلق العانة ، ونتف الإبط ، والختان ، وتقليم الأظفار ، وقص الشارب ، وغسل يوم الجمعة ، والأربعة التي في المشاعر : الطواف ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، والإفاضة . وعن ابن عبّاس قال : الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن ، فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجته نمروذ في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه ، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم ، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله ، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه ، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له : ﴿ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على ما كان من خلاف الناس وفراقهم . وقال قتادة : كان الحسن يقول : إي والله لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه ، ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فأحسن في ذلك وعرف أن ربه دائم لا يزول ، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما كان من المشركين ، ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجرًا إلى الله ، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك ، وابتلاه بذبح ابنه ، والختان فصبر على ذلك . وعن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيّب يقول : إبراهيم عليه السلام أول ما اختتن ، وأول من ضاف الضيف ، وأول من قلم أظفاره ، وأول من قص الشارب ، وأول من شاب ، فلما رأى الشيب قال : يا رب ما هذا ؟ قال : وقار ، قال : يا رب زدني وقارًا .

قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله : أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر ، وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين ، إلّا بحديث أو إجماع ، قال : ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ، ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له .

وقوله : ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لما جعل الله إبراهيم إمامًا سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته ، فأجيب إلى ذلك ، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون ، وأنه لا ينالهم عهد الله ، ولا يكونون أئمة ، فلا يقتدى بهم ، والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ فكل نبي أرسله الله ، وكل كتاب أنزله الله

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٥٦) وأبو داود في السنن (٥٣) وابن ماجه في السنن (٢٩٣) وأحمد في مسنده (١٣٧/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٧) ومسلم في الطهارة (٥٠) وأبو داود في السنن (٤١٩٨) والنسائي في السنن (١٤/١) .

بعد إبراهيم ، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه .

وأما قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ فقد اختلفوا في ذلك ، فقال مجاهد : إنه سيكون في ذريتك ظالمون . وقال أيضًا : لا يكون إمام ظالم ، وفي رواية : لا أجعل إمامًا ظالمًا يقتدى به . وقال : لا يكون إمام ظالم يقتدى به . قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ أما من كان منهم صالحًا فأجعله إمامًا يقتدى به ، وأما من كان ظالمًا فلا ، ولا نعمة عين . وقال سعيد بن جبير : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ : المراد به المشرك ، لا يكون إمام ظالم ، يقول : لا يكون إمام مشرك . وقال عطاء : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قال : ومن ذريتي فأبى أن يجعل من ذريته إمامًا ظالمًا ، قلت لعطاء : ما عهده ؟ قال : أمره . وعن ابن عبّاس قال : ليس للظالمين عهد وإن عاهدته أنقضه . وقال قتادة : لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين ، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فآمن به وأكل وعاش . وقال الضحاك : لا ينال طاعتي عدوّ لي يعصيني ، ولا أنحلها إلّا وليا يطيعني . وعن علي ابن أبي طالب عن النبيّ ﷺ قال : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ قال : « لاَ طَاعَةَ إِلَّا فِي المَعْرُوفِ » (1) .

واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالمًا ، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره والله أعلم . وقال ابن خويز منداد المالكي : الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكمًا ولا مفتيًا ولا شاهدًا ولا راويًا .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .

قال ابن عبّاس : لا يقضون منه وطرًا ، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه . وعن عبدة بن أبي لبابة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قال : لا ينصرف عنه منصرف ، وهو يرى أنه قد قضى منه وطرًا .

وقال عطاء الخراساني ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي مجمعًا ﴿ وَأَمْنًا ﴾ قال ابن عباس : أي أمنًا للناس .

ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية : أن الله تعالى يذكر شرف البيت ، وما جعله موصوفًا به شرعًا وقدرًا من كونه مثابةً للناس ، أي جعله محلًا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تقضي منه وطرًا ، ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ إلى أن قال : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ ويصفه تعالى بأنه جعله أمنًا ، من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنًا . وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له ، كما وصف في سورة المائدة بقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾ أي يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء ، قال ابن عبّاس : لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض ، وما هذا الشرف إلّا لشرف بانيه أولًا وهو خليل الرحمن ، وفي هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده ، فقال : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو ؟ فقال ابن عبّاس : مقام إبراهيم الحرم كله . وقال : أما مقام إبراهيم الذي ذكر ههنا فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد ، ثم قال : ومقام إبراهيم ، يعد كثير مقام إبراهيم الحج كله . ثم فسره لي عطاء فقال : التعريف وصلاتان بعرفة والمشعر ومنى ورمي الجمار والطواف بين الصفا والمروة ، فقلت : أفسره ابن عبّاس ؟ قال : لا ، ولكن قال : مقام إبراهيم الحج كله . قلت : أسمعت ذلك لهذا أجمع ؟

(1) أخرجه مسلم في الإمارة (٣٩) وأحمد في مسنده (٤٣٢/٤) والبيهقي في السنن (١٥٦/٨) والحاكم في المستدرك (٤٤٣/٣) .

قال : نعم سمعته منه . وقال سعيد بن جبير : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ قال : الحجر مقام إبراهيم نبي الله ، قد جعله الله رحمة ، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة ، ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه . وقال السدي : المقام الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه .

وعن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : وافقت ربي في ثلاث ، أو وافقني ربي في ثلاث : قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلّى فنزلت ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وقلت : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب ، قال : وبلغني معاتبة النبيّ ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن ، فقلت : إن انتهيتن أو ليبدِّلن الله رسوله خيرًا منكن ، حتى أتيت إحدى نسائه قالت : يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ، فأنزل الله ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ ﴾ الآية [(١)] .

وعن جابر قال : استلم رسول الله ﷺ الركن ، فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا ، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين [(٢)] . ولما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ، ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار ، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه ، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها ، وهكذا حتى تم جدران الكعبة ، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليتها ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية :

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ ... عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلِ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضًا ، فعن أنس بن مالك قال : رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه ، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم . وقال قتادة : إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه . وقد تكلفت هذه الأمة شيئًا ما تكلفته الأمم قبلها ، ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى . قلت : وقد كان هذا المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة ، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ، ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف ، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه ، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم ، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ : « اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ » [(٣)] وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده ، ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين . قال عطاء وغيره : أول من نقله عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقال مجاهد : أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وعن عائشة رضي الله عنها أن

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٣) ، والبيهقي في السنن (٨٨/٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥٩) والبغوي في شرح السنة (١٣٤/٧) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٨٠٥) والحاكم في المستدرك (٧٥/٣) وأحمد في مسنده (٣٩٩/٥) وابن ماجه في السنن (٩٧) .

المقام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر ﷺ ملتصقًا بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب ﷺ .

وقال سفيان بن عيينة إمام المكيين في زمانه : كان المقام من سقع البيت على عهد رسول الله ﷺ فحوله عمر إلى مكانه بعد النبيّ ﷺ وبعد قوله : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ قال : ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فرده عمر إليه . وقال سفيان : لا أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله : وقال سفيان : لا أدري أكان لاصقًا أم لا ؟ فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرنا والله أعلم .

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

قال الحسن البصري قوله : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ ﴾ أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنجس ، ولا يصيبه من ذلك شيء . وقال ابن جريج : قلت لعطاء : ما عهده ؟ قال : أمره . والظاهر أن هذا الحرف إنما عدي بإلى ؛ لأنه في معنى تقدمنا وأوحينا . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ قال : من الأوثان . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : إن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس . وعن سعيد بن جبير قال في قوله تعالى : ﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ : يعني من أتاه من غربة ﴿ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ المقيمين فيه . وقال عطاء : من انتابه من الأمصار فأقام عنده ، وقال لنا ونحن مجاورون : أنتم من العاكفين . وعن ثابت قال : قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير : ما أراني إلّا مكلم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام فإنهم يجنبون ويحدثون ، قال : لا تفعل ، فإن ابن عمر سئل عنهم فقال : هم العاكفون . قلت : وقد ثبت في الصحيح : أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عزب(١) .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ فقال ابن عباس : إذا كان مصليًا فهو من الركع السجود .

قال ابن جرير رحمه الله : فمعنى الآية : وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين ، والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك ، ثم أورد سؤالًا فقال : فإن قيل : فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه ، وأجاب بوجهين : أحدهما : أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ليكون ذلك سنة لمن بعدهما ، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إمامًا يقتدى به كما قال عبد الرّحمن بن زيد ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ قال : من الأصنام التي يعبدون التي كان المشركون يعظمونها ، قلت : وهذا الجواب مفرع على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام ، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمّد ﷺ .

الجواب الثاني : أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له ، فيبنياه مطهرًا من الشرك والريب ، كما قال جلّ ثناؤه : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ قال : فكذلك قوله : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ أي ابنياه على طهر من الشرك بي والريب ، كما قال السدي : ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ ابنيا بيتي للطائفين ،

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة(٤٤٠) والنسائي في السنن(٧٢٢) .

وملخص هذا الجواب : أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له ، للطائفين به والعاكفين عنده والمصلين إليه من الركع السجود .

وقد اختلف الفقهاء أيهما أفضل ، الصلاة عند البيت أو الطواف به ؟ فقال مالك رحمه الله : الطواف به لأهل الأمصار أفضل ، وقال الجمهور : الصلاة أفضل مطلقًا ، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام ، والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له ، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه ، ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له ، إما بطواف أو صلاة ، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة : قيامها ، وركوعها ، وسجودها ، ولم يذكر العاكفين ؛ لأنه تقدم ﴿ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ ، وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين ، واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلّا بعد قيام ، وفي ذلك أيضًا رد على من لا يحجه من أهل الكتابين اليهود والنصارى ؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وإسماعيل ، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك ، وللاعتكاف والصلاة عنده ، وهم لا يفعلون شيئًا من ذلك ، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له ؟ وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى .

وتقدير الكلام إذًا : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ أي تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أي طهراه من الشرك والريب ، وابنياه خالصًا لله ، معقلًا للطائفين والعاكفين والركع السجود . وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّما بُنِيَتِ المَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ » [(١)] .

وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة ؟ فقيل : الملائكة قبل آدم وقيل : آدم ، وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب ، وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها ، وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر ، جاءوا به إلى رسول الله ﷺ فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا في ثَمَرِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا في مَدِينَتِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا في صَاعِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا في مُدِّنَا ، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ » ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر [(٢)] وعن رافع بن خديج قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا » [(٣)] . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة : « الْتَمِسْ لِي غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدِمُنِي » فخرج بي أبو طلحة يردفني وراءه ، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٤٧٦) وأحمد في مسنده (١٢٤/٢) والبيهقي في السنن (١٩٧/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٤٥٦) وأحمد في مسنده (١٤١/٤) والبيهقي في السنن (١٩٨/٥) .

وقال في الحديث : ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد قال : « هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » فلما أشرف على المدينة قال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا ، مِثْلَ مَا حَرَّمَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مُدِّهِمْ وَصَاعِهِمْ » (١) والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة ، لما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة . وتمسك بها من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل ، وقيل : إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض وهذا أظهر وأقوى والله أعلم .

وقد وردت أحاديث أُخر تدل على أن الله تعالى حرّم مكة قبل خلق السموات والأرض كما ورد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ القِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ؛ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، وَلاَ يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا ، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا » فقال العبّاس : يا رسول الله ، إلّا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال : « إِلَّا الإِذْخَرَ » (٢) . وعن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولًا قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ، وأبصرته عيناي حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، فَلاَ يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا ، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا : إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ » فقيل لأبي شريح : ما قال لك عمرو؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا ، ولا فارًّا بدم ، ولا فارًّا بخربة (٣) .

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها ؛ لأن إبراهيم بلّغ عن الله حكمه فيها ، وتحريمه إياها ، وأنها لم تزل بلدًا حرامًا عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها ، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوبًا عند الله خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ الآية ، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره .

وقوله تعالى إخبارًا عن الخليل أنه قال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ أي من الخوف ، أي لا يرعب أهله ، وقد فعل الله ذلك شرعًا وقدرًا . وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيه . فعن جابر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لاَ يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلاَحَ » (٤) وقال في هذه السورة : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ أي اجعل هذه البقعة بلدًا آمنًا ، وناسب هذا ؛ لأنه قبل بناء الكعبة . وقال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ وناسب هذا هناك ؛ لأنه - والله

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٦٣) والنسائي في السنن (٢٧٤/٨) وأحمد في مسنده (١٥٩/٣) والبيهقي في السنن (١٢٥/٩) .
(٢) أخرجه مسلم في الحج (٤٤٥) والبيهقي في السنن (١٩٥/٥) والبغوي في شرح السنة (٢٩٤/٧) .
(٣) أخرجه مسلم في الحج (٤٤٦) وأحمد في مسنده (٣٨٥/٦) والبيهقي في السنن (٢١٢/٩) .
(٤) أخرجه البيهقي في السنن (١٥٥/٥) .

أعلم - كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت ، واستقرار أهله به ، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنًّا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة ، ولهذا قال في آخر الدعاء : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ قال أُبيّ بن كعب : هو قول الله تعالى . قال : وقرأ آخرون ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ ٱضْطَرَّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ : فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم ، وكان ابن عبّاس يقول : ذلك قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر فأمتعه قليلًا . وقال مجاهد : ومن كفر فأرزقه رزقًا قليلًا أيضًا ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ قال محمّد بن إسحاق : لما عنَّ لإبراهيم الدعوة على من أبى الله أن يجعل له الولاية انقطاعًا إلى الله ومحبته ، وفراقًا لمن خالف أمره وإن كانوا من ذريته ، حين عرف أنه كائن منهم ظالم لا يناله عهده بخبر الله له بذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ فإني أرزق البر والفاجر وأمتعه قليلًا .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها ، إلى عذاب النار وبئس المصير ، ومعناه : أن الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وفي الصحيح : « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فالقواعد جمع قاعدة ، وهي السارية والأساس ، يقول تعالى : واذكر يا محمّد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ، ورفعهما القواعد منه ، وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ . وقال بعض المفسّرين : الذي كان يرفع القواعد هو إبراهيم والداعي إسماعيل ، والصحيح أنهما كانا يرفعان .

وعن ابن عبّاس ﷺ قال : لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان ، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء ، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها ، حتى قدم مكة فوضعهما تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله ، فأتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء نادته من ورائه يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ قال : إلى الله ، قالت : رضيت بالله قال : فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها ، حتى لما فني الماء قالت : لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدًا ، فذهبت فصعدت الصفا فنظرت هل تحس أحدًا فلم تحس أحدًا ، فلما بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة ، وفعلت ذلك أشواطًا حتى أتمت سبعًا ، ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي فذهبت فنظرت ، فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت ، فلم تقرها نفسها فقالت : لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدًا فذهبت فصعدت الصفا ، فنظرت ونظرت فلم تحس أحدًا ، حتى أتمت سبعًا ، ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل ، فإذا هي بصوت فقالت : أغث إن كان عندك خير ، فإذا جبريل عليه السلام قال : فقال

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) ومسلم في البر والصلة (١٦) والبيهقي في السنن (٩٤/٦) والترمذي في السنن (٣١١٠) .

بعقبه هكذا ، وغمز عقبه على الأرض ، قال : فانبثق الماء ، فدهشت أم إسماعيل ، فجعلت تحفر قال : فقال أبو القاسم ﷺ : « لَوْ تَرَكَتْهُ لَكَانَ المَاءُ ظَاهِرًا » قال : فجعلت تشرب من الماء ، ويدر لبنها على صبيها ، قال : فمرّ ناس من جرهم ببطن الوادي ، فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذلك ، وقالوا : ما يكون الطير إلّا على ماء ، فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء ، فأتاهم فأخبرهم فأتوا إليها فقالوا : يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك ؟ فبلغ ابنها ونكح منهم امرأة . قال : ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله : إني مطلع تركتي ، قال : فجاء فسلم فقال : أين إسماعيل ؟ قالت امرأته : ذهب يصيد ، قال : قولي له : إذا جاء : غير عتبة بابك ، فلما أخبرته قال : أنت ذاك فاذهبي إلى أهلك ، قال : ثم إنه بدا لإبراهيم فقال : إني مطلع تركتي ، قال : فجاء فقال : أين إسماعيل ؟ فقالت امرأته : ذهب يصيد ، فقالت : ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟ فقال : ما طعامكم وما شرابكم ؟ قالت : طعامنا اللحم ، وشرابنا الماء ، قال : اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم ، قال : فقال أبو القاسم ﷺ : « بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ » . قال : ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ ، فقال لأهله : إني مطلع تركتي ، فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلًا له ، فقال : يا إسماعيل إن ربّك ﷻ أمرني أن أبني له بيتًا ، فقال : أطع ربك ﷻ ، قال : إنه قد أمرني أن تعينني عليه ، فقال : إذن أفعل - أو كما قال - قال : فقام فجعل إبراهيم يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ قال : حتى ارتفع البناء ، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة ، فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (١) .

وعن ابن عبّاس ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ قال : القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك . وعن عطاء قال : قال آدم : إني لا أسمع أصوات الملائكة ، قال بخطيئتك ، ولكن اهبط إلى الأرض فابن لي بيتًا ، ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتي الذي في السماء ، فيزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل من حراء وطور زيتا وطور سيناء والجودي ، وكان ربضه من حراء ، فكان هذا بناء آدم حتى بناه إبراهيم ﷺ بعد .

وقال البخاري رحمه الله : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ الآية . القواعد أساسه واحدها قاعدة ، والقواعد من النساء واحدتها قاعدة . عن عائشة زوج النبيّ ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَمْ تَرَي أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوا البَيْتَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ ؟ » فقلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ قال : « لَوْلاَ حَدَثَانُ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ » فقال عبد الله بن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر ، إلّا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم ﷺ (٢) . وعن عبد الله بن عمر عن عائشة عن النبيّ ﷺ قال : « لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ - أو قالَ : بكفر - لأَنْفَقْتُ كَنْزَ الكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّه ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالأَرْضِ ، وَلأَدْخَلْتُ فِيهَا الحِجْرَ » (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٥) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٥) ومسلم في الحج (٤٠٥) وأحمد في مسنده (٦/١٨٠) ، والدارمي في السنن (٢/٥٤) .

ذِكر بِنَاءِ قُرِيش الكَعْبَة بَعد إبْرَاهِيم الخَلِيْل عليه السلام وَقَبْل مَبْعَث رَسُول اللّه ﷺ بخمسِ سِنين

وقد نقل معهم في الحجارة ، وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات اللّه وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين . قال محمّد بن إسحاق بن يسار في السيرة : ولما بلغ رسول اللّه ﷺ خمسًا وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وكانوا يهمّون بذلك ليسقفوها ، ويهابون هدمها ، وإنما كانت رضمًا فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك أن نفرًا سرقوا كنز الكعبة ، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة ، وكان الذي وجد عنده الكنز دويك مولى بني مليح بن عمرو من خزاعة ، فقطعت قريش يده ، ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك ، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت ، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها ، وكان بمكة رجل قبطي نجار ، فهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها ، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى لها كل يوم ، فتشرف على جدار الكعبة ، وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلَّا احزألت وكشت وفتحت فاها ، فكانوا يهابونها ، فبينما هي يومًا تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث اللّه إليها طائرًا فاختطفها فذهب بها ، فقالت قريش : إنّا لنرجو أن يكون اللّه قد رضي ما أردنا ، عندنا عامل رفيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا اللّه الحية ، فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنيانها قام ابن وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم فتناول من الكعبة حجرًا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلَّا طيبًا ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس ، قال ابن إسحاق : والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمرو بن مخزوم ، قال : ثم إن قريشًا تجزأت الكعبة ، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وكان من بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى بن قصي ولبني عدي بن كعب بن لؤي وهو الحطيم ، ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم في هدمها ، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم ترع ، اللهم إنا لا نريد إلَّا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا : ننظر ، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا ، ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء فقد رضي اللّه ما صنعنا ، فأصبح الوليد من ليلته غاديًا على عمله ، فهدم وهدم الناس معه ، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام ، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضًا ، قال : فحدثني بعض من يروي الحديث أن رجلًا من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضًا أحدهما ، فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس .

قال ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن ، يعني الحجر الأسود فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ،

فسموا « لعقة الدم » فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا ، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكان عامئذ أسن قريس كلهم قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا ، فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمّد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ : « هلمّ إلي ثوبًا » فأتي به فأخذ الركن يعني الحجر الأسود . فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا » ففعلوا ، حتى إذا بلغو به موضعه وضعه هو بيده ﷺ ، ثم بنى عليه ، وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي الأمين ، فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا .

قال ابن إسحاق : وكانت الكعبة على عهد النبيّ ﷺ ثمانية عشر ذراعًا ، وكانت تكسى القباطي ، ثم كسيت بعد البرود ، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف [١] . قلت : ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين ، وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصروا ابن الزبير ، فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض ، وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام ، وأدخل فيها الحجر ، وجعل لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا ملصقين بالأرض ، كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ، ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج فردّها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك . عن عطاء قال : لمَّا احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام ، فكان من أمره ما كان تركه ابن الزبير ، حتى قدم الناس الموسم يريد أن يحزيهم أو يجيروهم على أهل الشام ، فلما صدر الناس قال : يا أيها الناس أشيروا علي في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها ، أو أصلح ما وهي منها ؟ قال ابن عبّاس : إنه قد خرق لي رأي فيها ، أرى أن تصلح ما وهي منها ، وتدع بيتًا أسلم الناس عليه ، وأحجارًا أسلم الناس عليها ، وبعث عليها النبيّ ﷺ ، فقال ابن الزبير : لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتى يجدده ، فكيف بيت ربكم ﷻ؟ إني مستخير ربي ثلاثًا ثم عازم على أمري ، فلما مضت ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها ، فتحاماها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء ، حتى صعده رجل فألقى منه حجارة ، فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض ، فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه ، وقال ابن الزبير : إني سمعت عائشة رضي الله عنها تقول : إن النبيّ ﷺ قال : « لَوْلاَ أَنَّ النَّاسَ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يُقَوِّينِي عَلَى بِنَائِهِ ، لَكُنْتُ أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الحِجْرِ خَمْسَةَ أَذْرُعٍ ، وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ » [٢] قال : فأنا أجد ما أنفق ولست أخاف الناس ، قال : فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر ، حتى أبدى له أسًّا ، فنظر الناس إليه فبنى عليه البناء ، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعًا ، فلما زاد فيه استقصر ، فزاد في طوله عشرة أذرع ، وجعل له بابين أحدهما يدخل منه ، والآخر يخرج منه ، فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍّ نظر إليه العدول من أهل مكة ،

---

(١) انظر القصة في : السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٠٤ - ٢١١) .

(٢) سبق تخرجه .

فكتب إليه عبد الملك إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء ، أما ما زاده في طوله فأقره ، وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه ، وسد الباب الذي فتحه ، فنقضه وأعاده إلى بنائه .

وقد كانت السنّة إقرارًا ما فعله عبد الله بن الزبير ﷺ ؛ لأنه هو الذي وده رسول الله ﷺ ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالإسلام ، وقرب عهدهم من الكفر ، ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان ، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ قال : وددنا أنا تركناه وما تولى ، وعن أبي قزعة أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين ، يقول سمعتها تقول : قال رسول الله ﷺ : « يَا عَائِشَةُ لَوْلَا حَدَثَانُ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ ، لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ حَتَّى أَزِيدَ فِيهَا مِنَ الحِجْرِ ، فَإِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرُوا فِي البِنَاءِ » فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة : لا تقل هذا يا أمير المؤمنين ، فإني سمعت أم المؤمنين تحدث هذا ، قال : لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير .

ولكن بعدما رجع الأمر إلى هذا الحال فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله ، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد أو أبيه المهدي أنه سأل الإمام مالكًا عن هدم الكعبة وردها إلى ما فعله ابن الزبير ، فقال له : ما لك يا أمير المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها ، فترك ذلك الرشيد ، ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان إلى أن يخربها ذو السويقتين من الحبشة كما ثبت عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُخَرِّبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ ، وَيَسْلُبُهَا حِلْيَتَهَا وَيُجَرِّدُهَا مِنْ كِسْوَتِهَا ، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أُصَيْلِعَ أُفَيْدِعَ ، يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ وَمِعْوَلِهِ » (١) - الفدع زيغ بين القدم وعظم الساق وهذا - والله أعلم - إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج ، لما جاء عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيُحَجَّنَّ البَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ » (٢) .

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل ﷺ : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ قال ابن جرير : يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك ، لا نشرك معك في الطاعة أحدًا سواك ، ولا في العبادة غيرك .

قوله : ﴿ وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أي مخصلين لك ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ مخلصة ، وعن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية : ﴿ وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ ﴾ قال : كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات .

وقال عكرمة : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ قال الله : قد فعلت ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ قال الله : قد فعلت . وقال السدي : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ : يعنيان العرب . قال ابن جرير : والصواب أنه يعم العرب وغيرهم ؛ لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ .

قلت : وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي ؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم ،

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٩٦) ومسلم في الفتن (٥٧) والنسائي في السنن (٢١٦/٥) والحاكم في المستدرك (٤٥٣/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٣) والحاكم في المستدرك (٤٥٣/٤) .

والسياق إنما هو في العرب ولهذا قال بعده : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ الآية .

والمراد بذلك محمّد ﷺ ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وغير ذلك من الأدلة القاطعة ، وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وهذا القدر مرغوب فيه شرعًا ، فإن من تمام محبة عبادة اللّه تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد اللّه وحده لا شريك له ، ولهذا لما قال اللّه تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقد ثبت عن النبيّ ﷺ ، أنه قال : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ ، صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » (١) .

﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ أخرجها لنا ، علمناها . وقال مجاهد : مذابحنا .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم ، أن يبعث اللّه فيهم رسولًا منهم ، أي من ذرية إبراهيم ، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر اللّه السابق في تعيين محمّد صلوات اللّه وسلامه عليه رسولًا في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن ، فعن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ ، دَعْوَةَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةَ عِيسَى بِي ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ ، وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ » (٢) .

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام ، ولم يزل ذكره في الناس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسبًا ، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام ، حيث قام في بني إسرائيل خطيبًا وقال : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ ولهذا قال في هذا الحديث : « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » .

وقوله : « وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ » (٣) قيل : كان منامًا رأته حين حملت به ، وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة وتخصيصًا للشام بظهور نوره ، إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلًا للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم ، إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء في الصحيحين « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ ،

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) بلفظ : « إذا مات الإنسان » والترمذي في السنن (١٣٧٦) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤١٨/٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٩/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٣/٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢/٥) .

حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ »[١] وفي صحيح البخاري : «وَهُمْ بِالشَّامِ »[٢] وعن أبي العالية في قوله : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ يعني أمة محمد ﷺ فقيل له : قد استجيب لك ، وهو كائن في آخر الزمان . وكذا قال السدي وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يعني السنة . وقيل : الفهم في الدين ، ولا منافاة . ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يعني طاعة اللّه والإخلاص . وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي العزيز الذي لا يعجزه شيء ، وهو قادر على كل شيء الحكيم في أفعاله وأقواله ، فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله .

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى ردًا على الكفّار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك باللّه ، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء ، فإنه جرد توحيد ربّه تبارك وتعالى ، فلم يدع معه غيره ، ولا أشرك به طرفة عين ، وتبرأ من كل معبود سواه ، وخالف في ذلك سائر قومه ، حتى تبرأ من أبيه قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ ولهذا وأمثاله قال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ أي ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره ، بتركه الحق إلى الضلال ، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه اللّه خليلًا ، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء ، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملّته ، واتبع طرق الضلالة والغي ، فأي سفه أعظم من هذا ؟ أم أي ظلم أكبر من هذا ؟ قال أبو العالية وقتادة : نزلت هذه الآية في اليهود أحدثوا طريقًا ليست من عند اللّه ، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي أمره اللّه بالإخلاص له ، والاستسلام والانقياد ، فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا . وقوله : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ أي وصى بهذه الملة وهي الإسلام للّه ، أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ، ووصوا أبناءهم من بعدهم ، وقد قرأ بعض السلف ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ بالنصب عطفًا على بنيه كأن إبراهيم يوصي بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرًا ذلك ، وقد ادعى القشيري فيما حكاه القرطبي عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم ، ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح ، والظاهر واللّه أعلم أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة ؛ لأن البشارة وقعت بهما في قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ وقد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض[٣] ، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة . قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ وهذا

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٢٢٩) وابن ماجه في السنن (٦) وأحمد في مسنده (٩٧/٤) . (٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٤١) .
(٣) قرأ ابن عامر وحمزة وحفص ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ بنصب الباء والباقون برفعها (انظر : تقريب النشر ص : ١٢٥) .

يقتضي أنه وجد في حياته ، وأيضًا فإنه باني بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة ، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت : يا رسول اللَّه أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المَسْجِدُ الحَرَامُ » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « بَيْتُ المَقْدِسِ » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أَرْبَعُونَ سَنَةً »(١) الحديث . فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس - وإنما كان جدده بعد خرابه وزخرفه - وبين إبراهيم أربعين سنة ، وهذا مما أنكر على ابن حبان ، فإن المدة بينهما تزيد على ألوف السنين .

وقوله : ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ أي أحسنوا في حال الحياة ، والزموا هذا ليرزقكم اللَّه الوفاة عليه ، فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه ، ويبعث على ما مات عليه ، وقد أجرى اللَّه الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه ، ومن نوى صالحًا ثبت عليه ، وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النارِ فيدْخُلُها ، وإنَّ الرجلَ ليعمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ النارِ حتَّى مَا يكونُ بينَهُ وبيْنَهَا إِلَّا باعٌ أو ذِراعٌ ، فيسْبِقُ عليهِ الكتابُ ، فيعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ الجنَّةِ فَيَدْخُلُهَا »(٢) لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، وبعمل أهل النار فيما يبدو للناس .

﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى محتجًا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل ، وعلى الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصَّى بنيه بعبادة اللَّه وحده لا شريك له ، فقال لهم : ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ ﴾ وهذا من باب التغليب ؛ لأن إسماعيل عمُّه ، والعرب تسمي العم أبًا . وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أبًا وحجب به الإخوة ، وقال مالك والشافعي وأحمد : في المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة ، وحكي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف ، واختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي أبو يوسف ومحمّد بن الحسن ، ولتقريرها موضع آخر . وقوله : ﴿ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا ﴾ أي نوحده بالألوهية ، ولا نشرك به شيئًا غيره ﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ أي مطيعون خاضعون . والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة ، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم ، قال ﷺ : « نَحْنُ مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ »(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ ﴾ أي مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ ﴾ أي أن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعه عليكم ، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ، ولكم أعمالكم ﴿ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ ولهذا جاء في الأثر : « مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ »(٤) .

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١ ، ٢) وأحمد في مسنده (١٥٧/٥) ، والنسائي في السنن (٣٢/٢) وابن ماجه في السنن (٧٥٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٢/٥) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٣/٢) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/٢)

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : قال عبد اللّه بن صوريا الأعور لرسول اللّه ﷺ : ما الهدى إلّا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمّد تهتد .. وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل اللّه ﷻ ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ أي لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية ، بل نتبع ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ أي مستقيمًا . وقال مجاهد : مخلصًا . وقال ابن عبّاس : حاجًا . وقال أبو العالية : الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته ، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلًا . وقال أبو قلابة : الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم . وقال قتادة : الحنيفية شهادة أن لا إله إلّا اللّه يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم اللّه ﷻ والختان .

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ .

أرشد اللّه تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمّد ﷺ مفصلًا ، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملًا ، ونص على أعيان من الرسل ، وأجمل ذكر بقية الأنبياء ، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم ، بل يؤمنوا بهم كلهم ، ولا يكونوا كمن قال اللّه فيهم : ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ . عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا باللّه وَمَا أَنْزَلَ اللّه »[1] وعن ابن عبّاس قال : كان رسول اللّه ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الآية والأخرى بـ ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[2] وقال قتادة : الأسباط بنو يعقوب ، اثنا عشر رجلًا ، ولد كل رجل منهم أمة من الناس ، فسموا الأسباط . وقال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط في بني إسرائيل ، كالقبائل في بني إسماعيل ، وقال الزمخشري : الأسباط حفدة يعقوب ، ذراري أبنائه الاثنى عشر . وقال البخاري : الأسباط قبائل بني إسرائيل[3] . وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل ، وما أنزل اللّه من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم ، قال القرطبي : وسموا الأسباط من السبط ، وهو التتابع فهم جماعة . وقيل : أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر ، أي في الكثرة بمنزلة الشجر ، الواحدة سبطة . وعن ابن عبّاس قال : كل الأنبياء من بني إسرائيل إلّا عشرة ، نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمّد عليهم الصلاة والسلام . قال القرطبي : والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد .

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣٧ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ ﴾ يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ يا أيها

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٦٢) والبيهقي في السنن (١٠/١٦٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٦٥) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (تفسير سورة الأعراف) .

المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ، ولم يفرّقوا بين أحد منهم ﴿ فَقَدِ ٱهْتَدَوا ﴾ أي فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه . ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي عن الحق إلى الباطل ، بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

وقوله : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن عبّاس : دين الله . وانتصاب ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ إما على الإغراء كقوله ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي الزموا ذلك ، وقال بعضهم : بدلًا من قوله : ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ ﴾ وقال سيبويه : هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ كقوله : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ .

وقد ورد في حديث ابن عبّاس أن نبيَّ الله ﷺ قال : « إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ يَصْبِغُ رَبُّكَ ؟ فَقَالَ : اتَّقُوا اللَّه ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا مُوسَى سَأَلُوكَ هَلْ يَصْبَغُ رَبُّكَ ؟ فَقُلْ : نَعَمْ ، أَنَا أَصْبِغُ الأَلْوَانَ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ وَالأَسْوَدَ وَالأَلْوَانَ كُلَّهَا مِنْ صِبْغِي » وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [1] .

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ۝ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول الله تعالى مرشدًا نبيّه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين : ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ ﴾ أي تناظروننا في توحيد الله ، والإخلاص له ، والانقياد ، واتباع أوامره ، وترك زواجره ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ المتصرف فينا وفيكم ، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ أي نحن برآء منكم ومما تعبدون ، وأنتم برآء منا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ أي نحن برآء منكم ، كما أنتم برآء منا ، ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ أي في العبادة والتوجه ، ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم ، إما اليهودية وإما النصرانية فقال : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ يعني بل الله أعلم ، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ قال الحسن البصري : كانوا يقرأون في كتاب الله الذي أتاهم إن الدين الإسلام ، وإن محمّدًا رسول الله ، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية ، فشهدوا لله بذلك وأقرّوا على أنفسهم لله ، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك ، وقوله : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد شديد ، أي أن علمه محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه . ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي قد مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم ، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم ، حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله ، واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين ، فإنه من كفر بنبي

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٤١/١) .

واحد فقد كفر بسائر الرسل ، ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال الزجاج : المراد بالسفهاء ههنا مشركو العرب ، وقال مجاهد : أحبار يهود ، وقال السدي : المنافقون ، والآية عامة في هؤلاء كلهم ، وعن البراء قال : كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله ، فأنزل الله ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فقال رجال من المسلمين : وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة ، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس ، فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ وقال السفهاء من الناس ، وهم أهل الكتاب : ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ فأنزل الله : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ إلى آخر الآية [١] .

وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة ، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس ، فكان بمكة يصلي بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة ، وهو مستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس قاله ابن عبَّاس والجمهور ، ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره ؟ على قولين ، وحكي عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه الصلاة والسلام ، والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة ، واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرًا ، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام ، فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق ، فخطب رسول الله ﷺ الناس فأعلمهم بذلك ، وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر ، وقيل : الظهر ، وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر ، وذلك في مسجد بني سلمة ، فسمي مسجد القبلتين . وفي حديث نويلة بنت مسلم أنها جاءهم الخبر بذلك ، وهم في صلاة الظهر ، قالت : فتحول الرجال مكان النساء ، والنساء مكان الرجال ، وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : بينما الناس بقباء في صلاة الصبح ، إذ جاءهم آتٍ فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة [٢] .

وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلَّا بعد العلم به ، وإن تقدم نزوله وإبلاغه ؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم . ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٥) وأحمد في مسنده (٢٨٤/٣) ، والبيهقي في السنن (٣/٢) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٢٤٤/١) .

والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك ، وقالوا : ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ أي قالوا : ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا ، فأنزل اللّه جوابهم في قوله : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ أي الحكم والتصرف والأمر كله للّه ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ و ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ أي الشأن كله في امتثال أوامر اللّه ، فحيثما وجهنا توجهنا ، فالطاعة في امتثال أمره ، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة ، فنحن عبيده ، وفي تصرفه ، وخدامه حيثما وجهنا توجهنا ، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمّد صلوات اللّه وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة ، إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن ، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له ، أشرف بيوت اللّه في الأرض ؛ إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا قال : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقد روي عن عائشة قالت : قال رسول اللّه ﷺ ، يعني في أهل الكتاب : « إِنَّهُمْ لاَ يَحْسُدُونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى يَوْمِ الجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللّه لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَعَلَى القِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللّه لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الإِمَامِ آمِين » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ يقول تعالى : إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ، واخترناها لكم ، لنجعلكم خيار الأمم ، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم ؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل . والوسط ههنا الخيار والأجود ، كما يقال : قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا ، أي خيرها ، وكان رسول اللّه ﷺ وسطًا في قومه ، أي أشرفهم نسبًا ، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات ، وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها . ولما جعل اللّه هذه الأمة وسطًا خصها بأكمل الشرائع ، وأقوم المناهج ، وأوضح المذاهب . فعن أبي سعيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ بَلَّغْتَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ : هَلْ بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ ، وَمَا أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ ، فَيُقَالُ لِنُوحٍ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ ، قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قَالَ : وَالوَسَطُ العَدْلُ ، فَتُدْعَوْنَ فَتَشْهَدُونَ لَهُ بِالبَلاَغِ ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ » (٢) .

وروي عن جابر بن عبد اللّه قال : شهد رسول اللّه ﷺ جنازة في بني مسلمة ، وكنت إلى جانب رسول اللّه ﷺ فقال بعضهم : واللّه يا رسول اللّه لنعم المرء كان ، لقد كان عفيفًا مسلمًا وكان ، وأثنوا عليه خيرًا ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أَنْتَ بِمَا تَقُولُ » فقال الرجل : اللّه أعلم بالسرائر ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك ، فقال النبيّ ﷺ : « وَجَبَتْ » ، ثم شهد جنازة في بني حارثة وكنت إلى جانب رسول اللّه ﷺ فقال بعضهم : يا رسول اللّه بئس المرء كان ، إن كان لفظًا غليظًا فأثنوا عليه شرًا ، فقال رسول اللّه ﷺ لبعضهم : « أَنْتَ بِالَّذِي تَقُولُ » ، فقال الرجل : اللّه أعلم بالسرائر ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك . فقال رسول اللّه ﷺ : « وَجَبَتْ » قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمّد بن كعب : صدق رسول اللّه ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٢/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٩) وأحمد في مسنده (٣٢/٣) .

ثم قرأ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] ، وعن أبي الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض ، فهم يموتون موتًا ذريعًا ، فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثني على صاحبها خير ، فقال : وجبت ثم مر بأخرى فأثني عليها شر ، فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله ﷺ : « أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ » قال : فقلنا : وثلاثة ؟ قال : فقال : « وَثَلَاثَةٌ » قال : فقلنا : واثنان قال : « وَاثْنَانِ » ثم لم نسأله عن الواحد[2] . وعن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه : قال : سمعت رسول الله ﷺ بالبناوة يقول : « يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا خِيَارَكُمْ مِنْ شِرَارِكُمْ » قالوا : بمَ يا رسول الله ؟ قال : « بِالثَّنَاءِ الحَسَنِ ، وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ »[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ يقول تعالى : إنما شرعنا لك يا محمّد التوجه أولاً إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ، ﴿ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ ، أي مرتدًا عن دينه ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ أي هذه الفعلة وهي صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ، أي وإن كان هذا الأمر عظيمًا في النفوس ، إلاّ على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول ، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه ، وأن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فله أن يكلّف عباده بما شاء ، وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك ، بخلاف الذين في قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكًا ، كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق ؛ ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك ، وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب ، من سادات الصحابة . وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ، ما كان يضيع ثوابها عند الله . وفي الصحيح عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ، فقال الناس : ما حالهم في ذلك ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾[4] . وعن ابن عبّاس : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ أي بالقبلة الأولى ، وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى ، أي ليعطيكم أجرهما جميعًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وقال الحسن البصري : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ أي ما كان الله ليضيع محمّدًا ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت كلما وجدت صبيًا من السبي أخذته فألصقته بصدرها ، وهي تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ » ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : « فَوَاللَّهِ لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا »[5] .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٢٣/١٠) والنسائي في السنن (٤٩/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢/١ ، ٣٠) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٦) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٥١/٤) وأحمد في السنن (٣٠/١٠) والبيهقي في السنن (٧٥/٤) .

(٥) أخرجه مسلم في التوبة (٢٢) والطبراني في الصغير (٩٨/١) .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول اللّه ﷺ لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره اللّه أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول اللّه ﷺ بضعة عشر شهرًا ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو اللّه وينظر إلى السماء ، فأنزل اللّه ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ فارتابت من ذلك اليهود وقالوا : ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ وقال : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ . وروي عن ابن عبّاس قال : كان النبيّ ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء ، فأنزل اللّه : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ إلى الكعبة إلى الميزاب يؤم به جبرائيل عليه السلام. وروي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال : «البَيْتُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ المَسْجِدِ ، وَالمَسْجِدُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الحَرَمِ ، وَالحَرَمُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ فِي مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا مِنْ أُمَّتِي »[(١)] .

وقوله : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا ، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر ، فإنه يصليها حيثما توجه قالبه ، وقلبه نحو الكعبة ، وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال ، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده وإن كان مخطئًا في نفس الأمر ؛ لأن اللّه تعالى لا يكلّف نفسًا إلّا وسعها .

مسألة : وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده ، كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة ، قال المالكية : بقوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده ، لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء ، وهو ينافي كمال القيام . وقال بعضهم : ينظر المصلي في قيامه إلى صدره . وقال شريك القاضي : ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده ، كما قال جمهور الجماعة لأنه أبلغ في الخضوع ، وآكد في الخشوع ، وقد ورد به الحديث ، وأما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه ، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه ، وفي حال قعوده إلى حجره .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس ، يعلمون أن اللّه تعالى سيوجهك إليها ، بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول اللّه ﷺ وأمته ، وما خصه اللّه تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسدًا وكفرًا وعنادًا ، ولهذا تهددهم تعالى بقوله : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول اللّه ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم ، ولهذا قال ههنا : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٠/٢) والزيلعي في نصب الراية (٣٤٧/١).

ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم ، فهو أيضًا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته ، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ، ولا كونه متوجهًا إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود ، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى ، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى ، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره ، ولهذا قال مخاطبًا للرسول والمراد به الأمة ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ ، كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير : « ابْنُكَ هَذَا » ؟ قال : نعم يا رسول الله أشهد به ، قال : « أَمَا إِنَّهُ لاَ يَخْفَى عَلَيْكَ وَلاَ تَخْفَى عَلَيْهِ » (١) . قال القرطبي : ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمدًا كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإني لا أدري ما كان من أمه . قلت : وقد يكون المراد ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ من بين أبناء الناس كلهم ، لا يشك أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي ﴿ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ أي ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ثم ثبّت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين ، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فقال : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ .

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قال ابن عبَّاس : ولكل وجهة هو موليها ، يعني بذلك أهل الأديان ، يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون . وقال أبو العالية : لليهودي وجهة هو موليها ، وللنصراني وجهة هو موليها ، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة . وقال الحسن : أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة وقال : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض ، وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات ، فقيل : تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام ، وقيل : بل هو منزل على أحوال ، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة ، والثاني لمن هو في مكة غائبًا عنها ، والثالث لمن هو في بقية البلدان ، وقال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٣/٤) وأبو داود في السنن (٤٤٩٥) والألباني في الصحيحة (٩٩٠) .

القرطبي : الأول لمن هو بمكة ، والثاني لمن هو في بقية الأمصار ، والثالث لمن خرج في الأسفار ، ورجح هذا الجواب القرطبي ، وقيل : إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق : فقال أولاً : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته ، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها . وقال في الأمر الثاني : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فذكر أنه الحق من اللّه ، وارتقاءه المقام الأول حيث كان موافقًا لرضا الرسول ﷺ ، فبين أنه الحق أيضًا من اللّه يحبه ويرتضيه . وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود ، الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم ، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ، إلى الكعبة ، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف ، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها . وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار .

وقوله : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أي أهل الكتاب ؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة ، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين ، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس وهذا أظهر ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ يعني مشركي قريش . ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة أن قالوا : إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم ، فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم يرجع عنه ، والجواب أن اللّه تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولًا لما له تعالى في ذلك من الحكمة ، فأطاع ربه تعالى في ذلك ، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة فامتثل أمر اللّه في ذلك أيضًا ، فهو صلوات اللّه وسلامه عليه مطيع للّه في جميع أحواله ، لا يخرج عن أمر اللّه طرفة عين ، وأمته تبع له ، وقوله : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ أي لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين ، وأفردوا الخشية لي ، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه . وقوله : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ عطف على ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أي لأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة ، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه ، وخصصناكم به ، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثه الرسول محمّد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات اللّه مبينات ، ويزكيهم أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ، ودنس النفوس ، وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن ، والحكمة وهي السنّة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، فكانوا في الجاهلية الجَهْلاء يسفهون بالقول القرّاء ، فانتقلوا ببركة رسالته ، ويمن سفارته ، إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء ، فصاروا أعمق الناس علمًا ، وأبرهم قلوبًا ، وأقلهم تكلفًا ، وأصدقهم لهجة . وذمَّ من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ يعني بنعمة اللّه محمدًا ﷺ ، ولهذا ندب اللّه المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ، ومقابلتها بذكره وشكره ، وقال : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك ؟ قال

له ربّه : تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني . وقال الحسن البصري في قوله : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ قال : اذكروني فيما افترضت عليكم ، أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي . وعن سعيد بن جبير : اذكروني بطاعتي ، أذكركم بمغفرتي ، وعن ابن عبّاس قال : ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا ابْنَ آدَمَ إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلأٍ مِنَ المَلائِكَةِ - أَوْ قَالَ : فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُ - وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي شِبْرًا دَنَوْتُ مِنْكَ ذِرَاعًا ، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي ذِرَاعًا دَنَوتُ مِنْكَ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي أَتَيْتُكَ هَرْوَلَةً »[(١)] وقوله : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ أمر الله تعالى بشكره ، ووعد على شكره بمزيد الخير ، وعن أبي رجاء العطاردي قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خزٍّ ، لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ »[(٢)] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر ، شرع في بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلاة ، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها ، أو في نقمة فيصبر عليها ، كما جاء في الحديث « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لاَ يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ »[(٣)] . وبيّن تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم في قوله : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى[(٤)] . والصبر صبران : فصبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات ، والثاني أكثر ثوابًا ؛ لأنه المقصود وأما الصبر الثالث - وهو الصبر على المصائب والنوائب - فذاك أيضًا واجب كالاستغفار من المعايب ، قال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : الصبر في بابين الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان ، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء ، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء الحديث أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعه فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب ﷻ : إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون[(٥)] .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٨/٣) والمنذري في الترغيب (٤٠١/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٤) ، والمنذري في الترغيب (٤٤٥/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٠/١٠) .
(٣) أخرجه مسلم في الزهد (٦٣) بنحوه.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) وأبو داود في السنن (١٣١٩) .
(٥) أخرجه : مسلم في الإمارة (١٢١) والمنذري في الترغيب والترهيب ٣٢٦/٢ .

مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ .

أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده ، أي يختبرهم ويمتحنهم ، فتارة بالسراء ، وتارة بالضراء من خوف وجوع ، فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه ، ولهذا قال : ﴿ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ . وقال ههنا : ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ أي بقليل من ذلك ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ أي ذهاب بعضها ﴿ وَٱلْأَنفُسِ ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها . قال بعض السلف : فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة . وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه ، ومن قنط أحل به عقابه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله ، وبالجوع صيام رمضان ، وبنقص الأموال الزكاة ، والأنفس الأمراض ، والثمرات الأولاد ، وفي هذا نظر .

ثم بيَّن تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ أي تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم ، وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة . ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي ثناء من الله عليهم . قال سعيد بن جبير : أي أمنة من العذاب ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ فهذا العدلان ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ فهذه العلاوة وهي ما توضع بين العدلين ، وهي زيادة في الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضًا .

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ اللَّهُمَّ أجُرْني في مُصِيبَتي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ؛ إِلَّا آجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا » ، قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ ، فأخلف الله لي خيرًا منه : رسول الله ﷺ [١] . وعن أبي سنان قال : دفنت ابنًا لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة - يعني الخولاني - فأخرجني وقال لي : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى ، قال : حدَّثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ اللَّهُ : يَا مَلَكَ المَوْتِ قَبَضْتَ وَلَدَ عَبْدِي ، قَبَضْتَ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَثَمَرَةَ فُؤَادِهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَمَا قَالَ ؟ قَالَ : حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ ، قَالَ : ابْنُوا لَهُ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ » [٢] .

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ .

عن عروة عن عائشة قالت : قلتُ : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ قلت : فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٩/٦٠) والمنذري في الترغيب (٣٣٦/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٥/٤) .

فقالت عائشة : بئسما قلت يا ابن أختي ، إنها لو كانت على ما أولتَهَا عليه كانت : فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهلَّ لها يتحرج أن يطوَّف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوَّف بالصفا والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ قالت عائشة : ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما [١] . وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عبّاس قال : كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله ، وكانت بينهما آلهة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما فنزلت هذه الآية [٢] . قلت : ذكر محمّد بن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافًا ونائلة كانا بشرين فزنيا داخل الكعبة ، فمسخا حجرين ، فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس ، فلما طال عهدهما عبدا ، ثم حولا إلى الصفا والمروة ، فنصبا هنالك ، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما ، ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة :

وَحَيْثُ يُنِيخُ الأَشْعَرُونَ رِكَابَهُمْ ... لِمُفْضِي السُّيُولِ مِنْ إِسَافٍ وَنَائِلِ

وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ ثم قال : « أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ » [٣] . وعن حبيبة بنت أبي تجراة قالت : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى ، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول : « اسْعَوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ » [٤] وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج ، كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه ، ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك . وقيل : إنه واجب وليس بركن ، فإن تركه عمدًا أو سهوًا جبره بدم ، وهو رواية عن أحمد وبه يقول طائفة ، وقيل : بل مستحب ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، قال القرطبي : واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ والقول الأول أرجح ؛ لأنه عليه الصلاة والسّلام طاف بينهما وقال : « لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ » [٥] فكل ما فعله في حجته تلك واجب لابد من فعله في الحج ، إلا ما خرج بدليل والله أعلم . فبيَّن تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله ، أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج ، وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نفد ماؤهما وزادهما ، حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك ، وليس عندهما أحد من الناس ، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك ونفد ما عندهما ، قامت تطلب الغوث من الله ﷻ ، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله ﷻ ، حتى كشف الله كربتها ، وآنس غربتها ، وفرج شدتها ، وأنبع لها زمزم التي ماؤها طَعَامُ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٩٥) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٩٥) .
(٣) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) والبيهقي في السنن (٩٣/٥) والدارمي في السنن (٤٦/٢) .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٠/٤) والبغوي في شرح السنة (١٤١/٧) .
(٥) أخرجه مسلم في الحج (٣١٠) وأحمد في مسنده (٣٣٧/٣) والبيهقي في السنن (١٣٠/٥) .

طعْم ، وَشِفَاءُ سُقْم ، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى اللَّه في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه ، وأن يلتجئ إلى اللَّه ﷻ لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام .

وقوله : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ قيل : زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك ، وقيل : يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة ، وقيل : المراد تطوع خيرًا في سائر العبادات . وقوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي يثيب على القليل بالكثير ، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدًا ثوابه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ .

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة ، والهدي النافع للقلوب ، من بعد ما بينه اللَّه تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله . قال أبو العالية : نزلت في أهل الكتاب ، كتموا صفة محمّد ﷺ ، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك ، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء ، حتى الحوت في الماء والطير في الهواء ، فهؤلاء بخلاف العلماء ؛ فيلعنهم اللَّه ويلعنهم اللاعنون . وقد ورد عن أبي هريرة وغيره أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْم فَكَتَمَهُ ؛ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَام مِنْ نَارٍ » (١) . والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال : لولا آية في كتاب اللَّه ما حدثت أحدًا شيئًا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ الآية . وعن البراء بن عازب قال : كنا مع النبيّ ﷺ في جنازة فقال : « إِنَّ الكَافِرَ يُضْرَبُ ضَرْبَةً بَيْنَ عَيْنَيْهِ يَسْمَعُهَا كُلُّ دَابَّةٍ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ ، فَتَلْعَنُهُ كُلُّ دَابَّةٍ سَمِعَتْ صَوْتَهُ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّه تَعَالَى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ يَعْنِي دَوَابَّ الأَرْضِ » (٢) . وقال مجاهد : إذا أجدبت الأرض قالت البهائم : هذا من أجل عصاة بني آدم ، لعن اللَّه عصاة بني آدم . وقد جاء في الحديث : إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر (٣) ، وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه اللَّه والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضًا ، وهم كل فصيح وأعجمي إما بلسان المقال أو الحال ، أو لو كان له عقل ويوم القيامة ، واللَّه أعلم .

ثم استثنى اللَّه تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ ﴾ أي رجعوا عما كانوا فيه ، وأصلحوا أعمالهم ، وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة ، إذا تاب إلى اللَّه تاب اللَّه عليه . وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات اللَّه وسلامه عليه . ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن ﴿ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٠١/١) والترمذي في السنن (٢٦٤٩) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٢/١) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٨٢) والمنذري في الترغيب (٩٤/١) .

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة ، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ فيها أي لا ينقص عما هم فيه ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يغير عنهم ساعة واحدة ، ولا يفتر ، بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك . قال أبو العالية وقتادة : إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ، ثم تلعنه الملائكة ، ثم يلعنه الناس أجمعون .

فصل : لا خلاف في جواز لعن الكفار ، وقد كان عمر بن الخطاب ﷺ ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره ، فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن ؛ لأنا لا ندري بما يختم الله له . واستدل بعضهم بالآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ . وقالت طائفة أخرى : بل يجوز لعن الكافر المعين ، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي ، ولكنه احتج بحديث فيه ضعف ، واستدل غيره بقوله ﷺ في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده ، فقال رجل : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تَلْعَنْهُ ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » (١) فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن ، والله أعلم .

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية ، وأنه لا شريك له ولا عديل له ، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصَّمد الذي لا إله إلَّا هو وأنه الرحمن الرحيم . عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ و﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ » (٢) ثم ذكر الدليل على تفرُّده بالإلهية بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بين ذلك ، مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها ، وكواكبها السيَّارة والثوابت ودوران فلكها ، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ، واختلاف الليل والنهار ، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة وتارة يطول هذا ويقصر هذا ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، ثم يتعاوضان ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس ، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء ، وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ أي على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها ، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ أي فتارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب ، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب ، وتارة تسوقه وتارة تجمعه ، وتارة

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣١٢/٨) والهندي في كنز العمال (١٣٧٤٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٤٩٦) والترمذي في السنن (٣٤٧٨) وابن ماجه في السنن (٣٨٥٥) .

تفرقه ، وتارة تصرفه ، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية ، وتارة تأتي من ناحية اليمن ، وتارة صبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة ، وتارة دبورًا وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي سائر بين السماء والأرض ، مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن ، كما يصرفه تعالى ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى .

عن ابن عبّاس قال : أتت قريش محمّدًا ﷺ فقالوا : يا محمّد ، إنا نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ، فنشتري به الخيل والسلاح فنؤمن بك ونقاتل معك قال : « أَوْثِقُوا لِي لَئِنْ دَعَوْتُ رَبِّي فَجَعَلَ لَكُمُ الصَّفَا ذَهَبًا لَتُؤْمِنُنَّ بِي » فأوثقوا له ، فدعا ربه فأتاه جبريل فقال : إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهبًا ، على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين ، قال محمّد ﷺ : « رَبِّ لاَ بَلْ دَعْنِي وَقَوْمِي فَلأَدْعُهُمْ يَوْمًا بِيَوْمٍ » فأنزل الله ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) فبهذا يعلمون أنه إله واحد وأنه إله كل شيء وخالق كل شيء .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ .

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ، وما لهم في الدار الآخرة ، حيث جعلوا له أندادًا أي أمثالًا ونظراء يعبدونهم معه ، ويحبونهم كحبه ، وهو الله لا إله إلّا هو ، ولا ضد له ، ولا ندّ له ، ولا شريك معه . عن عبد الله بن مسعود قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ولحبّهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له ، لا يشركون به شيئًا ، بل يعبدونه وحده ، ويتوكلون عليه ، ويلجأون في جميع أمورهم إليه . ثم توعّد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال : ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ قال بعضهم : تقدير الكلام : لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا ، أي أن الحكم له وحده لا شريك له ، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ فلو يعلمون ما يعاينونه هنالك ، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم ، لانتهوا عمّا هم فيه من الضلال .

ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم ، وتبري المتبوعين من التابعين فقال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا ، فتقول الملائكة : ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ والجنّ أيضًا تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم ، وقال الخليل لقومه : ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٣/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) ومسلم في الإيمان (١٤١) والنسائي في السنن (٨٩/٧) وأبو داود في السنن (٢٣١٠) .

قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ أي عاينوا عذاب اللَّه ، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ، ولم يجدوا عن النار معدلًا ولا مصرفًا . وقوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ﴾ أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم ، فلا نلتفت إليهم بل نوحد اللَّه وحده بالعبادة ، وهم كاذبون في هذا بل لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، كما أخبر اللَّه تعالى عنهم بذلك ولهذا قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي تذهب وتضمحل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لما بين تعالى أنه لا إله إلَّا هو ، وأنه المستقل بالخلق ، شرع يبين أنه الرزَّاق لجميع خلقه ، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالًا من اللَّه طيبًا ، أي مستطابًا في نفسه ، غير ضار للأبدان ولا للعقول ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه ، من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها ، مما كان زينه لهم في جاهليتهم . كما في حديث عياض بن حمار عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ كُلَّ مَالٍ مَنَحْتُهُ عِبَادِي فَهُوَ لَهُمْ حَلالٌ » وفيه : « وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ ، فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ » (١) وعن ابن عبَّاس قال : تليت هذه الآية عند النبيّ ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول اللَّه ادع اللَّه أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال : « يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يَتَقَبَّلُ مِنْهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ » (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ تنفير عنه وتحذير منه ، قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ قيل : كل معصية للَّه فهي من خطوات الشيطان . وقال عكرمة : هي نزغات الشيطان . وقال أبو مجلز : هي النذور في المعاصي . وقال مسروق : أتي عبد اللَّه بن مسعود بضرع وملح فجعل يأكل ، فاعتزل رجل من القوم ، فقال ابن مسعود : ناولوا صاحبكم ، فقال : لا أريده ، فقال : أصائم أنت ؟ قال : لا ، قال : فما شأنك ؟ قال : حرمت أن آكل ضرعًا أبدًا ، فقال ابن مسعود : هذا من خطوات الشيطان ، فاطعم وكفّر عن يمينك . وعن أبي رافع قال : غضبت أمي يومًا على امرأتي ، فقالت : هي يومًا يهودية ويومًا نصرانية ، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك ، فأتيت عبد اللَّه بن عمر ، فقال : إنما هذه من خطوات الشيطان ، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أفقه امرأة في المدينة ، وأتيت عاصمًا وابن عمر فقالا مثل ذلك .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٤) والطبراني في الكبير (٣٦٢/١٧) .
(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٤٧/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة ، وأغلظ منها الفاحشة كالزنى ونحوه ، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم ، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضًا .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ ﴾ لهؤلاء الكفرة من المشركين : ﴿ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ على رسوله ، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ، ﴿ قَالُوا ﴾ في جواب ذلك : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا ﴾ أي ما وجدنا ﴿ عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ ، أي من عبادة الأصنام والأنداد . قال الله تعالى منكرًا عليهم : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ أي الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ أي ليس لهم فهم ولا هداية . وعن ابن عبّاس أنها نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام فقالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فأنزل الله هذه الآية . ثم ضرب لهم تعالى مثلًا ، فقال : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل ، كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها ، بل إذا نعق بها راعيها أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه ، بل إنما تسمع صوته فقط . وقيل : إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئًا ، اختاره ابن جرير ، والأول أولى ؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئًا ولا تعقله ولا تبصره ، ولا بطش لها ولا حياة فيها .

وقوله : ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ أي صم عن سماع الحق ، بكم لا يتفوهون به ، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي لا يعقلون شيئًا ولا يفهمونه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى ، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده ، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة ، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّه طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّه أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَٰتِ وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ ، يَارَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالحَرَامِ ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟ » [1] . ولما امتن تعالى عليهم برزقه ، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه ، ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة ، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية ، وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع ، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ﴾ وقوله ﷺ في البحر : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥) وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) .

مَيْتَتُهُ » (١) وحديث ابن عمر مرفوعًا « أُحِلَّ لَنَا مِيتَتَانِ وَدَمَانِ السَّمَكُ وَالجَرَادُ ، والكَبِدُ وَالطِّحَالُ » (٢) .

مسألة : ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره ؛ لأنه جزء منها ، وقال مالك في رواية : هو طاهر إلَّا أنه ينجس بالمجاورة ، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف ، والمشهور عندهم أنها نجسة ، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس ، فقال القرطبي في التفسير : ههنا يخالط اللبن منها يسير ، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع . وعن سلمان ﷺ : سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء فقال : « الحَلاَلُ مَا أَحَلَّ اللَّه فِي كِتَابِهِ ، وَالحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّه فِي كِتَابِهِ ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ » (٣) وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير ، سواء ذكي أم مات حتف أنفه ، ويدخل شحمه في حكم لحمه ، إما تغليبًا ، أو أن اللحم يشمل ذلك ، أو بطريق القياس على رأي . وكذلك حرم عليهم ما أهلّ به لغير اللَّه ، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك ، مما كانت الجاهلية ينحرون له . وعن الحسن البصري أنه سئل عن امرأة عملت عرسًا للعبها فنحرت فيه جزورًا ، فقال : لا تؤكل ؛ لأنها ذبحت لصنم . وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين ، فقالت : ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه ، وكلوا من أشجارها .

ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة فقال : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ أي في غير بغي ولا عدوان وهو مجاوزة الحد ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ أي في أكل ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وقال مجاهد : فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، قاطعًا للسبيل أو مفارقًا للأئمة ، أو خارجًا في معصية اللَّه ، فله الرخصة ، ومن خرج باغيًا أو عاديًا أو في معصية اللَّه ؛ فلا رخصة له ، وإن اضطر إليه . وعن ابن عبّاس : قال : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ في الميتة ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ في أكله .

مسألة : إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير ، بحيث لا قطع فيه ولا أذى ، فإنه لا يحل له أكل الميتة ، بل يأكل طعام الغير بغير خلاف - كذا قال - ثم قال : وإذا أكله والحالة هذه هل يضمن أم لا ؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك ، عن عباد بن شرحبيل العنزي قال : أصابتنا عامًا مخمصة ، فأتيت المدينة ، فأتيت حائطًا فأخذت سنبلًا ففركته وأكلته ، وجعلت منه في كسائي ، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي ، فأتيت رسول اللَّه ﷺ فأخبرته فقال للرجل : « مَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا وَلاَ سَاعِيًا ، وَلاَ عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا » فأمره فرد إليه ثوبه ، وأمر له بوسق طعام أو نصف وسق (٤) . وعن شعيب عن أبيه عن جده سئل رسول اللَّه ﷺ عن الثمر المعلق فقال : « مَنْ أَصَابَ مِنْهُ مِنْ ذِي حَاجَةٍ بِفِيهِ غَيْرَ مُتَّخِذٍ خُبْنَةً فَلاَ شَيْءَ عَلَيْهِ » (٥) وعن مسروق قال : من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار ، وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٨٣) والترمذي في السنن (٦٩) والنسائي في السنن (١/ ٥٠) والدارمي في السنن (٢/ ٩١) ومالك في الموطأ (٢٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٩٧) والبيهقي في السنن (٩/ ٢٥٧) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١٥) والترمذي في السنن (١٧٢٦) وابن ماجه في السنن (٣٣٦٧) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٢٩٨) . (٥) أخرجه الترمذي في السنن (١٢٨٩) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمّد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم ، مما تشهد له بالرسالة والنبوة ، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم . وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم ، فخشوا - لعنهم اللّٰه - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم ، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك ، وهو نزر يسير فباعوا أنفسهم بذلك ، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن اللّٰه بذلك النزر اليسير ، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فإن اللّٰه أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات ، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه ، وصاروا عونًا له على قتالهم ، وباءوا بغضب على غضب ، وذمهم اللّٰه في كتابه في غير موضع ، فمن ذلك هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ، نارًا تأجج في بطونهم يوم القيامة ، وفي الحديث عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال : « إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ » (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم ؛ لأنهم كتموا وقد علموا ، فاستحقوا الغضب فلا ينظر إليهم ﴿ولا يزكيهم ﴾ أي يثني عليهم ويمدحهم ، بل يعذبهم عذابًا أليمًا . وعن أبي هريرة عن رسول اللّٰه ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّٰهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » (٢) . ثم قال تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي اعتاضوا عن الهدى ، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه ، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عن الضلالة ، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم ﴿ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب ، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة . وقوله تعالى : ﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل ، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك ، مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عياذًا باللّٰه من ذلك . وقيل : معنى قوله : ﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد ؛ لأن اللّٰه تعالى أنزل على رسوله محمّد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل ، وهؤلاء اتخذوا آيات اللّٰه هزوًا ، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره ، فخالفوه وكذبوه ، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم

---

(١) أخرجه مسلم في اللباس(١) والبيهقي في السنن(١٤٥/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد(٧٤٤٦) ومسلم في الإيمان(١٧١) والنسائي في السنن(٢٤٥/٧) وأحمد في مسنده(١٦٢/٥) .

إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته ، فاستهزأوا بآيات الله المنزلة على رسله ، فلهذا استحقوا العذاب والنكال ولهذا قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة ، وقواعد عميقة ، وعقيدة مستقيمة . جاء رجل إلى أبي ذر فقال : ما الإيمان ؟ فقرأ عليه هذه الآية ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ حتى فرغ منها ، فقال الرجل : ليس عن البر سألتك ، فقال أبو ذر : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عما سألتني عنه ، فقرأ عليه هذه الآية ، فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى ، فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده : « الْمُؤْمِنُ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً سَرَّتْهُ وَرَجَا ثَوَابَهَا ، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً أَحْزَنَتْهُ وَخَافَ عِقَابَهَا » (١) .

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولًا بالتوجه إلى بيت المقدس ، ثم حولهم إلى الكعبة ، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين ، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك ، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله ﷻ وامتثال أوامره ، والتوجه حيثما وجه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس في لزوم التوجه إلى جهةٍ من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة ، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه . ولهذا قال : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ الآية . وقال ابن عباس في هذه الآية : ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا ، فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ، ونزلت الفرائض والحدود ، فأمر الله بالفرائض والعمل بها . وقال الثوري : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ الآية قال : هذه أنواع البرّ كلها ، وصدق رحمه الله فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها ، وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله ، وأنه لا إله إلّا هو ، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ﴾ وهو يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب ، الذي انتهى إليه كل خير ، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله ، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمّد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ أي أخرجه وهو محب له ، راغب فيه . نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف كما ثبت من حديث أبي هريرة مرفوعًا : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ ؛ تَأْمُلُ الغِنَى ، وَتَخْشَى الفَقْرَ » (٢) .

وقوله : ﴿ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ وهم قرابات الرجل ، وهم أولى من أعطي من الصدقة كما ثبت في الحديث : « الصَّدَقَةُ عَلَى المَسَاكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذَوِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ : صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ ، فَهُمْ أَوْلَى

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٩/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٨) ومسلم في الزكاة (٩٢) وأحمد في مسنده (٤١٥/٢) والنسائي في السنن (٦٨/٥) .

النَّاسِ بِكَ وَبِبِرِّكَ وَإِعْطَائِكَ » [١] ، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز .
﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ هم الذين لا كاسب لهم ، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب ، وعن علي عن رسول الله ﷺ قال : « لاَ يُتْمَ بَعْدَ حِلْمٍ » [٢] . ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينَ ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ المِسْكِينُ بِهذَا الطَّوَّافِ الَّذي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، وَلكِنَّ المِسْكِينَ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ ، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ » [٣] ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته ، فيعطى ما يوصله إلى بلده ، وكذا الذي يريد سفرًا في طاعة فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه ، ويدخل في ذلك الضيف ، وعن ابن عبّاس قال : ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين . ﴿ وَٱلسَّآئِلِينَ ﴾ وهم الذي يتعرضون للطلب ، فيعطون من الزكوات والصدقات ، كما ورد عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها – قال : قال رسول الله ﷺ : « لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإِنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ » [٤] ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم . وعن فاطمة بنت قيس قالت : قال رسول الله ﷺ : « فِي المَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ » ثم قرأ : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها ، بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها ، على الوجه الشرعي المرضي . وقوله : ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة ، ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال ، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين ، إنما هو التطوع والبر والصلة .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ﴾ كقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ وعكس هذه الصفة النفاق كما صح في الحديث « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ » [٦] وفي الحديث الآخر « وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » [٧] وقوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ أي في حال الفقر وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام وهو الضراء ﴿ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ أي في حال القتال والتقاء الأعداء، وإنما نصب ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدته وصعوبته، والله أعلم . وقوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ﴾ أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم ؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٤/٤) والترمذي في السنن (٦٥٨) وابن ماجه في السنن (١٨٤٤) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٧٣) والبيهقي في السنن (٥٧/٧) ، والطبراني في الصغير (٩٦/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٤/١) والنسائي في السنن (٨٥/٥) وابن خزيمة في صحيحه (٢٣٦٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠١/١) وأبو داود في السنن (١٦٦٥) والطبراني في الكبير (١٤١/٣) والألباني في الصحيحة (١٥٥/١) .
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٧٢/١) والبخاري في التاريخ الكبير (٩٠/٣) .
(٦) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٢) ومسلم في الإيمان (١٠٧) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) .
(٧) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٥) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون ، حركم بحركم ، وعبدكم بعبدكم ، وأنثاكم بأنثاكم ، ولا تتجاوزا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم . وسبب ذلك قريظة والنضير ، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم ، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به بل يفادى بمائة وسق من التمر ، وإذا قتل القرظي النضري قتل ، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية القرظي ، فأمر الله تعالى بالعدل في القصاص ، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفرًا وبغيًا فقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ ﴾ . وذكر في سبب نزولها عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ يعني إذا كان عمدًا الحر بالحر ، وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل ، فكان بينهم قتل وجراحات ، حتى قتلوا العبيد والنساء ، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا ، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في المدة والأموال ، فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم ، والمرأة منا الرجل منهم ، فنزل فيهم : ﴿ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ ﴾ . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ ﴾ أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ، ولكن يقتلون الرجل بالرجل ، والمرأة بالمرأة ، فأنزل الله ﴿ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ ﴾ فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد ، رجالهم ونساؤهم في النفس وفيما دون النفس ، وجعل العبيد مستويين فيما بينهم من العمد في النفس ، وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم .

مسألة : ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة ، وإليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود ، وهو مروي عن عليّ وابن مسعود وغيرهما . قال البخاري وعلي بن المديني وإبراهيم النخعي والثوري في رواية عنه : ويقتل السيد بعبده لعموم حديث الحسن عن سمرة : «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ ، وَمَنْ خَصَاهُ خَصَيْنَاهُ »[(١)] وخالفهم الجمهور فقالوا : لا يقتل الحر بالعبد ؛ لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب فيه دية ، وإنما تجب فيه قيمته ؛ ولأنه لا يقاد بطرفه ، ففي النفس بطريق الأولى ، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر ، وعن علي قال : قال رسول الله ﷺ : «لاَ يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ »[(٢)] ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا ، وأما أبو حنيفة : فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة .

مسألة : قال الحسن وعطاء : لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية ، وخالفهم الجمهور لآية المائدة ، ولقوله عليه الصلاة والسّلام : «المُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ »[(٣)] وقال الليث : إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة .

مسألة : ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد : قال عمر في غلام قتله سبعة فقتلهم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢/٥) والنسائي في السنن (٢١/٨) والترمذي في السنن (١٤١٤) والحاكم في المستدرك (٣٦٧/٤).
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٠٦) والترمذي في السنن (١٤١٢) وابن ماجه في السنن (٢٦٥٩).
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٦٨٣) وأبو داود في السنن (٢٧٥١) والبيهقي في السنن (٢٩/٨).

وقال : لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ، ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة ، وذلك كالإجماع . وحكي عن الإمام أحمد رواية أن الجماعة لا يقتلون بالواحد ، ولا يقتل بالنفس إلَّا نفس واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ قال ابن عبَّاس : ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد . وقال : يعني فمن ترك له من أخيه شيء ، يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم ، وذلك العفو ﴿ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ يقول : فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية ﴿ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ يعني من القاتل من غير ضرر ولا معك ، يعني المدافعة .

مسألة : قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي وأحمد في أحد قوليه : ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلَّا برضا القاتل ، وقال الباقون : له أن يعفو عليها وإن لم يرض .

مسألة : وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ يقول تعالى : إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفًا من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتومًا على الأمم قبلكم من القتل أو العفو . وعن ابن عبَّاس قال : كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى ولم يكن فيهم العفو فقال الله لهذه الأمة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ، ذلك تخفيف مما كتب على بني إسرائيل ومن كان قبلكم ﴿ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ قال قتادة : ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية ، ولم تحل لأحد قبلهم ، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص ، وعفو ليس بينهم أرش ، وكان أهل الإنجيل ، إنما هو عفو أمروا به ، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش .

وقوله : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يقول تعالى : فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها ، فله عذاب من الله أليم موجع شديد . وهكذا روي عن ابن عبَّاس ومجاهد وعطاء وغيرهم أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية . وعن أبي شريح الخزاعي أن النبيّ ﷺ قال : « مَنْ أُصِيبَ بِقَتْلٍ أَوْ خَبلٍ ؛ فَإِنَّهُ يَخْتَارُ إِحْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ يَقْتَصَّ ، وَإِمَّا أَنْ يَعْفُوَ ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ الدِّيَةَ ، فَإِنْ أَرَادَ الرَّابِعَةَ ؛ فَخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ ، وَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَلَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا » (١) .

وقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ يقول تعالى : وفي شرع القصاص لكم ، وهو قتل القاتل حكمة عظيمة ، وهي بقاء المهج وصونها ؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه ، فكان في ذلك حياة للنفوس . وفي الكتب المتقدمة القتل أنفى للقتل ، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ قال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة ، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل ﴿ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ يقول : يا أولي العقول والأفهام والنهى ، لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه ، والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١/٤) وابن ماجه في السنن (٢٦٢٣) والدارمي في السنن (١٨٨/٢) والدارقطني في السنن (٩٦/٣) .

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين ، وقد كان ذلك واجبًا على أصح القولين قبل نزول آية المواريث ، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه ، وصارت المواريث المقدرة فريضة من اللَّه يأخذها أهلوها حتمًا من غير وصية ، ولا تحمل منة الموصي ، ولهذا جاء عن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يخطب وهو يقول : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ؛ فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ » (١) وعن يونس بن عبيد قال : جلس ابن عبَّاس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فقال : نسخت هذه الآية . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قال : كان لا يرث مع الوالدين غيرهما ، إلَّا وصية للأقربين ، فأنزل اللَّه آية الميراث فبين ميرات الوالدين ، وأقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت .

والعجب من أبي عبد اللَّه محمّد بن عمر الرازي رحمه الله كيف حكى في تفسيره الكبير عن أبي مسلم الأصفهاني أن هذه الآية غير منسوخة ، وإنما هي مفسرة بآية المواريث ، ومعناه كتب عليكم ما أوصى اللَّه به من توريث الوالدين والأقربين من قوله : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ قال : وهو قول أكثر المفسّرين والمعتبرين من الفقهاء ، قال : ومنهم من قال : إنها منسوخة فيمن يرث ، ثابتة فيمن لا يرث ، وهو مذهب ابن عبّاس والحسن ومسروق وطاووس والضحاك ومسلم بن يسار والعلاء بن زياد . قلت : وبه قال أيضًا سعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان ولكن على قول هؤلاء ، لا يسمى هذا نسخًا في اصطلاحنا المتأخر ؛ لأن آية المواريث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية ؛ لأن الأقربين أعم ممن يرث ومن لا يرث ، فرفع حكم من يرث بما عين له ، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى ، وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم أن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت ندبًا حتى نسخت ، فأما من يقول : إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث ، كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء ، فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع ، بل منهي عنه للحديث المتقدم « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ » فآية الميراث حكم مستقل ، ووجوب من عند اللَّه لأهل الفروض والعصبات ، رفع بها حكم هذه بالكلية ، بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثلث ؛ استئناسًا بآية الوصية وشمولها ، ولما ثبت عن ابن عمر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ » قال ابن عمر : ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول ذلك إلَّا وعندي وصيتي (٢) .

وقوله : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أي مالًا . ثم منهم من قال : الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثة ، ومنهم من قال : إنما يوصي إذا ترك مالًا جليلًا ، ثم اختلفوا في مقداره ، قيل لعلي رضي الله عنه : إن رجلًا من قريش قد مات وترك ثلاثمائة دينار أو أربعمائة ولم يوص ؟ قال : ليس بشيء إنما قال اللَّه : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ . عن عروة أن عليًا دخل على رجل من قومه يعوده فقال له : أوص ؟ فقال له علي : إنما قال اللَّه : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ إنما تركت شيئًا يسيرًا ، فاتركه لولدك . وقال ابن عبّاس : من لم يترك ستين دينارًا لم يترك خيرًا .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن(٢٧١٣) والترمذي في السنن(٢١٢٠) والنسائي في السنن(٦/٢٤٧) وأحمد في مسنده(٤/٢٣٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٤) والنسائي في السنن(٦/٢٣٩) .

وقال طاووس : لم يترك خيرًا من لم يترك ثمانين دينارًا . وقال قتادة : كان يقال : ألفًا فما فوقها .

وقوله : ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي بالرفق والإحسان . وعن الحسن قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ فقال : نعم الوصية ، حق على كل مسلم أن يوصي إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر ، والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربيه وصية لا تجحف بورثته ، من غير إسراف ولا تقتير ، كما ثبت في الصحيحين أن سعدًا قال : يا رسول اللَّه ، إن لي مالًا ولا يرثني إلَّا ابنة لي أفاوصي بثلثي مالي ؟ قال : « لَا » ، قال : فبالشطر ؟ قال : « لَا » ، قال : فالثلث ؟ قال : « الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » (١) . وفي صحيح البخاري أن ابن عباس قال : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع ، فإن رسول اللَّه ﷺ قال : « الثُّلُثُ ، والثُّلُثُ كَثِيرٌ » (٢) .

وقوله : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يقول تعالى : فمن بدل الوصية وحرَّفها فغيَّر حكمها وزاد فيها أو نقص ، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾ قال ابن عبّاس وغير واحد : وقع أجر الميت على اللَّه ، وتعلق الإثم بالذين بدَّلوا ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي قد اطلع على ما أوصى به الميت ، وهو عليم بذلك ، وبما بدله الموصى إليهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ﴾ الجنف الخطأ ، وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها ، بأن زادوا وارثًا بواسطة أو وسيلة ، كما إذا أوصى ببيعة الشيء الفلاني محاباة ، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها ، أو نحو ذلك من الوسائل إما مخطئًا غير عامد بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر ، أو متعمدًا آثمًا في ذلك ، فللوصي والحالة هذه أن يصلح القضية ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي ، ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء ، وأشبه الأمور به ، جمعًا بين مقصود الموصي والطريق الشرعي ، وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء ، ولهذا عطف هذا فبينه على النهي عن ذلك ، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَإِذَا أَوْصَى حَافَ فِي وَصِيَّتِهِ ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ النَّارَ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ » قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ الآية (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا للمؤمنين من هذه الأمة ، وآمرًا إياهم بالصيام ، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنيّة خالصة للَّه ﷻ ، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة ، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم ، فلهم فيه أسوة وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض ، أكمل مما فعله أولئك ، ولهذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ

---

(١) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٤) . (٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٣) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٢٧٨/٢) .

عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لأن الصوم فيه تزكية للبدن ، وتضييق لمسالك الشيطان ، ولهذا ثبت في الصحيحين : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ »[١] ثم بيَّن مقدار الصوم ، وأنه ليس في كل يوم ، لئلا يشق على النفوس ، فتضعف عن حمله وأدائه ، بل في أيام معدودات ، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام ، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان ، وقد روي أن الصيام كان أولًا كما كان عليه الأمم قبلنا ، من كل شهر ثلاثة أيام ، ولم يزل هذا مشروعًا من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان . وعن عبد الله ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « صِيَامُ رَمَضَانَ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى الأُمَمِ قَبْلَكُمْ »[٢] .

ثم بيَّن حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أي المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر ، لما في ذلك من المشقة عليهما ، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر ، وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام ، فقد كان مخيرًا بين الصيام وبين الإطعام ، إن شاء صام ، وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا ، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير ، وإن صام فهو أفضل من الإطعام . قال ابن مسعود وابن عبَّاس ومجاهد وغيرهم من السلف : ولهذا قال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال ، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال ، فأما أحوال الصلاة : فإن النبي ﷺ قدم المدينة وهو يصلي سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس ، ثم إن الله عز وجل أنزل عليه ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ الآية ، فوجهه الله إلى مكة هذا حول ، قال : وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذن بها بعضهم بعضًا حتى نقسوا أو كادوا ينقسون ، ثم إن رجلًا من الأنصار يقال له : عبد الله بن زيد بن عبد ربه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني رأيت فيما يرى النائم ولو قلت : إني لم أكن نائمًا لصدقت ، إني بينا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصًا عليه ثوبان أخضران ، فاستقبل القبلة فقال : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلَّا الله - مثنى - حتى فرغ من الأذان ، ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذي قال : غير أنه يزيد في ذلك : قد قامت الصلاة - مرتين - قال رسول الله ﷺ : « عَلِّمْهَا بِلَالًا فَلْيُؤَذِّنْ بِهَا » فكان بلال أول من أذن بها ، قال : وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، قد طاف بي مثل الذي طاف به ، غير أنه سبقني[٣] . فهذان حالان ، قال : وكانوا يأتون الصلاة وقد سبقهم النبيّ ﷺ ببعضها فكان الرجل يشير إلى الرجل إذن كم صلى ؟ فيقول : واحدة أو اثنتين فيصليهما ، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم ، قال : فجاء معاذ فقال : لا أجده على حال أبدًا إلَّا كنت عليها ، ثم قضيت ما سبقني : قال : فجاء وقد سبقه النبيّ ﷺ ببعضها قال : فثبت معه ، فلما قضى رسول الله ﷺ قام فقضى ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ قَدْ سَنَّ لَكُمْ مُعَاذٌ ، فَهَكَذَا فَاصْنَعُوا »[٤] فهذه ثلاثة أحوال . وأما أحوال الصيام : فإن رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٥) ومسلم في النكاح (١) وابن ماجه في السنن (١٨٤٥) وأحمد في مسنده (٤٢٤/١) .

(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٧٨/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٦/٥) والبيهقي في السنن (٣٩١/١) والدارقطني في السنن (٢٤٢/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٦/٥) .

ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء ، ثم إن الله فرض عليه الصيام وأنزل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينًا فأجزأ ذلك عنه ، ثم إن الله ﷻ أنزل الآية الأخرى ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ، ورخص فيه للمريض والمسافر ، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام ، فهذان حالان ، قال : وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا ، فإذا ناموا امتنعوا ، ثم إن رجلًا من الأنصار يقال له : صرمة كان يعمل صائمًا حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام ، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح صائمًا فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهدًا شديدًا فقال : « ما لي أَرَاكَ قَدْ جَهِدْتَ جُهْدًا شَدِيدًا ؟ » قال : يا رسول الله ، إني عملت أمس فجئت حين جئت فألقيت نفسي فنمت فأصبحت حين أصبحت صائمًا ، قال : وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام ، فأتى النبيّ ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله ﷻ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ ﴾ إلى قوله ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ ﴾ كما قال معاذ ﷺ : كان في ابتداء الأمر من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا ، وعن سلمة بن الأكوع أنه قال : لما نزلت ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ ﴾ كان من أراد أن يفطرْ يفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها . وعن ابن عبّاس قال : نزلت هذه الآية ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ ﴾ في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ثم ضعف ، فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكينًا .

فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه ؛ لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء ، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينًا إذا كان ذا جدة ؟ فيه قولان للعلماء : أحدهما : لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسنه ؛ فلم يجب عليه فدية كالصبي ؛ لأن الله لا يكلّف نفسًا إلَّا وسعها ، وهو أحد قولي الشافعي ، والثاني : وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء أنه يجب عليه فدية عن كل يوم كما فسره ابن عبّاس وغيره من السلف على قراءة من قرأ ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ أي يتجشمونه كما قاله ابن مسعود وغيره ، وهو اختيار البخاري فإنه قال : وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام فقد أطعم أنس بعدما كبر عامًا أو عامين عن كل يوم مسكينًا خبزًا ولحمًا وأفطر (٢) . ومما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ، ففيهما خلاف كثير بين العلماء ، فمنهم من قال : يفطران ويفديان ويقضيان ، وقيل : يفديان فقط ولا قضاء ، وقيل : يجب القضاء بلا فدية ، وقيل : يفطران ولا فدية ولا قضاء ، وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة في كتاب الصيام الذي أفردناه ولله الحمد والمنة .

﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٧/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب ٢٥) .

بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم ، وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء ، فعن واثلة يعني ابن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : « أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ ، وَالإِنْجِيلُ لِثَلاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأَنْزَلَ اللَّه القُرْآنَ لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ » (١) . وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة ، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه ، ثم نزل بعد مفرقًا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ . عن ابن عبّاس أنه سأل عطية بن الأسود فقال : وقع في قلبي الشك : قول اللّه تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ وقد أنزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع فقال ابن عبّاس : إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر ، وفي ليلة مباركة جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلًا في الشهور والأيام . وعن ابن عبّاس قال : أنزل القرآن في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا ، فجعل في بيت العزة ، ثم أنزل على رسول اللّه ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس .

وقوله : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ هذا مدح للقرآن الذي أنزله اللّه هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه ﴿ وَبَيِّنَٰتٍ ﴾ أي ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها ، دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال ، والرشد المخالف للغي ، ومفرقًا بين الحق والباطل ، والحلال والحرام . وقد روي عن بعض السلف أنه كره أن يقال : إلّا شهر رمضان ، ولا يقال : رمضان .

وقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر ، أي كان مقيمًا في البلد حين دخل شهر رمضان ، وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة ، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحًا مقيمًا أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه ، ولما ختم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار بشرط القضاء فقال : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ معناه ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان على سفر أي في حالة السفر ، فله أن يفطر ، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام ، ولهذا قال : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ أي إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيرًا عليكم ورحمة بكم .

وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية :

إحداها : أن من كان مقيمًا في أول الشهر ، ثم سافر في أثنائه ، فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه لقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر . وهذا القول غريب نقله أبو محمّد ابن حزم في كتابه المحلى عن جماعة من الصحابة والتابعين ، وفيما حكاه عنهم نظر ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/٤) والألباني في الصحيحة (١٥٧٥) .

فإنه قد ثبتت السنّة عن رسول اللّٰه ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر .

الثانية : وجوب الإفطار في السفر لقوله تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ والصحيح قول الجمهور إن الأمر في ذلك على التخيير ، وليس بحتم ؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول اللّٰه ﷺ في شهر رمضان قال : فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم (١) . فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام ، بل الذي ثبت من فعل رسول اللّٰه ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائمًا فعن أبي الدرداء قال : خرجنا مع رسول اللّٰه ﷺ في شهر رمضان في حر شديد ، حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول اللّٰه ﷺ وعبد اللّٰه بن رواحة (٢) .

الثالثة : الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبيّ ﷺ كما تقدم ، وقالت طائفة : بل الإفطار أفضل أخذًا بالرخصة ، ولما ثبت عن رسول اللّٰه ﷺ أنه سئل عن الصوم في السفر فقال : « مَنْ أَفْطَرَ فَحَسَنٌ ، وَمَنْ صَامَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ » (٣) . وقال : « عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللّٰهِ الَّتِي رَخَّصَ لَكُمْ » (٤) . وقالت طائفة : هما سواء ، لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال : يا رسول اللّٰه إني كثير الصيام أفأصوم في السفر ؟ فقال : « إِنْ شِئْتَ فَصُمْ ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ » (٥) . وقيل : إن شق الصيام فالإفطار أفضل ، لحديث جابر أن رسول اللّٰه ﷺ رأى رجلًا قد ظلّل عليه فقال : « مَا هَذَا ؟ » قالوا : صائم ، فقال : « لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ » (٦) ، فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكروه إليه فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام والحالة هذه ، لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وجابر وغيرهما : من لم يقبل رخصة اللّٰه كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة (٧) .

الرابعة : القضاء هل يجب متتابعًا أو يجوز فيه التفريق فيه قولان : أحدهما : أنه يجب التتابع لأن القضاء يحكي الأداء . والثاني : لا يجب التتابع بل إن شاء فرق وإن شاء تابع ، وهذا قول جمهور السلف والخلف وعليه ثبتت الدلائل ، لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر ، فأما بعد انقضاء رمضان ؛ فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ وعن أبي قتادة عن الأعرابي الذي سمع النبيّ ﷺ يقول : « إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ » (٨) وفي الصحيحين أن رسول اللّٰه ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن : « بَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا ، وَيَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا ، وَتَطَاوَعَا وَلاَ

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٨٨/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٩/٣) .
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٠/٣) وعزاه للبزار .
(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦١/٣) .
(٤) أخرجه مسلم في الصيام (٩٢) والمنذري في الترغيب (١٣٣/٢) .
(٥) أخرجه البيهقي في السنن (٢٤٣/٤) .
(٦) أخرجه النسائي في السنن (١٧٦/٤) وابن ماجه في السنن (١٦٦٤) والترمذي في السنن (٧١٠) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٨/٤) .
(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٨/٤) والألباني في الصحيحة (١٦٣٥) .

تَخْتَلِفَا »[١] وفي السنن والمسانيد أن رسول اللَّه ﷺ قال : « بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ »[٢] .

ومعنى قوله : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ أي إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار ، لإرادته بكم اليسر ، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم وقوله : ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أي ولتذكروا اللَّه عند انقضاء عبادتكم . وجاءت السنّة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات . قال ابن عبّاس : ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول اللَّه ﷺ إلّا بالتكبير ، ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية ﴿ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ حتى ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر لظاهر الأمر في قوله : ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمة اللَّه أنه لا يشرع التكبير في عيد الفطر والباقون على استحبابه على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم . وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي إذا قمتم بما أمركم اللَّه من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده ، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .

عن الحسن قال : سأل أصحاب رسول اللَّه ﷺ : أين ربنا ؟ فأنزل اللَّه ﷻ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ الآية ، وقال ابن جريج عن عطاء أنه بلغه لما نزلت ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال الناس : لو نعلم أي ساعة ندعو ؟ فنزلت : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ وعن أبي موسى الأشعري قال : كنا مع رسول اللَّه ﷺ في غزوة ، فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نعلو شرفًا ، ولا نهبط واديًا إلّا رفعنا أصواتنا بالتكبير ، قال : فدنا منا فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا ، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ ، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ ؟ لا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّه »[٣] وعن أنس ﷺ أن النبيّ ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي »[٤] .

قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ وقوله لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ والمراد من هذا أنه تعالى لا يخيب دعاء داع ، ولا يشغله عنه شيء ، بل هو سميع الدعاء ، ففيه ترغيب في الدعاء وأنه لا يضيع لديه تعالى . وعن سلمان الفارسي ﷺ ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَسْتَحِي أَنْ يَبْسُطَ العَبْدُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ يَسْأَلُهُ فِيهِمَا خَيْرًا فَيَرُدَّهُمَا خَائِبَتَيْنِ »[٥] . وعن أبي سعيد أن النبيّ ﷺ قال : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ ﷻ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلاَ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨) ومسلم في الجهاد (٧) وأحمد في مسنده (٤/٤١٧) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٦٦) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٢) وأبو داود في السنن (١٥٢٨) والبيهقي في السنن (٢/١٨٤) .
(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (١) وأحمد في مسنده (٣/٢١٠) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٣٨) والحاكم في المستدرك (١/٥٣٥) .

قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ : إِمَّا أَنْ يُعَجِّل لَهُ دَعْوَتَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الأُخْرَى ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا » قالوا : إذن نكثر قال : « اللَّهُ أَكْثَرُ » (١) .

وعن عبد اللَّه بن عمرو أن رسول اللَّه ﷺ قال : « الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ ، وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ ، فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ » (٢) وعن أنس عن النبيّ ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ وَاحِدَةٌ لَكَ وَوَاحِدَةٌ لِي وَوَاحِدَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، فَأَمَّا الَّتِي لِي فَتَعْبُدُنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا ، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ فَمَا عَمِلْتَ مِنْ شَيْءٍ أَوْ عَمَلٍ وَفَّيْتُكَهُ ، وَأَمَّا الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَمِنْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَيَّ الإِجَابَةُ » (٣) .

وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر ، وعن عبد اللَّه بن عمرو قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « لِلصَّائِمِ عِنْدَ إِفْطَارِهِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ » فكان عبد اللَّه بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا(٤) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « ثَلاثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الإِمَامُ العَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ دُونَ الغَمَامِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ : بِعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ » (٥) .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

هذه رخصة من اللَّه تعالى للمسلمين ، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء ، أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة . والرفث هنا هو الجماع . وقوله : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ ﴾ يعني هنَّ سكن لكم ، وأنتم سكن لهن ، وقال الربيع بن أنس : هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن ، وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه ، فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان ، لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا .

وكان السبب في نزول هذه الآية ما ورد عن البراء بن عازب قال : كان أصحاب النبيّ ﷺ إذا كان الرجل صائمًا فنام قبل أن يفطر ، لم يأكل إلى مثلها ، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائمًا ، وكان يومه ذلك يعمل في أرضه ، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال : هل عندك طعام ، قالت : لا ولكن انطلق فأطلب لك ، فغلبته عينه فنام ، وجاءت امرأته فلما رأته نائمًا قالت : خيبة لك أنمت ؟ فلما انتصف النهار

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨/٣) والحاكم في المستدرك (٤٩٣/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٧/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٧/٢) والمنذري في الترغيب (٤٩١/٢) .
(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٣٥٩٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٨٠/١) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٢٦) وابن ماجه في السنن (١٥٧٢) والبيهقي في السنن (٣٤٥/٣) .

غشي عليه ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ ففرحوا بها فرحًا شديدًا .

وعن أبي هريرة في قول الله تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ قال : كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا ، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء ، وإن صرمة بن قيس الأنصاري غلبته عيناه بعد صلاة المغرب فنام ولم يشبع من الطعام ، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء فقام فأكل وشرب ، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأنزل الله عند ذلك ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ يعني الرفث مجامعة النساء ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني تجامعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ يعني جامعوهن ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني الولد ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ فكان ذلك عفوًا من الله ورحمة(١) .

وقوله : ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال أبو هريرة وابن عبّاس والضحاك وقتادة وغيرهم . يعني الولد . وقيل : يعني الجماع . وقيل : ليلة القدر .

وقوله : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم ، إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل ، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ورفع اللبس بقوله : ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ كما جاء في الحديث الذي روي عن سهل بن سعد : قال : أنزلت ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله بعد ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنما يعني الليل والنهار(٢) . وقال عدي بن حاتم : لما نزلت هذه الآية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض ، قال : فجعلتهما تحت وسادتي ، قال : فجعلت أنظر إليهما فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت فقال : « إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ ، إِنَّمَا ذلِكَ بَيَاضُ النَّهَارِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ »(٣) .

وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور ، لأنه من باب الرخصة ، والأخذ بها محبوب ، ولهذا وردت السنّة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور ، فعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً »(٤) . وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فَضْلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السُّحُورِ »(٥) وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء تشبهًا بالآكلين ، ويستحب تأخيره إلى وقت انفجار

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٢٩٦٨) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن(٤٥١١) .
(٣) أخرجه مسلم في الصيام(٣٣) وأبو داود في السنن(٢٣٤٩) والطبراني في الكبير(٣٩/١٧) .
(٤) أخرجه البخاري في الصوم(١٩٢٣) ومسلم في الصيام(٤٥) والترمذي في السنن(٧٠٨) وابن ماجه في السنن(١٦٩٢) .
(٥) أخرجه أبو داود في السنن(٢٣٤٣) والنسائي في السنن(١٤٦/٤) ، وأحمد في مسنده(١٩٧/٤) والبيهقي في السنن(٢٣٦/٤) .

الفجر ، كما جاء عن أنس بن مالك عن يزيد بن ثابت ، قال : تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة ، قال أنس : قلت لزيد : كم كان بين الأذان والسحور ؟ قال : قدر خمسين آية[(١)] . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الإِفْطَارَ وَأَخَّرُوا السُّحُورَ »[(٢)] وقد ورد أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سماه الغذاء المبارك . وعن حذيفة قال : تسحرنا مع رسول الله ﷺ وكان النهار إلّا أن الشمس لم تطلع[(٣)] . وحمله على أن المراد قرب النهار كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي قاربن انقضاء العدة فإما إمساك بمعروف أو ترك للفراق ، وهذا هو المتعين حمل الحديث عليه أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر ، حتى أن بعضهم ظن طلوعه ، وبعضهم لم يتحقق ذلك . وقد روي عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر .

وحكى ابن جرير في تفسيره عن بعضهم أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها . قلت : وهذا القول ما أظن أحدًا من أهل العلم يستقر له قدم عليه ، لمخالفته نص القرآن في قوله : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ وقد ورد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ يَمْنَعُكُمْ أَذَانُ بِلالٍ عَنْ سُحُورِكُمْ فَإِنَّهُ يُنَادِي بِلَيْلٍ ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ؛ فَإِنَّهُ لاَ يُؤَذِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ »[(٤)] وعن قيس بن طلق عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلَ فِي الأُفُقِ ، وَلَكِنِ الْمُعْتَرِضُ الأَحْمَرُ »[(٥)] وعن محمّد ابن عبد الرحمن بن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « الْفَجْرُ فَجْرَانِ : فَالَّذِي كَأَنَّهُ ذَنَبُ السِّرْحَانِ لاَ يُحَرِّمُ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا هُوَ الْمُسْتَطِيرُ الَّذِي يَأْخُذُ الأُفُقَ ، فَإِنَّهُ يُحِلُّ الصَّلاةَ وَيُحَرِّمُ الطَّعَامَ »[(٦)] وعن عطاء سمعت ابن عبّاس يقول : هما فجران ، فأما الذي يسطع في السماء ، فليس يحل ولا يحرم شيئًا ، ولكن الفجر الذي يستنير على رءوس الجبال هو الذي يحرم الشراب . وقال عطاء : فأما إذا سطع سطوعًا في السماء ، وسطوعه أن يذهب في السماء طولًا فإنه لا يحرم به شراب للصائم ولا صلاة ولا يفوت به الحج ، ولكن إذا انتشر على رءوس الجبال حرم الشراب للصيام وفات الحج .

مسألة : ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام ، يستدل على أنه من أصبح جنبًا فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه ، وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا لما روي عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا : كان رسول الله ﷺ يصبح جنبًا من جماع غير احتلام ، ثم يغتسل ويصوم[(٧)] . وفي حديث أم سلمة : ثم لا يفطر ولا يقضي . وعن عائشة أن رجلًا قال : يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلاَةُ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَصُومُ » فقال : لست مثلنا يا رسول الله ؛ قد غفر الله لك ما تقدم

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم(١٩٢١) والهيثمي في مجمع الزوائد(١٥٣/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده(١٧٢/٥) . (٣) أخرجه : النسائي في السنن ١٤٢/٤ .
(٤) أخرجه البخاري في أخبار الآحاد(٧٢٤٧) ومسلم في الصيام(٣٥) وابن ماجه في السنن(١٦٩٦)
(٥) أخرجه أحمد في مسنده(٢٣/٤) .
(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك(١٩١/١) والبيهقي في السنن(٣٧٧/٢) ، والدارقطني في السنن(٢٦٨/١)
(٧) أخرجه أحمد في مسنده(٢٠٣/٦) والنسائي في السنن(١٨٣/١)

من ذنبك وما تأخر ، فقال : « وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي »[١] . فأما الحديث الذي روي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَأَحَدُكُمْ جُنُبٌ فَلَا يَصُمْ يَوْمَئِذٍ »[٢] فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين كما ترى وهو في الصحيحين عن أبي هريرة عن الفضل بن عباس عن النبيّ ﷺ ، فمن العلماء من علل هذا الحديث بهذا ، ومنهم من ذهب إليه ، ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصبح جنبًا نائمًا فلا عليه ، لحديث عائشة وأم سلمة ، أو مختارًا فلا صوم له ؛ لحديث أبي هريرة ، ومنهم من فرق بين الفرض فيتم فيقضيه ، وأما النفل فلا يضره ، ومنهم من ادعى نسخ حديث أبي هريرة بحديثي عائشة وأم سلمة ، ولكن لا تاريخ معه . وادعى ابن حزم أنه منسوخ بهذه الآية وهو بعيد أيضًا ؛ إذ لا تاريخ بل الظاهر من التاريخ خلافه ، ومنهم من حمل حديث أبي هريرة على نفي الكمال فلا صوم له لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز ، وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها .

﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ ﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكمًا شرعيًا كما جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا ، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَهُنَا ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ »[٣] . وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ »[٤] ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال وهو أن يصل يومًا بيوم آخر ، ولا يأكل بينهما شيئًا ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تُوَاصِلُوا » قالوا : يا رسول الله إنك تواصل قال : « فَإِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي » قال : فلم ينتهوا عن الوصال ، فواصل بهم النبيّ ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال ، فقال : « لَوْ تَأَخَّرَ الهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ » كالمنكل لهم[٥] . فقد ثبت النهي عنه من غير وجه ، وثبت أنه من خصائص النبيّ ﷺ ، وأنه كان يقوى على ذلك ويعان ، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنويًا لا حسيًا ، وإلا فلا يكون مواصلًا مع الحسي .

وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر ، فله ذلك ، كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تُوَاصِلُوا ، فَأَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ إِلَى السَّحَرِ » قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله قال : « إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي وَسَاقٍ يَسْقِينِي »[٦] . وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة وحمله على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم ، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة . ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرشاد من باب الشفقة ، كما جاء في حديث عائشة رحمة لهم ، فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه ؛ لأنهم كانوا يجدون قوة عليه ، وقد ذكر عنهم أنهم كانوا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٧/٦ ، ٢٤٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٤/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٤) وأحمد في مسنده (٢٨/١) .
(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٧) وأحمد في مسنده (٣٣١/٥) .
(٥) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦١) وأحمد في مسنده (٥٧/٣ ، ١٧٠) .
(٦) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٧) .

أول ما يفطرون على السمن والصبر ، لئلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولًا . وقد روي عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ، ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم . وقال أبو العالية : إنما فرض الله الصيام بالنهار ، فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ عن ابن عبَّاس هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان ، فحرّم الله عليه أن ينكح النساء ليلًا أو نهارًا ، حتى يقضي اعتكافه . وقال الضحاك : كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد ولا في غيره . وهذا هو الأمر المتفق عليه عند العلماء ، أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفًا في مسجده ، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لابد له منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلَّا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك ، من قضاء الغائط أو الأكل ، وليس له أن يقبل امرأته ، ولا أن يضمها إليه ، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه ، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه . وللاعتكاف أحكام مفصلة منها ما هو مجمع عليه بين العلماء ، ومنها ما هو مختلف فيه . وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام ولله الحمد والمنة ، ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم ، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم .

وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام ، كما ثبت في السنّة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله ﷻ ، ثم اعتكف أزواجه من بعده [١] . وفي الصحيحين أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت لترجع إلى منزلها ، وكان ذلك ليلًا ، فقام النبيّ ﷺ ليمشي معها حتى تبلغ دارها ، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة ، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبيّ ﷺ أسرعا ، وفي رواية تواريا أي حياء من النبيّ ﷺ لكون أهله معه ، فقال لهما ﷺ : « عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ » أي لا تسرعا ، واعلما أنها صفية بنت حييّ أي زوجتي ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله ! فقال ﷺ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا » أَوْ قَالَ : « شَرًّا » [٢] قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ : أراد النبي ﷺ أن يعلم أمته التبري من التهمة في محلها لئلا يقعا في محذور ، وهما كانا أتقى لله من أن يظنا بالنبي ﷺ شيئًا . ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك ، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به ، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : كان رسول الله ﷺ يدني إلي رأسه فأرجله وأنا حائض ، وكان لا يدخل البيت إلَّا لحاجة الإنسان ، قالت عائشة : ولقد كان المريض يكون في البيت فما أسأل عنه إلَّا وأنا مارة [٣] .

وقوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي هذا الذي بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه وما أبحنا

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٣) وأحمد في مسنده (١٤١/٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٥) وأحمد في مسنده (٣٣٧/٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٤/٦) .

فيه وما حرمنا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه ، حدود الله أي شرعها الله وبينها بنفسه ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ أي لا تجاوزوها وتتعدوها . وكان الضحاك ومقاتل يقولان في قوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي المباشرة في الاعتكاف . ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ ﴾ أي كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله ، كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس : هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة ، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام . وقد ورد عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّمَا يَأْتِينِي الخَصْمُ ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَقْضِيَ لَه ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقٍّ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ ، فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ لِيَذَرْهَا » [١] فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر ، فلا يحل في نفس الأمر حرامًا هو حرام ، ولا يحرم حلالًا هو حلال ، وإنما هو ملزم في الظاهر ، فإن طابق في نفس الأمر فذاك وإلّا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه في كلامكم . قال قتادة : اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حرامًا ولا يحق لك باطلًا ، وإنما يقضي بنحو ما يرى وتشهد به الشهود ، والقاضي بشر يخطئ ويصيب ، واعلموا أن من قضي له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة ، فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضي به للمبطل على المحق في الدنيا .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلّة فنزلت هذه الآية ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ يعلمون بها حل دينهم ، وعدة نسائهم ، ووقت حجهم . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « جَعَلَ اللّٰهُ الأَهِلَّةَ مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ ، فَصُومُوا لِرُؤْيَتِهِ ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا » [٢] .

وقوله : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ قال البخاري : عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ [٣] وعن جابر كانت قريش تدعى الحمس ، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام ، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار ، فقالوا : يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل تاجر وإنه خرج معك من الباب فقال له : « مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ » قال : رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت فقال : « إِنِّي أَحْمَسُ » قال له : فإن ديني دينك ؟ فأنزل

---

(١) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٥٨) . (٢) أخرجه الدارقطني ١٦٣/٢ .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن باب : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ ﴾ .

الله ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به ، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ غدًا إذا وقفتم بين يديه ، فيجازيكم على التمام والكمال .

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ قال : هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة ، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ، ويكف عمن كف عنه ، حتى نزلت سورة براءة . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال : هذه منسوخة بقوله : ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ وفي هذا نظر لأن قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله ، أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم كما قال : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ ﴾ ولهذا قال في هذه الآية ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ ﴾ أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم ، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصًا .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك ، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي ، كما قاله الحسن البصري من المثلة والغلول ، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم ، والرهبان وأصحاب الصوامع ، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة . كما قال ذلك ابن عبّاس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بين حيان وغيرهم . ولهذا جاء عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اغزُوا في سَبِيلِ الله ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله ، اغزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تُمَثِّلُوا ولا تَقْتُلُوا الوَلِيدَ وَلاَ أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ » (٢) . وعن ربعي بن حراش قال : سمعت حذيفة يقول : ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالاً واحد وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر ، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثلاً ، وترك سائرها قال : « إنَّ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَمَسْكَنَةٍ ، قَاتَلَهُمْ أَهْلُ تَجَبُّرٍ وَعَدَاوَةٍ ، فَأَظْهَرَ الله أَهْلَ الضَّعْفِ عَلَيْهِمْ ، فَعَمَدُوا إِلَى عَدُوِّهِمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَلَّطُوهُمْ فَأَسْخَطُوا الله عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » (٣) هذا حديث حسن الإسناد ومعناه أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء فاعتدوا عليهم فاستعملوهم فيما لا يليق بهم ، أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء . ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس ، وقتل الرجال ، نبّه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله ، أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل ، ولهذا قال : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ ﴾ قال أبو مالك : أي ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل . وقوله : ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ كما جاء في الصحيحين « إنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ الله يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ ؛ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ الله إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَلَمْ يَحِلَّ إِلَّا سَاعَةً مِنْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٢/٥ ، ٣٥٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/٥) .

نَهَارٍ ، وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ ، حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لا يُعْضَدُ شَجَرُهُ ، وَلَا يُخْتَلَى خَلاهُ ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا : إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ »[1] يعني بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة ، فإنه فتحها عنوة ، وقتلت رجال منهم عند الخندمة ، وقيل : صلحًا لقوله : « مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ »[2] .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يقول تعالى : ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلَّا أن يبدؤوكم بالقتال فيه ، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعًا للصائل ، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ ، ثم كف الله القتال بينهم فقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي فإن تركوا القتال في الحرم ، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة ، فإن الله يغفر ذنوبهم ، ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله ، فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه ، ثم أمر الله بقتال الكفار ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي شرك ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان ، فعن أبي موسى الأشعري قال : سئل النبيّ ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »[3] . وفي الصحيحين « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ »[4]

وقوله : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يقول تعالى : فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين ، فكفوا عنهم ، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ، ولا عدوان إلَّا على الظالمين . وعن ابن عمر قال : أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبيّ ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعني أن الله حرم دم أخي ، قالا : ألم يقل الله : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله . وعن نافع أن رجلًا أتى ابن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ، ما حملك على أن تحج عامًا وتقيم عامًا وتترك الجهاد في سبيل الله ﷻ ، وقد علمت ما رغب الله فيه ؟ فقال : يا ابن أخي ، بني الإسلام على خمس : الإيمان بالله ورسوله ، والصلاة الخمس ، وصيام رمضان ، وأداء الزكاة ، وحج البيت . قالوا : يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ ﴾ ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ قال : فعلنا على عهد رسوله ﷺ وكان الإسلام قليلًا ، فكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه أو عذبوه ، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، قال : فما قولك في علي وعثمان ؟ قال : أمّا عثمان : فكان الله عفا عنه ، وأما أنتم فكرهتم أن يعفو عنه ، وأمّا علي : فابن عم رسول الله ﷺ وختنه فأشار بيده فقال : هذا بيته حيث ترون .

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٧) وأحمد في مسنده (٢٥٩/١) والنسائي في السنن (٢٨٧٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٣٨/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في العلم (١٢٣) والنسائي في السنن (٣١٣٦) وأحمد في مسنده (٣٩٧/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) وأحمد في مسنده (٣٧٧/٢) .

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس والضحاك والسدي وغيرهم : لما سار رسول الله ﷺ معتمرًا في سنة ست من الهجرة ، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت ، وصدّوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام ، حتى قاضاهم على الدخول من قابل فدخلها في السنة الآتية ، هو ومن كان من المسلمين وأقصه الله منهم ، فنزلت في ذلك هذه الآية ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾ . وعن جابر بن عبد الله قال : لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلَّا أن يغزى وتغزوا ، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ . ولهذا لما بلغ النبيّ ﷺ وهو مخيم بالحديبية أن عثمان قتل وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين ، بايع أصحابه وكانوا ألفًا وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة فكان ما كان . وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلّهم بالطائف ، عدل إليها فحاصرها ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق ، واستمر عليها إلى كمال أربعين يومًا ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس ، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ، ثم كر راجعًا إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين (١) ، وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضًا عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه . وقوله : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أمر بالعدل حتى في المشركين ، وعن ابن عبّاس أن قوله : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد ، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة . وقد رد هذا القول ابن جرير ، وقال : بل الآية مدنية بعد عمرة القضاء ، وعزا ذلك إلى مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ . وقوله : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أمر لهم بطاعة الله وتقواه ، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قال حذيفة : نزلت في النفقة . وعن أسلم أبي عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تحببًا ، فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد (٢) .

وقال رجل للبراء بن عازب : إن حملت على العدو وحدي فقتلوني أكنت ألقيت بيدي إلى التهلكة ؟ قال : لا ، قال الله لرسوله : ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ وإنما هذه في النفقة ، وقال بعد قوله : ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ : ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب (٣) .

---

(١) انظر البخاري في المغازي (٤٣٢٥) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٧٢) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢/٢٧٧) .

وقال عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث :أنهم حاصروا دمشق ، فانطلق رجل من أزد شنوءة فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل ، فعاب ذلك عليه المسلمون ، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص ، فأرسل إليه عمرو فرده ، وقال عمرو : قال الله : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ . وعن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ قال : ليس ذلك في القتال ، إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله ، ولا تلق بيدك إلى التهلكة . وعن الضحاك بن أبي جبير قال : كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم ، فأصابتهم سنة فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله فنزلت ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ وقال الحسن البصري : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ قال : هو البخل . وعن النعمان بن بشير في قوله : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ : أن يذنب الرجل الذنب فيقول : لا يغفر لي ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وعن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ قال : وذلك أن رجالاً كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة ، فإما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالاً فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ، والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع والعطش أو من المشي . وقال لمن بيده فضل : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات ، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء ، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم ، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده ، ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد ، شرع في بيان المناسك ، فأمر بإتمام الحج والعمرة ، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما . ولهذا قال بعده : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ أي صددتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما . ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم ، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها كما هي قولان للعلماء ، وعن علي أنه قال في هذه الآية : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ قال : أن تحرم من دويرة أهلك ، وعن سفيان الثوري أنه قال في هذه الآية : إتمامهما أن تحرم من أهلك لا تريد إلّا الحج والعمرة ، وتهل من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة ، حتى إذا كنت قريبًا من مكة قلت : لو حججت أو اعتمرت ، وذلك يجزئ ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره . وقال مكحول : إتمامهما إنشاؤهما جميعًا من الميقات . وعن الزهري قال : بلغنا أن عمر قال في قول الله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر ، وأن تعتمر في غير أشهر الحج ، إن الله تعالى يقول : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ . وقال القاسم بن محمّد : إن العمرة في أشهر الحج ليست بتامة ، فقيل له فالعمرة

في المحرم قال : كانوا يرونها تامة . وهذا القول فيه نظر ، لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر كلها في ذي القعدة ، عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست ، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، وعمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة ثمان ، وعمرته التي مع حجته أحرم بهما معًا في ذي القعدة سنة عشر ، وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته [1] ، ولكن قال لأم هانئ : « عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي » [2] وما ذاك إلَّا لأنها كانت قد عزمت على الحج معه عليه الصلاة والسلام فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر ونص سعيد بن جبير على أنه من خصائصها .

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ : أي أقيموا الحج والعمرة . وقال ابن عباس : من أحرم بحج أو بعمرة فليس له أن يحل حتى يتمهما تمام الحج يوم النحر ، إذا رمى جمرة العقبة وطاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حل . وقال ابن عبّاس أيضًا : الحج عرفة والعمرة الطواف ، وكذا روي عن إبراهيم بن علقمة أنه قال : وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت . وعن إبراهيم أنه قرأ (وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت). وقرأ الشعبي ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ العمرةُ لِلَّهِ ﴾ برفع العمرة ، وقال : ليست بواجبة . وروي عنه خلاف ذلك ، وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة عن أنس وجماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ جمع في إحرامه بحج وعمرة ، وثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه : « مَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيُهِلَّ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ » [3] وقال في الصحيح أيضًا : « دَخَلَتِ العُمْرَةُ فِي الحَجِّ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ » [4] .

والذي ورد في الصحيحين عن يعلى بن أمية في قصة الرجل الذي سأل النبيّ ﷺ وهو بالجعرانة فقال : كيف ترى في رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلوق ، فسكت رسول الله ﷺ ثم جاءه الوحي ، ثم رفع رأسه فقال : « أَيْنَ السَّائِلُ » فقال : ها أنا ذا فقال : « أَمَّا الجُبَّةُ فَانْزِعْهَا ، وَأَمَّا الطِّيبُ الَّذِي بِكَ فَاغْسِلْهُ ، ثُمَّ مَا كُنْتَ صَانِعًا فِي حَجِّكَ فَاصْنَعْهُ فِي عُمْرَتِكَ » [5] .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست ، أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت ، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها ، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي ، وكان سبعين بدنة ، وأن يحلقوا رؤوسهم ، وأن يتحللوا من إحرامهم ، فعند ذلك أمرهم عليه الصلاة والسّلام بأن يحلقوا رؤوسهم ، وأن يتحللو فلم يفعلوا انتظارًا للنسخ ، حتى خرج فحلق رأسه ، ففعل الناس وكان منهم من قصّر رأسه ولم يحلقه ، فلذلك قال ﷺ : « رَحِمَ اللَّه المُحَلِّقِينَ » قالوا : والمقصّرين يا رسول الله ؟ فقال في الثالثة : « وَالمُقَصِّرِينَ » [6] وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة ، وكانوا ألفًا وأربعمائة ، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم ، وقيل : بل كانوا على طرف الحرم . ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو فلا يتحلل إلَّا من حصره عدو لا مرض ولا غيره ؟ على قولين :

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (١٧٨٠) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٢/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٦٣٨) وأحمد في مسنده (١٧٧/٦) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٣/١) والحاكم في المستدرك (٦١٩/٣) .
(٥) أخرجه البخاري في العمرة (١٧٨٩) وأحمد في مسنده (٢٢٤/٤) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٤) والبيهقي في السنن (١٣٤/٥) .

أولهما عن ابن عباس : لا حصر إلا حصر العدو ، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء ، إنما قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ ﴾ فليس الأمن حصرًا . والقول الثاني : أن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال وهو التوهان عن الطريق أو نحو ذلك ، وعن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كُسِرَ أَوْ وَجِعَ أَوْ عَرِجَ فَقَدْ حَلَّ ، وَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى » (١) . قال : فذكرت ذلك لابن عبّاس وأبي هريرة فقالا : صدق وقال الثوري : الإحصار من كل شيء آذاه ، وثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت : يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية ، فقال : « حُجِّي وَاشْتَرِطِي أَنَّ مَحلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي » (٢) فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث ، وقد علق الإمام الشافعي القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث .

وقوله : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ عن علي بن أبي طالب أنه كان يقول : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ شاة وهو مذهب الأئمة الأربعة . وقال ابن عبّاس : الهدي من الأزواج الثمانية ، من الإبل والبقر والمعز والضأن . وعن عائشة وابن عمر أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدي إلّا من الإبل والبقر . قلت : والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديبية ، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة ، وإنما ذبحوا الإبل والبقر ، فعن جابر قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة . وعن ابن عبّاس قال : بقدر يسارته . وقال : إن كان موسرًا فمن الإبل ، وإلّا فمن البقر ، وإلّا فمن الغنم . وقال عروة عن أبيه : إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء ، والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجزاء ذبح الشاة في الإحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي أي مهما تيسر مما يسمى هديًا ، والهدي من بهيمة الأنعام ، وهي الإبل والبقر والغنم ، وقد ثبت عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : أهدى النبيّ ﷺ مرة غنمًا (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وليس معطوفًا على قوله : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ كما زعمه ابن جرير رحمه الله ، لأن النبيّ ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم ، فأما في حالة الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارنًا ، أو من فعل أحدهما إن كان مفردًا أو متمتعًا ، كما ثبت عن حفصة أنها قالت : يا رسول الله ما شأن الناس حلّوا من العمرة ولم تحلّ أنت من عمرتك ؟ فقال : « إِنِّي لَبَّدْتُ رَأْسِي وَقَلَّدْتُ هَدْيِي فَلاَ أُحِلُّ حَتَّى أَنْحَرَ » (٤) .

وقوله : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ عن كعب بن عجرة قال : أتى عليّ النبيّ ﷺ وأنا أوقد تحت قدر ، والقمل يتناثر على وجهي ، أو قال حاجبي ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٠/٣) والبيهقي في السنن (٢٢٠/٥) والحاكم في المستدرك (٤٧٠/١) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢٢/٥) وأحمد في مسنده (١٦٤/٦) .
(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٧٠١) والبيهقي في السنن (٢٣٢/٥) .
(٤) أخرجه البخاري في الحج (١٥٦٦) وأحمد في مسنده (٢٨٤/٦) والبيهقي في السنن (١٣٤/٥) .

فقال : « يُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ ؟ » قلت : نعم ، قال : « فَاحْلِقْهُ وَصُمْ ثَلاثَةَ أَيَّام ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ ، أَوْ انسُكْ نَسِيكَةً » قال أيوب : لا أدري بأيتهن بدأ [١] .

قلت : وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يخير في هذا المقام ، إن شاء صام ، وإن شاء تصدّق بفرق ، وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع ، وهو مدّان ، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء ، أي ذلك فعل أجزأه ، ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ ولما أمر النبيّ ﷺ كعب بن عجرة بذلك ، أرشده إلى الأفضل ، فالأفضل فقال : انسك شاة ، أو أطعم ستة مساكين ، أو صم ثلاثة أيام [٢] ، فكل حسن في مقامه ولله الحمد والمنة .

سأل إبراهيم سعيد بن جبير عن هذه الآية ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ فأجاب بقول يحكم عليه طعام ، فإن كان عنده اشترى شاة ، وإن لم يكن قومت الشاة دراهم وجعل مكانها طعام فتصدق ، وإلّا صام لكل نصف صاع يومًا . قال إبراهيم : كذلك سمعت علقمة يذكر قال : لما قال لي سعيد بن جبير : من هذا ما أظرفه ؟ قال : قلت : هذا إبراهيم ، فقال : ما أظرفه كان يجالسنا ، قال : فذكرت ذلك لإبراهيم قال : فلما قلت يجالسنا انتفض منها . وعن الحسن قال : إذا كان بالمحرم أذى من رأسه حلق ، وافتدى بأي هذه الثلاثة شاء ، والصيام عشرة أيام ، والصدقة على عشرة مساكين ، كل مسكين مكوكين مكوكًا من تمر ومكوكًا من بر ، والنسك شاة . وعن الحسن وعكرمة قالا : إطعام عشرة مساكين . وهذان القولان قولان غريبان فيهما نظر ، لأنه قد ثبتت السنّة في حديث كعب بن عجرة الصيام ثلاثة أيام لا ستة ، أو إطعام ستة مساكين ، أو نسك شاة ، وأن ذلك على التخيير كما دل عليه سياق القرآن ، وأما هذا الترتيب فإنما هو معروف في قتل الصيد كما هو نص القرآن ، وعليه أجمع الفقهاء هناك ، بخلاف هذا والله أعلم .

وعن طاووس أنه كان يقول : ما كان من دم أو طعام فبمكة ، وما كان من صيام فحيث شاء . وعن أبي أسماء مولى ابن جعفر قال : حجَّ عثمان بن عفان ومعه علي والحسين بن علي ، فارتحل عثمان ، قال أبو أسماء : وكنت مع ابن جعفر ، فإذا نحن برجل نائم وناقته عند رأسه ، قال : فقلت : أيها النائم ، فاستيقظ فإذا الحسين بن علي قال : فحمله ابن جعفر حتى أتينا به السقيا قال : فأرسل إلي علي ومعه أسماء بنت عميس قال : فمرضناه نحوًا من عشرين ليلة ، قال : قال علي للحسين : ما الذي تجد ؟ قال : فأومأ بيده إلى رأسه قال : فأمر به علي فحلق رأسه ، ثم دعا ببدنة فنحرها ، فإن كانت هذه الناقة عن الحلق ففيه أنه نحرها دون مكة ، وإن كانت عن التحلل فواضح .

وقوله : ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ أي فإذا تمكنتم من أداء المناسك ، فمن كان منكم متمتعًا بالعمرة إلى الحج ، وهو يشمل من أحرم بهما ، أو أحرم بالعمرة أولًا ، فلما فرغ منها أحرم بالحج ، وهذا هو التمتع الخاص ، وهو المعروف في كلام الفقهاء ، والتمتع العام يشمل القسمين كما دلت عليه الأحاديث الصحاح ، فإن من الرواة من يقول : تمتع رسول الله ﷺ وآخر يقول : قرن ، ولا خلاف أنه ساق هديًا ، وقال تعالى : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ أي فليذبح ما قدر

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٨٧/٥) والترمذي في السنن (٢٩٧٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤١/٤) .

عليه من الهدي ، وأقله شاة ، وله أن يذبح البقر ؛ لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعات (١) . وفي هذا دليل على مشروعية التمتع كما جاء في الصحيحين عن عمران بن حصين قال : نزلت آية المتعة في كتاب الله ، وفعلناها مع رسول الله ﷺ ، ثم لم ينزل قرآن يحرمها ، ولم ينه عنها حتى مات ، قال رجل برأيه ما شاء . قال البخاري : يقال إنه عمر (٢) وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحًا به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ، ويقول : إن نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام يعني قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وفي نفس الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محرمًا لها ، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين .

وقوله : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ يقول تعالى : فمن لم يجد هديًا فليصم ثلاثة أيام في الحج أي في أيام المناسك ، قال العلماء : والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر ، أو من حين يحرم لقوله في الحج . ومنهم من يجوز صيامها من أول شوّال ، وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبله يومين . وقال ابن عبّاس : إذا لم يجد هديًا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة ، فإذا كان يوم عرفة الثالث ، فقد تم صومه ، وسبعة إذا رجع إلى أهله ، وعن ابن عمر قال : يصوم يومًا قبل يوم التروية ، ويوم التروية ، ويوم عرفة . فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد ، فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق ؟ فيه قولان للعلماء وهما للإمام الشافعي أيضًا : القديم منهما أنه يجوز له صيامها ، لقول عائشة وابن عمر : لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلّا لمن لا يجد الهدي . وعن علي أنه كان يقول : من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق . وإنما قيل ذلك لعموم قوله : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾ والجديد من القولين أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق ، لما روي عنه ﷺ : « أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ عز وجل » (٣) .

وقوله : ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ فيه قولان : أحدهما : إذا رجعتم إلى رحالكم ، ولهذا قال مجاهد : هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق ، الثاني : إذا رجعتم إلى أوطانكم . عن سالم بن عمر قال : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ قال : إذا رجع إلى أهله . وحكى على ذلك أبو جعفر ابن جرير الإجماع . وعن ابن عمر قال : تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج . وأهدى ، فساق معه الهدي من ذي الحليفة فأهلّ بعمرة ، ثم أهلّ بالحج ، فتمتع الناس مع رسول الله ﷺ ، وبدأ رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج ، فكان من الناس من أهدى فساق الهدي ، ومنهم من لم يهد ، فلما قدم النبيّ ﷺ مكة قال للناس : « مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْدَى ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لِشَيْءٍ حُرِمَ مِنْهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَجَّهُ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنكُمْ أَهْدَى ؛ فَلْيَطُفْ بِالْبَيْتِ ، وَبِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ ، وَلْيُقَصِّرْ ، وَلْيُحْلِلْ ، ثُمَّ لْيُهِلَّ بِالحَجِّ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا ؛ فَلْيَصُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ ، وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ » (٤) .

وقوله : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ قيل تأكيد ، كما تقول العرب : رأيت بعيني وسمعت بأذني ، وقيل : معنى ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ الأمر بإكمالها وإتمامها . وقيل : معنى ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ أي مجزئة عن الهدي . وعن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٦٧/١) والبيهقي في السنن (٣٥٣/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥١٨) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٥) والبيهقي في السنن (٣١٢/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الحج (١٦٩١) والبيهقي في السنن (١٧٠/٥) وأحمد في مسنده (١٤٠/٢) والنسائي في السنن (٢٧٣٢) .

الحسن البصري في قوله : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ قال من الهدي .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قال ابن جرير : واختلف أهل التأويل فيمن عنى بقوله : ﴿ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به ، وأنه لا متعة لهم ، فقال بعضهم : عني بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم . قال ابن عبَّاس : هم أهل الحرم . وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عبَّاس كان يقول : يا أهل مكة لا متعة لكم ، أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم ، إنما يقطع أحدكم واديًا - أو قال : يجعل بينه وبين الحرم واديًا - ثم يهلّ بعمرة . وقال طاوس عن أبيه : المتعة للناس لا لأهل مكة ، من لم يكن أهله من الحرم . وكذا قول الله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وقال آخرون : هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت . وعن عطاء قال : من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع . وقال عطاء : عرفة ومزدلفة وعرنة والرجيع . وقال الزهري : من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع . وفي رواية عنه : اليوم واليومين . واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي : أنهم أهل الحرم ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة ؛ لأن من كان كذلك يعد حاضرًا لا مسافرًا ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما أمركم ونهاكم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره .

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

اختلف أهل العربية في قوله : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ فقال بعضهم : تقديره الحج حج أشهر معلومات ، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام فيما عداها ، وإن كان ذاك صحيحًا ، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية واحتج لهم بقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ وبأنه أحد النسكين ، فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة . وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلَّا في أشهره ، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به ، وهل ينعقد عمرة ؟ فيه قولان عنه . والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلَّا في أشهره مروي عن ابن عبَّاس وجابر ، وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله ، والدليل عليه قوله : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة ، وهو أن وقت الحج أشهر معلومات ، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة ، فدل على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة . وقال الشافعي رحمه الله : لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحجّ إلَّا في شهور الحجّ من أجل قول الله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ وعن ابن عبَّاس أنه قال : من السنّة أن لا يحرم بالحجّ إلَّا في أشهر الحجّ . وقول الصحابي من السنّة ، كذا في حكم المرفوع عند الأكثرين .

وقوله : ﴿ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ عن ابن عمر قال : شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة . قلت : وهو مروي عن عمر وعلي وابن مسعود وعبد الله بن الزبير وابن عبَّاس وعطاء وطاووس ومجاهد وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وأبي يوسف وأبي ثور رحمهم الله ، واختار هذا القول ابن جرير : قال : وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب ، كما تقول العرب رأيته العام ورأيته اليوم ، وإنما وقع

ذلك في بعض العام واليوم ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ وإنما تعجل في يوم ونصف (١) . وقال الإمام مالك بن أنس والشافعي في القديم : هي شوّال وذو القعدة وذو الحجّة بكماله . وهو رواية عن ابن عمر أيضًا .

وفائدة مذهب مالك : أنه إلى آخر ذي الحجة بمعنى أنه مختص بالحجّ ؛ فيكره الاعتمار في بقية ذي الحجّة لا أنه يصح الحجّ بعد ليلة النحر . قال عبد اللّه : الحج أشهر معلومات ليس فيها عمرة . قال ابن جرير : وإنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة ، إنما هي للحج وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى ، قال محمّد بن سيرين : ما أحد من أهل العلم يشك في أن عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج . وقال ابن عونٍ : سألت القاسم بن محمّد عن العمرة في أشهر الحج فقال : كانوا لا يزونها تامة قلت : وقد ثبت عن عمر وعثمان ﵄ أنهما كانا يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج وينهيان عن ذلك في أشهر الحجّ ، واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ أي أوجب بإحرامه حجًا ، فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه . قال ابن جرير : أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والإلزام . وقال ابن عبّاس ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ يقول : من أحرم بحج أو عمرة . وقال عطاء : الفرض الإحرام وكذا قال إبراهيم والضحاك وغيرهم . وروي عن ابن عبّاس أنه قال : ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ﴾ فلا ينبغي أن يلبي بالحج ، ثم يقيم بأرض . وقال طاووس والقاسم بن محمّد : هو التلبية .

وقوله : ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ أي من أحرم بالحجّ أو العمرة فليجتنب الرفث ، وهو الجماع ، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك ، وكذلك التكلّم به بحضرة النساء . قال عبد اللّه بن عمر : الرفث إتيان النساء ، والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم . وعن ابن عبّاس أنه كان يحدو وهو محرم وهو يقول :

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسا إِنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسا (٢)

قال أبو العالية : فقلت : تتكلم بالرفث وأنت محرم ؟ قال : إنما الرفث ما قيل عند النساء .

وقال عبد اللّه بن طاووس عن أبيه : سألت ابن عبّاس عن قول اللّه ﷻ : ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ﴾ قال : الرفث التعريض بذكر الجماع ، وهي العرابة في كلام العرب وهو أدنى الرفث . وقال عطاء بن أبي رباح : الرفث الجماع وما دونه من قول الفحش . وقال طاووس : هو أن يقول للمرأة : إذا حللت أصبتك . وقال ابن عبّاس : الرفث غشيان النساء ، والقبلة ، والغمز ، وأن تعرض لها بالفحش من الكلام .

وقوله : ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ هي المعاصي ، وكذا قال عطاء ومجاهد وغيرهما ، وقال ابن عمر : الفسوق ما أصيب من معاصي اللّه ، صيدًا أو غيره . وعن نافع أن عبد اللّه بن عمر كان يقول : الفسوق إتيان معاصي اللّه في الحرم . وقال آخرون : الفسوق ههنا السباب ، ويتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيح : « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » (٣)، وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم : الفسوق ههنا الذبح

---

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٣٥٣/٢) .

(٢) الهميس : الصوت الخفي الذي لا غور له في الكلام والوطء والأكل ، ولميس : اسم ناقته .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨) والنسائي في السنن (٤١٠٥) وأحمد في مسنده (٣٨٥/١) .

للأصنام ، قال اللَّه تعالى : ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِۦ ﴾ . وقال الضحّاك : الفسوق التنابز بالألقاب . والذين قالوا الفسوق ههنا هو جميع المعاصي الصواب معهم ، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم وإن كان في جميع السنة منهيًّا عنه ، إلَّا أنه في الأشهر الحرم آكد ، ولهذا قال : ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ ﴾ وقال في الحرم : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ واختار ابن جرير أن الفسوق ههنا هو ارتكاب ما نهي عنه في الإحرام ، من قتل الصيد ، وحلق الشعر ، وقلم الأظفار ونحو ذلك [(١)] ، وما ذكرناه أولى ، واللَّه أعلم . وقد ثبت عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ ؛ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » [(٢)] .

وقوله : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ ﴾ فيه قولان : أحدهما : ولا مجادلة في وقت الحجّ في مناسكه ، وقد بيّنه اللَّه أتم بيان ، ووضحه أكمل إيضاح . فالجدال في الحج : المراء في الحج . قال مالك : قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ ﴾ فالجدال في الحج – واللَّه أعلم – أن قريشًا كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة ، وكانوا يتجادلون ، يقول هؤلاء : نحن أصوب ، ويقول هؤلاء : نحن أصوب . وقال القاسم بن محمد : الجدال في الحج أن يقول بعضهم الحج غدًا ، ويقول بعضهم : الحج اليوم ، وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال وهو قطع التنازع في مناسك الحج واللَّه أعلم .

والقول الثاني : أن المراد بالجدال ههنا المخاصمة . فعن عبد اللَّه بن مسعود قال : أن تماري صاحبك حتى تغضبه . وعن ابن عبّاس : المراء والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك ، فنهى اللَّه عن ذلك . وعن عكرمة : الجدال الغضب ، أن تغضب عليك مسلمًا ، إلا أن تستعتب مملوكًا فتغضبه من غير أن تضربه ، فلا بأس عليك إن شاء اللَّه . قلت : ولو ضربه لكان جائزًا سائغًا . والدليل على ذلك ما روي عن أسماء بنت أبي بكر قالت : خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ حجاجًا حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول اللَّه ﷺ فجلست عائشة إلى جنب رسول اللَّه ﷺ ، وجلست إلى جنب أبي ، وكانت زمالة أبي بكر وزمالة رسول اللَّه ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر ، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه ، فاطلع وليس معه بعيره فقال : أين بعيرك ؟ فقال : أضللته البارحة ، فقال أبو بكر : بعير واحد تضله ! فطفق يضربه ورسول اللَّه ﷺ يتبسم ويقول : « انْظُرُوا إِلَى هَذَا المُحْرِمِ مَا يَصْنَعُ » [(٣)] . ومن هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال : من تمام الحج ضرب الجمال ، ولكن يستفاد من قول النبيّ ﷺ عن أبي بكر ﷺ : « انْظُروا إلى هَذَا المُحْرِمِ مَا يَصْنَعُ » كهيئة الإنكار اللطيف أن الأولى ترك ذلك ، واللَّه أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ ﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولًا وفعلًا ، حثّهم على فعل الجميل ، وأخبرهم أنه عالم به ، وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة .

قوله : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ ﴾ قال ابن عبّاس : كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة ، يقولون : نحج بيت اللَّه ولا يطعمنا ؟ فقال اللَّه : تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس . وعن عكرمة عن ابن عبّاس قال : كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزودون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فأنزل اللَّه

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢/٣٦٦) .

(٢) أخرجه البخاري في المحصر (١٨١٩) وأحمد في مسنده (٢/٤١٠) والبيهقي في السنن (٥/٢٦١) والنسائي في السنن (٢٦٢٧) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/٤٥٤) والنسائي في السنن (١٣٩٧) وأحمد في مسنده (٦/٣٤٤) .

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [١] . وعن ابن عمر قال : كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادًا آخر ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك . وعن سعيد بن جبير ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ قال الخشكنانج والسويق .

وقوله : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا ، أرشدهم إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشدًا إلى اللباس المعنوي ، وهو الخشوع والطاعة والتقوى ، وذكر أنه خير من هذا وأنفع . قال عطاء الخراساني في قوله : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ يعني زاد الآخرة .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يقول : واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمري ، يا ذوي العقول والأفهام .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية فتأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ في مواسم الحجّ [٢] . ولبعضهم فلما جاء الإسلام تأثموا أن يتجروا ، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله هذه الآية . وعن ابن عبّاس أيضًا قال : كان متجر الناس في الجاهلية عكاظ ومجنة وذو المجاز ، فلما كان الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت هذه الآية . وروي عن مجاهد عن ابن عبّاس قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحجّ ، يقولون : أيام ذكر ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وقال : لا حرج عليكم في الشراء والبيع ، قبل الإحرام وبعده . وعن عطاء عن ابن عبّاس أنه كان يقرأ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ في مواسم الحج . وعن أبي أمامة التيمي قال : قلت لابن عمر : إنا نكري فهل لنا من حج ؟ قال : أليس تطوفون بالبيت ، وتأتون المعرف ، وترمون الجمار ، وتحلقون رؤوسكم ؟ قال : قلنا : بلى ، فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فسأله عن الذي سألتني ، فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فدعاه النبيّ ﷺ فقال : « أَنْتُمْ حُجَّاجٌ » [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ إنما صرف عرفات وإن كان علمًا على مؤنث ؛ لأنه في الأصل جمعٌ كمسلمات ومؤمنات ، سمي به بقعة معينة ، فروعي فيه الأصل فصرف . اختاره ابن جرير . وعرفة موضع الوقوف في الحجّ ، وهي عمدة أفعال الحجّ ، ولهذا روي عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحجُّ عرَفَات - ثلاثًا - فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ ، وَأَيَّامُ مِنًى ثَلَاثَةٌ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ » [٤] ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٠٢٨) وهو ضعيف . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥١٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤٤٤) .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٧٨/٢) وأحمد في مسنده (٣٠٩/٤) ، والبيهقي في السنن (١١٦/٥) .

طلوع الفجر الثاني من يوم النحر ؛ لأن النبيَّ ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : « لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ »(١) وقال في هذا الحديث : « فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ » وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله ، وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة ، واحتجوا بحديث الشعبي عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لام الطائي قال : أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة ، فقلت : يا رسول الله ، إني جئت من جبل طيئ أكللت راحلتي ، وأتعبت نفسي ، والله ما تركت من جبل إلّا وقفت عليه ، فهل لي من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ شَهِدَ صَلَاتَنَا هَذِهِ فَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى نَدْفَعَ ، وَقَدْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ ، وَقَضَى تَفَثَهُ »(٢) . قال علي بن أبي طالب : بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم ﷺ فحج به حتى إذا أتى عرفة قال : عرفت ، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك ، فلذلك سميت عرفة . وعن عطاء قال : إنما سميت عرفة أن جبريل كان يري إبراهيم المناسك فيقول : عرفت عرفت ، فسميت عرفات . وتسمى عرفات المشعر الحرام والمشعر الأقصى وإلال على وزن هلال ، ويقال للجبل في وسطها جبل الرحمة ، قال أبو طالب في قصيدته المشهورة :

وَبِالْمَشْعَرِ الأَقْصَى إِذَا قَصَدُوا لَهُ ... إِلَالٌ إِلَى تِلْكَ الشِّرَاجِ القَوَابِلِ

وعن ابن عبّاس قال : كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة ، حتى إذا كانت الشمس على رءوس الجبال كأنها العمائم على رءوس الرجال دفعوا ، فأخّر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس . وعن المسور بن مخرمة قال : خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ – وَكان إذا خطب خطبة قال : أما بعد – فَإِنَّ هَذَا اليَوْمَ الحَجُّ الأَكْبَرُ ، أَلَا وَإِنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ وَالأَوْثَانِ كَانُوا يَدْفَعُونَ فِي هَذَا اليَوْمِ قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ ، إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ فِي رُءُوسِ الجِبَالِ كَأَنَّهَا عَمَائِمُ الرِّجَالِ فِي وُجُوهِهَا ، وَإِنَّا نَدْفَعُ بَعْدَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ ، وَكَانُوا يَدْفَعُونَ مِنَ المَشْعَرِ الحَرَامِ بَعْدَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ فِي رُءُوسِ الجِبَالِ كَأَنَّهَا عَمَائِمُ الرِّجَالِ فِي وُجُوهِهَا ، وَإِنَّا نَدْفَعُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مُخَالِفًا هَدْيُنَا هَدْيَ أَهْلِ الشِّرْكِ »(٣) . وعن المعرور بن سويد قال : رأيت عمر رضي الله عنه حين دفع من عرفة كأني أنظر إليه رجل أصلع على بعير له يوضع ، وهو يقول : إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاغ . وفي حديث جابر بن عبد الله الذي قال فيه : فلم يزل واقفًا – يعني بعرفة – حتى غربت الشمس ، وبدت الصفرة قليلًا ، حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام ، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى : « أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ »(٤) كلما أتى جبلًا من الجبال أرخى لها قليلًا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبّح بينهما شيئًا ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبّره وهلّله ووحّده ، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًّا ، فدفع قبل أن تطلع الشمس . وعن أسامة بن زيد أنه سئل كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دفع ؟ قال : كان

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٥٢/١٧) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢٢/١) .

(٤) أخرجه البخاري في الحج (١٦٧١) وأحمد في مسنده (٢٠١/٥) .

يسير العنق ، فإذا وجد فجوة نص [١] . والعنق هو انبساط السير ، والنص فوقه .

وعن عمرو بن ميمون سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام ، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال : أين السائل عن المشعر الحرام ؟ هذا المشعر الحرام . وقال ابن عمر : المشعر الحرام المزدلفة كلها . وعن إبراهيم قال : رآهم ابن عمر يزدحمون على قزح ، فقال : على ما يزدحم هؤلاء ؟ كل ما ههنا مشعر . وروي عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغيرهم أنهم قالوا : هو ما بين الجبلين .

قلت : والمشاعر هي المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام لأنها داخل الحرم ، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلَّا به كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي منهم القفال وابن خزيمة لحديث عروة بن مضرس ؛ أو واجب كما هو أحد قولي الشافعي يجبر بدم ، أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر ؛ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر غير هذا ، والله أعلم . وعن جبير بن مطعم عن النبيّ ﷺ قال : « كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ ، وَارْفَعُوا عَنْ عَرَفَاتٍ ، وَكُلُّ مُزْدَلِفَةٍ مَوْقِفٌ ، وَارْفَعُوا عَنْ مُحَسِّرٍ ، وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ ، وَكُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ » [٢] .

وقوله : ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان ، والإرشاد إلى مشاعر الحجّ ، على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال : ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قيل : من قبل هذا الهدى ، وقبل القرآن ، وقبل الرسول ، والكل متقارب ومتلازم وصحيح .

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ثم ههنا لعطف خبر على خبر ، وترتيبه عليه ، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام ، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات ، كما كان جمهور الناس يصنعون يقفون بها إلَّا قريشًا ، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم ، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل ، ويقولون : نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته . وعن عائشة قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس [٣] ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيّه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ، ثم يفيض منها ، فذلك قوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [٤] ثم روى عن ابن عبّاس ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار [٥] ، فالله أعلم . قال : والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام ، وفي رواية عند الإمام وقال ابن جرير : ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح [٦] .

وقوله : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ كثيرًا ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ، ولهذا

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١١٩/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٢/٤) والحاكم في المستدرك (٤٦٠/١) والبيهقي في السنن (٢٩٥/٩) .

(٣) الحمس : هم قريش وخزاعة ، لنزولها مكة ومجاورتها قريش ، وهم كل من ولدت قريش من العرب وكنانة وجديلة ، قيل : وهم فهم وعدوان ، وكل من نزل لكل من قبائل العرب ، والأحمس المتشدد في دينه الصلب .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٢٠) .

(٥) انظر البخاري في تفسير القرآن (٤٥٢١) .

(٦) انظر تفسير الطبري (٣٩٩/٢) .

ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثًا (١) . وفي الحديث أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين (٢) . وقد روى ابن جرير ههنا حديث ابن عبّاس بن مرداس السلمي في استغفاره ﷺ لأمته عشية عرفة ، عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ العَبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَه إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ . مَنْ قَالَهَا فِي لَيْلَةٍ فَمَاتَ فِي لَيْلَتِهِ دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ قَالَهَا فِي يَوْمِهِ فَمَاتَ دَخَلَ الجَنَّةَ » (٣) . وعن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال : يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال : « قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » (٤) والأحاديث في الاستغفار كثيرة .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

يأمر تعالى بذكره ، والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها وقوله : ﴿ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ ﴾ اختلفوا في معناه فقال عطاء : هو كقول الصبي أبه أمه ، يعني كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه ، فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك . وقال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله على محمّد ﷺ ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله ﷻ ، ولهذا كان انتصاب قوله : ﴿ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ على التمييز ، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا ، وأو ههنا لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله : ﴿ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ فليست ههنا للشك قطعًا ، وإنما هي لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيد منه .

ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره ، فإنه مظنة الإجابة ، وذم من لا يسأله إلَّا في أمر دنياه وهو معرض عن أخراه فقال : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ أي من نصيب ولاحظ وتضمن هذا الذم والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك . قال سعيد بن جبير عن ابن عبّاس : كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون : اللَّهمّ اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئًا ، فأنزل الله فيهم ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ فأنزل الله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٧٣/١) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٥٣/١) والترمذي في السنن (٣٤/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦) وأحمد في مسنده (١٢٢/٤) .
(٤) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٦) وأحمد في مسنده (٣/١ ، ٧) .

﴿ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا ، وصرفت كل شر ، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ، ودار رحبة ، وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ، ولا منافاة بينها فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا . وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة ، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات ، وتيسير الحساب ، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة ، وأما النجاة من الناس فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام . وقال القاسم أبو عبد الرحمن : من أعطي قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وجسدًا صابرًا ، فقد أوتي في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، ووقي عذاب النار . ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء ، فعن أنس ابن مالك : كان النبيّ ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » (١) وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، أو إذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه . وعن شداد يعني أبا طالوت قال : كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت : إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم ، فقال : « اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار » وتحدثوا ساعة ، حتى إذا أرادوا القيام قال : يا أبا حمزة : إن إخوانك يريدون القيام فادع اللَّه لهم فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور ، إذا آتاكم اللَّه في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، ووقاكم عذاب النار ، فقد آتاكم الخير كله .

وعن أنس أن رسول اللَّه ﷺ عاد رجلًا من المسلمين قد صار مثل الفرخ ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « هَلْ تَدْعُو اللَّهَ بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ ؟ » قَالَ : نَعَمْ . كنت أقول : اللَّهمّ ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا . فقال رسول اللَّه ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّه لا تُطِيقُهُ - أو لا تستطيعه - فَهَلاَّ قُلْتَ : ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ » قال : « فَدَعَا اللَّه فَشَفَاهُ » (٢) . وعن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عبّاس قال : إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني ، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم ، أفيجزي ذلك ، فقال : أنت من الذين قال اللَّه : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ .

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

قال ابن عبّاس : الأيام المعدودات أيام التشريق ، والأيام المعلومات أيام العشر . وقال عكرمة ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾ يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات ، اللَّه أكبر اللَّه أكبر . وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يَوْمُ عَرَفَةَ ، وَيَوْمُ النَّحْرِ ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ ؛ عِيدُنَا أَهْلَ الإِسْلَامِ ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ » (٣) . وعن مسعود بن الحكم الزرقي عن أمه قالت : لكأني أنظر إلى عليّ على بغلة رسول اللَّه ﷺ البيضاء ، حتى وقف على شعب الأنصار وهو يقول : يا أيها الناس إنها ليست بأيام صيام ، إنما هي أيام أكل وشرب وذكر اللَّه . وعن ابن عبّاس : الأيام

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٩) وأحمد في مسنده (١٠٧/٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٣) والترمذي في السنن (٣٤٨٧) وأحمد في مسنده (١٠٧/٣) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢٩٨/٤) والحاكم في المستدرك (٤٣٤/١) .

المعدودات أيام التشريق أربعة أيام ؛ يوم النحر ، وثلاثة بعده . وروي عن ابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وغيرهم مثل ذلك . وقال علي بن أبي طالب : هي ثلاثة أيام ويومان بعده ، اذبح في أيهن شئت ، وأفضلها أولها . والقول الأول هو المشهور ، وعليه دل ظاهر الآية الكريمة حيث قال : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر .

ويتعلق بقوله : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ ذكر اللَّه على الأضاحي وقد تقدم أن الراجح في ذلك مذهب الشافعي رحمه الله ، وهو أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق . ويتعلق به أيضًا الذكر المؤقت خلف الصلوات ، والمطلق في سائر الأحوال ، وفي وقته أقوال للعلماء أشهرها الذي عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق ، وهو آخر النفر الآخر . وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكبر في قبته فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترتج منى تكبيرًا . ويتعلق بذلك أيضًا التكبير وذكر اللَّه عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق ، وقد جاء في الحديث : « إنما جعل الطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار لإقامة ذكر اللَّه عز وجل »(١) .

ولما ذكر اللَّه تعالى النفر الأول والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحجّ إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف قال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ كما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

قال السدي : نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي جاء إلى رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم وأظهر الإسلام ، وفي باطنه خلاف ذلك . وعن ابن عبّاس أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم ، فأنزل اللَّه في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ وقيل : بل ذلك عام في المنافقين كلهم ، وفي المؤمنين كلهم ، وعن سعيد المقبري ، كان يذاكر محمّد بن كعب القرظي فقال سعيد : إن في بعض الكتب : إن عبادًا ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمرّ من الصبر ، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين ، يجترون الدنيا بالدين ، قال اللَّه تعالى : عليّ تجترئون وبي تغترون ! وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران ، فقال محمّد بن كعب : هذا في كتاب اللَّه ، فقال سعيد : وأين هو من كتاب اللَّه ؟ قال : قول اللَّه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية ، فقال سعيد : قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية ، فقال محمّد بن كعب : إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد(٢) ، وهذا الذي قاله القرطبي حسن صحيح .

وأما قوله : ﴿ وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ فقرأه ابن محيصن ﴿ وَيَشْهَدُ اللَّهُ ﴾ بفتح الياء وضم الجلالة ﴿ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ ومعناها أن هذا وإن أظهر لكم الحيل ، لكن اللَّه يعلم من قلبه القبيح

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٩/٦) والحاكم في المستدرك (٤٥٩/١) والبيهقي في السنن (١٤٥/٥) .
(٢) تفسير القرطبي (١٤/٣ ، ١٥) .

وقراءة الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة ﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ ﴾ ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ، ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ الآية . قال ابن عباس : معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسانه ، وهذا المعنى صحيح .

وقوله : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ الألد في اللغة الأعوج ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ أي عوجًا . وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه ، بل يفتري ويفجر ، فعن عائشة ترفعه قال : « إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ » [١] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ أي هو أعوج المقال سيئ الفعال فذلك قوله وهذا فعله ، كلامه كذب ، واعتقاده فاسد ، وأفعاله قبيحة . والسعي ههنا هو القصد كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة ، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية : « إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلاَةَ فلا تَأْتُوها وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالوَقَارُ » [٢] فهذا المنافق ليس له همة إلّا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث ، وهو محل نماء الزروع والثمار ، والنسل وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلّا بهما . وقال مجاهد : إذا سعى في الأرض إفسادًا منع الله القطر ، فهلك الحرث والنسل ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ أي لا يحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ أي إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله ، وقيل له : اتق الله وانزع عن قولك وفعلك ، وارجع إلى الحق ، امتنع وأبى ، وأخذته الحمية والغضب بالإثم ، أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي هي كافيته عقوبة في ذلك .

وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن عبّاس وأنس وسعيد بن المسيب وجماعة : نزلت في صهيب بن سنان الرومي ، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله ، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل ، فتخلص منهم وأعطاهم ماله ، فأنزل الله فيه هذه الآية فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع ، فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك ، فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية [٣] . ويروى أن رسول الله ﷺ قال له : « رَبِحَ البَيْعُ صُهَيْبُ » [٤] ونزلت : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله ، ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس ، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما وتلوا هذه الآية ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٥٧) وأحمد في مسنده (٦٣/٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨/٢) والبيهقي في السنن (٢٩٧/٢) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٢٨٩) .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٠٤/١) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول اللّٰه تعالى آمرًا عباده المؤمنين به ، المصدقين برسوله ، أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك . قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ ﴾ : يعني الإسلام . وقال الربيع بن أنس : يعني الطاعة . وقال قتادة : الموادعة ، وقوله ﴿ كَآفَّةً ﴾ أي : جميعًا . وقال مجاهد : أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر .

ومن المفسرين من يجعل قوله : ﴿ كَآفَّةً ﴾ حالًا من الداخلين أي ادخلوا الإسلام كلكم ، والصحيح الأول ، وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ، وهي كثيرة جدًّا ، ما استطاعوا منها . وعن ابن عبّاس ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ كذا قرأها بالنصب[1] ، يعني مؤمني أهل الكتاب ، فإنهم كانوا مع الإيمان باللّٰه مستمسكين ببعض أمور التوراة ، والشرائع التي أنزلت فيهم ، فقال اللّٰه : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ يقول : ادخلوا في شرائع دين محمّد ﷺ ، ولا تدعوا منها شيئًا ، وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ أي اعملوا بالطاعات ، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان فـ ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ و ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ . قال مطرف : أغش عباد اللّٰه لعبيد اللّٰه الشيطان ؟ وقوله : ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ﴾ أي عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج ، فاعلموا أن اللّٰه عزيز أي في انتقامه ، لا يفوته هارب ، ولا يغلبه غالب ، حكيم في أحكامه ، ونقضه وإبرامه .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ .

يقول تعالى مهددًا للكافرين بمحمّد صلوات اللّٰه وسلامه عليه : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين فيجزي كل عامل بعمله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ جاء في حديث الصور عن أبي هريرة عن رسول اللّٰه ﷺ : إن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحدًا واحدًا من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنها ، حتى ينتهوا إلى محمّد ﷺ فإذا جاءوا إليه قال : « أَنَا لَهَا أَنَا لَهَا » فيذهب فيسجد للّٰه تحت العرش ، ويشفع عند اللّٰه في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد فيشفعه اللّٰه ، ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا ، وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيون ، قال : وينزل الجبار ﷻ في ظلل من الغمام والملائكة ، ولهم زجل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، سبوح قدوس سبحان

---

(١) قرأ المدنيان وابن كثير والكسائي (في السّلم) بفتح السين والباقون بكسرها (انظر : تقريب النشر ص : ٩٦) .

ربنا الأعلى ، سبحان ذي السلطان والعظمة سبحانه سبحانه أبدًا أبدًا [١] .

وعن مجاهد : ﴿ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ قال : هو غير السحاب ، ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل في تيههم حين تاهوا . وعن أبي العالية يقول : والملائكة يجيؤون في ظلل من الغمام ، والله تعالى يجيء فيما يشاء .

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل كم شاهدوا مع موسى من آية بيّنة ، أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به ، كَيَدِهِ ، وعصاه ، وفلقه البحر ، وضربه الحجر ، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر ، ومن إنزال المنّ والسلوى ، وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار ، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه ، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها ، وبدلوا نعمة الله كفرًا ، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها ، واطمأنوا إليها ، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أُمروا بها مما يرضي الله عنهم ، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم ، وبذلوه ابتغاء وجه الله ، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد ، والحظ الأوفر يوم معادهم ، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم ، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين ، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي يرزق من يشاء من خلقه ، ويعطيه عطاء كثيرًا جزيلًا بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة ، كما جاء في الحديث « ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ ، أُنْفِقْ عَلَيْكَ » [٢] . وقال النبيّ ﷺ : « أَنْفِقْ بِلالاً وَلاَ تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلالاً » [٣] . وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ وفي الصحيح . « أَنَّ مَلَكَيْنِ يَنْزِلاَنِ مِنَ السَّمَاءِ صَبِيحَةَ كُلِّ يَوْمٍ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » [٤] وفي الحديث : « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، وَمَا لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، وَمَا تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ » [٥] وقال النبي ﷺ : « الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ ، وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ » [٦] .

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وعن ابن عبّاس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، قال : وكذلك هي في قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/١) . (٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٩٦) .
(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦/٣) والطبراني في الكبير (١٩٢/١٠) .
(٤) أخرجه مسلم في الزكاة (٥٧) وأحمد في مسنده (١٩٧/٥) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤) والحاكم في المستدرك (٥٣٤/٢) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٦) .

فاختلفوا) . وعن أُبيّ بن كعب أنه كان يقرؤها (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) وقال قتادة في قوله : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ قال : كانوا على الهدى جميعًا فاختلفوا ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ فكان أول من بعث نوحًا . وعن ابن عبّاس ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ يقول : كانوا كفارًا ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ والقول الأول عن ابن عبّاس أصح سندًا ومعنى ؛ لأن الناس كانوا على ملّة آدم حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحًا ﷺ ، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم ، وما حملهم على ذلك إلّا البغي من بعضهم على بعض ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ عن أبي هريرة في قوله : ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ الآية قال : قال النبيّ ﷺ : « نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الجَنَّةَ ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ ، فَهَذَا اليَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، فَغَدًا لِلْيَهُودِ وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى » (١) . وقال الربيع بن أنس في قوله : ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف ، أقاموا على الإخلاص لله ﷻ وحده ، وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف ، واعتزلوا الاختلاف ، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ، شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغوهم ، وأنهم قد كذبوا رسلهم .

وقوله : ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي بعلمه بهم وبما هداهم له ، قاله ابن جرير ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أي من خلقه ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي وله الحكمة والحجة البالغة . وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول : « اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم » (٢) .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا ، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم ، ولهذا قال : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب . قال ابن مسعود وابن عبّاس وغيرهم ﴿ ٱلْبَأْسَآءُ ﴾ الفقر ﴿ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ السقم ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾ خوفوا من الأعداء زلزالًا شديدًا ، وامتحنوا امتحانًا عظيمًا .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٦) وأحمد في مسنده (٢٨٢/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٦/٦) والحاكم في المستدرك (٦٢٢/٣) .

وعن خباب بن الأرت قال : قلنا : يا رسول الله ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو الله لنا ؟ فقال : « إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ أَحَدُهُمْ يُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيَخْلُصُ إِلَى قَدَمَيْهِ ، لاَ يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ لاَ يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ » ثم قال : « وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ قَوْمٌ تَسْتَعْجِلُونَ »(١) وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة ﷺ في يوم الأحزاب كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ . ولما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه ؟ قال : نعم ، قال : فكيف كانت الحرب بينكم ؟ قال : سجالاً يدال علينا وندال عليه ، قال : كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة . وقوله : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾ أي سنتهم ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ كما قال : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ وكما تكون الشدة ، ينزل من النصر مثلها ولهذا قال : ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ .

قال مقاتل بن حيان : هذه الآية في نفقة التطوع . وقال السدي : نسختها الزكاة وفيه نظر . ومعنى الآية : يسألونك كيف ينفقون ؟ قاله ابن عبّاس ومجاهد فبيّن لهم تعالى ذلك فقال : ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ أي اصرفوها في هذه الوجوه . كما جاء في الحديث « أُمَّكَ وَأَبَاكَ ، وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ »(٢) . وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ثم قال : هذه مواضع النفقة ، ما ذكر فيها طبلاً ولا مزمارًا ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أي مهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه ، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء ، فإنه لا يظلم أحدًا مثقال ذرة .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام . وقال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين ، وإذا استغيث أن يغيث ، وإذا استنفر أن ينفر ، وإن لم يحتج إليه قعد . قلت : ولهذا ثبت في الصحيح : « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً »(٣) . وقال عليه الصلاة والسّلام يوم الفتح : « لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا »(٤) . وقوله : ﴿ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ أي شديد عليكم ومشقة ، وهو كذلك فإنه إما أن يقتل أو يجرح ، مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء . ثم قال تعالى :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٩/٥) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٧٩/٤) والحاكم في المستدرك (٦١١/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٤/٢) والحاكم في المستدرك (٧٩/٢) والبيهقي في السنن (٤٨/٩) .
(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٢٥) وأحمد في مسنده (٢٢٦/١) .

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء ، والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ ﴾ وهذا عام في الأمور كلها ، قد يحب المرء شيئًا وليس له فيه خِيرة ولا مصلحة ، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم . ثم قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم ، فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون .

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ .

عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطًا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فلما ذهب ينطلق بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ فحبسه ، فبعث إليهم مكانه عبد الله بن جحش وكتب له كتابًا ، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال : « لا تُكْرِهَنَّ أَحَدًا عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ » فلما قرأ الكتاب استرجع وقال : سمعًا وطاعة لله ولرسوله ، فخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب ، فرجع رجلان وبقي بقيتهم ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى ، فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام فأنزل الله ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ ﴾ (١) الآية .

وقال ابن هشام في كتاب السيرة : وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رباب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتابًا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضي كما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحدًا ، وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين ثم من بني عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، ومن حلفائهم عبد الله بن جحش وهو أمير القوم ، وعكَّاشة بن محصن أحد بني أسد بن خزيمة حليف لهم ، ومن بني نوفل بن عبد مناف عتبة بن غزوان بن جابر حليف لهم ، ومن بني زهرة بن كلاب سعد بن أبي وقاص ، ومن بني كعب عدي بن عامر بن ربيعة حليف لهم ، من غير ابن وائل وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرس بن ثعلبة بن يربوع أحد بني تميم حليف لهم ، وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث حليف لهم ، ومن بني الحارث بن فهر سهيل بن بيضاء ، فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فإذا فيه : « إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي فِي هَذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ تَرْصُدُ بِهَا قُرَيْشًا ، وَتَعْلَمُ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ » ، فلما نظر عبد الله بن جحش الكتاب قال : سمعًا وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد به قريشًا حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف عنه

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٩/١٢) .

منهم أحد ، فسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوقع الفرع يقال له نجران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يتعقبانه فتخلفا عليه في طلبه ، ومضى عبد اللَّه بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة ، فمرت به عير لقريش تحمل زيتًا وأدمًا وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي ، واسم الحضرمي عبد اللَّه بن عباد أحد الصدف ، وعثمان بن عبد اللَّه بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد اللَّه المخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة ، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبًا منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه آمنوا وقالوا : عمار لا بأس عليكم منهم ، وتشاور القوم فيهم ، وذلك في آخر يوم من رجب ، فقال القوم : واللَّه لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم ، فرمى واقد ابن عبد اللَّه التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد اللَّه والحكم بن كيسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبد اللَّه فأعجزهم ، وأقبل عبد اللَّه بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول اللَّه ﷺ المدينة ، قال ابن إسحاق : وقد ذكر بعض آل عبد اللَّه بن جحش أن عبد اللَّه قال لأصحابه : إن لرسول اللَّه ﷺ مما غنمنا الخمس ، وذلك قبل أن يفرض اللَّه الخمس من المغانم ، فعزل لرسول اللَّه ﷺ خمس العير ، وقسم سائرها بين أصحابه . قال ابن إسحاق : فلما قدموا على رسول اللَّه ﷺ قال : « مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ » فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا ، فلما قال ذلك رسول اللَّه ﷺ : أسقط أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ، فقال : من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان ، وقالت اليهود : تفاءلوا بذلك على رسول اللَّه ﷺ عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد اللَّه ، عمرو عمرت الحرب ، والحضرمي حضرت الحرب ، وواقد بن عبد اللَّه وقدت الحرب ، فجعل اللَّه عليهم ذلك لا لهم ، فلما أكثر الناس في ذلك أنزل اللَّه على رسول اللَّه ﷺ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل اللَّه مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله ﴿ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من قتل من قتلتم منهم ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند اللَّه من القتل ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين ، قال ابن إسحاق : فلما نزل القرآن بهذا من الأمر ، وفرج اللَّه عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة ، قبض رسول اللَّه ﷺ العير والأسيرين ، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد اللَّه والحكم بن كيسان فقال رسول اللَّه ﷺ : « لاَ نَفْدِيكُمُوهُمَا حَتَّى يَقْدُمَ صَاحِبَانَا » يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم ، فقدم سعد وعتبة ففداهما رسول اللَّه ﷺ منهم ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن

إسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيدًا ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرًا . قال ابن إسحاق : فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء .

قال ابن هشام : وهي أول غنيمة غنمها المسلمون ، وعمرو بن الحضرمي أول من قتل المسلمون ، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون ، قال ابن إسحاق : فقال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه في غزوة عبد الله بن جحش ، ويقال : بل عبد الله بن جحش ، قالها حين قالت قريش : قد أحل محمّد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه المال ، وأسروا فيه الرجال قال ابن هشام : هي لعبد الله بن جحش :

تَعُدُّونَ قَتْلًا فِي الحَرَامِ عَظِيمَةً ... وَأَعْظَمَ مِنْهُ لَوْ يَرَى الرُّشْدَ رَاشِدُ

صُدُودُكُمْ عَمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ ... وَكُفْرٌ بِهِ وَاللَّهُ رَاءٍ وَشَاهِدُ

وَإِخْرَاجُكُمْ مِنْ مَسْجِدِ اللَّهِ أَهْلَهُ ... لِئَلا يُرَى لِلَّهِ فِي البَيْتِ سَاجِدُ

فَإِنَّا وَإِنْ عَيَّرْتُمُونَا بِقَتْلِهِ ... وَأَرْجَفَ بِالإِسْلامِ بَاغٍ وَحَاسِدُ

سَقَيْنَا مِنَ ابْنِ الحَضْرَمِيِّ رِمَاحَنَا ... بِنَخْلَةَ لَمَّا أَوْقَدَ الحَرْبَ وَاقِدُ

دمًا وَابْنُ عَبْدِ اللَّهِ عُثْمَانُ بَيْنَنَا ... يُنَازِعُهُ غِلٌّ مِنَ القَدِّ عَانِدُ [(١)]

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٞ لَّهُمْ خَيْرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ .

عن عمر أنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهمّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٞ كَبِيرٞ ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه فقال : اللهمّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن الصلاة سكران فدعي عمر فقرئت عليه فقال : اللهمّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ قال عمر : انتهينا انتهينا [(٢)] . فقوله : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ ﴾ أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنه كل ما خامر العقل وكذا الميسر : وهو القمار .

وقوله : ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أما إثمهما فهو في الدين ، وأما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن وتهضيم الطعام ، وإخراج الفضلات ، وتشحيذ بعض الأذهان ، ولذة الشدة المطربة ، التي فيها ، كما قال حسّان بن ثابت في جاهليته :

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٥٢ - ٢٥٦) والقد : شرك يقطع من الجلد ، وعاند : سائل بالدم لا ينقطع .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٥٣) .

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا ... وَأُسْدًا لاَ يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ (١)

وكذا بيعها والانتفاع بثمنها ، وما كان يقمشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله ، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة ، لتعلقها بالعقل والدين ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات ، ولم تكن مصرحة بل معرضة ؛ ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما قرئت عليه ، اللهمّ بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة . وقال عبد الرحمن بن زيد : إن هذه أول آية نزلت في الخمر ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ ثم نزلت الآية التي في سورة النساء ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر .

وقوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ قرئ بالنصب والرفع (٢) ، وكلاهما حسن متجه قريب ، عن ابن عبّاس ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ قال : ما يفضل عن أهلك ، وعن طاوس اليسير من كل شيء . وعن الحسن في الآية ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ قال : ذلك ألا يجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس . ويدل على ذلك ما روي عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ عَنْ أَهْلِكَ فَلِذِي قَرَابَتِكَ ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذا » (٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنىً ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَابْدأْ بِمَنْ تَعُولُ » (٤) ثم قد قيل إنها منسوخة بآية الزكاة ، وقيل مبينة بآية الزكاة ، وهو أوجه .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي كما فصّل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها ، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده وعيده ، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة . قال ابن عبّاس : يعني في زوال الدنيا وفنائها ، وإقبال الآخرة وبقائها . وعن قتادة : لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا ، وفي رواية عن قتادة : فآثروا الآخرة على الأولى .

وقوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ الآية . عن ابن عبّاس قال : لما نزلت ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ و ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه ، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم . قالت عائشة رضي الله عنها : إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة ، حتى أخلط طعامه بطعامي وشرابه بشرابي فقوله : ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ أي على حدة ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ أي وأن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم

---

(١) في ديوان حسان بن ثابت وتفسير القرطبي (٥٧/٣) : « وأسدًا ما ينهنهنا اللقاء » انظر : ديوان حسان بن ثابت ص : ١٩) والنهنهة : الكف والمنع .

(٢) قرأ الجمهور بالنصب ، وقرأ أبو عمرو بالرفع . انظر : تفسير القرطبي (٥٧/٣) ، (تقريب النشر ص ٩٦) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (١٧٨/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٦) والبيهقي في السنن (٤٧٠/٧) وأحمد في مسنده (٢٧٨/٢) .

بشرابهم فلا بأس عليكم ؛ لأنهم إخوانكم في الدين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ أي يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح . وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم ، ولكنه وسَّع عليكم وخفّف عنكم ، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف ، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر أو مجانًا كما سيأتي بيانه في سورة النساء إن شاء الله وبه الثقة .

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

هذا تحريم من الله ﷻ على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان ، ثم إن كان عمومها مرادًا وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية ، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ : استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب . وهكذا قال مجاهد وعكرمة وغيرهم . وقيل : بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان ، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية ، والمعنى قريب من الأول ، والله أعلم . فأما ما رواه ابن جرير عن عبد الله بن عباس يقول : نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلّا ما كان من المؤمنات المهاجرات ، وحرم كل ذات دين غير الإسلام . قال الله ﷻ : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ وقد نكحَ طلحة بن عبد الله يهودية ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية ، فغضب عمر بن الخطاب غضبًا شديدًا حتى هم أن يسطو عليهما ، فقالا : نحن نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب ، فقال : لئن حلَّ طلاقهن لقد حل نكاحهن ، ولكن أنتزعهن منكم صغرة قمأة[1] . فهو حديث غريب جدًّا ، وهذا الأثر غريب عن عمر أيضًا . قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات : وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات ، أو لغير ذلك من المعاني . كما روي عن شقيق قال : تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر : خلِّ سبيلها ، فكتب إليه : أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها ؟ فقال : لا أزعم أنها حرام ، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن .

وعن ابن عمر أنه كره نكاح أهل الكتاب وتأول ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ وقال البخاري : وقال ابن عمر : لا أعلم شركًا أعظم من أن تقول : ربها عيسى . وسئل أبو عبد الله بن حنبل عن قول الله : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ قال : مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام .

وقوله : ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ قال السدي : نزلت في عبد الله بن رواحة ، كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها ، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهما فقال له : « مَا هِيَ ؟ » قال : تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال : « يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ هَذِهِ مُؤْمِنَةٌ » فقال : والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها ، ففعل ، فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا : نكح أمته ، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم ، فأنزل الله ﴿ وَلَأَمَةٌ

---

(١) الصغرة جمع صاغر وهو الراضي بالذل . والقمأ : الذليل الصاغر . والخبر ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢/ ٥١٣) .

مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ . وعن عبد الله بن عمر عن النبيّ ﷺ قال : « لاَ تَنْكِحُوا النِّسَاءَ لِحُسْنِهِنَّ ، فَعَسَى حُسْنُهُنَّ أَنْ يُرْدِيَهُنَّ ، وَلاَ تَنْكِحُوهُنَّ عَلَى أَمْوَالِهِنَّ فَعَسَى أَمْوَالُهُنَّ أَنْ تُطْغِيَهُنَّ ، وَانْكِحُوهُنَّ عَلَى الدِّينِ فَلأَمَةٌ سَوْدَاءُ جَرْدَاءُ ذَاتُ دِينٍ أَفْضَلُ » (١) . وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ » (٢) وقوله : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ﴾ أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ أي ولرجل مؤمن ولو كان عبدًا حبشيًا خير من مشرك ، وإن كان رئيسًا سريًا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا ، واقتنائها ، وإيثارها على الدار الآخرة ، وعاقبة ذلك وخيمة ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي بشرعه وما أمر به ونهى عنه ﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ، ولم يجامعوها في البيوت ، فسأل أصحاب النبيِّ النبيَّ ﷺ ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ حتى فرغ من الآية فقال رسول الله ﷺ : « اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ » فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلَّا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يا رسول الله إن اليهود قالت : كذا وكذا أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أنه قد وجد عليهما ، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما (٣) .

فقوله : ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ يعني الفرج لقوله : « اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ » ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج . وعن بعض أزواج النبيّ ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئًا ألقى على فرجها ثوبًا (٤) . وروي عن مسروق قال : قلت لعائشة : ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضًا ؟ قالت : كل شيء إلَّا الجماع . وعن عائشة قالت : له ما فوق الإزار . قلت : ويحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف . قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض ، وكان يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن (٥) . فأما ما روي عن عائشة أنها قالت : كنت إذا حضت نزلت عن المثال على الحصير ، فلم تقرب رسول الله ﷺ ولم تدن منه حتى تطهر (٦) . فهو محمول على التنزه والاحتياط .

وقال آخرون : إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار ، كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٨٠/٧) .
(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٠) وأحمد في مسنده (٤٢٨/٢) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٧٧) .
(٤) أخرجه البيهقي في السنن (٣١١/١) وأحمد في مسنده (١٤٣/٦) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٦ ، ١٥٧) .
(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧١) .

الحارث الهلالية قالت : كان النبيّ ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض [١] .
وعن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ عما يحل لي من امرأتي وهي حائض قال : « مَا فَوْقَ الإِزَارِ وَالتَّعَفُّفُ عَنْ ذَلِكَ أَفْضَلُ » [٢] . فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل ما فوق الإزار منها ، وهو أحد القولين في مذهب الشافعي رحمه الله الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم ، ومأخذهم أنه حريم الفرج فهو حرام لئلا يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله عز وجل الذي أجمع العلماء على تحريمه ، وهو المباشرة في الفرج ، ثم من فعل ذلك فقد أثم فيستغفر الله ويتوب إليه ، وهل يلزمه مع ذلك كفّارة أم لا ؟ فيه قولان أحدهما : نعم لما روي عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار [٣] . وللإمام أحمد أيضًا عنه أن رسول الله ﷺ جعل في الحائض تصاب دينارًا ، فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل فنصف دينار [٤] . والقول الثاني وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي وقول الجمهور : أنه لا شيء في ذلك بل يستغفر الله عز وجل ؛ لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث ، فإنه قد روي مرفوعًا وموقوفًا وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ تفسير لقوله : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجودًا ، ومفهومه حله إذا انقطع . قال أحمد بن حنبل فيما أملاه في الطاعة : وقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ ﴾ الآية الطهر يدل على أن يقربها ، فلما قالت ميمونة وعائشة : كانت إحدانا إذا حاضت اتزرت ، ودخلت مع رسول الله ﷺ في شعاره [٥] . دلَّ ذلك على أنه إنما أراد الجماع .

وقوله : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال ، وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ وليس له في ذلك مستند ؛ لأن هذا أمر بعد الحظر ، وفيه أقوال لعلماء الأصول منهم من يقول : إنه على الوجوب كالمطلق ، وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم ، ومنهم من يقول : إنه للإباحة ، ويجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له عن الوجوب وفيه نظر ، والذي ينهض عليه الدليل أنه يرد عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي فإن كان واجبًا فواجب كقوله : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ أو مباحًا فمباح كقوله : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ وعلى هذا تجتمع الأدلة ، وقد حكاه الغزالي وغيره فاختاره بعض أئمة المتأخرين وهو الصحيح ، وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه ، إلَّا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده ، إنها تحل بمجرد الانقطاع ، ولا تفتقر إلى غسل والله أعلم . وقال ابن عبّاس ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ أي من الدم ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ أي بالماء .

وقوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ يعني الفرج . قال ابن عبّاس : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ يقول في الفرج ولا تَعَدَّوه إلى غيره ، فمن فعل شيئًا من ذلك فقد اعتدى . وفيه دلالة حينئذٍ على

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣٣٦) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٧/١٩١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٨٦) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٧٢) وأبو داود في السنن (٢١٦٩) .
(٥) أخرجه البيهقي في السنن (١/٣١٠) .

تحريم الوطء في الدبر ، وقال عكرمة والضحاك : طاهرات غير حيض ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ أي من الذنب وإن تكرر غشيانه ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أي المتنزهين عن الأقذار والأذى ، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأتى .

وقوله : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ قال ابن عباس : الحرث موضع الولد ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمام واحد ، وعن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول ، فنزلت : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [(١)] . وعن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال : يا رسول الله نساؤنا ما نأتي منها وما نذر ؟ قال : « حَرْثُكَ ، ائتِ حَرْثَكَ أَنَّى شِئْتَ ، غَيْرَ أَنْ لاَ تَضْرِبَ الوَجْهَ ، وَلاَ تُقَبِّح ، وَلاَ تَهْجُر إِلَّا فِي البَيْتِ » [(٢)] .

عن عبد الله بن سابط قال : دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر فقلت : إني لسائلك عن أمر وأنا أستحي أن أسألك ، قالت : فلا تستح يا ابن أخي ، قال : عن إتيان النساء في أدبارهن ، قالت : حدثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا يُحَبُّون النساء ، وكانت اليهود تقول : إنه من أحبى امرأته كان ولده أحول ، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار ، فأَحَبُّوهن فأبت امرأة أن تطيع زوجها ، وقالت : لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله ﷺ فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك فقالت : اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ فلما جاء رسول الله ﷺ استحت الأنصارية أن تسأل رسول الله ﷺ فخرجت ، فسألته أم سلمة فقال : « ادعِي الأَنْصَارِيَّةَ » فدعتها فتلا عليها هذه الآية ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ « صَمَّامًا وَاحِدًا » [(٣)] قلت : روي عن حفصة أم المؤمنين أن امرأة أتتها فقالت : إن زوجي يأتيني محبية ومستقبلة فكرهته ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « لاَ بَأْسَ إِذَا كَانَ فِي صَمَامٍ وَاحِدٍ » [(٤)] .

عن ابن عبّاس قال : جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هلكت ، قال : « مَا الَّذِي أَهْلَكَكَ ؟ » قال : حولت رحلي البارحة ، قال : فلم يرد عليه شيئًا ، قال : فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ « أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ ، وَاتَّقِ الدُّبُرَ وَالحَيْضَةَ » [(٥)] وعن ابن عبّاس قال : إن ابن عمر قال - والله يغفر له - أوهم ، وإنما كان هذا الحي من الأنصار ، وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود ، وهم أهل كتاب ، وكانوا يرون لهم فضلًا عليهم في العلم ، فكانوا يقتدون كثيرًا من فعلهم ، وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلّا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة ، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم ، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحًا منكرًا ، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار ، فذهب يصنع بها ذلك ، فأنكرته عليه ، وقالت : إنما كنا نؤتى على حرفٍ فاصنع ذلك وإلّا فاجتنبني ، فسرى أمرهما

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٢٨) والبيهقي في السنن (١٩٤/٧) والترمذي في السنن (٢٩٧٨) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٧٩) بنحوه ، والصمام ما أدخل في فم القارورة تسد به ، فسمي الفرج به لأنه موضع صمام .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٦٢/١) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٨٠) وأحمد في مسنده (٢٩٧/١) والبيهقي في السنن (١٩٨/٧) .

فبلغ رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعني بذلك موضع الولد [(١)] .

عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر : إنه قد أكثر عليك القول أنك تقول عن ابن عمر إنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن قال : كذبوا عليّ ، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر ! إن ابن عمر عرض المصحف يومًا وأنا عنده حتى بلغ ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ فقال : يا نافع هل تعلم من أمر هذه الآية ؟ قلت : لا ، قال : إنا كنا معشر قريش نحبي النساء ، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن مثل ما كنا نريد فآذاهن ، فكرهن ذلك وأعظمنه ، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود إنما يؤتين على جنوبهن فأنزل الله ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ . وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحًا ، وأنه لا يباح ولا يحل ، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم ، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر ، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك رحمه الله ، وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه ، فعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « اسْتَحْيُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحِي مِنَ الحَقِّ ، لا يَحِلُّ أَنْ تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي حُشُوشِهِنَّ » [(٢)] .

وعن ابن عبّاس قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لاَ يَنْظُرُ اللَّه إِلى رَجُلٍ أَتَى رَجُلًا أَوِ امْرَأَةً فِي الدُّبُرِ » [(٣)] .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبيّ ﷺ قال : « هِيَ اللُّوطِيَّةُ الصُّغْرَى » [(٤)] .

وعن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوْ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » [(٥)] .

وعن إسرائيل بن روح : سألت مالك بن أنس : ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن ، قال : ما أنتم إلا قوم عرب ، هل يكون الحرث إلّا موضع الزرع ، لا تَعَدَّوا الفرج ، قلت : يا أبا عبد اللَّه إنهم يقولون : إنك تقول ذلك ، قال : يكذبون عليَّ ، يكذبون عليَّ . فهذا هو الثابت عنه ، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة ، وهو قول سعيد بن المسيّب وأبي سلمة وعكرمة وطاووس وعطاء وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير ومجاهد بن جبر والحسن وغيرهم من السلف ، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار ، ومنهم من يطلق على فعله الكفر ، وهو مذهب جمهور العلماء . وقد حكي في هذا شيء عن بعض فقهاء المدينة ، حتى حكوه عن الإمام مالك ، وفي صحته نظر .

وعن عبد الرَّحمن بن القاسم قال : ما أدركت أحدًا أقتدي به في ديني يشك أنه حلال - يعني وطء المرأة في دبرها - ثم قرأ ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ ثم قال : فأي شيء أبين من هذا ؟ . وعن الإمام مالك من طرق ما يقتضي إباحة ذلك ، ولكن في الأسانيد ضعف شديد ، وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد اللَّه الذهبي في جزء جمعه في ذلك واللَّه أعلم . وقال الطحاوي : حكى لنا محمّد

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٦٤) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٩٧/٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٤/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢/٢) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٣٩٠٤) .

ابن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعي يقول : ما صح عن النبيّ ﷺ في تحليله ولا تحريمه شيء ، والقياس أنه حلال ، وكان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد كذب - يعني ابن عبد الحكم - على الشافعي في ذلك ؛ لأن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي من فعل الطاعات من امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ، ولهذا قال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ﴾ أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المطيعين لله فيما أمرهم ، التاركين ما عنه زجرهم . وعن ابن عبّاس ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ﴾ قال : تقول باسم الله ، التسمية عند الجماع ، وقد ثبت في صحيح البخاري ، عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ : بَاسْمِ اللَّه ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا » (١) .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها ، فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير . عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٢) وقال رسول الله ﷺ : « وَاللَّه لأَنْ يَلِجَ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللَّه مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ » (٣) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ اسْتَلَجَّ فِي أَهْلِهِ بِيَمِينٍ فَهُوَ أَعْظَمُ إِثْمًا ، لَيْسَ تُغْنِي الكَفَّارَةُ » (٤) . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ ﴾ قال : لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ، ولكن كفّر عن يمينك واصنع الخير . وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي وَاللَّه إِنْ شَاءَ اللَّه ، لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَتَحَلَّلْتُهَا » (٥) . وثبت أيضًا أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة : « يَا عَبْدَ الرَّحْمنِ بْنَ سَمُرَةَ لا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ » (٦) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ نَذْرَ وَلاَ يَمِينَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ ، وَلاَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّه وَلاَ فِي قَطِيعَةِ رَحِمٍ ، وَمَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَدَعْهَا ، وَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، فَإِنَّ تَرْكَهَا كَفَّارَتُهَا » (٧) .

ثم روى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ومسروق والشعبي أنهم قالوا : لا يمين في معصية ، ولا كفارة عليها .

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤١) وأحمد في مسنده (٢١٧/١) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٩٥) وأحمد في مسنده (٢٤٩/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٥) والبيهقي في السنن (٣٢/١) وأحمد في مسنده (٣١٧/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٦) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٨/٤) .
(٦) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٧) وأحمد في مسنده (٦٢/٥) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٢/٢) .

وقوله : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية ، وهي التي لا يقصدها الحالف ، بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ حَلَفَ فَقَالَ في حَلِفِهِ باللاتِ وَالعُزَّى فَلْيَقُلْ : لا إلَهَ إلَّا اللَّه »[1] فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية ، قد أسلموا وألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد ، فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد ، لتكون هذه بهذه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ الآية . وفي الآية الأخرى ﴿ بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَٰنَ ﴾ . وعن عطاء : اللغو في اليمين قال : قالت عائشة إن رسول الله ﷺ قال : « اللَّغْوُ في اليَمِينِ هُوَ كَلامُ الرَّجُلِ في بَيْتِهِ كَلَّا وَاللَّه ، وَبَلَى وَاللَّه »[2] وعن عائشة في قوله : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ قالت : هم القوم يتدارءون في الأمر فيقول هذا : لا والله ، وبلى والله ، وكلا والله ، يتدارءون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم . وكانت عائشة تقول : إنما اللغو في المزاحة والهزل ، وهو قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ، فذاك لا كفارة فيه ، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله .

وعن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية يعني قوله : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ وتقول : هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلَّا الصدق ، فيكون على غير ما حلف عليه .

أقوال أخر : عن إبراهيم : هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه . وقال زيد بن أسلم : هو قول الرجل : أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا وكذا ، أخرجني الله من مالي إن لم آتك غدًا فهو هذا . وعن ابن عبّاس قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان . وعن ابن عبّاس قال : لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك ، فذلك ما ليس عليك فيه كفارة . وعن سعيد بن المسيّب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة ، فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك ، كفِّر عن يمينك وكلم أخاك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لاَ يَمِينَ عَلَيْكَ ، وَلاَ نَذْرَ في مَعْصِيَةِ الرَّبِّ ﷻ ، وَلاَ في قَطِيعَةِ الرَّحِم ، وَلاَ فِيمَا لا تَمْلِكُ »[3]

وقوله : ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد : هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب . ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أي غفور لعباده حليم عليهم .

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَٰقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

الإيلاء الحلف ، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة ، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها فإن كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته ، وعليها أن تصبر ، وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة ، وهذا كما ثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ آلى من نسائه شهرًا فنزل لتسع وعشرين وقال : « الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ »[4] ، فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر ، إما أن يفيء أي يجامع ، وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا ، وهذا لئلا يضر

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٥٠) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٤٨/١٠) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٦٦/١٠) .
(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٧) وأحمد في مسنده (٢٥٨/١) .

بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ أي يحلفون على ترك الجماع من نسائهم ، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء ، كما هو مذهب الجمهور ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف ثم يوقف ، ويطالب بالفيئة أو الطلاق ولهذا قال : ﴿ فَإِن فَآءُو ﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهو كناية عن الجماع ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين ، وقوله : ﴿ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيه دلالة لأحد قولي العلماء وهو القديم عن الشافعي أن المولي إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه ، ويعتضد بما تقدم في الحديث عند الآية التي قبلها عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِين فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، فَتَرْكُهَا كَفَّارَتُها » [1] والذي عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعي أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف كما تقدم أيضًا في الأحاديث الصحاح واللَّه أعلم .

وقوله : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ ﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر ، كقول الجمهور من المتأخرين ، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطليقة ، ثم قيل : إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية ، وقيل : إنها تطلق طلقة بائنة ، فكل من قال : إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة ، إلا ما روي عن ابن عبّاس وأبي الشعثاء ، إنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها ، وهو قول الشافعي ، والذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف ، فيطالب إما بهذا ، وإما بهذا ، ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق . وروي عن عبد اللَّه بن عمر أنه قال : إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف ، فإما أن يطلق ، وإما أن يفيء . وعن سليمان بن يسار قال : أدركت بضعة عشر من أصحاب النبيّ ﷺ كلهم يوقف المولي . قال الشافعي : وأقل ذلك ثلاثة عشر ، ورواه الشافعي عن علي ﷺ أنه يوقف المولي ، ثم قال : وهكذا نقول وهو موافق لما رويناه عن عمر وابن عمر وعائشة وعثمان وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبيّ ﷺ ، وعن سهيل بن أبي صالح عن أبيه قال : سألت اثني عشر رجلًا من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته ، فكلهم يقول ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة الأشهر فيوقف ، فإن فاء وإلَّا طلق . قلت : وهو يروي عن عمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة أم المؤمنين وابن عمر وابن عبّاس ، وبه يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم ، وهو اختيار ابن جرير أيضًا ، وهو قول الليث وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد وأبي ثور وداود ، وكل هؤلاء قالوا : إن لم يفئ ألزم بالطلاق ، فإن لم يطلق طلق عليه الحاكم ، والطلقة تكون رجعية له رجعتها في العدة ، وانفرد مالك بأن قال : لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة ، وهذا غريب جدًّا .

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجيل المولي بأربعة أشهر ، الأثر الذي رواه الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ في الموطأ عن عبد اللَّه بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَاسْوَدَّ جَانِبُهْ ... وَأَرَّقَنِي أَنْ لاَ خَلِيلَ أُلاَعِبُهْ

فَوَاللَّه لَوْلاَ اللَّه إِنِّي أُرَاقِبُهْ ... لَحُرِّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٢/٢) .

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنها : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر أو أربعة أشهر ، فقال عمر : لا أحبس أحدًا من الجيوش أكثر من ذلك .

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

هذا أمر من اللّه ﷻ للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء ، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ، ثم تتزوج إن شاءت ، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طلقت ، فإنها تعتد عندهم بقرأين ؛ لأنها على النصف من الحرة ، والقرء لا يتبعض فكمل لها قرآن . وعن عائشة أن رسول اللّه ﷺ قال : « طَلاقُ الأَمَةِ تَطْلِيقَتَانِ ، وَعِدَّتُهَا حَيْضَتَانِ » [1] . وقال بعض السلف : بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية ؛ ولأن هذا أمر جلي فكان الحرائر والإماء في هذا سواء ، حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن محمّد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه . وعن أسماء ابنة يزيد بن السكن الأنصارية قالت : طلقت على عهد رسول اللّه ﷺ ولم يكن للمطلقة عدة ، فأنزل اللّه ﷻ حين طلقت أسماء العدة للطلاق ، فكانت أول من نزلت فيها العدة للطلاق يعني ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ .

وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو ؟ على قولين :

أحدهما : أن المراد بها الأطهار ، وعن عائشة أنها انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة ، فذكرت ذلك لعمرة ابنة عبد الرحمن فقال : صدق عروة ، وقد جادلها في ذلك ناس فقالوا : إن اللّه تعالى يقول في كتابه : ﴿ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ فقالت عائشة : صدقتم وتدرون ما الأقراء ؟ إنما الأقراء الأطهار . وقال مالك : عن ابن شهاب سمعت أبا بكر بن عبد الرّحمن يقول : ما أدركت أحدًا من فقهائنا إلّا وهو يقول ذلك ، يريد قول عائشة . وقال مالك : عن نافع بن عبد اللّه بن عمر أنه كان يقول : إذا طلق الرجل امرأته ، فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها . وقال مالك : وهو الأمر عندنا وروي مثله عن ابن عبّاس وزيد بن ثابت وسالم والقاسم وعروة وسليمان بن يسار وأبي بكر بن عبد الرّحمن وأبان بن عثمان وعطاء بن أبي رباح وقتادة والزهري وبقية الفقهاء السبعة ، وهو مذهب مالك والشافعي وغير واحد وداود وأبي ثور ، وهو رواية عن أحمد ، واستدلوا عليه بقوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي في الأطهار ، ولما كان الطهر الذي يطلق فيه محتسبًا دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ، ولهذا قال هؤلاء : إن المعتدة تنقضي عدتها وتبين من زوجها بالطعن في الحيضة الثالثة ، وأقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يومًا ولحظتان ، واستشهد أبو عبيد وغيره على ذلك بقول الشاعر وهو الأعشى :

فَفِي كُلِّ عَامٍ أَنْتَ جَاشِمُ غَزْوَةٍ تَشُدُّ لِأَقْصَاهَا عَزِيمَ عَزَائِكَا

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٩/٣٦٩) .

مُوَرِّثَةٌ مَالًا وَفِي الأَصْلِ رِفْعَةً لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا (١)

يمدح أميرًا من أمراء العرب آثر الغزو على المقام حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم يواقعهن فيها .

والقول الثاني : أن المراد بالأقراء الحيض ، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة . زاد آخرون : وتغتسل منها ، وأقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يومًا ولحظة ، وعن علقمة قال : كنا عند عمر بن الخطاب ﷺ فجاءته امرأة فقالت : إن زوجي فارقني بواحدة أو اثنتين فجاءني وقد نزعت ثيابي ، وأغلقت بابي ، فقال عمر لعبد اللَّه بن مسعود : أراها امرأته ما دون أن تحل لها الصلاة ، قال : وأنا أرى ذلك . وهكذا روي عن أبي بكر الصدِّيق وعمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ وأبيّ بن كعب وأبي موسى الأشعري وابن عباس وسعيد بن المسيب وعلقمة وغيرهم قالوا : الأقراء : الحيض ، وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل ، وحكى عنه الأثرم أنه قال : الأكابر من أصحاب رسول اللَّه ﷺ يقولون : الأقراء الحيض ، وهو مذهب الثوري والأوزاعي وابن أبي ليلى وابن شبرمة وغيرهم ويؤيد هذا ما جاء في الحديث عن فاطمة بنت أبي حبيش أن رسول اللَّه ﷺ قال لها : « دَعِي الصَّلاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ » (٢) فهذا لو صح لكان صريحًا في أن القرء هو الحيض .

وقال ابن جرير : أصل القرء في كلام العرب الوقت لمجيء الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم ، ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم ، وهذه العبارة تقتضي أن يكون مشتركًا بين هذا وهذا ، وقد ذهب إليه بعض الأصوليين واللَّه أعلم . وهذا قول الأصمعي : إن القرء هو الوقت . وقال أبو عمرو بن العلاء : العرب تسمي الحيض قرءًا وتسمي الطهر قرءًا وتسمي الطهر والحيض جميعًا قرءًا . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ويراد به الطهر ، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين .

وقوله : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ أي من حبل أو حيض . وقوله : ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ تهديد لهن على خلاف الحق ، ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن ؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ، ويتعذر إقامة البينة غالبًا على ذلك ، فرد الأمر إليهن ، وتوعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحق إما استعجالًا منها لانقضاء العدة ، أو رغبة منها في تطويلها لما لها في ذلك من المقاصد ، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان .

وقوله : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا إِصْلَٰحًا ﴾ أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها ، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير ، وهذا في الرجعيات ، فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن ، وإنما كان ذلك لما حصروا في الطلاق الثلاث ، فأما حال نزول الآية ، فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات ، صار للناس مطلقة بائن وغير بائن ، وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين من استشهادهم على مسألة عود الضمير هل يكون مخصصًا لما تقدمه من لفظ العموم أم لا بهذه الآية الكريمة ، فإن التمثيل

---

(١) الجاشم : الذي يتكلف الجهد والمشقة ، والعزيم : الجد ، والعزاء : حسن الصبر عند فقد ما يفقد الإنسان (ديوان الأعشى ص : ١٢٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢/٦ ، ٢٦٢) .

بها غير مطلق لما ذكروه والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن ، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف ، فعن جابر أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع : « فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ » [1] وعن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال : يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا قال : « أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ ، وَلاَ تَضْرِبَ الوَجْهَ ، وَلاَ تُقَبِّحْ ، وَلاَ تَهْجُرْ إِلَّا فِي البَيْتِ » [2] . وقال وكيع : عن بشير بن سليمان عن عكرمة عن ابن عبّاس قال : إني لأحب أن أتزين للمرأة ، كما أحب أن تتزين لي المرأة ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أي في الفضيلة في الخُلق والمنزلة ، وطاعة الأمر ، والإنفاق ، والقيام بالمصالح ، والفضل في الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره ، حكيم في أمره وشرعه وقدره .

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلّقها مائة مرة ، ما دامت في العدة ، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات ، قصرهم الله إلى ثلاث طلقات ، وأباح الرجعة في المرة والثنتين ، وأبانها بالكلية في الثالثة ، فقال : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ ، قال ابن عباس : وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثًا ، فنسخ ذلك فقال : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ الآية . وعن هشام عن أبيه قال : كان الرجل أحق برجعة امرأته ، وإن طلقها ما شاء ما دامت في العدة ، وإن رجلًا من الأنصار غضب على امرأته فقال : والله لا آويك ولا أفارقك ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك ، فإذا دنا أجلك راجعتك ، ثم أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ قال : فاستقبل الناس الطلاق من كان طلق ومن لم يكن طلق ، وعن عائشة قالت : لم يكن للطلاق وقت ، يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة ، وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس ، فقال : والله لأتركنك لا أيمًا ولا ذات زوج ، فجعل يطلّقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضي راجعها ، ففعل ذلك مرارًا ، فأنزل الله ﷻ فيه : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ فوقف الطلاق ثلاثًا لا رجعة فيه بعد الثالثة ، حتى تنكح زوجًا غيره . وهكذا روي عن قتادة مرسلا ، وذكره السدي وابن زيد وابن جرير كذلك ، واختار أن هذا تفسير هذه الآية [3] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٧٣) والبيهقي في السنن (٧/٣٠٤) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٧/٣٠٥) .

(٣) تفسير الطبري (٢/٦١٩) .

وقوله : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ أي إذا طلقها واحدة أو اثنتين ، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية ، بين أن تردها إليك ناويًا الإصلاح بها وَالإحسان إليها ، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك ، وتطلق سراحها محسنًا إليها ، لا تظلمها من حقها شيئًا ولا تضارٌ بها . وقال ابن عبّاس : إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتق اللّه في ذلك ، أي في الثالثة ، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها ، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئًا . وعن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول اللّه ! ذكر اللّه الطلاق مرتين فأين الثالثة ؟ قال : « إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ »(١) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾ أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الصداق أو ببعضه ، فأما إن وهبته المرأة شيئًا عن طيب نفس منها فقد قال تعالى : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل ، وأبغضته ، ولم تقدر على معاشرته ، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها ولا حرج عليها في بذلها له ، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ الآية . فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه ، فقد روي عن ثوبان أن رسول اللّه ﷺ قال : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقَهَا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ ؛ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الجَنَّةِ »(٢) .

وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ « المُخْتَلِعَاتُ وَالمُنْتَزِعَاتُ هُنَّ المُنَافِقَاتُ »(٣) .

وعن ابن عبّاس أن رسول اللّه ﷺ قال : « لَا تَسْأَلُ امْرَأَةٌ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ فَتَجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا »(٤) .

ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف : إنه لا يجوز الخلع إلّا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذٍ قبول الفدية واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ قالوا : فلم يشرع الخلع إلّا في هذه الحالة فلا يجوز في غيرها إلّا بدليل ، والأصل عدمه . وممن ذهب إلى هذا ابن عبّاس وطاووس وإبراهيم وعطاء والحسن والجمهور ، حتى قال مالك والأوزاعي : لو أخذ منها شيئًا وهو مضارٌ لها وجب رده إليها ، وكان الطلاق رجعيًا ، قال مالك : وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه ، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق ، وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرى ، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة . وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته حبيبة بنت عبد اللّه بن أبي ابن سلول .

وعن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس فضربها فانكسر بعضها ، فأتت رسول اللّه ﷺ بعد الصبح فاشتكته إليه ، فدعا رسول اللّه ﷺ ثابتًا فقال : « خُذْ بَعْضَ مَالِهَا وَفَارِقْهَا » قال : ويصلح ذلك يا رسول اللّه ؟ قال : « نَعَمْ » قال : إني أصدقتها حديقتين فهما بيدها ، فقال النبيّ ﷺ : « خُذْهُمَا وَفَارِقْهَا » ففعل(٥) .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٦٢١/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٧/٥) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣١٦/٧) .
(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٠٥٤) .
(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢٢٨) .

وعن ابن عبّاس أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبيّ ﷺ فقالت : يا رسول اللَّه : ما أعيب عليه في خلق ولا دين ، ولكن أكره الكفر في الإسلام ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ » قالت : نعم ، قال رسول اللَّه ﷺ : « اقْبَلِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً » [١] . والمشهور أن اسمها حبيبة كما تقدم ، وذكر عن ابن عبّاس أن جميلة بنت سلول أتت النبيّ ﷺ فقالت : واللَّه ما أعتب على ثابت بن قيس في دين ولا خلق ، ولكنني أكره الكفر في الإسلام لا أطيقه بغضًا ، فقال لها النبيّ ﷺ : « تَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ ؟ » قالت : نعم ، فأمره النبيّ ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد [٢] .

وقد اختلف الأئمة رحمهم اللَّه في أنه هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاها ؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك ؛ لعموم قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ فعن كثير مولى ابن سمرة أن عمر أتي بامرأة ناشز ، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل ، ثم دعا بها فقال : كيف وجدت ، فقالت : ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلَّا هذه الليلة التي كنت حبستني ، فقال لزوجها : اخلعها ولو من قرطها . وعن عبد اللَّه ابن محمّد بن عقيل أن الربيع بنت معوّذ بن عفراء حدَّثته قالت : كان لي زوج يقلُّ عليَّ الخير إذا حضرني ، ويحرمني إذا غاب عني ، قالت : فكانت مني زلة يومًا فقلت له : أختلع منك بكل شيء أملكه ، قال : نعم ، قالت : ففعلت ، قالت : فخاصم عمي معاذ بن عفراء ، إلى عثمان بن عفان فأجاز الخلع ، وأمره أن يأخذ عقاص رأسي فما دونه ، أو قالت : ما دون عقاص الرأس ، ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير ، ولا يترك لها سوى عقاص شعرها . وبه يقول ابن عمر وابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وغيرهم ، وهذا مذهب مالك والليث والشافعي وأبي ثور واختاره ابن جرير ، وقال أصحاب أبي حنيفة : إن كان الإضرار من قبلها ، جاز أن يأخذ منها ما أعطاها ، ولا يجوز الزيادة عليه ، فإن ازداد جاز في القضاء . وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئًا ، فإن أخذ جاز في القضاء . وقال الإمام أحمد وأبو عبيد وإسحاق بن راهويه : لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها . وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء وعمرو بن شعيب ، وقال معمر والحكم : كان علي يقول : لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها . وقال الأوزاعي : القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها . قلت : ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية ابن عبّاس في قصة ثابت بن قيس فأمره رسول اللَّه ﷺ أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد . وبما روي عن عطاء ، أن النبيّ ﷺ كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها ، يعني المختلعة ، وحملوا معنى الآية على معنى ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ أي من الذي أعطاها لتقدم قوله : ﴿ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ أي من ذلك .

فصل : قال الشافعي : اختلف أصحابنا في الخلع ، في رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد ، يتزوجها إن شاء ؛ لأن اللَّه تعالى يقول : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ قرأ إلى ﴿ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ قال الشافعي : كل شيء أجازه المال فليس بطلاق ، وروى غير الشافعي عن ابن عبّاس أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص سأله فقال : رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أيتزوجها ؟ قال : نعم ليس الخلع

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤) ، وابن ماجه في السنن (٢٠٥٧) والدارقطني في السنن (٣/٢٥٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٧٤) .

بطلاق ، ذكر اللّٰه الطلاق في أول الآية وآخرها ، والخلع فيما بين ذلك ، فليس الخلع بشيء ثم قرأ : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ وقرأ : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ ﴾ وهذا الذي ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من أن الخلع ليس بطلاق ، وإنما هو فسخ ، وهو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وابن عمر ، وهو قول طاووس وعكرمة ، وبه يقول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ، وهو مذهب الشافعي في القديم ، وهو ظاهر الآية الكريمة . والقول الثاني في الخلع : إنه طلاق بائن إلَّا أن ينوي أكثر من ذلك . قال مالك : عن هشام بن عروة عن أبيه عن جهمان مولى الأسلميين عن أم بكر الأسلمية ، أنها اختلعت من زوجها عبد اللّٰه بن خالد بن أسيد فأتيا عثمان ابن عفان في ذلك فقال : تطليقة إلَّا أن تكون سميت شيئًا ، فهو ما سميت . وقد روي نحوه عن عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر وبه يقول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء ، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وأبو عثمان البتي والشافعي في الجديد ، غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالع بخلعه تطليقة أو اثنتين أو أطلق فهو واحدة بائنة ، وإن نوى ثلاثًا فثلاث . وللشافعي قول آخر في الخلع ، وهو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق ، وعري عن البينة ، فليس هو بشيء بالكلية .

مسألة : وذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه في رواية عنهما وهي المشهورة إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء إن كانت ممن تحيض . وروي ذلك عن عمر وعلي وابن عمر وبه يقول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والليث بن سعد وغيرهم ، قال الترمذي : وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم ، ومأخذهم في هذا أن الخلع طلاق فتعتد كسائر المطلقات . والقول الثاني : أنها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها . وعن ابن عمر أن الربيع اختلعت من زوجها ، فأتى عمها عثمان رضي الله عنه فقال : تعتد بحيضة ، قال : وكان ابن عمر يقول : تعتد ثلاث حيض ، حتى قال هذا عثمان فكان ابن عمر يفتي به ويقول : عثمان خيرنا وأعلمنا . واحتجوا لذلك بما رواه ابن عبّاس أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبيّ ﷺ فأمرها النبيّ ﷺ أن تعتد بحيضة .

عن عبادة بن الصامت عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قال : قلت لها : حدثيني حديثك قالت : اختلعت من زوجي ثم جئت عثمان ، فسألت عثمان ماذا عليَّ من العدة ؟ قال : لا عدة عليك إلَّا أن يكون حديث عهد بك فتمكثين عنده حتى تحيضي حيضة ، قالت : وإنما أتبع في ذلك قضاء رسول اللّٰه ﷺ في مريم المغالية ، وكانت تحت ثابت بن قيس فاختلعت منه .

مسألة : وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء ؛ لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء . وروي عن عبد اللّٰه بن أبي أوفى وماهان الحنفي وسعيد بن المسيب والزهري أنهم قالوا : إن ردَّ إليها الذي أعطاها جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها ، وهو اختيار أبي ثور رحمه الله . وقال سفيان الثوري : إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق ؛ فهو فرقة ولا سبيل له عليها . وإن كان يسمى طلاقًا ؛ فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة . وبه يقول داود بن علي الظاهري ، واتفق الجميع على أن للمختلع أن يتزوجها في العدة ، وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن فرقة أنه لا يجوز له ذلك ، كما لا يجوز لغيره ، وهو قول شاذ مردود .

مسألة : وهل له أن يوقع عليها طلاقًا آخر في العدة ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء :

أحدها : ليس له ذلك ؛ لأنها قد ملكت نفسها ، وبانت منه . وبه يقول ابن عبّاس وابن الزبير وعكرمة وجابر بن زيد والحسن البصري والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور .

والثاني : قال مالك : إن أتبع الخلع طلاقًا من غير سكوت بينهما وقع ، وإن سكت بينهما لم يقع . قال ابن عبد البر : وهذا يشبه ما روي عن عثمان رضي الله عنه .

والثالث : أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة . وهو قول أبي حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي ، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح وطاووس وإبراهيم والزهري ، وروي ذلك عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء . قال ابن عبد البر : وليس ذلك بثابت عنهما .

وقوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها ، كما ثبت في الحديث الصحيح : « إِنَّ اللَّه حَدَّ حُدُودًا فَلاَ تَعْتَدُوهَا ، وَفَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا ، وَحَرَّمَ مَحَارِمَ فَلا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلاَ تَسْأَلُوا عَنْهَا »[1] . وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جميع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام ، كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم ، وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة لقوله : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ ﴾ ثم قال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ويقوون ذلك بحديث محمود بن لبيد قال : أخبر رسول اللَّه ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعًا ، فقام غضبان ثم قال : « أَيُلْعَبُ بِكِتَابِ اللَّه وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ » حتى قام رجل فقال : يا رسول اللَّه ألا أقتله ؟[2] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ ﴾ أي أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة ، بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجًا غيره ، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح ، فلو وطئها واطئ في غير نكاح ، ولو في ملك اليمين لم تحل للأول ؛ لأنه ليس بزوج ، وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول . واشتهر بين كثير من الفقهاء أن سعيد بن المسيب رحمه الله يقول : يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثاني ، وفي صحته عنه نظر ، وعن ابن عمر عن النبيّ ﷺ في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة ، فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها ، أترجع إلى الأول ؟ قال : « لاَ ؛ حَتَّى تَذُوقَ عُسَيْلَتَهُ ، وَيَذُوق عُسَيْلَتَها »[3] .

وعن عائشة أن رسول اللَّه ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها ، فتتزوج رجلًا آخر فيطلّقها قبل أن يدخل بها ، أتحل لزوجها الأول قال : « لا ، حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا »[4] . وعن عائشة أيضًا قالت : دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبيّ ﷺ فقالت : إن رفاعة طلّقني البتة ، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني ، وإنما عنده مثل الهدبة ، وأخذت هدبة من جلبابها ، وخالد بن سعيد ابن العاص بالباب لم يؤذن له ، فقال : يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول اللَّه ﷺ ،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/١١٥) . (٢) أخرجه النسائي في السنن (٣٤٠١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/٦) والنسائي في السنن (١٤٨/٦) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (١٤٦/٦) وأحمد في مسنده (٦٢/٢) .

فما زاد رسول الله ﷺ عن التبسم ، فقال رسول الله ﷺ : « كَأَنَّكِ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ ، لا حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ » [١] .

فصل : والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغبًا في المرأة قاصدًا لدوام عشرتها ، كما هو المشروع من التزويج ، واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثاني وطأً مباحًا ، فلو وطئها وهي محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء ، أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف ، لم تحل للأول بهذا الوطء ، وكذا لو كان الزوج الثاني ذميًا لم تحل للمسلم بنكاحه ؛ لأن أنكحة الكفار باطلة عنده . واشترط الحسن البصري فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، أن ينزل الزوج الثاني ، وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه الصلاة والسلام : « حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ » ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضًا ، وليس المراد بالعسيلة المني ؛ لما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « أَلاَ إِنَّ العُسَيْلَةَ الجِمَاعُ » [٢] فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول ، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذمه ولعنه ، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة .

ذِكْر الأَحَادِيث الوَارِدةِ في ذلِك

عن عبد الله قال : لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والمستوصلة ، والمحلِّل والمحلَّل له ، وآكل الربا وموكله [٣] .

عن علي قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ، وموكله ، وشاهديه ، وكاتبه ، والواشمة والمستوشمة للحسن ، ومانع الصدقة ، والمحلِّل والمحلَّل له [٤] ، وكان ينهى عن النوح .

وعن ابن عبّاس قال : سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلِّل قال : « لا ، إِلَّا نِكَاحَ رَغْبَةٍ ، لاَ نِكَاحَ دُلْسَةٍ وَلاَ اسْتِهْزَاءٍ بِكِتَابِ اللَّه ، ثُمَّ يَذُوقُ عُسَيْلَتَهَا » [٥] .

وقوله : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ أي الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ أي المرأة والزوج الأول ﴿ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أي يتعاشرا بالمعروف . قال مجاهد : إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي شرائعه وأحكامه ﴿ يُبَيِّنُهَا ﴾ أي يوضحها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين ، وتركها حتى انقضت عدتها ، ثم تزوجت بآخر فدخل بها ، ثم طلّقها فانقضت عدتها ، ثم تزوجها الأول هل تعود إليه بما بقي من الثلاث كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وهو قول طائفة من الصحابة رضي الله عنهم ، أن يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق ، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله ، وحجتهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث ، فلأنه يهدم ما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٢/٦) والدارقطني في السنن (٢٥٢/٣) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٧٥٩ ، ٢٧٨٣) .
(٤) أخرجه مسلم في المساقاة (١٠٥) والنسائي في السنن (١٤٧/٨) وأحمد في مسنده (٨٣/١) .
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٩٩/٢) .

دونها بطريق الأولى والأحرى والله أعلم .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

هذا أمر من الله عَزَّوَجَلَّ للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقًا له عليها فيه رجعة ، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها ولم يبق منها إلَّا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها ، فإما أن يمسكها أي يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف ، وهو أن يشهد على رجعتها وينوي عشرتها بالمعروف ، أو يسرحها أي يتركها حتى تنقضي عدتها ، ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد ومسروق والحسن وغير واحد : كان الرجل يطلق المرأة ، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضرارًا لئلا تذهب إلى غيره ، ثم يطلقها فتعتد ، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق ، لتطول عليها العدة ، فنهاهم الله عن ذلك ، وتوعدهم عليه فقال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعريين فأتاه أبو موسى ، فقال : يا رسول الله أغضبت على الأشعريين ؟ فقال : « يَقُولُ أَحَدُكُمْ : قَدْ طَلَّقْتُ قَدْ رَاجَعْتُ ، لَيْسَ هَذَا طَلَاقَ الْمُسْلِمِينَ ، طَلِّقُوا الْمَرْأَةَ فِي قُبُلِ عِدَّتِهَا » [(١)] . وقال مسروق : هو الذي يطلق في غير كنهه ، ويضارّ امرأته بطلاقها وارتجاعها ، لتطول عليها العدة . وقال مقاتل بن حيان : هو الرجل يطلق ويقول : كنت لاعبًا ، أو يعتق أو ينكح ويقول : كنت لاعبًا ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ فألزم الله بذلك . وعن ابن عبّاس قال : طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق . وعن عبادة بن الصامت في قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ قال : كان الرجل على عهد النبيّ ﷺ يقول للرجل : زوّجتك ابنتي ثم يقول : كنت لاعبًا ، ويقول : قد أعتقت ويقول : كنت لاعبًا ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثٌ مَنْ قَالَهُنَّ لَاعِبًا أَوْ غَيْرَ لَاعِبٍ فَهُنَّ جَائِزَاتٌ عَلَيْهِ ؛ الطَّلَاقُ وَالعِتَاقُ وَالنِّكَاحُ » [(٢)] ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ ، النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالرَّجْعَةُ » [(٣)] .

وقوله : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي في إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي السنة ﴿ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ أي يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي فيما تأتون وفيما تذرون ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية ، وسيجازيكم على ذلك .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٠١٧) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٨٦/١) وابن حجر في المطالب العالية (١٦٥٩) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١١٨٤) وأبو داود في السنن (٢١٩٤) والحاكم في المستدرك (١٩٧/٢) .

كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين ، فتنقضي عدتها ، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك ، فيمنعها أولياؤها من ذلك ، فنهى الله أن يمنعوها . وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعي والزهري والضحاك أنها أنزلت في ذلك ، وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية ، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها ، وأنه لابد في النكاح من ولي كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية كما جاء في الحديث : « لاَ تُزَوِّجُ المَرْأَةُ المَرْأَةَ ، وَلاَ تُزَوِّجُ المَرْأَةُ نَفْسَهَا ، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تزَوِّجُ نَفْسَهَا » (١) وفي الأثر الآخر « لاَ نكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ مُرْشِدٍ وَشَاهِدَيْ عَدْلٍ » (٢) وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء محرر في موضعه من كتب الفروع .

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأُخته ، فعن معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلًا من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلّقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها ، فهويها وهويته ، ثم خطبها مع الخطاب فقال له : يا لكعُ ابن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ، والله لا ترجع إليك أبدًا آخر ما عليك ، قال : فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فلما سمعها معقل قال : سمع لربي وطاعة ثم دعاه ، فقال : أزوجك وأكرمك ، زاد ابن مردويه : وكفرت عن يميني . قال ابن جريج : هي جميل بنت يسار كانت تحت أبي البداح . وقال أبو إسحاق السبيعي : هي فاطمة بنت يسار ذكر غير واحد من السلف أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار وأخته . وقال السدي : نزلت في جابر بن عبد الله وابنة عم له ، والصحيح الأول والله أعلم .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، يأتمر به ويتعظ به وينفعل له ﴿ مَن كَانَ مِنكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي يؤمن بشرع الله ، ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة ، وما فيها من الجزاء ﴿ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ أي اتباعكم شرع الله في رد الموليات إلى أزواجهن ، وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أي من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي الخيرة فيما تأتون ولا فيما تذرون .

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة ، وهي سنتان ، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك ، ولهذا قال : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلّا ما كان دون الحولين ، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم . عن أم سلمة قالت :

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٨٢) والدارقطني في السنن (٢٢٧/٣) .

(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٩١/٩) .

قال رسول الله ﷺ : « لا يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعِ إِلَّا مَا فتقَ الأَمْعَاءَ في الثَّدْيِ ، وَكَانَ قَبْلَ الفِطَامِ » [١] . والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم ، أن الرضاعة لا تحرم إلَّا ما كان دون الحولين ، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرِّم شيئًا ، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير ابن العوام وهي امرأة هشام بن عروة قلت : ومعنى قوله : « إِلَّا مَا كَانَ فِي الثَّدْيِ » أي في محالّ الرضاعة قبل الحولين ، كما جاء في الحديث الذي رواه البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم ابن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ ابْنِي مَاتَ فِي الثَّدْيِ ، إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الجَنَّةِ » [٢] ، وإنما قال عليه الصلاة والسَّلام ذلك ؛ لأن ابنه إبراهيم عليه السلام مات وله سنة وعشرة أشهر ، فقال : « إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا » يعني تكمل رضاعه . وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يُحَرِّمُ مِنَ الرَّضَاعِ إِلَّا مَا كَانَ فِي الحَوْلَيْنِ » [٣] قلت : وقد رواه الإمام مالك في الموطأ عن ابن عبّاس مرفوعًا ورواه الدراوردي عن ابن عبّاس وزاد « وَمَا كَانَ بَعْدَ الحَوْلَيْنِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ » وهذا أصح .

وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا رَضَاعَ بَعْدَ فِصَالٍ وَلاَ يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَام » [٤] والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين يروى عن عليّ وابن عبّاس وابن مسعود وجابر وأبي هريرة وابن عمر وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور ، وهو مذهب الشافعي وأحمد وإسحاق والثوري وأبي يوسف ومحمّد ومالك في رواية ، وعنه أن مدته سنتان وشهران ، وفي رواية وثلاثة أشهر . وقال أبو حنيفة : سنتان وستة أشهر ، وقال زفر بن الهذيل : ما دام يرضع فإلى ثلاث سنين ، وهذا رواية عن الأوزاعي . قال مالك : ولو فطم الصبي دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم ، لأنه قد صار بمنزلة الطعام . وهو رواية عن الأوزاعي . وقد روي عن عمر وعلي أنهما قالا : لا رضاع بعد فصال ، فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور سواء فطم أو لم يفطم ، ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك ، وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم ، وهو قول عطاء بن أبي رباح والليث بن سعد ، وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها فترضعه ، وتحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث أمر النبيّ ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيرًا ، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة ، وأبى ذلك سائر أزواج النبيّ ﷺ ورأين ذلك من الخصائص ، وهو قول الجمهور ، وحجة الجمهور ، وهم الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة والأكابر من الصحابة وسائر أزواج رسول الله ﷺ سوى عائشة ما ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « انْظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُنَّ ، فَإِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنَ المَجَاعَةِ » [٥] وسيأتي الكلام على مسائل الرضاع ، وفيما يتعلق برضاع الكبير عند قوله تعالى : ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف ، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار ، بحسب قدرته في

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١١٥٢) والبغوي في شرح السنة (٨٤/٩) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠/٤) والحاكم في مستدركه (٣٨/٤) والألباني في الضعيفة (٢٢٠) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٤٦٢/٧) ومالك في الموطأ (الرضاع ٤ ، ١٠ ، ١٤) والدارقطني في السنن (١٧٤/٤) .
(٤) أخرجه البيهقي في السنن (٣١٩/٧) والطبراني في الصغير (٦٨/٢) .
(٥) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٠٢) ومسلم في الرضاع (٣٢) والنسائي في السنن (١٠٢/٦) والدارمي في السنن (١٥٨/٢) .

يساره وتوسطه وإقتاره ، قال الضحاك : إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده ، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف .

وقوله : ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا ﴾ أي بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته ، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالبًا ، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت ، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك ، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا مَوْلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ أي بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضرارًا بها .

وقوله : ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ قيل : في عدم الضرار لقريبه . وقيل : عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل ، والقيام بحقوقها ، وعدم الإضرار بها ، وهو قول الجمهور وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره ، وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية ، والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف ، ويرشح ذلك بحديث سمرة مرفوعًا « مَنْ مَلَكَ ذَا رَحِمٍ مَحْرَمٍ عتقَ عَلَيهِ » [1] وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو في عقله ، وعن علقمة أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين فقال : لا ترضعيه .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ ﴾ أي فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ، ورأيا في ذلك مصلحة له ، وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه ، فلا جناح عليهما في ذلك ، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي ، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر . قاله : الثوري وغيره : وهذا فيه احتياط للطفل ، وإلزام للنظر في أمره ، وهو من رحمة اللّه بعباده ، حيث حجّر على الوالدين في تربية طفلهما ، وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه .

وقوله : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ﴾ أي إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها أو لعذرله فلا جناح عليهما في بذله ، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن ، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف ، قاله غير واحد . وقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجٗا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٖ وَعَشْرٗاۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ .

هذا أمر من اللّه للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع ، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة ، وأن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة ، فمات عنها ولم يدخل بها ، ولم يفرض لها ، فترددوا إليه مرارًا في ذلك فقال : أقول فيها برأيي فإن يك صوابًا فمن اللّه ، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان ، واللّه ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملًا - وفي لفظ : لها صداق مثلها - لا وكس ولا شطط وعليها العدة ، ولها الميراث ، فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال : سمعت رسول اللّه ﷺ قضى به في بروع بنت واشق ، ففرح عبد اللّه بذلك فرحًا شديدًا - وفي رواية : فقام رجال من أشجع فقالوا : نشهد أن رسول

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٦٥) وأبو داود في السنن (٣٩٤٩) وأحمد في مسنده (٢٠/٥) والحاكم في المستدرك (٢١٤/٢).

اللَّه ﷺ قضى به في بروع بنت واشق . ولا يخرج من ذلك إلَّا المتوفى عنها زوجها وهي حامل ، فإن عدتها بوضع الحمل ، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله : ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وكان ابن عبّاس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع ، أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين ، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوي لولا ما ثبتت به السنّة في حديث سبيعة الأسلمية المخرج في الصحيحين من غير وجه أنها توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته - فلما تعلت من نفاسها ، تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها : ما لي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح ؟ واللَّه ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر ، قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت ، فأتيت رسول اللَّه ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي ، وأمرني بالتزويج إن بدا لي (١) . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد روي أن ابن عبّاس رجع إلى حديث سبيعة يعني لما احتج عليه به ، قال : ويصحح ذلك عنه أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة . وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة ، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة ، شهران وخمس ليال على قول الجمهور ؛ لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد ، فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة . ومن العلماء كمحمّد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوي بين الزوجات الحرائر والإماء في هذا المقام لعموم الآية ؛ ولأن العدة من باب الأمور الجبلية التي تستوي فيها الخليقة ، وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرًا لاحتمال اشتمال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجودًا كما جاء في حديث ابن مسعود : « إِنَّ خلقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الملَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ » (٢) فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر ، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه واللَّه أعلم . وقال الربيع بن أنس : قلت لأبي العالية : لم صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة ؟ قال : لأنه ينفخ فيه الروح . ومن ههنا ذهب الإمام أحمد في رواية عنه إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا ؛ لأنها صارت فراشًا كالحرائر ، وعن عمرو بن العاص أنه قال : لا تلبسوا علينا سنة نبينا : عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر . وقال طاووس وقتادة : عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها نصف عدة الحرة ، شهران وخمس ليالٍ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تعتد بثلاث حيض ، وهو قول علي وابن مسعود . وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه : عدتها حيضة . وبه يقول ابن عمر والشعبي والجمهور . وقال الليث : ولو مات وهي حائض أجزأتها . وقال مالك : فلو كانت ممن لا تحيض فثلاثة أشهر . وقال الشافعي والجمهور : شهر وثلاثة أحب إليّ ، واللَّه أعلم .

وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها ؛ لما ثبت عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أم المؤمنين أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لَا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّه وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ تحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ ، إِلَّا

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (١٨٥٢) ومسلم في الطلاق (٥٦) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (١) .

عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » (١) . وعن أم سلمة أن امرأة قالت : يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها ؟ فقال : « لاَ » كل ذلك يقول « لاَ » مرتين أو ثلاثًا ثم قال : « إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الجَاهِلِيَّةِ تَمْكُثُ سَنَةً » (٢) ، قالت زينب بنت أم سلمة : كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشًا ، ولبست شر ثيابها ، ولم تمس طيبًا ولا شيئًا حتى تمر بها سنة ، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمي بها ، ثم تؤتى بدابة ، حمار أو شاة أو طير فتفتض به ، فقلما تفتض بشيء إلّا مات . ومن ههنا ذهب كثيرون من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها وهي قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ الآية ، كما قاله ابن عباس وغيره ، وفي هذا نظر . والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ، ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك ، وهو واجب في عدة الوفاة قولًا واحدًا ، ولا يجب في عدة الرجعية قولًا واحدًا ، وهل يجب في عدة البائن ؟ فيه قولان . ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن ، سواءً في ذلك الصغيرة والآيسة والحرة والأمة والمسلمة والكافرة لعموم الآية . وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه : لا إحداد على الكافرة ، وبه يقول أشهب وابن نافع من أصحاب مالك ، وحجة قائل هذه المقالة قوله ﷺ : « لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ تحدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاثٍ ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » قالوا : فجعله تعبدًا ، وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثوري : الصغيرة بها لعدم التكليف ، وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لنقصها ، ومحل تقرير ذلك في كتب الأحكام والفروع .

وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي انقضت عدتهن ، ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ : أي على أوليائها ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ ﴾ يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن . قال ابن عبّاس : إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها ، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتتعرض للتزويج ، فذلك المعروف . وقال مجاهد : النكاح الحلال الطيب .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أن تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح . قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ التعريض أن يقول : إني أريد التزويج ، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف . وعن ابن عبّاس : هو أن يقول : إني أريد التزويج ، وإن النساء لمن حاجتي ، ولوددت أن ييسر لي امرأة صالحة . هكذا قال غير واحد من السلف والأئمة في التعريض : إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة . وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها ، كما قال النبيّ ﷺ لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٣٤) ومسلم في الطلاق (٥٨) وأبو داود (٢٢٩٩) والنسائي في السنن (٦/١٩٨) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١١٩٧) ومالك في الموطأ (٥٩٧) والبيهقي في السنن (٧/٤٢٨) .

مكتوم ، وقال لها : « فإذا حللت فآذنيني »[١] ، فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه فزوجها إياه ، فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها والله أعلم .

وقوله : ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن . ولهذا قال : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ أي في أنفسكم ، فرفع الحرج عنكم في ذلك . ثم قال : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ يعني الزنى ، واختاره ابن جرير : وقال ابن عباس : لا تقل لها : إني عاشق ، وعاهديني أن لا تتزوجي غيري ونحو هذا . وهو أن يأخذ ميثاقها أن لا تتزوج غيره . وقال مجاهد : هو قول الرجل للمرأة : لا تفوتيني بنفسك ، فإني ناكحك . وقال قتادة : هو أن يأخذ عهد المرأة وهي في عدتها أن لا تنكح غيره ، فنهى الله عن ذلك وقدم فيه ، وأحل الخطبة ، والقول بالمعروف . وقال ابن زيد : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ : هو أن يتزوجها في العدة سرًا ، فإذا حلت أظهر ذلك ، وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ : يعني به ما تقدم من إباحة التعريض كقوله : إني فيك لراغب ونحو ذلك وقال محمّد بن سيرين : قلت لعبيدة : ما معنى قوله : ﴿ إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ قال : يقول لوليها : لا تسبقني بها ، يعني لا تزوجها حتى تعلمني .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة . قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وقتادة والثوري والضحاك وغيرهم : يعني ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة . وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة . واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها فدخل بها ، فإنه يفرق بينهما ، وهل تحرم عليه أبدًا ؟ على قولين : الجمهور على أنها لا تحرم عليه ، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها . وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأبيد ، واحتج في ذلك بما روي أن عمر ﷺ قال : أيما امرأة نكحت في عدتها ، فإن كان زوجها الذي تزوج بها لم يدخل بها ، فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول ، وكان خاطبًا من الخطاب . وإن كان دخل بها فرق بينهما ، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول ، ثم اعتدت من الآخر ، ثم لم ينكحها أبدًا . قالوا : ومأخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أجل الله عوقب بنقيض قصده ، فحرمت عليه على التأبيد ، كالقاتل يحرم الميراث . وقد روى الشافعي هذا الأثر عن مالك . قال البيهقي : وذهب إليه في القديم ورجع عنه في الجديد ؛ لقول علي أنها تحل له . قلت : قال : ثم هو منقطع عن عمر ، وقد روى الثوري عن أشعث عن الشعبي عن مسروق ، أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها ، وجعلهما يجتمعان .

وقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء ، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر ، ثم لم يؤيسهم من رحمته ولم يقنطهم من عائدته ، فقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها . قال الحسن البصري : المس

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق (٣٦) وأحمد في مسنده (٤١٢/٦) والبيهقي في السنن (١٧٧/٧) .

النكاح ، بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها ، والفرض لها إن كانت مفوضة ، وإن كان في هذا انكسار لقلبها ، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . وقال ابن عباس : متعة الطلاق أعلاه الخادم ودون ذلك الورق ، ودون ذلك الكسوة . وقال : إن كان موسرًا متعها بخادم أو نحو ذلك ، وإن كان معسرًا أمتعها بثلاثة أثواب . وقال الشعبي : أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب ، قال : وكان شريح يمتع بخمسمائة . ومتع الحسن بن علي بعشرة آلاف ، ويروى أن المرأة قالت : متاع قليل من حبيب مفارق . وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها . وقال الشافعي في الجديد : لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلَّا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة ، وأحب ذلك إليّ أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة ، وقال في القديم : لا أعرف في المتعة قدرًا إلَّا أني أستحسن ثلاثين درهمًا .

وقد اختلف العلماء أيضًا هل تجب المتعة لكل مطلقة ، أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها ؟ على أقوال : أحدها : أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وقد كن مفروضًا لهن ، ومدخولًا بهن . وهو أحد قولي الشافعي ، ومنهم من جعله الجديد الصحيح .

والقول الثاني : إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس ، وإن كانت مفروضًا لها ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ وعن سعيد بن المسيب قال : نسخت هذه الآية التي في الأحزاب ، الآية التي في البقرة ، وقد روي عن سهل بن سعد وأبي أسيد أنهما قالا : تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شرحبيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين .

والقول الثالث : إن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ، ولم يفرض لها ، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة ، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره ، فإن دخل بها استقر الجميع ، وكان ذلك عوضًا لها عن المتعة . وإنما المصابة التي لم يفرض لها ، ولم يدخل بها فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها . ومن العلماء من استحبها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول ، وهذا ليس بمنكور ، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ومن العلماء من يقول : إنها مستحبة مطلقًا .

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى ، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض ، إذا طلّق الزوج قبل الدخول ، فإنه لو كان ثمّ واجب آخر من متعة لبينها ، لاسيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية والله أعلم . وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مُجْمَعٌ عليه بين العلماء لا خلاف بينهم في ذلك ، فإنه متى كان قد سمى لها

صداقًا ، ثم فارقها قبل دخوله بها ، فإنه يجب لها نصف ما سمى من الصداق ، إلَّا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج ، إن لم يدخل بها ، وهو مذهب الشافعي في القديم ، وبه حكم الخلفاء الراشدون ، لكن قال الشافعي : عن ابن عبّاس أنه قال في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ثم يطلقها : ليس لها إلَّا نصف الصداق لأن اللَّه يقول : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ ، قال الشافعي : بهذا أقول وهو ظاهر الكتاب .

وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾ أي النساء عما وجب لها على زوجها ، فلا يجب عليه شيء . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾ قال : إلَّا أن تعفو الثيب فتدع حقها .

وقوله : ﴿ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ عن النبيّ ﷺ قال : « وَلِيُّ عُقْدَةِ النِّكَاحِ الزَّوْجُ » [1] وعن عيسى - يعني ابن عاصم - قال : سمعت شريحًا يقول : سألني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح ؟ فقلت له : هو ولي المرأة ، فقال علي : لا ، بل هو الزوج [2] . قلت : وهذا هو الجديد من قولي الشافعي ، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه ، والثوري وابن شبرمة والأوزاعي ، واختاره ابن جرير ، ومأخذ هذا القول ، أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج ، فإن بيده عقدها ، وإبرامها ، ونقضها وانهدامها ، وكما أنه لا يجوز أن يهب شيئًا من مال المولية للغير ، فكذلك في الصداق .

قال : والوجه الثاني عن ابن عبّاس - في الذي ذكر اللَّه بيده عقدة النكاح - قال : ذلك أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلَّا بإذنه [3] ، قال علقمة والزهري وغيرهما : أنه الولي ، وهذا مذهب مالك وقول الشافعي في القديم ، ومأخذه أن الولي هو الذي أكسبها إياه ، فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها . وعن عكرمة : أذن اللَّه في العفو وأمر به ، فأي امرأة عفت جاز عفوها ، فإن شحت وضنت عفا وليها جاز عفوه ، وهذا يقتضي صحة عفو الولي وإن كانت شديدة ، وهو مروي عن شريح ، لكن أنكر عليه الشعبي فرجع عن ذلك ، وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه .

وقوله : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم : خوطب به الرجال والنساء . وعن ابن عبّاس قال : أقربهما للتقوى الذي يعفو . وقال مقاتل بن حيان والربيع بن أنس والثوري : الفضل هٰهنا أن تعفو المرأة عن شطرها ، أو إتمام الرجل الصداق لها ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أي الإحسان ، وقال الضحاك وقتادة والسدي : المعروف ، يعني لا تهملوه ، بل استعملوه بينكم .

﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها ، وحفظ حدودها ، وأدائها في أوقاتها ، فعن ابن مسعود قال : سألت رسول اللَّه ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : « الصَّلاةُ في وَقْتِها » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه » قلت ثم أي ؟ قال : « بِرُّ الوَالِدَيْنِ » قال : حدَّثني بهنّ رسول اللَّه ﷺ ، ولو استزدته لزادني [4] .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٥١/٧) والدارقطني في السنن (٢٧٩/٣) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٥١/٧) . (٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢٥٢/٧) .
(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤٢٦) والبيهقي في السنن (٢٣٢/١) وابن خزيمة في صحيحه (٣٢٧) .

وعن أم فروة - وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ - أنها سمعت رسول الله ﷺ ذكر الأعمال فقال: «إِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلى اللَّهِ تَعْجِيلُ الصَّلاَةِ لِأَوَّلِ وَقْتِهَا » (١). وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى. وقد اختلف السلف والخلف فيها، أي صلاة هي ؟.

فقيل: إنها الصبح حكاه مالك في الموطأ بلاغًا عن علي وابن عبّاس، وعن أبي رجاء العطاردي قال: صليت خلف ابن عباس الفجر فقنت فيها ورفع يديه ثم قال: هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين. وعن ابن عبّاس أنه صلى الغداة في مسجد البصرة، فقنت قبل الركوع، وقال: هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه فقال: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ وعن أبي العالية قال: صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة، فقلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ إلى جانبي: ما الصلاة الوسطى؟ قال: هذه الصلاة. وعن جابر بن عبد الله قال: الصلاة الوسطى صلاة الصبح. وهو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله محتجًا بقوله تعالى: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ والقنوت عنده في صلاة الصبح، ومنهم من قال: هي وسطى باعتبار أنها لا تقصر، وهي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين، وترد المغرب، وقيل: لأنها بين صلاتي ليل جهريتين، وصلاتي نهار سريتين.

وقيل: إنها صلاة الظهر، عن زهرة بن معبد قال: كنا جلوسًا عند زيد بن ثابت فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى فقال: هي الظهر، كان رسول الله ﷺ يصليها بالهجير (٢). وعن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة، ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله ﷺ منها، فنزلت: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ وقال: إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين (٣)، وعن الزبرقان أن رهطًا من قريش مر بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون، فأرسلوا إليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي العصر، فقام إليه رجلان منهم فسألاه، فقال: هي الظهر. ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه فقال: هي الظهر، وإن النبيَّ ﷺ كان يصلي الظهر بالهجير، فلا يكون وراءه إلَّا الصف والصفان، والناس في قائلتهم وفي تجارتهم، فأنزل الله ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ قال: فقال رسول الله ﷺ: « لَيَنْتَهِيَنَّ رِجَالٌ أَوْ لأُحَرِّقَنَّ بُيُوتَهُمْ» (٤).

وقيل: إنها صلاة العصر قال الترمذي والبغوي رحمهما الله: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم، وهو قول جمهور التابعين، وهو قول أكثر أهل الأثر، وجمهور الناس. وحكاه عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي أيوب وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب وأبي هريرة وأبي سعيد وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وعن ابن عمر وابن عبّاس وعائشة على الصحيح عنهم. وهو مذهب أحمد بن حنبل، وهو الصحيح عن أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمّد، واختاره ابن حبيب المالكي رحمهم الله.

ذكر الدليل على ذلك، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: « شَغَلُونا عَنِ الصَّلاَةِ الوُسْطَى صَلاَةِ العَصْرِ، مَلأَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا» (٥) ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء.

---

(١) أخرجه الدارقطني في السنن(١/٢٤٨).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٥/١٨٣)، والبيهقي في السنن(١/٤٣٤).
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤١١) والبغوي في شرح السنة(٢/٢٣٦).
(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن(٧٩٥)
(٥) أخرجه مسلم في المساجد(٥٠٢) والنسائي في السنن(١/٢٦٣) وأحمد في مسنده(١/١٢٢)

وعن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى » (١) وسماها لنا أنها صلاة العصر .

فهذه نصوص في المسألة لا تحتمل شيئًا ، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها ، وقوله ﷺ : « مَنْ فَاتَتْهُ صَلاَةُ العَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ » (٢) وحديث عن بريدة بن الحصيب عن النبيّ ﷺ قال : « بَكِّرُوا بِالصَّلاَةِ في يَوْمِ الغَيْمِ ، فَإِنَّهُ مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ العَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ » (٣) وعن أبي نضرة الغفاري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ في وادٍ من أوديتهم يقال له : الحميص صلاةَ العصر فقال : « إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ عُرِضَتْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ فَضَيَّعُوهَا ، أَلا وَمَنْ صَلاَّهَا ضُعِّفَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ، أَلَّا وَلا صَلاَةَ بَعْدَهَا حَتَّى تَرَوا الشَّاهِدَ » (٤) . وعن أبي يونس مولى عائشة قال : أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفًا قالت : إذا بلغت هذه الآية ﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ فآذني ، فلما بلغتها آذنتها فأملت عليَّ (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا للّه قانتين) قالت : سمعتها من رسول الله ﷺ (٥) . وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة ، فدل ذلك على أنها غيرها . وأجيب عن ذلك بوجوه أحدها : أن هذا إن روي على أنه خبر فحديث علي أصح وأصرح منه ، وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة كما في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أو تكون لعطف الصفات ، لا لعطف الذوات كقوله : ﴿ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ .

وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل : مررت بأخيك وصاحبك ، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه . وأما إن روي على أنه قرآن ، فإنه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن ، ولهذا لم يثبته أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ في المصحف ، ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين تثبت الحجة بقراءتهم ، لا من السبعة ولا من غيرهم ، ثم قد روي ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث ، فعن البراء بن عازب قال : نزلت (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر) فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله ثم نسخها الله ﷻ فأنزل ﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ فقال له زاهر - رجل كان مع شقيق - : أفهي العصر ؟ قال : قد حدثتك كيف نزلت وكيف نسخها الله ﷻ (٦) . فعلى هذا تكون هذه التلاوة وهي تلاوة الجادة ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة ولمعناها إن كانت الواو دالة على المغايرة ، وإلَّا فلفظها فقط والله أعلم .

وقيل : إن الصلاة الوسطى هي صلاة المغرب ، فعن ابن عبَّاس قال : صلاة الوسطى المغرب ، وحكى هذا القول ابن جرير ، ووجَّه هذا القول بعضهم بأنها وسطى في العدد بين الرباعية والثنائية أو بأنها وتر المفروضات ، وبما جاء فيها من الفضيلة والله أعلم .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤١٠) وأحمد في مسنده (٧٣/٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٢) والنسائي في السنن (٢٣٨/١) والدارمي في السنن (٢٨٠/١) والبيهقي في السنن (٤٤٥/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٥) وابن ماجه في السنن (٦٩٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٧/٦) والبيهقي في السنن (٤٥٢/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٥) والطبراني في الكبير (١٣١/٥) .
(٦) أخرجه البيهقي في السنن (٤٥٩/١) .

وقيل : إنها العشاء الأخيرة ، اختاره علي بن أحمد الواحدي في تفسيره المشهور ، وقيل : هي واحدة من الخمس لا بعينها ، وأبهمت فيهن كما أبهمت ليلة القدر في الحول أو الشهر أو العشر .

وقيل : بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس ، والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمرو بن عبد البر النمري إمام ما وراء البحر ، وإنها لإحدى الكبر ؛ إذ اختاره مع اطلاعه وحفظه ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر . وقيل : إنها صلاة العشاء وصلاة الفجر ، وقيل : بل هي صلاة الجماعة ، وقيل : صلاة الجمعة ، وقيل : صلاة الخوف ، وقيل : بل صلاة عيد الفطر ، وقيل : بل صلاة الأضحى ، وقيل : الوتر ، وقيل : الضحى ، وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة ولم يظهر لهم وجه الترجيح ، ولم يقع الإجماع على قول واحد ، بل لم يزل النزاع فيها موجودًا من زمان الصحابة وإلى الآن . وعن سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا ، وشبك بين أصابعه . وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها ، وإنما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر ، وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه ، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها ، ولهذا لما امتنع النبيّ ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه وهو في الصلاة ، اعتذر إليه بذلك وقال : « إِنَّ فِي الصَّلاةِ لَشُغْلًا »[(١)] وقال لمعاوية بن الحكيم السلمي حين تكلم في الصلاة : « إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَذِكْرُ اللَّه »[(٢)] وعن زيد بن أرقم قال : كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبيّ ﷺ في الحاجة في الصلاة ، حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ فأمرنا بالسكوت[(٣)] . وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام في الصلاة كان بمكة قبل الهجرة إلى المدينة ، وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة ، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذي في الصحيح قال : كنا نسلم على النبيّ ﷺ قبل أن نهاجر إلى الحبشة ، وهو في الصلاة ، فيرد علينا ، قال : فلما قدمنا سلمت عليه فلم يرد عليّ ، فأخذني ما قرب وما بعد فلما سلم قال : « إِنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ فِي الصَّلاةِ ، وَإِنَّ اللَّه يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ ، وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لاَ تَكَلَّمُوا فِي الصَّلاةَ »[(٤)] وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديمًا وهاجر إلى الحبشة ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم ، فهاجر إلى المدينة . وهذه الآية ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ مدنية بلا خلاف ، فقال قائلون : إنما أراد زيد بن أرقم بقوله : كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة : الإخبار عن جنس الكلام ، واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها والله أعلم . وقال آخرون : إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها ، ويكون ذلك قد أبيح مرتين وحرم مرتين ، كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم ، والأول أظهر والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ لما أمر

---

(١) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة (١١٩٩) ومسلم في المساجد (٣٤) وأبو داود في السنن (٩٢٣) .
(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٤٤٨/٥) والبيهقي في السنن (٣٦٠/٢) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٩٤٩) والنسائي في السنن (١٨١/١) وأحمد في مسنده (٣٦٨/٤) .
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٥/١٠) وأبو عوانة في مسنده (١٣٩/٢) .

تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها وشدد الأمر بتأكيدها ، ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل ، وهي حال القتال والتحام الحرب فقال : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ أي فصلوا على أي حال رجالًا أو ركبانًا ، يعني مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، كما قال مالك عن نافع : أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ، ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالًا على أقدامهم ، أو ركبانًا مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها . قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلّا عن النبيّ ﷺ[١] ، عن ابن عمر قال : فإن كان خوف أشد من ذلك فصل راكبًا أو قائمًا تومئ إيماء . وعن جابر بن عبد اللَّه قال : إذا كانت المسايفة فليومئ برأسه إيماء حيث كان وجهه ، فذلك قوله : ﴿ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ . وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان ، وعن ابن عبّاس قال : فرض اللَّه الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعًا ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة[٢] . واختار هذا القول ابن جرير . وقال البخاري : (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو) وقال الأوزاعي : إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء ، كل امرئ لنفسه ، فإن لم يقدروا على الإيماء ؛ أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال ، ويأمنوا فيصلوا ركعتين ، فإن لم يقدروا ؛ صلوا ركعة وسجدتين ، فإن لم يقدروا ؛ لا يجزيهم التكبير ، ويؤخرونها حتى يأمنوا . وبه قال مكحول . وقال أنس بن مالك : حضرت مناهضة (حصن تستر) عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال ، فلم يقدروا على الصلاة ، فلم نصل إلّا بعد ارتفاع النهار ، فصليناها ونحن مع أبي موسى ففتح لنا . قال أنس : وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها[٣] . ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره ﷺ صلاة العصر يوم الخندق لعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس ، لقوله ﷺ بعد ذلك لأصحابه لما جهزهم إلى بني قريظة : « لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قريظَةَ » فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق فصلوا ، وقالوا : لم يرد منا رسول اللَّه ﷺ إلّا تعجيل السير ، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بني قريظة فلم يعنف واحدًا من الفريقين[٤] ، وهذا يدل على اختيار البخاري لهذا القول ، والجمهور على خلافه ، ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد بها القرآن في سورة النساء ، ووردت بها الأحايث لم تكن مشروعة في غزوة الخندق ، وإنما شرعت بعد ذلك ، وقد جاء مصرحًا بهذا في حديث أبي سعيدة وغيره . وأما مكحول والأوزاعي والبخاري فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك ؛ لأن هذا حال نادر خاص فيجوز فيه مثل ما قلنا ، بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر ، وقد اشتهر ولم ينكر واللَّه أعلم .

وقوله : ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ ﴾ أي أقيموا صلاتكم كما أمرتم ، فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها ﴿ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي مثل ما أنعم عليكم ، وهداكم للإيمان ، وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة ، فقابلوه بالشكر والذكر .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٥) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٤٧) .

(٣) أخرجه البخاري في صلاة الخوف (باب الصلاة عند مناهضة الحصون) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤١١٩) ومسلم في الجهاد (٦٩) والبيهقي في السنن (١١٩/١٠) .

عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال الأكثرون : هذه الآية منسوخة بالتي قبلها وهي قوله : ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ قال ابن الزبير : قلت لعثمان بن عفّان : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها . قال : يا ابن أخي لا أغير شيئًا منه من مكانه [1] . ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر ، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها ، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها ؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي ، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها ، فأثبتها حيث وجدتها . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها في الدار سنة ، فنسختها آية المواريث فجعل لها الثمن ، أو الربع مما ترك الزوج . ثم قال : وروي عن أبي موسى الأشعري وابن الزبير ومجاهد وإبراهيم وعطاء والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم أنها منسوخة . وروي عن ابن عبّاس قال : كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله ، ثم أنزل الله بعده : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ فهذه عدة المتوفى عنها زوجها ، إلّا أن تكون حاملًا فعدتها أن تضع ما في بطنها . وقال : ﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾ فبين ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة . قلت : وروي عن مقاتل وقتادة أنها منسوخة بآية الميراث . وعن مجاهد ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ قال : كانت هذه للمعتدة ، تعتد عند أهل زوجها واجب ، فأنزل الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ قال : جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية ، إن شاءت سكنت في وصيتها ، وإن شاءت خرجت ، وهو قول الله : ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فالعدة كما هي واجب عليها . قال ابن عبّاس : نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها ، فتعتد حيث شاءت ، وهو قول الله تعالى : ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ قال عطاء : إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها ، وإن شاءت خرجت لقول الله : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ ﴾ قال عطاء . ثم جاء الميراث فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت . ولا سكنى لها [2] ثم أسند البخاري عن ابن عبّاس مثل ما تقدم عنه بهذا القول الذي عول عليه مجاهد ، وعطاء من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور ، حتى يكون ذلك منسوخًا بالأربعة الأشهر وعشر ، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات أن يمكّنّ من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولًا كاملًا إن اخترن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم ﴾ أي يوصيكم الله بهن وصية ، وقيل : إنما انتصب على معنى فلتوصوا لهن وصية ، وقرأ آخرون بالرفع وصية على معنى كتب عليكم وصية ، واختارها ابن جرير ، ولا يمنعن من ذلك لقوله : ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر ، أو بوضع الحمل ، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل ، فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله : ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ وهذا القول له اتجاه ، وفي

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٤٤) .

اللفظ مساعدة له ، وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس ابن تيمية ، ورده آخرون منهم الشيخ أبو عمر ابن عبد البر . وقول عطاء ومن تابعه : على أن ذلك منسوخ بآية الميراث إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلَّم ، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب في تركة الميت ، فهذا محل خلاف بين الأئمة ، وهما قولان للشافعي رحمه الله . وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما روي أن الفريعة بنت مالك بن سنان ، وهي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة ، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا ، حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه ، قالت : فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة ، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ » قالت : فانصرفت حتى إذا كانت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بي فنوديت له ، فقال : « كَيفَ قُلْتِ ؟ » فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي فقال : « امْكثِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ » قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا ، قالت : فلما كان عثمان بن عفّان أرسل إلي فسألني عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به [1] .

وقوله : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ قال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم : لما نزل قوله تعالى : ﴿ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قال رجل : إن شئت أحسنت ففعلت ، وإن شئت لم أفعل فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة ، سواء كانت مفوضة ، أو مفروضًا لها ، أو مطلقة قبل المسيس ، أو مدخولًا بها ، وهو قول عن الشافعي رحمه الله ، وإليه ذهب سعيد بن جبير ، وغيره من السلف ، واختاره ابن جرير ، ومن لم يوجبها مطلقًا يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وأجاب الأولون بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم ، فلا تخصيص على المشهور المنصور والله أعلم .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي في إحلاله وتحريمه ، وفروضه وحدوده ، فيما أمركم به ونهاكم عنه ، بينه ووضّحه وفسره ، ولم يتركه مجملًا في وقت احتياجكم إليه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تفهمون وتتدبرون .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

روي عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف ، وعنه : كانوا ثمانية آلاف ، وقال أبو صالح : تسعة آلاف ، وقال عن ابن عباس : أربعون ألفًا ، وقال وهب بن منبه : كانوا بضعة وثلاثين ألفًا . وعن ابن عبّاس قال : كانوا أهل قرية يقال لها : ذاوردان . وقال سعيد بن عبد العزيز : كانوا من أهل أذرعات . وعن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسرغ ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فذكر الحديث ، فجاءه عبد الرَّحمن بن عوف وكان متغيبًا لبعض حاجته

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٤٣٤/٧) والدارمي في السنن (١٦٨/٢) وابن حبان في صحيحه (١٣٣٢) .

فقال : إن عندي من هذا علمًا ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدِمُوا عَلَيْهِ » فحمد الله عمر ثم انصرف (١) . وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبيّ ﷺ : « إِنَّ هَذَا السَّقَمَ عذب بِهِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوهَا ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا » قال : فرجع عمر من الشام (٢) .

وقوله : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ أي كما أن الحذر لا يغني من القدر ، وكذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلًا ولا يبعده ، بل الأجل المحتوم ، والرزق المقسوم ، مقدر مقنن ، لا يزاد فيه ولا ينقص منه . وروينا عن أمير الجيوش ، ومقدم العساكر ، وحامي حوزة الإسلام ، وسيف الله المسلول على أعدائه أبي سليمان خالد بن الوليد ﷺ أنه قال وهو في سياق الموت : لقد شهدت كذا وكذا موقفًا ، وما من عضو من أعضائي إلّا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة ، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء . يعني أنه يتألم لكونه ما مات قتيلًا في الحرب ، ويتأسف على ذلك ، ويتألم أن يموت على فراشه .

وقوله : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ ﴾ يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله ، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع ، وفي حديث النزول أنه يقول تعالى : « مَنْ يُقْرِضُ غَيرَ عَدِيمٍ وَلاَ ظَلُومٍ » (٣) وعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله وإن الله ﷻ ليريد منا القرض ؟ قال : « نَعَمْ يا أبا الدَّحْدَاحِ » قال : أرني يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده قال : فإني قد أقرضت ربي ﷻ حائطي ، قال : وحائط له فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها ، قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي ﷻ (٤) . وقوله : ﴿ قَرۡضًا حَسَنٗا ﴾ روى عمر وغيره من السلف هو النفقة في سبيل الله ، وقيل : هو النفقة على العيال ، وقيل : هو التسبيح والتقديس . وقوله : ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ ﴾ عن أبي عثمان النهدي قال : لم يكن أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني ، فقدم قبلي حاجًا ، قال : وقدمت بعده ، فإذا أهل البصرة يأثرون عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ الحَسَنَةَ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ » فقلت : ويحكم والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني ، فما سمعت هذا الحديث ، قال : فتحملت أريد أن ألحقه ، فوجدته قد انطلق حاجًا ، فانطلقت إلى الحج أن ألقاه في هذا الحديث ، فلقيته لهذا فقلت : يا أبا هريرة ما حديث سمعت أهل البصرة يأثرون عنك ؟ قال : ما هو ؟ قلت : زعموا أنك تقول : إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة ، قال : يا أبا عثمان وما تعجب من ذا والله يقول : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ ﴾ ويقول : ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ الحَسَنَةَ أَلْفَي أَلْفِ حَسَنَةٍ » (٥) . وعن

---

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٠٠) والبيهقي في السنن (٣/٣٧٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٩٣) . (٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣/٢) .

(٤) أخرجه البزار في مسنده (٩٤٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/١٤٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٩٦) .

ابن عمر قال : لما نزلت ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ إلى آخرها فقال رسول الله ﷺ : « رَبِّ زِدْ أُمَّتي » فنزلت : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ قال : « رَبِّ زِدْ أُمَّتي » فنزلت ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [(١)] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

قال قتادة : هذا النبي هو يوشع بن نون . وقال ابن جرير : يعني ابن أفرايم بن يوسف بن يعقوب ، وهذا القول بعيد ؛ لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل ، وكان ذلك في زمان داود عليه السلام كما هو مصرح به في القصة ، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة والله أعلم . وقال السدي : هو شمعون . وقال مجاهد : هو شمويل عليه السلام . وهو شمويل بن بالي بن علقمة بن ترخام بن اليهد بن بهرض بن علقمة بن ماجب بن عمرصا بن عزريا بن صفية بن علقمة بن أبي ياشف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام . وقال وهب بن منبه وغيره : كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان ، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويقيمهم على منهج التوراة ، إلى أن فعلوا ما فعلوا ، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا خلقًا كثيرًا ، وأخذوا منهم بلادًا كثيرة ، ولم يكن أحد يقاتلهم إلَّا غلبوه ، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان ، وكان ذلك موروثًا لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام ، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب ، وأخذ التوراة من أيديهم ، ولم يبق من يحفظها فيهم إلَّا القليل ، وانقطعت النبوة من أسباطهم ، ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلَّا امرأة حامل من بعلها وقد قتل ، فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلامًا يكون نبيًّا لهم ، ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلامًا ، فسمع الله لها ووهبها غلامًا فسمته شمويل ، أي سمع الله دعائي ، ومنهم من يقول : شمعون وهو بمعناه ، فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم ، وأنبته الله نباتًا حسنًا ، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه ، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده ، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا يقاتلون معه أعداءهم ، وكان الملك أيضًا قد باد فيهم ، فقال لهم النبي : فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكًا ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه ﴿ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي ما وفوا بما وعدوا ، بل نكل عن الجهاد أكثرهم ، والله عليم بهم [(٢)] .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٦٢٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٢/٣) .

(٢) هذا الأثر لم يرد به الكتاب أو السنة وأغلب الظن أنه من آثار بني إسرائيل .

يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

أي لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا منهم ، فعين لهم طالوت ، وكان رجلًا من أجنادهم ، ولم يكن من بيت الملك فيهم ؛ لأن الملك كان في سبط يهوذا ، ولم يكن هذا من ذلك السبط ، فلهذا قالوا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ أي كيف يكون ملكًا علينا ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ ﴾ أي هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك ، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء ، وقيل دباغًا ، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت ، وكان الأولى بهم طاعة ، وقول معروف ، ثم قد أجابهم النبي قائلًا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي اختاره لكم من نبيكم ، والله أعلم به منكم ، يقول : لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي ، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ ﴾ أي وهو مع هذا أعلم منكم ، وأنبل وأشكل منكم ، وأشد قوة وصبرًا في الحرب ومعرفة بها ، أي أتم علمًا وقامة منكم ، ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه ، ثم قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ ﴾ أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه ، ولهذا قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ ﴾ أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، لعلمه ، وحكمته ، ورأفته بخلقه ، ولهذا قال : ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي هو واسع الفضل ، يختص برحمته من يشاء ، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول لهم نبيهم : إن علامة بركة ملك طالوت عليكم ، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قيل : معناه فيه وقار وجلالة . وقال قتادة : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ ﴾ أي وقار . وقال الربيع : رحمة . وقال ابن جريج : سألت عطاء عن قوله : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قال : ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه .

وقوله : ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾ عن ابن عبّاس قال : عصاه ورضاض الألواح . وقال أبو صالح : يعني عصا موسى وعصا هارون ، ولوحين من التوراة والمن . وقال عطية ابن سعد : عصا موسى وعصا هارون وثياب موسى وثياب هارون ورضاض الألواح .

وقوله : ﴿ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ ﴾ قال ابن عبّاس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون ، وقال السدي : أصبح التابوت في دار طالوت فآمنوا بنبوة شمعون ، وأطاعوا طالوت . وقال الثوري عن بعض أشياخه : جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة ، وقيل : على بقرتين . وذكر غيره أن التابوت كان بأريحا ، وكان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير ، فأصبح التابوت على رأس الصنم ، فأنزلوه فوضعوه تحته فأصبح كذلك ، فسمروه تحته فأصبح الصنم مكسور القوائم ملقى بعيدًا ، فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به ، فأخرجوا التابوت من بلدهم ، فوضعوه في بعض القرى ، فأصاب أهلها داء في رقابهم ، فأمرتهم جارية

من سبي بني إسرائيل أن يردوه إلى بني إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء ، فحملوه على بقرتين ، فسارتا به لا يقربه أحد إلّا مات ، حتى اقتربتا من بلد بني إسرائيل فكسرتا النيرين ورجعتا ، وجاء بنو إسرائيل فأخذوه ، فقيل : إنه تسلمه داود عليه السلام ، وإنه لما قام إليهما خجل من فرحه بذلك ، وقيل : شابان منهم ، فالله أعلم ، وقيل : كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها : أزوده .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ ﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به من النبوة ، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي بالله واليوم الآخر .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ أي مختبركم بنهر . قال ابن عباس وغيره : وهو نهر بين الأردن وفلسطين ، يعني نهر الشريعة المشهور ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ أي فلا بأس عليه قال الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : من اغترف منه بيده روي ومن شرب منه لم يرو . وقال السدي : كان الجيش ثمانين ألفًا ، فشرب منه ستة وسبعون ألفًا ، وتبقى معه أربعة آلاف ، وعن البراء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمّد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة ، وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر ، وما جازه معه إلّا مؤمن(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوّهم لكثرتهم ، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق ، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عَدد ولا عُدد . ولهذا قالوا : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

أي لما واجه حزب الإيمان وهم قليل من أصحاب طالوت ، لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي أنزل علينا صبرًا من عندك ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ أي في لقاء الأعداء ، وجنبنا الفرار والعجز ﴿ وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ ﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده رماه به ، فأصابه فقتله ، وكان طالوت

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي(٣٩٥٩) .

قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ، ويشاطره نعمته ، ويشركه في أمره فوفى له ، ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوة بعد شمويل ﴿ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ أي مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به ﷺ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين ، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت ، وشجعه داود ، لهلكوا .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَيُصْلِحُ بِصَلَاحِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وَأَهْلَ دُوَيْرَتِهِ وَدُوَيْرَاتٍ حَوْلَهُ ، وَلاَ يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللَّهِ عز وجل مَا دَامَ فِيهِمْ » (١) . وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « الأَبْدَالُ فِي أُمَّتِي ثَلاثُونَ ، بِهِمْ تُرْزَقُونَ ، وَبِهِمْ تُمْطَرُونَ ، وَبِهِمْ تُنْصَرُونَ » (٢) قال قتادة : إني لأرجو أن يكون الحسن منهم .

وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي ذو منٍّ عليهم ورحمة بهم ، يدفع عنهم بعضهم ببعضٍ ، وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله .

ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق ، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم .

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه فضَّل بعض الرسل على بعض وقال : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ يعني موسى ومحمَّدًا ﷺ ، وكذلك آدم ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبيّ ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل .

فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت عن أبي هريرة قال : استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال اليهودي في قسم يقسمه : لا والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي فقال : أي خبيث ؟ وعلى محمّد ﷺ ؟ فجاء اليهودي إلى النبيّ ﷺ فاشتكى على المسلم ، فقال رسول الله ﷺ : « لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى الأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَأَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِقَائِمَةِ العَرْشِ ، فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطور ؟ فَلاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى الأَنْبِيَاءِ » (٣) فالجواب من وجوه أحدها : أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل ، وفي هذا نظر ، الثاني : أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع ، الثالث : أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر ، الرابع : لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية ، الخامس :

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/٣٢٠) والجامع الصغير (ص : ١١٢) ونسبه للطبراني في الكبير .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٢٢) والألباني في الضعيفة (٩٣٦) .
(٣) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١١) ومسلم في الفضائل (١٥٩) .

ليس مقام التفضيل إليكم ، وإنما هو إلى الله ﷻ ، وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به .

وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به ، من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ يعني أن الله أيّده بجبريل ؈ ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ أي كل ذلك عن قضاء الله وقدره ، ولهذا قال : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله سبيل الخير ، ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم ، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ أي لا يباع أحد من نفسه ، ولا يفادى بمال ولو بذله ، ولو جاء بملء الأرض ذهبًا ، ولا تنفعه خلة أحد يعني صداقته ، بل نسابته ﴿ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين .

وقوله : ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ مبتدأ محصور في خبره ، أي ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافرًا . وعن عطاء بن دينار قال : الحمد لله الذي قال : ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ولم يقل : والظالمون هم الكافرون .

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

هذه آية الكرسي ، ولها شأن عظيم ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله . عن أُبيّ بن كعب أن النبيّ ﷺ سأله : « أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ؟ » قال : الله ورسوله أعلم ، فرددها مرارًا ، ثم قال : آية الكرسي ، قال : « لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبا المُنْذِرِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لها لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ المَلِكَ عِنْدَ سَاقِ العَرْشِ » (١) .

عن عمر بن عطاء أو مولى ابن الأسقع رجل صدق ، عن الأسقع البكري أنه سمعه يقول : إن النبيّ ﷺ جاءهم في صفّة المهاجرين فسأله إنسان : أي آية في القرآن أعظم ؟ فقال النبيّ ﷺ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ حتى انقضت الآية (٢) .

عن أبي ذر ؓ قال : أتيت النبيّ ﷺ وهو في المسجد فجلست ، فقال : « يا أبا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ ؟ » قلت : لا ، قال : « قُمْ فَصَلِّ » قال : فقمت فصليت ثم جلست ، فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ » قال : قلت : يا رسول الله أو للإنس شياطين ؟ قال : « نَعَمْ » قال : قلت : يا رسول الله الصلاة ؟ قال : « خَيْرٌ مَوْضُوعٍ ، مَنْ شَاءَ أَقَلَّ ، وَمَنْ شَاءَ أَكْثَرَ » قال : قلت : يا رسول الله فالصوم ؟ قال : « فَرْضٌ مجزي وَعِنْدَ اللَّهِ مَزِيدٌ » قلت : يا رسول الله فالصدقة ؟ قال : « أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ » قلت :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٨/٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٠٣) والطبراني في الكبير (١٤٣/٩) والمنذري في الترغيب (٤١٩/١) .

يا رسول الله فأيها أفضل ؟ قال :« جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ ، أَوْسِرٌّ إلى فَقِير» قلت : يا رسول الله أي الأنبياء كان أول ؟ قال :« آدَمُ» قلت : يا رسول الله ونبي كانَ ؟ قال :« نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ» قلت : يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال :« ثَلاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا» وقال مرة :« وَخَمْسَةَ عَشَرَ» قلت : يا رسول الله أي ما أنزل عليك أعظم ؟ قال :« آيَةُ الكُرْسِيِّ» ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ (١)

وعن أبي هريرة قال : وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فإني محتاج وعليَّ عيالي ولي حاجة شديدة ، قال : فخليت عنه فأصبحت ، فقال النبيّ ﷺ :« يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ ؟» قال : قلت : يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالًا فرحمته وخليت سبيله ، قال :« أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ :« إِنَّهُ سَيَعُودُ» فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام فأخذته ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود ، فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ :« يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ ؟» قلت : يا رسول الله شكا حاجة وعيالًا فرحمته فخليت سبيله قال :« أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ» فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود ، فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت : وما هي ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ :« مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ ؟» قلت : يا رسول الله زعم أنه يعلّمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله ، قال :« مَا هِيَ ؟» قال لي : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال النبيّ ﷺ :« أَمَا إِنَّهُ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مِنْ ثَلاثِ لَيَالٍ يا أبا هُرَيْرَةَ ؟» قلت : لا ، قال :« ذَاكَ شَيْطَانٌ» (٢) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : خرج رجل من الإنس ، فلقيه رجل من الجن فقال : هل لك أن تصارعني ؟ فإن صرعتني علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان ، فصارعه فصرعه ، فقال : إني أراك ضئيلًا شخيتًا كأن ذراعيك ذارعا كلب ، أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم ، أم أنت من بينهم ؟ فقال : إني بينهم لضليع ، فعاودني ، فصارعه فصرعه الإنسي ، فقال : تقرأ آية الكرسي فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلّا خرج الشيطان وله خيخ كخيخ الحمار ، فقيل لابن مسعود : أهو عمر ؟ فقال : من عسى أن يكون إلّا عمر . قال أبو عبيد : الضئيل النحيف الجسم ، والخيخ بالخاء المعجمة ، ويقال بالحاء المهملة الضراط .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :« لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ وَسَنَامُ القُرْآنِ سُورَةُ البَقَرَةِ ، وَفِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ القُرْآنِ : آيَةُ الكُرْسِيِّ» (٣) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٩/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٨٠) وأحمد في مسنده (٤٢٣/٥) والبيهقي في السنن (١٩٣/٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٧٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٥/٧) .

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ، و ﴿ الم ۞ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ : « إِنَّ فِيهِمَا اسْمَ اللَّهِ الأَعْظَمُ » (١) .

وعن أبي أمامة يرفعه قال : « اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي ثَلاثٍ : سُورَةِ البَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَطه » وقال هشام : وهو ابن عمار خطيب دمشق : أما البقرة ف ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ وفي آل عمران ﴿ الم ۞ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ وفي طه : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ (٢) .

وقد ورد في فضلها أحاديث أُخر تركناها اختصارًا لعدم صحتها وضعف أسانيدها .

وَهَذِهِ الآيَةُ مُشتَمِلَةٌ عَلَى عَشرِ جُمَلٍ مُستَقِلة : فقوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ أي الحي في نفسه ، الذي لا يموت أبدًا ، القيم لغيره . وكان عمر يقرأ القيام ، فجميع الموجودات مفتقرة إليه ، وهو غني عنها ، ولا قوام لها بدون أمره ، وقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت ، شهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، ولا يخفى عليه خافية ، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سِنة ولا نوم فقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ ﴾ أي لا تغلبه سنة ، وهي الوسن والنعاس ، ولهذا قال ﴿ وَلَا نَوْمٌ ﴾ لأنه أقوى من السنة ، وعن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، حِجَابُهُ النُّورُ أَوِ النَّارُ ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبحاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » (٣) .

وقوله : ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إخبار بأن الجميع عبيده ، وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه .

وقوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه ﷻ ، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلّا بإذنه له في الشفاعة ، كما في حديث الشفاعة « آتِي تَحْتَ العَرْشِ فَأَخِرُّ سَاجِدًا ، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي ، ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ تُسْمَعْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، قال : فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلهُمُ الجَنَّةَ » (٤) .

وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء ، إلّا بما أعلمه الله ﷻ وأطلعه عليه . ويحتمل أن يكون المراد ، لا يطّلعون على شيء من علم ذاته وصفاته ، إلّا بما أطلعهم الله عليه كقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ عن ابن عبّاس قال : علمه . وقال ابن جرير : الكرسي موضع

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦١/٦) والترمذي في السنن (٣٤٧٨) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٠٥/١) والطبراني في الكبير (٢١٥/٨) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٤) وابن ماجه في السنن (١٩٥) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .
(٤) ذكره السيوطي في جمع الجوامع (١) .

القدمين . وعن ابن عبّاس : لو أن السموات السبع ، والأرضين السبع ، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ، ما كن في سعة الكرسي إلَّا بمنزلة الحلقة في المفازة . وعن أبي قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ » (١) . قال : وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَانِي فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ » (٢) .

وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الإسلاميين ، أن الكرسي عندهم هو الفلك الثامن ، وهو فلك الثوابت الذي فوقه الفلك التاسع ، وهو الفلك الأثير ، ويقال له الأطلس ، وقد ردَّ ذلك عليهم آخرون ، وروي عن الحسن البصري ، أنه كان يقول : الكرسي هو العرش ، والصحيح أن الكرسي غير العرش ، والعرش أكبر منه ، كما دلّت على ذلك الآثار والأخبار ، وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة عن عمر في ذلك ، وعندي في صحته نظر والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ أي لا يثقله ولا يكترثه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ، بل ذلك سهل عليه يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على جميع الأشياء ، فلا يعزب عنه شيء ، ولا يغيب عنه شيء ، والأشياء كلها حقيرة بين يديه ، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة فقيرة ، وهو الغني الحميد ، الفعّال لما يريد ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو القاهر لكل شيء ، الحسيب على كل شيء ، الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه ، فقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ كقوله : ﴿ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح أمروها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه .

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ أي لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام ، فإنه بين واضح ، جلي دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام ، وشرح صدره ، ونوّر بصيرته ، دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره ، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا ، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار ، وإن كان حكمها عامًّا . وعن ابن عبّاس قال : كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ وعنه قال : نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له : الحصيني كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو رجلًا مسلمًا ، فقال للنبي ﷺ : ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلَّا النصرانية ، فأنزل الله فيه ذلك . وعن أسبق قال : كنت في دينهم مملوكًا نصرانيًّا لعمر بن الخطاب ، فكان يعرض عليّ الإسلام فآبي فيقول : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ ويقول : يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين ، وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ، ومن دخل في دينهم قبل

(١ ، ٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٢٩٨) .

النسخ والتبديل ، إذا بذلوا الجزية . وقال آخرون : بل هي منسوخة بآية القتال ، وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام ، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ، ولم ينقد له أو يبذل الجزية ؛ قوتل حتى يقتل ، وهذا معنى الإكراه . وفي الصحيح : « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الجَنَّةِ فِي السَّلاَسِلِ » [١] يعني الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثاق ، والأغلال والقيود والأكبال ، ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم ، فيكونون من أهل الجنّة ، فأما الحديث الذي رواه أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « أَسْلِمْ » قال : إني أجدني كارهًا قال : « وَإِنْ كُنتَ كَارِهًا » [٢] فإنه ثلاثي صحيح ، ولكن ليس من هذا القبيل ، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام بل دعاه إليه ، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له ، بل هي كارهة ، فقال له : أسلم وإن كنت كارهًا ، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص .

وقوله : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ، ووحد الله فعبده وحده ، وشهد أن لا إله إلّا هو ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أي فقد ثبت في أمره ، واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم ، قال عمر ﷺ : إن الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان ، وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال ، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف ، ويفر الجبان من أمه ، وإن كرم الرجل دينه ، وحسبه خلقه ، وإن كان فارسيًا أو نبطيًا . ومعنى قوله في الطاغوت : إنه الشيطان قوي جدًا ، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها .

وقوله : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ ﴾ أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب ، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم ، هي في نفسها محكمة مبرمة قوية ، وربطها قوى شديد ولهذا قال : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ ﴾ قال مجاهد : العروة الوثقى يعني الإيمان ، وقال السدي : هو الإسلام ، وقال سعيد بن جبير والضحّاك : يعني لا إله إلا الله . وعن أنس بن مالك : القرآن . وعن سالم بن أبي الجعد قال : هو الحب في الله ، والبغض في الله ، وكل هذه الأقوال صحيحة ، ولا تنافي بينها . وقال معاذ بن جبل في قوله : ﴿ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ ﴾ دون دخول الجنة . وعن محمّد بن قيس بن عبادة قال : كنت في المسجد ، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع ، فصلى ركعتين أوجز فيهما ، فقال القوم : هذا رجل من أهل الجنة ، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله ، فدخلت معه ، فحدثته ، فلما استأنس قلت له : إن القوم لما دخلت المسجد قالوا : كذا وكذا ، قال : سبحان الله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم ، وسأحدثك لم : إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه : رأيت كأني في روضة خضراء – قال ابن عون فذكر خضرتها وسعتها – وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء ، وفي أعلاه عروة ، فقيل لي : اصعد عليه ، فقلت : لا أستطيع ، فجاءني منصف – قال ابن عون : هو الوصيف – فرفع ثيابي من خلفي فقال : اصعد ، فصعدت حتى أخذت العروة ، فقال : استمسك بالعروة ، فاستيقظت وإنها لفي يدي ، فأتيت

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٦/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٩/٣) .

رسول الله ﷺ فقصصتها عليه فقال : « أَمَّا الرَّوْضَةُ فَرَوْضَةُ الإِسْلَامِ ، وَأَمَّا العَمُودُ فَعَمُودُ الإِسْلَامِ ، وَأَمَّا العُرْوَةُ فَهِيَ العُرْوَةُ الوُثْقَى ، أَنْتَ عَلَى الإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ » قال : وهو عبد الله بن سلام [1] .

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام ، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب ، إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير . وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان ، يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ، ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ولهذا وحد تعالى لفظ النور ، وجمع الظلمات ؛ لأن الحق واحد ، والكفر أجناس كثيرة ، وكلها باطلة ، كما قال : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق ، وانتشار الباطل ، وتفرده وتشعبه .

عن أيوب بن خالد قال : يبعث أهل الأهواء - أو قال - أهل الفتن ، فمن كان هواه الإيمان كانت فتنته بيضاء مضيئة ، ومن كان هواه الكفر كانت فتنته سوداء مظلمة ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

هذا الذي حاجَّ إبراهيم في ربه هو ملك بابل نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ، ويقال : نمروذ بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، قال مجاهد : وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان بن داود ، وذو القرنين ، والكافران نمروذ وبختنصر . ومعنى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي بقلبك يا محمّد ﴿ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ أي وجود ربه ، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره ، كما قال بعده فرعون لملئه ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ ، والمعاندة الشديدة ، إلَّا تجبّره وطول مدته في الملك ، وذلك أنه يقال : إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه ، ولهذا قال : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ وكان طلب من إبراهيم دليلًا على وجود الرب الذي يدعو إليه ، فقال إبراهيم : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة ؛ لأنها لم تحدث بنفسها ، فلابد لها من موجد أوجدها ، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له . فعند ذلك قال المحاجّ وهو النمروذ : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل ، فآمر بقتل أحدهما فيقتل ، وآمر بالعفو عن الآخر ، فلا يقتل ، فذلك معنى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٢/٥) والحاكم في المستدرك (٣٩٤/٤) .

الإحياء والإماتة . والظاهر ، والله أعلم أنه ما أراد هذا ؛ لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم ، ولا في معناه ؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يَدعي لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة ، ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذي يحيي ويميت ، كما اقتدى به فرعون في قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي ، وتميت ، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته ، وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلهًا كما ادعيت ، فأت بها من المغرب ؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام ، بهت أي أخرس فلا يتكلم ، وقامت عليه الحجة . قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي لا يلهمهم حجة ولا برهانًا ، بل حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد . وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين ، أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني ، انتقل من دليل إلى أوضح منه ، ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه وليس كما قالوا ، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ، ويبين بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول والثاني ولله الحمد والمنة . وقد ذكر السدي ، أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمروذ بعد خروج إبراهيم من النار ، ولم يكن اجتمع بالملك إلَّا في ذلك اليوم ، فجرت بينهما هذه المناظرة .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

اختلفوا في هذا المار من هو ؟ فروي عن علي بن أبي طالب أنه قال : هو عزير ، وهذا القول هو المشهور . وقال عبد الله بن عبيد : هو إرميا بن حلقيا ، وقال وهب بن منبه : هو اسم الخضر عليه السلام . وقال مجاهد بن جبر : هو رجل من بني إسرائيل [١] ، وأما القرية ، فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ أي ليس فيها أحدًا ، من قولهم : خوت الدار تخوي خويًا .

وقوله : ﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها ، فوقف متفكرًا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها ، وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ قال : وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته ، وتكامل ساكنوها ، وتراجع بنو إسرائيل إليها ، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه ، فلما استقل سويًا ﴿ قَالَ ﴾ الله له أي بواسطة الملك : ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قال : وذلك أنه مات أول النهار ، ثم بعثه في آخر النهار ، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم ، فقال : ﴿ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ وذلك أنه كان معه

---

(١) كل ما قيل عن هذا الرجل لم يثبت والمرجح أنه من أخبار بني إسرائيل .

فيما ذكر عنب ، وتين ، وعصير ، فوجده كما تقدم لم يتغير منه شيء ، لا العصير استحال ، ولا التين حمض ولا أنتن ، ولا العنب نقص ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ أي كيف يحييه الله ﷻ وأنت تنظر ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي دليلًا على المعاد ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ أي نرفعها ، فيركب بعضها على بعض . وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ بالزاي ، ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقرئ ﴿ نُنشِرُهَا ﴾ أي نحييها [1] قاله مجاهد : ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ وقال السدي وغيره : تفرقت عظام حماره حوله يمينًا ويسارًا ، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها ، فبعث الله ريحًا ، فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حمارًا قائمًا من عظام لا لحم عليها ، ثم كساها الله لحمًا ، وعصبًا ، وعروقًا ، وجلدًا ، وبعث الله ملكًا ، فنفخ في منخري الحمار ، فنهق بإذن الله ﷻ ، وذلك كله بمرأى من العزير ، فعند ذلك لما تبيَّن له هذا كله ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي أنا عالم بهذا ، وقد رأيته عيانًا ، فأنا أعلم أهل زماني بذلك ، وقرأ آخرون : ﴿ قَالَ أَعْلَمْ ﴾ على أنه أمر له بالعلم .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسبابًا منها : أنه لما قال لنمرود : ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ فأما الحديث الذي رواه أبو سلمة قال : قال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ؛ إِذْ قَالَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ : أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » [2] ، فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف .

وقوله : ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي ، وإن كان لا طائل تحت تعيينها ؛ إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن . وقوله : ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أي وقطعهن ، وقال ابن عباس : أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءًا ، ثم أمره الله ﷻ أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله ﷻ ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ، حتى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعيًا ، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها ، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته . ولهذا قال : ﴿ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء ، ولا يمتنع من شيء ، وما شاء كان بلا ممانع ؛ لأنه القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . وعن سعيد بن المسيب قال : اتفق عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا قال : ونحن شببة - فقال أحدهما لصاحبه : أي آية في كتاب الله أرجى عندك لهذه الأمة ؟

---

(١) قرأ ابن عامر والكوفيون (ننشزها) بالزاي المنقوطة والباقون بالراء (انظر : تقريب النشر ص ٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٧) وأحمد في مسنده (٣٤٦/٢) وابن ماجه في السنن (٤٠٢٦) .

فقال عبد اللّه بن عمرو : قول اللّه تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ الآية . فقال ابن عبّاس : أما إن كنت تقول هذا ، فأنا أقول أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ .

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

هذا مثل ضربه اللّه تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، فقال : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يعني في طاعة اللّه . وقال مكحول : يعني به الإنفاق في الجهاد ، من رباط الخيل ، وإعداد السلاح ، وغير ذلك ، وقال ابن عباس : الجهاد والحج يضعّف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة ، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها اللّه ﷻ لأصحابها ، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة ، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف . وعن عياض بن غطيف قال : دخلنا على أبي عبيدة نعوده من شكوى أصابه بجنبه ، وامرأته تُحيْفَة قاعدة عند رأسه ، قلنا : كيف بات أبو عبيدة ؟ قالت : واللّه لقد بات بأجر ، قال أبو عبيدة : ما بت بأجر ، وكان مقبلًا بوجهه على الحائط فأقبل على القوم بوجهه ، وقال : لا تسألوني عما قلت ؟ قالوا : ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه ، قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فِي سَبِيلِ اللّه فَسَبْعُمِائَةٍ ، وَمَنْ أَنْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ أَوْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ أَمَاطَ أَذىً فَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ ما لَمْ يَخْرِقْهَا ، وَمَنِ ابْتَلاهُ اللّه عَزَّ وَجَلَّ بِبَلاءٍ فِي جَسَدِهِ ؛ فَهُوَ لَهُ حِطَّةٌ » (١) .

وعن ابن مسعود أن رجلًا تصدّق بناقة مخطومة في سبيل اللّه ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لَتَأْتِيَنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ بِسَبْعِمَائَةِ مَخْطُومَةٍ » (٢) .

وعن عبد اللّه بن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِنَّ اللّه جَعَلَ حَسَنَةَ ابْنِ آدَمَ إِلَى عَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، إِلَّا الصَّوْمَ ، وَالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ ، فَرْحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ ، وَفَرْحَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَلَخَلُوفِ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللّه مِنْ رِيحِ المِسْكِ » (٣) .

وعن عمران بن حصين عن رسول اللّه ﷺ قال : « مَنْ أَرْسَلَ بِنَفَقَةٍ فِي سَبِيلِ اللّه وَأَقَامَ فِي بَيْتِهِ ؛ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ دِرْهَمٍ يَوْمَ القِيَامَةِ . وَمَنْ غَزَا فِي سَبِيلِ اللّه ، وَأَنْفَقَ فِي جِهَةِ ذَلِكَ ؛ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ » ثم تلا هذه الآية ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (٤) .

وقوله ههنا : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أي بحسب إخلاصه في عمله ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٦/١) والبيهقي في السنن (٣٧٤/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢١/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٩/٣) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٧٦١) والمنذري في الترغيب (٢٥٣/٢) .

فضله واسع كثير أكثر من خلقه ، عليم بمن يستحق ومن لم يستحق ، سبحانه وبحمده .

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منًّا على من أعطوه ، فلا يمنون به على أحد ، ولا يمنون به لا بقول ولا فعل .

وقوله : ﴿ وَلَآ أَذًى ﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهًا يحبطون به ما سلف من الإحسان ، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك فقال : ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي على ما خلفوه من الأولاد ، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها ، لا يأسفون عليها لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أي من كلمة طيبة ، ودعاء لمسلم ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أي عفو وغفر عن ظلم قولي أو فعلي ﴿ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ قال ابن فضيل : قرأت على معقل بن عبد الله عن عمرو بن دينار قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ صَدَقَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ قَوْلٍ مَعْرُوفٍ ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن خلقه ﴿ حَلِيمٌ ﴾ » (١) أي يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم ، وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المنّ في الصدقة ، فعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : المَنَّانُ بِمَا أَعْطَى ، وَالمُسْبِلُ إِزَارَهُ ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ » (٢) . عن أبي الدرداء عن النبيّ ﷺ قال : « لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَاقٌّ ، وَلاَ مَنَّانٌ ، وَلا مُدْمِنُ خَمْرٍ ، وَلاَ مُكَذِّبٌ بِقَدَرٍ » (٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المنّ والأذى ، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المنّ والأذى ، ثم قال تعالى : ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس ، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله ، وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ، ليشكر بين الناس ، أو يقال : إنه كريم ، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية ، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى ، وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ .

ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه ، والذي يتبع نفقته منًّا أو أذىً فقال : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (١٦٣٢٥) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/١٤٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧٢١٢) ومسلم في الإيمان (١٧١) والترمذي في السنن (١٢١١) وأحمد في مسنده (٢/٤٨٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٠٣) والألباني في الصحيحة (٦٧٣) .

صَفْوَانٍ ﴾ وهو جمع صفواتة فمنهم من يقول : الصفوان يستعمل مفردًا أيضًا وهو الصفا ، وهو الصخر الأملس ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ﴾ وهو المطر الشديد ﴿ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلدًا ، أي أملس يابسًا ، أي لا شيء عليه من ذلك التراب ، بل قد ذهب كله ، أي وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله ، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ، ولهذا قال : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم في ذلك ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي وهم متحققون ومتثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ، ونظير هذا في معنى الحديث : «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا » أي يؤمن أن الله شرَّعه ويحتسب عند الله ثوابه . قال الشعبي : ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي تصديقًا ويقينًا .

وقوله : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ أي كمثل بستان بربوة ، وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض ، وزاد ابن عباس والضحاك : وتجري فيه الأنهار . قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ : وفي الربوة ثلاث لغات هن ثلاث قراءات ، بضم الراء وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق ، وفتحها وهي قراءة بعض أهل الشام والكوفة ويقال : إنها لغة تميم ، وكسر الراء ويذكر أنها قراءة ابن عباس [1] .

وقوله : ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ وهو المطر الشديد كما تقدم فآتت ﴿ أُكُلَهَا ﴾ أي ثمرتها ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ وهو الرذاذ ، وهو اللين من المطر ، أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبدًا ؛ لأنها إن لم يصبها وابل فطل ، وأيًا ما كان فهو كفايتها ، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدًا ، بل يتقبله الله ويكثره وينميه كل عامل بحسبه ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء .

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

عن عبيد بن عمير قال : قال عمر بن الخطاب يومًا لأصحاب النبي ﷺ : فيمن ترون هذه الآية نزلت : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ ؟ قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر ، فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عبّاس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : ضربت مثلًا بعمل ، قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عبّاس : لرجل غني يعمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله [2] . وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية ، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولًا ، ثم بعد ذلك

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم (رَبْوَة) بفتح الراء هنا وفي سورة المؤمنون ، والباقون بضمها (انظر : تقريب النشر ص : ٩٨) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٨) .

انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياذًا بالله من ذلك ، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح ، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال فلم يحصل منه شيء ، وخانه أحوج ما كان إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ ﴾ وهو الريح الشديد ﴿ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ أي أحرق ثمارها وأباد أشجارها ، فأي حال يكون حاله ، وعن ابن عبّاس قال : ضرب الله مثلًا حسنًا وكل أمثاله حسن قال : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ يقول : صنعه في شيبته ﴿ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره ، فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه ، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله ، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه ، وكذلك الكافر يكون يوم القيامة إذا رُدَّ إلى الله ﷻ ليس له خير فيستعتب ، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه ، ولا يجده قدم لنفسه خيرًا يعود عليه ، كما لم يغن عن هذا ولده وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه ، كما حرم هذا جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته . وهكذا روي أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ عِنْدَ كِبَرِ سِنِّي وَانْقِضَاءِ عُمْرِي » [(١)] ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني ، وتنزلونها على المراد منها .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق ، والمراد به الصدقة ههنا ، من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها . قال مجاهد : يعني التجارة بتيسيره إياها لهم . وقال علي والسدي : يعني الذهب والفضة ، ومن الثمار والزروع التي أنبتها لهم من الأرض . قال ابن عبّاس : أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ، ونهاهم عن التصدّق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه ، فإن الله طيب لا يقبل إلّا طيبًا ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ ﴾ أي تقصدوا الخبيث ﴿ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ ﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه إلّا أن تتغاضوا فيه ، فالله أغنى عنه منكم ، فلا تجعلوا لله ما تكرهون . وقيل معناه ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ لا تعدلوا عن المال الحلال ، وتقصدوا إلى الحرام ، فتجعلوا نفقتكم منه . ويذكر ههنا الحديث عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاَقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ ، وَلاَ يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ، وَلاَ يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » قالوا : وما بوائقه يا نبيَّ الله ؟ قال : « غِشُّهُ وَظُلْمُهُ ، ولا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالاً مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ ، وَلاَ يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ ، وَلاَ يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ ، إِنَّ اللهَ لا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنْ يَمْحُو

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٤٢/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٢/١٠) .

السَّيِّئَ بِالحَسَنِ ، إِنَّ الخَبِيثَ لاَ يَمْحُو الخَبِيثَ »[١] والصحيح القول الأول . وعن البراء بن عازب ﷺ في قول الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ الآية قال : نزلت في الأنصار ، كان الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ ، فيأكل فقراء المهاجرين منه ، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أفناء البسر يظن أن ذلك جائز ، فأنزل الله فيمن فعل ذلك ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ .

وعن سهل بن حنيف أن رسول الله ﷺ نهى عن لونين من التمر الجعرور ، والحبيق ، وكان الناس يتيممون شرار ثمارهم ثم يخرجونها في الصدقة ، فنزلت ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾[٢] . وعن عبد الله بن مغفل في هذه الآية ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ قال : كسب المسلم لا يكون خبيثًا ، ولكن لا يصَّدق بالحشف والدرهم الزيف وما لا خير فيه . وعن عائشة قالت : أُتي رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه ، قلت : يا رسول الله نطعمه المساكين قال : « لاَ تُطْعِمُوهُم مِمَّا لاَ تَأْكُلُون » فقلت : يا رسول الله ألا أطعمه المساكين ؟ قال : « لاَ تُطْعِمُوهُمْ مِمَّا لاَ تَأْكُلُونَ »[٣] وعن البراء ﴿ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ يقول : لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه ؟ . وقال ابن عبّاس : لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه . قال : فذلك قوله : ﴿ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم ، وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه ؟

وقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها ، وما ذاك إلّا أن يساوي الغني الفقير ، وهو غني عن جميع خلقه ، وجميع خلقه فقراء إليه ، وهو واسع الفضل لا ينفد ما لديه ، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب ، فليعلم أن الله غني واسع العطاء كريم جواد ، وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافًا كثيرة ، من يقرض غير عديم ولا ظلوم ، وهو الحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، لا إله إلّا هو ولا رب سواه .

وقوله : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً ، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ : فَإِيعادٌ بِالشَّرِّ ، وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ : فَإِيعادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ ؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ » ثم قرأ ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ الآية[٤] . ومعنى قوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ أي مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق ، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والحاكم في المستدرك (٤٤٧/٢) .

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (١٣١/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٣/٦) والبيهقي في السنن (٣٢٥/٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٣/٣) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٨٨) .

الخلاق ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ ﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿ وَفَضْلًا ﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ عن ابن عبّاس : يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله . وروي عن ابن عبّاس مرفوعًا : «الحِكْمَةُ القُرآنُ » يعني تفسيره ، قال ابن عبّاس : فإنه قد قرأه البر والفاجر . وعن مجاهد يعني بالحكمة الإصابة في القول . وعنه : ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن . وقال أبو العالية : الحكمة خشية اللّه ، فإن خشية اللّه رأس كل حكمة . وعن ابن مسعود مرفوعًا : «رَأْسُ الحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللّه » (١) . وقال إبراهيم النخعي : الحكمة الفهم . وقال أبو مالك : الحكمة السنّة . قال مالك : وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين اللّه ، وأمر يدخله اللّه في القلوب من رحمته وفضله ، ومما يبيّن ذلك أنك تجد الرجل عاقلًا في أمر الدنيا إذا نظر فيها ، وتجد آخر ضعيفًا في أمر دنياه عالمًا بأمر دينه بصيرًا به ، يؤتيه اللّه إياه ويحرمه هذا ، فالحكمة الفقه في دين اللّه . وقال السدي : الحكمة النبوة . والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة ، بل هي أعم منها وأعلاها النبوة ، والرسالة أخص ، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع ، كما جاء في بعض الأحاديث . فعن ابن مسعود قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « لاَ حَسَدَ إلّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُل آتاهُ اللّه مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ ، وَرَجُل آتاهُ اللّه حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا » (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلّا من له لب وعقل ، يعي به الخطاب ومعنى الكلام .

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات ، من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده ، وتوعد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره فقال : ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أي يوم القيامة ، ينقذونهم من عذاب اللّه ونقمته .

وقوله : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي .

وقوله : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فيه دلالة على إن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها ؛ لأنه أبعد عن الرياء ، إلّا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة ، من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية . وقال رسول اللّه ﷺ : «الجَاهِرُ بِالقُرْآنِ كَالجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ ، وَالمُسِرُّ بِالقُرْآنِ كَالمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ » (٣) والأصل : أن الإسرار أفضل ؛ لهذه الآية لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال

---

(١) هذا من الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس وهو حديث ضعيف ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٣٥٢) والهندي في كنز العمال (٥٨٧٣).
(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٩) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٦٨) وابن ماجه في السنن (٤٢٠٨) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنة (١٣٣٣) والترمذي في السنن (٢٩١٩) وأحمد في مسنده (٤/١٥١) والحاكم في المستدرك (١/٥٥٥).

رسول الله ﷺ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّه : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ »(١) وعن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ ، فَخَلَقَ الجِبَالَ فَأَلْقَاهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ ، فَتَعَجَّبَتِ المَلاَئِكَةُ مِنْ خَلْقِ الجِبَالِ فَقَالَتْ : يَا رَبُّ هَلْ من خَلْقِكَ شَيءٌ أَشَدُّ مِنَ الجِبَالِ ؟ قَالَ : نَعَمْ الحَدِيدُ ، قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيءٌ أَشَدُّ مِنَ الحَدِيدِ ؟ قال : نعم النار قالت : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : نَعَمْ المَاءُ ، قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَل مِنْ خَلْقِكَ شَيءٌ أَشَدُّ مِنَ المَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ الرِّيحُ قَالَتْ : يَا رَبُّ ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ ؟ قَالَ : نَعَم ابْنُ آدَمَ يَتَصَدَّقُ بِيَمِينِهِ فَيُخْفِيهَا مِنْ شِمَالِهِ »(٢) وعن عامر الشعبي في قوله : ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال : أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبيّ ﷺ ، فقال له النبيّ ﷺ : « ما خَلَّفتَ وَرَاءَكَ لِأَهْلِكَ يَا عُمَرُ ؟ » قال : خلفت لهم نصف مالي ، وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه ، حتى دفعه إلى النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ : « مَا خَلَّفْتَ وَرَاءَكَ لِأَهْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ » فقال : عدة الله وعدة رسوله ، فبكى عمر رضي الله عنه وقال : بأبي أنت وأمي يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلّا كنت سابقًا . وعن ابن عبّاس في تفسير هذه الآية قال : جعل الله صدقة السر في التطوّع تفضل علانيتها ، يقال : بسبعين ضعفًا ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال : بخمسة وعشرين ضعفًا .

وقوله : ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي بدل الصدقات ، ولا سيما إذا كانت سرًّا ، يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ، ويكفّر عنكم السيئات . وقد قرئ ﴿ويكفرْ﴾ بالجزم عطفًا على محل جواب الشرط(٣) وهو قوله : ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ كقوله : ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ ، وقوله : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزيكم عليه .

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين ، فسألوا فرخص لهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ وعن ابن عباس

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة(١٤٢٣) ومسلم في الزكاة(٩١) والترمذي في السنن(٢٣٩١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(١٢٤/٣) والترمذي في السنن(٣٣٦٩) .

(٣) قرأ ابن عامر وحفص(يكفر) بالياء والباقون بالنون ، وقرأ المدنيان وحمزة والكسائي وخلف بالجزم والباقون بالرفع(انظر : تقريب النشر ص: ٩٨) .

عن النبيّ ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلَّا على أهل الإسلام ، حتى نزلت هذه الآية ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ إلى آخرها ، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين .

وقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ كقوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ ونظائرها في القرآن كثيرة .

وقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ قال الحسن البصري : نفقة المؤمن لنفسه ، ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلَّا ابتغاء وجه الله . وقال عطاء الخراساني : يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله . وهذا معنى حسن ، وحاصله أن المتصدِّق إذا تصدَّق ابتغاء وجه الله ؛ فقد وقع أجره على الله ، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب لبرّ أو فاجر ، أو مستحق أو غيره ، وهو مثاب على قصده ، ومستند هذا تمام الآية ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ رَجُلٌ : لأَتَصدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ : تُصُدِّقَ عَلَى زَانِيَةٍ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ ، لأَتَصدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ : تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى غَنِيٍّ قَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى غَنِيٍّ ، لأَتَصدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ : تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ وَعَلَى سَارِقٍ ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ : أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعْفِفَ بِهَا عَنِ زِنَاهَا ، وَلَعَلَّ الغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّه ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ أَنْ يَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ » (1) .

وقوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يعني المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله ، وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني سفرًا للتسبب في طلب المعاش ، والضرب في الأرض هو السفر قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ .

وقوله : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم .

وقوله : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم ، وفي الحديث الذي في السنن : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّه » ثم قرأ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (2) .

وقوله : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أي لا يلحون في المسألة ، ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه ، فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسألة فقد ألحف في المسألة . فعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، إِنَّمَا المِسْكِينُ المُتَعَفِّفُ اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ » (3) . وعن رجل من مزينة أنه قالت له أمه : ألا تنطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس ، فانطلقت أسأله فوجدته قائمًا يخطب وهو يقول : « وَمَنِ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ اللَّه ، وَمَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّه ، وَمَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ وَلَهُ عِدْلُ خَمْسِ أَوَاقٍ فَقَدْ سَأَلَ النَّاسَ

---

(1) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢١) ومسلم في الزكاة (٧٨) وأحمد في مسنده (٣٢٢/٢) .

(2) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٢٧) والعجلوني في كشف الخفاء (٤٢/١) .

(3) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٩) ومسلم في الزكاة (١٠٢) وأحمد في مسنده (٢٦٠/٢) .

إِلْحَافًا » فقلت بيني وبين نفسي لناقة : لهي خير من خمس أواق ، ولغلامه ناقة أخرى فهي خير من خمس أواق ، فرجعت ولم أسأل(١) . قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةُ أُوقِيَّةٍ فَهُو مُلْحِفٌ » (٢) والأوقية أربعون درهمًا .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ خُدُوشًا أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ » قالوا : يا رسول الله وما غناه ؟ قال : « خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ حِسَابُهَا مِنَ الذَّهَبِ » (٣) . قوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه ، وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته ، في جميع الأوقات من ليل أو نهار ، والأحوال من سر وجهر ، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضًا ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضًا عام الفتح ، وفي رواية عام حجة الوداع « وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا ازْدَدْتَ بِهَا دَرَجَةً وَرِفْعَةً ، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ » (٤) ، وعن أبي مسعود رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً » (٥) وعن ابن عبّاس في هذه الآية قال : هم الذين يعلفون الخيل في سبيل الله ، وعن ابن جبير عن أبيه : كان لعلي أربعة دراهم فأنفق درهمًا ليلًا ، ودرهمًا نهارًا ، ودرهمًا سرًّا ، ودرهمًا علانية ، فنزلت ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ وعن ابن عبّاس أنها نزلت في علي بن أبي طالب . وقوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي يوم القيامة على ما فعلوه من الإنفاق في الطاعات ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات ، المخرجين الزكوات ، المتفضلين بالبر والصدقات ، لذوي الحاجات والقربات ، في جميع الأحوال والأوقات ، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات ، وأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه ، وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قيامًا منكرًا . وقال ابن عبّاس : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونًا يخنق . وقيل : لا يقومون يوم القيامة . وعن عبد الله بن مسعود أنه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٨/٤) والنسائي في السنن (٩٨/٥) والدارقطني (١١٨/٢) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٤/٧) وابن حبان في صحيحه (٨٤٦) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٤٠) وأحمد في مسنده (٤٤١/١) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢١١٦) وأحمد في مسنده (١٧٩/١) .
(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (٤٨) وأحمد في مسنده (١٢٢/٤) .

كان يقرأ ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ يوم القيامة . وعن ابن عبّاس قال : يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب وقرأ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ وذلك حين يقوم من قبره ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ بُطُونُهُمْ كَالبُيُوتِ فِيهَا الحَيَّاتُ تَجْرِي مِنْ خَارِجِ بُطُونِهِمْ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلاءِ يا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هؤُلاءِ أَكَلَةُ الرِّبا » (١) .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أي إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه ، وليس هذا قياسًا منهم للربا على البيع ؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن ، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا : إنما الربا مثل البيع ، وإنما قالوا : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أي هو نظيره ، فلم حرم هذا وأبيح هذا ؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع ، أي هذا مثل هذا ، وقد أحل هذا وحرم هذا .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردًّا عليهم ، أي ما قالوه من الاعتراض ، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكمًا ، وهو العليم الحكيم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها ، وما ينفع عباده فيبيحه لهم ، وما يضرهم فينهاهم عنه ، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل . ولهذا قال : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة ؛ لقوله : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ وكما قال النبيّ ﷺ يوم فتح مكة : « وَكُلُّ رِبًا في الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَا العَبَّاسِ » (٢) ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية ، بل عفا عما سلف ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ قال سعيد بن جبير والسدي : فله ما سلف ما كان أكل من الربا قبل التحريم . وعن أم يونس بنت أبقع أن عائشة زوج النبيّ ﷺ قالت لها أم بحنة أم ولد زيد بن أرقم : يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم ؟ قالت : نعم ، قالت : فإني بعته عبدًا إلى العطاء بثمانمائة ، فاحتاج إلى ثمنه فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة ، فقالت : بئس ما شريت وبئس ما اشتريت ، أبلغي زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب ، قالت : فقلت : أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة ؟ قالت : نعم ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ وهذا الأثر مشهور ، وهو دليل لمن حرم مسألة العينة مع ما جاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة في كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ أي إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهي الله عنه فقد استوجب العقوبة ، وقامت عليه الحجة ولهذا قال : ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ . عن جابر قال : لما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَذَرِ المُخَابَرَةَ فَلْيُؤْذَنْ بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ » (٣) وإنما حرمت المخابرة وهي المزارعة

---

(١) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٣٨٧) .

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٦/٣٠٦) والألباني في الصحيحة (٣٠) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٢٨٦) والبيهقي في السنن (٦/١٢٨) والألباني في الضعيفة (٩٩٠) .

بيعض ما يخرج من الأرض ، والمزابنة وهي اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض ، والمحاقلة وهي اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض ، إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسمًا لمادة الربا ؛ لأنه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف . ولهذا قال الفقهاء : الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة ، ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا ، والوسائل الموصلة إليه ، وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب اللَّه لكل منهم من العلم .

وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم ، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : ثلاث وددت أن رسول اللَّه ﷺ عهد إلينا فيهن عهدًا ننتهي إليه : الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا - يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا - والشريعة شاهدة بأن كل حرام ، فالوسيلة إليه مثله ؛ لأن ما أفضى إلى الحرام حرام ، كما أن ما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب . وعن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ ، وَالحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ ؛ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ ؛ وَقَعَ فِي الحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ » [١] وعن الحسن بن علي ﷺ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يُرِيبُكَ » [٢] . وفي الحديث الآخر « الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي القَلْبِ ، وَتَرَدَّدَتْ فِيهِ النَّفْسُ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » [٣] . وعن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا عمر بن الخطاب ﷺ فقال : إني لعلي أنهاكم عن أشياء تصلح لكم ، وآمركم بأشياء لا تصلح لكم ، وإن من آخر القرآن نزولًا آية الربا ، وإنه قد مات رسول اللَّه ﷺ ولم يبينه لنا ، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم . وعن عبد اللَّه بن مسعود عن النبيّ ﷺ قال : « الرِّبَا ثَلاَثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا أيسرها أن ينكح الرجل أمه ، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم » [٤] . وعن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَأْكُلُونَ فِيهِ الرِّبَا » قال : قيل له : الناس كلهم ؟ قال : « مَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ مِنْهُمْ نَالَهُ مِنْ غُبَارِهِ » [٥] .

ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات . وعن عائشة قالت : لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول اللَّه ﷺ إلى المسجد فقرأهن فحرم التجارة في الخمر [٦] . قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة : لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضي إليه من تجارة ونحو ذلك ، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه « لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَّلُوهَا فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا » [٧] وقد تقدم في حديث علي وابن مسعود وغيرهما عند لعن المحلِّل في تفسير قوله : ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ قوله ﷺ : « لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا ، وَمُوكِلَهُ ، وَشَاهِدَيْهِ ، وَكَاتِبَهُ » [٨] قالوا : وما يشهد عليه ويكتب إلَّا إذا أظهر في صورة عقد شرعي ، ويكون داخله فاسدًا ، فالاعتبار بمعناه لا بصورته ؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٥١) ومسلم في المساقاة (١٠٧) وأحمد في مسنده (٤/٢٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٨) وأحمد في مسنده (٣/١٥٣) والحاكم في المستدرك (٤/٩٩).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٢٨).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٧) وابن ماجه في السنن (٢٢٧٥).

(٥) أخرجه البيهقي في السنن (٥/٢٧٥).

(٦) أخرجه النسائي في السنن (٧/٣٠٨).

(٧) أخرجه مسلم في المساقاة (٧٢) وابن ماجه في السنن (٣٣٨٣).

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٠٢) والطبراني في الكبير (٢/١٨٤).

الأعمال بالنيّات . وفي الصحيح : « إِنَّ اللَّه لا يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ »[١] وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية كتابًا في إبطال التحليل تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل ، وقد كفى في ذلك وشفى فرحمه الله ورضي عنه .

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يمحق الربا أي يذهبه ، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به ، بل يعدمه به في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة ، قال ابن جرير في قوله : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ : وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قلّ[٢] . عن فروخ مولى عثمان أن عمر - وهو يومئذٍ أمير المؤمنين - خرج من المسجد فرأى طعامًا منشورًا فقال : ما هذا الطعام ؟ فقالوا : طعام جلب إلينا ، قال : بارك الله فيه وفيمن جلبه ، قيل : يا أمير المؤمنين إنه قد احتكر ، قال : من احتكره ؟ قالوا : فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر ، فأرسل إليهما فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين ؟ قالا : يا أمير المؤمنين نشتري بأموالنا ونبيع ، فقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنِ احْتَكَرَ عَلَى المُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ضَرَبَهُ اللَّه بِالإِفْلاَسِ أو الجُذَامِ » فقال فروخ عند ذلك : أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود في طعام أبدًا ، وأما مولى عمر فقال : إنما نشتري بأموالنا ونبيع . قال أبو يحيى : فلقد رأيت مولى عمر مجذومًا[٣] .

وقوله : ﴿ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ ﴾ قرئ بضم الياء ، والتخفيف من ربا الشيء يربو وأرباه يربيه ، أي كثّره ونمّاه وينميه . وقرئ يربي بالضم والتشديد من التربية . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِن كَسْبٍ طَيِّب ، وَلاَ يَقْبَل اللَّه إِلَّا الطَّيِّب ؛ فَإِنَّ اللَّه يَتَقَبَّلَهَا بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدكُمْ فلوَهُ حَتَّى يَكُون مِثْلَ الجَبَلِ »[٤]

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ أي لا يحب كفور القلب ، أثيم القول والفعل ، ولابد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة ، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال ، ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح ، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة ، فهو جحود لما عليه من النعمة ، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل .

ثم قال تعالى مادحًا للمؤمنين بربهم ، المطيعين أمره ، المؤدين شكره ، المحسنين إلى خلقه ، في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، مخبرًا عما أعد لهم من الكرامة ، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٣) وابن ماجه في السنن (٤١٤٣) وأحمد في مسنده (٥٣٩/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٩/١) . (٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢١٥٥) وأحمد في مسنده (٢١/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣١/٢) والبيهقي في السنن (١٧٧/٤) .

﴿ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه ، ناهيًا لهم عما يقرِّبهم إلى سخطه ، ويبعدهم عن رضاه ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ أي اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال بعد هذا الإنذار ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي بما شرع اللَّه لكم من تحليل البيع وتحريم الربا ، وغير ذلك . وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدي أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف وبني المغيرة من بني مخزوم كان بينهم ربًا في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذ منهم ، فتشاوروا وقالت بنو المغيرة : لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول اللَّه ﷺ فنزلت هذه الآية . فكتب بها رسول اللَّه ﷺ إليه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فقالوا : نتوب إلى اللَّه ونذر ما بقي من الربا ، فتركوه كلهم وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار . قال ابن عبّاس : ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ ﴾ أي استيقنوا بحرب من اللَّه ورسوله . وعن ابن عبّاس قال : يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب ثم قرأ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وقال : فمن كان مقيمًا على الربا لا ينزع عنه ، كان حقًّا على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع وإلَّا ضرب عنقه . وعن الحسن وابن سيرين أنهما قالا : واللَّه إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا ، وإنهم قد أذنوا بحرب من اللَّه ورسوله ، ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم . فإن تابوا وإلَّا وضع فيهم السلاح . وقال قتادة : أوعدهم اللَّه بالقتل كما يسمعون ، وجعلهم بهرجًا أين ما أتوا ، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا ، فإن اللَّه قد أوسع الحلال وأطابه ، فلا يلجئنكم إلى معصيته فاقة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ ﴾ أي بأخذ الزيادة ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ أي بوضع رءوس الأموال أيضًا ، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه .
وعن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال : خطب رسول اللَّه ﷺ في حجة الوداع فقال : « أَلاَ إِنَّ كُلَّ رِبًا كان في الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ عَنْكُمْ كُلُّهُ ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ، وَأَوَّلُ رِبًا مَوْضُوعٌ رِبَا العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ » (١) .

وقوله : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء فقال : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حلَّ عليه الدين : إما أن تقضي ، وإما أن تربي . ثم يندب إلى الوضع عنه ، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين . وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبيّ بذلك :

عن أبي أمامة أسعد بن زرارة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُظِلَّهُ اللَّه يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ فَلْيُيَسِّرْ عَلَى مُعْسِرٍ أَوْ لِيَضَعْ عَنْهُ » (٢) .

وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : سمعت النبيّ ﷺ يقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ؛ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ

(١) أخرجه الدارمي في السنن (٢٤٦/٢) . (٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٣/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤/٤) .

مِثْلُهُ صَدَقَةٌ » قال : ثم سمعته يقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلاهُ صَدَقَةٌ » قلت : سمعتك يا رسول الله تقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ » ثم سمعتك تقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلاهُ صَدَقَةٌ » قال : « لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظِرْهُ ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مثلاهُ صَدَقَةٌ » (١) .

وعن محمّد بن كعب القرظي أن أبا قتادة كان له دين على رجل ، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه ، فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله فقال : نعم ، هو في البيت يأكل خزيرة ، فناداه فقال : يا فلان اخرج فقد أخبرت أنك ها هنا ، فخرج إليه ، فقال : ما يغيبك عني ؟ فقال : إني معسر وليس عندي شيء ، قال : آللّه إنك معسر ؟ قال : نعم ، فبكى أبو قتادة ثم قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « مَنْ نَفَّسَ عَنْ غَرِيمِهِ ، أَوْ مَحَا عَنْهُ ؛ كَانَ فِي ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٢) .

وعن سهل بن حينف أن رسول اللّه ﷺ قال : « مَنْ أَعَانَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللّه ، أَوْ غَازِيًا ، أَوْ غَارِمًا فِي عُسْرَتِهِ ، أَوْ مُكَاتَبًا فِي رَقَبَتِهِ ؛ أَظَلَّهُ اللّه فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » (٣) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ تُسْتَجَابَ دَعْوَتُهُ ، وَأَنْ تُكْشَفَ كُرْبَتُهُ ، فَلْيُفَرِّجْ عَنْ مُعْسِرٍ » (٤) .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ فَأَخَّرَهُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ » (٥) .

وعن عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا ، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول اللّه ﷺ ومعه غلام له معه ضمامة من صحف ، وعلى أبي اليسر بردة ومعافري ، وعلى غلامه بردة ومعافري ، فقال له أبي : يا عم إني أرى في وجهك سفعة من غضب ؟ قال : أجل ، كان لي على فلان ابن فلان الرامي مال ، فأتيت أهله فسلمت فقلت : أثم هو ؟ قالوا : لا ، فخرج علي ابن له جفر ، فقلت : أين أبوك ؟ فقال : سمع صوتك فدخل أريكة أمي ، فقلت : اخرج إلي فقد علمت أين أنت ، فخرج ، فقلت : ما حملك على أن اختبأت مني ؟ قال : أنا واللّه أحدثك ثم لا أكذبك ، خشيت واللّه أن أحدثك فأكذبك أو أعدك فأخلفك ، وكنت صاحب رسول اللّه ﷺ وكنت واللّه معسرًا ، قال : قلت : آللّه ؟ قال : آللّه . ثم قال : فأتى بصحيفته فمحاها بيده ، ثم قال : فإن وجدت قضاء فاقضني وإلّا فأنت في حل ، فأشهد أبصر عيناي هاتان - ووضع إصبعيه على عينيه - وسمع أذناي هاتان ، ووعاه قلبي - وأشار إلى نياط قلبه - رسول اللّه ﷺ وهو يقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ ؛ أَظَلَّهُ اللّه فِي ظِلِّهِ » (٦) .

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها ، وإتيان الآخرة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٠/٥) والحاكم في المستدرك (٢٩/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٨/٥) والدارمي في السنن (٢٦٢/٢) والبغوي في شرح السنة (١٩٩/٨) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢١٧/٢) وأحمد في مسنده (٤٨٧/٣) والطبراني في الكبير (١٠٥/٦) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣/٢) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٣/٤) .
(٦) أخرجه مسلم في الزهد (٧٤) وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) والترمذي في السنن (١٣٠٦) .

والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ، ويحذرهم عقوبته فقال : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم . فعن سعيد بن جبير قال : آخر ما نزل من القرآن كله ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وعاش النبيّ ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ، ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول ، وعن ابن عبّاس قال : آخر آية نزلت ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فكان بين نزولها وموت النبيّ ﷺ واحد وثلاثون يومًا . قال ابن جريج : يقولون إن النبيّ ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبدئ يوم السبت ، ومات يوم الاثنين .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم ، فعن ابن عبّاس أنه قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدَمُ ؛ أَنَّ اللَّه لَمَّا خَلَقَ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا هُوَ ذَارٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ يَعْرِضُ ذُرِّيَّتَهُ عَلَيْهِ ، فَرَأى فِيهِمْ رَجُلاً يَزْهُو فَقَالَ : أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هُوَ ابْنُكَ دَاوُدَ ، قال : أَيْ رَبِّ كَمْ عُمْرُهُ ، قَالَ : سِتُّونَ عَامًا ، قَالَ : رَبِّ زِدْ فِي عُمْرِهِ ، قَالَ : لا إِلَّا أَنْ أَزِيدَهُ مِنْ عُمْرِكَ ، وَكَانَ عُمْرُ آدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ فَزَادَهُ أَرْبَعِينَ عَامًا ، فَكَتَبَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ كِتَابًا وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ المَلائِكَةَ ، فَلَمَّا احْتُضِرَ آدَمُ وَأَتَتْهُ المَلائِكَةُ قَالَ : إِنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ عَامًا ، فَكَتَبَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ كِتَابًا وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ المَلائِكَةَ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّكَ قَدْ وَهَبْتَهَا لابْنِكَ دَاوُدَ ، قَالَ : مَا فَعَلْتُ ، فَأَبْرَزَ اللَّه عَلَيْهِ الكِتَابَ وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ المَلائِكَةَ » (١) .

قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ ﴾ هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها ، وأضبط للشاهد فيها ، وقد نبّه على هذا في آخر الآية حيث قال : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾ وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ ﴾ قال : أنزلت في السلم إلى أجل معلوم . وعنه قال : أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه ، ثم قرأ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وعنه أيضًا قال : قدم النبيّ ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين والثلاث ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧١/١) والبيهقي في السنن (١٤٦/١٠) والطبراني في الكبير (٢١٤/١٨) .

أَسْلَفَ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ » (١) .

وقوله : ﴿ فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾ أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ ، فإن قيل : فقد ثبت في الصحيحين عن عبد اللّٰه بن عمر قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ » (٢) فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة ؟ فالجواب أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلًا ؛ لأن كتاب اللّٰه قد سهَّل اللّٰه ويسَّر حفظه على الناس ، والسنن أيضًا محفوظة عن رسول اللّٰه ﷺ والذي أمر اللّٰه بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس ، فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب ، كما ذهب إليه بعضهم . قال ابن جريج : من ادَّان فليكتب ، ومن ابتاع فليشهد . وقال قتادة : ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشي كان رجلًا صحب كعبًا ، فقال ذات يوم لأصحابه : هل تعلمون مظلومًا دعا ربه فلم يستجب له ؟ فقالوا : وكيف يكون ذلك ؟ قال : رجل باع بيعًا إلى أجل فلم يُشْهد ولم يكتب ، فلما حل ماله جحده صاحبه ، فدعا ربه فلم يستجب له ؛ لأنه قد عصى ربه . وقال أبو سعيد والشعبي والربيع بن أنس والحسن وابن جريج وابن زيد وغيرهم : كان ذلك واجبًا ثم نسخ بقوله : ﴿ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ والدليل على ذلك أيضًا الحديث الذي حكي عن شرع من قبلنا مقررًا في شرعنا ولم ينكر عدم الكتابة والإشهاد ، عن أبي هريرة عن رسول اللّٰه ﷺ : أنه ذكر أن رجلًا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتني بشهداء أشهدهم ؟ قال : كفى باللّٰه شهيدًا ، قال : ائتني بكفيل ، قال : كفى باللّٰه كفيلًا ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمًّى ، فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبًا يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركبًا ، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها البحر ، ثم قال : اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلانًا ألف دينار فسألني كفيلًا فقلت : كفى باللّٰه كفيلًا فرضي بذلك ، وسألني شهيدًا فقلت : كفى باللّٰه شهيدًا فرضي بذلك ، وإني قد جهدت أن أجد مركبًا أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركبًا ، وإني استودعتكها ، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركبًا إلى بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبًا تجيؤه بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطبًا ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة ، ثم قَدِم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار ، وقال : واللّٰه ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إلي بشيء ؟ قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل هذا الذي جئت فيه ؟ قال : فإن اللّٰه قد أدَّى عنك الذي بعثت به في الخشبة ، فانصرف بألفك راشدًا (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ أي بالقسط والحق ، ولا يجر في كتابته على أحد ، ولا يكتب إلَّا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان ، وقوله : ﴿ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ ﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ، ولا ضرورة عليه في ذلك ، فكما علَّمه اللّٰه ما لم يكن يعلم ، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة ، وليكتب . وفي

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (١٢٧) والنسائي في السنن (٧/ ٢٩٠) والترمذي في السنن (١٣١١) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١٥) وأبو داود في السنن (٢٣١٩) والنسائي في السنن (٥/ ١٣٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٤٨) والبيهقي في السنن (٦/ ٧٦) .

الحديث : « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ »[(١)] ، وقال مجاهد وعطاء : واجب على الكاتب أن يكتب . وقوله : ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين ، وليتق الله في ذلك ﴿ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ أي لا يكتم منه شيئًا ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ محجورًا عليه بتبذيره ونحوه ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ أي صغيرًا أو مجنونًا ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ أمر بالاستشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال ، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة . وعن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الاِسْتِغْفَارَ ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ » فقالت امرأة منهن جزلة : وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : « تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ » قالت : يا رسول الله ما نقصان العقل والدين ؟ قال : « أَمَّا نُقْصَانُ عَقْلِهَا : فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ فَهَذَا نُقْصَانُ العَقْلِ ، وَتَمْكُثُ اللَّيَالِيَ لا تُصَلِّي ، وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ ؛ فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ »[(٢)] .

وقوله : ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود ، وهذا مقيد ، حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط ، وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلًا مرضيًّا . وقوله : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا ﴾ يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد ، وبهذا قرأ آخرون ، ﴿ فَتُذَكِّرَ ﴾ بالتشديد من التذكار ، ومن قال : إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد ، والصحيح الأول والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾ قيل : معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة . ومن ههنا استفيد أن تحمّل الشهادة فرض كفاية ، وهو مذهب الجمهور ، والمراد بقوله : ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾ للأداء لحقيقة . قوله : ﴿ ٱلشُّهَدَآءُ ﴾ والشاهد حقيقة فيمن تحمل فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت ، وإلَّا فهو فرض كفاية . وقال مجاهد وأبو مجلز وغير واحد : إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار ، وإذا شهدت فدعيت فأجب . وعن زيد بن خالد أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا »[(٣)] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ هذا من تمام الإرشاد ، وهو الأمر بكتابة الحق صغيرًا كان أو كبيرًا ، فقال : ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ ﴾ أي لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان ، من القلة والكثرة إلى أجله .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الحيض (٣٠٤) ومسلم في الإيمان (١٣٢) والترمذي في السنن (٢٦١٣) وأحمد في مسنده (٢/٦٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الأقضية (١٩) والترمذي في السنن (٢٢٩٥) والبيهقي في (١٠/١٥٦) .

للحق إذا كان مؤجلًا ، هو أقسط عند الله ، أي أعدل ﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ ﴾ أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ، ثم رآه تذكر به الشهادة ، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أنِ ينساه كما هو الواقع غالبًا ﴿ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾ وأقرب إلى عدم الريبة ، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه ، فيفصل بينكم بلا ريبة .

وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ أي إذا كان البيع بالحاضر يدًا بيد ، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها .

فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ عن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ يعني أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل ، أو لم يكن فيه أجل ، فأشهدوا على حقكم على كل حال . وقال الشعبي والحسن : هذا الأمر منسوخ بقوله : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب ، لا على الوجوب ، والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري أن النبيَّ ﷺ ابتاع فرسًا من أعرابي ، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه ، فأسرع النبيُّ ﷺ وأبطأ الأعرابي ، فطفق رجال يعترضون الأعرابي ، فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبيَّ ﷺ ابتاعه ، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبيُّ ﷺ ، فنادى الأعرابي النبيَّ ﷺ فقال : إن كنت مبتاعًا هذا الفرس فابتعه ، وإلّا بعته ، فقام النبيُّ ﷺ حين سمع نداء الأعرابي قال : « أَوَلَيْسَ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ ؟ » قال الأعرابي : لا والله ما بعتك ، فقال النبيُّ ﷺ : « بَلْ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ » فطفق الناس يلوذون بالنبيِّ ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان ، فطفق الأعرابي يقول : هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك ، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي : ويلك إن النبيَّ ﷺ لم يكن يقول إلّا حقًّا ، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبيِّ ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول : هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك ، قال خزيمة : أنا أشهد أنك قد بايعته ، فأقبل النبيُّ ﷺ على خزيمة فقال : « بِمَ تَشْهَدُ ؟ » فقال : بتصديقك يا رسول الله ، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين [(١)] . وعن أبي موسى عن النبيِّ ﷺ قال : « ثَلَاثَةٌ يَدْعُونَ اللهَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ : رَجُلٌ لَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا ، وَرَجُلٌ دَفَعَ مَالَ يَتِيمٍ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ ، وَرَجُلٌ أَقْرَضَ رَجُلًا مالًا فَلَمْ يُشْهِدْ » [(٢)] .

وقوله : ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ قيل : معناه لا يضارَّ الكاتب ولا الشاهد ، فيكتب هذا خلاف ما يملى ، ويشهد هذا بخلاف ما سمع ، أو يكتمها بالكلية . وقيل : معناه لا يضر بهما . وعن ابن عبّاس في هذه الآية : ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ قال : يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة فيقولان : إنا على حاجة ، فيقول : إنكما قد أمرتما أن تجيبا ، فليس له أن يضارَّهما . وقوله : ﴿ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ﴾ أي إن خالفتم ما أمرتم به ، أو فعلتم ما نهيتم عنه ، فإنه فسق كائن بكم ، أي لازم لكم ، لا تحيدون عنه ، ولا تنفكون عنه ، وقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ كقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها ، فلا يخفى

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٣٠٢/٧) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٠٢/٢) والبيهقي في السنن (١٤٦/١٠) والألباني في الصحيحة (١٨٠٥) .

عليه شيء من الأشياء ، بل علمه محيط بجميع الكائنات .

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أي مسافرين ، وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا ﴾ يكتب لكم . قال ابن عبّاس : أو وجدوه ولم يجدوا قرطاسًا أو دواة أو قلمًا ﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ أي فليكن بدل الكتاب رهان مقبوضة ، أي في يد صاحب الحق . وقد استدل بقوله : ﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ على أن الرهن لا يلزم إلّا بالقبض ، كما هو مذهب الشافعي والجمهور ، واستدل بها آخرون على أنه لابد أن يكون الرهن مقبوضًا في يد المرتهن ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، وذهب إليه طائفة ، واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعًا إلّا في السفر ، وقد ثبت عن أنس : أن رسول اللّه ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقًا من شعير ، رهنها قوتًا لأهله [1] .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ عن أبي سعيد الخدري أنه قال : هذه نسخت ما قبلها . وقال الشعبي : إذا ائتمن بعضكم بعضًا فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا وقوله : ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ يعني المؤتمن ، كما جاء عن سمرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « عَلَى اليَدِ مَا أَخَذَتْ حَتَّى تُؤَدِّيَهُ » [2] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ﴾ أي لا تخفوا وتغلوها ولا تظهروها . قال ابن عبّاس وغيره : شهادة الزور من أكبر الكبائر ، وكتمانها كذلك ، ولهذا قال : ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ قال السدي : يعني فاجر قلبه ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن ، وأنه المطلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر ، وإن دقت وخفيت ، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال : ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ والآيات في ذلك كثيرة جدًا ، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك ، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة ﷺ وخافوا منها ، ومن محاسبة اللّه لهم على جليل الأعمال وحقيرها ، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم . وعن أبي هريرة قال : لما نزلت على رسول اللّه ﷺ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول اللّه ﷺ ، فأتوا رسول اللّه ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا : يا رسول اللّه ! كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول اللّه ﷺ : « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ » فلما أقرّ بها القوم ، وذلّت بها ألسنتهم ، أنزل اللّه في

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٦٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢/٥) ، وأبو داود في السنن (٣٥٦١) والترمذي في السنن (١٢٦٦) .

أثرها : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل قوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (١) .

وعن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ أحسبه ابن عمر ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ قال نسختها الآية التي بعدها . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَكَلَّمْ أَوْ تَعْمَلْ » (٢) .

وعن أبي هريرة عن محمّد رسول الله ﷺ قال : « قَالَ اللَّه : إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ ، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا » (٣) . وقال رسول الله ﷺ : « قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : رَبِّ وَذَاكَ أَنَّ عَبْدَكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً – وَهوَ أَبْصَرُ بِهِ – فَقَالَ : ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا ، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، وَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ » . وقال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُ إِسْلَامَهُ فَإِنَّ لَهُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا ، حَتَّى يَلْقَى اللَّه ﷻ» (٤) وعن ابن عبّاس عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى قال : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّه عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّه عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ . وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّه عِنْدَهُ حَسَنَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّه عِنْدَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » (٥) . وعن أبي هريرة قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال : « وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » قالوا : نعم ، قال : « ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ » (٦) .

وعن ابن عبّاس ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فإنها لم تنسخ ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول : إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي ، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم ، وهو قوله : ﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ يقول : يخبركم ، وأما أهل الشك والريب : فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب ، وهو قوله : ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ وهو قوله : ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ أي من الشك والنفاق . وعن الحسن البصري أنه قال : هي محكمة لم تنسخ ، واختار ابن جرير ذلك ، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة ، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر ، وقد يحاسب ويعاقب ، بالحديث الذي رواه عند هذه الآية عن صفوان ابن محرز قال : بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال : يا ابن عمر ، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَدْنُو

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٩) وأحمد في مسنده (٤١٢/٢) .
(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (١٧١/٤) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٥/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٥) وأحمد في مسنده (٣١٧/٢) .
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٨) وأحمد في مسنده (٣٦٠/١) .
(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٩) .

المُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ ﷻ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَه ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ، فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ تَعْرِفُ كَذَا ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ أَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بِهِ مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يَبْلُغَ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ ، قَالَ : فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ - أَوْ كِتَابِهِ - بِيَمِينِهِ . وَأَمَّا الكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ : فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الأَشْهَادِ ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ »[1] . وعن زيد قال : سألت عائشة عن هذه الآية ﴿ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ فقالت : ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول اللَّه ﷺ عنها ، فقالت : هذه مبايعة اللَّه العبد ، وما يصيبه من الحمى والنكبة والبضاعة يضعها في يد كمه فيفتقدها ، فيفزع لها ، ثم يجدها في ضبنه حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير .

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ .

ذِكْر الأَحَادِيثِ الوَارِدَة فِي فَضْل هَاتَيْن الآيتين الكَرِيمَتين نَفَعَنَا اللَّه بِهِمَا

عن ابن مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَن قرأ بالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ »[2] .

وعن أبي ذر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ العَرْشِ لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي »[3] .

وعن عبد اللَّه قال : لما أسري برسول اللَّه ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة ، إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال : ﴿ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴾ قال : فراش من ذهب ، قال : وأعطي رسول اللَّه ﷺ ثلاثًا : أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك باللَّه من أمته شيئًا المقحمات[4] .

وعن عقبة بن عامر الجهني قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « اقرأ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فَإِنِّي أُعْطِيتُهُمَا مِنْ كَنزٍ تَحْتَ العَرْشِ »[5] .

وعن حذيفة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلاثٍ : أُوتِيتُ هَذِهِ الآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كَنْزٍ تَحْتَ العَرْشِ ، لَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ قَبْلِي ، وَلاَ يُعْطَاهَا أَحَدٌ بَعْدِي »[6] .

وعن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية على النبيّ ﷺ ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٥/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٩) والبيهقي في السنن (٢١/٣) وابن خزيمة في صحيحه (١١٤١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٠/٥) والطبراني في الكبير (١٨٨/٣) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٢٢٣/١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٧/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٢/٦) .

(٦) أخرجه البيهقي في السنن (٢٣٣/١) .

رَبِّهِۦ﴾ قال النبيّ ﷺ : « حقّ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ » (١) .

وقوله : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ ﴾ عطف على الرسول ، ثم أخبر عن الجميع فقال : ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ، ولا رب سواه . ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء ، على عباد الله المرسلين والأنبياء ، لا يفرّقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديُّون هادون إلى سبيل الخير ، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله ، حتى نسخ الجميع بشرع محمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذي تقوم الساعة على شريعته ، ولا تزال طائفة من أمّته على الحق ظاهرين ، وقوله : ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ ﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه ، وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ سؤال للمغفرة والرحمة واللطف . وعن ابن عبّاس في قول الله : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ ﴾ إلى قوله ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ قال : قد غفرت لكم ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب . وعن جابر قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ قال جبريل : إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك ، فسل تعطه . فسأل ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ ﴾ إلى آخر الآية .

وقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ ﴾ أي لا يكلف أحدًا فوق طاقته ، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ، ورأفته بهم ، وإحسانه إليهم ، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ أي هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذّب إلّا بما يملك الشخص دفعه ، فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها فهذا لا يكلف به الإنسان . وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان . وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ أي من خير ﴿ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ ﴾ أي من شر ، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف .

ثم قال تعالى مرشدًا عباده إلى سؤاله وقد تكفل لهم بالإجابة ، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ ﴾ أي إن تركنا فرضًا على جهة النسيان ، أو فعلنا حرامًا كذلك ، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلًا منا بوجهه الشرعي . وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللّٰهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ ، وَالنِّسْيَانَ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ » (٢) .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ ﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها ، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم ، التي بعثت نبيك محمّدًا ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به ، من الدين الحنيفي السهل السمح ، وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » (٣) .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ ﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء ، لا تبتلنا بما لا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٨٧/٢) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٠٤٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٥) .

قبل لنا به ، وقد قال مكحول في قوله : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ : العزبة والغلمة .

وقوله : ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا ﴾ أي فيما بيننا وبينك ، مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ أي فيما بيننا وبين عبادك ، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة ﴿ وَٱرْحَمْنَآ ﴾ أي فيما يستقبل ، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر . ولهذا قالوا : إن المذهب محتاج إلى ثلاثة أشياء : أن يعفو اللَّه عنه فيما بينه وبينه ، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم ، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره .

وقوله : ﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾ أي أنت ولينا وناصرنا ، وعليك توكلنا ، وأنت المستعان ، وعليك التكلان ، ولا حول لنا ولا قوة إلّا بك ﴿ فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي الذين جحدوا دينك ، وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك ، وعبدوا غيرك ، وأشركوا معك من عبادك ، فانصرنا عليهم ، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة « قَالَ اللَّه : نَعَمْ » . وعن أبي إسحاق أن معاذًا ﷺ كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿ فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ قال : آمين [١] .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢١٨/٣) .

سورة آل عمران

وآياتها مائتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ .

تقدم الكلام على قوله : ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ في تفسير آية الكرسي .

وقوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني نزّل عليك القرآن يا محمّد بالحق ، أي لا شك فيه ولا ريب ، بل هو منزل من عند الله ، أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدًا . وقوله : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والأنبياء ، فهي تصدقه بما أخبرت به وبشرت في قديم الزمان ، وهو يصدقها لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمّد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه . وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ ﴾ أي على موسى بن عمران ﴿ وَالْإِنجِيلَ ﴾ أي على عيسى ابن مريم عليه السلام ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي في زمانهما ﴿ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والغي والرشاد ، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبينات والدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات ، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك . وقال الربيع بن أنس : الفرقان هٰهنا القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي منيع الجناب ، عظيم السلطان ﴿ ذُو انتِقَامٍ ﴾ أي ممن كذب بآياته ، وخالف رسله الكرام ، وأنبياءه العظام .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ۝ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء والأرض ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء ، من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقي وسعيد ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي هو الذي خلق ، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له ، وله العزّة التي لا ترام ، والحكمة والأحكام ، وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر ، لأن الله صوّره في الرحم ، وخلقه كما يشاء ، فكيف يكون إلهًا كما زعمته النصارى عليهم لعائن الله ! وقد تقلّب في الأحشاء وتنقّل من حال إلى حال .

﴿ هُوَ الَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ۝ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ

جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب ، أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد . ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه ، وحكّم محكمه على متشابهه عنده ، فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس . ولهذا قال تعالى : ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ ﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئًا آخر من حيث اللفظ والتركيب ، لا من حيث المراد . وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه ، فروي عن السلف عبارات كثيرة : فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما المحكمات ناسخة ، وحلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه ، وما يؤثر به ويعمل به . وعن ابن عبّاس أيضًا أنه قال : المحكمات قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ ﴾ والآيات بعدها . وقوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ إلى ثلاث آيات بعدها . روي أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا في هذه الآية ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ ﴾ فقال أبو فاختة : فواتح السور . وقال يحيى بن يعمر : الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام . وعن سعيد بن جبير : ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ لأنهن مكتوبات في جميع الكتب . وقال مقاتل بن حيان : لأنه ليس من أهل دين إلّا يرضى بهن . وقيل في المتشابهات : المنسوخة ، والمقدم والمؤخر ، والأمثال فيه ، والأقسام ، وما يؤمن به ولا يعمل به . وقيل : هي الحروف المقطعة في أوائل السور . وعن مجاهد : المتشابهات يصدق بعضها بعضًا ، وهذا إنما هو في تفسير قوله : ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ هناك ذكروا أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد ، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنّة وصفة النار ، وذكر حال الأبرار وحال الفجّار ، ونحو ذلك . وأما ها هنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم ، وأحسن ما قيل فيه هو الذي قدمنا ، وهو الذي نص عليه محمّد بن إسحاق بن يسار رحمه الله حيث قال : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ فهن حجة الرب ، وعصمة العباد ، ودفع الخصوم الباطل ، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه . قال : والمتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى اللّه فيهن العباد ، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ، ألا يصرفن إلى الباطل ، ولا يحرفن عن الحق .

ولهذا قال اللّه تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه . فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ؛ لأنه دافع لهم ، وحجة عليهم . ولهذا قال اللّه تعالى : ﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ أي الإضلال لأتباعهم ، إيهامًا لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وتركوا الاحتجاج بقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ وبقوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات اللّه ، وعبد ورسول من رسل اللّه .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ ﴾ أي تحريفه على ما يريدون . وقال السدي : يبتغون أن يعلموا ما يكون ، وما عواقب الأشياء من القرآن . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قرأ رسول اللّه ﷺ ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ

عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ فقال : « إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ ، فَهُمُ الَّذِينَ عَنَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ » (١) وعن أبي أمامة يحدِّث عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ قال : « هُمُ الْخَوَارِجُ » وفي قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ قال : « هُمُ الْخَوَارِجُ » (٢) . وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفًا من كلام الصحابي ، ومعناه صحيح ، فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج ، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا ، حين قسم النبيُّ ﷺ غنائم حنين ، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ، ففاجأوه بهذه المقالة ، فقال قائلهم - وهو ذو الخويصرة بقر اللَّه خاصرته - اعدل فإنك لم تعدل ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « لَقَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ ، إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ ، أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَلاَ تَأْمَنُونِي ؟ » فلما قفا الرجل ، استأذن عمر بن الخطاب ، في قتله فقال : « دَعْهُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِيءِ هَذا أَيْ مِنْ جِنْسِهِ قَوْمٌ يحقرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، فَأَيْنَما لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ » (٣) . ثم كان ظهورهم أيام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وقتلهم بالنهروان ، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة ، ثم انبعثت القدرية ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية ، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله : « وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » قالوا : وما هم يا رسول اللَّه ؟ قال : « مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ اختلف القرّاء في الوقف ههنا ، فقيل على الجلالة كما تقدم عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء : فتفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلَّا اللَّه . وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسولَ اللَّه ﷺ يقول : « لاَ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا ثَلاَثَ خِلاَلٍ : أَنْ يكثرَ لَهُمُ المَالَ فَيَتَحَاسَدُوا فَيَقْتَتِلُوا ، وَأَنْ يُفْتَحَ لَهُمُ الكِتَابُ فَيَأْخُذَهُ المُؤْمِنُ يَبْتَغِي تَأْوِيلَهُ ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ الآية . وَأَنْ يَزْدَادَ عِلْمُهُمْ فَيُضَيِّعُوهُ وَلاَ يَسْأَلُونَ عَنْهُ » (٥) . عن ابن العاص عن رسول اللَّه ﷺ قال : « إِنَّ القُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِيُكَذِّبَ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَآمِنُوا بِهِ » (٦) . وعن طاوس قال : كان ابن عبّاس يقرأ وما يعلم تأويله إلَّا اللَّه ، ويقول الراسخون : آمنا به . وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد اللَّه بن مسعود : إن تأويله إلَّا عند اللَّه والراسخون في العلم يقولون : آمنا به . وكذا عن أُبيِّ بن كعب واختار ابن جرير هذا القول .

ومنهم من يقف على قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول ، وقالوا :

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢/٥) والطبراني في الكبير (٣٢٥/٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣٣/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٤٢) وأحمد في مسنده (٣٥٥/٣) .

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (٢٥/١) والحاكم في المستدرك (٤٣٠/٤) .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٣٢/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٨/١) .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٢) .

الخطاب بما لا يفهم بعيد . وعن ابن عبّاس أنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله . وعن مجاهد : والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به . وعن محمّد بن جعفر بن الزبير : وما يعلم تأويله الذي أراد ما أراد إلّا اللّه والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلّا تأويل واحد ، فاتسق بقولهم الكتاب ، وصدّق بعضه بعضًا ، فنفذت الحجة ، وظهر به العذر ، وزاح به الباطل ، ودفع به الكفر . وفي الحديث أن رسول اللّه ﷺ دعا لابن عبّاس فقال : « اللّهُمّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأوِيلَ » [1] . ومن العلماء من فصّل في هذا المقام وقال : التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان : أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه ومنه قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد ، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة ؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجليّة إلّا اللّه ﷻ ، ويكون قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ مبتدأ و ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ خبره . وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ أي بتفسيره ، فإن أريد به هذا المعنى فالوقف على ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار ، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ حالًا منهم ، وساغ هذا ، وأن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه .

وقوله إخبارًا عنهم أنهم يقولون : آمنا به أي المتشابه ، كل من عند ربنا أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق ، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له ؛ لأن الجميع من عند اللّه ، وليس شيء من عند اللّه بمختلف ولا متضاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ ﴾ أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر على وجهها أولو العقول السليمة ، والفهوم المستقيمة . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سمع رسول اللّه ﷺ قومًا يتدارأون فقال : « إِنَّما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا ، ضَرَبُوا كِتَابَ اللّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ، وَإِنَّما أُنْزِلَ كِتَابُ اللّهِ لِيُصَدِّقَ بَعْضُهُ بَعْضًا فَلا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ . فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلى عَالِمِهِ » [2] . وعن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « نَزَلَ الْقُرآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ ، وَالمِراءُ في القُرْآنِ كُفْرٌ - قالها ثلاثًا - مَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلى عَالِمِهِ ﷻ » [3] ويقال : الراسخون في العلم المتواضعون للّه ، المتذللون للّه في مرضاته ، لا يتعاظمون على من فوقهم ، ولا يحقرون من دونهم . ثم قال تعالى عنهم مخبرًا أنهم دعوا ربهم قائلين : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ تثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيمانًا وإيقانًا ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول اللّه ﷺ كثيرًا ما يدعو : « يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ » قلت : يا رسول اللّه ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ، فقال : « لَيْسَ مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابعِ الرَّحْمنِ ، إِذَا

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٣٨) وأحمد في مسنده (٣٢٧/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٥/٢) والبغوي في شرح السنة (٢٦٠/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٤/٤) والألباني في الصحيحة (١٥٢٢) .

شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ ، أَمَا تَسْمَعِي قَوْلَهُ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ »[1] . وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال : « لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي ، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا ، ولا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي ، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ »[2] . وعن أبي عبد الله الصنابحي أنه صلى وراء أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه المغرب ، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل ، وقرأ في الركعة الثالثة ، قال : فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه ، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ الآية . وعن عبادة بن نسي أنه كان عند عمر بن عبد العزيز في خلافته فقال عمر لقيس : كيف أخبرتني عن أبي عبد الله ؟ فأخبره بما سمع أبا عبد الله ثانيًا ، قال عمر : فما تركناها منذ سمعناها منه ، وإن كنت قبل ذلك لعلى غير ذلك ، فقال له رجل : على أي شيء كان أمير المؤمنين قبل ذلك ؟ قال : كنت أقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي يقولون في دعائهم : إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم وتفصل بينهم ، وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه ، وتجزي كلًّا بعمله ، وما كان عليه في الدنيا من خير وشر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۞ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي بآيات الله ، وكذبوا رسله ، وخالفوا كتابه ، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ أي حطبها الذي تسجر به ، وتوقد به ، فعن أم الفضل أم عبد الله بن عباس قالت : بينما نحن بمكة قام رسول الله ﷺ من الليل فنادى : « هَلْ بَلَّغْتُ ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » ثلاثًا ، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : نعم ، ثم أصبح فقال رسول الله ﷺ : « لَيَظْهَرَنَّ الإِسْلَامُ حَتَّى يَرُدَّ الكُفْرَ إِلَى مَوَاطِنِهِ ، وَلَيَخُوضَنَّ رِجَالٌ البِحَارَ بِالإِسْلَامِ ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُونَ القُرْآنَ وَيَقْرَأُونَهُ ثُمَّ يَقُولُونَ : قَرَأْنَا وَعَلِمْنَا ، فَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَّا ، فَهَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ ؟ » قالوا : يا رسول الله فمن أولئك ؟ قال : « أُولَئِكَ مِنْكُمْ وَهُمْ وَقُودُ النَّارِ »[3] .

وقوله تعالى : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ قال ابن عباس : كصنيع آل فرعون ، وقيل : كسنَّة آل فرعون ، وكفعل آل فرعون ، وكشبه آل فرعون ، والألفاظ متقاربة به . والدأب بالتسكين والتحريك أيضًا ، كنهر ونهر ، هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة ، كما يقال : لا يزال هذا دأبي ودأبك . والمعنى في الآية : أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد ، بل يهلكون ويعذبون كما

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٢٢) وأحمد في مسنده (١١٢/٣) والحاكم في المستدرك (٢٨٨/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥٠٦١) والحاكم في المستدرك (٥٤٠/١) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥١/١٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٣٠/١) .

جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاءوا به من آيات الله وحججه ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي شديد الأخذ ، أليم العذاب ، لا يمتنع منه أحد ، ولا يفوته شيء بل هو الفعّال لما يريد ، الذي قد غلب كل شيء ، لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُل ﴾ يا محمّد للكافرين ﴿ سَتُغْلَبُونَ ﴾ أي في الدنيا ﴿ وَتُحْشَرُونَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ عن عاصم بن عمرو بن قتادة أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال : « يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِمَا أَصَابَ قُرَيْشًا » فقالوا : يا محمّد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش ، كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله في ذلك من قولهم : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ إلى قوله ﴿ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية أي دلالة على أن الله معز دينه ، وناصر رسوله ، ومظهر كلمته ، ومعل أمره ﴿ فِى فِئَتَيْنِ ﴾ أي طائفتين ﴿ ٱلْتَقَتَا ﴾ أي للقتال ﴿ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر .

وقوله : ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾ قال بعض العلماء : يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم ، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سببًا لنصرة الإسلام عليهم ، وهذا لا إشكال عليه إلّا من جهة واحدة وهي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذٍ قبل القتال يحزر لهم المسلمين فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا ، وهكذا كان الأمر ، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم . والقول الثاني : أن المعنى في قوله تعالى : ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾ أي يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم ، أي ضعفيهم في العدد ، ومع هذا نصرهم الله عليهم . وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفي عن ابن عبّاس : أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا ، والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين ، وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية ، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس ، وخلاف المعروف عند الجمهور أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى الألف ، وعن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لما سأل ذلك العبد الأسود لبني الحجاج عن عدة قريش قال : كثير ، قال : « كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ ؟ » قال : يومًا تسعًا ويومًا عشرًا ، قال النبيّ ﷺ : « القَوْمُ مَا بَيْنَ تِسْعِمِائَةٍ إِلَى أَلْفٍ » (٢) . وروي عن علي رضي الله عنه قال : كانوا ألفًا ، وكذا قال ابن مسعود . والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف . وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين ، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم ، لكن وجه ابن جرير هذا وجعله صحيحًا

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٠٠١) وأحمد في مسنده (٤٥١/٢) والبيهقي في السنن (١٨٣/٩) .
(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤٣/٣) .

كما تقول : عندي ألف وأنا محتاج إلى مثليها ، وتكون محتاجًا إلى ثلاثة آلاف ، وعلى هذا فلا إشكال ، لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين ، وهو أن يقال ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ فالجواب أن هذا كان في حالة ، والآخر كان في حالة أخرى ، وعن عبد الله بن مسعود : لقد قُللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، قال : فأسرنا رجلًا منهم فقلنا : كم كنتم ؟ قال : ألفًا ، فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم أي أكثر منهم بالضعف ، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم ﷻ ، ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلَّل الله هؤلاء في أعين هؤلاء ، وهؤلاء في أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر ﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي ليفرق بين الحق والباطل ، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي إن في ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله ، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا ، من أنواع الملاذ من النساء والبنين ، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ على الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » (١) فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه ، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه ، وأن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء ، وقوله ﷺ : « الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِهَا المرْأَةُ الصَّالِحَةُ ، إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ في نَفْسِها وَمَالِهِ » (٢) وقوله في الحديث الآخر : « حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ » (٣) . وقالت عائشة رضي الله عنها : لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من النساء إلَّا الخيل . وفي رواية : من الخيل إلَّا النساء (٤) .

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا ، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمّد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محمود ممدوح ، كما ثبت في الحديث : « تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٥) وحب المال كذلك تارة يكون للفخر

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٧) والترمذي في السنن (٢٧٨٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (٦٤) والبغوي في شرح السنة (١١/٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٣) والنسائي في السنن (٦٢/٧) والحاكم في المستدرك (١٦٠/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧/٥) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٢٠٥٠) وابن ماجه في السنن (١٨٤٦) والحاكم في المستدرك (١٦٢/٢) .

والخيلاء ، والتكبُّر على الضعفاء ، والتجبُّر على الفقراء ، فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في القربات ، وصلة الأرحام والقرابات ، ووجوه البر والطاعات ، فهذا ممدوح محمود شرعًا .

وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال ، وحاصلها أنه المال الجزيل . وقيل : ألف دينار ، وقيل : ألف ومائتا دينار ، وقيل : اثنا عشر ألفًا ، وقيل : أربعون ألفًا ، وقيل : ستون ألفًا ، وقيل : ثمانون ألفًا ، وقيل غير ذلك . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« القِنْطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أُوقِيَّةٍ ، كُلُّ أُوقِيَّةٍ خَيْرٌ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » (١) وعن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ ﴾ ؟ قال : « القِنْطَارُ أَلْفَا أُوقِيَّةٍ » (٢) .

وحب الخيل على ثلاثة أقسام : تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها ، فهؤلاء يثابون ، وتارة تربط فخرًا ونواء لأهل الإسلام ، فهذه على صاحبها وزر . وتارة للتعفف واقتناء نسلها ، ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر . وأما المسوَّمة فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما : المسومة الراعية ، والمطهمة الحسان . وقال مكحول : المسومة الغرة والتحجيل . وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤْذَنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ ، أَوْ أَحَبَّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ﴿ وَٱلْحَرْثِ ﴾ يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة . وعن سويد بن هبيرة عن النبيِّ ﷺ قال : « خَيْرُ مَالِ امْرِئٍ لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ ، أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ » (٤) المأبورة الكثيرة النسل ، والسكة النخل المصطف ، والمأبورة الملقحة .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ أي حسن المرجع والثواب .

قال عمر بن الخطاب : لما نزلت ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ قلت : الآن يا رب حين زينتها لنا فنزلت ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ ﴾ أي قل يا محمّد للناس : أأخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة ، ثم أخبر عن ذلك فقال : ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار ، من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد ، لا يبغون عنها حولًا ﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أي من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدًا . ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أي يعطي كلًّا بحسب ما يستحقه من العطاء .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٦٣) والحاكم في المستدرك (٢/١٧٨) وابن ماجه في السنن (٣٦٦٠) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/١٧٨) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٧٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٦٨) والبيهقي في السنن (١٠/٦٤) والطبراني في الكبير (٧/١٠٧) .

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ .

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ أي بك وبكتابك وبرسولك ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا ، فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي في قيامهم بالطاعات ، وتركهم المحرمات ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم ، بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ والقنوت الطاعة والخضوع ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ ﴾ أي من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات ، وصلة الأرحام والقرابات ، وسد الخلات ، ومواساة ذوي الحاجات ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار . وقد قيل : إن يعقوب عليه السلام لما قال لبنيه : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ إنه أخرهم إلى وقت السحر . وثبت عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَخِيرِ فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيه ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ » (١) . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ ، من أوله وأوسطه وآخره ، فانتهى وتره إلى السحر (٢) . وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول : يا نافع هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . وعن حاطب قال : سمعت رجلًا في السحر في ناحية المسجد وهو يقول : يا رب أمرتني فأطعتك ، وهذا السحر فاغفر لي . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضي الله عنه . وعن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

شهد تعالى وكفى به شهيدًا ، وهو أصدق الشاهدين ، وأعدلهم ، وأصدق القائلين ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ، وأن الجميع عبيده وخلقه ، وفقراء إليه ، وهو الغني عما سواه . ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ منصوب على الحال ، وهو في جميع الأحوال كذلك ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تأكيد لما سبق ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ العزيز الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . وعن الزبير بن العوام قال : سمعت النبيَّ ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب . وعن غالب القطان

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٥) بلفظ « ينزل ربنا » ، وأحمد في مسنده (٨١/٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٤٣٥) .

قال : أتيت الكوفة في تجارة ، فنزلت قريبًا من الأعمش ، فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر ، قام فتهجد من الليل ، فمر بهذه الآية ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ الْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِالْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ ﴾ ثم قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد اللَّه به ، وأستودع اللَّه هذه الشهادة ، وهي لي عند اللَّه وديعة ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ ﴾ قالها مرارًا ، قلت : لقد سمع فيها شيئًا ، فغدوت إليها فودعته ثم قلت : يا أبا محمّد ، إني سمعتك تردد هذه الآية ، قال : أوما بلغك ما فيها ؟ قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثني ، قال : واللَّه لا أحدّثك بها إلى سنة ، فأقمت سنة فكنت على بابه ، فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمّد قد مضت السنة ، قال : حدثني أبو وائل عن عبد اللَّه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يُجَاءُ بِصَاحِبِها يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيَقُولُ اللَّه ﷻ : عَبْدِي عَهِدَ إِلَيَّ ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ وَفى بِالعَهْدِ ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الجَنَّةَ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ ﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم اللَّه به في كل حين ، حتى ختموا بمحمّد ﷺ ، الذي سد جميع الطرق إليه إلَّا من جهة محمّد ﷺ فمن لقي اللَّه بعد بعثة محمّد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبّل ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية . وقال في هذه الآية مخبرًا بانحصار الدين المتقبل منه عنده في الإسلام : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ ﴾ وذكر أن ابن عبّاس قرأ ﴿ شهد اللَّه إنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * أن الدين عند اللَّه الإسلام ﴾ بكسر إنه وفتح أن الدين عند اللَّه الإسلام ، أي شهد هو والملائكة وأولوا العلم من البشر ، بأن الدين عند اللَّه الإسلام ، والجمهور قرأوها بالكسر على الخبر ، وكلا المعنيين صحيح ، ولكن هذا على قول الجمهور أظهر واللَّه أعلم . ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعدما قامت عليهم الحجة ، بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم ، فقال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ أي بغي بعضهم على بعض ، فاختلفوا في الحق بتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم ، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقًّا . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ﴾ أي من جحد ما أنزل اللَّه في كتابه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي فإن اللَّه سيجازيه على ذلك ، ويحاسبه على تكذيبه ، ويعاقبه على مخالفته كتابه .

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ أي جادلوك في التوحيد ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ أي فقل : أخلصت عبادتي للَّه وحده لا شريك له ، ولا ند له ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ أي على ديني ، يقول كمقالتي ، قال تعالى آمرًا لعبده ورسوله محمّد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه ، والدخول في شرعه وما بعثه اللَّه به ، الكتابيين من الملتين والأميين من المشركين فقال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَٰبَ وَالْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ اهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ ﴾ أي واللَّه عليه حسابهم ، وإليه مرجعهم ومآبهم ، وهو الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِالْعِبَادِ ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية ، ممن يستحق الضلالة ، وهو

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٣٣٠/١) والسيوطي في الدر المنثور (١٢/٢) وابن عدي في الكامل (١٦٩٤/٥) .

الذي ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ وما ذلك إلّا لحكمته ورحمته . وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنّة في غير ما آية وحديث ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ . وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأميهم امتثالًا لأمر الله له بذلك . فعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ ، يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، وَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » (١) . وقال ﷺ : « بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ » (٢) . وقال : « كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (٣) .

وعن أنس ﷺ : أن غلامًا يهوديًا كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ، ويناوله نعليه ، فمرض ، فأتاه النبيّ فدخل عليه وأبوه قاعدًا عند رأسه ، فقال له النبيّ ﷺ : « يَا فُلاَنُ ، قُلْ : لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه » فنظر إلى أبيه فسكت أبوه ، فأعاد عليه النبيّ ﷺ فنظر إلى أبيه فقال أبوه : أطع أبا القاسم ، فقال الغلام : أشهد أن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله ، فخرج النبيّ ﷺ وهو يقول : « الحَمْدُ للّه الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ » (٤) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ .

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديمًا وحديثًا ، التي بلّغتهم إياها الرسل ، استكبارًا عليهم ، وعنادًا لهم ، وتعاظمًا على الحق ، واستنكافًا عن اتباعه ، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلّغوهم عن الله شرعه ، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم ، إلّا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهذا هو غاية الكبر كما قال النبيّ ﷺ : « الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » (٥) . وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار ، وأقاموا سوق بقلهم من آخره . ولهذا لما أن تكبروا عن الحق ، واستكبروا على الخلق ، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا ، والعذاب المهين في الآخرة فقال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي موجع مهين ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم ، وهما التوراة والإنجيل ، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمّد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما وهذا في غاية ما يكون من ذمهم ، والتنويه به بذكرهم بالمخالفة والعناد . ثم قال تعالى :

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٥) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٤٣٣/٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥/٣) .
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) والترمذي في السنن (١٩٩٩) .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ أي إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يومًا ، ثم قال تعالى : ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلَّا أيامًا معدودات ، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم واختلقوه ، ولم ينزل الله به سلطانًا . قال الله تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله ، وكذَّبوا رسله ، وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله ، وحاكم عليهم ، ومجازيهم به . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا شك في وقوعه وكونه ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ قُلِ ﴾ يا محمد معظمًا لربك ، وشاكرًا له ، ومفوضًا إليه ، ومتوكلًا عليه ﴿ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أي لك الملك كله ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ أي أنت المعطي ، وأنت المانع ، وأنت الذي ما شئت كان ، وما لم تشأ لم يكن . وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة ؛ لأن الله تعالى حوَّل النبوَّة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي خاتم الأنبياء على الإطلاق ، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن ، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله ، وخصه بخصائص لم يعطها نبيًا من الأنبياء ، ولا رسولًا من الرسل ، في العلم بالله وشريعته ، واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية ، وكشفه له عن حقائق الآخرة ، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها ، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع ، فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ، ما تعاقب الليل والنهار . ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الآية . أي أنت المتصرِّف في خلقك ، الفعَّال لما تريد ، كما ردَّ تعالى على من يحكم عليه في أمره حيث قال : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ قال الله ردًا عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ الآية . أي نحن نتصرف فيما خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع ، ولنا الحكمة البالغة والحجة التامة في ذلك ، وهكذا يعطي النبوة لمن يريد كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ وعن المأمون الخليفة أنه رأى في قصر ببلاد الروم مكتوبًا بالحميرية ، فعرب له ، فإذا هو : باسم الله ما اختلف الليل والنهار ، ولا دارت نجوم السماء في الفلك ، إلَّا بنقل الغيم عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك ، وملك ذي العرش دائم أبدًا ليس بفان ولا بمشترك .

وقوله تعالى : ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان . وهكذا في فصول السنة ربيعًا وصيفًا وخريفًا وشتاء . وقوله تعالى : ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ أي تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من

المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي تعطي من شئت من المال ما لا يعده ولا يقدر على إحصائه وتقتر على آخرين ، لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة . عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال : « اسمُ اللَّه الأعْظَم الَّذي إذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ في هَذِهِ الآيَةِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ »[1] .

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين ، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ، ثم توعد على ذلك فقال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ أي ومن يرتكب نهي اللَّه في هذا فقد برئ من اللَّه . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ أي إلَّا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته . قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل ، إنما التقية باللسان . وكذا قال أبو العالية وأبو الشعثاء . ويؤيد ما قالوه قول اللَّه تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ الآية . قال الحسن : التقية إلى يوم القيامة . ثم قال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ أي يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي إليه المرجع والمنقلب ، ليجازي كل عامل بعمله . عن ميمون بن مهران قال : قام فينا معاذ فقال : يا بني أود إني رسولُ رسولِ اللَّه إليكم ، تعلمون أن المعاد إلى اللَّه ، إلى الجنة أو إلى النار .

﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر ، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية ، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات ، وجميع ما في الأرض والسموات ، لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ، في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي وقدرته نافذة في جميع ذلك . وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته ، لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم ، فإنه عالم بجميع أمورهم ، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أَنظر من أنظر منهم ، فإنه يمهل ، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر . ولهذا قال بعد هذا : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ الآية يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر فما رأى من أعماله حسنًا سرَّه ذلك وأفرحه ، وما رأى من قبيح ساءه وغصه ، ووَدَّ لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد ، كما يقول لشيطانه الذي كان مقرونًا به في الدنيا ، وهو الذي جرأه على فعل السوء ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ ثم قال تعالى مؤكدًا ومهددًا ومتوعدًا :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٧٨) وأبو داود في السنن (١٤٩٦) وابن ماجه في السنن (٣٨٥٥) .

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ أي يخوفكم عقابه . ثم قال ﷻ مرجيًا لعباده لئلا ييئسوا من رحمته ، ويقنطوا من لطفه : ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌۢ بِالْعِبَادِ ﴾ قال الحسن البصري : من رأفته بهم حذرهم نفسه . وقال غيره : أي رحيم بخلقه ، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم ، وأن يتبعوا رسوله الكريم .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة اللّٰه وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر ، حتى يتبع الشرع المحمدي ، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله . كما ثبت في الصحيح عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ » (١) ولهذا قال : ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض العلماء الحكماء : ليس الشأن أن تُحِب ؛ إنما الشأن أن تُحَبَّ . وقال الحسن البصري وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون اللّٰه فابتلاهم اللّٰه بهذه الآية فقال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا من بركة سفارته . ثم قال تعالى آمرًا لكل أحد من خاص وعام ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي تخالفوا عن أمره ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، واللّٰه لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب للّٰه ويتقرب إليه ، حتى يتابع الرسول النبي الأمّي خاتم الرسل ، ورسول اللّٰه إلى جميع الثقلين الجن والإنس ، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلّا اتباعه ، والدخول في طاعته ، واتباع شريعته .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض ، فاصطفى آدم عليه السلام خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلَّمه أسماء كل شيء ، وأسكنه الجنَّة ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة . واصطفى نوحًا عليه السلام وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان ، وأشركوا باللّٰه ما لم ينزل به سلطانًا . وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى اللّٰه ليلًا ونهارًا ، سرًّا وجهارًا ، فلم يزدهم ذلك إلّا فرارًا ، فدعا عليهم فأغرقهم اللّٰه عن آخرهم ، لم ينج منهم إلّا من اتبعه على دينه الذي بعثه اللّٰه به . واصطفى آل إبراهيم ، ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمّد ﷺ ، وآل عمران ، والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليه السلام . وهو عمران بن ياشم بن ميشا بن حزقيا بن إبراهيم بن غرايا بن ناوش بن أجر بن بهوا بن نازم ابن مقاسط بن إيشا بن إياذ بن رخيعم بن سليمان بن داود عليهما السلام ، فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم .

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم في الأقضية (١٨) وأحمد في مسنده (٦/١٨٠) والدارقطني في السنن (٤/٢٢٧) .

امرأة عمران هي أم مريم عليها السلام ، وهي حنة بنت فاقوذ : قال محمّد بن إسحاق : وكانت امرأة لا تحمل ، فرأت يومًا طائرًا يزق فرخه فاشتهت الولد ، فدعت الله تعالى أن يهبها ولدًا فاستجاب الله دعاءها ، فواقعها زوجها فحملت منه ، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محررًا أي خالصًا مفرغًا للعبادة لخدمة بيت المقدس ، فقالت : يا رب ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي السميع لدعائي ، العليم بنيتي ، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكرًا أم أنثى ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ قرئ برفع التاء على أنها تاء المتكلم ، وأن ذلك من تمام قولها ، وقرئ بتسكين التاء [1] على أنه من قول الله ﷻ : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق ؛ لأنه شرع من قبلنا ، وقد حكي مقررًا ، وبذلك ثبتت السنّة عن رسول الله ﷺ حيث قال : « وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَلَدٌ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ » [2] . وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنكه وسماه عبد الله . ويروى : أن رجلًا قال : يا رسول الله ولد لي الليلة ولد فما أسميه ؟ قال : « سَمِّ ابْنَكَ عَبْدَ الرَّحْمنِ » [3] . وثبت في الصحيح أنه لما جاءه أبو أسيد بابنه ليحنكه فذهل عنه ، فأمر به أبوه فرد إلى منزلهم ، فلما ذكر رسول الله ﷺ في المجلس سماه المنذر . وعن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ غُلَامٍ مُرْتَهَنٌ بِعَقِيقَتِهِ يُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُسَمَّى وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ » [4] ، وروى ويدمى وهو أثبت وأحفظ والله أعلم .

وقوله إخبارًا عن أم مريم أنها قالت : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ أي عوذتها بالله ﷻ من شر الشيطان ، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام ، فاستجاب الله لها ذلك . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا » ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ » [5]

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة ، وأنه أنبتها نباتًا حسنًا ، أي جعلها شكلًا مليحًا ، ومنظرًا بهيجًا ، ويسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين ، فلهذا قال : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية ، أي جعله كافلًا لها . قال ابن إسحاق : وما ذلك إلّا أنها كانت يتيمة . وذكر غيره أن بني إسرائيل أصابتهم سنة جدب ، فكفل زكريا مريم لذلك ، ولا منافاة بين القولين والله أعلم . وإنما قدّر الله كون زكريا كفلها لسعادتها ، لتقتبس منه علمًا جمًّا نافعًا وعملًا صالحًا ، ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما . وقيل زوج أختها كما ورد في الصحيح : « فَإِذَا بِيَحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ » [6] وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضًا توسعًا ، فعلى هذا كانت في

---

(١) قرأ ابن عامر ويعقوب وأبو بكر ﴿ وضعتُ ﴾ بإسكان العين وضم التاء ، والباقون بفتح العين وإسكان التاء (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٠) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٩٨) ومسلم في الفضائل (٦٢) وأبو داود في السنن (٣١٢٦) وأحمد في مسنده (١٩٤/٣) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣٠٨/٩) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٥) وابن ماجه في السنن (٣١٦٥) والطبراني في الكبير (٢٤٣/٧) .
(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٤٨) ومسلم في الفضائل (١٤٦) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) .
(٦) أخرجه مسلم في الفضائل (١٤٦) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) .

حضانة خالتها . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب وقال : « الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ » [١] ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلادتها في محل عبادتها فقال : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، وعن مجاهد ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ أي علمًا ، أو قال : صحفًا فيها علم . والأول أصح ، وفيه دلالة على كرامات الأولياء . وفي السنة لهذا نظائر كثيرة . فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ أي يقول : من أين لك هذا ؟ ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

عن جابر أن رسول الله ﷺ أقام أيامًا لم يطعم طعامًا حتى شقَّ ذلك عليه ، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئًا ، فأتى فاطمة فقال : « يَا بُنَيَّةُ هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ آكُلُهُ فَإِنِّي جَائِعٌ ؟ » قالت : لا والله بأبي أنت وأمي ، فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم ، فأخذته منها فوضعته في جفنة لها ، وقالت : والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي ، وكانوا جميعًا محتاجين إلى شبعة طعام ، فبعثت حسنًا أو حسينًا إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت : بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيء فخبأته لك قال : « هَلُمِّي يا بُنَيَّةُ » قالت : فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هي مملوءة خبزًا ولحمًا ، فلما نظرت إليها بهت ، وعرفت أنها بركة من الله ، فحمدت الله وصليت على نبيّه ، وقدمته إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه حمد الله وقال : « مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا يَا بُنَيَّةُ » ؟ قالت : يا أبت ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فحمد الله وقال : « الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَكِ يَا بُنَيَّةُ شَبِيهَةً بِسَيِّدَةِ نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَإِنَّها كَانَتْ إِذَا رَزَقَهَا اللهُ شَيْئًا وَسُئِلَتْ عَنْهُ قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فبعث رسول الله ﷺ إلى علي ، ثم أكل رسول الله ﷺ وأكل علي وفاطمة وحسن وحسين ، وجميع أزواج النبيّ ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا جميعًا قالت : وبقيت الجفنة كما هي ، قالت : فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران وجعل الله فيها بركة وخيرًا كثيرًا [٢] .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ .

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، طمع حينئذٍ في الولد وإن كان شيخًا كبيرًا قد وهن منه العظم ، واشتعل الرأس شيبًا ، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرًا ، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداءً خفيًا وقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ﴾ أي من عندك ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ أي ولدًا صالحًا ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ قال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ أي خاطبته الملائكة شفاهًا خطابًا أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ، ومحل خلوته ، ومجلس مناجاته وصلاته . ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة : ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى . قال قتادة وغيره : إنما سمي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢٨٠) والترمذي في السنن (١٩٠٤) والبيهقي في السنن (٦/٨) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٠/٢) .

وقوله : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي بعيسى ابن مريم . وقال الربيع بن أنس : هو أول من صدق بعيسى ابن مريم . وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ قال : كان يحيى وعيسى ابني خالة ، وكانت أم يحيى تقول لمريم : إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك ، فذلك تصديقه له في بطن أمه ، وهو أول من صدّق عيسى وكلمة الله عيسى ، وهو أكبر من عيسى عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ قال قتادة : سيدًا في العلم والعبادة . وقال الضحاك : الحليم التقي . وقال سعيد بن المسيب : الفقيه العالم . وقال عكرمة : هو الذي لا يغلبه الغضب . وقال ابن زيد : الشريف . وقال مجاهد : هو الكريم على الله عز وجل .

وقوله : ﴿ وَحَصُورًا ﴾ قالوا : الذي لا يأتي النساء . وعن الربيع بن أنس قال : هو الذي لا يولد له ولا ماء له . وعن ابن عبّاس في الحصور : الذي لا ينزل الماء . وعن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَلْقَى اللَّهَ بِذَنْبٍ يُعَذِّبُهُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ أَوْ يَرْحَمُهُ ، إِلَّا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيا فَإِنَّهُ كَانَ سَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » ثم أهوى النبيّ ﷺ إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال : « وكان ذكره مثل هذه القذاة ؟ » [1] .

وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿ حَصُورًا ﴾ ليس كما قاله بعضهم إنه كان هيوبًا أو لا ذكر له ، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ، ونقّاد العلماء ، وقالوا : هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، إنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أي لا يأتيها كأنه حصور عنها ، وقيل : مانعًا نفسه من الشهوات ، وقيل : ليست له شهوة في النساء ، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى ، أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام ، ثم هي في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة عليا ، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن ، وقيامه عليهن ، وإكسابه لهن ، وهدايته إياهن ، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ » [2] هذا لفظه . والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : أنه معصوم من الفواحش والقاذورات ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال ، وغشيانهن وإيلادهن ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ كأنه قال ولدًا له ذرية ونسل وعقب .

قوله : ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته ، وهي أعلى من الأولى .

فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ ﴾ أي الملك ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم ، لا يعجزه شيء ، ولا يتعاظمه أمر ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾ أي علامة استدل بها على وجود الولد مني ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح ، ثم أمره بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال فقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٤٤/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٨/٣) والحاكم في المستدرك (١٦٠/٢) والبيهقي في السنن (٧٨/٧) .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

هذا إخبار من اللّه تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر اللّه لهم بذلك ، أن اللّه قد اصطفاها أي اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس ، واصطفاها ثانيًا مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين . عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : كان أبو هريرة يحدّث عن رسول اللّه ﷺ : « خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ ، وَلَمْ تَرْكَبْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بَعِيرًا قَطُّ » [١] . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ » [٢] . وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلاثٌ ، مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَخَدِيجَةُ ابْنَةُ خُوَيْلِدَ ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » [٣] .

ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لما يريد اللّه بها من الأمر الذي قدره اللّه وقضاه ، مما فيه محنة لها ، ورفعة في الدارين ، بما أظهر اللّه فيها من قدرته العظيمة ، حيث خلق منها ولدًا من غير أب فقال تعالى : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أما القنوت فهو الطاعة في خشوع . عن أبي سعيد عن رسول اللّه ﷺ قال : « كُلُّ حَرْفٍ فِي القُرْآنِ يُذْكَرُ فِيهِ القُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ » [٤] . وقال مجاهد : كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها . والقنوت هو طول الركوع في الصلاة ، يعني امتثالًا لقول اللّه تعالى : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ ﴾ قال الحسن : يعني اعبدي لربك ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أي كوني منهم .

ثم قال لرسوله بعدما أطلعه على جلية الأمر : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أي نقصه عليك ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي ما كنت عندهم يا محمّد فتخبرهم عن معاينة عما جرى ، بل أطلعك اللّه على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها ، وذلك لرغبتهم في الأجر . عن عكرمة قال : ثم خرجت بها يعني مريم في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليهما السلام ، قال : وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي أنثى ، ولا يدخل الكنيسة حائض ، وأنا لا أردها إلى بيتي فقالوا : هذه ابنة إمامنا - وكان عمران يؤمهم في الصلاة - وصاحب قرباننا ، فقال زكريا : ادفعوها لي فإن خالتها تحتي فقالوا : لا تطيب أنفسنا هي ابنة إمامنا ، فذلك حين اقترعوا عليها بأقلامهم التي يكتبون بها التوراة ، فقرعهم زكريا فكفلها .

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٨٢) وأحمد في مسنده (٣١٩/٢) والبيهقي في السنن (٢٩٣/٧) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٦٩) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٧٦٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٧٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأنه سيوجد منها ولد عظيم ، له شأن كبير قال اللّٰه تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من اللّٰه ، أي يقول له : كن فيكون . ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ أي يكون هذا مشهورًا في الدنيا يعرفه المؤمنون بذلك ، وسمي المسيح لكثرة سياحته . وقيل : لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما . وقيل : لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن اللّٰه تعالى . وقوله تعالى : ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي له وجاهة ومكانة عند اللّٰه في الدنيا ، بما يوحيه اللّٰه إليه من الشريعة ، وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه اللّٰه به . وفي الدار الآخرة يشفع عند اللّٰه فيمن يأذن له فيه ، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات اللّٰه وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وقوله : ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي يدعو إلى عبادة اللّٰه وحده لا شريك له في حال صغره ، معجزة وآية ، وفي حال كهولته حين يوحي اللّٰه إليه ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي في قوله وعمله له علم صحيح ، وعمل صالح . عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « مَا تَكَلَّمَ أَحَدٌ فِي صِغَرِهِ إِلَّا عِيسَى وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ »(1) .

فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن اللّٰه ﷻ ، قالت في مناجاتها : ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ تقول : كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج ، ولا من عزمي أن أتزوج ، ولست بغيًا حاشا للّٰه ؟ فقال لها الملك عن اللّٰه ﷻ في جواب ذلك السؤال : ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي هكذا أمر اللّٰه عظيم لا يعجزه شيء وصرح ههنا بقوله : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ ولم يقل يفعل كما في قصة زكريا ، بل نص ههنا على أنه يخلق لئلا يبقى لمبطل شبهة ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي فلا يتأخر شيئًا ، يوجد عقيب الأمر بلا مهلة .

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام : إن اللّٰه يعلمه الكتاب والحكمة ، الظاهر أن المراد بالكتاب ههنا الكتابة ، والحكمة تقدم تفسيرها في سورة البقرة ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ فالتوراة هو الكتاب الذي أنزل على موسى بن عمران ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام . وقد كان عيسى عليه السلام يحفظ هذا وهذا . قوله : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قائلًا لهم : ﴿ أَنِّى

---

(1) أخرجه مسلم في البر والصلة (٨) والبخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٦) وأحمد في مسنده (٣٠٨/٢) .

﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وكذلك كان يفعل ، يصور من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيطير عيانًا بإذن الله ﷻ ، الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ ﴾ قيل : إنه الذي يبصر نهارًا ولا يبصر ليلًا ، وقيل : بالعكس ، وقيل : الأعشى ، وقيل : الأعمش . وقيل : هو الذي يولد أعمى ، وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة ، وأقوى في التحدي ﴿ وَالْأَبْرَصَ ﴾ معروف ﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيَّرت كل سحَّار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبَّار انقادوا للإسلام ، وصاروا من عباد الله الأبرار . وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلَّا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد . وكذلك محمَّد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله ﷻ فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ، وما ذاك إلَّا أن كلام الرب ﷻ لا يشبه كلام الخلق أبدًا . وقوله : ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ أي أخبركم بما أكل أحدكم الآن ، وما هو مدخر له في بيته لغد ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي في ذلك كله ﴿ لَآيَةً لَّكُمْ ﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ أي مقررًا لها ومثبتًا ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئًا ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأً ، وانكشف لهم عن الغطاء في ذلك . ثم قال : ﴿ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله لكم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ ﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر ، والاستمرار على الضلال قال : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ قال مجاهد : أي من يتبعني إلى الله . وقال سفيان الثوري : أي من أنصاري مع الله . وقول مجاهد أقرب . والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله ، كما كان النبيُّ ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر : « مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي » (١) حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه ، وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر رضي الله عنهم وأرضاهم . وهكذا عيسى ابن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٠/٣) والحاكم في المستدرك (٦١٣/٢) .

النور الذي أنزل معه ، ولهذا قال الله تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ الحواريون قيل : كانوا قصارين ، وقيل : سموا بذلك لبياض ثيابهم ، وقيل : صيادين . والصحيح أن الحواري الناصر ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير ﷺ ، فقال النبيّ ﷺ : « لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ »[1] وعن ابن عبّاس ﷺ في قوله تعالى : ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ قال : مع أمة محمّد ﷺ . ثم قال تعالى مخبرًا عن ملأ بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى ﷺ ، وإرادته بالسوء والصلب حين تمالأوا عليه ، ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان - وكان كافرًا - أن هنا رجلًا يضل الناس ، ويصدهم عن طاعة الملك ، ويفسد الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه إلى غير ذلك ، مما تقلدوه في رقابهم ، ورموه به من الكذب ، وأنه ولد زنية ، حتى استثاروا غضب الملك فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به ، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به ، نجّاه الله تعالى من بينهم ، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء ، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل ، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى ، فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك ، وكان هذا من مكر الله بهم ، فإنه نجّى نبيّه ورفعه من بين أظهرهم وتركهم في ضلالهم يعمهون ، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم ، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعنادًا للحق ملازمًا لهم ، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ .

اختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ فقال قتادة وغيره : هذا من المقدم والمؤخر ، تقديره إني رافعك إليّ ومتوفيك ، يعني بعد ذلك . عن ابن عبّاس : إني متوفيك أي مميتك . قال ابن إسحاق : والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه . وقال وهب : أماته الله ثلاثة أيام ثم بعثه ثم رفعه . وقال مطر الوراق : إني متوفيك من الدنيا ، وليس بوفاة موت . وقال الأكثرون : المراد بالوفاة ههنا النوم كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ الآية . وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : « الحَمْدُ للّٰه الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا »[2] . وعن الحسن قال في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ : يعني وفاة المنام ، رفعه الله في منامه . وقوله تعالى : ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي برفعي إياك إلى السماء ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وهكذا وقع ؛ فإن المسيح ﷺ لما رفعه الله إلى السماء ، تفرقت أصحابه شيعًا بعده ، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته ، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله ، وآخرون قالوا : هو الله ، وآخرون قالوا : هو ثالث ثلاثة . وقد حكى الله مقالتهم في القرآن وردَّ على كل فريق ، فاستمروا على ذلك قريبًا من ثلاثمائة سنة . ثم نبغ لهم ملك من

(١) أخرجه البخاري في أخبار الآحاد (٧٢٦١) ومسلم في فضائل الصحابة (٤٨) .
(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٥) وأحمد في مسنده (٣٨٧/٥) .

ملوك اليونان يقال له : قسطنطين فدخل في دين النصرانية - قيل : حيلة ؛ ليفسده ، فإنه كان فيلسوفًا ، وقيل : جهلًا منه - إلّا أنه بدّل لهم دين المسيح وحرّفه ، وزاد فيه ونقص منه ، ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى التي هي الخيانة الحقيرة ، وأحلّ في زمانه لحم الخنزير ، وصلّوا له إلى المشرق ، وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع ، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون ، وصار دين المسيح دين قسطنطين ، إلّا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد ، وبنى المدينة المنسوبة إليه ، واتبعه طائفة الملكية منهم ، وهم في هذا كله قاهرون لليهود ، أيّده الله عليهم ؛ لأنه أقرب إلى الحق منهم ، وإن كان الجميع كفارًا عليهم لعائن الله ، فلما بعث الله محمّدًا ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق ، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض ، إذ قد صدّقوا الرسول النبي الأمي العربي خاتم الرسل وسيد ولد آدم على الإطلاق ، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق ، فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته ، مما قد حرّفوا وبدّلوا ، ثم لو لم يكن شيء من ذلك ، لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمّدًا ﷺ من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة ، ولا يزال قائمًا منصورًا ظاهرًا على كل دين ، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها ، واحتازوا جميع الممالك ، ودانت لهم جميع الدول ، وكسروا كسرى ، وقصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما ، وأنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيّهم عن ربّهم ﷻ في قوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ الآية . فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقًّا ، سلبوا النصارى بلاد الشام ، وألجأوهم إلى الروم ، فلجأوا إلى مدينتهم القسطنطينية ، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة . وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ، ويستفيؤون ما فيها من الأموال ، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جدًّا لم ير الناس مثلها ، ولا يرون بعدها نظيرها . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ وكذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى ، عذّبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك ، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بالنصر والظفر ، وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمّد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره ، هو مما قاله تعالى ، وأوحاه إليك ، ونزّله عليك من اللوح المحفوظ ، فلا مرية فيه ولا شك .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ

لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في قدرة الله ، حيث خلقه من غير أب ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم بل ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب ، قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى ، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقًا من غير أب ، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى . ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل ، فدعواهم في عيسى أشد بطلانًا وأظهر فسادًا ، ولكن الرب ﷻ أراد أن يظهر قدرته لخلقه بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا بطلانًا وأظهر فسادًا ، لكن الرب ﷻ أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا قال تعالى في سورة مريم : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ وقال ههنا : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلّا الضلال ، ثم قال تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ أي نحضرهم في حال المباهلة ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أي نلتعن ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي منا ومنكم .

وكان سبب نزول هذه المباهلة في وفد نجران : أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجّون في عيسى ، ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوّة والإلهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم . كما ذكر ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره . وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ، ستون راكبًا فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح ، والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة ابن علقمة أخو بكر بن وائل ، وأويس بن الحارث ، وزيد ، وقيس ، ويزيد ، وابناه وخويلد ، وعمرو ، وخالد ، وعبد الله ، ومحسن ، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم وهم العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلّا عن رأيه . والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم . وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارستهم ، وكان رجلًا من العرب من بني بكر بن وائل ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه ، وبنوا له الكنائس وأخدموه لما يعلمونه من صلابته في دينهم ، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة . ولكن حمله ذلك على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها . قال ابن إسحاق : وحدَّثني محمّد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية ، في جمال رجال بني الحارث بن كعب قال : يقول من رآهم من أصحاب النبيّ ﷺ : ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « دَعُوهُمْ » فصلوا إلى المشرق . قال : فكلّم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة ، والعاقب عبد المسيح ، والسيد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك ، مع اختلاف أمرهم ، يقولون : هو الله ، ويقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا . وكذلك النصرانية فهم يحتجون في قولهم : هو الله ؛ بأنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام

ويخبر بالغيوب . ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا ، وذلك كله بأمر الله . وليجعله الله آية للناس . ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله يقولون : لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله . ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى : فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون : لو كان واحدًا ما قال إلَّا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم - تعالى الله وتقدَّس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا - وفي كل ذلك من قولهم : قد نزل القرآن ، فلما كلمه الحبران ، قال لهما رسول الله ﷺ : « أَسْلِمَا » قالا : قد أسلمنا . قال : « إِنَّكُمَا لَمْ تُسْلِمَا ، فَأَسْلِمَا » قالا : بلى قد أسلمنا قبلك ، قال : « كَذَبْتُما ، يَمْنَعُكُمَا مِنَ الإِسْلَامِ ادِّعَاؤُكُمَا لله وَلَدًا ، وَعِبَادَتُكُمَا الصَّلِيبَ ، وَأَكْلُكُمَا الخِنْزِيرَ » قالا : فمن أبوه يا محمَّد ؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما ؟ فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها .

ثم تكلم ابن إسحاق على تفسيرها إلى أن قال : فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه ، دعاهم إلى ذلك فقالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، ثم انصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب - وكان ذا رأيهم - فقالوا : يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمَّدًا لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيًّا قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلَّا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا النبيَّ ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلًا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا ، فإنكم عندنا رضا . قال محمَّد بن جعفر : فقال رسول الله ﷺ : « ائْتُونِي العَشِيَّةَ أَبْعَث مَعَكُمُ القَوِيَّ الأَمِينَ » فكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول : ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذٍ رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجرًا ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أتطاول له ليراني فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه ، فقال : « اخْرُجْ مَعَهُمْ فَاقْضِ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة ﷺ .

وعن حذيفة ﷺ قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبيًّا فلاعنَّاه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلًا أمينًا ، ولا تبعث معنا إلَّا أمينًا فقال : « لأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ » فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال : « قُمْ يا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ » فلما قام قال رسول الله ﷺ : « هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ » (١) . وعن ابن عبَّاس قال : قال أبو جهل قبحه الله : إن رأيت محمَّدًا يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته قال : فقال : « لَوْ فَعَلَ لأَخَذَتْهُ المَلَائِكَةُ عَيَانًا ، وَلَوْ أَنَّ اليَهُودَ تَمَنَّوا المَوْتَ لَمَاتُوا وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَلَو خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ الله ﷺ لَرَجَعُوا لاَ يَجِدُونَ مَالًا وَلاَ أَهْلًا » (٢) .

والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع ؛ لأن الزهري قال : كان أهل نجران أول من أدى الجزية

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٨٠) ومسلم في فضائل الصحابة (٥٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٥٨) وأحمد في مسنده (٢٤٨/١) .

إلى رسول الله ﷺ ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح ، وهي في قوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ الآية .

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمّد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي عن هذا إلى غيره ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به ، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء ، وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده ، ونعوذ به من حلول نقمته .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا ، ثم وصفها بقوله : ﴿ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي عدل ونصف ، نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسرها بقوله : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ لا وثنًا ولا صليبًا ولا صنمًا ولا طاغوتًا ولا نارًا ولا شيئًا ، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذه دعوة جميع الرسل . قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وقال ابن جريج : يعني يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله . وقال عكرمة : يسجد بعضنا لبعض ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي فإن تولوا عن هذا النصف ، وهذه الدعوة ، فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم . وقد ذكرنا في شرح البخاري عند روايته عن ابن عبّاس عن أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر فسأله عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه فأخبره بجميع ذلك على الجلية ، مع أن أبا سفيان إذ ذاك كان مشركًا لم يسلم بعد ، وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح كما هو مصرح به في الحديث ، ولأنه لما سأله هل يغدر ؟ قال : فقلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها ، قال : ولم يمكني كلمة أزيد فيها شيئًا سوى هذه ، والغرض أنه قال : ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّه إِلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى . أَمّا بَعْدُ فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللّه أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّما عَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ ، وَ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ »(١) .

وقد ذكر محمّد بن إسحاق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران . وقال الزهري : هم أول من بذل الجزية ، ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح ، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب ، وبين ما ذكره محمّد ابن إسحاق والزهري ؟ والجواب من وجوه :

أحدها : يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين ، مرة في الحديبية ومرة بعد الفتح .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٥٣) .

الثاني : يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى هذه الآية ، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك ، ويكون قول ابن إسحاق إلى بضع وثمانين آية ليس بمحفوظ لدلالة حديث أبي سفيان .

الثالث : يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية ، وأن الذي بذلوه مصالحة عن المباهلة لا على وجه الجزية ، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة ، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك ، كما جاء فرض الخمس والأربعة أخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر ، ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك .

الرابع : يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا في كتابه إلى هرقل لم يكن أنزل بعد ، ثم أنزل القرآن موافقة له ﷺ كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب في الحجاب وفي الأسارى ، وفي عدم الصلاة على المنافقين ، وفي قوله : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ وفي قوله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ الآية .

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام ، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم . عن ابن عبّاس رضي الله عنه : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلّا يهوديًا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلّا نصرانيًا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ الآية . أي كيف تدَّعون أيها اليهود أنه كان يهوديًا وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى ، وكيف تدَّعون أيها النصارى أنه كان نصرانيًا وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ الآية . هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به ، فإن اليهود والنصارى تحاجُّوا في إبراهيم بلا علم ، ولو تحاجُّوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمّد ﷺ لكان أولى بهم ، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون ، فأنكر الله عليهم ذلك ، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها . ولهذا قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ أي متحنفًا عن الشرك ، قاصدًا إلى الإيمان ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقول تعالى : أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه ، وهذا النبي يعني محمّدًا ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلايَةً مِنَ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ وَلِيِّي مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي عز وجل إبراهيم عليه السلام» ثم قرأ ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ

بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (١) . وقوله ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وليُّ جميع المؤمنين برسله .

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَلَا تُؤْمِنُوٓا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال ، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم . ثم قال تعالى منكرًا عليهم : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أي تعلمون صدقها ، وتتحققون حقها : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمّد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا ءَاخِرَهُۥ ﴾ الآية . هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ، ليقول الجهلة من الناس : إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ولهذا قالوا : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن ابن عبّاس : قالت طائفة من أهل الكتاب : إذا لقيتم أصحاب محمّد أول النهار فآمنوا ، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلّا لمن تبع دينكم ، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم . قال اللّٰه تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمّد ﷺ من الآيات البينات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات ، وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمّد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين .

وقوله : ﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ يقولون : لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم ويساوونكم فيه ، ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به ، أو يحاجوكم به عند ربكم ، أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة ، وتتركب الحجة في الدنيا والآخرة . قال اللّٰه تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ أي الأمور كلها تحت تصرفه وهو المعطي المانع ، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام ، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته ، ويختم على قلبه وسمعه ويجعل على بصره غشاوة ، وله الحجة التامة والحكمة البالغة : ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يُحدُّ ولا يوصف بما شرّف به نبيكم محمّدًا ﷺ وعلى سائر الأنبياء ، وهداكم به إلى أكمل الشرائع .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٣٠) .

عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة ، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم ، فإن منهم ﴿ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ ﴾ أي من المال ﴿ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾ أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤده إليك ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ﴾ أي بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك ، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليك . عن مالك بن دينار قال : إنما سمي بالدينار لأنه دين ونار . وقيل : معناه من أخذه بحقه فهو دينه ، ومن أخذه بغير حقه فله النار . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائتني بالشهداء أشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيدًا قال : ائتني بالكفيل قال : كفى بالله كفيلًا قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى . فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبًا يركبها ليقدم عليه في الأجل الذي أجّله فلم يجد مركبًا ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زجج موضعها ثم أتى بها إلى البحر فقال : اللهم إنك تعلم أني استسلفت فلانًا ألف دينار فسألني شهيدًا فقلت : كفى بالله شهيدًا ، وسألني كفيلًا فقلت : كفى بالله كفيلًا فرضي بك ، وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر ، وإني استودعتكها ، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه لينظر لعل مركبًا يجيئه بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطبًا ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة . ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إليَّ بشيء ؟ قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل هذا ؟ قال : فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصرف بألف دينار راشدًا(١) .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب ، فإن الله قد أحلها لنا قال الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي وقد اختلقوا هذه المقالة ، وائتفكوها بهذه الضلالة ، فإن الله حرّم عليهم أكل الأموال إلّا بحقها ، وإنما هم قوم بهت . عن أبي صعصعة بن يزيد أن رجلًا سأل ابن عباس ، فقال : إنا نصيب من الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ، قال ابن عبّاس : فتقولون : ماذا ؟ قال : نقول : ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلّا بطيب أنفسهم . وعن سعيد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ قال نبي الله ﷺ : « كَذَبَ أَعْدَاءُ اللَّهِ ، مَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا وَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، إِلَّا الْأَمَانَةَ فَإِنَّهَا مُؤَدَّاةٌ إِلَى الْبِرِّ وَالْفَاجِرِ »(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ ﴾ أي لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب ، الذي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٢٤٨/٢) والبيهقي في السنن(٧٦/٦) .

(٢) هذا الحديث مرسل لأن سعيد بن جبير تابعي ، ورواه الطبري في تفسيره(٤٣٢/٣) .

عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمَّد ﷺ إذا بعث ، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك ، واتقى محارم الله واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيدهم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمَّد ﷺ وذكر صفته للناس ، وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة ، وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ﴿ أُولَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ، ولا حظ لهم منها ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أي برحمة منه لهم يعني لا يكلمهم الله كلام لطف بهم ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي من الذنوب والأدناس ، بل يأمر بهم إلى النار ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقد وردت أحاديث تتعلّق بهذه الآية الكريمة منها : عن عدي هو ابن عميرة الكندي قال : خاصم رجل من كندة يقال له : امرؤ القيس بن عامر رجلًا من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض ، فقضى على الحضرمي بالبيّنة ، فلم يكن له بينة ، فقضى على امرئ القيس باليمين ، فقال الحضرمي : أمكنته من اليمين يا رسول الله ؟ ذهبت ورب الكعبة أرضي ، فقال النبيّ ﷺ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ أَحَدٍ ؛ لَقِيَ اللَّهَ ﷻ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » قال رجاء : وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فقال امرئ القيس : ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال : « الجَنَّةُ » قال : فاشهد أني قد تركتها له كلها [١] .

وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ؛ لَقِيَ اللَّهَ ﷻ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » فقال الأشعث : فيَّ والله كان ذلك ، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني أرضي ، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ : « أَلَكَ بَيِّنَةٌ » قلت : لا ، فقال لليهودي : احلف . فقلت : يا رسول الله إذًا يحلف فيذهب مالي فأنزل الله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [٢] الآية .

وعن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَادًا لا يُكَلِّمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ » قيل : ومن أولئك يا رسول الله ؟ قال : « مُتَبَرِّئٌ مِنْ وَالِدَيهِ رَاغِبٌ عَنْهُمَا ، وَمُتَبَرِّئٌ مِنْ وَلَدِهِ ، وَرَجُلٌ أَنْعَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَكَفَرَ نِعْمَتَهُمْ وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ » [٣] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عِنْدَهُ ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ العَصْرِ يعني كَاذِبًا ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَى لَهُ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ » [٤] .

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٥٩) وأحمد في مسنده (١٩٢/٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٦) وأحمد في مسنده (٢١١/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠/٣) . (٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٦) .

مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله - أن منهم فريقًا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به ، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك ، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله ، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقال مجاهد وغيره : ﴿ يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ يحرفونه . وهكذا روى البخاري عن ابن عباس أنهم يحرفون ويزيلون ، وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله ، لكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله . وقال وهب بن منبه : إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى لم يغير منهما حرف ، ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل ، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول . فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك ، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص . وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير ، وزيادات كثيرة ونقصان ، ووهم فاحش ، وهو من باب تفسير المعرب المعبر وفهم كثير منهم بل أكثرهم بل جميعهم فاسد . وأما إن عنى كتب الله التي هي كتبه من عنده فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء .

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمّد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ قال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس : أو ذاك تريد منا يا محمّد وإليه تدعونا ؟ أو كما قال ، فقال رسول الله ﷺ : «مَعَاذَ اللّٰهِ أَنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللّٰه ، وَأَنْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللّٰه ، مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي ، وَلا بِذَلِكَ أَمَرَنِي »أو كما قال ﷺ، فأنزل الله في ذلك من قولهما : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ إلى قوله ﴿ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [(١)]. فقوله ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة أن يقول للناس : اعبدوني من دون الله ، أي مع الله ، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل ، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى . ولهذا قال الحسن البصري : لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته ، قال : وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضًا يعني أهل الكتاب ، كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم . فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ؛ فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به ، وبلغتهم إياه رسله الكرام ، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه ، وبلغتهم إياه رسله الكرام . فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة ، فقاموا بذلك

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٤٤١/٣).

أتم القيام ، ونصحوا الخلق ، وبلغوهم الحق ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس كونوا ربانيين ، قال ابن عبّاس وأبو رزين وغير واحد : أي حكماء علماء حلماء . وقال الحسن وغير واحد : فقهاء . وقال الضحاك في قوله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهًا ، ﴿ تُعَلِّمُونَ ﴾ أي تفهمون معناه ، وقرئ ﴿ تُعلِّمون ﴾ بالتشديد من التعليم (١) ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ تحفظون ألفاظه .

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ﴾ أي ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله ، لا نبي مرسل ، ولا ملك مقرّب ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي لا يفعل ذلك إلّا من دعا إلى عبادة غير الله ، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر . والأنبياء يأمرون بالإيمان ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام ، لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة ، وبلغ أي مبلغ ، ثم جاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته . ولهذا قال تعالى وتقدس : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ﴾ وقال محمد بن إسحاق : ميثاقي الشديد المؤكد ﴿ قَالُوٓا أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي عن هذا العهد والميثاق ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ . قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبيًّا من الأنبياء إلّا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث الله محمّدًا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمّد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه (٢) . وقال طاوس والحسن البصري وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضًا . وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عبّاس ولا ينفيه ، بل يستلزمه ويقتضيه .

وعن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله إني مررت بأخ لي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ﷺ ، قال عبد الله بن ثابت : قلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ فقال عمر : رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمّد رسولًا ، قال : فسري عن النبيّ ﷺ وقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى عليه السلام ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ ؛ إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ » (٣) .

فالرسول محمّد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ، هو الإمام الأعظم

---

(١) قرأ ابن عامر والكوفيون (تُعلِّمون) بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مشددة ، والباقون بفتح التاء واللام وسكون العين (انظر : تقريب النشر ص : ١٠١) . (٢) أخرجه : أحمد في مسنده (٥٣٣/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/٣) .

الذي لو وجد في أي عصر وجد ، لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم ، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس ، وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب ﷻ لفصل القضاء بين عباده ، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلّا له ، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين ، حتى تنتهي النوبة إليه فيكون هو المخصوص به صلوات اللّه وسلامه عليه .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على من أراد دينًا سوى دين اللّه الذي أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله ، وهو عبادة اللّه وحده لا شريك له ، الذي له أسلم من في السموات والأرض ، أي استسلم له من فيهما طوعًا وكرهًا كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه للّه ، والكافر مستسلم للّه كرهًا ؛ فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم ، الذي لا يخالف ولا يمانع . وقد ورد في الصحيح « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الجَنَّةِ فِي السَّلاسِلِ »[١] ولكن المعنى الأول للآية أقوى . عن ابن عبّاس ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ قال : حين أخذ الميثاق ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلًا بعمله .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يعني بالقرآن ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي من الصحف والوحي ﴿ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الاثني عشر ﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل ﴿ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ يعني بل نؤمن بجميعهم ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل ، وبكل كتاب أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك ، بل هم يصدقون بما أنزل من عند اللّه ، وبكل نبي بعثه اللّه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية أي من سلك طريقًا سوى ما شرعه اللّه فلن يقبل منه ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ . عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « تَجِيءُ الأَعْمَالُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَتَجِيءُ الصَّلاَةُ فَتَقُولُ : يَا رَبِّ أَنَا الصَّلاَةُ ، فَيَقُولُ : إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ ، وَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ : يَا رَبِّ أَنَا الصَّدَقَةُ ، فَيَقُولُ : إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ أَنَا الصِّيَامُ ، فَيَقُولُ : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ تَجِيءُ الأَعْمَالُ ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ اللّهُ تَعَالَى : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ يَجِيءُ الإِسْلاَمُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ أَنْتَ السَّلاَمُ وَأَنَا الإِسْلاَمُ ، فَيَقُولُ اللّهُ تَعَالَى : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، بِكَ اليَوْمَ آخُذُ ، وَبِكَ أُعْطِي »[٢] . قَالَ اللّهُ فِي كِتَابِهِ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٠) وأحمد في مسنده (٣٠٢/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٢/٢) .

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة ؟ فنزلت : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ إلى قوله ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم . عن مجاهد قال : جاء الحارث ابن سويد فأسلم مع النبيّ ﷺ ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه ، فأنزل الله فيه ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ إلى قوله ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال : فحملها إليه رجل من قومه فقرأ عليه ، فقال الحارث : إنك - والله ما علمت - لصدوق ، وإن رسول الله لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة قال : فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه (١) . فقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول ، ووضح لهم الأمر ، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك ، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي يلعنهم الله ويلعنهم خلقه ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي في اللعنة ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا من لطفه وبرّه ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى متوعدا ومهددًا لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفرًا ، أي استمر عليه إلى الممات ، ومخبرًا بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات ﴿ لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا فيما يراه قربة . كما سئل النبيّ ﷺ عن عبد الله بن جدعان وكان يقري الضيف ويفك العاني ويطعم الطعام : هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « لا ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ : رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين » (٢) . وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضًا ذهبًا ما قبل منه كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ ولهذا قال تعالى هنا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ فعطف ﴿ وَلَوِ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٤٦٠/٣) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٠٥/٢) وأحمد في مسنده (١٢٠/٦) .

افْتَدَىٰ بِهِۦ ﴾ على الأول فدل على أنه غيره ، وما ذكرناه أحسن من أن يقال إن الواو زائدة والله أعلم . ويقتضي ذلك أن لا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبًا . ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبًا بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها . عن أنس بن مالك ، أن النبيَّ ﷺ قال : « يُقالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيامَةِ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ اللَّه : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ آدَمَ أَنْ لا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ »[1] . ولهذا قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ أي وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ، ولا يجيرهم من أليم عقابه .

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ .

عن عمرو بن ميمون ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ ﴾ قال : الجنة . وعن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبيُّ ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، قال أنس : فلما نزلت ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قال أبو طلحة : يا رسول الله إن الله يقول : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء ، وإنها صدقة أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال النبيّ ﷺ : « بخ بخ ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ » فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[2] . وفي الصحيحين أن عمر قال : يا رسول الله لم أصب مالًا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر فما تأمرني به ؟ قال : « حَبِّسِ الأَصْلَ ، وَسَبِّلِ الثَّمَرَةَ »[3] . وعن حمزة بن عبد الله بن عمر قال : قال عبد الله : حضرتني هذه الآية ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ فذكرت ما أعطاني الله ، فلم أجد شيئًا أحب إليَّ من جارية لي رومية فقلت : هي حرة لوجه الله ، فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها ، يعني تزوجتها .

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنهن ، لا يعلمهن إلّا نبي ، قال : « سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ وَلَكِنِ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ ، لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتُتَابِعُنِّي عَلَى الإِسْلامِ » قالوا : فذلك لك ، قالوا : أخبرنا عن أربع خلال ، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ؟ ومن وليه من الملائكة ؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه فقال : « أَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا وَطَالَ سَقَمُهُ ، فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ

---

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٢) وأحمد في مسنده (١٢٧/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٨) ومسلم في الزكاة (٦٩٤٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١٤/٢) والبيهقي في السنن (١٦٢/٦) .

وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لَحْمَ الإِبِلِ ، وَأَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانَهَا » فقالوا : اللَّهُمَّ نعم فقال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ » وقال : « أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَضُ غَلِيظٌ ، وَمَاءَ المَرْأَةِ أَصْفَرُ رَقِيقٌ ، فَأَيُّهُمَا عَلا كَانَ لَهُ الوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ ، إِنْ عَلاَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَإِنْ عَلاَ مَاءُ المَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ ؟» قالوا : نعم ، قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ » قال : « وَأَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ ؟» قالوا : اللهم نعم ، قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » قال : « وَإِنَّ وَلِيِّي جِبْرِيلُ ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ » قالوا : فعند ذلك نفارقك ، ولو كان وليك غيره لتابعناك ، فعند ذلك قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ [1] الآية .

وقوله : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَىٰةُ ﴾ أي حرّم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . قلت : ولهذا السياق بعدما تقدم مناسبتان :

أحدهما : أن إسرائيل عليه السلام حرّم أحب الأشياء إليه وتركها لله ، وكان هذا سائغًا في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ فهذا هو المشروع عندنا ، وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه .

المناسبة الثانية : لما تقدم بيان الرد على النصارى ، واعتقادهم الباطل في المسيح ، وتبيين زيف ما ذهبوا إليه ، وظهور الحق واليقين في عيسى وأمه ، كيف خلقه الله بقدرته ومشيئته ، وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تبارك وتعالى ، شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالى ، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ؛ فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة أن نوحًا عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرّم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها فاتبعه بنوه في ذلك ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وأشياء أخرى زيادة على ذلك ، وكان الله عز وجل قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه ، وقد حرم ذلك بعد ذلك ، وكان التسري على الزوجة مباحًا في شريعة إبراهيم عليه السلام ، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة ، وقد حرّم مثل هذا في التوراة عليهم ، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغًا ، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين ، ثم حرّم عليهم ذلك في التوراة ، وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم ، وهذا هو النسخ بعينه ، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام في إحلاله بعض ما حرم في التوراة ، فما بالهم لم يتبعوه بل كذبوه وخالفوه ؟ وكذلك ما بعث الله به محمدًا ﷺ من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، وملة أبيه إبراهيم ، فما بالهم لا يؤمنون ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ أي كان حلًّا لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلَّا ما حرمه إسرائيل .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت ، والتمسك بالتوراة دائمًا ، وأنه لم يبعث نبيًّا آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج بعد

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٧٨) .

هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾ أي قل يا محمّد : صدق اللّه فيما أخبر به ، وفيما شرعه في القرآن ﴿ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها اللّه في القرآن على لسان محمّد ﷺ فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام ، الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه ، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر اللّه له في ذلك ، ونادى الناس إلى حجه ولهذا قال تعالى : ﴿ مُبَارَكًا ﴾ أي وضع مباركًا ﴿ وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول اللّه أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المَسْجِدُ الحَرَامُ » قلت : ثم أي ؟ قال : « المَسْجِدُ الأَقْصَى » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أَرْبَعُونَ سَنَةً » قلت : ثم أي قال : « ثُمَّ حَيْثُ أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ فَصَلِّ فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ » [(١)] . وعن علي رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ قال : كانت البيوت قبله ، ولكنه أول بيت وضع لعبادة اللّه . وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقًا ، والصحيح قول علي رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ بكة من أسماء مكة على المشهور ، قيل : سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة ، بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها . وقيل : لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون . قال قتادة : إن اللّه بكّ به الناس جميعًا فيصلي النساء أمام الرجال ، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها . وعن ابن عبّاس رضي الله عنه قال : مكة من الفج إلى التنعيم ، وبكة من البيت إلى البطحاء . وقال المغيرة : بكة البيت والمسجد . وقال ميمون بن مهران : البيت وما حوله بكة ، وما وراء ذلك مكة . وقال مقاتل بن حيان : بكة موضع البيت ، وما سوى ذلك مكة . وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة ، مكة ، وبكة ، والبيت العتيق . والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، والمأمون ، وأم رحم ، وأم القرى ، وصلاح ، والعرش ، على وزن بدر ، والقادس لأنها تطهر من الذنوب ؟ والمقدسة ، والناسة بالنون ، وبالباء أيضًا والبلسة ، والحاطمة ، والرأس ، وكوثاء ، والبلدة ، والبنية ، والكعبة .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم ، وأن اللّه عظمه وشرّفه ، ثم قال تعالى : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران ، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل ، وقد كان ملتصقًا بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١) وأحمد في مسنده (٥/١٥٠) .

بعد الطواف ؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ عن ابن عباس في قوله : ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي فمنهم مقام إبراهيم والمشاعر . وقال مجاهد : أثر قدميه في المقام آية بينة . وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة .

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلِ

عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ قال : الحرم كله مقام إبراهيم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ يعني حرم مكة ، إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء ، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية كما قال الحسن البصري وغيره : كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم ، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج . وعن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ قال : من عاذ بالبيت أعاذه البيت ، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ، فإذا خرج أخذ بذنبه ، وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره ، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها ، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك . عن ابن عبّاس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « لاَ هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا » (١) . وقال يوم فتح مكة : « إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّه يَوْمَ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ ؛ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّه إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ القِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّه إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لا يُعْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، وَلاَ يَلْتَقِطُ لقطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا ، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاهَا » فقال العباس : يا رسول الله إلَّا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : « إِلَّا الإِذْخِر » (٢) . وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزورة بسوق مكة يقول : « وَاللَّه إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّه ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّه إِلَى اللَّه ، وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ ما خَرَجْتُ » (٣) .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور . وقيل : بل هي قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعًا ضروريًا ، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع . عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الحَجُّ فَحُجُّوا » فقال رجل : أكلَّ عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا ، فقال رسول الله ﷺ : « لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ » ثم قال : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ ، وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ » (٤) . وعن سراقة بن مالك قال : يا رسول الله متعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟ قال : « لاَ . بَلِ لِلأَبَدِ » وفي رواية « بَلْ لِأَبَدِ الأَبَدِ » (٥) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٧٧) ومسلم في الحج (٤٤٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٧) ومسلم في الحج (٤٤٥) وأحمد في مسنده (٣١٥/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/٤) والحاكم في المستدرك (٧/٣) .
(٤) أخرجه مسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٢٩١/١) .
(٥) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) والبيهقي في السنن (٣٢٦/٤) .

وأما الاستطاعة فأقسام : تارة يكون الشخص مستطيعًا بنفسه ، وتارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام . عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من الحاج يا رسول الله ؟ قال : « الشعث التفل » فقام آخر قال : أي الحج أفضل يا رسول الله ؟ قال : « العَجُّ وَالثَّجُّ » فقام آخر فقال : ما السبيل يا رسول الله ؟ قال : « الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ » [1] . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعَجَّلُوا إِلَى الحَجِّ - يعني الفريضة - فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لاَ يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ » [2] . وعنه في قوله تعالى : ﴿ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ قال : من ملك ثلاثمائة درهم فقد استطاع إليه سبيلًا . وعن عكرمة قال : السبيل الصحة . وعن ابن عباس قال : « الزَّادُ والبَعِيرُ » .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : أي ومن جحد فريضة الحجِّ فقد كفر ، والله غني عنه . وعن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ قال اليهود : فنحن مسلمون ، قال الله عز وجل : فأخصمهم فحجهم ، يعني فقال لهم النبيّ ﷺ : « إِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَى المُسْلِمِينَ حَجَّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ » [3] . وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً وَلَمْ يَحُجَّ بَيْتَ اللهِ ، فَلاَ يَضُرُّهُ مَاتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ؛ وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ » [4] وعن الحسن البصري قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقد هممت أن أبعث رجالًا إلى هذه الأمصار فينظروا إلى كل من كان عنده جدَة فلم يحج فيضربوا عليه الجزية ، ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات الله ، وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله ، وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وما بشروا به ونوَّهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم ، وخاتم الأنبياء ، ورسول رب الأرض والسماء ، قد توعدهم الله على ذلك ، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك ، بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ، ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد ، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون ، أي وسيجزيهم على ذلك ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۝١٠٠ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

يحذِّر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، وما منحهم من إرسال رسوله .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣٣٠/٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٤/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤/٤) .
(٤) أخرجه الترمذي في الحج (٨١٢) .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ يعني أن الكفر بعيد منكم ، وحاشاكم منه ، فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلًا ونهارًا ، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم ثم قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية ، والعدة في مباعدة الغواية ، والوسيلة إلى الرشاد ، وطريق السداد وحصول المراد .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

عن عبد الله بن مسعود ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ قال : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وروي عن أنس أنه قال : لا يتقي الله العبد حق تقاته حتى يخزن لسانه . وقد ذهب سعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم والسدي وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ قال : لم تنسخ ، ولكن حق تقاته أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه ، أنه من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات علي شيء بعث عليه ، فعياذًا بالله من خلاف ذلك .

قال مجاهد : إن الناس كانوا يطوفون بالبيت ، وإن ابن عباس جالس معه محجن ، فقال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزَّقُّومُ ؟! » (١) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » (٢) .

وعن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث : « لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ ﷻ » (٣) . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ قَالَ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، فَإِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ ، وَإِنْ ظَنَّ بِي شَرًّا فَلَهُ » (٤) .

وعن أنس قال : كان رجل من الأنصار مريضًا فجاءه النبيُّ ﷺ يعوده فوافقه في السوق فسلم عليه فقال له : « كَيْفَ أَنْتَ يَا فُلاَنُ ؟ » قال : بخير يا رسول الله أرجو الله وأخاف ذنوبي ، فقال

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٩٤/٢) وأحمد في مسنده (٣٠١/١ ، ٣٠٨) .
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٤٦) وأحمد في مسنده (١٩٢/٢) والبيهقي في السنن (١٦٩/٨) .
(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨١) وأحمد في مسنده (٣٢٥/١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٦/٤) والمنذري في الترغيب (٤٧٧/٢) .

رسول الله ﷺ : « لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو ، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ » (١) . وعن حكيم بن حزام قال : بايعت رسول الله ﷺ أن لا أخر إلّا قائمًا (٢) ، قيل معناه : أن لا أموت إلّا مسلمًا ، وقيل : معناه أن لا أقتل إلّا مقبلًا غير مدبر ، وهو يرجع إلى الأول .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ قيل : ﴿ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي بعهد وذمة ، وقيل : ﴿ بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يعني القرآن ، كما في حديث علي مرفوعًا في صفة القرآن : « هُوَ حَبْلُ اللَّه المَتِينُ ، وَصِرَاطُهُ المُسْتَقِيمُ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة . وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف ، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا : يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّه جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللَّه أَمْرَكُمْ . وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا : قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ المَالِ » (٤) وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا . وخيف عليهم الافتراق والاختلاف فقد وقع في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلمة من عذاب النار ، وهم الذين على ما كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ إلى آخر الآية . وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج ؛ فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية ، وعداوة شديدة وضغائن وإحن وذحول ، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم . فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أن هداهم للإيمان . وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قسّم غنائم حنين فعتب من عتب منهم بما فضّل عليهم في القسمة بما أراه الله ، فخطبهم فقال : « يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّه بِي ، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّه بِي ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّه بِي ؟ » فكلما قال شيئًا قالوا : اللَّه ورسوله أمن (٥) . وقد ذكر محمّد بن إسحاق بن يسار وغيره : أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج ، وذلك أن رجلًا من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلًا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب ، ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتثاوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة ، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول : « أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ؟ » وتلا عليهم هذه الآية ، فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح ﷺ .

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٢/٨) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/٣) .
(٣) أخرجه الدارمي في السنن (٤٣١/٢) .
(٤) أخرجه مسلم في الأقضية (٣) وأحمد في مسنده (٣٦٧/٢) والبيهقي في السنن (١٦٣/٨) ومالك في الموطأ (٩٩٠) .
(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) ومسلم في الزكاة (١٣٩) والبيهقي في السنن (٣٣٩/٦) .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .

يقول تعالى : ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر اللَّه في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأولئك هم المفحلون . قال الضحاك : هم خاصة الصحابة ، وخاصة الرواة يعني المجاهدين والعلماء . والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبًا علي كل فرد من الأمة بحسبه ، كما ثبت عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » (١) .

وعن حذيفة بن اليمان أن النبيّ ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنكَرِ ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ » (٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الآية ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم ، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع قيام الحجة عليهم .

عن أبي عامر عبد اللَّه بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر قال : إن رسول اللَّه ﷺ قال : « إِنَّ أَهْلَ الكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يعني الأهواء - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً - وهي الجماعة - وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمُ الأَهْوَاءُ ، كَمَا يَتَجَارَى الكَلْبُ بِصَاحِبِهِ ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مِفْصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ » (٣) واللَّه يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ ، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة قاله ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ قال الحسن البصري : وهم المنافقون ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ يعني الجنة ماكثون فيها أبدًا ، لا يبغون عنها حولًا . وقد روى أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية : عن أبي غالب قال : رأى أبو أمامة رؤوسًا منصوبة على درج مسجد دمشق ، فقال أبو أمامة : كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء ، خير قتلى من قتلوه ، ثم قرأ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ إلى آخر الآية . قلت لأبي

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٧٣) والنسائي في السنن (١١١/٨) وأحمد في مسنده (٥٢/٣) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٦٩) وأحمد في مسنده (٣٨٩/٥) والطبراني في الكبير (١٨٠/١٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٢/٤) والحاكم في المستدرك (١٢٨/١) .

أمامة : أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : لو لم أسمعه إلَّا مرة أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا - حتى عدَّ سبعًا - ما حدثتكموه (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمّد ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي ليس بظالم لهم ، بل هو الحاكم العدل الذي لا يجور ؛ لأنه القادر على كل شيء العالم بكل شيء ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدًا من خلقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي الجميع ملك له وعبيد له ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ عن أبي هريرة ﷺ ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال : خير الناس للناس ، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام . والمعنى : أنهم خير الأمم ، وأنفع الناس للناس ، ولهذا قال : ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ . عن درة بنت أبي لهب قالت : قام رجل إلى النبيِّ ﷺ وهو على المنبر فقال : يا رسول الله : أي الناس خير ؟ قال : « خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَأُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ لله ، وَآمَرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمْ عنِ المُنكَرِ ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ » (٢) . وعن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة . والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه ، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . وعن معاوية بن حيدة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنْتُمْ تُوَفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ ﷻ » (٣) وهو حديث مشهور ، وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمّد صلوات الله وسلامه عليه ؛ فإنه أشرف خلق الله ، وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم ، لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل . فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه . وعن علي بن أبي طالب ﷺ يقول : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ » فقلنا : يا رسول الله ما هو ؟ قال : « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا ، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الأُمَمِ » (٤) .

وعن يزيد بن ميسرة قال : سمعت أبا الدرداء ﷺ يقول : سمعت أبا القاسم ﷺ وما سمعته يكنيه قبلها ولا بعدها يقول : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا عِيسَى إِنِّي بَاعِثٌ بَعْدَكَ أُمَّةً إِنْ أَصَابَهُمْ مَا

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٠٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٢/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٣/٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥) والحاكم في المستدرك (٨٤/٤) والطبراني في الكبير (٤٢٢/١٩) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٩٨/١) والبيهقي في السنن (٢١٣/١) .

يُحِبُّونَ حَمِدُوا وَشَكَرُوا ، وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ احْتَسَبُوا وَصَبَرُوا ، وَلاَ حِلْمَ وَلاَ عِلْمَ قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ هَذَا لَهُمْ وَلاَ حِلْمَ وَلاَ عِلْمَ ؟ قَالَ : أُعْطِيهِمْ مِنْ حِلْمِي وَعِلْمِي » [١] .

وعن عبد الرَّحمن بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ رَبِّي أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فقال عمر : يا رسول الله فهلا استزدته ؟ فقال : « اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا » قال عمر : فهلا استزدته قال : « قَدِ اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا » قال عمر : فهلا استزدته قال : « قَدِ اسْتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي هكذا » وفرج عبد الرَّحمن بن أبي بكر بين يديه [٢] . وقال عبد الله : وبسط باعيه وحثا عبد الله ، وقال هاشم : وهذا من الله لا يدرى ما عدده .

وعن ابن مسعود ﷺ قال : أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة ، ثم غدونا إليه فقال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ اللَّيْلَةَ بِأُمَمِهَا ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ ومَعَهُ الثَّلاثَةُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ العِصَابَةُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ النَّفَرُ ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى ﷺ وَمَعَهُ كَبْكَبَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَعْجَبُونِي فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلاَءِ ؟ قِيلَ : هَذَا أَخُوكَ مُوسَى وَمَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَقُلْتُ : فَأَيْنَ أُمَّتِي ؟ فَقِيلَ : انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ فَنَظَرْتُ فَإِذَا الظِّرَابُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ ، فَقِيلَ لِي : أَرَضِيتَ فَقُلْتُ : رَضِيتُ يَا رَبِّ - قال - فَقِيلَ لِي : إِنَّ مَعَ هَؤُلاَءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فقال النبيّ ﷺ : فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا فَافْعَلُوا ، فَإِنْ قَصَّرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الظِّرَابِ ، فَإِنْ قَصَّرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الأُفُقِ ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ ثَمَّ أُنَاسًا يَتَهَاوَشُونَ » فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم - أي من السبعين - فدعا له ، فقام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : « سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ » قال : ثم تحدثنا فقلنا : من ترون هؤلاء السبعين الألف ، قوم ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئًا حتى ماتوا ، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال : « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَكْتَوُونَ ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » [٣] .

وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي أنه قال : « لاَ رُقْيَةَ إِلا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَّةٍ » [٤] قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدَّثنا ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ أنه قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيطُ ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ. إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُم أُمَّتِي ، فَقِيلَ لِي : هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ . وَلَكِن انْظُرْ إِلَى الأُفق فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي : انْظُرْ إِلَى الأُفقِ الآخَرِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ : لي هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ » ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئًا ، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ ؟ » فأخبروه فقال : « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرْقُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَكْتَوُونَ ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٠/٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٧/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥٦٩/١٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/١) والحاكم في المستدرك (٥٧٧/٤) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٨٤) والترمذي في السنن (٢٠٥٧) وابن ماجه في السنن (٣٥١٣) .

وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم قال : «أَنْتَ مِنْهُمْ »ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم قال : «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ » (١).

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعَمِائَةَ أَلْفٍ » قال أبو بكر ﷺ: زدنا يا رسول الله قال : «وَاللَّهِ هَكَذَا »قال عمر : حسبك يا أبا بكر ، فقال أبو بكر : دعني وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلنا ؟ قال عمر : إن الله إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحد ، فقال النبيّ ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ » (٢).

وعن أبي مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيُبْعَثَنَّ مِنْكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى الجَنَّةِ مِثْلَ اللَّيْلِ الأَسْوَدِ ، زُمْرَةٌ جَمِيعُهَا يُحِيطُونَ الأَرْضَ ، تَقُولُ المَلائِكَةُ : لِمَ جَاءَ مَعَ مُحَمَّدٍ أَكْثَرُ مِمَّا جَاءَ مَعَ الأَنْبِيَاءِ ؟ » (٣).

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال لنا رسول الله ﷺ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ ؟ »فكبّرنا ، ثم قال : «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ ؟ »فكبّرنا ، ثم قال : «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ » (٤).

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «كَيْفَ أَنْتُمْ وَرُبُعُ الجَنَّةِ لَكُمْ وَلِسَائِرِ النَّاسِ ثَلاثَةُ أَرْبَاعِهَا ؟ »قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «كَيْفَ أَنْتُمْ وَثُلُثُهَا ؟ »قالوا : ذاك أكثر ، قال : «كَيْفَ أَنْتُمْ وَالشَّطْرُ لَكُمْ »قالوا : ذاك أكثر ، فقال رسول الله ﷺ: «أَهْلُ الجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ لَكُمْ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًّا » (٥).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : «نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الجَنَّةَ ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ ، فَهَذَا اليَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، غَدًا لِلْيَهُودِ ، وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ » (٦).

• فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح . كما قال قتادة : بلغنا أن عمر بن الخطاب ﷺ في حجة حجها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ثم قال : من سرّه أن يكون من هذه الأمة فليؤدّ شرط الله فيها . ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ الآية . ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أي بما أنزل على محمّد ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان .

ثم قال تعالى مخبرًا عباده المؤمنين ومبشرًا لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/١) والبغوي في شرح السنة (١٣٥/٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥/٣) والطبراني في الكبير (١٨٧/٨) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٣٧/٣) والسيوطي في جمع الجوامع (٤٢٥١) .
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٧٦) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٣/١) والطبراني في الكبير (٢٠٨/١٠) .
(٦) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٠) .

الملحدين فقال تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ هكذا وقع ؛ فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة وبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، كلهم أذلَّهم الله ، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن ، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك ، ويحكم بملة الإسلام وشرع محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلّا الإسلام . ثم قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا ، فلا يؤمنون ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي بذمة من الله ، وهو عقد الذمة لهم ، وضرب الجزية عليهم ، وإلزامهم أحكام الملة ﴿ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي أمان منهم لهم كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمَّنه واحد من المسلمين ولو امرأة ، وكذا عبد على أحد قولي العلماء ، قال ابن عبّاس ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ : أي بعهد من الله وعهد من الناس . وقوله : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي ألزموا ، فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ أي ألزموها قدرًا وشرعًا . ولهذا قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أي إنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد ، فأعقبهم ذلك الذلّة والصغار والمسكنة أبدًا متصلًا بذل الآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله - وقيضوا لذلك - أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله ، والغشيان لمعاصي الله ، والاعتداء في شرع الله ، فعياذًا بالله من ذلك ، والله ﷻ المستعان . عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي ، ثم يقوم سوق بقلهم في آخر النهار .

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ قال : لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمّد ﷺ . ويؤيد هذا القول ما روي عن ابن مسعود قال : أخّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد ، فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : « أَمَا إِنَّهُ لَيسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ » قال : فنزلت هذه الآيات ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمّد بن إسحاق وغيره ، وعن ابن عبّاس : أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم . أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب ، وهؤلاء الذين

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/١) .

أسلموا . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً ﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ أي قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه متبعة نبي الله ، فهي قائمة يعني مستقيمة ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ أي يقيمون الليل ، ويكثرون التهجد ، ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ وَأُولَٰٓئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾ وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ أي لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملًا .

ثم قال تعالى مخبرًا عن الكفرة المشركين بأنه ﴿ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي لا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده بهم ﴿ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ثم ضرب مثلًا لما ينفقه الكفار في هذه الدار ، فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أي برد شديد وقيل : برد وجليد ، وقيل : نار ، وهو يرجع إلى الأول فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار كما يحرق الشيء بالنار ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ أي فأحرقته ، يعني بذلك السعفة إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع فذهبت به وأفسدته ، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرها ، كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه . وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل ، وعلى غير أساس ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة ، أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم ، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالًا ، أي يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ، ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم . وقوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي من غيركم أهل الأديان ، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره . عن ابن أبي الدهقانة قال : قيل لعمر بن الخطاب ﷺ : إن ههنا غلامًا من أهل الحيرة حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتبًا ؟ فقال : قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين . ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين ، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ عن الأزهر بن راشد قال : كانوا يأتون أنسًا ، فإذا حدثهم

بحديث لا يدرون ما هو أتوا الحسن - يعني البصري - فيفسر لهم ، قال : فحدث ذات يوم عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين ، ولا تنقشوا في خواتيمكم عربيًا » فلم يدروا ما هو ، فأتوا الحسن فقالوا له : إن أنسًا حدثنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيكم عربيًا » فقال الحسن : أما قوله « لا تنقشوا في خواتيمكم عربيًا » : محمد ﷺ ، وأما قوله : « لا تستضيئوا بنار المشركين » يقول : لا تستشيروا المشركين في أموركم . ثم قال الحسن : تصديق ذلك في كتاب الله ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ (1) . هذا التفسير فيه نظر ومعناه ظاهر « لاَ تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبِيًّا » أي بخط عربي لئلا يشابه نقش خاتم النبيّ ﷺ فإنه كان نقشه محمّد رسول الله ؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه نهى أن ينقش أحد على نقشه . وأما الاستضاءة بنار المشركين فمعناه لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم ، بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم .

ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أي قد لاح على صفحات وجوههم ، وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك ، وهم لا يحبونكم لا باطنًا ولا ظاهرًا ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ أي ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب ، وهم عندهم الشك والريب والحيرة . عن ابن عبّاس ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ أي بكتابكم وكتابهم ، وبما مضى من الكتب قبل ذلك ، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم . رواه ابن جرير ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ .

قال ابن مسعود والسدي والربيع بن أنس : الأنامل الأصابع . وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة ، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ، ويغيظكم ذلك منهم ، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ، ومكمل دينه ، ومعل كلمته ، ومظهر دينه ، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين ، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها لا محيد لكم عنها ، ولا خروج لكم منها . ثم قال تعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين ، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين ، وإن أصاب المسلمين سنة أي جدب أو أديل عليهم الأعداء لما لله تعالى في ذلك من الحكمة - كما جرى يوم أُحد - فرح المنافقون بذلك . قال الله تعالى مخاطبًا للمؤمنين : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ الآية . يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار ، وكيد الفجّار ، باستعمال الصبر والتقوى والتوكّل

(1) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٩٩) والبيهقي في السنن (١٠/٢٧) .

على الله ، الذي هو محيط بأعدائهم ، فلا حول ولا قوة لهم إلّا به ، وهو الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يقع في الوجود شيء إلّا بتقديره ومشيئته ، ومن توكل عليه كفاه .

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أُحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وبيان الصابرين ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

المراد بهذه الوقعة يوم أُحد عند الجمهور . وعن الحسن البصري المراد بذلك يوم الأحزاب . وهو غريب لا يعول عليه . وكانت وقعة أُحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة . قال قتادة : لإحدى عشرة ليلة خلت من شوّال . وقال عكرمة : يوم السبت للنصف من شوال . وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر ، وسلمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان قال أبناء من قتل ، ورؤساء من بقي لأبي سفيان : ارصد هذه الأموال لقتال محمّد ، فأنفقوها في ذلك ، فجمعوا الجموع والأحابيش ، وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريبًا من أُحد ، تلقاء المدينة ، فصلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة ، فلما فرغ منها صلى على رجل من بني النجار يقال له مالك ابن عمرو ، واستشار رسول الله ﷺ الناس : أَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُثُ بِالْمَدِينَةِ ، فأشار عبد الله بن أُبي بالمقام بالمدينة ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين . وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم ، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته وخرج إليهم ، وقد ندم بعضهم ، وقالوا : لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إن شئت أن نمكث ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ » فسار ﷺ في ألف من أصحابه ، فلما كانوا بالشوط رجع عبد الله بن أُبي بثلث الجيش مغضبًا لكونه لم يرجع إلى قوله ، وقال هو وأصحابه : لو نعلم اليوم قتالًا لاتبعناكم ، ولكنا لا نراكم تقاتلون . واستمر رسول الله ﷺ سائرًا حتى نزل الشعب من أُحد في عدوة الوادي ، وجعل ظهره وعسكره إلى أُحد وقال : « لاَ يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ » .

وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه ، وأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف . والرماة يومئذ خمسون رجلًا فقال لهم : « انْضَحُوا الخَيْلَ عَنَّا ، وَلاَ نُؤْتَيَنَّ مَنْ قِبَلِكُمْ ، وَالْزَمُوا مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتِ النَّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونا تَخَطَّفُنَا الطَّيْرُ فَلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ » وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين ، وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار . وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ وأخّر آخرين حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين ، وتهيأت قريش وهم ثلاثة آلاف ، ومعهم مائة فرس قد جنبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة ابن أبي جهل ، ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار ، ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى [1] . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أي تنزلهم منازلهم ،

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٦٤/٢ - ٧١) .

وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لما تقولون ، عليم بضمائركم .

وقد أورد ابن جرير ههنا سؤالًا حاصله : كيف تقولون إن النبيَّ ﷺ خرج إلى أُحُد يوم الجمعة بعد الصلاة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ الآية . ثم كان جوابه عنه أن غدوه ليبوأهم مقاعد إنما كان يوم السبت أول النهار (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ قال عمر : سمعت جابر بن عبد الله يقول : فينا نزلت ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ الآية . قال : نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب - وقال سفيان مرة : وما يسرني - أنها لم تنزل لقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ أي يوم بدر ، وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة ، وهو يوم الفرقان الذي أعزّ الله فيه الإسلام وأهله ، ودمغ فيه الشرك وخرب محله وحزبه . هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا ، فيهم فارسان وسبعون بعيرًا ، والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه . وكان العدوُّ يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد ، والبيض ، والعدة الكاملة ، والخيول المسوَّمة ، والحلي الزائد . فأعز الله رسوله ، وأظهر وحيه وتنزيله ، وبيَّض وجه النبي وقبيله ، وأخزى الشيطان وجيله . ولهذا قال تعالى ممتنًّا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ أي قليل عددكم ، لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله ، لا بكثرة العدد والعُدد . عن سماك قال : سمعت عياضًا الأشعري قال : شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء ، أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وابن حسنة وخالد بن الوليد ، وعياض - وليس عياض هذا الذي حدث سماكًا - قال : وقال عمر : إذا كان قتالًا فعليكم أبو عبيدة ، قال : فكتبنا إليه أنه قد جأش إلينا الموت ، واستمددناه ، فكتب إلينا إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني ، وإني أدلكم على من هو أعز نصرًا ، وأحصن جندًا ، لله ﷻ ، فاستنصروه ؛ فإن محمدًا ﷺ قد نصر في يوم بدر في أقل من عدتكم ، فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني . قال : فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ ، قال : وأصبنا أموالًا فتشاورنا ، فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل ذي رأس عشرة . قال : وقال أبو عبيدة : من يراهنني ؟ فقال شاب : أنا إن لم تغضب ، قال : فسبقه فرأيت عقيصتي أبي عبيدة ، ينفران وهو خلفه على فرس أعرابي (٣) .

وبدر محلة بين مكة والمدينة تعرف ببئرها منسوبة إلى رجل حفرها يقال له بدر بن النارين ، قال الشعبي : بدر بئر لرجل يسمى بدرًا . وقوله : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي تقومون بطاعته .

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

---

(١) تفسير الطبري (٤/٩٤) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٥٨) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٩) .

اختلف المفسرون في هذا الوعد : هل كان يوم بدر أو يوم أُحد ؟ على قولين :

أحدهما : أن قوله : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ ، واختاره ابن جرير . عن عامر - يعني الشعبي - : أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين ، فشق ذلك عليهم ، فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ قال : فبلغت كرزًا الهزيمة فلم يمد المشركين ، ولم يمد اللَّه المسلمين بالخمسة . وقال الربيع بن أنس : أمدَّ اللَّه المسلمين بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله في قصة بدر : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ؟ فالجواب أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافي الثلاثة آلاف فما فوقها لقوله : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ، ويتبعهم ألوف أخر مثلهم . وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران ؛ فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو معروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر .

القول الثاني : إن هذا الوعد متعلق بقوله : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ وذلك يوم أُحد ، وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك . لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بالخمسة آلاف ؛ لأن المسلمين فروا يومئذ ، زاد عكرمة ولا بالثلاثة آلاف لقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد .

وقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ يعني تصبروا على مصابرة عدوكم ، وتتقوني وتطيعوا أمري . وقوله تعالى : ﴿ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ أي من وجههم هذا . وقال عكرمة : من غضبهم هذا . وقال ابن عباس : من سفرهم هذا . وقوله تعالى : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ أي معلمين بالسيما . عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض ، وكان سيماهم أيضًا في نواصي خيولهم ، وعن أبي هريرة ﷺ في هذه الآية ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ قال : بالعهن الأحمر . وقال مجاهد : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ أي محذفة أعرافها ، معلمة نواصيها بالصوف الأبيض في أذناب الخيل . وقال قتادة وعكرمة : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ أي بسيما القتال . وقال مكحول : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ بالعمائم . وعن ابن عبّاس قال : قال رسول اللَّه ﷺ في قوله : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ قال : « مُعَلَّمِينَ ، وَكَانَ سِيمَا المَلَائِكَةِ يَوْمَ بَدْرٍ عَمَائِمَ سُودًا ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ عَمَائِمَ حُمْرًا » (١) ، وعن ابن عبّاس قال : لم تقاتل الملائكة إلّا يوم بدر . وقال ابن عبّاس : كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمر ، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون عددًا ومددًا لا يضربون .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ أي وما أنزل اللَّه الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلّا بشارة لكم ، وتطييبًا لقلوبكم وتطمينًا ، وإلّا فإنما النصر من عند اللَّه ، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي هو ذو العزة التي لا ترام ، والحكمة في قدره والأحكام .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٤٦٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٧/٦) .

ثم قال تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي أمركم بالجهاد والجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير ، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين فقال : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا ﴾ أي ليهلك أمة ﴿ مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا ﴾ أي يرجعوا ﴿ خَائِبِينَ ﴾ أي لم يحصلوا على ما أملوا . ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أي بل الأمر كله إليّ ، وقال محمد بن إسحاق في قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلّا ما أمرتك به فيهم ، ثم ذكر بقية الأقسام فقال : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ أي في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أي يستحقون ذلك .

عن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا ، اللَّهُمَّ الْعَنِ الْحَارِثَ ابْنَ هِشَامٍ ، اللَّهُمَّ الْعَنْ سُهَيلَ بْنَ عَمْرٍو ، اللَّهُمَّ الْعَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ » فنزلت هذه الآية ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ فتيب عليهم كلهم (١) . وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع وربما قال ، إذا قال : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ : « اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ » (٢) يجهر بذلك .

عن أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ كسرت رباعيته يوم أُحد ، وشج في وجهه ، حتى سال الدم على وجهه فقال : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هذَا بِنَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ ؟ » فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٣) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية أي الجميع ملك له ، وأهلهما عبيد بين يديه ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ أي هو المتصرف فلا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن تعاطي الربا ، وأكله أضعافًا مضاعفة ، كما كانوا يقولون : إذا حل أجل الدين إما أن تقضي ، وإما أن تربي ، فإن قضاه وإلّا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر ، وهكذا كل عام ، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرًا مضاعفًا (٤) . وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٩) وأحمد في مسنده (٩٣/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٢) وأحمد في مسنده (٤٧٠/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٣) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٢)

وفي الآخرة ، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها فقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات فقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي كما أعدت النار للكافرين ، وقد قيل : إن في معنى قوله : ﴿ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ تنبيهًا على اتساع طولها ، كما قال في صفة فرش الجنة : ﴿ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ أي فما ظنك بالظهائر . وقيل : بل عرضها كطولها ؛ لأنها قبة فيه تحت العرش ، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله ، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح : « إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهِ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ؛ فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ، وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمنِ » (١) . وقد روينا في مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبيّ ﷺ : إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال النبيّ ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّه ! فَأَيْنَ اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ » (٢) . وهذا يحتمل معنيين :

أحدهما : أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان ، وإن كنا لا نعلمه . وكذلك النار تكون حيث شاء اللّه ﷻ ، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة .

الثاني : أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب ، فإن الليل يكون من الجانب الآخر ، فكذلك الجنّة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش ، وعرضها كما قال اللّه ﷻ : ﴿ كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ والنار في أسفل سافلين ، فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض ، وبين وجود النار ، واللّه أعلم .

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ أي في الشدة والرخاء ، والمنشط والمكره ، والصحة والمرض ، وفي جميع الأحوال . والمعنى : أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة اللّه تعالى ، والإنفاق في مراضيه ، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر . وقوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ ؛ كَفَّ اللَّه عَنْهُ عَذَابَهُ ، وَمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ ؛ سَتَرَ اللَّه عَوْرَتَهُ ، وَمَنِ اعْتَذَرَ إِلَى اللَّه قَبِلَ اللَّه عُذْرَهُ » (٣) . وعن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ ؛ وَلَكِنَ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ » (٤) . وعن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ؟ » قالوا : يا رسول اللّه ، ما منا أحد إلّا ماله أحب إليه من مال وارثه ، قال : « واعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ، مَا لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ ، وَمَا لِوَارِثِكَ إِلَّا مَا أَخَّرْتَ » قال : وقال رسول اللّه ﷺ : « مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ ؟ » قلنا : الذي لا تصرعه الرجال ، قال : « لاَ ، وَلَكِنِ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » . قال : وقال رسول اللّه ﷺ : « أَتَدْرُونَ مَا الرَّقُوبُ ؟ » قلنا : الذي لا ولد له ، قال : « لاَ ، وَلَكِنِ الرَّقُوبَ الَّذِي لا يُقَدِّمُ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا » (٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٩/٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٢/٣) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٥٣/١٢) والمنذري في الترغيب (٥٢٥/٣) والألباني في الصحيحة (٦٠٨/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤) ومسلم في البر والصلة (١٠٧) .
(٥) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢) وأحمد في مسنده (٣٨٢/١) والنسائي في السنن (٣٦١٢) .

وعن الأحنف بن قيس عن عم له : يقال له حارثة بن قدامة السعدي أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قل لي قولًا ينفعني ، وأقلل عليّ لعلي أعيه . فقال رسول الله ﷺ : « لاَ تَغْضَبْ » فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارًا ، كل ذلك يقول : « لاَ تَغْضَبْ » [(١)] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه : قال : كان يسقي على حوض له فجاء قوم فقالوا : أيكم يورد على أبي ذر ويحسب شعرات من رأسه ؟ فقال رجل : أنا ، فجاء فأورد على الحوض فدقه ، وكان أبو ذر قائمًا فجلس ، ثم اضطجع ، فقيل له : يا أبا ذر لم جلست ثم اضطجعت ؟ فقال : إن رسول الله قال لنا : « إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الغَضَبُ ، وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ » [(٢)] .

وعن وائل الصنعاني قال : كنا جلوسًا عند عروة بن محمَّد إذ دخل عليه رجل فكلمه بكلام أغضبه ، فلما أن أغضبه قام ثم عاد إلينا وقد توضأ فقال : حدَّثني أبي عن جدي عطية هو ابن السعدي - وقد كانت له صحبة - قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بالمَاءِ ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ » [(٣)] .

وعن ابن عبّاس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ ، وَقَاهُ اللَّه مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ، أَلاَ إِنَّ عَمَلَ الجَنَّةِ حَزْنٌ بَرَبْوَةٍ - ثلاثًا - أَلاَ إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الفِتَنَ ، وَمَا مِنْ جرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّه مِنْ جرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ للَّه إِلَّا مَلأَ اللَّه جَوْفَهُ إِيمَانًا » [(٤)] .

عن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ ؛ دَعَاهُ اللَّه عَلَى رُءُوسِ الخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ الحُورِ شَاءَ » [(٥)] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ مِنْ جرْعَةٍ أَفْضَلَ أَجْرًا مِنْ جرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّه » [(٦)] .

فقوله تعالى : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ أي لا يعلمون غضبهم في الناس ، بل يكفون عنهم شرهم ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل . ثم قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم ، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد ، وهذا أكمل الأحوال ، ولهذا قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فهذا من مقامات الإحسان . وفي الحديث : « ثَلاَثٌ أُقسمُ عَلَيْهِنَّ : ما نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَمَا زَادَ اللَّه عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَنْ تَوَاضَعَ للَّه رَفَعَهُ اللَّه » [(٧)] . وعن أبيّ ابن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُشْرَفَ لَهُ البُنْيَانُ ، وَتُرْفَعَ لَهُ الدَّرَجَاتُ ، فَلْيَعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَهُ ، وَيُعْطِ مَنْ حَرَمَهُ ، وَيَصِلْ مَنْ قَطَعَهُ » [(٨)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي إذا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٦١٥/٣) وأحمد في مسنده (٣٤/٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٢/٥) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٦/٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٧/٣) والحاكم في المستدرك (٢٩/٢) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠/٣) وابن ماجه في السنن (٤١٨٦) والبيهقي في السنن (١٦١/٨) .
(٦) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤١٨٩) . (٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣١/٤) .
(٨) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٩٥/٢) .

صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار . عن أبي هريرة ﷺ ، عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ ﷻ : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : عَبْدِي عَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ » (١)

وعن أبا هريرة قلنا : يا رسول الله إذا رأيناك رقت قلوبنا ، وكنا من أهل الآخرة ، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد ، فقال : « لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى الحَالِ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ بِأَكُفِّهِمْ ، وَلَزَارَتْكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ . وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ؛ لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ كَيْ يَغْفِرَ لَهُمْ » قلنا : يا رسول الله ، حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : « لَبِنَةُ ذَهَبٍ ، وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ ، وَمِلَاطُهَا المِسْكُ الأَذْفَرُ ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ ، مَنْ يَدْخُلْهَا يَنْعَمْ لاَ يَبْأَسْ ، وَيُخْلَدُ لاَ يَمُوتُ ، لا تَبْلَى ثِيَابُهُ ، وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ ، ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الإِمَامُ العَادِلُ ، والصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الغَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ : وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ » (٢)

ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة لما رواه علي ﷺ قال : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا نفعني الله بما شاء منه ، وإذا حدثني عنه غيره استحلفته فإذا حلف لي صدقته ، وإن أبا بكر ﷺ حدثني وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ وَيُحْسِنُ الوُضُوءَ - قَالَ مسعر : فيصلي ، وقال سفيان : ثُمَّ يُصَلِّي - رَكْعَتَيْنِ فيستغفرُ اللَّهَ ﷻ إِلَّا غُفِرَ لَهُ » (٣) .

وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ أنه توضأ لهم وضوء النبيّ ﷺ ثم قال : سمعت النبيّ ﷺ يقول : « مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (٤) فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، عن سيد الأولين والآخرين ، ورسول رب العالمين ، كما دل عليه الكتاب المبين ، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين .

عن أنس بن مالك ﷺ قال : بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ الآية ، بكى . وعن أبي بكر ﷺ عن النبي ﷺ قال : « عَلَيْكُم بِلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالاسْتِغْفَار ، فَأَكْثِرُوا مِنْهُمَا ، فَإِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ : أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ ، وَأَهْلَكُونِي بِلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالاسْتِغْفَار ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ أَهْلَكْتُهُمْ بِالأَهْوَاءِ ، فَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ » (٥) . وعن أبي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٢) والبخاري في التوحيد (٧٥١٧) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٤/٢) والترمذي في السنن (٢٤٥٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١) وابن ماجه في السنن (١٣٩٥) .
(٤) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٤) ومسلم في الطهارة (٤) .
(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٣٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٧/١٠) والحديث إسناده ضعيف .

سعيد عن النبيّ ﷺ قال : « قَالَ إِبْلِيسُ : يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ لا أَزَالُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ في أَجْسَادِهِمْ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالى : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ ما اسْتَغْفَرُونِي » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي لا يغفرها أحد سواه ، عن الأسود بن سريع أن النبيّ ﷺ أتي بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمّد ، فقال النبيّ ﷺ : « عَرَفَ الحَقَّ لِأَهْلِهِ » (٢) . وقوله : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى اللَّه عن قريب ، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها ، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه . عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » (٣) .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قال مجاهد وعبد اللَّه بن عبيد بن عمير : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي من تاب تاب اللَّه عليه . عن عبد اللَّه بن عمرو عن النبيّ ﷺ أنه قال وهو على المنبر : « ارْحَمُوا تُرْحَمُوا ، وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ ، وَيْلٌ لأَقْمَاعِ القَوْلِ ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (٤) . ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من ربهم ﴿ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي من أنواع المشروبات ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ يمدح تعالى الجنّة .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أُحد وقتل منهم سبعون : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ يعني القرآن فيه بيان الأمور على جليتها ، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ ﴾ يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم ﴿ وَمَوْعِظَةٌ ﴾ أي زاجر عن المحارم والمآثم . ثم قال تعالى مسليًا للمؤمنين : ﴿ وَلَا تَهِنُواْ ﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى ﴿ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ إن كنتم قد أصابتكم جراح ، وقتل منكم طائفة ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي نديل عليكم الأعداء تارة ، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة ، ولهذا قال تعالى :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٦/٣) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٥٥/٤) وأحمد في مسنده (٤٣٥/٣) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (١٥١٤) والبيهقي في السنن (١٨٨/١٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥/٢) .

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ قال ابن عباس : في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ يعني يقتلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي بكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب . وإلّا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به . وقوله : ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي فإنهم إذا ظفروا ، بغوا وبطروا ، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم .

ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد ، كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ الآية ، ولهذا قال ههنا : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ أي قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو ، وتحترقون عليه ، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم ، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه ، فدونكم فقاتلوا وصابروا . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالَ السُّيُوفِ » [1] ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ يعني الموت شاهدتموه وقت حد الأسنة واشتباك الرماح وصفوف الرجال للقتال ، والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل ، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس كما تتخيل الشاة صداقة الكبش ، وعداوة الذئب .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

لما انهزم من انهزم المسلمين يوم أُحد ، وقتل من قتل منهم ، نادى الشيطان : ألا إن محمدًا قد قتل ، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم : قتلت محمدًا ، وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجه في رأسه ، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل وجوزوا عليه ذلك . كما قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام ، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال ، ففي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة ، وفي جواز القتل عليه . قال ابن أبي نجيح عن أبيه : إن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من

---

(١) أخرجه البخاري في التمنى (٧٢٣٧) ومسلم في الجهاد (١٩) .

الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال له : يا فلان أشعرت أن محمدًا ﷺ قد قتل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمدًا قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم فنزل ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ .

ثم قال تعالى منكرًا على من حصل له ضعف : ﴿ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ أي رجعتم القهقرى ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي الذين قاموا بطاعته ، وقاتلوا عن دينه ، واتبعوا رسوله حيًّا وميتًا . عن أبي سلمة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنح ، حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيمَّم رسول الله ﷺ وهو مغطى بثوب حبرة : فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه وقبّله وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين : أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها . وعن ابن عبّاس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس وقال : اجلس يا عمر ، قال أبو بكر : أما بعد من كان يعبد محمّدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ قال : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشرًا من الناس إلَّا يتلوها . وأخبرني سعيد بن المسيَّب أن عمر قال : والله ما هو إلَّا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعرقت حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى هويت إلى الأرض [1] .

عن ابن عبّاس أن عليًا كان يقول في حياة رسول الله ﷺ ﴿ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت ، والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه فمن أحق به مني ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ أي لا يموت أحد إلَّا بقدر الله ، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له ، ولهذا قال : ﴿ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه . عن حبيب ابن ظبيان : قال : قال رجل من المسلمين وهو حجر بن عدي : ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطفة ؟ - يعني دجلة - ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ ثم أقحم فرسه دجلة ، فلما أقحم أقحم الناس ، فلما رآهم العدوُّ قالوا : ديوان فهربوا .

وقوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أي من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدَّره الله له ، ولم يكن له في الآخرة من نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها وما قسم له في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم .

ثم قال تعالى مسليًا للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أُحد : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ قيل : معناه كم من نبي قتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير . وهذا القول هو اختيار ابن

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤١) .

جرير فإنه قال : وأما الذين قرأوا ﴿ قُتِلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [١] فإنهم قالوا : إنما عنى بالقتل النبي وبعض من معه من الربيين دون جميعهم ، وإنما نفى الوهن والضعف عمن بقي من الربيين ممن لم يقتل . قال : ومن قرأ ﴿ قَٰتَلَ ﴾ فإنه اختار ذلك لأنه قال : لو قتلوا لم يكن لقول اللَّه : ﴿ فَمَا وَهَنُواْ ﴾ وجه معروف ؛ لأنه يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا ، ثم اختار قراءة من قرأ ﴿ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ لأن اللَّه عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أُحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمَّدًا قد قتل ، فعذلهم اللَّه على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم : ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم ﴿ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ وقيل : وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير . وكلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولًا آخر فإنه قال : وكأين من نبي أصابه القتل ومعه ربيون أي جماعات ، فما وهنوا بعد نبيهم ، وما ضعفوا عن عدوهم ، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن اللَّه وعن دينهم ، وذلك الصبر ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ فجعل قوله : ﴿ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ حالًا . وقد نصر هذا القول السهيلي وبالغ فيه ، وله اتجاه لقوله : ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ ﴾ الآية [٢] . وقرأ بعضهم ﴿ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ أي ألوف . وقال ابن عبَّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم : الربيون الجموع الكثيرة . وقيل : أي علماء كثير . وحكى ابن جرير عن بعض نحاة البصرة أن الربيين هم الذين يعبدون الرب ﷻ . قال : ورد بعضهم عليه فقال : لو كان كذلك لقيل الرَّبيون بفتح الراء . وقال ابن زيد : الربيون الأتباع والرعية ، والربانيون الولاة ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ قال قتادة والربيع بن أنس : ﴿ وَمَا ضَعُفُواْ ﴾ بقتل نبيهم ﴿ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ يقول : فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم ، أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي اللَّه حتى لحقوا باللَّه . وقال ابن عبَّاس : ﴿ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ تخشعوا . وقال ابن زيد : وما ذلوا لعدوهم . وقال محمد بن إسحاق والسدِّي وقتادة : أي ما أصابهم ذلك حين قتل نبيهم ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي لم يكن لهم هجير إلَّا ذلك ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي النصر والظفر والعاقبة ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ۝ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

---

(١) قرأ نافع وابن كثير والبصريان (قُتِلَ معه) بضم القاف وكسر التاء من غير ألف ، وقرأ الباقون (قَاتَلَ) بفتح القاف والتاء وألف بينهما (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٢) .

(٢) السيرة لابن هشام (١١٧/٣ ، ١١٨) .

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين ؛ فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكُّل عليه ، فقال تعالى : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم ، والذلة لهم ، بسبب كفرهم وشركهم ، مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال فقال : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً »(١) . وعن ابن عبَّاس في قوله تعالى : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ قال : قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة ، فقال النبيّ ﷺ : « إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرَفًا ، وَقَدْ رَجَعَ وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّعْبَ »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ ﴾ قال ابن عبَّاس : وعدهم الله النصر . وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ أن ذلك كان يوم أُحد ؛ لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل ، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام ، فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة ، تأخر الوعد الذي كان مشروطًا بالثبات والطاعة ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ أي أول النهار ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم ﴾ أي تقتلونهم ﴿ بِإِذْنِهِۦ ۖ ﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ قال ابن عبَّاس : الفشل الجبن ﴿ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم ﴾ كما وقع للرماة ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ وهو الظفر بهم ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ ﴾ ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ ﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع ، وذلك والله أعلم لكثرة عدد العدو وعددهم ، وقلة عدد المسلمين وعددهم . ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ عن ابن مسعود قال : إن النساء كنَّ يوم أُحد خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين ، فلو حلفت يومئذٍ رجوت أن أبر ، أنه ليس منا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ ﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به ، أفرد النبي ﷺ في تسعة ، سبعة من الأنصار ، ورجلين من قريش وهو عاشرهم ﷺ ، فلما أرهقوه قال : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا » قال : فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل ، فلما أرهقوه أيضًا قال : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا » فلم يزل يقول ذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : « مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا » فجاء أبو سفيان فقال : أعل هبل ، فقال رسول الله ﷺ : « قُولُوا : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ » فقالوا : الله أعلى وأجل ، فقال أبو سفيان :

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) وأحمد في مسنده (١٦١/٥) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٣/٢) .

لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ : « قُولُوا : اللَّه مَوْلاَنَا وَالكَافِرُونَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، فيوم علينا ويوم لنا ، ويوم نُسَاءُ ويوم نسر ، حنظلة بحنظلة وفلان بفلان ، فقال رسول الله ﷺ : « لا سَوَاءَ : أَمَّا قَتْلانَا فَأَحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ ، وَأَمَّا قَتْلاكُمْ فَفِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ » فقال أبو سفيان : لقد كان في القوم مثله وإن كانت لعن غير ملامنا ، ما أمرت ولا نهيت ، ولا أحببت ولا كرهت ، ولا ساءني ولا سرني ، قال : فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه ، وأخذت هند كبده فلاكتها ، فلم تستطع أن تأكلها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَكَلَتْ شَيْئًا ؟ » قالوا : لا ، قال : « مَا كَانَ اللَّه لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حَمْزَةَ فِي النَّارِ » قال : فوضع رسول الله ﷺ حمزة فصلى عليه ، وجيء برجل من الأنصار فوضع إلى جنبه فصلى عليه ، فرفع الأنصاري وترك حمزة حتى جيء بآخر فوضع إلى جنب حمزة فصلى عليه ، ثم رفع وترك حمزة ، حتى صلى عليه يومئذٍ سبعين صلاة [(١)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما كان يوم أُحد هزم المشركون ، فصرخ إبليس : أي عباد الله أخراكم ، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم ، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان فقال : أي عباد الله أبي أبي قال : قالت : فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم . قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله عز وجل [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ وعن أنس بن مالك أن عمه - يعني أنس بن النضر - غاب عن بدر فقال : غبت عن أول قتال النبي ﷺ ، لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أجد ، فلقي يوم أُحد ، فهزم الناس فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ فقال : أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أحد ، فمضى فقتل ، فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو ببنانه ، وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم [(٣)] . وعن عثمان بن موهب قال : جاء رجل حج البيت ، فرأى قومًا جلوسًا فقال : من هؤلاء القعود ؟ قالوا : هؤلاء قريش ، قال : من الشيخ ؟ قالوا : ابن عمر ، فأتاه فقال : إني سائلك عن شيء فحدثني ، قال : سل ، قال : أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فرَّ يوم أحد ؟ قال : نعم ، قال : فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها ؟ قال : نعم ، قال : فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم ، فكبَّر ، فقال ابن عمر : تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه ، أما فراره يوم أُحد : فأشهد أن الله عفا عنه ، وأما تغيبه عن بدر : فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة ، فقال له رسول الله ﷺ : « إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ » ، وأما تغيبه عن بيعه الرضوان : فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث عثمان ، فكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال النبيُّ ﷺ بيده اليمنى : « هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ » فضرب بها على يده فقال : « هَذه يَدُ عُثْمَانَ ، اذْهَبْ بِهَا الآنَ مَعَكَ » [(٤)] .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾ أي صرفكم عنهم إذ تصعدون ، أي في

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٣/١) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٥) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٤٨) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٦) .

الجبل هاربين من أعدائكم . وقرأ الحسن وقتادة ﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ ﴾ أي في الجبل ﴿ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾ أي وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرغب ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ أي وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء ، وإلى الرجعة والعودة والكرة . قال السدي : لما اشتد المشركون على المسلمين بأُحُد فهزموهم ، دخل بعضهم المدينة وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها ، فجعل الرسول ﷺ يدعو الناس « إِلَيَّ عِبَادَ اللَّه ، إِلَيَّ عِبَادَ اللَّه » [(١)] فذكر الله صعودهم إلى الجبل ، ثم ذكر دعاء النبيّ ﷺ إياهم فقال : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ . وقال عبد الله بن الزبعرى : يذكر هزيمة المسلمين يوم أُحد في قصيدته وهو مشرك بعد لم يسلم ، التي يقول في أولها :

يَا غُرَابَ البَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ ... إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئًا قَدْ فُعِلْ

إِنَّ لِلْخَيْرِ وَلِلشَّرِّ مَدًّى ... وَكِلَا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبَلْ

إلى أن قال :

ثُمَّ خَفُّوا عِنْدَ ذَاكُمْ رَقَصًا ... رَقَصَ الحَفَّانِ يَعْلُو فِي الجَبَلْ

فَقَتَلْنَا الضِّعْفَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ ... وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدَلْ

الحفان : صغار النعم . وقد كان النبيّ ﷺ قد أفرد في اثني عشر رجلًا من أصحابه . عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أُحُد - وكانوا خمسين رجلًا - عبد الله بن جبير قال : ووضعهم موضعًا وقال : « إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ » قال : فهزموهم ، قال : فلقد والله رأيت النساء يشتددن على الجبل وقد بدت أسواقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن ، فقال أصحاب عبد الله : الغنيمة أي قوم الغنيمة ، ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين ، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم ، فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا أصابوا منا سبعين ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين ، سبعين أسيرًا وسبعين قتيلًا . قال أبو سفيان : أفي القوم محمّد ؟ أفي القوم محمّد ؟ - ثلاثًا - قال : فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه ، ثم قال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ ثم أقبل على أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم ، فما ملك عمر نفسه أن قال : كذبت والله يا عدو الله إن الذين عددت لأحياء كلهم ، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك ، فقال : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني . ثم أخذ يرتجز يقول : اعلُ هبل أعلُ هبل فقال رسول الله ﷺ : « أَلَا تُجِيبُوهُ ؟» قالوا : يا رسول الله ما نقول ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلّ» قال : لنا العزى ولا عزى لكم . قال رسول الله ﷺ : « أَلَا تُجِيبُوهُ ؟» قالوا : يا رسول الله وما نقول ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ» [(٢)] .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٧٨/١٤) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٤٣) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٤) .

وعن قيس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبيّ ﷺ - يعني يوم أُحُد (١)
وعن أبي عثمان النهدي قال : لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ إلّا طلحة بن عبيد الله وسعد عن حديثهما (٢) . وقال سعد بن أبي وقاص : نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أُحُد وقال : « ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » (٣) .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : رأيت يوم أُحُد عن يمين النبيّ ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده - يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام (٤) .

وعن عروة بن الزبير قال : كان أُبيّ بن خلف أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال : « بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّه » فلما كان يوم أُحُد أقبل أُبيّ في الحديد مقنعًا وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمَّد ، فحمل على رسول الله يريد قتله فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، وطعنه فيها بحربته فوقع إلى الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له : ما أجزعك ؟ إنما هو خدش . فذكر لهم قول رسول الله ﷺ : « بَلْ أَنَا أَقْتُلُ أُبَيًّا » ثم قال : والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون ، فمات إلى النار ﴿ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

وعن ابن عبَّاس قال : اشتد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ بيده في سبيل الله ، واشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله ﷺ (٥) . وقال ابن إسحاق : أصيبت رباعية رسول الله ﷺ ، وشج في وجنته ، وكلمت شفته ، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص . وعن سعد بن أبي وقاص قال : ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص ، وإن كان ما علمته لسيئ الخلق مبغضًا في قومه ، ولقد كفاني فيه قول رسول الله ﷺ : « اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّه عَلَى مَنْ دَمَّى وَجْهَ رَسُولِ اللَّه ﷺ » (٦) .

عن أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أُحُد قال : ذاك يوم كله لطلحة ، ثم أنشأ يحدِّث قال : كنت أول من فاء يوم أُحُد ، فرأيت رجلًا يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه - وأراه قال : حمية - فقلت : كن طلحة حيث فاتني ما فاتني ، فقلت : يكون رجلًا من قومي أحب إلي ، وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطف المشي خطفًا لا أعرفه ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته وشج في وجهه ، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر ، فقال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمَا صَاحِبُكُما » يريد طلحة ، وقد نزف فلم نلتفت إلى قوله ، قال : وذهبت لأنزع ذلك من وجهه ، فقال أبو عبيدة : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، فتركته ، فكره أن يتناولها بيده فيؤذي رسول الله ﷺ فأزم عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة ، وذهبت لأصنع ما صنع فقال : أقسمت عليك بحقي لما تركتني ، قال : ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى ، ووقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة من

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٣) .
(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٠) .
(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٥٩) .
(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٥٤) .
(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٧٦) .
(٦) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٧٣) .

أحسن الناس هتمًا ، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجفار ، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة ، وإذا قد قطعت إصبعه ، فأصلحنا من شأنه (١).

وعن عمر بن السائب أنه بلغه أن مالكًا أبا أبي سعيد الخدري لما جرح النبيّ ﷺ يوم أُحد مص الجرح حتى أنقاه ولاح أبيض ، فقيل له : مجه فقال : لا والله لا أمجه أبدًا ، ثم أدبر يقاتل فقال النبيّ ﷺ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا » فاستشهد (٢) . وقد ثبت عن سهل بن سعد أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال : جرح وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه ﷺ ، فكانت فاطمة تغسل الدم ، وكان علي يسكب عليه الماء بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلّا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ، حتى إذا صارت رمادًا ألصقته بالجرح فاستمسك الدم (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ ﴾ أي فجزاكم غمًا على غم كما تقول العرب : نزلت ببني فلان ، ونزلت على بني فلان . قال ابن عبّاس : الغم الأول بسبب الهزيمة وحين قيل : قتل محمّد ﷺ ، والثاني : حين علاهم المشركين فوق الجبل ، وقال النبيُّ ﷺ : « اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا » (٤) . وعن عبد الرحمن بن عوف : الغم الأول بسبب الهزيمة ، والثاني حين قيل قُتل محمّد ﷺ كان ذلك عندهم أشد وأعظم من الهزيمة ، وقال السدي : الغم الأول بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح ، والثاني بإشراف العدو عليهم . وقال محمّد بن إسحاق : أي كربًا بعد كرب ، قتل من قتل من إخوانكم ، وعلو عدوكم عليكم ، وما وقع في أنفسكم من قول: قتل نبيكم ، فكان ذلك متتابعًا عليكم غمًا بغم . قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ ﴾ فأثابكم نعمكم أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم ، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذٍ بعد الذي كان قد أراكم في كل ذلك ما تحبون بمعصيتكم أمر ربكم ، وخلافكم أمر نبيكم ﷺ ، وغم ظنكم أن نبيكم قد قتل ، وميل العدو عليكم بعدفلوكم منهم . وقوله تعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ﴿ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾ من الجراح والقتل ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ سبحانه وبحمده لا إله إلّا هو جل وعلا .

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة ، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم ، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان ، كما قال في سورة الأنفال في قصة بدر : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ الآية . عن عبد الله بن مسعود قال : النعاس

(١) أخرجه : البيهقي في دلائل النبوة ٣٦٣/٣ ، والهندي في كنز العمال (٣٠٠٢٥) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٨٣/٤) . (٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٧٥) . (٤) أخرجه : أحمد في مسنده ١٧/٦ .

في القتال من الله ، وفي الصلاة من الشيطان . عن أبي طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أُحد حتى سقط سيفي من يدي مرارًا ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه . عن أبي طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحُد ، قال : فجعل سيفي يسقط من يدي ، وآخذه ويسقط وآخذه [١] . قال : والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلَّا أنفسهم ، أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق ، ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ أي إنما هم أهل شك وريب في الله ﷻ . هكذا رواه بهذه الزيادة ، كأنها من كلام قتادة رحمه الله وهو كما قال ؛ فإن الله ﷻ يقول : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكّل الصادق ، وهم الجازمون بأن الله ﷻ سينصر وينجز له مأموله ، ولهذا قال : ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك ؛ إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة . ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿ يَقُولُونَ ﴾ في تلك الحال ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ . عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلَّا ذقنه في صدره ، قال : فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلَّا كالحلم يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا . فحفظتها منه وفي ذلك أنزل الله : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ لقول معتب .

قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أي هذا قدر قدّره الله ﷻ وحكم حتم لا محيد عنه ، لا مناص منه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ أي ببعض ذنوبهم السالفة ، كما قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أي عما كان منهم من الفرار ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أي يغفر الذنب ، ويحلم عن خلقه ، ويتجاوز عنهم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد ، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٢) .

ماتوا في الأسفار والحروب ، لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ أي عن إخوانهم ﴿ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي سافروا للتجارة ونحوها ﴿ أَوْ كَانُواْ غُزًّى ﴾ أي كانوا في الغزو ﴿ لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا ﴾ أي في البلد ﴿ مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ أي ما ماتوا في السفر ، وما قتلوا في الغزو . وقوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم . ثم قال تعالى ردًّا عليهم : ﴿ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي بيده الخلق ، وإليه يرجع الأمر ، ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلَّا بمشيئته وقدره ، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه شيء إلَّا بقضائه وقدره ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي علمه وبصره نافذ في جميع خلقه ، لا يخفى عليه من أمورهم شيء . وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله ، والموت أيضًا وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه ، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني . ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله ﷻ فيجزيه بعمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر . فقال تعالى : ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا رسوله ممتنًا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته ، المتبعين لأمره التاركين لزجره ، وأطاب لهم لفظة ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ أي بأي شيء جعلك الله لهم لينًا لولا رحمة الله بك وبهم . عن أبي أمامة الباهلي قال : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال : « يَا أَبَا أُمَامَةَ إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِينُ لَهُ قَلْبِي »[(١)] . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ والفظ الغليظ ، المراد به ههنا غليظ الكلام ، لقوله بعد ذلك : ﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ أي لو كنت سيء الكلام ، قاسي القلب عليهم ، لا نفضوا عنك وتركوك ، ولكن الله جمعهم عليك ، وألان جانبك لهم تأليفًا لقلوبهم . كما قال عبد الله بن عمرو : إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح[(٢)] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطييبًا لقلوبهم ، ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه ، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير فقالوا : يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/٥) والطبراني في الكبير (١٧٧/٨) والألباني في الصحيحة (١٠٩٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٤/٢) .

فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول : اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون . وشاورهم أيضًا أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم . وشاورهم في أُحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم . وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه السعدان ، سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة ، فترك ذلك . وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين : فقال له الصديق : إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين ، فأجابه إلى ما قال . وقال ﷺ في قصة الإفك : « أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمٍ أبنوا أَهْلِي وَرَمُوهُمْ ، وَايْمُ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ ، وَأَبنوهُمْ بِمَنْ ؟ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا » (١) واستشار عليًا وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها . فكان النبيّ ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ، وقد اختلف الفقهاء هل كان ذلك واجبًا عليه أو من باب الندب تطييبًا لقلوبهم ؟ على قولين .

عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ قال : نزلت في أبي بكر وعمر ، وكانا حواريي رسول اللّه ﷺ ووزيريه وأبوي المسلمين ، عن عبد الرحمن بن غنم أن رسول اللّه ﷺ قال لأبي بكر وعمر : « لَوِ اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا » (٢) . وعن جابر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِذَا اسْتَشَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُشِرْ عَلَيْهِ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر ، وعزمت عليه ، فتوكل على اللّه فيه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهذه الآية كما تقدم من قوله : ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ قال ابن عبّاس وغير واحد : ما ينبغي لنبي أن يخون . عن ابن عبّاس قال : فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا : لعل رسول اللّه ﷺ أخذها ، فأنزل اللّه : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ أي يخون . وهذا تنزيه له صلوات اللّه وسلامه عليه من جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك . وقال ابن عبّاس : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ أي بأن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضًا . وقال محمّد بن إسحاق : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ بأن يترك بعض ما أنزل إليه ، فلا يبلغ أمته . وقرأ الحسن البصري وطاوس ومجاهد والضحاك : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يُغَل ﴾ بضم الياء أي يخان (٤) . وقال قتادة والربيع بن أنس : نزلت هذه الآية يوم بدر ، وقد غلّ بعض أصحابه . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضًا في أحاديث متعددة . عن أبي مالك الأشجعي عن النبيّ ﷺ قال : « أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ ، تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا ، فَإِذَا قَطَعَهُ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٥) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٩/٦) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧/٤) . (٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٦٤٧) .

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم (يَغُلّ) بفتح الياء وضم الغين ، وقرأ الباقون (يُغَل) بضم الياء وفتح الغين (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٢) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٠/٤) .

وعن المستورد بن شداد يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنْزِلٌ فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلًا ، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا ، أَوْ لَيْسَ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ »(١) .

وعن أبي حميد الساعدي قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلًا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي لي . فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال : « مَا بَالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ عَلَى عَمَلٍ فَيَقُولُ : هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي ؟ أَفَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لاَ ؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَأْتِي أَحَدُكُمْ مِنْهَا بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ » ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ، ثم قال : « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » ثلاثًا(٢) .

وعن معاذ بن جبل قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن ، فلما سرت أرسل في أثري فرددت فقال : « أَتَدْرِي لِمَ بَعَثْتُ إِلَيْكَ ؟ لاَ تُصِيبَنَّ شَيْئًا بِغَيْرِ إِذْنِي فَإِنَّه غُلُولٌ » ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ لِهَذَا دَعَوْتُكَ فَامْضِ لِعَمَلِكَ »(٣) . وعن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ يومًا ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال : « لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ ، فَيَقُولُ : يا رَسُولَ اللَّه أَغِثْنِي ، فَأَقُولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّه شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُكَ ، لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمْحَمَةٌ فَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّه أَغِثْنِي ، فَأَقُولُ : لاَ أَمْلِكُ لك مِنَ اللَّه شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُكَ ، لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ ، فَيَقُولُ : يا رَسُولَ اللَّه أَغِثْنِي ، فَأَقُولُ : لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّه شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُكَ »(٤) .

وعن عدي بن عميرة الكندي قال : قال رسول الله ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَمِلَ لَنَا مِنْكُمْ عَمَلًا فَكَتَمَنَا مِنْهُ مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ فَهُوَ غلٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ » قال : فقام رجل من الأنصار أسود - قال مجاهد : هو سعد بن عبادة كأني أنظر إليه - فقال : يا رسول الله ، اقبل مني عملك ، قال : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قال : سمعتك تقول كذا وكذا ، قال : « وَأَنَا أَقُولُ ذَاكَ الآنَ ، مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَهُ ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى »(٥)

وعن أبي رافع قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر ربما ذهب إلى بني عبد الأشهل ، فيتحدث معهم حتى ينحدر إلى المغرب ، قال أبو رافع : فبينما رسول الله ﷺ مسرعًا إلى المغرب ، إذ مر بالبقيع فقال : « أُفٍّ لَكَ ، أُفٍّ لَكَ » فلزق في درعي وتأخرت ، وظننت أنه يريدني ، فقال : « مَا لَكَ ؟ » قلت : أحدثت حدثًا يا رسول الله ؟ قال : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قال : أفففت بي ، قال : « لَا ، وَلَكِنْ هَذَا قَبْرُ فُلاَنٍ بَعَثْتُهُ سَاعِيًا عَلَى آلِ فُلانٍ ، فَغَلَّ نَمِرَةً ، فَدُرِّعَ الآنَ مِثْلَه مِنْ نَارٍ »(٦)

وعن عبادة بن الصامت قال : كان رسول الله ﷺ يأخذ الوبرة من ظهر البعير من المغنم ثم يقول : « مَا لِي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٣٠) .
(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٧٤) ومسلم في الإمارة (٢٦) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٣٥) .
(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٧٣)
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٩٢) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٧)

فِيهِ إِلَّا مِثْلُ مَا لِأَحَدِكُمْ ، إِيَّاكُمْ وَالغُلُولَ ؛ فَإِنَّ الغُلُولَ خِزْيٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، أَدُّوا الخَيْطَ وَالمَخِيطَ ، وَمَا فوق ذَلِكَ ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ القَرِيبَ وَالبَعِيدَ ، فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ ؛ فَإِنَّ الجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ ، إِنَّه لَيُنْجِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهَمِّ وَالغَمِّ ، وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي القَرِيبِ وَالبَعِيدِ ، وَلاَ تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ » (١) .

وعن سالم بن عبد اللَّه أنه كان مع مسلمة بن عبد الملك في أرض الروم فوجد في متاع رجل غلولًا ، قال : فسأل سالم بن عبد اللَّه فقال : حدَّثني أبي عبد اللَّه عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ وَجَدْتُمْ فِي مَتَاعِهِ غُلُولًا فَأَحْرِقُوهُ - قال : وأحسبه قال : - وَاضْرِبُوهُ » قال : فأخرج متاعه في السوق ، فوجد فيه مصحفًا فسأل سالمًا ، فقال : بعه وتصدق بثمنه (٢) . وعن علي قال : الغال يجمع رحله فيحرق ، ويجلد دون حد المملوك ، ويحرم نصيبه . وخالفه أبو حنيفة ومالك والشافعي والجمهور ، فقالوا : لا يحرق متاع الغال ، بل يعز تعتزير مثله . وقد قال البخاري : وقد امتنع رسول اللَّه ﷺ من الصلاة على الغال ، ولم يحرق متاعه ، واللَّه أعلم . وقد قال عبد اللَّه بن مسعود ﷺ : أيها الناس غلُّوا المصاحف ؛ فإنه من غلَّ يأت بما غلَّ يوم القيامة ، ونعم الغلُّ المصحف ، يأتي به أحدكم يوم القيامة . وعن سمرة بن جندب قال : كان رسول اللَّه ﷺ إذا غنم أمر بلالًا فينادي في الناس فيجيئون بغنائمهم ، يخمسه ويقسمه ، فجاء رجل يومًا بعد النداء بزمام من شعر فقال : يا رسول اللَّه هذا كان مما أصبناه من الغنيمة فقال : « أَسَمِعْتَ بِلالًا يُنَادِي ؟ » ثلاثًا ، قال : نعم ، قال : « فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ ؟ » فاعتذر إليه فقال : « كَلَّا أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ؛ فَلَنْ أَقْبَلَهُ مِنْكَ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي لا يستوي من اتبع رضوان اللَّه فيما شرعه فاستحق رضوان اللَّه وجزيل ثوابه ، وأجير من وبيل عقابه ، ومن استحق غضب اللَّه وألزم به فلا محيد له عنه ، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير . ثم قال تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ قال الحسن البصري ومحمَّد بن إسحاق : يعني أهل الخير وأهل الشر درجات . وقال أبو عبيدة والكسائي : منازل ، يعني متفاوتون في منازلهم ، درجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي وسيوفيهم إياها ، لا يظلمهم خيرًا ، ولا يزيدهم شرًّا ، بل يجازي كل عامل بعمله .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم ، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، لتزكوا نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يعني القرآن والسنَّة ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا الرسول ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي لفي غي وجهل ظاهر جلي بيِّن لكل أحد .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٥٤٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧١٣) وأحمد في مسنده (٢٢/١) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧١٢) .

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ۝١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ ﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أُحد من قتلى السبعين منهم ﴿ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا ﴾ يعني يوم بدر ؛ فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلًا وأسروا سبعين أسيرًا ﴿ قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ ﴾ أي من أين جرى علينا هذا ﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ عن عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم أُحد من العام المقبل ، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ بأخذكم الفداء . عن علي قال : جاء جبريل إلى النبيِّ ﷺ فقال : يا محمَّد إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين ، إما أن يقدموا فنضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم ، قال : فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر لهم ذلك فقالوا : يا رسول الله ، عشائرنا وإخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا ، ويستشهد منا عدتهم ، فليس في ذلك ما نكره ؟ قال : فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلًا ، عدة أسارى أهل بدر[1] . وقال محمَّد بن إسحاق وابن جرير والربيع بن أنس والسدي : ﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم ، يعني بذلك الرماة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم ، وقتلهم لجماعة منكم ، وجراحتهم لآخرين ، كان بقضاء الله وقدره ، وله الحكمة في ذلك ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ ﴾ يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول ، الذين رجعوا معه في أثناء الطريق ، فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة ، ولهذا قال : ﴿ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ ﴾ يعني كثروا سواد المسلمين . وقيل : رابطوا . فتعللوا قائلين : ﴿ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ ﴾ قال مجاهد : يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربًا لجئناكم ، ولكن لا تلقون قتالًا ﴿ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال ، فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، وفي حال أقرب إلى الإيمان لقوله : ﴿ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ يعني أنهم يقولون القول ، ولا يعتقدون صحته ، ومنه قولهم هذا : ﴿ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ ﴾ فإنهم يتحققون أن جندًا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة ، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من أشرافهم يوم بدر ، وهم أضعاف المسلمين ، وأنه كائن بينهم قتال لا محالة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٠ ، ٣١) .

ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾ أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون ، والموت لابد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . عن جابر بن عبد الله : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم ، وإن قتلوا في هذه الدار ، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار ، روي عن أنس بن مالك في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلى أهل بئر معونة قال : لا أدري أربعين أو سبعين ، وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري ، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غارًا مشرفًا على الماء فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء ؟ فقال - أراه أبو ملحان الأنصاري - : أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فخرج حتى أتى حول بيتهم فاجتثى أمام البيوت ، ثم قال : يا أهل بئر معونة ، إني رسول رسول الله إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، فآمنوا بالله ورسوله ، فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر ، فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة ، فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامر ابن الطفيل (١) . وعن مسروق قال : إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : « أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ القَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً فَقَالَ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا ؟ فَقَالُوا : أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا ؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا : يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا » (٢) .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ يَسُرُّهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا الشَّهِيدُ ؛ فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى مِمَّا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ » (٣) .

وعن جابر قال : لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٠١) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٢١) وأحمد في مسنده (٣٨٦/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٠٨) .

ينهوني والنبيُّ ﷺ لم ينه ، فقال النبيُّ ﷺ : « لاَ تَبْكِهِ - أو ما تبكيه - مَا زَالَتِ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ » [١] .

وعن ابن عبّاس قال : نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ .

وعن جابر بن عبد الله قال : نظر إليَّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُهْتَمًّا ؟ » قلت : يا رسول الله ، استشهد أبي وترك دَينًا وعيالاً ، قال : فقال : « أَلاَ أُخْبِرُكَ ؟ مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَاب ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا » قال علي : والكفاح المواجهة . « قَالَ : سَلْنِي أُعْطِكَ ، قَالَ : أَسْأَلُكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً ، فَقَالَ الرَّبُّ ﷻ : إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي القَوْلُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لاَ يَرْجِعُونَ ، قَالَ : أَيْ رَبِّ فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي ، فَأَنْزَلَ اللَّه ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾ » الآية [٢] .

وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهْرٍ بِبَابِ الجَنَّةِ ، فِيهِ قُبَّةٌ خَضْرَاءُ يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً » [٣] . وكأن الشهداء أقسام : منهم من تسرح أرواحهم في الجنّة ، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة ، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر ، فيجتمعون هنالك ، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح ، والله أعلم . وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثًا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضًا فيها ، وتأكل من ثمارها ، وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمّد بن إدريس الشافعي رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله عن الزهري عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نَسَمَةُ الْمُؤْمِنُ طَائِرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الجنة حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّه إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ » [٤] قوله : « يعلق » أي يأكل ، وفي هذا الحديث : « إِنَّ رُوحَ المُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الجَنَّةِ » وأما أرواح الشهداء ، فكما تقدم ، في حواصل طير خضر ، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ؛ فإنها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان .

وقوله تعالى : ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ ﴾ إلى آخر الآية ، أي الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ، أحياء عند ربهم ، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم ، نسأل الله الجنّة . وقال محمّد بن إسحاق : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي ويسرون بلحوق من لحقهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم . قال السدي : يؤتى الشهيد بكتاب فيه : يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، فيسرُّ بذلك كما يسرُّ أهل الدنيا بغائبهم إذا قدم . قال سعيد بن جبير : لما دخلوا الجنة ، ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة ، فإذا شهدوا القتال ، باشروها بأنفسهم حتى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٨/٣) والنسائي في السنن (١٨٤٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٩٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٠/٣) .

يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير ، فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة ، وأخبرهم أي ربهم : أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم ، وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك ، فذلك قوله : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآية . وقد ثبت عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة ، وقنت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم ويلعنهم ، قال أنس : ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع : أن بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا ، فرضي عنا وأرضانا [1] .

ثم قال تعالى : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال محمَّد بن إسحاق : استبشروا ، أي سروا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب . وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم ، سواء الشهداء وغيرهم ، وقلما ذكر الله فضلًا ذكر به الأنبياء ، وثوابًا أعطاهم الله إياه ، إلَّا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد ، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين ، كروا راجعين إلى بلادهم ، فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تمموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة ؟ فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أن بهم قوة وجلدًا ، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أُحد ، سوى جابر بن عبد الله ، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ . عن عكرمة قال : لما رجع المشركون عن أُحد قالوا : لا محمّدًا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئسما صنعتم ، ارجعوا ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك فندب المسلمين ، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد - أو بئر أبي عيينة الشك من سفيان - فقال المشركون : نرجع من قابل ، فرجع رسول الله ﷺ ، فكانت تعد غزوة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقال محمَّد بن إسحاق : كان يوم أُحد يوم السبت النصف من شوال ، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو ، وأذن مؤذنه : أن لا يخرجنَّ معنا أحد إلَّا من حضر يومنا بالأمس ، فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال : يا رسول الله ، إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع ، وقال : « يَا بُنَيَّ لا يَنْبَغِي لِي وَلاَ لَكَ أَنْ نَتْرُكَ هَؤُلاَءِ النِّسْوَةِ لاَ رَجُلَ فِيهِنَّ ، وَلَسْتُ بِالَّذِي أُوثِرُكَ بِالجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ عَلَى نَفْسِي فَتَخَلَّفْ عَلَى أَخَوَاتِكْ » فتخلفت عليهن ، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه ، وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهبًا للعدو ، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة ، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم [2] . وعن أبي السائب ، مولى عائشة بنت عثمان ، أن رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل ، كان قد شهد أحدًا قال : شهدنا أُحدًا مع رسول الله ﷺ أنا وأخي رجعنا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو وقلت لأخي - أو قال لي - : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله ما لنا من دابة نركبها ، وما منا إلَّا جريح ثقيل ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ ، وكنت أيسر جراحًا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٠١) .

(٢) السيرة لابن هشام (٣/١٠٦ ، ١٠٧) .

منه ، فكان إذا غلب حملته عقبة ، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون (١) . وعن عائشة رضي الله عنها ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ الآية قلت لعروة : يا ابن أختي كان أبوك منهم ، الزبير وأبو بكر رضي الله عنهما لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصابه يوم أُحد ، وانصرف عنه المشركون ، خاف أن يرجعوا فقال : « مَنْ يَرْجِعُ فِي أَثَرِهِمْ » فانتدب منهم سبعون رجلًا ، فيهم أبو بكر والزبير . وكانت وقعة أُحُد في شوّال ، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة فينزلون ببدر الصغرى في كل سنة مرة ، وإنهم قدموا بعد وقعة أُحُد ، وكان أصاب المؤمنين القرح ، واشتكوا ذلك إلى النبيّ ﷺ ، واشتد عليهم الذي أصابهم ، وإن رسول اللّٰه ﷺ ندب الناس لينطلقوا معه ويتبعوا ما كانوا متبعين ، وقال : « إِنَّمَا يَرْتَحِلُونَ الآنَ فَيَأْتُونَ الحَجَّ وَلاَ يَقْدِرُونَ عَلَى مِثْلِهَا حَتَّى عَامٍ مُقْبِلٍ » فجاء الشيطان يخوف أولياءه فقال : إن الناس قد جمعوا لكم ، فأبى عليه الناس أن يتبعوه وقال : « إِنِّي ذَاهِبٌ وَإِنْ لَمْ يَتْبَعْنِي أَحَدٌ لأُحَضِّضُ النَّاسَ » فانتدب معه الصديق وعمر وعثمان وعلي الزبير وسعد وطلحة وعبد الرّحمن بن عوف وعبد اللّٰه بن مسعود وحذيفة ابن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلًا ، فساروا في طلب أبي سفيان ، فطلبوه حتى بلغوا الصفراء فأنزل اللّٰه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ فخرج رسول اللّٰه ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثمانية أميال ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة ، وقد مر به - كما حدثني عبد اللّٰه بن أبي بكر - معبد بن أبي معبد الخزاعي ، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول اللّٰه ﷺ بتهامة صفقتهم معه ، لا يخفون عنه شيئًا كان بها ، ومعبد يومئذ كان مشركًا فقال : يا محمّد ، أما واللّٰه لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن اللّٰه عافاك فيهم ، ثم خرج رسول اللّٰه ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول اللّٰه ﷺ وأصحابه وقالوا : أصبنا محمّدًا وأصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ لنكرّنّ على بقيتهم ، ثم لنفرغن منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمّد وأصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله ، يتحرقون عليكم تحرقًا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فهم من الحنق عليكم بشيء لم أر مثله قط ، قال : ويلك ما تقوله ؟ قال : واللّٰه ما أرى أن ترتحل حتى نواصي الخيل ، قال : فواللّٰه لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فإني أنهاك عن ذلك ، وواللّٰه لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتًا من شعر ، قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي ... إِذْ سَالَتِ الأَرْضُ بِالجُرْدِ الأَبَابِيلِ
تَرْدِي بِأُسْدٍ كِرَامٍ لاَ تَنَابِلَةٍ ... عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلاَ مِيلٍ مَعَازِيلِ
فَظَلْتُ أَعْدُو أَظُنُّ الأَرْضَ مَائِلَةً ... لَمَّا سَمَوْا بِرَئِيسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
فَقُلْتُ وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمُ ... إِذَا تَغَطْمَطَتِ البِطْحَاءُ بِالخَيلِ
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ السَّيْلِ ضَاحِيَةً ... لِكُلِّ ذِي إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ
مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لاَ وُخْشٌ تَنَابِلَةٌ ... وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالقِيلِ

---

(١) السيرة لابن هشام (١٠٧/٣) .

قال : فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ، ومر به ركب من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم هذه غدًا زبيبًا بعكاظ إذ وافيتمونا ؟ قالوا : نعم ، قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل [١] .

وهكذا قال عكرمة وقتادة وغير واحد أن هذا السياق نزل في شأن غزوة حمراء الأسد ، وقيل : نزلت في بدر الموعد ، والصحيح الأول .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ الآية . أي الذين توعدهم الناس بالجموع ، وخوفوهم بكثرة الأعداء ، فما اكترثوا لذلك ، بل توكلوا على الله واستعانوا به ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ . عن ابن عبّاس ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمّد ﷺ حين قال له الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانًا ، قالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل [٢] . عن أبي رافع أن النبيّ ﷺ وجّه عليًا في نفر معه في طلب أبي سفيان ، فلقيهم أعرابي من خزاعة فقال : إن القوم قد جمعوا لكم ، فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فنزلت فيهم هذه الآية [٣] .

وعن عوف بن مالك أنه حدَّثهم أن النبيّ ﷺ قضى بين رجلين ، فقال المقضي عليه لما أدبر : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبيّ ﷺ : « رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ » فقال : « مَا قُلْتَ ؟ » قال : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبيّ ﷺ : « إِنَّ اللّٰهَ يَلُومُ عَلى العَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالكَيْسِ ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللّٰهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ » [٤] . وعن عطية بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ القَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَسْتَمِعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما نقول ؟ قال : « قُولُوا : حَسْبُنَا اللّٰهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، عَلَى اللّٰهِ تَوَكَّلْنَا » [٥] . وعن أم المؤمنين زينب وعائشة رضي الله عنهما أنهما تفاخرتا فقالت زينب : زوجني الله وزوجكن أهاليكن ، وقالت عائشة : نزلت براءتي من السماء في القرآن ، فسلمت لها زينب ثم قالت : كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن المعطل ؟ قالت : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل ، قالت زينب : قلت كلمة المؤمنين . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم ، فرجعوا إلى بلدهم ﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ عن ابن عبّاس في قوله الله ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ قال : النعمة أنهم سلِمُوا ، والفضل أن عيرًا مرت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالًا ، فقسمه بين أصحابه .

عن أبي جريج قال : لما عمد رسول الله ﷺ لموعد أبي سفيان فجعلوا يلقون المشركين فيسألونهم

---

(١) ذكره الطبري في تفسير (١٤/٢٣٨ ، ٢٣٩) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٣) .

(٣) تفسير الطبري (١٤/٣٤٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٥) والطبراني في الكبير (١٨/٧٦) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٧٤) والحاكم في المستدرك (٤/٥٥٩) .

عن قريش ، فيقولون : قد جمعوا لكم ، يكيدونهم بذلك يريدون أن يرعبوهم ، فيقول المؤمنون : حسبنا الله ونعم الوكيل ، حتى قدموا بدرًا فوجدوا أسواقها عافية لم ينازعهم فيها أحد ، قال : فقدم رجل من المشركين فأخبر أهل مكة بخيل محمَّد وقال :

قَدْ نَفَرَتْ مِنْ رِفْقَتِي مُحَمَّدِ وَعَجْوة مِنْ يَثْرِبِ كَالعَنْجَدِ

فَهْيَ عَلَى دِينِ أَبِيهَا الأَتْلَدِ قَدْ جَعَلَتْ مَاءَ قَدِيدٍ مَوْعِدِ

وَمَاء ضجنان لها ضحى الغد (١)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ أي يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذوو بأس ، وذوو شدة ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إذ سوّل لكم وأوهمكم ، فتوكلوا عليّ ، والجأوا إليّ ؛ فإني كافيكم وناصركم عليهم كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ إلى قوله : ﴿ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى لنبيِّه ﷺ : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ ﴾ وذلك من شدة حرصه على الناس ، كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق ، فقال تعالى : ولا يحزنك ذلك ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ ﴾ أي حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى مخبرًا عن ذلك إخبارًا مقررًا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أي استبدلوا هذا بهذا ﴿ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ أي ولكن يضرون أنفسهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ كقوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ ﴾ أي لابد أن يعقد شيئًا من المحنة ، يظهر فيه وليه ، ويفضح به عدوّه ، ويعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعني بذلك يوم أُحد الذي امتحن الله به المؤمنين ، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ ، وهتك به ستار المنافقين ، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ ﴾ قال مجاهد : ميز بينهم يوم أُحد . وقال قتادة : ميّز بينهم بالجهاد والهجرة . وقال السدي : قالوا : إن كان محمَّد صادقًا فليخبرنا

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤١/١٤) والعنجد : حب الزبيب ، وقديد : موضع قرب مكة . وضجنان : جبل بناحية تهامة .

عمن يؤمن به منا ومن يكفر به ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ أي حتى يخرج المؤمن من الكافر ، روى ذلك كله ابن جرير . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ أي أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق ، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله ، واتبعوه فيما شرع لكم ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ أي لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه في دينه ، وربما كان في دنياه . ثم أخبرنا بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ آتَاهُ اللَّه مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ ؛ مُثِّلَ لَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يعني بشدقيه - ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا مَالُكَ ، أَنَا كَنْزُكَ » ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ إلى آخر الآية (١) .

وعن عبد الله عن النبيّ ﷺ قال : مَا مِنْ عَبْدٍ لاَ يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ شُجَاعٌ أَقْرَعُ يَتْبَعُهُ ، يَفِرُّ مِنْهُ فَيَتْبَعُهُ ، فَيَقُول : أَنَا كَنْزُكَ » ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (٢) .

وعن ابن عبّاس : نزلت في أهل الكتاب الذين بخلوا بما في أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها ، رواه ابن جرير ، والصحيح الأول وإن دخل هذا في معناه . وقد يقال : إن هذا أولى بالدخول .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله ﷻ ، فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي بنياتكم وضمائركم .

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ .

عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ قالت اليهود : يا محمد : افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ الآية . وعن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصدّيق بيت المدراس فوجد من يهود ناسًا كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له : فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له : أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتقِ الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص :

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٣) وأحمد في مسنده (٢/٣٥٥) والنسائي في السنن (٢٤٨٢) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٢٩٨) وابن ماجه في السنن (١٧٨٤) والنسائي في السنن (٥/١١) .

والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيًّا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر ﷺ فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا ، وقال : والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدوَّ الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ » فقال : يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولًا عظيمًا ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك ، غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه ، فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ الآية (١) . وقوله ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ تهديد ووعيد ، ولهذا قرنه تعالى بقوله : ﴿ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أي هذا قولهم في الله ، وهذه معاملتهم رسل الله ، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتحقيرًا وتصغيرًا .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾ يقول تعالى تكذيبًا لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم ، أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها . قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والبراهين ﴿ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ أي فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل . ثم قال تعالى مسليًا لنبيه محمد ﷺ ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل ، الذين كذبوا مع ما جاءوا به من البينات ، وهي الحجج والبراهين القاطعة ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أي الواضح الجلي .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ .

يخبر تعالى إخبارًا عامًّا يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت ، فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون ، وكذلك الملائكة وحملة العرش ، وينفرد الواحد الأحد القهّار بالديمومة والبقاء ، فيكون آخرًا كما كان أولًا . وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ؛ فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم ، وانتهت البرية ، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها ، جليلها وحقيرها ، كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥٨/١٤) .

وقوله : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ أي من جُنِّب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَوْضِعُ سَوْطٍ في الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ »(1) . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ ؛ فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ »(2) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ تصغير لشأن الدنيا ، وتحقير لأمرها ، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة كما قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ وفي الحديث : « وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي اليَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ إِلَيْهِ »(3) .

وقوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ أي لابد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويبتلى المؤمن على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسليًا لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين ، وآمرًا لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله ، فقال تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ . عن أسامة بن زيد ، أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكية ، وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة ببني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول ، وذلك قبل أن يسلم ابن أبي وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمَّر عبد الله بن أبي أنفة بردائه وقال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول الله ﷺ ، ثم وقف ، فنزل ودعاهم إلى الله ﷻ وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًّا فلا تؤذنا به في مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة ﷺ : بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبي ﷺ : « يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ ؟» يريد عبد الله بن أبي ، « قال : كذا وكذا» ، فقال سعد : يا رسول الله ، اعف عنه واصفح ؛ فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة ، فلما أبي الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك ، فذلك الذي فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى قال الله تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ الآية .

---

(1) أخرجه البخاري في بدء الخلق(٣٢٥٠) وأحمد في مسنده(٣٣٩/٥) .

(2) أخرجه أحمد في مسنده(١٩١/٢) . (3) أخرجه ابن ماجه في السنن(٤١٠٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ الآية . وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله له فيهم ، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا فقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه ، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام ، فبايعوا وأسلموا [١] . فكل من قام بحق أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر فلابد يؤذى ، فما له دواء إلا الصبر في الله ، والاستعانة بالله ، والرجوع إلى الله .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

هذا توبيخ من الله ، وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن ينوهوا بذكره في الناس ، فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوي السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم . وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم ، فيصيبهم ما أصابهم ، ويسلك بهم مسلكهم ، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئًا ، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ ؛ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ الآية ، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا . وفي الصحيحين : « الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ » [٣] .

وعن أبي سعيد الخدري : أن رجالًا من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ الآية [٤] . قال أبو سعيد ورافع بن خديج وزيد بن ثابت : كنا عند مروان فقال : يا أبا سعيد أرأيت قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ ونحن نفرح بما أتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل ؟ فقال أبو سعيد : إن هذا ليس من ذاك ، إنما ذاك أن ناسًا من المنافقين يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بعثًا ، فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم ، وإن كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم ليرضوهم ويحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح ، فقال مروان : أين هذا من هذا ؟ فقال أبو سعيد : وهذا يعلم هذا ؟ فقال مروان : أكذلك يا زيد ؟ قال : نعم صدق أبو سعيد ، ثم قال أبو سعيد : وهذا يعلم ذاك - يعني

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٦) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٩٩) وابن ماجه في السنن (٢٦٦) .
(٣) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٢٦) وأحمد في مسنده (٦/٣٤٥) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٧) .

رافع بن خديج - ولكنه يخشى إن أخبرك أن تنزع قلائصه في الصدقة ، فلما خرجوا قال زيد لأبي سعيد الخدري : ألا تحمدني على ما شهدت لك ؟ فقال له أبو سعيد : شهدت الحق ، فقال زيد : أولا تحمدني على ما شهدت الحق ؟ .

وعن ثابت بن قيس الأنصاري قال : يا رسول الله ، والله لقد خشيت أن أكون هلكت قال : «لِمَ ؟ »قال : نهى الله المرء أن يحب أن يحمد بما لم يفعل ، وأجدني أحب الحمد ، ونهى الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال ، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت ، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا ، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا ، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ ؟ » فقال : بلى يا رسول الله ، فعاش حميدًا ، وقتل شهيدًا يوم مسيلمة الكذاب (١). وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ ﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد ، وبالياء على الإخبار عنهم (٢)، أي لا تحسب أنهم ناجون من العذاب ، بل لابد لهم منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي هو مالك كل شيء ، والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء ، فهابوه ولا تخالفوه ، واحذروا غضبه ونقمته ، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه ، القدير الذي لا أقدر منه .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : أتت قريش اليهود فقالوا : بمَ جاءكم موسى ؟ قالوا : عصاه ويده بيضاء للناظرين . وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يبرئ الأكمة والأبرص ويحيى الموتى . فأتوا النبيّ ﷺ فقالوا : ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ، فدعا ربه فنزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فليتفكروا فيها . وهذا مشكل ، فإن هذه الآية مدنية ! وسؤالهم أن يكون الصفا ذهبًا ، كان بمكة ومعنى الآية أن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي هذه في ارتفاعها واتساعها ، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة ، من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار ، وأشجار ونبات ، وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيرًا ، ويقصر الذي

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣١٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٢١)

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمر ﴿ فلا يَحْسَبُنَّهم ﴾ بالغيب وضم الباء ، وقراء الباقون ﴿ فلا تَحْسَبَنَّهم ﴾ بالخطاب وفتح الباء (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٣) .

كان طويلًا وكل ذلك تقدير العزيز العليم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي العقول التامة الزكية ، التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ . عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ قال : « صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِكَ »[(١)] أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته . وقال الشيخ أبو سليمان الداراني : إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلَّا رأيت لله عليَّ فيه نعمة ، ولي فيه عبرة . وعن الحسن البصري أنه قال : تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الفضيل : قال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك . وقال سفيان بن عيينة : الفكرة نور يدخل قلبك .

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : طوبى لمن كان قيله تذكرًا ، وصمته تفكُّرًا ، ونظره عبرًا . قال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلَّا فهم ، ولا فهم امرؤ قط إلَّا علم ، ولا علم امرؤ قط إلَّا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام لذكر الله ﷻ حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة . وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم تفكركم ، وشاهدوا الموقف بقلوبكم ، وانظر إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار ، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها ، وكان يبكى عند ذلك حتى يرفع صريعًا من بين أصحابه قد ذهب عقله . وقال عبد الله بن المبارك : مرَّ رجل براهب عند مقبرة ومزبلة فناداه فقال : يا راهب ، إن عندك كنزين من كنوز الدنيا ، لك فيهما معتبر ، كنز الرجال وكنز الأموال . وعن ابن عمر : أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ . وعن ابن عبَّاس أنه قال : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم كل في ثلث بطنك ، واشرب في ثلثه ، ودع ثلثه الآخر تتنفث للفكرة . وقال بعض الحكماء : من نظر إلى الدنيا بغير العبرة ؛ انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة . وقال بشر بن الحارث الحافي : لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه . وعن عامر بن عبد قيس قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبيِّ ﷺ يقولون : إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر . وعن عيسى عليه السلام أنه قال : يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت ، وكن في الدنيا ضعيفًا ، واتخذ المساجد بيتًا ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك الفكر ، ولا تهتم برزق غد . وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه بكى يومًا بين أصحابه فسئل عن ذلك ، فقال : فكرت في الدنيا

---

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١١٧) .

ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها ، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها ، ولئن لم يكن فيه عبرة لمن اعتبر ، إن فيها مواعظ لمن ادكر .

وقد ذم اللَّه تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ ومدح عباده المؤمنين : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قائلين : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ أي ما خلقت هذا الخلق عبثًا ، بل بالحق ؛ لتجزي الذين أساءوا بما عملوا ، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى . ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا : ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي عن أن تخلق شيئًا باطلًا ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ أي يا من خلق الخلق بالحق والعدل ، يا من هو منزَّه عن النقائص والعيب والعبث ، قنا من عذاب النار بحولك وقوَّتك ، ووفقنا لأعمال ترضى بها عنا ، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنَّات النعيم ، وتجيرنا به من عذابك الأليم . ثم قالوا : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ أي أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أي يوم القيامة لا مجير لهم منك ، ولا محيد لهم عما أردت بهم ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ ﴾ أي داعيًا يدعو إلى الإيمان ، وهو الرسول ﷺ ﴿ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ أي يقول : آمنوا بربكم فآمنا ، أي فاستجبنا له واتبعناه ، أي بإيماننا واتباعنا نبيك ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أي استرها ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ فيما بيننا وبينك ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ أي ألحقنا بالصالحين ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ قيل : معناه على الإيمان برسلك . وقيل : معناه على ألسنة رسلك ، وهذا أظهر . ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي على رءوس الخلائق ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ أي لابد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك ، وهو القيام يوم القيامة بين يديك . وعن جابر بن عبد اللَّه حدَّثه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « العَارُ وَالتَّخْزِيَةُ تَبْلُغُ مِنِ ابْنِ آدَمَ فِي القِيَامَةِ فِي المَقَامِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ ، مَا يَتَمَنَّى العَبْدُ أَنْ يُؤْمَرَ بِهِ إِلَى النَّارِ »(١) .

وقد ثبت أن رسول اللَّه ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران ، إذا قام من الليل لتهجده . عن كريب : أن ابن عبَّاس أخبره أنه بات عند ميمونة زوج النبيِّ ﷺ وهي خالته قال : فاضطجعت في عرض الوسادة ، واضطجع رسول اللَّه ﷺ وأهله في طولها ، فنام رسول اللَّه ﷺ حتى انتصف ذا الليل ، أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول اللَّه ﷺ من منامه ، فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران ، ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها ، فأحسن وضوءه ، ثم قام يصلي ، قال ابن عبَّاس ﷺ : فقمت فصنعت مثل ما صنع ، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه ، فوضع رسول اللَّه ﷺ يده اليمنى على رأسي ، وأخذ بأذني اليمنى يفتلها فصلى ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم أوتر ، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن ، فقام فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم خرج فصلى الصبح(٢) .

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٧٧٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٥٠) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٧٠) .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعدما مضى ليل ، فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ إلى آخر السورة . ثم قال : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا ، وفي سَمْعِي نُورًا ، وفي بَصَرِي نُورًا ، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا ، وَعَنْ شِمالِي نُورًا ، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيَّ نُورًا ، وَمِنْ خَلْفِي نُورًا ، وَمِنْ فَوْقِي نُورًا ، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ » (١) وهذا الدعاء ثابت .

وعن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر : زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا ، فقال ابن عمر : ذرينا ، أخبرينا بأعجب ما رأيتيه من رسول الله ﷺ ، فبكت وقالت : كل أمره كان عجبًا ، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ، ثم قال : « ذَرِينِي أَتَعَبَّد لِرَبِّي عز وجل » فقالت : فقلت : والله إني لأحب قربك ؛ وإني أحب أن تعبد ربك ، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى ، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت : فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « وَيْحَكَ يَا بِلالُ ! وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِي وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ » ثم قال : « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » (٢) .

وعن أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ عشر آيات من سورة آل عمران كل ليلة (٣) .

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي فأجابهم ربهم كما قال الشاعر :

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَا ... فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

قالت أم سلمة : يا رسول الله ، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء . فأنزل الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ إلى آخر الآية (٤) . وقالت الأنصار : هي أول ظعينة قدمت علينا . عن أم سلمة قالت : آخر آية نزلت هذه الآية : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ إلى آخرها . ومعنى الآية : أن المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم ، عقب ذلك بفاء التعقيب ، وقوله تعالى : ﴿ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ هذا تفسير للإجابة ؛ أي قال لهم مخبرًا أنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه ، بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى ، وقوله : ﴿ بَعْضُكُم

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٨١) وأحمد في مسنده (٣٥٢/١) .
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١١/٢) .
(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٤/٢) .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٠٠/٢) .

مِّنۢ بَعۡضٍۖ ﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان ، وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران ﴿ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ ﴾ أي ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ولهذا قال : ﴿ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي ﴾ أي إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده كما قال تعالى : ﴿ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ ﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله ، فيعقر جواده ، ويعفر وجهه بدمه وترابه ، وقد ثبت في الصحيحين : أن رجلًا قال : يا رسول الله ، أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا ، مقبلًا غير مدبر ، أيكفر الله عني خطاياي ؟ قال : « نَعَمْ » ثم قال : « كَيْفَ قُلْتَ ؟ » فأعاد عليه ما قال ، فقال : « نَعَمْ . إِلَّا الَّذِي قَالَهُ لِي جِبْرِيلُ آنِفًا »[1] . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ أي تجري في خلالها الأنهار ، من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن ، وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وقوله : ﴿ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم ؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلَّا جزيلًا كثيرًا .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحًا . روي أن شداد بن أوس كان يقول : أيها الناس ، لا تتهموا الله في قضائه ؛ فإنه لا يبغي على مؤمن ، فإذا أنزل بأحدكم شيئًا مما يحب فليحمد الله ، وإذا أنزل به شيئًا مما يكره فليصبر وليحتسب ؛ فإن الله عنده حسن الثواب .

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ .

يقول تعالى : لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور ، فعما قليل يزول هذا كله عنهم ، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة ، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجًا ، وجميع ما هم فيه ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا ، وذكر أن مآلهم إلى النار قال بعده : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ . عن الأسود قال : قال عبد الله - يعني ابن مسعود - : ما من نفس برة ولا فاجرة إلَّا الموت خيرا لها ، لئن كان برًّا لقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ . وعن أبي الدرداء أنه كان يقول : ما من مؤمن إلَّا والموت خير له ، وما من كافر إلَّا والموت خير له ، ومن لم يصدقني فإن الله يقول : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٦/٣٤) .

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على محمَّد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله أي مطيعون له ، خاضعون متذلِّلون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا ؛ أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمَّد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته ، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم ، سواء كانوا هودًا أو نصارى . وقد قال تعالى في سورة القصص : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ الآية . وقد قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ ﴾ الآية . وهذه الصفات توجد في اليهود ولكن قليلًا ، كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس ، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق ، كما قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ الآية . وهكذا قال ههنا : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ الآية .

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب ﷺ لما قرأ سورة ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ بحضرة النجاشي ملك الحبشة ، وعنده البطاركة والقساوسة ، بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم . وثبت في الصحيحين : أن النجاشي لما مات نعاه النبيُّ ﷺ إلى أصحابه وقال : « إِنَّ أَخًا لَكُمْ بِالحَبَشَةِ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ » فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه [(١)] . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما مات النجاشي كنا نحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور . وعن عبد الله ابن الزبير عن أبيه قال : نزل بالنجاشي عدو من أرضهم ، فجاءه المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن تخرج إليهم حتى نقاتل معك ، وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت بنا ، فقال : لداء بنصر الله عز وجل خير من دواء بنصرة الناس ، قال : وفيه نزلت ﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ الآية .

وعن مجاهد : ﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب . وقال عباد بن منصور : سألت الحسن البصري عن قول الله : ﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ الآية . قال : هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمَّد ﷺ فاتبعوه وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمَّد ﷺ واتِّباعهم محمَّدًا ﷺ . وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ » فذكر منهم « رجلًا من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي » [(٢)] . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ ﴾ أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم ، كما فعلته الطائفة المرذولة منهم ، بل يبذلون ذلك مجانًا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ قال مجاهد : سريع الحساب ، يعني سريع الإحصاء .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٦٦) وأحمد في مسنده (٤/٣٣٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١) والترمذي في السنن (١١١٦) .

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ قال الحسن البصري : أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم ، وهو الإسلام ، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا لرخاء ، حتى يموتوا مسلمين ، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم . وكذلك قال غير واحد من علماء السلف . وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات ، وقيل : انتظار الصلاة بعد الصلاة . عن أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال : « أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى المَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ » (١) . وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : أقبل عليَّ أبو هريرة يومًا فقال : أتدري يا ابن أخي فيمَ نزلت هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ ؟ قلت : لا ، قال : أما إنه لم يكن في زمان النبيِّ ﷺ غزو يرابطون فيه ، ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجد ويصلون الصلاة في مواقيتها ثم يذكرون الله فيها ، فعليهم أنزلت ﴿ ٱصْبِرُواْ ﴾ أي على الصلوات الخمس ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ أنفسكم وهواكم ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ في مساجدكم ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فيما عليكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وقيل : المراد بالمرابطة ههنا مرابطة الغزو في نحو العدو ، وحفظ ثغور الإسلام ، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين ، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك ، وذكر كثرة الثواب فيه ، فعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال : « رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا » (٣) .

وعن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الفَتَّانَ » (٤) .

وعن فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ ، إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ القَبْرِ » (٥) .

وقال عثمان وهو يخطب على منبره : إني محدثكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلَّا الظن بكم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « حَرَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا » (٦) .

وعن سهل بن الحنظلة أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، حتى كانت عشية ، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم ، بظعنهم ونعمهم وشياههم ، فتبسم النبيُّ ﷺ وقال : « تِلْكَ غَنِيمَةُ المُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ثم قال : « مَنْ يَحْرُسُنا اللَّيْلَةَ » قال أنس بن أبي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٣/٢) والبيهقي في السنن (٨٢/١) .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٠١/٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢) والترمذي في السنن (١٦٦٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤١/٥) والطبراني في الكبير (٣٢٧/٦) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠/٢) والحاكم في المستدرك (١٤٤/٢) والدارمي في السنن (٢١١/٢) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٦٥/١) والحاكم في المستدرك (٨١/٢) وابن ماجه في السنن (٢٧٧٠) .

مرثد : أنا يا رسول الله ، قال : « فَارْكَبْ » فركب فرسًا له ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ حَتَّى تَكُونَ فِي أَعْلاَهُ ، وَلا نغز مِنْ قبلك اللَّيْلَةَ » فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين فقال : « هَلْ أَحْسَسْتُمْ فَارِسَكُمْ ؟ » فقال رجل : يا رسول الله ، ما أحسسناه ، فثوِّب بالصلاة ، فجعل النبيُّ ﷺ وهو يصلي يلتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته قال : « أَبْشِرُوا ! فَقَدْ جَاءَكُمْ فَارِسُكُمْ » فجعلنا ننظر في خلال الشجر في الشعب فإذا هو قد جاء ، حتى وقف على النبيِّ ﷺ فقال : إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرتني ، فلما أصبحنا طلعت الشعبين كليهما ، فنظرت فلم أرَ أحدًا ، فقال له رسول الله ﷺ : « هَلْ نَزَلْتَ اللَّيْلَةَ ؟ » قال : لا ، إلَّا مصليًا أو قاضي حاجة ، فقال له : « أَوْجَبْتَ ، فَلاَ عَلَيْكَ أَنْ لا تَعْمَلَ بَعْدَهَا » (١) .

وعن ابن عبَّاس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهما النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّه ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّه » (٢) .

وعن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ مُتَطَوِّعًا لاَ بِأُجْرَةِ سُلْطَانٍ ؛ لَمْ يَرَ النَّارَ بِعَيْنِهِ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ ، فَإِنَّ اللَّه يَقُولُ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ » (٣) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ؛ وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ ، طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّه أَشْعَثُ رَأْسُهُ ، مُغْبَرَّة قَدَمَاهُ ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَان فِي السَّاقَةِ ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَم يُشَفَّعْ » (٤) .

وعن مالك بن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعًا من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر ، أما بعد : فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل اللَّه له بعدها فرجًا ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ، وإن اللَّه تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي في جميع أموركم وأحوالكم ، كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « اتَّقِ اللَّه حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » (٥) . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة . عن محمَّد بن كعب القرظي أنه كان يقول في قول اللَّه ﷻ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يقول : اتقوني فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غدًا إذا لقيتموني .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٨٤/٢) والبيهقي في السنن (١٤٩/٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٣٩) والمنذري في الترغيب (٢٤٨/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٤٣٧/٣) والمنذري في الترغيب (٢٤٨/٢) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤١٣٦) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٨٧) والحاكم في المستدرك (٥٤/١) .

سورة النساء

وآياتها سِت وَسَبْعُونَ وَمِائة

عن ابن عبَّاس : نزلت سورة النساء بالمدينة . وعنه قال : لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ : «لا حَبْسَ »[(١)] وعن ابن مسعود قال : خمس آيات من النساء ، لهن أحب إلي من الدنيا جميعًا ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ . وعنه قال : ثماني آيات نزلت في سورة النساء خير لهذا الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، أولهن ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ والثانية : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ والثالثة : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ ثم ذكر قول ابن مسعود سواء ، يعني في الخمسة الباقية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا خلقه بتقواه ، وهي عبادته وحده لا شريك له ومنبهًا لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة ، وهي آدم عليه السلام ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم ، فاستيقظ فرآها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه . وفي الحديث الصحيح : «إنَّ المرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَع ، وَإنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ في الضِّلَعِ أعْلاهُ ، فَإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهن كَسَرْتَهُ ، وَإنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ »[(٢)] . وقوله : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ أي وذرأ منهما أي من آدم وحواء رجالًا كثيرًا ونساءً، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر . ثم قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه . وقيل : واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، ولكن برُّوها وصلوها . وقرأ بعضهم ﴿ والأرحامِ ﴾ بالخفض على العطف على الضمير في به أي تساءلون بالله وبالأرحام[(٣)] . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . وفي الحديث : « اعْبُدِ اللَّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[(٤)] وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب . ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد ، وأم واحدة ، ليعطف بعضهم على بعض ، ويحثهم على ضعفائهم ، وعن جرير بن عبد الله البجلي أن

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٩/٣) . (٢) أخرجه مسلم في الرضاع (٦٠) والبيهقي في السنن (٩٥/٧) .
(٣) قرأ حمزة و ﴿ الْأَرْحَامِ ﴾ بكسر الميم ، وقرأ الباقون بفتحها . (انظر : التقريب ص : ١٠٤) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٢/٢) والهيثمي في محمع الزوائد (٤٠/٢) .

رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر - وهم مجتابو الثِّمار أي من عريهم وفقرهم - قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ حتى ختم الآية . ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ثم حضهم على الصدقة فقال : « تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ ، مِنْ دِرْهَمِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ » [١] وذكر تمام الحديث .

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ .

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة ، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ عن أبي صالح : لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدِّر لك . وقال سعيد بن جبير : لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم . يقول : لا تبدلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام . وقال السدي : كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ، ويجعل مكانها الشاة المهزولة ، ويقول : شاة بشاة . ويأخذ الدرهم الجيد ، ويطرح مكانه الزيف ، ويقول : درهم بدرهم . وقوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعًا . وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أي إثمًا عظيمًا . عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ قال : إِثْمًا كَثِيرًا . وعن أنس بن مالك يقول : أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته فقال النبيُّ ﷺ : « إِنَّ طَلَاقَ أُمِّ سَلِيمٍ لَحُوبٌ » فكف[٢] . والمعنى : إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه .

وقوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ ﴾ أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة ، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها ، فليعدل إلى ما سواها من النساء ؛ فإنهن كثير ، ولم يضيق الله عليه . عن عائشة : أن رجلًا كانت له يتيمة فنكحها ، وكان لها عذق ، وكان يمسكها عليه ، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴾ أحسبه قال : كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله[٣] . وعن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ قالت : يا ابن أختي ، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلَّا أن يقسطوا إليهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن ، قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ﴾ قالت عائشة : وقول الله في الآية الأخرى : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء إلَّا بالقسط ، من أجل رغبتهم عنهن ، إذا كن قليلات المال والجمال[٤] .

وقوله : ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين ، وإن شاء

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٩) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٠٢/٢) والبيهقي في السنن (٣٠٧/٧) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٧٣) . (٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٧٤) .

ثلاثًا ، وإن شاء أربعًا ، كما قال الله تعالى : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ أي منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه . بخلاف قصر الرجال على أربع ، فمن هذه الآية كما قال ابن عبَّاس وجمهور العلماء ؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة ، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره . قال الشافعي : وقد دلت سنَّة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة . وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء ، إلَّا ما حكي عن طائفة من الشيعة ، أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع ، وقال بعضهم : بلا حصر ، وقد يتمسك بعضهم بفعل رسول الله ﷺ في جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيح ، وأما إحدى عشرة كما قد جاء في بعض ألفاظ البخاري . وقد علقه البخاري ، وقد روينا عن أنس أن رسول الله ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة ، ودخل منهن بثلاث عشرة ، واجتمع عنده إحدى عشرة ، ومات عن تسع . وهذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة ، لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع . ولنذكر الأحاديث في ذلك .

عن سالم عن أبيه أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له النبيُّ ﷺ : « اخْتَرْ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا » فلما كان في عهد عمر طلَّق نساءه ، وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر فقال : إني لا أظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك ، ولعلك لا تلبث إلَّا قليلًا ، وايم الله لتراجعن نساءك ولترجعن مالك أو لأورثهن منك ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال (١) . فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغ له رسول الله ﷺ سائرهن في بقاء العشرة وقد أسلمن ، فلما أمره بإمساك أربع وفراق سائرهن ، دلَّ على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال ، فإذا كان هذا في الدوام ، ففي الاستئناف بطريق الأولى والأحرى .

وعن عميرة الأسدي قال : أسلمت وعندي ثمان نسوة ، فذكرت للنبي ﷺ فقال : « اخْتَرْ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا » (٢) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ أي إن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن كما قال تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة ، أو على الجواري السراري فإنه لا يجب قسم بينهن ، ولكن يستحب ، فمن فعل فحسن ومن لا فلا حرج ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ قال بعضهم : ذلك أدنى أن لا تكثر عيالكم . قاله زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة والشافعي وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ أي فقرًا ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ وقال الشاعر :

فَمَا يَدْرِي الفَقِيرُ مَتَى غَنَاهُ وَمَا يَدْرِي الغَنِيُّ مَتَى يُعِيلُ

وتقول العرب : عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر . ولكن في هذا التفسير ههنا نظر ؛ فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر ، كذلك يخشى من تعداد السراري أيضًا ، والصحيح قول الجمهور : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أي لا تجوروا . عن عائشة عن النبيِّ ﷺ ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ قال : « لا تَجُورُوا » (٣) وقيل : لا تميلوا .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤/٢) والدارقطني في السنن (٢٧١/٣) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢٤١) والحاكم في المستدرك (١٩٢/٢) .
(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٣٢٠/١٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ عن ابن عبَّاس النحلة : المهر . وعن عائشة نحلة : فريضة . وقال ابن زيد : النحلة في كلام العرب الواجب ، يقول : لا تنكحها إلّا بشيء واجب لها ، وليس ينبغي لأحد بعد النبيِّ ﷺ أن ينكح امرأة إلّا بصداق واجب ، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذبًا بغير حق ، ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتمًا ، وأن يكون طيب النفس بذلك ، كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيبًا ، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيبًا بذلك ، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه ، فيأكله حلالًا طيبًا ، ولهذا قال : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ . عن أبي صالح : كان الرجل إذا زوج بنته أخذ صداقها دونها ، فنهاهم الله عن ذلك ونزل ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ عن عبد الرَّحمن بن مالك السلماني قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ » قالوا : يا رسول الله ، فما العلائق بينهم ؟ قال : « مَا تَرَاضَى عَلَيْهِ أَهْلُوهُمْ » (١)

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ .

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرُّف في الأموال التي جعلها الله للناس قيامًا ، أي تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها . ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء ، وهم أقسام : فتارة يكون الحجر للصغر ، فإن الصغير مسلوب العبارة . وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرُّف لنقص العقل أو الدين . وتارة للفلس ، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه . عن ابن عبَّاس في قوله : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ قال : هم بنوك والنساء . وقال سعيد بن جبير : هم اليتامى . وعن أبي هريرة قال : هم الخدم ، وهم شياطين الإنس . وقوله : ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ قال ابن عبَّاس : لا تعمد إلى مالك وما خوَّلك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنتك ، ثم تنظر إلى ما في أيديهم ، ولكن أمسك مالك وأصلحه ، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم . وعن أبي موسى قال : ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم : رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلِّقها ، ورجل أعطى ماله سفيهًا وقد قال الله : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه . وقال مجاهد : ﴿ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ يعني في البر والصلة . وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة ، ومن تحت الحجر بالفعل ، من الإنفاق في الكساوي والأرزاق ، بالكلام الطيب ، وتحسين الأخلاق .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ أي اختبروهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ ﴾ يعني الحلم . قال الجمهور من العلماء : البلوغ في الغلام ، تارة يكون بالحلم ، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد . وعن علي قال : حفظت من رسول الله ﷺ : « لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ ، وَلَا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ » (٢) . وعن عائشة وغيرها من الصحابة عن النبيِّ ﷺ قال : « رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ : عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ أَوْ يَسْتَكْمِلَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ » (٣) . وأخذوا ذلك من

(١) ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه (١٤/١٨٤) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٧٣) والبيهقي في السنن (٧/٥٧) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/١٠٠) والنسائي في السنن (٦/١٥٦) والحاكم في المستدرك (٤/٣٨٩) .

الحديث عن ابن عمر قال : عُرضت على النبيّ ﷺ يوم أُحُد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزني ، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني . فقال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث : إن هذا الفرقُ بين الصغير والكبير (١) . واختلفوا في نبات الشعر الخشن حول الفرج ، وهي الشعرة ، هل يدل على بلوغ أم لا ؟ على ثلاثة أقوال : يفرق في الثالث بين صبيان المسلمين فلا يدل على ذلك لاحتمال المعالجة ، وبين صبيان أهل الذمة ، فيكون بلوغًا في حقهم ؛ لأنه لا يتعجل بها إلى ضرب الجزية عليه فلا يعالجها ، والصحيح أنها بلوغ في الجميع ؛ لأن هذا أمر جبلي يستوي فيه الناس ، واحتمال المعالجة بعيد ، ثم قد دلت السنة على ذلك الحديث الذي روي عن عطية القرظي قال : عرضنا على النبيّ ﷺ يوم قريظة ، فأمر من ينظر من أنبت ، فكان من أنبت قتل ، ومن لم ينبت خليَ سبيلُه ، فكنت فيمن لم ينبت فخلي سبيلي (٢) . وإنما كان كذلك ؛ لأن سعد بن معاذ كان قد حكم فيهم بقتل المقاتلة وسبي الذرية . وعن عمر أن غلامًا ابتهر جارية في شعره ، فقال عمر : انظروا إليه ، فلم يوجد أنبت فدرأ عنه الحد . قال أبو عبيدة : ابتهرها أي قذفها ، والابتهار أن يقول : فعلت بها وهو كاذب ، فإن كان صادقًا هو الابتيار .

وقوله ﷻ : ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني صلاحًا في دينهم ، وحفظًا لأموالهم . وهكذا قال الفقهاء : إذا بلغ الغلام مصلحًا لدينه وماله انفك الحجر عنه ، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه . وقوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية ﴿ إِسْرَافًا وَبِدَارًا ﴾ أي مبادرة قبل بلوغهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ عنه ولا يأكل منه شيئًا . وقال الشعبي : هو عليه كالميتة والدم ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ عن عائشة : نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجًا أن يأكل منه . قال الفقهاء : له أن يأكل من أقل الأمرين أجرة مثله أو قدر حاجته . واختلفوا هل يرد إذا أيسر ؟ على قولين :

أحدهما : لا ، لأنه أكل بأجرة عمله ، وكان فقيرًا ، وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي ؛ لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ فقال : ليس لي مال ولي يتيم ؟ فقال : « كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلاَ مُبَذِّرٍ وَلاَ مُتَأَثِّلٍ مَالًا ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَقِي مَالَكَ - أو قال - تَفْدِي مَالَكَ بِمَالِهِ » شك حسين (٣) . عن جابر أن رجلًا قال : يا رسول الله مما أضرب يتيمي ؟ قال : « مِمَّا كُنْتَ ضَارِبًا مِنْهُ وَلَدَكَ ، غَيْرَ وَاقٍ مَالَكَ بِمَالِهِ ، وَلاَ مُتَأَثِّلٍ مِنْهُ مَالًا » (٤) .

وعن القاسم بن محمّد قال : جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال : إن في حجري أيتامًا ، وإن لهم إبلًا ولي إبل ، وأنا أمنح من إبلي فقراء ، فماذا يحل من ألبانها فقال : إن كنت تبغي ضالتها ، وتهنا جرباها ، وتلوط حوضها ، وتسعى عليها ، فاشرب غير مضر بنسل ، ولا ناهك في الحلب .

والثاني : نعم ، لأن مال اليتيم على الحظر ، وإنما أبيح للحاجة ، فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة . عن حارثة بن مضرب قال : قال عمر ﷺ : إني أنزلت نفسي من هذا المال منزلة والي اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن احتجت استقرضت ، فإذا أيسرت قضيت .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٦٤/٨) . (٢) أخرجه البيهقي في السنن (٥٨/٦) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٧٢) والنسائي في السنن (٢٥٦/٦) وابن ماجة في السنن (٢٧١٨) .

(٤) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٤٣٧/١٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٣/٨) .

عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ قال : يعني القرض ، وعن مقسم عن ابن عبّاس ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ قال : يأكل من ماله يقوت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم . وقال عامر الشعبي : لا يأكل منه إلَّا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة ، فإن أكل منه قضاه .

وقوله : ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ يعني بعد بلوغهم الحلم ، وإيناسكم الرشد منهم ، فحينئذ سلموا إليهم أموالهم ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ وهذا أمر من اللَّه تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم ، لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه ، ثم قال : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أي وكفي باللَّه محاسبًا وشاهدًا ورقيبًا على الأولياء في حال نظرهم للأيتام ، وحال تسليمهم لأموالهم ، هل هي كاملة موفرة ، أو منقوصة مبخوسة مروج حسابها مدلس أمورها ؟ واللَّه عالم بذلك كله . ولهذا ثبت أن رسول اللَّه ﷺ قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا ، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ، لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلا تَلِيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ »[1] .

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئًا ، فأنزل اللَّه : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ الآية . أي الجميع فيه سواء في حكم اللَّه تعالى ، يستوون في أصل الوراثة ، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض اللَّه لكل منهم بما يدلي به إلى الميت من قرابة ، أو زوجية ، أو ولاء ؛ فإنه لحمة كلحمة النسب .

وقوله : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ ﴾ الآية قيل : المراد : وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربي ممن ليس بوارث ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ ﴾ فليرضخ لهم من التركة نصيب ، وإن ذلك كان واجبًا في ابتداء الإسلام ، وقيل : يستحب ، واختلفوا هل هو منسوخ أم لا على قولين . عن ابن عبّاس في الآية قال : هي محكمة وليست بمنسوخة . وعن مقسم عن ابن عبّاس قال : هي قائمة يعمل بها . وعن مجاهد قال : هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم . وقال ابن سيرين وسعيد بن جبير ومكحول وغيرهم : إنها واجبة . وعن ابن سيرين قال : ولي عبيدة وصية ، فأمر بشاة فذبحت فأطعم أصحاب هذه الآية ، فقال : لولا هذه الآية لكان هذا من مالي .

ذكر من ذهب إلى أن ذلك أمر بالوصية لهم : يروى أن عبد اللَّه بن عبد الرَّحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه عبد الرَّحمن وعائشة حية ، فلم يدع في الدار مسكينًا ولا ذا قرابة إلَّا أعطاه من ميراث أبيه ، قالا : وتلا ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ قال القاسم : فذكرت ذلك لابن عبّاس فقال : ما أصاب ، ليس ذلك له ، إنما ذلك إلى الوصية ، وإنما هذه الآية في الوصية يريد الميت يوصي لهم .

ذكر من قال إن هذه الآية منسوخة بالكلية : عن ابن عبّاس رضي اللَّه تعالى عنهما : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٧) وأبو داود في السنن (٢٨٦٨) والنسائي في السنن (٦/٢٥٥) .

ٱلْقِسْمَةَ ﴾ قال : منسوخة . وعنه قال : نسختها الآية التي بعدها ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ . وعنه قال : نسختها آية الميراث ، فجعل لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدن والأقربون مما قلَّ منه أو كثر . وعن سعيد بن المسيب أنه قال : إنها منسوخة ، قبل الفرائض كان ما ترك الرجل من مال أعطي منه اليتيم والفقير والمسكين وذوي القربى إذا حضروا القسمة ، ثم نسختها المواريث فألحق اللّٰه بكل ذي حق حقه ، وصارت الوصية من ماله يوصي بها لذوي قرابته حيث شاء . وعن سعيد بن المسيب : هي منسوخة ، نسختها المواريث والوصية . وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم ، وقد اختار ابن جرير ههنا قولا غريبًا جدًّا وحاصله أن معنى الآية عنده ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ ﴾ أي وإذا حضر قسمة مال الوصية أولو قرابة الميت ﴿ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ ﴾ لليتامى والمساكين إذا حضروا ﴿ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ هذا معنى ما حاوله بعد طول العبارة والتكرار وفيه نظر . وعن ابن عبّاس ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ ﴾ : هي قسمة الميراث . والمعنى على هذا لا على ما سلكه ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، بل المعنى : أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه ، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ ، وهم يائسون لا شيء يعطونه ، فأمر اللّٰه تعالى - وهو الرؤوف الرحيم - أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون برًّا بهم وصدقة عليهم ، وإحسانًا إليهم ، وجبرًا لكسرهم . وذمَّ الذين ينقلون المال خفية خشية أن يطلع عليهم المحاويج وذوو الفاقة كما أخبر به عن أصحاب الجنّة ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي بليل . وقال : ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۝ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ فـ ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ فمن جحد حق اللّٰه عليه عاقبه في أعز ما يملكه ، ولهذا جاء في الحديث : « مَا خَالَطَتِ الصَّدَقَةُ مَالاً إِلَّا أَفْسَدَتْهُ » (١) أي منعها يكون سبب محق ذلك المال بالكلية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس : هذا في الرجل يحضره الموت ، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته ، فأمر اللّٰه تعالى الذي يسمعه أن يتّقي اللّٰه ويوفقه ويسدّده للصواب ، فينظر لورثته كما كان يجب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة ، وثبت في الصحيحين أن رسول اللّٰه ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده قال : يا رسول اللّٰه ، إني ذو مال ولا يرثني إلّا ابنة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : « لا » قال : فالشطر ؟ قال : « لا » قال : فالثلث ؟ قال : « الثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ » ثم قال رسول اللّٰه ﷺ : « إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » (٢) . وعن ابن عبّاس قال : لو أن الناس غضوا من الثُّلث إلى الربع ، فإن رسول اللّٰه ﷺ قال : « الثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ » . قال الفقهاء إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفي في وصيته الثُّلث ، وإن كانوا فقراء استحب أن ينقص الثُّلث . وقيل : المراد بالآية : فليتقوا اللّٰه في مباشرة أموال اليتامى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا ﴾ أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم .

ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلمًا فإنما يأكل في بطنه نارًا ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب ، فإنما يأكلون نارًا تتأجج في بطونهم يوم القيامة . وعن أبي هريرة أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » قيل : يا رسول اللّٰه وما هنَّ ؟ قال : « الشِّرْكُ بِاللّٰه ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللّٰهُ إِلَّا بِالحَقِّ ، وَأَكْلُ

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٤٣/١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٤/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٤) وأحمد في مسنده (٢٢٣/١) .

الرِّبَا ، وأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ ، والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المُؤْمِنَاتِ »[١] . وقال السدي : يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ، ومن مسامعه ، وأنفه ، وعينيه ، يعرفه كل من رآه بأكل مال اليتيم . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أُحرِّج مَالَ الضَّعِيفَيْنِ : المَرْأَةِ ، وَاليَتِيمِ »[٢] أي أوصيكم باجتناب مالهما .

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

هذه الآية الكريمة والتي بعدها ، والآية التي هي خاتمة هذه السورة ، هن آيات علم الفرائض ، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك ، ولنذكر منها ما هو متعلِّق بتفسير ذلك ، وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة ، والحجاج بين الأئمة ، فموضعه كتب الأحكام والله المستعان . وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا : « العِلْمُ ثَلاثَةٌ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ : آيَةٌ مُحْكَمَةٌ ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ »[٣] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعَلَّمُوا الفَرَائِضَ وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ ؛ فَإِنَّهُ نِصْفُ العِلْمِ ، وَهُوَ يُنْسَى ، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْتَزَعُ مِنْ أُمَّتِي »[٤] . قال ابن عيينة : إنما سمي الفرائض نصف العلم ؛ لأنه يبتلى به الناس كلهم ، وعن جابر بن عبد الله قال : عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين ، فوجدني النبيُّ ﷺ لا أعقل شيئًا ، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش عليَّ فأفقت فقلت : ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله ؟ . فنزلت ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾[٥] .

وعن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في يوم أُحد شهيدًا ، وإن عمَّهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالًا ، ولا ينكحان إلَّا ولهما مال ، قال : فقال : « يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ » فنزلت آية الميراث ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : « أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ ، وَأُمَّهُمَا الثُّمُنَ ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ »[٦] . والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي ؛ فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات ، ولم يكن له بنات ، وإنما كان يورث كلالة ، ولكن ذكرنا الحديث ههنا تبعًا للبخاري فإنه ذكره ههنا ، والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية ، والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم ، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكر دون الإناث ، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥)

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٨٥) والبيهقي في السنن (٢٠٨/٦) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٣٢/٤) والبيهقي في السنن (٢٠٨/٦) والدارمي في السنن (٧٣/١) .

(٥) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٢/٦) .

(٦) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩١) وأحمد في مسنده (٣٥٢/٣) والحاكم في المستدرك (٣٣٤/٤) .

الميراث ، وفاوت بين الصنفين ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسّب وتحمّل المشاق ، فناسب أن يعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى . وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، حيث أوصى الوالدين بأولادهم ، فعلم أنه أرحم بهم منهم ، كما جاء في الحديث - وقد رأى امرأة من السبي ، فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت تدور على ولدها ، فلما وجدته من السبي أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته - فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أَتَرَوْنَ هذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ » ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « فواللَّه للَّه أَرْحَمُ بعبادِهِ منْ هذِهِ بِوَلَدِهَا » (١) . وعن ابن عبّاس : كان المال للولد ، وكانت الوصية للوالدين ، فنسخ اللَّه من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع . وعن ابن عبّاس : قوله : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ وذلك أنه لما نزلت الفرائض التي فرض اللَّه فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس أو بعضهم وقالوا : تعطى المرأة الربع أو الثمن ، وتعطى الابنة النصف ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ، ولا يجوز الغنيمة ؛ اسكتوا عن هذا الحديث لعل رسول اللَّه ﷺ ينساه ، أو نقول له فيغير فقالوا : يا رسول اللَّه تعطى الجارية نصف ما ترك أبوها ، وليست تركب الفرس ، ولا تقاتل القوم ؟ ويعطى الصبي الميراث وليس يغني شيئًا ، وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية ، لا يعطون الميراث إلّا لمن قاتل القوم ، ويعطونه الأكبر فالأكبر .

وقوله : ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ ﴾ قال بعض الناس : قوله : ﴿ فَوۡقَ ﴾ زائدة وتقديره : فإن كن نساء اثنتين كما في قوله : ﴿ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ وهذا غير مسلَّم لا هنا ولا هناك . فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه ، وهذا ممتنع ، ثم قوله : ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ ﴾ لو كان المراد ما قالوه ، لقال : فلهما ثلثا ما ترك ، وإنما استفيد كون الثلثين للبنتين من حكم الأختين في الآية الأخيرة ، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين . وإذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى . وقد تقدم في حديث جابر أن النبيّ ﷺ حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين ، فدل الكتاب والسنّة على ذلك ، وأيضًا فإنه قال : ﴿ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ ﴾ فلو كان للبنتين النصف لنص عليه أيضًا ، فلما حكم به للواحدة على انفرادها ، دلّ على أن البنتين في حكم الثلاث واللَّه أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ إلى آخره ، الأبوان لهما في الإرث أحوال :

أحدها : أن يجتمعا مع الأولاد ، فيفرض لكل واحد منهما السدس ، فإن لم يكن للميت إلّا بنت واحدة ، فرض لها النصف ، وللأبوين لكل واحد منهما السدس ، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب ، فيجمع له - والحالة هذه - بين الفرض والتعصيب .

الحال الثاني : أن ينفرد الأبوان بالميراث ، فيفرض للأم - والحالة هذه - الثلث ، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض ، فيكون قد أخذ ضعفي ما حصل للأم وهو الثلثان ، فلو كان معهما زوج أو زوجة

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٢) والطبراني في الصغير (١/ ٩٨) .

أخذ الزوج النصف والزوجة الربع ، ثم اختلف العلماء ماذا تأخذ الأم بعد ذلك على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها تأخذ ثلث الباقي في المسألتين ؛ لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما . وقد جعل الله لها نصف ما جعل للأب ، فتأخذ ثلث الباقي ويأخذ الأب الباقي - ثلثيه - هذا قول عمر وعثمان ، وأصح الروايتين عن علي ، وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور العلماء .

والثاني : أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ فإن الآية أعم من أن يكون معها زوج أو زوجة أو لا وهو قول ابن عبّاس ، وروي عن علي ومعاذ بن جبل نحوه ، وبه يقول شريح وداود الظاهري ، واختاره أبو الحسين محمّد بن عبد الله بن اللبان البصري في كتابه الإيجاز في علم الفرائض ، وهذا فيه نظر ، بل هو ضعيف ؛ لأن ظاهر الآية إنما هو ما إذا استبدا بجميع التركة ، وأما هنا فيأخذ الزوج أو الزوجة الفرض ويبقى الباقي كأنه جميع التركة فتأخذ ثلثه .

والقول الثالث : أنها تأخذ ثلث جميع المال في مسألة الزوجة خاصة ؛ فإنها تأخذ الربع وهو ثلاثة من اثني عشر ، وتأخذ الأم الثلث وهو أربعة ، فيبقى خمسة للأب . وأما في مسألة الزوج ، فتأخذ ثلث الباقي لئلا تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال ، فتكون المسألة من ستة : للزوج النصف ثلاثة ، وللأم ثلث الباقي بعد ذلك وهو سهم ، وللأب الباقي بعد ذلك وهو سهمان . ويحكى هذا عن ابن سيرين ، وهو مركب من القولين الأولين ، وهو ضعيف أيضًا ، والصحيح الأول والله أعلم .

والحال الثالث من أحوال الأبوين : وهو اجتماعهما مع الإخوة ، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم : فإنهم لا يرثون مع الأب شيئًا ، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس ، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب ، أخذ الأب الباقي . وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور . وعن ابن عبّاس أنه دخل على عثمان فقال : إن الأخوين لا يردّان الأم عن الثلث . قال الله تعالى : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ ﴾ فالأخوان ليسا بلسان قومك إخوة ، فقال عثمان : لا أستطيع تغيير ما كان قبلي ، ومضى في الأمصار ، وتوارث به الناس . وفي صحة هذا الأثر نظر ، فإن شعبة هذا تكلم فيه مالك بن أنس ، ولو كان هذا صحيحًا عن ابن عبّاس لذهب إليه أصحابه الأخصاء به ، والمنقول عنهم خلافه ، وعن خارجة بن زيد عن أبيه أنه قال : الإخوان تسمى إخوة ، وقد أفردت لهذه المسألة جزءًا على حدة .

وقوله : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ﴾ أضروا بالأم ولا يرثون ، ولا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث ، ويحجبها ما فوق ذلك ، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم عن الثلث أن أباهم يلي إنكاحهم ، ونفقته عليهم دون أمهم ، وهذا كلام حسن . لكن روي عن ابن عبّاس بإسناد صحيح أنه كان يرى أن السدس الذي حجبوه عن أمهم يكون لهم ، وعن ابن عبّاس قال : السدس الذي حجبته الإخوة لأم لهم إنما حجبوا أمهم عنه ليكون لهم دون أبيهم ، ثم قال ابن جرير : وهذا قول مخالف لجميع الأمة [1] . وعن ابن عبّاس أنه قال : الكلالة من لا ولد له ولا والد .

وقوله : ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين

(١) تفسيره الطبري (١/٣٧٢) .

مقدم على الوصية ، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة . وعن علي بن أبي طالب قال : إنكم تقرأون ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية ، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات ، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه .

وقوله : ﴿ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ ﴾ أي إنما فرضنا للآباء والأبناء وساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية ، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من كون المال للولد وللأبوين الوصية كما تقدم عن ابن عباس ، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا ، ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم ، لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي أو الأخروي ، أو هما من أبيه ما لا يأتيه من ابنه ، وقد يكون بالعكس ، ولذا قال : ﴿ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ ﴾ أي أن النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر ، فلهذا فرضنا لهذا وهذا ، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾ أي هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث ، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض ، هو فرض من الله حكم به وقضاه ، والله عليم حكيم ، الذي يضع الأشياء في محالها ويعطي كلًّا ما يستحقه بحسبه ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ .

﴿ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾ .

يقول تعالى : ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم ، إذا متن عن غير ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين . وقد تقدم أن الدين مقدّم على الوصية ، وبعده الوصية ثم الميراث ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب . ثم قال : ﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ ﴾ إلى آخره وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً ﴾ الكلالة مشتقة من الإكليل وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه ، عن أبي بكر الصدِّيق أنه سئل عن الكلالة فقال : أقول فيها برأيي فإن يكن صوابًا فمن الله ، وإن يكن خطأ ، فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد ، فلما ولي عمر قال : إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه [1] . وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف بل جميعهم ، وقد حكى الإجماع عليه غير واحد ، وورد فيه حديث مرفوع ، وقد روي عن ابن عبّاس ما يخالف ذلك ، وهو أنه من لا ولد له ، والصحيح عنه الأول ، ولعل الراوي ما فهم عنه ما أراد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ ﴾ أي من أم كما هو في قراءة بعض السلف منهم سعد بن أبي

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٧٦/١٤) .

وقاص ، وكذا فسّرها أبو بكر الصدِّيق فيما رواه قتادة عنه ﴿ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ﴾ وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه :

أحدها : أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم .

والثاني : أن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء .

والثالث : لا يرثون إلَّا إن كان ميتهم يورث كلالة ، فلا يرثون مع أب ولا جد ، ولا ولد ولا ولد ابن .

والرابع : أنهم لا يزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم .

وعن الزهري قال : قضى عمر أن ميراث الإخوة من الأم بينهم ، للذكر مثل حظ الأنثى . قال الزهري : ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ ، وهذه الآية هي التي قال الله تعالى فيها : ﴿ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ﴾ . واختلف العلماء في المسألة المشتركة ، وهي زوج وأم أو جدة واثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين ، فعلى قول الجمهور : للزوج النصف ، وللأم أو الجدة السدس ، ولولد الأم الثلث ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم . وقد وقعت هذه المسألة في زمان أمير المؤمنين عمر ؛ فأعطى الزوج النصف والأم السدس ، وجعل الثلث لأولاد الأم ، فقال له أولاد الأبوين : يا أمير المؤمنين هب أن أبانا كان حمارًا ألسنا من أم واحدة ؟ فشرك بينهم ، وصح التشريك عن عثمان وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح القاضي ومسروق وهو مذهب مالك والشافعي . وكان علي بن أبي طالب لا يشرك بينهم ، بل يجعل الثلث لأولاد الأم ، ولا شيء لأولاد الأبوين ، والحالة هذه لأنهم عصبة . وهذا قول أُبيّ بن كعب وأبي موسى الأشعري ، وهو المشهور عن ابن عبّاس ، وهو مذهب الشعبي وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمّد بن الحسن والإمام أحمد وداود بن علي الظاهري .

وقوله : ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ﴾ أي لتكن وصيته على العدل ، لا على الإضرار والجور والحيف ، بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه ، أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة ، فمن سعى في ذلك كان كمن ضاد الله في حكمه وشرعه . عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « الإِضْرَارُ في الوَصِيَّةِ مِنَ الكَبَائِرِ » [1] . ولهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث هل هو صحيح أم لا ؟ على قولين : أحدهما : لا يصح لأنه مظنة التهمة . وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ » [2] . وهذا مذهب مالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة ، والقول القديم للشافعي رحمهم الله ، وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار . وهو مذهب طاووس وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز ، وهو اختيار أبي عبد الله البخاري في صحيحه ، واحتج بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفزارية عما أغلق عليه بابها . قال : وقال بعض الناس : لا يجوز إقراره لسوء الظن بالورثة ، وقد قال النبي ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ » [3] وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه الدارقطني في السنن (١٥١/٤) ، والهندي في كنز العمال (٤٦٠٦٩) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٢٤٧/٦) وأبو داود في السنن (٢٨٧٠) والترمذي في السنن (٢١٢٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في السنن (١٩٨٨) .

يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فلم يخص وارثًا ولا غيره . فمتى كان الإقرار صحيحًا مطابقًا لما في نفس الأمر جرى فيه هذا الخلاف ، ومتى كان حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ، ونقصان بعضهم فهو حرام بالإجماع ، وبنص هذه الآية الكريمة :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

أي هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه ، هي حدود الله فلا تعتدوها ولا تجاوزوها . ولهذا قال : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي فيها فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضها بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي لكونه غيَّر ما حكم الله به ، وضاد الله في حكمه . وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَإِذَا أَوْصَى وَحَافَ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ النَّارَ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ » قال : ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١) .

﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ .

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة ، حبست في بيت فلا تمكّن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ﴾ يعني الزنى ﴿ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك . قال ابن عبّاس رضي الله عنه : كان الحكم كذلك ، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم . وعن عبادة بن الصامت قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثّر عليه وكرب لذلك وتغير وجهه ، فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم فلما سرّي عنه قال : « خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ ، وَالبِكْرُ بِالبِكْرِ ، الثَّيِّبُ جَلْدُ مِائَةٍ وَرَجْمٌ بِالحِجَارَةِ ، وَالبِكْرُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ نَفْيُ سَنَةٍ » (٢) .

وعن ابن عبّاس قال : لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ : « لَا حَبْسَ بَعْدَ سُورَةِ النِّسَاءِ » (٣) . وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث ، وهو الجمع بين

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٠٧) وابن ماجه في السنن (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٢/٢٧٨) .
(٢) أخرجه مسلم في الحدود (١٢) وأبو داود في السنن (٤٤١٥) وأحمد في مسنده (٥/٣١٧) .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٦/١٦٢) والدارقطني في السنن (٤/٦٦) .

الجلد والرجم في حق الثيب الزاني ، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد ، قالوا : لأن النبيّ ﷺ رجم ماعزًا والغامدية واليهوديين ولم يجلدهم قبل ذلك ، فدلَّ على أن الجلد ليس بحتم ، بل هو منسوخ على قولهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ أي واللذان يفعلان الفاحشة فآذوهما . أي بالشتم والتعيير والضرب بالنعال ، وكان الحكم كذلك حتى نسخه اللَّه بالجلد أو الرجم . وقال عكرمة وعطاء والحسن وعبد اللَّه بن كثير : نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا . وقال السدي : نزلت في الفتيان من قبل أن يتزوجوا . وقال مجاهد : نزلت في الرجلين إذا فعلا - لا يكني - وكأنه يريد اللواط . وقد روي عن ابن عبّاس مرفوعًا قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ رَأَيْتُموهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ » [(١)] . وقوله ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾ أي أقلعا ونزعا عما كانا عليه وصلحت أعمالهما وحسنت ﴿ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ﴾ أي لا تعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك ؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وقد ثبت في الصحيحين « إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الحَدَّ وَلاَ يُثَرِّب عَلَيْهَا » [(٢)] أي لا يعيرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت .

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

يقول ﷻ : إنما يقبل اللَّه التوبة ممن عمل السوء بجهالة ، ثم يتوب ولو بعد معاينة الملك يقبض روحه قبل الغرغرة . قال مجاهد وغير واحد : كل من عصى اللَّه خطأً أو عمدًا فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب . وعن قتادة قال : اجتمع أصحاب رسول اللَّه ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي اللَّه به فهو جهالة ، عمدًا كان أو غيره . وعن مجاهد قال : كل عامل بمعصية اللَّه فهو جاهل حين عملها . وعن ابن عبّاس : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ قال : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت . وقال الضحاك : ما كان دون الموت فهو قريب ، وقال قتادة والسدي : ما دام في صحته ، وهو مروي عن ابن عبّاس . وقال الحسن البصري : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ ما لم يغرغر . وقال عكرمة : الدنيا كلها قريب .

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ ، قال : « إِنَّ اللَّه يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ » [(٣)] .

وعن عبد اللَّه بن عمر يقول : من تاب قبل موته بعام تِيبَ عليه ، ومن تاب قبل موته بشهر تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بجمعة تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بيوم تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بساعة تيب عليه . فقلت : إنما قال اللَّه : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ فقال : إنما أحدثك ما سمعته من رسول اللَّه ﷺ [(٤)] .

وعن عبد الرَّحمن بن السلماني قال : اجتمع أربعة من أصحاب النبيّ ﷺ فقال أحدهم : سمعت رسول

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٥٥/٤) والزيلعي في نصب الراية (٣٤٠/٣) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٤٠) والدارقطني في السنن (١٦٠/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/٢) والترمذي في السنن (٣٥٣٧) والحاكم في المستدرك (٢٥٧/٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٦/٢) .

اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّه يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِيَوْمٍ » فقال الآخر : أنت سمعت هذا من رسول اللَّه ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّه يَقْبَلُ العَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِنِصْفِ يَوْمٍ » فقال الثالث : أنت سمعت هذا من رسول اللَّه ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّه يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِضَحْوَةٍ » قال الرابع : أنت سمعت هذا من رسول اللَّه ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّه يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَالَمْ يُغَرْغِرْ بِنَفسِهِ » (١) .

وعن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ قال : « قَالَ إِبْلِيسُ : يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ لاَ أَزَالُ أُغْوِيهِمْ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ ، فَقَالَ اللَّه ﷻ : وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي » (٢) فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى اللَّه ﷻ ، وهو يرجو الحياة فإنه توبته مقبولة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ وأما متى وقع الإياس من الحياة ، وعاين الملك ، وخرجت الروح في الحلق ، وضاق بها الصدر ، وبلغت الحلقوم ، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم ، فلا توبة مقبولة حينئذٍ ، ولات حين مناص ، ولهذا قال : ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾ وهذا كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ ﴾ الآيتين ، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها في قوله تعالى : ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ ﴾ يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه ، لا ينفعه ندمه ولا توبته ، ولا يقبل منه فدية ، ولو بملء الأرض . قال ابن عبّاس وأبو العالية والربيع بن أنس : نزلت في أهل الشرك . وعن أبي ذر أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ – أو يغفر لعبده – مَا لَمْ يَقَعِ الحِجَابُ » قيل : وما وقوع الحجاب ؟ قال : « تَخْرُجُ النَّفْسُ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ » (٣) ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ أي موجعًا شديدًا مقيمًا .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ .

عن ابن عبّاس : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ ﴾ قال : كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها ، فنزلت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ ﴾ وعن عكرمة عن ابن عبّاس قال : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ ﴾ وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٢٥) .

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٤٦٧) وذكره ابن حجر فتح الباري (١١/٩٩) والسيوطي في الدر المنثور (٢/٧٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٧٤) .

أو ترد إليه صداقها ، فأحكم الله تعالى عن ذلك ، أي نهى عن ذلك [(١)] . وعنه قال : كان الرجل إذا مات وترك جارية ، ألقى عليها حميمه ثوبه فمنعها من الناس ، فإن كانت جميلة تزوجها ، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها . وقال زيد بن أسلم في الآية : كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله ، وكان يعضلها حتى يرثها ، أو يزوجها من أراد ، وكان أهل تهامة يسيء الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها ، ويشترط عليها أن لا تنكح إلّا من أراد حتى تفتدي منه ببعض ما أعطاها ، فنهى اللّه المؤمنين عن ذلك .

وقال مجاهد : كان الرجل إذا توفي كان ابنه أحق بامرأته ينكحها إن شاء إذا لم يكن ابنها ، أو ينكحها من شاء ، أخاه أو ابن أخيه . وقال عكرمة : نزلت في كبيشة بنت معن بن عاصم بن الأوس ، توفي عنها أبو قيس بن الأسلت فجنح عليها ابنه ، فجاءت رسول اللّه ﷺ فقالت : يا رسول اللّه لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح ؟ فأنزل اللّه هذه الآية [(٢)] .

قلت : فالآية تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية ، وما ذكره مجاهد ومن وافقه ، وكل ما كان فيه نوع من ذلك ، واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ أي لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقًّا من حقوقها عليك ، أو شيئًا من ذلك على وجه القهر لها والإضرار . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ يقول : ولا تقهروهن ﴿ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ يعني الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ، ولها عليه مهر ، فيضرها لتفتدي به . وعن ابن السلماني قال : نزلت هاتان الآيتان إحداهما في أمر الجاهلية ، والأخرى في أمر الإسلام ، قال عبد اللّه بن المبارك : يعني قوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ في الجاهلية ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ في الإسلام .

وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ قال ابن مسعود ، وابن عبّاس ، وسعيد بن المسيب ، والشعبي ، والحسن البصري ، ومحمّد بن سيرين ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة : يعني بذلك الزنى . يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها ، وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها . وقال ابن عبّاس وعكرمة والضحاك : الفاحشة المبينة : النشوز والعصيان . واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله الزنى والعصيان والنشوز وبذاء اللسان ، وغير ذلك . يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها ، أو بعضه ويفارقها ، وهذا جيد واللّه أعلم [(٣)] . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ قال : وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها ، فأحكم اللّه عن ذلك ، أي نهى عن ذلك .

قال عكرمة والحسن البصري : وهذا يقتضي أن يكون النسياق كله كان في أمر الجاهلية ، ولكن نهي المسلمون عن فعله في الإسلام . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان العضل في قريش بمكة ، ينكح الرجل المرأة الشريفة فلعلها لا توافقه فيفارقها على أن لا تتزوج إلّا بإذنه ، فيأتي بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد ، فإذا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٧٩) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٤/٤٠٥ ، ٤٠٦) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٠٩٠) .

جاء الخاطب ، فإن أعطته وأرضته أذن لها ، وإلَّا عضلها . قال : فهذا قوله : ﴿ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾ أي طيّبوا أقوالكم لهنَّ ، وحسِّنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت بها مثله ، كما قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي »[1] . وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه ، حتى أنه يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يتودّد إليها بذلك ، قالت : سابقني رسول الله ﷺ فسبقته ، وذلك قبل أن أحمل اللحم ، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني ، فقال : « هَذِهِ بِتِلْكَ »[2] . ويجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها[3] . وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد ، يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار[4] ، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلًا قبل أن ينام ، يؤانسهم بذلك ﷺ . وقد قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وأحكام عشرة النساء وما يتعلق بتفصيل ذلك موضعه كتب الأحكام ولله الحمد .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ أي فعسى أن يكون صبركم في إمساكهن مع الكراهة فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة . كما قال ابن عبّاس في هذه الآية : هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولدًا ويكون في ذلك الولد خير كثير . وفي الحديث الصحيح : « لاَ يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ سَخِطَ مِنْهَا خلقًا ، رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ »[5]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها ، فلا يأخذ مما كان أصدق الأولى شيئًا ولو كان قنطارًا من المال . وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل ، وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق ثم رجع عن ذلك ، وكان يقول : ألا لا تغالوا في صداق النساء ، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبيّ ﷺ ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية ، وإن كان الرجل ليبتلى بصدقة امرأته ، حتى يكون لها عداوة في نفسه ، وحتى يقول : كلفت إليك علق القربة[6] . وعن مسروق قال : ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال : أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء ، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك ؟ ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها ، فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم ، قال : ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم ؟ قال : نعم ، فقالت : أما سمعت ما

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٨٩٥) وابن ماجه في السنن (١٩٧٧) والدارمي في السنن (١٥٩/٢) والألباني في الصحيحة (٤٦٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩/٦) وأبو داود في السنن (٢٥٧٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٩/٦) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٢/٦) .
(٥) أخرجه مسلم في الرضاع (٦١) وأحمد في مسنده (٣٢٩/٢) والبيهقي في السنن (٢٩٥/٧) .
(٦) أخرجه النسائي في السنن (١١٧/٦) .

أنزل الله في القرآن ؟ قال : وأي ذلك ؟ فقالت : أما سمعت الله يقول : ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ الآية ، قال : فقال : اللهم غفرًا ، كل الناس أفقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر فقال : أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما : « اللهُ يَعْلَمُ أَنْ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ ؟ » قالها ثلاثًا ، فقال الرجل : يا رسول الله مالي - يعني ما أصدقها - قال : « لاَ مَالَ لَكَ ، إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا ، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ أَبْعَدُ لَكَ مِنْهَا » [(١)] . وعن نضرة بن أبي نضرة أنه تزوج امرأة بكرًا في خدرها فإذا هي حامل من الزنى ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فقضى لها بالصداق ، وفرق بينهما ، وأمر بجلدها وقال : « الوَلَدُ عَبْدٌ لَكَ ، وَالصَّدَاقُ فِي مُقَابَلَةَ البضع » [(٢)] . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ روي عن ابن عبَّاس ومجاهد وسعيد بن جبير . أن المراد بذلك العقد . وعن ابن عبَّاس في قوله : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ قال : إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وعن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبيّ ﷺ قال فيها : « وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ » .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ الآية ، يحرم الله تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم ، وإعظامًا واحترامًا أن توطأ من بعده ، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها ، وهذا أمر مجمع عليه . وعن رجل من الأنصار قال : لما توفي أبو قيس - يعني ابن الأسلت - وكان من صالحي الأنصار ، فخطب ابنه قيس امرأته فقالت : إنما أعدُّك ولدًا وأنت من صالحي قومك ، ولكني آتي رسول الله ﷺ فقالت : إن أبا قيس توفي فقال : « خَيْرًا » ثم قالت : إن ابنه قيسًا خطبني وهو من صالحي قومه ، وإنما كنت أعده ولدًا فما ترى ؟ فقال لها : « ارْجِعِي إِلَى بَيْتِكِ » قال : فنزلت : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ الآية [(٣)] . وقد زعم السهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولاً به في الجاهلية ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ كما قال : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ قال : وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة تزوج بامرأة أبيه فأولدها ابنه النضر بن كنانة قال : وقد قال ﷺ : « ولدت مِنْ نِكَاحٍ لاَ مِنْ سِفَاحٍ » [(٤)] . قال : فدل على أنه كان سائغًا لهم ذلك ، فأراد أنهم كانوا يعدونه نكاحًا . وعن ابن عبَّاس قال : كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلَّا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ﴾ ، والله أعلم . وعلى كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة ، مبشع غاية التبشع . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ ﴿ وَمَقْتًا ﴾ أي بغضًا أي هو أمر كبير في نفسه ، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته ، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٣٥١١) ومسلم في اللعان (٦) والنسائي في السنن (١٧٧/٦) وأبو داود في السنن (٢٢٥٨) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٣١) والحاكم في المستدرك (١٨١/٢) .
(٣) أسباب النزول للنيسابوري (ص : ٨٢) .
(٤) ذكره الألباني في إرواء الغليل (٣٢٩/٦) .

زوجها قبله ، ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة ؛ لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبي ﷺ وهو كالأب ، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع ، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه . وقال عطاء بن أبي رباح في قوله : ﴿ وَمَقْتًا ﴾ أي يمقت الله عليه ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أي وبئس طريقًا لمن سلكه من الناس ، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه ، فيقتل ويصير ماله فيئًا لبيت المال . كما روي عن البراء بن عازب قال : مرَّ بي عمي الحارث بن عمير ومعه لواء قد عقده له النبيّ ﷺ فقلت له : أي عم أين بعثك النبي ؟ قال : بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن أضرب عنقه (١) .

مسألة : وقد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو ملك أو شبهة ، واختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون الجماع أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية . فعن الإمام أحمد رحمه الله أنها تحرم أيضًا بذلك .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع والمحارم بالصهر . فعن ابن عباس قال : حرمت عليكم سبع نسبًا وسبع صهرًا ، وقرأ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ ﴾ الآية . وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ فإنها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل ، وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها ؛ لأنها ليست بنتًا شرعية ، فكما لم تدخل في قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ فإنها لا ترث بالإجماع ، فكذلك لا تدخل في هذه الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك ، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك . وعن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الرَّضَاعَةَ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الوِلَادَةُ » (٢) وقال بعض الفقهاء : كل ما يحرم من النسب يحرم من الرضاعة إلا أربع صور ، وقال بعضهم : ست صور هي مذكورة في كتب الفروع ، والتحقيق أنه لا يستثنى شيء من ذلك ؛ لأنه يوجد مثل بعضها في النسب ، وبعضها إنما يحرم من جهة الصهر ، فلا يرد على الحديث شيء أصلًا البتة ، ولله الحمد وبه الثقة .

ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة ، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع ، لعموم هذه الآية . وهذا قول مالك ، ويروى عن ابن عمر ، وقال آخرون : لا يحرم أقل من ثلاث رضعات ؛ لما ثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تُحَرِّمُ المَصَّةُ وَلَا المَصَّتَانِ » (٣) . وفي لفظ آخر : « لا

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٤٥٧) وأحمد في مسنده (٢٩٢/٤) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١٠٣/٦) وأحمد في مسنده (١٧٨/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الرضاع (١٧) وأبو داود في السنة (٢٠٦٣) والترمذي في السنن (١١٥٠) .

تُحَرِّمُ الإِمْلاجَةُ وَلا الإِمْلاجَتَانِ »[١] وممن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه وأبو عبيد وأبو ثور ، وهو مروي عن علي وعائشة وأم الفضل وابن الزبير . وقال آخرون : لا يحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان فيما أنزل من القرآن « عَشْر رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ » ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى النبيّ ﷺ وهنّ فيما يقرأ من القرآن[٢] . وفي حديث سهلة ابنة سهيل أن رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع سالماً مولى أبي حذيفة خمس رضعات[٣] . وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات ، وبهذا قال الشافعي وأصحابه . ثم ليعلم أنه لابد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور . وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة عند قوله : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ . ثم اختلفوا هل يحرم لبن الفحل كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم ، أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط ، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو قول لبعض السلف على قولين ، تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبيرة .

وقوله : ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أما أم المرأة ، فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها ، سواء دخل بها أو لم يدخل بها . وأما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم حتى يدخل بأمها ، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها ، ولهذا قال : ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ في تزويجهن ، فهذا خاص بالربائب وحدهن ، وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب فقال : لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها لقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ وعن علي رضي الله عنه في رجل تزوج امراة فطلقها قبل أن يدخل بها أتزوج بأمها ؟ قال : هي بمنزلة الربيبة[٤] . وعن زيد بن ثابت قال : إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها ، فلا بأس أن يتزوج أمها . وعن بكر بن كنانة أن أباه أنكحه امرأة بالطائف قال : فلم أجامعها حتى توفي عمي عن أمها ، وأمها ذات مال كثير ، فقال أبي : هل لك في أمها ؟ قال : فسألت ابن عبّاس وأخبرته ؟ فقال : انكح أمها ، وسألت ابن عمر فقال : لا تنكحها . فأخبرت أبي بما قالا ، فكتب إلى معاوية فأخبره بما قالا ، فكتب معاوية ، إني لا أحل ما حرم الله ، ولا أحرم ما أحل الله ، وأنت وذاك ، والنساء سواها كثير . فلم ينه ولم يأذن لي ، فانصرف أبي عن أمها فلم ينكحها . وعن مجاهد قال : ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ أراد بهما الدخول جميعًا . فهذا القول مروي عن علي وزيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ومجاهد وسعيد بن جبير وابن عبّاس ، وقد توقف فيه معاوية . وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن الصابوني فيما نقله الرافعي عن العبادي . وعن ابن مسعود : أن رجلًا من بني كمخ من فزارة تزوج أمها فتزوجها وولدت له أولادًا ، ثم أتى ابن مسعود المدينة ، فسئل عن ذلك فأخبر أنها لا تحل له ، فلما رجع إلى الكوفة قال للرجل : إنها عليك حرام ففارقها .

وجمهور العلماء على أن الربيبة لا تحرم بالعقد على الأم بخلاف الأم ، فإنها تحرم بمجرد العقد . وعن ابن عباس أنه كان يقول : إذا طلّق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها .

(١) أخرجه مسلم في الرضاع (١٨) والنسائي في السنن (٦/١٠٠) والدارمي في السنن (٢/١٥٧) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٦/١٠٠) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٠١) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره (٤/٤٢٥) .

وروي أنه قال : إنها مبهمة فكرهها . وروي عن ابن مسعود وعمران بن حصين ومسروق وطاوس وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وابن سيرين وقتادة والزهري نحو ذلك . وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة ، وجمهور الفقهاء قديمًا وحديثًا ، قال ابن جريج : والصواب قول من قال : الأم من المبهمات ؛ لأن الله لم يشترط معهن الدخول كما اشترطه مع أمهات الربائب . مع أن ذلك أيضًا إجماع الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ فالجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره . قالوا : وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب ، فلا مفهوم له . عن أم حبيبة قالت : يا رسول الله ، انكح أختى بنت أبي سفيان ، قال : « أَوَ تُحِبِّينَ ذَلِكَ ؟ » قالت : نعم لست بك بمخلية ، وأحب من شاركني في خير أختي . قال : « فَإِنَّ ذَلِكَ لا يَحِلُّ لِي » قالت : فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة قال : « بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ ؟ » قالت : نعم . قال : « إِنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حِجْرِي ما حَلَّتْ لِي ، إِنَّهَا لَبِنْتُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ ، أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ ، فَلا تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلا أَخَوَاتِكُنَّ » (١) . فجعل المناط في التحريم مجرد تزوجه أم سلمة ، وحكم بالتحريم بذلك ، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف . وقد قيل بأنه لا تحرم الربيبة إلَّا إذا كانت في حجر الرجل ، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم . وعن مالك بن أوس بن الحدثان قال : كانت عندي امرأة فتوفيت ، وقد ولدت لي فوجدت عليها ، فلقيني علي بن أبي طالب فقال : ما لك ؟ فقلت : توفيت المرأة ، فقال علي : لها ابنة ؟ قلت : نعم وهي بالطائف ، قال : كانت في حجرك ؟ قلت : لا هي بالطائف ، قال : فانكحها ، قلت : فأين قول الله : ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ ؟ قال : إنها لم تكن في حجرك ، إنما ذلك إذا كانت في حجرك . وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري وأصحابه . وحكاه أبو القاسم الرافعي عن مالك رحمه الله . واختاره ابن حزم وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي ، أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين بن تيمية رحمه الله ، فاستشكله وتوقف في ذلك . وعن عمر بن الخطاب سئل عن المرأة وبنتها من ملك اليمين توطأ إحداهما بعد الأخرى فقال عمر : ما أحب أن أجيزهما جميعًا - يريد أن أطأهما جميعًا - بملك يميني ، وهذا منقطع . وعن قيس قال : قلت لابن عباس : أيقع الرجل على امرأة وابنتها مملوكين له ؟ فقال : أحلتهما آية وحرمتهما آية ، ولم أكن لأفعله . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله : لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وبنتها من ملك اليمين ؛ لأن الله حرم ذلك في النكاح قال : ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ﴾ وملك اليمين عندهم تبع للنكاح . إلَّا ما روي عن عمر وابن عبَّاس ، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم . وروي عن قتادة : بنت الربيبة وبنت ابنتها لا تصلح وإن كانت أسفل ببطون كثيرة ، ومعنى قوله : ﴿ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ أي نكحتموهن . وقال عطاء : هو أن تهدى إليه فيكشف ويفتش ويجلس بين رجليها . قلت : أرأيت إن فعل ذلك في بيت أهلها ؟ قال : هو سواء ، وحسبه قد حرم ذلك عليه ابنتها . وقال ابن جرير : وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها ، وقبل النظر إلى فرجها بشهوة ، ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع .

وقوله تعالى : ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ أي وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين

(١) أخرجه مسلم في الرضاعة (١٥) وأحمد في مسنده (٤٢٨/٦) .

ولدتموهم من أصلابكم ، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية . وعن عطاء قال : كنا نحدّث ، والله أعلم ، أن النبيّ ﷺ لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة في ذلك ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴾ ونزلت : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ﴾ ونزلت ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ ﴾ وقال الحسن بن محمّد : أن هؤلاء الآيات مبهمات ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ﴾ ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ ﴾ ثم قال : وروي عن طاووس وإبراهيم والزهري ومكحول نحو ذلك . قلت : معنى مبهمات ؛ أي عامة في المدخول بها وغير المدخول ، فتحرم بمجرد العقد عليها ، وهذا متفق عليه ، فإن قيل : فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة ، كما هو قول الجمهور ، ومن الناس من يحكيه إجماعًا ، وليس من صلبه ؟ فالجواب من قوله ﷺ : « يَحْرُم مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُم مِنَ النَّسَبِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ ﴾ الآية . أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين معًا في التزويج ، وكذا في ملك اليمين ، إلّا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرناه . فدل على أنه لا مثنوية فيما يستقبل ؛ لأنه استثنى مما سلف كما قال : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ ﴾ فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدًا . وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديمًا وحديثًا على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح ، ومن أسلم وتحته أختان خير ، فيمسك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة . وعن أبي خراش الرعيني قال : قدمت على رسول الله ﷺ وعندي أختان تزوجتهما في الجاهلية فقال : « إِذَا رَجعْتَ فَطَلِّقْ إِحْدَاهُمَا » (٢) .

وعن ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين فكرهه ، فقال له ، يعني السائل : يقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ ﴾ فقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : وبعيرك مما ملكت يمينك . وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة وغيرهم ، وإن كان بعض السلف قد توقف في ذلك . ويروى أن رجلًا سأل عثمان بن عفان عن الأختين في ملك اليمين هل يجمع بينهما ؟ فقال عثمان : أحلتهما آية وحرمتهما آية ، وما كنت لأمنع ذلك ، فخرج من عنده فلقي رجلًا من أصحاب النبيّ ﷺ فسأله ذلك فقال : لو كان لي من الأمر شيء ، ثم وجدت أحدًا فعل ذلك لجعلته نكالًا . وعن إياس بن عامر قال : سألت علي بن أبي طالب فقلت : لي أختين مما ملكت يميني واتخذت إحداهما سرية فولدت لي أولادًا ، ثم رغبت في الأخرى فما أصنع ؟ فقال علي رضي الله عنه : تعتق التي كنت تطأ ثم تطأ الأخرى ، قلت : فإن ناسًا يقولون : بل تزوّجها ثم تطأ الأخرى ، فقال علي : أرأيت إن طلقها زوجها أو مات عنها أليس ترجع إليك ؟ لأن تعتقها أسلم لك ، ثم أخذ عليّ بيدي فقال لي : إنه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك في كتاب الله ﷻ من الحرائر إلّا العدد . أو قال : إلّا الأربع ، ويحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك في كتاب الله من النسب . قلت : وقد روي عن علي عن عثمان . وعن ابن عبّاس قال : قال لي علي بن أبي طالب : حرمتهما آية وأحلتهما آية - يعني الأختين - قال ابن عباس : يحرمن علي قرابتي منهن ، ولا يحرمن قرابة بعضهن من بعض - يعني الإماء - وكانت الجاهلية يحرمون ما تحرمون إلّا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين ، فلما جاء الإسلام أنزل الله ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٩/١) والبيهقي في السنن (٤٥٢/٧) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٩٥٠) .

قَدْ سَلَفَ ﴾ ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ يعني في النكاح . وعن ابن مسعود قال : يحرم من الإماء ما يحرم من الحرائر إلا العدد ، وقال أبو عمر : وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عبَّاس ، ولكن اختلف عليهم ، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار والحجاز ولا العراق ولا ما وراءهما من المشرق ولا بالشام والمغرب . إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفي القياس ، وقد ترك من يعمل ذلك ظاهرًا ما اجتمعنا عليه ، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء ، كما لا يحل ذلك في النكاح . وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء ، وكذلك يجب أن يكون نظرًا وقياسًا الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب ، وكذلك هو عند جمهورهم ، وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ أي وحرم عليكم من الأجنبيات المحصنات وهن الزوجات ، إلَّا ما ملكت أيمانكم يعني إلَّا ما ملكتموهن بالسبي فإنه يحل لكم وطؤهن ، إذا استبرأتموهن ، فإن الآية نزلت في ذلك .

عن أبي سعيد الخدري أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا سبيًا يوم أوطاس لهن أزواج من أهل الشرك ، فكان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كفُّوا وتأثموا من غشيانهن قال : فنزلت هذه الآية في ذلك ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ (١) .

وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقًا لها من زوجها أخذًا بعموم هذه الآية . وعن إبراهيم أنه سئل عن الأمة تباع ولها زوج ؟ قال : كان عبد الله يقول : بيعها طلاقها ويتلو هذه الآية ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ عن ابن عبَّاس قال : طلاق الأمة ست : بيعها طلاقها ، وعتقها طلاقها ، وهبتها طلاقها ، وبرأتها طلاقها ، وطلاق زوجها طلاقها . وعن ابن المسيب قوله : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ قال : هذه ذوات الأزواج حرم الله نكاحهن إلَّا ما ملكت يمينك ، فبيعها طلاقها . فهذا قول هؤلاء من السلف ، وقد خالفهم الجمهور قديمًا وحديثًا ، فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقًا لها ؛ لأن المشتري نائب عن البائع ، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذا المنفعة ، وباعها مسلوبة عنها ، واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرج في الصحيحين وغيرهما ، فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها ولم ينفسخ نكاحها من زوجها مغيث ، بل خيَّرها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء ، فاختارت الفسخ (٢) ، وقصتها مشهورة ، فلو كان بيع الأمة طلاقها كما قال هؤلاء ، ما خيَّرها النبيّ ﷺ ، فلما خيَّرها دل على بقاء النكاح ، وأن المراد من الآية المسبيات فقط ، والله أعلم . وقد قيل : المراد بقوله : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ يعني العفائف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهن بنكاح وشهود ومهور وولي ، واحدة أو اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا . وقال عمر وعبيدة : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ : ما عدا الأربع حرام عليكم إلَّا ما ملكت إيمانكم .

وقوله تعالى : ﴿ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي هذا التحريم كتاب الله عليكم ، يعني الأربع فالزموا كتابه ، ولا

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠١٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٥٨) والنسائي في السنن (١٦٣/٦) .

تخرجوا عن حدوده ، والزموا شرعه وما فرضه . وقوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي ما عدا من ذكرن من المحارم هنَّ لكم حلال . قاله عطاء . وقال عبيدة والسدي : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ : ما دون الأربع ، وهذا بعيد والصحيح قول عطاء كما تقدم . وقال قتادة : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ : يعني ما ملكت أيمانكم ، وهذه الآية التي احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين ، وقول من قال : أحلتهما آية وحرمتهما آية . وقوله تعالى : ﴿ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع ، أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي . ولهذا قال : ﴿ مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أي كما تستمعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك ، وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة ، ولا شك أنه كان مشروعًا في ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك . وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه أبيح ثم نسخ ، ثم أبيح ثم نسخ مرتين . وقال آخرون أكثر من ذلك . وقال آخرون : إنما أبيح مرة ثم نسخ ولم يبح بعد ذلك . وقد روي عن ابن عبّاس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، وكان ابن عبّاس وأُبيّ بن كعب وسعيد بن جبير والسدي يقرأون (فما استمتعتم به منهن - إلى أجل مسمى - فآتوهن أجورهن فريضة) وقال مجاهد : نزلت في نكاح المتعة ، ولكن الجمهور على خلاف ذلك . والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر [١] . ولهذا الحديث ألفاظ مقرّرة هي من كتاب الأحكام ، فعن سبرة بن معبد الجهني أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخْلِ سَبِيلَهُ ، وَلاَ تَأْخذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا » [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ﴾ من حمل هذه الآية على نكاح المتعة إلى أجل مسمى قال : لا جناح عليكم إذا انقضى الأجل أن تتراضوا على زيادة به وزيادة للجعل . قال السدي : إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى ، يعني الأجر الذي أعطاها على تمتعه بها قبل انقضاء الأجل بينهما ، فقال : أتمتع منك أيضًا بكذا وكذا ، فإن زاد قبل أن يستبرئ رحمها يوم تنقضي المدة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ﴾ قال السدي : إذا انقضت المدة ، فليس له عليها سبيل ، وهي منة بريئة ، وعليها أن تستبرئ ما في رحمها ، وليس بينهما ميراث ، فلا يرث واحد منهما صاحبه . ومن قال بهذا القول الأول جعل معناه كقوله : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ الآية ، أي إذا فرضت لها صداقًا فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك . وعن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم الحضرمي أن رجالاً كانوا يفرضون المهر ، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة فقال : ولا جناح عليكم أيها الناس فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، يعني إن وضعت لك منه شيئًا فهو لك سائغ . وعن ابن عبّاس : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ﴾ والتراضي أن يوفيها صداقها ثم يخيرها ، يعني في المقام أو الفراق . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٥/٣) والنسائي في السنن (٢٠٢/٧) والبيهقي في السنن (٢٠٤/٧) .
(٢) أخرجه الدارمي في السنن (١٤٠/٢) والبيهقي في السنن (٢٠٣/٧) والألباني في الصحيحة (٣٨١) .

مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات .

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ أي سعة وقدرة ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي الحرائر العفائف المؤمنات . وعن ربيعة ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ قال : الطول الهوى ، يعني ينكح الأمة إذا كان هواه فيها . ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون ، ولهذا قال : ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ قال ابن عبّاس وغيره : فلينكح من إماء المؤمنين ، ثم اعترض بقوله : ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها ، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور . ثم قال : ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ فدل على أن السيد هو ولي أمته ، لا تزوج إلَّا بإذنه ، وكذلك هو ولي عبده ، ليس له أن يتزوج بغير إذنه . كما جاء في الحديث : « أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ فَهُوَ عَاهِرٌ » (١) أي زان . فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج المرأة بإذنها ، لما جاء في الحديث : « لا تُزَوِّجُ المَرْأَةُ المَرْأَةَ ، وَلا المَرْأَةُ نَفْسَهَا ، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تُزَوِّجُ نَفْسَهَا » (٢) وقوله تعالى : ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي وادفعوا مهورهنَّ بالمعروف ، أي عن طيب نفس منكم ، ولا تبخسوا منه شيئًا استهانة بهنَّ ، لكونهن إماء مملوكات . وقوله تعالى : ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ أي عفائف عن الزني لا يتعاطينه ، ولهذا قال : ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ وهنَّ الزواني اللاتي لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة . وقوله تعالى : ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ قال ابن عبّاس : المسافحات هنَّ الزواني المعلنات ، يعني : الزواني اللاتي لا يمنعن أحدًا أرادهن بالفاحشة . وقال الحسن البصري : يعني الصديق . وقال الضحاك : ذات الخليل الواحد المقرة به ، نهى اللَّه عن ذلك ، يعني تزويجها ما دامت كذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ اختلف القراء في ﴿أُحْصِنَّ﴾ فقرأه بعضهم بضم الهمزة وكسر الصاد مبني لما لم يسم فاعله . وقرئ بفتح الهمزة والصاد فعل لازم (٣) . ثم قيل : معنى القراءتين واحد ، واختلفوا على قولين :

أحدهما : أن المراد بالإحصان ههنا الإسلام . وروي ذلك عن عبد اللَّه بن مسعود وابن عمر وأنس وسعيد بن جبير وعطاء ، وهذا هو القول الذي نص عليه الشافعي في رواية الربيع قال : وإنما قلنا ذلك استدلالًا بالسنة وإجماع أكثر أهل العلم .

الثاني : وقيل : المراد به ههنا التزويج ، وهو قول ابن عبّاس ومجاهد وغيرهم . ونقله أبو علي الطبري في كتابه الإيضاح عن الشافعي فيما رواه أبو الحكم بن عبد الحكم عنه . وقد روي عن مجاهد

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٠٧٨) وأحمد في مسنده (٣٨٢/٣) والدارمي في السنن (١٥٢/٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٨٢) والدارقطني في السنن (٢٢٧/٣) .

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ﴿أَحْصَنَّ﴾ بفتح الهمزة والصاد ، والباقون ﴿أُحْصِنَّ﴾ بضم الهمزة وكسر الصاد . (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٥) .

أنه قال : إحصان الأمة أن ينكحها الحر ، وإحصان العبد أن ينكح الحرة . وقيل : معنى القراءتين متباين . فمن قرأ ﴿ أُحْصِنَّ ﴾ بضم الهمزة فمراده التزويج ، ومن قرأ بفتحها فمراده الإسلام . اختاره أبو جعفر بن جرير في تفسيره وقرَّره ونصره . والأظهر والله أعلم أن المراد بالإحصان ههنا التزويج ؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول ﷻ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ والله أعلم . والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله : ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ ﴾ أي تزوجن كما فسَّره ابن عبَّاس وغيره .

وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور ، وذلك أنهم يقولون : إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة ، سواء كانت مسلمة أو كافرة ، مزوجة أو بكرًا ، مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنى من الإماء . وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك :

الجواب الأول : فأما الجمهور فقالوا : لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم ، وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء ، فقدمناها على مفهوم الآية . فمن ذلك عن علي ﷺ أنه خطب فقال : يا أيها الناس أقيموا الحد على إمائكم من أحصن منهن ومن لم يحصن ، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدها ، فإذا هى حديثة عهد بنفاس ، فخشيت إن جلدتها أن أقتلها ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « أَحْسَنْتَ ، اتْرُكْهَا حَتَّى تَتَمَاثَلَ » [١] .

الجواب الثاني : جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن ، فلا حد عليها ، وإنما تضرب تأديبًا . وهو المحكي عن ابن عبّاس ﷺ ، وإليه ذهب طاووس وسعيد بن جبير وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود بن علي الظاهري في رواية عنه . وعمدتهم مفهوم الآية ، وهو من مفاهيم الشرط ، وهو حجة عند أكثرهم ، فقدم على العموم عندهم . وحديث أبي هريرة وزيد بن خالد أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ، قال : « إِنْ زَنَتْ فَحُدُّوهَا . ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا . ثُمَّ بِيعُوهَا وَلَوْ بِضَفِيرٍ » [٢] قال ابن شهاب : لا أدري بعد الثالثة أو الرابعة . قالوا : فلم يؤقت فيه عدد كما أقت في المحصنة ، وكما وقت في القرآن بنصف ما على المحصنات ، فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك . وحديث أبي هريرة عنه أجوبة :

أحدها : أن ذلك محمول على الأمة المزوجة جمعًا بينه وبين هذا الحديث .

الثاني : أن لفظة الحد في قوله : « فَلْيُقِمْ عَلَيْهَا الحَدَّ » مقحمة من بعض الرواة بدليل الجواب الثالث ، وهو أن هذا من حديث صحابيين وذلك من رواية أبي هريرة فقط ، وما كان عن اثنين فهو أولى بالتقديم من رواية واحد . وأيضًا فقد رواه عباد بن تميم عن عمه ، وكان قد شهد بدرًا ، أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا زَنَتِ الأَمَةُ فَاجْلِدُوهَا ، ثُمَّ إِذَا زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا ، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا ، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ فَبِيعُوهَا وَلَوْ بِضَفِيرٍ » [٣] .

الثالث : أنه لا يبعد أن بعض الرواة أطلق لفظ الحد في الحديث على الجلد ؛ لأنه لما كان الجلد اعتقد أنه حد ، أو أنه أطلق لفظة الحد على التأديب . كما أطلق الحد على ضرب من زنى من المرضى بعثكال نخل

---

(١) ذكره البغوي في شرح السنة (١٠/٣٠٤) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٤٧٠) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٤٠) والدارقطني في السنن (٣/١٦٠) .

فيه مائة شمراخ . وعلى جلد من زنى بأمة امرأته إذا أذنت له فيها مائة ، وإنما ذلك تعزير وتأديب عند من يراه كأحمد وغيره من السلف ، وإنما الحد الحقيقي هو جلد البكر مائة . ورجم الثيب أو اللائط والله أعلم . وعن سعيد بن جبير قال : لا تضرب الأمة إذا زنت ما لم تتزوج . وهذا إسناد صحيح عنه ، ومذهب غريب إن أراد أنها لا تضرب الأمة أصلًا لا حدًا ، وكأنه أخذ بمفهوم الآية ولم يبلغه الحديث ، وإن أراد أنها لا تضرب حدًا ، ولا ينفي ضربها تأديبًا ، فهو كقول ابن عباس ﷺ ومن تبعه في ذلك ، والله أعلم .

والجواب الثالث : أن الآية دلت على أن الأمة المحصنة تحد نصف حد الحرة ، فأما قبل الإحصان فعمومات الكتاب والسنة شاملة لها في جلدها مائة كقوله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ وكحديث عبادة بن الصامت : « خُذُوا عَنِّي ، خُذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، البِكْرُ بِالبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَرَجْمُهَا بِالحِجَارَةِ » (١) ، وغير ذلك من الأحاديث وهذا القول هو المشهور عن داود بن علي الظاهري وهو في غاية الضعف ؛ لأن الله تعالى إذا كان أمر بجلد المحصنة من الإماء بنصف ما على الحرة من العذاب ، وهو خمسون جلدة ، فكيف يكون حكمها قبل الإحصان أشد منه بعد الإحصان ؟ وقاعدة الشريعة في ذلك عكس ما قال ، وهذا الشارع عليه الصلاة والسلام سأله أصحابه عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ، فقال : اجلدوها ولم يقل مائة ، فلو كان حكمها كما زعم داود لوجب بيان ذلك لهم ؛ لأنهم إنما سألوا عن ذلك لعدم بيان حكم جلد المائة بعد الإحصان في الإماء ، وإلا فما الفائدة في قولهم ولم تحصن لعدم الفرق بينهما لو لم تكن الآية نزلت ، لكن لما علموا أحد الحكمين سألوا عن الآخر فبيَّنه لهم .

الجواب الرابع : عن مفهوم الآية جواب أبي ثور ، وهو أغرب من قول داود من وجوه ، وذلك أنه يقول : فإذا أحصنَّ فإن عليهنَّ نصف ما على المحصنات المزوجات الرجم وهو لا ينصف ، فيجب أن ترجم الأمة المحصنة إذا زنت ، وأما قبل الإحصان فيجب جلدها خمسين فأخطأ في فهم الآية وخالف الجمهور في الحكم ، بل قد قال أبو عبد الله الشافعي رحمه الله : ولم يختلف المسلمون في أن لا رجم على مملوك في الزنى ؛ وذلك لأن الآية دلت على أن عليهنَّ نصف ما على المحصنات من العذاب ، والألف واللام في المحصنات للعهد ، وهن المحصنات المذكورات في أول الآية ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ والمراد بهن الحرائر فقط من غير تعرض للتزويج بحرّة ، وقوله : ﴿ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ يدل على أن المراد من العذاب الذي يمكن تبعيضه ، وهو الجلد لا الرجم والله أعلم . وقد روي أن صفية كانت قد زنت برجل من الحمس فولدت غلامًا فادعاه الزاني ، فاختصما إلى عثمان ، فرفعهما إلى علي بن أبي طالب ، فقال علي : أقضي فيهما بقضاء رسول الله ﷺ : الولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، وجلدهما خمسين خمسين (٢) . وقيل : بل المراد من المفهوم التنبيه بالأعلى على الأدنى ، أي أن الإماء على النصف من الحرائر في الحد ، وإن كن محصنات ، وليس عليهن رجم أصلًا ، لا قبل النكاح ولا بعده ، وإنما عليهن الجلد في الحالين بالسنة . وذكر هذا عن الشافعي ، وقد ذكر البيهقي في كتاب السنن والآثار عنه

---

(١) أخرجه مسلم في الحدود (١٢) وأبو داود في السنن (٤٤١٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٧٦ ، ١٨٧) .

وهو بعيد من لفظ الآية لأنا إنما استفدنا تنصيف الحد من الآية ؛ لا من سواها ، فكيف يفهم منها التنصيف فيما عداها ؟ وقال : بل أريد بأنها في حال الإحصان لا يقيم الحد عليها إلَّا الإمام ، ولا يجوز لسيدها إقامة الحد عليها والحالة هذه ، وهو قول في مذهب أحمد رحمه الله ، فأما قبل الإحصان فله ذلك ، والحد في كلا الموضعين نصف حد الحرة ، وهذا أيضًا بعيد لأنه ليس في الآية ما يدل عليه ، ولولا هذه ، لم ندر ما حكم الإماء في التنصيف ، ولوجب دخولهن في عموم الآية في تكميل الحد مائة ، أو رجمهن كما ثبت في الدليل عليه ، وقد تقدم عن علي أنه قال : أيها الناس أقيموا الحد على أرقائكم من أحصن منهم ومن لم يحصن ، وعموم الأحاديث المتقدمة ليس فيها تفصيل بين المزوجة وغيرها لحديث أبي هريرة الذي احتج به الجمهور « إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا الحَدَّ وَلاَ يُثَرِّبْ عَلَيْهَا » .

ملخص الآية أنها إذا زنت أقوال :

أحدها : تجلد خمسين قبل الإحصان وبعده ، وهل تنفى فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنها تنفى عنه ، والثاني : لا تنفى عنه مطلقًا ، والثالث : أنها تنفى نصف سنة وهو نصف نفي الحرة ، وهذا الخلاف في مذهب الشافعي . وأما أبو حنيفة فعنده أن النفي تعزير ليس من تمام الحد ، وإنما هو رأي الإمام إن شاء فعله وإن شاء تركه في حق الرجال والنساء . وعند مالك أن النفي إنما هو على الرجال وأما النساء فلا ؛ لأن ذلك مضاد لصيانتهن ، وما ورد شيء من النفي في الرجال ولا النساء . نعم حديث عبادة وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفي عام وبإقامة الحد عليه ، وذلك مخصوص بالمعنى ، وهو أن المقصود من النفي الصون ، وذلك مفقود في نفي النساء ، والله أعلم .

والثاني : أن الأمة إذا زنت تجلد خمسين بعد الإحصان ، وتضرب تأديبًا غير محدود بعدد محصور ، وقد تقدم ما رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير أنها لا تضرب قبل الإحصان ، وإن أراد نفيه فيكون مذهبًا بالتأويل وإلَّا فهو كالقول الثاني .

القول الآخر : أنها تجلد قبل الإحصان مائة ، وبعده خمسين كما هو المشهور عن داود ، وهو أضعف الأقوال . أنها تجلد قبل الإحصان خمسين وترجم بعده ، وهو قول أبي ثور ، وهو ضعيف أيضًا .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزني ، وشق عليه الصبر عن الجماع ، وعنت بسبب ذلك كله ، فله حينئذٍ أن يتزوج بالأمة وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنى ، فهو خير له ؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها ، إلَّا أن يكون الزوج غريبًا فلا تكون أولاده منها أرقاء في قول قديم للشافعي ، ولهذا قال : ﴿ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ومن هذه الآية الكريمة استدل جمهور العلماء في جواز النكاح الإماء ، على أنه لابد من عدم الطول لنكاح الحرائر ، ومن خوف العنت ، لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد ، ولما فيهن من الدناءة في العدول عن الحرائر إليهن . وخالف الجمهور أبو حنيفة وأصحابه في اشتراط الأمرين فقالوا : متى لم يكن الرجل مزوجًا بحرة جاز له نكاح الأمة المؤمنة والكتابية أيضًا ، سواء كان واجدًا لطول حرة أم لا ، وسواء خاف العنت أم لا ، وعمدتهم فيما ذهبوا إليه قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي العفائف

وهو يعم الحرائر والإماء ، وهذه الآية عامة ، وهذه أيضًا ظاهرة في الدلالة على ما قاله الجمهور .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ .

يخبر تعالى أنه يريد أن يبيِّنَ لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم ، مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يعني طرائقهم الحميدة ، واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي من الإثم والمحارم ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله . وقوله : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلًا عظيمًا ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ أي في شرائعه وأوامره ونواهيه ، وما يقدره لكم ، ولهذا أباح الإماء بشروط كما قال مجاهد وغيره ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه ، وضعف عزمه وهمته . ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ أي في أمر النساء . قال موسى الكليم عليه السلام لنبينا محمد ﷺ ليلة الإسراء حين مرَّ عليه راجعًا من عند سدرة المنتهى فقال له : ماذا فرض عليكم ؟ فقال : « أَمَرَنِي بِخَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ » فقال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا ، وإن أمتك أضعف أسماعًا وأبصارًا وقلوبًا ، فرجع فوضع عشرًا ، ثم رجع إلى موسى ، فلم يزل كذلك حتى بقيت خمسًا [1] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ .

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل ، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل ، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا ، عن ابن عباس في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول : إن رضيته أخذته وإلَّا رددت معه درهمًا ، قال : هو الذي قال الله ﷻ فيه : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ وعن عبد الله في الآية قال : إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ قرئ تجارة بالرفع وبالنصب [2] ، وهو استثناء منقطع ، كأنه يقول : لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال ، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها ، وتسببوا بها في تحصيل الأموال . ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلَّا بالقبول ؛ لأنه يدل على التراضي نصًا ، بخلاف المعاطاة فإنها قد لا تدل على الرضا ولابد ، وخالف الجمهور في ذلك مالك وأبو ثور وأبو حنيفة

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٤٩) والترمذي في السنن بنحوه (٢١٣) .

(٢) قرأ الكوفيون ﴿ تِجَٰرَةً ﴾ بالنصب والباقون بالرفع (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٥) .

وأحمد ، فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعًا ، فصححوا بيع المعاطاة مطلقًا ، ومنهم من قال : يصح في المحقرات وفيما يعده الناس بيعًا ، وهو احتياط نظر من محققي المذهب ، وقال مجاهد : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ بيعًا أو عطاء يعطيه أحد أحدًا . ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « البيِّعَانِ بِالخيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا »[1] وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث أحمد والشافعي وأصحابهما وجمهور السلف والخلف ، ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام ، بحسب ما يتبين فيه مال البيع ولو إلى سنة في القرية ونحوها ، كما هو المشهور عن مالك رحمه الله ، وصححوا بيع المعاطاة مطلقًا وهو قول في مذهب الشافعي ، ومنهم من قال : يصح بيع المعاطاة في المحقرات ، فيما يعده الناس بيعًا ، وهو اختيار طائفة من الأصحاب ، كما هو متفق عليه .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي بارتكاب محارم الله ، وتعاطي معاصيه ، وأكل أموالكم بالباطل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه . عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال : لما بعثه النبيّ ﷺ عام ذات السلاسل ، قال : احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيممت ، ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح ، قال : فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال : « يَا عَمْرُو صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ ؟ » قال : قلت : يا رسول الله ، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فذكرت قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ فتيممت ثم صليت ، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا[2] . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ ؛ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيها أَبَدًا ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسُمٍّ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا »[3] ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا ﴾ أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتديًا فيه ، ظالمًا في تعاطيه ، أي عالمًا بتحريمه متجاسرًا على انتهاكه ﴿ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴾ الآية . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ الآية أي إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها كفَّرنا عنكم صغائر الذنوب ، وأدخلناكم الجنّة ، ولهذا قال : ﴿ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ عن أنس رفعه قال : لم نر مثل الذي بلغنا عن ربنا عز وجل ثم لم نخرج له عن كل أهل ومال ، أن تجاوز لنا عما دون الكبائر يقول الله : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ الآية . وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة ، منها : عن سلمان الفارسي : قال لي النبيّ ﷺ : « أَتَدْرِي مَا يَوْمُ الجُمُعَةِ ؟ » قلت : هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم ، قال : « لكِنْ أَدْرِي مَا يَوْم الجُمُعَةِ ؛ لَا يَتَطَهَّرُ الرَّجُلُ فَيُحْسِنُ طُهُورَهُ ، ثُمَّ يَأْتِي الجُمُعَةَ فَيُنْصِتُ حَتَّى يَقْضِيَ الإِمَامُ صَلَاتَهُ ؛

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٨٢) ومسلم في البيوع (٤٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٣٤) والحاكم في المستدرك (١٧٧/١) وأحمد في مسنده (٢٠٣/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٥) والترمذي في السنن (٢٠٤٤) .

إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الجُمُعَةِ المُقْبِلَةِ مَا اجْتُنِبَتِ المَقْتَلَةُ » (١) . وعن أبي هريرة وأبي سعيد يقولان : خطبنا رسول اللَّه ﷺ يومًا فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ » ثلاث مرات ثم أكبَّ ، فأكبَّ كل رجل منا يبكي ، لا ندري ماذا حلف عليه ، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشرى ، فكان أحب إلينا من حمر النعم فقال : « مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ ، وَيَجْتَنِبُ الكَبَائِرَ السَّبْعَ ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ : ادْخُلْ بِسَلَامٍ » (٢) .

تفسير هذه السبع : عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » قيل : يا رسول اللَّه ، وما هنَّ ؟ قال : « الشِّرْكُ بِاللَّه ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّه إِلَّا بِالحَقِّ ، وَالسِّحْرُ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المُؤْمِنَاتِ » (٣) . فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفي ما عداهن ، إِلَّا عند من يقول بمفهوم اللقب ، وهو ضعيف عند عدم القرينة ، ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم ، كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع ، فمن ذلك عن عمير بن قتادة ﷺ أنه حدثه - وكانت له صحبة - أن رسول اللَّه ﷺ قال في حجة الوداع : « أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّه المُصَلُّونَ ، مَنْ يُقِمِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ الَّتِي كَتَبَ اللَّه عَلَيْهِ ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ وَيَحْتَسِبُ صَوْمَهُ يَرَى أَنَّهُ عَلَيْهِ حَقٌّ ، وَيُعْطِي زَكَاةَ مَالِهِ يَحْتَسِبُهَا ، وَيَجْتَنِبُ الكَبَائِرَ الَّتِي نَهَى اللَّه عَنْهَا » . ثم إن رجلًا سأله ، فقال : يا رسول اللَّه ، ما الكبائر ؟ فقال : « تِسْعٌ : الشِّرْكُ بِاللَّه ، وَقَتْلُ نَفْسٍ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَفِرَارٌ يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَقَذْفُ المُحْصَنَةِ ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ المُسْلِمَيْنِ ، وَاسْتِحْلالُ البَيْتِ الحَرَامِ قِبْلَتِكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ، ثُمَّ لا يَمُوتُ رَجُلٌ لاَ يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ الكَبَائِرَ ، وَيُقِيمُ الصَّلاةَ ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ ، إِلَّا كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَارٍ مَصَانِعُهَا مِنْ ذَهَبٍ » (٤) .

وعن أبي أيوب قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ عَبَدَ اللَّه لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ ، وَآتى الزَّكَاةَ ، وَصَامَ رَمَضَانَ ، وَاجْتَنَبَ الكَبَائِرَ ؛ فَلَهُ الجَنَّةُ - أَوْ دَخَلَ الجَنَّةَ - » فسأله رجل : ما الكبائر ؟ فقال : « الشِّرْكُ بِاللَّه ، وَقَتْلُ نَفْسٍ مُسْلِمَةٍ ، وَالفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ » (٥) .

وعن أبي بكر قال : قال النبيّ ﷺ : « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ ؟ » قلنا : بلى ، يا رسول اللَّه . قال : « الإِشْرَاكُ باللَّه ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ » - وكان متكئًا فجلس - فقال : « أَلاَ وَشَهَادَةُ الزُّورِ ، أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ » فما زال يكررها ، حتى قلنا ليته سكت (٦) .

حديث فيه ذكر قتل الولد : عن عبد اللَّه بن مسعود قال : قلت : يا رسول اللَّه ، أي الذنب أعظم ؟ - وفي رواية أكبر ؟ - قال : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ » ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٩/٥) . (٢) أخرجه النسائي في السنن (٨/٥) .
(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥) .
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٥٩/٤) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٣/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٦/٥) .
(٦) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧٦) ومسلم في الإيمان (١٤٣) .

يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ (١) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلَ وَالِدَيْهِ » قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ » وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » (٢) .

حديث في الجمع بين الصلاتين من غير عذر : عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « مَنْ جَمَعَ بَيْنَ صَلاتَيْنِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ فَقَدْ أَتَى بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الكَبَائِرِ » (٣) . والغرض أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر والعصر ، تقديمًا أو تأخيرًا ، وكذا المغرب والعشاء كالجمع بسبب شرعي ، فمن تعاطاه بغير شيء من تلك الأسباب يكون مرتكبًا كبيرة ، فما ظنك بترك الصلاة بالكلية ؟! .

ذِكْرُ أَقْوَال السَّلَفِ فِي ذَلِك

عن الحسن أن ناسًا سألوا عبد الله بن عمرو بمصر ، فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله ﷻ أمر أن يعمل بها لا يعمل بها ، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك ، فقدم وقدموا معه فلقي عمر ﷺ ، فقال : متى قدمت ؟ فقال : منذ كذا وكذا ، قال : أبإذن قدمت ؟ قال : فلا أدري كيف رد عليه . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن ناسًا لقوني بمصر ، فقالوا : إنا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك في ذلك . قال : فاجمعهم لي ، قال : فجمعتهم له ، - قال ابن عون : أظنه قال : في بهو - فأخذ أدناهم رجلًا فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك أقرأت القرآن كله ؟ قال : نعم ، قال : فهل أحصيته في نفسك ؟ فقال : اللهم لا ، قال : ولو قال : نعم لخصمه . قال : فهل أحصيته في بصرك ؟ فهل أحصيته في لفظك ؟ هل أحصيته في أثرك ؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم ، فقال : ثكلت عمر أمه ، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ، قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات ؟ قال : وتلا ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ الآية . ثم قال : هل علم أهل المدينة - أو قال : هل علم أحد بما قدمتم - قالوا : لا ، قال : لو علموا لوعظت بكم . عن علي ﷺ قال : الكبائر : الإشراك بالله ، وقتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، والفرار من الزحف ، والتعرب بعد الهجرة ، والسحر ، وعقوق الوالدين ، وأكل الربا ، وفراق الجماعة ، ونكث الصفقة . عن ابن مسعود قال : أكبر الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها ، ثم تلا : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ الآية . عن بريدة قال : أكبر الكبائر الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، ومنع فضول الماء بعد الري ، ومنع طروق الفحل إلَّا بجعل .

وفي الصحيحين عن النبيّ ﷺ أنه قال : « ثَلاثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالفَلاَةِ يَمْنَعُهُ ابْنَ السَّبِيلِ » (٤) وعن معاوية بن قرة قال : أتيت أنس بن مالك . فكان فيما يحدثنا قال : لم أرَ مثل الذي أتانا عن ربنا ، ثم لم يخرج له عن

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٦/٢٠)

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٨٨) والحاكم في المستدرك (٢٧٥/١)

(٤) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٥٨)

كل أهل ومال ، ثم سكت هنيهة ثم قال : والله لما كلفنا من ذلك أنه تجاوز لنا عما دون الكبائر وتلا: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ ﴾ الآية .

أَقْوَالُ ابن عبّاس في ذلك: عن طاوس قال : ذكروا عند ابن عباس الكبائر فقالوا : فهي سبع : فقال : هي أكثر من سبع وسبع ، قال : فلا أدري كم قالها من مرة . وعن طاوس ، قال : قلت لابن عباس : ما السبع الكبائر ؟ قال : هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع . وعن سعيد بن جبير : أن رجلًا قال لابن عباس : كم الكبائر سبع ؟ قال : هنَّ إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ قال : الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب . وعن أبي الوليد قال : سألت ابن عبّاس عن الكبائر قال : كل شيء عصي الله به ، فهو كبيرة .

أَقْوَالُ التَّابِعِين: عن ابن عون عن محمّد قال : سألت عبيدة عن الكبائر فقال : الإشراك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها ، والفرار يوم الزحف ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والبهتان ، قال : ويقولون : أعرابية بعد هجرة ، قال ابن عون : فقلت لمحمّد : فالسحر ؟ قال : إن البهتان يجمع شرًّا كثيرًا . وعن عبيد بن عمير ، قال : الكبائر سبع ليس منهن كبيرة إلّا وفيها آية من كتاب الله ، الإشراك بالله منهن ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ الآية . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ الآية ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ، والفرار من الزحف ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا ﴾ الآية . والتعرب بعد الهجرة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ﴾ وقتل المؤمن ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ الآية . عن عطاء بن أبي رباح قال : الكبائر سبع : قتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، ورمي المحصنة ، وشهادة الزور ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف . وعن مغيرة قال : كان يقال : شَتْمُ أبي بكر وعمر ﵄ من الكبائر . قلت : وقد ذهب طائفة من العلماء إلى تكفير من سب الصحابة ، وهو رواية عن مالك بن أنس ﵀ . وقال محمّد بن سيرين : ما أظن أحدًا يبغض أبا بكر وعمر وهو يحب رسول الله ﷺ ، وقال زيد بن أسلم في قول الله ﷿ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ : من الكبائر : الشرك بالله ، والكفر بآيات الله ورسله ، والسحر ، وقتل الأولاد ، ومن دعى لله ولدًا أو صاحبة ، ومثل ذلك من الأعمال والقول الذي لا يصلح معه عمل ، وأما كل ذنب يصلح معه دين ، ويقبل معه عمل ؛ فإن الله يغفر السيئات بالحسنات . وعن قتادة ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ الآية : إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر .

وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة ، فمن قائل : هي ما عليه حدّ في الشرع ، ومنهم من قال : هي ما عليه وعيد مخصوص من الكتاب والسنّة ، وقيل غير ذلك . ولبعض الأصحاب في تفسير الكبيرة وجوه : أحدها : أنها المعصية الموجبة للحد . والثاني : أنها المعصية التي يلحق صاحبها الوعيد الشديد بنص كتاب أو سنّة ، وهذا أكثر ما يوجد لهم ، وإلى الأول أميل ، لكن الثاني أوفق لما ذكروه عند تفسير الكبائر . والثالث : قال إمام الحرمين في الإرشاد وغيره : كل جريمة تنبئ بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة ؛ فهي مبطلة للعدالة . والرابع : ذكر القاضي أبو سعيد الهروي أن الكبيرة كل

فعل نص الكتاب على تحريمه ، وكل معصية توجب في جنسها حدًّا من قتل أو غيره . وترك كل فريضة مأمور بها على الفور ، والكذب في الشهادة والرواية واليمين ، هذا ما ذكروه على سبيل الضبط . ثم قال : وفصَّل القاضي الروياني فقال : الكبائر سبع : قتل النفس بغير الحق ، والزنى ، واللواطة ، وشرب الخمر ، والسرقة ، وأخذ المال غصبًا ، والقذف ، وزاد في الشامل على السبع المذكورة : شهادة الزور ، أضاف إليها صاحب العدة : أكل الربا ، والإفطار في رمضان بلا عذر ، واليمين الفاجرة ، وقطع الرحم ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف ، وأكل مال اليتيم ، والخيانة في الكيل والوزن ، وتقديم الصلاة على وقتها ، وتأخيرها عن وقتها بلا عذر ، وضرب المسلم بلا حق ، والكذب على رسول اللَّه ﷺ عمدًا ، وسب أصحابه ، وكتمان الشهادة بلا عذر ، وأخذ الرشوة ، والقيادة بين الرجال والنساء ، والسعاية عند السلطان ، ومنع الزكاة ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة ، ونسيان القرآن بعد تعلمه ، وإحراق الحيوان بالنار ، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب ، واليأس من رحمة اللَّه ، والأمن من مكر اللَّه ، ويقال : الوقيعة في أهل العلم ، وحملة القرآن ، ومما يعد من الكبائر : الظهار ، وأكل لحم الخنزير والميتة إلَّا عن ضرورة . ثم قال الرافعي : وللتوقف مجال في بعض هذه الخصال قلت : وقد صنَّف الناس في الكبائر مصنفات ؛ منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد اللَّه الذهبي الذي بلغ نحوًا من سبعين كبيرة ، وإذا قيل : إن الكبيرة ما توعد عليها الشارع بالنار بخصوصها ، كما قال ابن عبّاس وغيره وما يتبع ذلك ، اجتمع منه شيء كثير ، وإذا قيل : كل ما نهى اللَّه عنه فكثير جدًّا واللَّه أعلم .

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ .

قالت أم سلمة : يا رسول اللَّه يغزو الرجال ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث ، فأنزل اللَّه : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ (١) . وعن ابن عبّاس في الآية قال : أتت امرأة إلى النبيّ ﷺ فقالت : يا رسول اللَّه ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، وشهادة امرأتين برجل ، ونحن في العمل هكذا ، إن فعلت امرأة حسنة كتب لها نصف حسنة ، فأنزل اللَّه هذه الآية ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾ الآية . فإنه عدلي مني ، وأنا صنعته . وقال السدي في الآية : إن رجالًا قالوا : إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء ، كما لنا في السهام سهمان ، وقالت النساء : إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء ، فإنا لا نستطيع أن نقاتل ، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا . فأبى اللَّه ذلك ولكن قال لهم : سلوني من فضلي ، قال : ليس بعرض الدنيا(٢) .

وقال ابن عبّاس في الآية : ولا يتمنى الرجل فيقول : ليت لو أن لي مال فلان وأهله ، فنهى اللَّه عن ذلك ، ولكن يسأل اللَّه من فضله . يرد على هذا ما ثبت في الصحيح :« لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتاهُ اللَّه مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ ، فَيَقُولُ رَجُلٌ : لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَا لِفُلَانٍ لَعَمِلْتُ مِثْلَهُ ، فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ» (٣) فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية ، وذلك أن الحديث حض على تمني مثل نعمة هذا ، والآية نهت عن تمني عين نعمة هذا ، يقول : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ أي

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٣٠٢٢) والحاكم في المستدرك(٢/٣٠٥) .
(٢) تفسير الطبري(٥/٦٦ ، ٦٧) (٣) أخرجه البخاري في الزكاة(١٤٠٩)

في الأمور الدنيوية ، وكذا الدينية لحديث أم سلمة وابن عبّاس ، ثم قال : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ أي كل له جزاء على عمله بحسبه ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر . وقيل : المراد بذلك في الميراث ؛ أي كل يرث بحسبه . ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم ، فقال : ﴿ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض ، فإن هذا أمر محتوم ، أي أن التمني لا يجدي شيئًا ، ولكن سلوني من فضلي أعطكم ، فإني كريم وهّاب . وقد روي عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « سَلُوا اللَّهَ مِنْ فِضْلِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ ، وَإِنَّ أَحَبَّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ الَّذِي يُحِبُّ الفَرَجَ » (١) . ثم قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الدنيا ، فيعطيه منها ، وبمن يستحق الفقر فيفقره . وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيّضه لأعمالها ، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه . ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم في قوله : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾ أي ورثة . وعن ابن عباس في رواية : عصبة . قال ابن جرير : والعرب تسمي ابن العم مولى .

قال : ويعني بقوله : ﴿ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ من تركة والديه وأقربيه من الميراث ، فتأويل الكلام : ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبة يرثونه مما ترك والده وأقربوه من ميراثهم له . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أي والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة ، أنتم وهم فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة ، إن اللَّه شاهد بينكم في تلك العهود والمعاقدات ، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ بعد ذلك ، وأمروا أن يوفوا من عاقدوا ، ولا ينسوا بعد نزول هذه الآية معاقدة . عن ابن عبّاس ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾ قال : ورثة . ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه ، للأخوة التي آخى النبيّ ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ ﴾ نسخت ، ثم قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ، ويوصي له .

وعن عبد الرّحمن بن عوف أن رسول اللَّه ﷺ قال : « شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ وَأَنَا غُلاَمٌ مَعَ عُمُومَتِي ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنَا أَنْكُثُهُ » (٢) . وعن قيس بن عاصم أنه سأل النبيّ ﷺ عن الحلف فقال : « مَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ فَتَمَسَّكُوا بِهِ ، وَلاَ حِلْفَ فِي الإِسْلاَمِ » (٣) . وعن داود بن الحصين قال : كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع مع ابن ابنها موسى بن سعد وكان يتيمًا في حجر أبي بكر فقرأت عليها ﴿ وَٱلَّذِينَ - عاقدت - أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ فقالت : لا ولكن ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ قالت : إنما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن حين أبى أن يسلم فحلف أبو بكر أن لا يورثه ، فلما أسلم حين حمل على الإسلام بالسيف أمر اللَّه أن يورثه نصيبه . وهذا قول غريب ، والصحيح الأول ،

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٧١) والطبراني في الكبير (١٢٥/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٠/١) والألباني في الصحيحة (١٩٠٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٩/١) والطبراني في الكبير (٣٣٧/١٨) .

وأن هذا كان في ابتداء الإسلام يتوارثون بالحلف ثم نسخ ، وبقي تأثير الحلف بعد ذلك وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالعهود والعقود ، والحلف الذي كانوا قد تعاقدوه قبل ذلك . وفي حديث جبير بن مطعم وغيره من الصحابة : « لاَ حِلْفَ فِي الإِسْلاَمِ وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلامُ إِلَّا شِدَّةً » (١) وهذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم ، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، ورواية عن أحمد بن حنبل ، والصحيح قول الجمهور ومالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ أي ورثة من قراباته من أبويه وأقربيه ، وهم يرثونه دون سائر الناس ، كما ثبت عن ابن عبّاس أن رسول اللّه ﷺ قال : « أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا ، فَمَا بَقِيَ فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ » (٢) أي اقسموا الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكرهم اللّه في آيتي الفرائض ، فما بقي بعد ذلك فأعطوه للعصبة .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ أي قبل نزول هذه الآية ﴿ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أي من الميراث ، فأيما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له . وقد قيل : إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل وحكم الحلف الماضي أيضًا فلا توارث به . عن ابن عبّاس ﴿ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ قال : من النصرة والنصيحة والرفادة ، ويوصى له وقد ذهب الميراث . وقال ابن عبّاس : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ قال : كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر ، فأنزل اللّه تعالى : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ يقول : إلا أن توصوا لهم بوصية فهي لهم جائزة من ثلث المال ، وهذا هو المعروف ، وهكذا نص غير واحد من السلف أنها منسوخة بقوله : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ وقال سعيد بن جبير : فآتوهم نصيبهم أي من الميراث ، قال : وعاقد أبو بكر مولى فورثه . عن ابن المسيب : نزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجالًا غير أبنائهم يورثونهم ، فأنزل اللّه فيهم ، فجعل لهم نصيبًا في الوصية ، ورد الميراث إلى الموالي في ذي الرحم والعصبة ، وأبى اللّه أن يكون للمدعين ميراث ممن ادعاهم وتبناهم ، ولكن جعل لهم نصيبًا من الوصية . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أي من النصرة والنصيحة والمعونة ، لا أن المراد فآتوهم نصيبهم من الميراث حتى تكون الآية منسوخة ، ولا أن ذلك كان حكمًا ثم نسخ ، بل إنما دلت الآية على الوفاء بالحلف المعقود على النصرة والنصيحة فقط ، فهي محكمة لا منسوخة وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإن من الحلف ما كان على المناصرة والمعاونة ، ومنه ما كان على الإرث ، كما حكاه غير واحد من السلف ، وكما قال ابن عبّاس : كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه ، حتى نسخ ذلك ، فكيف يقولون : إن هذه الآية محكمة ، غير منسوخة ، واللّه أعلم .

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٨٣) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٠٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٦٣٧) ومسلم في الفرائض (٣٢٢) .

يقول تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي الرجل قيّم على المرأة ، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدّبها إذا اعوجت ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء ، والرجل خير من المرأة ، ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال ، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ : « لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً » [(١)] وكذا منصب القضاء وغير ذلك . ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ أي : من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها اللّه عليهم لهنّ في كتابه وسنّة نبيّه ﷺ ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه ، وله الفضل عليها والإفضال ، فناسب أن يكون قيمًا عليها كما قال اللّه تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ الآية .

وعن ابن عبّاس : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ يعني أمراء عليهن ، أي تطيعه فيما أمرها اللّه به من طاعته ، وطاعته أن تكون محسنة لأهله ، حافظة لماله . عن علي قال : أتى رسول اللّه ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له ، فقالت : يا رسول اللّه ، إن زوجها فلان ابن فلان الأنصاري ، وإنه ضربها فأثر في وجهها فقال رسول اللّه ﷺ : « لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ » فأنزل اللّه تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي في الأدب فقال رسول اللّه ﷺ : « أَرَدْتُ أَمْرًا وَأَرَادَ اللّه غَيْرَهُ » [(٢)] . وقال الشعبي في هذه الآية ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ قال : الصداق الذي أعطاها ، ألا ترى أنه لو قذفها لاعنها ، ولو قذفته جلدت .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ أي من النساء ﴿ قَٰنِتَٰتٌ ﴾ قال ابن عبّاس وغير واحد : يعني مطيعات لأزواجهن ﴿ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ وقال السدي وغيره : أي تحفظ زوجها في غيبته ، في نفسها وماله . وقوله : ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ أي المحفوظ من حفظه اللّه . وعن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا صَلَّتِ المَرْأَةُ خَمْسَهَا ، وَصَامَتْ شَهْرَهَا ، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا ، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا ، قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الجَنَّةَ مِنْ أَيِّ الأَبْوَابِ شِئْتِ » [(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ أي : والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن ، والنشوز : هو الارتفاع ، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها ، التاركة لأمره ، المعرضة عنه ، المبغضة له ، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب اللّه في عصيانه ، فإن اللّه قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته ، وحرم عليها معصيته ، لما له عليها من الفضل والإفضال ، وقد قال رسول اللّه ﷺ : « لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا » [(٤)] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ لَعَنَتْهَا المَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ » [(٥)] ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ قال ابن عبّاس : الهجر هو أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ، ويوليها ظهره . وكذا قال غير واحد ، وزاد آخرون منهم السدي والضحاك وعكرمة وابن عبّاس في

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن(٧٠٩٩) والترمذي في السنن(٢٢٦٢) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور(١٥١/٢) والهندي في كنز العمال(٤٣٢٧) .

(٣) هذا الحديث من الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس وهو ضعيف ، وقد ذكره العجلوني في كشف الخفاء(٩٦/١) والمنذري في الترغيب(٥٢/٣) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن(١١٥٩) والحاكم في المستدرك(١٨٧/٢) .

(٥) أخرجه مسلم في النكاح(١٢٢) وأبو داود في السنن(٢١٤١) .

رواية : ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها ، وقال ابن عبّاس : يعظها فإن هي قبلت ، وإلّا هجرها في المضجع ، ولا يكلمها من غير أن يرد نكاحها ، وذلك عليها شديد . وقال مجاهد والشعبي وإبراهيم ومحمّد بن كعب ومقسم وقتادة : الهجر هو أن لا يضاجعها . وعن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : يا رسول اللّه ، ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال : « أَنْ تُطْعِمَها إذا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إِذا اكْتَسَيْتَ ، وَلاَ تَضْرِبِ الوَجْهَ وَلا تُقَبِّح ، وَلاَ تَهْجُر إلّا في البَيْتِ »[1] .

وقوله : ﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ أي إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران ، فلكم أن تضربوهن ضربًا غير مبرح . كما ثبت عن جابر ، عن النبيّ ﷺ أنه قال في حجة الوداع : « وَاتَّقُوا اللّه في النِّسَاءِ ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّح ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ »[2] . وكذا قال ابن عبّاس وغير واحد : ضربًا غير مبرّح . قال الحسن البصري : يعني غير مؤثر ، قال الفقهاء : هو أن لا يكسر فيها عضوًا ، ولا يؤثر فيها شيئًا . وقال ابن عبّاس : يهجرها في المضجع ، فإن أقبلت وإلّا فقد أذن اللّه لك أن تضربها ضربًا غير مبرح ، ولا تكسر لها عظمًا ، فإن أقبلت ، وإلّا فقد أحل اللّه لك منها الفدية . وعن إياس بن عبد اللّه بن أبي ذئاب قال : قال النبيُّ ﷺ : « لا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللّه » فجاء عمر ﷺ إلى رسول اللّه ﷺ فقال : ذئرت النساء على أزواجهن ، فرخص رسول اللّه ﷺ في ضربهن ، فأطاف بآل رسول اللّه ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لَقَدْ أَطَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْتَكِينَ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ ، لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ »[3] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها ، مما أباحه اللّه له منها ، فلا سبيل له عليها بعد ذلك ، وليس له ضربها ولا هجرانها . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب ، فإن العلي الكبير وليهن ، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ .

ذكر الحال الأول ، وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة . ثم ذكر الحال الثاني ، وهو إذا كان النفور من الزوجين فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ وقال الفقهاء : إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما ، ويمنع الظالم منهما من الظلم ، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتهما ، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة ، وثقة من قوم الرجل ليجتمعا ، فينظرا في أمرهما ، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق ، وتشوف الشارع إلى التوفيق . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ عن ابن عبّاس : أمر اللّه ﷻ أن يبعثوا رجلًا صالحًا من أهل الرجل ، ورجلًا مثله من أهل المرأة ، فينظران أيهما المسيء ؟ فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا عنه امرأته ، وقصروه على النفقة ، وإن كانت المرأة هي المسيئة قصروها على

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٧/٤) . (٢) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) والبيهقي في السنن (٨/٥) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٤٦) والحاكم في المستدرك (١٨٨/٢) .

زوجها ، ومنعوها النفقة . فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا ، فأمرهما جائز ، فإن رأيا أن يجمعا ، فرضي أحد الزوجين وكره الآخر ، ثم مات أحدهما ، فإن الذي رضي يرث الذي لم يرضَ ، ولا يرث الكاره الراضي . وعن ابن عبّاس قال : بعثت أنا ومعاوية حكمين – قال معمر : بلغني أن عثمان بعثهما – وقال لهما : إن رأيتما أن تجمعا جمعتما ، وإن رأيتما أن تفرّقا ففرّقا . وعن أبي مليكة أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة فقالت : تصير إليّ وأنفق عليك ، فكان إذا دخل عليها قالت : أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فقال : على يسارك في النار إذا دخلت ، فشدت عليها ثيابها ، فجاءت عثمان فذكرت له ذلك فضحك ، فأرسل ابن عباس ومعاوية فقال ابن عبّاس : لأفرقن بينهما ، فقال معاوية : ما كنت لأفرق بين شخصين من بني عبد مناف ، فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما فرجعا . وقد أجمع العلماء على أن الحكمين لهما الجمع والتفرقة ، حتى قال إبراهيم النخعي : إن شاء الحكمان أن يفرّقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا ، وهو رواية عن مالك . وقال الحسن البصري : الحكمان يحكمان في الجمع لا في التفرقة ، وكذا قال قتادة وزيد بن أسلم ، وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وداود ، ومأخذهم قوله تعالى : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴾ ولم يذكر التفريق ، وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما في الجمع والتفرقة بلا خلاف .

وقد اختلف الأئمة في الحكمين هل هما منصوبان من جهة الحاكم فيحكمان وإن لم يرضَ الزوجان ؟ أو هما وكيلان من جهة الزوجين ؟ على قولين والجمهور على الأول لقوله تعالى : ﴿ فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ ﴾ فسماهما حكمين ، ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه ، وهذا ظاهر الآية . والجديد من مذهب الشافعي ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ، الثاني منهما ، لقول علي ﷺ للزوج حين قال : أما الفرقة فلا ، قال : كذبت حتى تقر بما أقرّت به ، قالوا : فلو كانا حكمين لما افتقر إلى إقرار الزوج والله أعلم . قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : وأجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قولهما ، فلا عبرة بقول الآخر ، وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع وإن لم يوكلهما الزوجان ، واختلفوا هل ينفذ قولهما في التفرقة ، ثم حكي عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها أيضًا من غير توكيل .

﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾ .

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له ، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات ، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ، ولا يشركوا به شيئًا من مخلوقاته ، كما قال النبيُّ ﷺ لمعاذ بن جبل : « أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ ؟ » قال : اللَّه ورسوله أعلم ، قال : « أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » ، ثم قال : « أَتَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ » (١) . ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين ، فإن الله سبحانه جعلهما سببًا لخروجك من العدم إلى الوجود ، وكثيرًا ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين ، ثم عطف على الإحسان إليهما بالإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء ، كما جاء في الحديث : « الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ » (٢) ثم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٣٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٦٥٨) وابن ماجه في السنن (١٨٤٤) وأحمد في مسنده (٤/٢١٤) .

قال تعالى : ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ، ومن ينفق عليهم ، فأمر الله بالإحسان إليهم ، والحنو عليهم ، ثم قال : ﴿ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم ، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم ، وتزول به ضرورتهم . وقوله : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ قال ابن عبّاس : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ : يعني الذي بينك وبينه قرابة ، ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ : الذي ليس بينك وبينه قرابة . وقال نوف البكالي : اليهودي والنصراني ، وعن علي وابن مسعود ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ : يعني المرأة ، وقال مجاهد : يعني الرفيق في السفر . وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار ، منها :

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّه سَيُوَرِّثُهُ » (١) .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبيّ ﷺ أنه قال : « خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لِجَارِهِ » (٢) .

وعن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يَشْبَعِ الرَّجُلُ دُونَ جَارِهِ » (٣) .

وعن المقداد بن الأسود يقول : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَى ؟ » قالوا : حرام حرمه الله ورسوله ، وهو حرام إلى يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ : « لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بحَلِيلَةِ جَارِهِ » قال : « مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَةِ ؟ » قالوا : حرّمها الله ورسوله ، فهي حرام إلى يوم القيامة . قال : « لأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشَرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ » (٤) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « الجِيرَانِ ثَلاثَةٌ ، جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ ، وَهُوَ أَدْنَى الجِيرَانِ حَقًّا . وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ ، وَجَارٌ لَهُ ثَلاثَةُ حُقُوقٍ وَهُوَ أَفْضَلُ الجِيرَانِ حَقًّا . فَأَمَّا الجَارُ الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ : فَجَارٌ مُشْرِكٌ لاَ رَحِمَ لَهُ ، لَهُ حَقُّ الجِوَارِ . وَأَمَّا الجَارُ الَّذِي لَهُ حَقَّانِ : فَجَارٌ مُسْلِمٌ لَهُ حَقُّ الإِسْلاَمِ ، وَحَقُّ الجِوَارِ . وَأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلاثَةُ حُقُوقٍ : فَجَارٌ مُسْلِمٌ ذو رَحِم لَهُ حَقُّ الجِوَارِ ، وَحَقُّ الإِسْلام ، وَحَقُّ الرَّحِم » (٥) .

وعن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت : إن لي جارين ، فإلى أيهما أهدي ؟ قال : « إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابًا » (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ عن علي وابن مسعود قالا : هي المرأة . وقال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وقتادة : هو الرفيق في السفر . وقال سعيد بن جبير : هو الرفيق الصالح . وقال زيد بن أسلم : هو جليسك في الحضر ، ورفيقك في السفر . وأما ﴿ ٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فعن ابن عباس : هو الضيف ، وقال مجاهد : هو الذي يمر عليك مجتازًا في السفر ، وهذا أظهر وإن كان مراد القائل بالضيف المار في الطريق فهما سواء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ وصية بالأرقاء ؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة ، أسير في

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٥) ومسلم في البر والصلة (١٤٠) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٤٤) والحاكم في المستدرك (٤٤٣/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٥/١) والحاكم في المستدرك (١٦٧/٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٦) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢/٥) والألباني في إرواء الغليل (٤٠٣/٣) .
(٦) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٠) وأحمد في مسنده (٢٣٩/٦) والحاكم في المستدرك (١٦٧/٤) .

أيدي الناس ، فلهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول : « الصَّلاةَ الصَّلاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه [(١)] ، وعن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَتَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ » [(٢)] .

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له : هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا ، قال : فانطلق فأعطهم فإن رسول الله ﷺ قال : « كَفَى بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُمْ » [(٣)] . وعنه أيضًا عن النبيّ ﷺ قال : « إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ ، أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ ؛ فَإِنَّهُ وَلِيَ حرّهُ وَعِلاَجَهُ » [(٤)] . وعن أبي ذر ﷺ عن النبيّ ﷺ قال : « هُمْ إِخْوَانُكُمْ خوَلُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ ؛ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ » [(٥)] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ أي مختالًا في نفسه ، معجبًا متكبرًا فخورًا على الناس ، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغيض . قال مجاهد في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا ﴾ يعني متكبرًا ﴿ فَخُورًا ﴾ يعني بعد ما أعطي وهو لا يشكر الله تعالى ، يعني يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه ، وهو قليل الشكر لله على ذلك . وعن أبي رجاء الهروي قال : لا تجد سيئ الملكة إلَّا وجدته مختالًا فخورًا وتلا : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ الآية . ولا عاقًّا إلَّا وجدته جبارًا شقيًّا وتلا : ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ . وقال مطرف : كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته ، فقلت : يا أبا ذر : بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ ، قال : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ثَلاثَةً ويُبْغِضُ ثَلاثَة » قال أجل : فلا أخا لك ، أكذب على خليلي ؟ ثلاثًا قلت : من الثلاثة الذين يبغض اللَّهُ ؟ قال : المختال الفخور ، أو ليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل ؟ ثم قرأ الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [(٦)] . وعن رجل من بني الهجيم قال : قلت : يا رسول الله أوصني ، قال : « إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ ، فَإِنَّ إسبال الإزار مِنَ المَخِيلَةِ ، وَإِنَّ اللَّه لاَ يُحِبُّ المَخِيلَةَ » [(٧)] .

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ .

يقول تعالى ذامًّا الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب ، واليتامى ، والمساكين ، والجار ذي القربي ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل وما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٣١١) والحاكم في المستدرك (٣/٥٧) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٣١) والبيهقي في السنن (٤/١٧٩) .
(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (٤٠) .
(٤) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٥٧) وأحمد في مسنده (١/٤٤٦) .
(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٨) والبيهقي في السنن (٨/٧) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٥٣) والحاكم في المستدرك (٢/٨٩) والبيهقي في السنن (٩/١٦٠) .
(٧) أخرجه البيهقي في السنن (١٠/٢٣٦) والألباني في الصحيحة (١١٠٩) .

ملكت أيمانكم من الأرقاء ، ولا يدفعون حق الله فيها ، ويأمرون الناس بالبخل أيضًا ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كان قَبْلَكُمْ ، أَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالفُجُورِ فَفَجَرُوا » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فالبخيل جحودٌ لنعمة الله ولا تظهر عليه . ولا تبين لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله ولهذا توعدهم بقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ والكفر هو الستر والتغطية ، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها ، فهو كافر لنعم الله عليه . وفي الحديث : « إِنَّ اللهَ إِذَا أَنْعَمَ نِعْمَةً عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يَظْهَرَ أَثَرُهَا عَلَيْهِ » [٢] . وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمّد ﷺ وكتمانهم ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ ولاشك أن الآية محتملة لذلك ، والظاهر أن السياق في البخل بالمال ، وإن كان البخل بالعلم داخلًا في ذلك بطريق الأولى ، فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء ، وكذلك الآية التي بعدها وهي قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ فإنه ذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء ، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرام ، ولا يريدون بذلك وجه الله ، في الحديث : أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جدعان ، هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه ؟ فقال : « لاَ ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين » [٣] ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ الآية ، أي إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح ، وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان ، فإنه سوّل لهم وأملى لهم ، وقارنهم فحسن لهم القبائح ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ ولهذا قال الشاعر [٤] :

عَنِ المَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارِنِ يَقْتَدِي

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الآية ، أي : وأي شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة ، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله ، رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله ، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها . وقوله : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ أي وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة ، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم ، فيوفقه ويلهمه رشده ، ويقيضه لعمل صالح يرضى به عنه ، وبمن يستحق الخذلان والطرد عن جنابه الأعظم الإلهي ، الذي من طرد عن بابه ، فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة ، عياذًا بالله من ذلك .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

يقوله تعالى مخبرًا أنه لا يظلم أحدًا من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ، ولا مثقال ذرة ، بل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٩٥) والحاكم في المستدرك (١/١١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٧٤) والطبراني في الكبير (١٨/١٣٥) والألباني في الصحيحة (١٢٩٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/١٢٠) والحاكم في المستدرك (٢/٤٠٥) .
(٤) هو عدى بن زيد والبيت في جمهرة أشعار العرب ص : ١٧٩ .

يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ الآية . وقال عبد الله ابن مسعود : يؤتى بالعبد أو الأمة يوم القيامة ، فينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين : هذا فلان ابن فلان من كان له حق فليأت إلى حقه ، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أمها أو أخيها أو زوجها ، ثم قرأ : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فيغفر الله من حقه ما يشاء ، ولا يغفر من حقوق الناس شيئًا ، فينصب للناس فيقول : ائتوا إلى الناس حقوقهم ، فيقول : يا رب فنيت الدنيا من أين أوتيهم حقوقهم ؟ فيقول : خذوا من أعماله الصالحة ، فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر مظلمته ، فإن كان وليًا لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ علينا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ وإن كان عبدًا شقيًا قال الملك : رب فنيت حسناته وبقي طالبون كثير فيقول : خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ، ثم صكوا له صكًا إلى النار . وعبد الله بن عمر قال : نزلت هذه الآية في الأعراب ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ قال رجل : فما للمهاجرين يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : ما هو أفضل من ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وعن سعيد بن جبير في قوله : ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ، ولا يخرج من النار أبدًا . وقد يستدل له بالحديث الصحيح أن العباس قال : يا رسول الله ، إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء ؟ قال : « نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » [1] وقد يكون هذا خاصًا بأبي طالب من دون الكفار ، بدليل ما رواه أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه لا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً ، يُثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقَ فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ » [2] . وقال أبو هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك في قوله : ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعني الجنة [3] ، نسأل الله رضاه والجنة .

وقوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ يقول تعالى مخبرًا عن هول يوم القيامة ، وشدة أمره وشأنه : فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد ، يعني الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ الآية . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقْرَأْ عَلَيَّ » فقلت : يا رسول الله ، آقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « نَعَمْ ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ فقال : « حَسْبُكَ الآنَ » فإذا عيناه تذرفان [4] . وعن عبد الله هو ابن مسعود في هذه الآية : قال : قال رسول الله ﷺ : « شَهِيدًا عَلَيهِم مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَإِذَا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ » [5] . وأما ما

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان(٣٥٧) وأحمد في مسنده(٢٠٦/١) .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين(٥٦) وأحمد في مسنده(١٢٥/٣)

(٣) أخرجه أحمد في مسنده(٢٩٦/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن(٥٠٥٦) ومسلم في صلاة المسافرين(٢٤٧)

(٥) ذكره الطبري في تفسيره(١٣٠/٥)

ذكره أبو عبد الله القرطبي في التذكرة حيث قال : باب ما جاء في شهادة النبيّ ﷺ على أمته : عن سعيد بن المسيب يقول : ليس من يوم إلَّا يعرض فيه على النبيّ ﷺ أمته غدوة وعشية ، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم ، فلذلك يشهد عليهم ، يقول الله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ فإنه أثر وفيه انقطاع ، فإن فيه رجلًا مبهمًا لم يسمَّ ، وهو من كلام سعيد ابن المسيب ولم يرفعه ، وقد قبله القرطبي فقال بعد إيراده : قد تقدم أن الأعمال تعرض على الله كل يوم اثنين وخميس ، وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة ، قال : ولا تعارض فإنه يحتمل أنه يخص نبينا بما يعرض عليه كل يوم ، ويوم الجمعة مع الأنبياء عليه وعليهم أفضل السلام .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ أي : لو انشقت وبلعتهم ، مما يرون من أهوال الموقف ، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ . وقوله ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ، ولا يكتمون منه شيئًا . وعن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عبّاس فقال : أشياء تختلف عليَّ في القرآن ، قال : ما هو ؟ أَشَكٌّ في القرآن ؟ قال : ليس هو بالشك ولكن اختلاف ، قال : فهات ما اختلف عليك من ذلك ، قال : أسمع الله يقول : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فقد كتموا ! فقال ابن عبّاس : أما قوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلَّا لأهل الإسلام ، ويغفر الذنوب ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، ولا يغفر شركًا جحد المشركون فقالوا : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ رجاء أن يغفر لهم فختم الله على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ .

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول ، وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب إلَّا أن يكون مجتازًا من باب إلى باب من غير مكث ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر كما دل عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ الآية . فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر فقال : اللهمَّ بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه ، فقال : اللَّهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات حتى نزلت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ فقال عمر : انتهينا انتهينا [١] . وعن سعد قال : نزلت فيَّ أربع آيات : صنع رجل من الأنصار طعامًا ، فدعا أناسًا من المهاجرين وأناسًا من الأنصار ، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا ثم افتخرنا ، فرفع رجل لحي بعير فغرز بها أنف سعد فكان سعد مغروز الأنف ، وذلك قبل تحريم الخمر فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ الآية [٢] .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٠١ ، ٣٢٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٩/١) .

وعن علي بن أبي طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة ، فقدموا فلانًا قال : فقرأ : قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾[١] وعن قتادة : كانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات ، ثم نسخ بتحريم الخمر . وقال الضحاك في الآية : لم يعن بها سكر الخمر ، وإنما عنى بها سكر النوم . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، ثم قال ابن جرير : والصواب أن المراد سكر الشراب ، قال : ولم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب ؛ لأن ذاك في حكم المجنون ، وإنما خوطب بالنهي الثمل الذي يفهم التكليف ، وهذا حاصل ما قاله[٢] . وقد ذكره غير واحد من الأصوليين وهو أن الخطاب يتوجه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذي لا يدري ما يقال له ، فإن الفهم شرط التكليف . وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية ، لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار ، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائمًا والله أعلم . وعلى هذا فيكون كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام ، والمداومة على الطاعة لأجل ذلك وقوله : ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران إنه الذي لا يدري ما يقول ، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة ، وعدم تدبره وخشوعه فيها . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَنْصَرِفْ وَلْيَنَمْ حَتَّى يَعْلَمَ مَا يَقُولُ »[٣] .

وقوله : ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ قال : لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب ، إلا عابري سبيل ، قال : تمر به مرًا ولا تجلس . ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد ، ويجوز له المرور ، وكذا الحائض والنفساء أيضًا في معناه ، إلا أن بعضهم قال : يحرم مرورهما لاحتمال التلويث . ومنهم من قال : إن أمنت كل واحدة منهما التلويث في حال المرور جاز لها المرور ، وإلا فلا . وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « نَاوِلِينِي الْخُمْرَةَ مِنَ الْمَسْجِدِ » فقلت : إني حائض ، فقال : « إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ »[٤] ، وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد ، والنفساء في معناها والله أعلم . وروي عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لا أُحِلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلاَ جُنُبٍ »[٥] .

وعن علي : ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ قال : لا يقرب الصلاة إلا أن يكون مسافرًا تصيبه الجنابة ، فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء ، وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ طَهُورُ الْمُسْلِمِ ، وَإِنْ لَمْ تَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ حِجَجٍ ، فَإِذَا وَجَدْتَ الْمَاءَ فَأَمِسَّهُ بَشَرَتَكَ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ »[٦] ثم قال ابن جرير ، بعد حكايته القولين : والأولى قول من قال : ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ أي : إلا مجتازي

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٣٠٢٦) .
(٢) تفسير الطبري(٣٤/٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده(١٤٢/٣) .
(٤) أخرجه مسلم في الحيض(١١) وأبو داود في السنن(٢٦١) .
(٥) أخرجه أبو داود في السنن(٢٣٢) والبيهقي في السنن(٤٤٢/٢) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده(١٨٠/٥) .

طريق فيه ، وذلك أنه قد بيَّن حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ إلى آخره فكان معلومًا بذلك أن قوله : ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ لو كان معنيًا به المسافر لم يكن لإعادة ذكره في قوله : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ معنى مفهوم ، وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك ، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية : يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ، ولا تقربوها أيضًا جنبًا حتى تغتسلوا إلَّا عابري سبيل . قال : والعابر السبيل المجتاز مرًّا وقطعًا ، يقال منه : عبرت بهذا الطريق فأنا أعبره عبرًا وعبورًا ، ومنه يقال : عبر فلان النهر إذا قطعه وجاوزه ، ومنه قيل للناقة القوية على الأسفار : هي عبر الأسفار لقوتها على قطع الأسفار (١)، وهذا الذي نصره هو قول الجمهور ، وهو الظاهر من الآية ، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها ، وعند الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة ، وهي الجنابة المباعدة للصلاة ولمحلها أيضًا واللَّه أعلم .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة ومالك والشافعي أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم إن عدم الماء ، أو لم يقدر على استعماله بطريقة . وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد لما روي بسند صحيح أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك . فعن عطاء بن يسار قال : رأيت رجالًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضأوا وضوء الصلاة .

وقوله : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ أما المرض المبيح للتيمم فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شينه أو تطويل البرء ، ومن العلماء من جوّز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية . والسفر معروف ولا فرق فيه بين الطويل والقصير . وقوله : ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ الغائط هو المكان المطمئن من الأرض ، كنى بذلك عن التغوط وهو الحدث الأصغر . وأما قوله : ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ فقرئ لمستم ولامستم (٢) ، واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك على قولين :

أحدهما : أن ذلك كناية عن الجماع لقوله : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ قال : الجماع . وعن سعيد بن جبير قال : ذكروا اللمس فقال ناس من الموالي : ليس بالجماع ، وقال ناس من العرب : اللمس الجماع ، قال : فلقيت ابن عبّاس فقلت له : إن ناسًا من الموالي والعرب اختلفوا في اللمس ، فقالت الموالي : ليس بالجماع ، وقالت العرب : الجماع ، قال : فمن أي الفريقين كنت ؟ قلت : كنت من الموالي ، قال : غُلب فريق الموالي . إن اللمس والمس والمباشرة : الجماع ، ولكن اللَّه يكني ما شاء بما شاء .

ثم قال ابن جرير : وقال آخرون : عنى اللَّه تعالى بذلك كل من لمس بيد أو بغيرها من أعضاء الإنسان ، وأوجب الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئًا من جسدها مفضيًا إليه (٣) . وعن

---

(١) تفسير الطبري (٥/١٣٩) .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ لَمَسْتُمُ ﴾ بغير ألف ، والباقون بالألف (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٥) .

(٣) تفسير الطبري (٥/١٤٠) .

عبد الله بن مسعود قال : اللمس ما دون الجماع . وعنه قال : القبلة من المس ، وفيها الوضوء . وعنه قال : يتوضأ الرجل من المباشرة ومن اللمس بيده ومن القبلة ، وكان يقول في هذه الآية ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ هو الغمز . وعن نافع أن ابن عمر كان يتوضأ من قبلة المرأة ويرى فيها الوضوء ، ويقول : هي من اللماس . قلت : وروي عن عبد الله بن عمر أنه كان يقول : قبلة الرجل امرأته وجسه بيده من الملامسة ، فمن قبّل امرأته أو جسها بيده فعليه الوضوء . وروى الدارقطني في سننه عن عمر مثل ذلك . ولكن روينا عنه من وجه آخر أنه كان يقبل امرأته ثم يصلي ولا يتوضأ ، فالرواية عنه مختلفة ، فيحمل ما قاله في الوضوء إن صح عنه على الاستحباب ، والله أعلم . والقول بوجوب الوضوء من المس ، وهو قول الشافعي وأصحابه ومالك ، والمشهور عن أحمد بن حنبل ، قال : ناصروه . وقد قرئ في هذه الآية : لامستم ولمستم ، واللمس يطلق في الشرع على الجس باليد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي جسوه ، وقال ﷺ لماعز حين أقرّ بالزنى يعرض له بالرجوع عن الإقرار : « لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ ، أَوْ لَمَسْتَ » [(١)] وفي الحديث الصحيح « وَاليَدُ زِنَاهَا اللَّمْسُ » [(٢)] .

واستأنسوا أيضًا بحديث معاذ قال : إن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال : يا رسول الله ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها وليس يأتي الرجل من امرأته شيئًا إلَّا أتاه منها ، غير أنه لم يجامعها ؟ قال : فأنزل الله ﷻ هذه الآية ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ قال : فقال له رسول الله ﷺ : « تَوَضَّأْ ثُمَّ صَلِّ » قال معاذ : فقلت : يا رسول الله ، أله خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال : « بَلْ لِلْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً » [(٣)] .

ثم قال ابن جرير : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : عنى الله بقوله : ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ الجماع دون غيره من معاني اللمس ، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبّل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ . فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يتوضأ ثم يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ [(٤)] . وعن حبيب عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قبّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ، ولم يتوضأ ، قلت : من هي إلَّا أنت ؟ فضحكت [(٥)] . وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقبّلها وهو صائم ، ثم لا يفطر ولا يحدث وضوءًا [(٦)] .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلَّا بعد طلب الماء ، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حينئذٍ التيمم . وقد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع ، كما هو مقرر في موضعه ، كما في حديث عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا معتزلًا لم يصل مع القوم فقال : « يَا فُلَانُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ القَوْمِ ؟ أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، ولكن أصابتني جنابة ولا ماء . قال : « عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ » [(٧)] ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ فالتيمم في اللغة هو القصد . تقول العرب : تيممك الله بحفظه ، أي قصدك .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٠/١) والحاكم في المستدرك (٣٦١/٤)
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٩/٢) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٤/٥)
(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٥٠٣) وأحمد في مسنده (٦٢/٦) .
(٥) أخرجه أبو داود في السنن (١٧٩) . (٦) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٦/٢)
(٧) أخرجه مسلم في المساجد (٣١٢) والطبراني في الكبير (١٣٨/١٨)

والصعيد قيل : هو كل ما صعد على وجه الأرض ، فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والحجر والنبات ، وهو قول مالك . وقيل : ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة ، وهذا مذهب أبي حنيفة ، وقيل : هو التراب فقط ، وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أي ترابًا أملس طيبًا ، وبما ثبت عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلاثٍ : جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ المَلائِكَةِ ، وَجُعِلَتْ لَنَا الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا ، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ المَاءَ »[1] قالوا : فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان ، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه .

والطيب ههنا قيل الحلال . وقيل : الذي ليس بنجس . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ: «الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ طَهُورُ المُسْلِمِ إِنْ لَمْ يَجِدِ المَاءَ عَشْرَ حِجَجٍ ، فَإِذَا وَجَدَهُ فَلْيُمِسَّهُ بَشَرَتَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ »[2] .

وقوله : ﴿ فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ التيمم بدل عن الوضوء في التطهير به ، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه ، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع . ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال :

أحدها : وهو مذهب الشافعي في الجديد أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين ؛ لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقها على ما يبلغ المنكبين ، وعلى ما يبلغ المرفقين ، كما في آية الوضوء ، ويطلق ويراد به ما يبلغ الكفين كما في آية السرقة ﴿ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ قالوا : وحمل ما أطلق ههنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية ، وعن أبي جهيم قال : رأيت رسول الله ﷺ يبول فسلمت عليه فلم يرد علي السلام حتى فرغ ، ثم قام إلى الحائط فضرب بيديه عليه فمسح بهما وجهه ، ثم ضرب بيديه على الحائط فمسح بهما يديه إلى المرفقين ، ثم ردَّ عليه السلام[3] .

القول الثاني : أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين ، وهو قول الشافعي في القديم .

والثالث : أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة . عن عبد الرَّحمن بن أبزى عن أبيه أن رجلًا أتي عمر فقال : إني أجنبت فلم أجد ماء ؟ فقال عمر : لا تُصَلِّ ، قال عمار : أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء ، فأما أنت فلم تصل . وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت ، فلما أتينا النبيّ ﷺ ذكرت ذلك له فقال : «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ »وضرب النبيّ ﷺ بيده الأرض ثم نفخ فيها ، ومسح بها وجهه وكفيه[4] . وعن عمار أن رسول الله ﷺ قال : «ضَرْبَةٌ لِلْوَجْهِ وَالكَفَّيْنِ »[5] .

وقال في المائدة : ﴿ فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ فقد استدل بذلك الشافعي على أنه لابد في التيمم أن يكون بتراب طاهر ، له غبار يعلق بالوجه واليدين منه شيء ، كما روى الشافعي بإسناده المتقدم عن ابن الصمة أنه مر بالنبيّ ﷺ وهو يبول فسلم عليه فلم يرد عليه حتى قام إلى جدار فحته بعصًا كانت معه ، فضرب بيده عليه فمسح بها وجهه وذراعيه .

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في السنن (٢٢٣/١).
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢٠/١) والدارقطني في السنن (١٨٦/١).
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٣١).
(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٣٢٢) والنسائي في السنن (١٧٠/١).
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٣/٤).

وقوله : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ أي في الدين الذي شرعه لكم ﴿ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ فلهذا أباح التيمم إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد ، والتيمم نعمة عليكم لعلكم تشكرون ، ولهذا كانت هذه الأمة مخصوصة بمشروعية التيمم دون سائر الأمم ، كما ثبت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ » وفي لفظ : « فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهُورُهُ ، وأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ يُبْعَثُ النَّبِيُّ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلى النَّاسِ كَافَّةً »(١) وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ أي : ومن عفوه عنكم وغفرانه لكم أن شرع لكم التيمم ، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء توسعة عليكم ورخصة لكم ، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة من سكر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول ، أو جنابة حتى يغتسل ، أو حدث حتى يتوضأ إلَّا أن يكون مريضًا أو عادمًا للماء ، فإن الله عز وجل قد أرخص في التيمم والحالة هذه رحمة بعباده ، ورأفة بهم ، وتوسعة عليهم ولله الحمد والمنة .

ذِكْرُ سَبَبِ نُزُولِ مَشْرُوعِيَّةِ التَّيَمُّمِ

وإنما ذكرنا ذلك ههنا لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة ، وبيانه أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر ، والخمر إنما حرم بعد أُحُد بيسير في محاصرة النبيّ ﷺ لبني النضير ، وأما المائدة فإنها من آخر ما نزل ولا سيما صدرها ، فناسب أن يذكر السبب هنا وبالله الثقة .

عن عائشة قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ! فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام ، فقال : حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، قالت عائشة : فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يطعن بيده في خاصرتي ، ولا يمنعني من التحرك إلَّا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذي ، فقام رسول الله ﷺ على غير ماء حين أصبح ، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا ، فقال أسيد بن الحضير : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ، قالت : فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته(٢) .

وعن الأسلع بن شريك قال : كنت أرحل ناقة رسول الله ﷺ فأصابتني جنابة في ليلة باردة ، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة ، فكرهت أن أرحل ناقة رسول الله ﷺ وأنا جنب ، وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض ، فأمرت رجلًا من الأنصار فرحلها ، ثم رضفت أحجارًا فأسخنت بها ماء واغتسلت ، ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه فقال : « يَا أَسْلَعُ مَا لِي أَرَى رَحْلَتَكَ قَدْ تَغَيَّرَتْ ؟ » قلت : يا رسول الله لم أرحلها ، رحلها رجل من الأنصار ، قال : « وَلِمَ ؟ » قلت : إني أصابتني جنابة فخشيت القر على نفسي ، فأمرته أن يرحلها ورضفت أحجارًا فأسخنت بها ماء فاغتسلت به ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تَقْرَبُوا

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٤) .

ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (١) .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن اللَّه المتتابعة إلى يوم القيامة - أنهم يشترون الضلالة بالهدى ، ويعرضون عما أنزل اللَّه على رسوله ، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمّد ﷺ ليشتروا به ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون ، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ﴾ أي هو أعلم بهم ويحذركم منهم ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ أي كفى به وليًا لمن لجأ إليه ، ونصيرًا لمن استنصره . ثم قال تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ من في هذا لبيان الجنس ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد اللَّه ﷻ قصدًا منهم وافتراء ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أي : سمعنا ما قلته يا محمّد ، ولا نطيعك فيه ، هكذا فسره مجاهد وابن زيد ، وهو المراد ، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم ، وأنهم يتولون عن كتاب اللَّه بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة ، وقولهم : ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أي : اسمع ما نقول لا سمعت . وقال مجاهد والحسن : واسمع غير مقبول منك . قال ابن جرير : والأول أصح ، وهو كما قال : وهذا استهزاء منهم واستهتار ، عليهم لعنة اللَّه ﴿ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ أي : يوهمون أنهم يقولون : راعنا سمعك بقولهم : راعنا ، وإنما يريدون الرعونة بسبّهم النبي ، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴾ ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه : ﴿ لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ يعني : بسبّهم النبيّ ﷺ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي قلوبهم مطرودة عن الخير ، مبعدة منه ، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ والمقصود أنهم لا يؤمنون إيمانًا نافعًا .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمّد ﷺ من الكتاب العظيم ، الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات ، ومتهددًا لهم إن لم يفعلوا بقوله : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ قال بعضهم : معناه : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ فطمسها هو ردها إلى الأدبار ، وجعل أبصارهم من ورائهم ، ويحتمل أن يكون المراد ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ فلا نبقي لها سمعًا ولا بصرًا ولا أنفًا ، ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار . وقال العوفي عن ابن عبّاس : وطمسها أن تعمى ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧٧/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦١/١) .

أَدْبَارِهَآ ﴾ يقول : نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم ، فيمشون القهقرى ، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه . وهذا أبلغ في العقوبة والنكال ، وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة ، يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم ، وهذا كما قاله بعضهم في قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ الآية ، أي هذا مثل سوء ضربه الله لهم في ضلالهم ومنعهم عن الهدى . قال مجاهد : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ يقول : عن صراط الحق ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ أي في الضلال . قال السدي : ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ فنمنعها عن الحق ، قال : نرجعها كفارًا ، ونردهم قردة . قال أبو زيد : فردهم إلى بلاد الشام من أرض الحجاز .

وقوله : ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ﴾ يعني : الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد ، وقد مسخوا قردة وخنازير ، وسيأتي بسط قصتهم في سورة الأعراف ، وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أي : إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يمانع . ثم أخبر تعالى أنه ﴿ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي : من الذنوب ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أي : من عباده ، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة منها :

عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدَّوَاوِينُ عِنْدَ اللَّه ثَلاَثَةٌ ، دِيوَانٌ لاَ يَعْبَأُ اللَّه بِهِ شَيْئًا ، وَدِيوَانٌ لاَ يَتْرُكُ اللَّه مِنْهُ شَيْئًا ، وَدِيوَانٌ لاَ يَغْفِرُهُ اللَّه . فَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لاَ يَغْفِرُهُ اللَّه : فَالشِّرْكُ بِاللَّه ، قَالَ اللَّه ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ الآية ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لاَ يَعْبَأُ اللَّه بِهِ شَيْئًا : فَظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّه ، مِنْ صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ أَوْ صَلاَةٍ ؛ فَإِنَّ اللَّه يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ ، وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لاَ يَتْرُكُ اللَّه مِنْهُ شَيْئًا : فَظُلْمُ العِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا القِصَاصُ لاَ مَحَالَةَ » (١) .

وعن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال : « الظلم ثَلاَثَةٌ : فَظُلْمٌ لاَ يَغْفِرُهُ اللَّه ، وَظُلْمٌ يَغْفِرُهُ اللَّه ، وَظُلْمٌ لا يَتْرُكُ اللَّه مِنْهُ شَيْئًا : فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يَغْفِرُهُ اللَّه : فَالشِّرْكُ ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرُهُ اللَّه : فَظُلْمُ العِبَادِ لأَنْفُسِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لا يَتْرُكُهُ : فَظُلْمُ العِبَادِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَدِينَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ » (٢) .

وعن أبي إدريس قال : سمعت معاوية يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّه أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلَ يَمُوتُ كَافِرًا ، أَوِ الرَّجُلَ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا » (٣) .

وعن أبي ذر قال : كنت أمشي مع النبيّ ﷺ في حرة المدينة عشاء ، ونحن ننظر إلى أُحد فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ » قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : « مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي أُحُدًا ذاكَ عِنْدِي ذَهَبًا أُمْسِي ثَالِثَةً وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ ، إِلَّا دِينَارًا أَرْصُدُهُ - يعني لدين - إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّه هَكَذَا وَهَكَذَا » فحثا عن يمينه ، وعن يساره ، وبين يديه ، قال : ثم مشينا ، فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّ الأَكْثَرِينَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٠/٦) والألباني في الصحيحة (١٩٢٧) .

(٢) ذكره الألباني في الصحيحة (١٩٢٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤١/١٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٦) .

هكذا وهكذا» فحثا عن يمينه ، ومن بين يديه ، وعن يساره ، قال : ثم مشينا ، فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ كَمَا أَنْتَ حَتَّى آتِيَكَ» قال : فانطلق حتى توارى عني ، قال : فسمعت لغطًا فقلت : لعل رسول الله ﷺ عرض له ، قال : فهممت أن أتبعه ، قال : فذكرت قوله : لا تبرح حتى آتيك ، فانتظرته حتى جاء فذكرت له الذي سمعت فقال : « ذَاكَ جِبْرِيلُ أَتَانِي ، فَقَالَ : مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّه شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ» قلت : وإن زني وإن سرق ؟ قال : « وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ » (١) .

وعن أبي رهم عن أبي أيوب الأنصاري قال : إن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم إليهم ، فقال لهم : « إِنَّ رَبَّكُمْ ﷻ خَيَّرَنِي بَيْنَ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَفْوًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَبَيْنَ الخَبِيئَةِ عِنْدَهُ لِأُمَّتِي» فقال له بعض أصحابه : يا رسول الله ، أيخبأ ذلك ربك ؟ فدخل رسول الله ﷺ ثم خرج وهو يكبّر فقال : « إِنَّ رَبِّي زَادَنِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا وَالخَبِيئَةَ عِنْدَهُ» قال أبو رهم : يا أبا أيوب وما تظن خبيئة رسول الله ﷺ ؟ فأكله الناس بأفواههم فقالوا : وما أنت وخبيئة رسول الله ﷺ ؟! فقال أبو أيوب : دعوا الرجل عنكم ، أخبركم عن خبيئة رسول الله ﷺ كما أظن ، بل كالمستيقن ، إن خبيئة رسول الله ﷺ أن يقول : « مَنْ شَهِدَ أَنَّ لاَ إِلَه إِلَّا اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ مُصَدِّقًا لِسَانُهُ قَلْبَهُ ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ» (٢) .

وعن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما تركت حاجة ولا ذا حاجة إلَّا قد أتيت ؟ قال : « أَلَيْسَ تَشْهَدُ أَنَّ لاَ إِلَه إِلَّا اللَّه ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه» ثلاث مرات ، قال : نعم ، قال : « فَإِنَّ ذَلِكَ يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ » (٣)

وعن ضمضم بن جوش اليمامي قال : قال لي أبو هريرة : يا يمامي ، لا تقولن لرجل : لا يغفر الله لك ، أو لا يدخلك الجنة أبدًا . فقلت : يا أبا هريرة إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب ، قال : لا تقلها ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلانِ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدٌ فِي العِبَادَةِ ، وَكَانَ الآخَرُ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ ، وكَانَا مُتَآخِيَيْنِ ، وَكَانَ المُجْتَهِد لاَ يَزَالُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ : يَا هَذَا أَقْصِرْ ، فَيَقُولُ : خَلِّنِي وَرَبِّي ، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا ؟ إِلَى أَنْ رَآهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ فَقَالَ لَهُ : وَيْحَكَ أَقْصِرْ ، قَالَ : خَلِّنِي وَرَبِّي ، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا ؟ فَقَالَ : وَاللَّه لا يَغْفِرُ اللَّه لَكَ ، أَوْ لا يُدْخِلُكَ الجَنَّةَ أَبَدًا ، قَالَ : فَبَعَثَ اللَّه إِلَيْهِمَا مَلَكًا فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا وَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ، وَقَالَ لِلآخَرِ : أَكُنْتَ عَالِمًا ، أَكُنْتَ عَلَى ما فِي يَدِي قَادِرًا ؟ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ . قَالَ : وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي القَاسِمِ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ » (٤) .

وعن ابن عمر قال : كنا أصحاب النبيّ ﷺ لا نشك في قاتل النفس ، وآكل مال اليتيم ، وقاذف المحصنات وشاهد الزور حتى نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فأمسك أصحاب النبيّ ﷺ عن الشهادة . وعن عبد الله بن عمر أنه قال : لما نزلت ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية . قام رجل فقال : والشرك بالله يا نبي الله ؟

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٣٢) وأحمد في مسنده (١٥٢/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٣/٥) .

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (٩٣/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨٣/١٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٢) .

فكره ذلك رسول الله ﷺ فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ وهذه الآية التي في سورة تنزيل مشروطة بالتوبة ، فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه تاب الله عليه ، ولهذا قال : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ أي بشرط التوبة ، ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه ، ولا يصح ذلك ؛ لأنه تعالى قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك ، وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء ، أي وإن لم يتب صاحبه ، فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه والله أعلم . وقوله : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وثبت عن ابن مسعود أنه قال : قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » [1]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ .

قال الحسن وقتادة : نزلت هذه الآية وهي قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ في اليهود والنصارى حين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وفي قولهم : ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ ، وقال مجاهد : كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم ، ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم ، وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ : وذلك أن اليهود قالوا : إن أبناءنا توفوا وهم لنا قربة ، ويشفعون لنا ويزكوننا ، فأنزل الله على محمّد ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ الآية ، وعن عكرمة عن ابن عبّاس قال : كان اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم ، ويقربون قربانهم ، ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب ، وكذبوا ، قال الله : إني لا أطهر ذا ذنب بآخر لا ذنب له ، وأنزل الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ .

وقيل : نزلت في ذم التمادح والتزكية . وعن المقداد بن الأسود قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب [2] . وعن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يثني على رجل فقال : « وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ » ثم قال : « إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ : أَحْسَبُهُ كَذَا ، وَلا يُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا » [3] .

وعن معبد الجهني قال : كان معاوية قلما كان يحدِّث عن النبيّ ﷺ ، قال : وكان قلما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدِّث بهن عن النبي ﷺ يقول : « مَنْ يُرِدِ اللَّه بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَإِنَّ هذَا المَالَ حُلْوٌ خَضِرٌ ، فَمَنْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ يُبَارَكْ فِيهِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّمَادُحَ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ » [4] .

وعن طارق بن شهاب قال : قال عبد الله بن مسعود : إن الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه منه شيء ، يلقى الرجل ليس يملك له ضرًا ولا نفعًا فيقول له : إنك والله كيت وكيت ، فلعله أن يرجع ولم يحظ من حاجته بشيء وقد أسخط الله ، ثم قرأ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ الآية .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٧٥٢٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٦٨) وأحمد في مسنده (٩٤/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦١) ومسلم في الزهد (٦٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٩٣/٤) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله ﷻ ؛ لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ أي ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل .

وعن ابن عبّاس أيضًا : هو ما فتلت بين أصابعك ، وكلا القولين متقارب .

وقوله : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ أي في تزكيتهم أنفسهم ، ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم : ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ وقولهم : ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة ، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئًا في قوله : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ الآية . ثم قال : ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أي وكفى بصنيعهم هذا كذبًا وافتراء ظاهرًا . وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ أما الجبت : فقال عمر بن الخطاب : الجبت السحر والطاغوت الشيطان . وقال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وغيرهم : الجبت الشيطان ، وفي رواية عن ابن عباس : الشرك . وعنه : الأصنام . وعن ابن عبّاس أيضًا : الجبت حيي بن أخطب . وعن مجاهد : الجبت كعب بن الأشرف . وقال الجوهري في كتابه الصحاح : الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك . قال : وليس هذا من محض العربية لاجتماع الجيم والتاء في كلمة واحدة ، من غير حرف ذو لقي ، وقال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط في الأرض ، والجبت قال الحسن : رنة الشيطان . وعن جابر بن عبد الله أنه سئل عن الطواغيت فقال : هم كهان تنزل عليهم الشياطين . وقال مجاهد : الطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه ، وهو صاحب أمرهم . وقال الإمام مالك : هو كل ما يعبد من دون الله ﷻ .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ أي : يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم ، وقلة دينهم ، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم . وعن عكرمة قال : جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فأخبرونا عنا وعن محمّد ؟ فقالوا : ما أنتم وما محمّد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العاني ، ونسقي الحجيج ، ومحمّد صنبور قطع أرحامنا ، واتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلًا ، فأنزل الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا ﴾ الآية . وعن ابن عبّاس قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وأبو رافع والربيع بن أبي الحقيق وأبو عامر ووحوح بن عامر وهودة بن قيس ، فأما وحوح وأبو عامر وهودة فمن بني وائل ، وكان سائرهم من بني النضير ، فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمّد ؟ فسألوهم فقالوا : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إلى قوله ﷻ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ وهذا لعن لهم ، وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة ؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين ، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم ، وقد أجابوهم ، وجاءوا معهم يوم الأحزاب ، حتى حفر النبيّ ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ .

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ وهذا استفهام إنكاري ، أي ليس لهم نصيب من الملك ، ثم وصفهم بالبخل فقال : ﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ ، أي لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحدًا من الناس ، ولا سيما محمدًا ﷺ شيئًا ، ولا ما يملأ النقير وهو النقطة التي في النواة في قول ابن عبّاس والأكثرين . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ أي خوف أن يذهب ما بأيديكم ، مع أنه لا يتصور نفاده ، وإنما هو من بخلكم وشحكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ أي بخيلًا ثم قال : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يعني بذلك حسدهم النبيّ ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ الآية ، قال : نحن الناس دون الناس قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ أي فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة ، وأنزلنا عليهم الكتب ، وحكموا فيهم بالسنن وهي الحكمة ، وجعلنا منهم الملوك ، ومع هذا ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ أي كفر به ، وأعرض عنه وسعى في صد الناس عنه ، وهو منهم ومن جنسهم أي من بني إسرائيل ، فقد اختلفوا عليهم ، فكيف بك يا محمّد ولست من بني إسرائيل ؟ وقال مجاهد : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ أي بمحمّد ﷺ ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ ، فالكفرة منهم أشد تكذيبًا لك ، وأبعد عما جئتهم به من الهدى ، والحق المبين ، ولهذا قال متوعدًا لهم : ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ أي ندخلهم نارًا دخولًا يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم . ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم فقال : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ عن ابن عمر : إذا احترقت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها بيضًا أمثال القراطيس ، وقال يحيى بن يزيد الحضرمي : يجعل للكافر مائة جلد ، بين كل جلدين لون من العذاب . عن الحسن قوله : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾ الآية قال : تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة ، وعن ابن عمر قال : تلا رجل عند عمر هذه الآية : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾ الآية ، قال فقال عمر : أعدها علي وثم كعب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا عندي تفسير هذه الآية ، قرأتها قبل الإسلام ، قال : فقال : هاتها يا كعب ، فإن جئت بها كما سمعت من رسول الله ﷺ صدقناك ، وإلا لم ننظر إليها ، فقال : إني قرأتها قبل الإسلام كلمات نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها في الساعة الواحدة : عشرين ومائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعت من رسول الله ﷺ .

وقال الربيع بن أنس : مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعًا ، وسنه سبعون ذراعًا ، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه ، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلودًا غيرها . وقد وردت في الحديث ما هو أبلغ من هذا ، عن ابن عمر ، عن النبيّ ﷺ قال : « يَعْظُمُ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ حَتَّى إِنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ ، وَإِنَّ غِلَظَ جِلْدِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا ، وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ » [١] . وقوله ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاؤوا ، وأين أرادوا ، وهم خالدون فيها أبدًا لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولًا . وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ أي : من الحيض والنفاس والأذى ، والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة كما قال ابن عبّاس : مطهرة من الأقذار والأذى . وقال مجاهد : مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد . وقال قتادة : مطهرة من الأذى والمآثم ولا حيض ولا كلف . وقوله : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ أي ظلًا عميقًا كثيرًا طيبًا أنيقًا ، وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُهَا : شَجَرَةُ الْخُلْدِ » [٢] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

يخبر اللَّه تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها . وفي الحديث عن سمرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « أَدِّ الأَمَانَةَ إِلى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ » [٣] ، وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق اللَّه ﷻ على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفّارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه ، لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض ، كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك ، فأمر اللَّه ﷻ بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة ، كما ثبت في الحديث أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى يُقْتَصَّ لِلشَّاةِ الجَمَّاءِ مِنَ القَرْنَاءِ » [٤] . وعن عبد اللَّه بن مسعود قال : إن الشهادة تكفر كل ذنب إلّا الأمانة ، يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قُتل في سبيل اللَّه فيقال : أدِّ أمانتك ، فيقول : فأنّى أؤديها وقد ذهبت الدنيا ؟ فتتمثل له الأمانة في قعر جهنم فيهوي إليها فيحملها على عاتقه ، قال : فتنزل عن عاتقه فيهوي على أثرها أبد الآبدين . قال زاذان : فأتيت البراء ، فحدثته ، فقال : صدق أخي ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . وعن ابن عبّاس في الآية قال : هي مبهمة للبر والفاجر . وقال محمّد ابن الحنفية : هي عامة للبر والفاجر . وقال أبو العالية : الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه . قال أُبيّ بن كعب : من الأمانات أن المرأة ائتمنت على فرجها . وقال الربيع بن أنس : هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس . وقال ابن عبّاس : يدخل فيه وعظ السلطان النساء ، يعني يوم العيد .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٦) والعجلوني في كشف الخفاء (٢/٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨١) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦ ، ٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٥٣٤) والترمذي في السنن (١٢٦٤) .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٠) والترمذي في السنن (٢٤٢٠) .

وقد ذكر كثير من المفسّرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب القرشي العبدري حاجب الكعبة المعظمة ، وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم ، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وأما عمه عثمان بن طلحة بن أبي طلحة فكان معه لواء المشركين يوم أُحد ، وقتل يومئذٍ كافرًا ، وإنما نبهنا على هذا النسب ؛ لأن كثيرًا من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا ، وسبب نزولها فيه لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه ، عن صفية بنت شيبة أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس ، خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعًا على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده ، فلما قضى طوافه ، دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها ، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ، ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكن له الناس في المسجد ، قال ابن إسحاق : فحدَّثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : « لا إِلَه إِلَّا اللَّه وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، أَلاَ كُلُّ مَأْثُرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدْعَى فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، إِلَّا سِدَانَةَ الْبَيْتِ ، وَسِقَايَةَ الْحَاجِّ » وذكر بقية الحديث في خطبة النبيّ ﷺ يومئذ إلى أن قال : ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : « أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ ؟ » فدعي له ، فقال له : « هَاكَ مِفْتَاحُكَ يا عُثْمَانُ ، الْيَوْمُ يَوْمُ وَفَاءٍ وَبِرٍّ » [(١)] .

وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك ، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا ، فحكمها عام ، ولهذا قال ابن عبّاس ومحمد ابن الحنفية : هي للبر والفاجر ، أي هي أمر لكل أحد .

وقوله : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ، ولهذا قال ابن أسلم وغيره : إن هذه الآية ، إنما نزلت في الأمراء - يعني الحكام بين الناس - وفي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الحَاكِمِ ما لَمْ يَجُرْ ، فَإِذَا جَارَ وَكَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ » [(٢)] وفي الأثر : « عَدْلُ يَوْمٍ كَعِبَادَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً » وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أي سميعًا لأقوالكم ، بصيرًا بأفعالكم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .

عن ابن عبّاس ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ قال : نزلت : في عبد الله بن حذافة بن قيس ابن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية [(٣)] . وعن علي قال : بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلًا من الأنصار ، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء قال : فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : فاجمعوا لي حطبًا ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت

---

(١) السيرة لابن هشام (٤/٥٤ ، ٥٥) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٣١٢) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٤) .

عليكم لتدخلنها ، قال : فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها ، قال : فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال لهم : « لَوْ دَخَلْتُمُوها ما خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ » [١] . وعن عبد الله بن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ ، ما لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ ، فَإِذا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ » [٢] . وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا . وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حبشيٌ كأن رأسَهُ زبيبة » [٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي ، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ » قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : « أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ ، وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ ، فَإِنَّ اللهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ » [٤] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَكَرِهَهُ فَلْيَصْبِرْ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَيَمُوتُ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً » [٥] . وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ ، لَقِيَ اللهَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً » [٦] . وعن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة ، والناس حوله مجتمعون عليه ، فأتيتهم فجلست إليه فقال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلًا ، فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشره ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : الصلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ مِنْ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ جُعِلَتْ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا ، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاءٌ ، وَأُمُورٌ يُنْكِرُونَهَا ، وَتَجِيءُ فِتَنٌ يُرَفِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَتَجِيءُ الفِتْنَةُ فيقول المُؤْمِنُ : هَذِهِ مُهْلِكَتِي ، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الفِتْنَةُ فَيَقُولُ المُؤْمِنُ : هَذِهِ هَذِهِ ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ فُؤَادِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ » قال : فدنوت منه فقلت : أنشدك بالله ، آنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال : سمعته أذناي ، ووعاه قلبي ، فقلت له : هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، ويقتل بعضنا بعضًا والله تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ قال : فسكت ساعة ثم قال : أطعه في طاعة الله ، واعصه في معصية الله [٧] . والأحاديث في هذا كثيرة .

وعن السدي في قوله : ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ قال : بعث رسول الله ﷺ سرية

---

(١) أخرجه البخاري أخبار الآحاد (٧٢٥٧) . (٢) أخرجه البخاري الأحكام (٧١٤٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٢) .
(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٥) ومسلم في الإمارة (٤٤) .
(٥) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٣) ومسلم في الإمارة (٥٥) .
(٦) أخرجه مسلم في الإمارة (٥٨) . (٧) أخرجه مسلم في الإمارة (٤٦) والنسائي في السنن (١٥٣/٧) .

عليها خالد بن الوليد وفيها عمار بن ياسر ، فساروا قبل القوم الذين يريدون ، فلما بلغوا قريبًا منهم عرّسوا وأتاهم ذو العيينتين فأخبرهم ، فأصبحوا وقد هربوا غير رجل أمر أهله فجمعوا متاعهم ، ثم أقبل يمشي في ظلمة الليل حتى أتى عسكر خالد فسأل عن عمار بن ياسر فأتاه فقال : يا أبا اليقظان إني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلّا اللَّه ، وأن محمّدًا عبده ورسوله ، وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا ، وإني بقيت ، فهل إسلامي نافعي غدًا وإلّا هربت ؟ قال عمار : بل هو ينفعك فأقم ، فأقام ، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحدًا غير الرجل فأخذه وأخذ ماله ، فبلغ عمارًا الخبر فأتى خالدًا فقال : خل عن الرجل فإنه قد أسلم وإنه في أمان مني ، فقال خالد : وفيما أنت تجير ؟ فاستبا وارتفعا إلى النبيّ ﷺ فأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير الثانية على أمير ، فاستبا عند رسول اللَّه ﷺ فقال خالد : يا رسول اللَّه أتترك هذا العبد الأجدع يسبّني ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « يَا خَالِدُ لاَ تَسُبَّ عَمَّارًا فَإِنَّهُ مَنْ سَبَّ عَمَّارًا يَسُبَّهُ اللَّه ، وَمَنْ يَبْغَضْ عَمَّارًا يُبْغِضْهُ اللَّه ، وَمَنْ يَلْعَنْ عَمَّارًا لَعَنَهُ اللَّه » فغضب عمار فقام ، فتبعه خالد فأخذ بثوبه فاعتذر إليه ، فرضي عنه ، فأنزل اللَّه ﷻ قوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (١) .

وعن ابن عبّاس : ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ يعني أهل الفقه والدين ، والظاهر واللَّه أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء كما تقدّم . وعن أبي هريرة ، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « مَنْ أَطَاعَني فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّه ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عَصَاني » (٢) فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ أي : اتبعوا كتابه ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أي خذوا بسنته ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ أي : فيما أمروكم به من طاعة اللَّه لا في معصية اللَّه ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية اللَّه ، وعن عمران بن حصين عن النبيّ ﷺ قال : « لا طَاعَةَ في مَعْصِيَةِ اللَّه » (٣) . وقوله : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف : أي إلى كتاب اللَّه وسنّة رسوله . وهذا أمر من اللَّه ﷻ بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنّة ، فما حكم به الكتاب والسنّة وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلّا الضلال ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي : ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب اللَّه وسنّة رسوله ، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنّة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنًا باللَّه ولا باليوم الآخر ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي : التحاكم إلى كتاب اللَّه وسنّة رسوله ، والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أي وأحسن عاقبة ومآلًا .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٣٩٠) والطبراني في الكبير (٤/١٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٧) ومسلم في الإمارة (٣٣) وابن ماجه في السنن (٢٨٥٩) وأحمد في مسنده (٢/٩٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (٣٩) وأحمد في مسنده (٤/٤٢٧) .

هذا إنكار من الله ﷻ على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين ، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنّة رسوله ، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما ، فجعل اليهودي يقول : بيني وبينك محمّد ، وذاك يقول : بيني وبينك كعب بن الأشرف . وقيل : في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام ، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية . وقيل غير ذلك ، والآية أعم من ذلك كله ، فإنها ذامّة لمن عدلوا عن الكتاب والسنّة ، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت هنا . ولهذا قال : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ إلى آخرها . وقوله : ﴿ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ أي : يعرضون عنك إعراضًا كالمستكبرين عن ذلك ، كما قال تعالى عن المشركين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ . وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ الآية .

ثم قال تعالى في ذم المنافقين : ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أي : يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى أعدائك ، إلّا الإحسان والتوفيق أي المداراة والمصانعة ، لا اعتقادًا منا صحة تلك الحكومة ، وعن ابن عبّاس قال : كان أبو برزة الأسلمي كاهنًا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه ، فتنافر إليه ناس من المشركين فأنزل الله ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزيهم على ذلك ، فإنه لا تخفى عليه خافية فاكتفِ به يا محمّد فيهم ، فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم . ولهذا قال له : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي لا تعنّفهم على ما في قلوبهم ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ أي وانههم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ أي : فرضت طاعته على من أرسله إليهم ، وقوله : ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قال مجاهد : أي لا يطيع أحد إلّا بإذني ، يعني لا يطيعه إلّا من وفقته لذلك ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية ، يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان ، أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ، ويسألوه أن يستغفر لهم ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ، ولهذا قال : ﴿ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وقد ذكر جماعة ، منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتاب الشامل ، الحكاية المشهورة عن العتبي قال : كنت جالسًا عند قبر النبيّ ﷺ فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ

ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وقد جئتك مستغفرًا لذنبي مستشفعًا بك إلى ربي . ثم أنشأ يقول :

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالقَاعِ أَعْظُمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ القَاعُ وَالأَكَمُ
نَفْسِي الفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ فِيهِ العَفَافُ وَفِيهِ الجُودُ وَالكَرَمُ

ثم انصرف الأعرابي ، فغلبتني عيني فرأيت النبيّ ﷺ في النوم فقال : « يَا عتبي الحَقِ الأَعْرَابِيَّ فَبَشِّرْهُ أَنَّ اللَّه قَدْ غَفَرَ لَهُ » .

وقوله : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدّسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ أي إذا حكّموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن ، فيسلمون لذلك تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة . وعن عروة قال : خاصم الزبير رجلًا في شراج الحرّة ، فقال النبيُّ ﷺ : « اسْقِ يا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلِ الماءَ إِلى جَارِكَ » فقال الأنصاري : يا رسول اللَّه أن كان ابن عمتك ؟ فتلوّن وجه رسول اللَّه ﷺ ثم قال : « اسْقِ يا زُبَيْرُ ثُمَّ احْبِسِ الماءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلى الجذْرِ ثُمَّ أَرْسِلِ الماءَ إِلى جَارِكَ » فاسترجع النبيُّ ﷺ للزبير حقَّه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلّا نزلت في ذلك ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية [(١)] .

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ .

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه ؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر ، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية . وعن الأعمش قال : لمّا نزلت ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية ، قال أناس من أصحاب النبيّ ﷺ : لو فعل ربُّنا لفعلنا ، فبلغ النبيّ ﷺ فقال : « لَلإِيمَانُ أَثْبَتُ فِي قُلُوبِ أَهْلِهِ مِنَ الجِبَالِ الرَّوَاسِي » [(٢)] . وقال السدّي : افتخر ثابت ابن قيس بن شماس ورجل من اليهود ، فقال اليهودي : واللَّه لقد كتب اللَّه علينا القتل فقتلنا أنفسنا ، فقال ثابت : واللَّه لو كتب علينا ﴿ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ لفعلنا ، فأنزل اللَّه هذا الآية . وعن عامر بن عبد اللَّه ابن الزبير قال : لمّا نزلت ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ قال رسول اللَّه ﷺ : « لَوْ نَزَلَتْ لَكَانَ ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ مِنْهُمْ » [(٣)] . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي

---

(١) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٦٢) وأبو داود في السنن (٣٦٣٧) .
(٢ ، ٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/١٨١) .

من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ قال السدِّي : أي وأشدَّ تصديقًا ﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي من عندنا ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعني الجنة ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ أي من عمل بما أمره الله به ورسوله ، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله ، فإن الله ﷻ يسكنه دار كرامته ، ويجعله مرافقًا للأنبياء ، ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصِّدِّيقون ثم الشهداء ثم عموم المؤمنين ، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم . ثم أثنى عليهم تعالى فقال : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ . وعن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِن نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحَّة شديدة فسمعته يقول : « مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » فعلمت أنه خيِّر [١] .

ذِكْرُ سَبَبِ نُزُولِ هذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ

عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون ، فقال له النبيُّ ﷺ : « يَا فُلَانُ مَا لِي أَرَاكَ مَحْزُونًا ؟ » فقال : يا نبيَّ الله ، شيء فكَّرت فيه ، فقال : « مَا هُوَ ؟ » قال : نحن نغدو ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغدًا ترفع مع النبيِّين فلا نصل إليك ، فلم يردَّ عليه النبيّ ﷺ شيئًا ، فأتاه جبريل بهذه الآية ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ ﴾ الآية ، فبعث النبيّ ﷺ فبشَّره [٢] .

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال : كنت أبيت عند النبيّ ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته ، فقال لي : « سَلْ » ، فقلت : يا رسول الله ، أسألك مرافقتك في الجنَّة ، فقال : « أَوَ غَيْرِ ذَلِكَ » ؟ قلت : هو ذاك ، قال : « فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » [٣] . وعن معاذ بن أنس أن رسول الله قال : « مَنْ قَرَأَ أَلْفَ آيَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُتِبَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » [٤] . وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ » [٥] .

وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرهما متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحبُّ القوم ، ولمَّا يلحق بهم . فقال : « المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » . قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث [٦] . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ » قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بَلَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، رِجَالٌ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٦) وأحمد في مسنده (٢٦٩/٦) وابن ماجه في السنن (١٦٢٠) .

(٢) ذكره الطبري في تفسير (٢٢٥/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٦) والبيهقي في السنن (١٦٩/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/٣) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (١٢٠٩) والدارمي في السنن (٢٤٧/٢) .

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦٥) .

آمَنوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ » (١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي من عند الله برحمته هو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ أي هو عليم بمن يستحقُّ الهداية والتوفيق .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ۝ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۝ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوِّهم ، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعُدد ، وتكثير العَدد بالنفير في سبيل الله ﴿ ثُبَاتٍ ﴾ أي جماعة بعد جماعة ، وفرقة بعد فرقة ، وسريَّة بعد سريَّة ، والثُّبات جمع ثبة وقد تجمع الثُّبة على ثبين ، وعن ابن عبَّاس قوله : ﴿ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ ﴾ أي عصبًا يعني سرايا متفرِّقين ﴿ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾ يعني كلُّكم . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : نزلت في المنافقين . وقال مقاتل بن حيان : ﴿ لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ أي ليتخلَّفن عن الجهاد ، ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه ، ويبطِّئ غيره عن الجهاد ، كما كان عبد الله بن أبي ابن سلول - قبّحه الله - يفعل ، يتأخر عن الجهاد ويثبِّط الناس عن الخروج فيه . ولهذا قال تعالى إخبارًا عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد ﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ أي قتل وشهادة وغلب العدو لكم ، لما لله في ذلك من الحكمة ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ أي إذ لم أحضر معهم وقعة القتال ، يعدُّ ذلك من نعم الله عليه ، ولم يدرِ ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل . ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي نصر وظفر وغنيمة ﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ أي كأنه ليس من أهل دينكم ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أي بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصِّل عليه ، وهو أكبر قصده وغاية مراده . ثم قال تعالى : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ ﴾ أي : المؤمن النافر ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا ، وما ذلك إلَّا لكفرهم وعدم إيمانهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي : كل من قاتل في سبيل الله سواء قتل أو غلب فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل ، كما ثبت في الصحيحين ، وتكفَّل الله للمجاهد في سبيله إن توفَّاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة (٢) .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

يحرِّض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله ، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرِّمين من المقام بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ يعني مكة ثم وصفها بقوله : ﴿ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٥) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١١) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٦٣) والبيهقي في السنن (١٥٧/٩) .

أي سخر لنا من عندك وليًا وناصرًا . عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس تلا ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ قال : كنت أنا وأمي من المستضعفين [(١)] . ثم قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ أي المؤمنون يقاتلون في طاعة اللّه ورضوانه ، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان ، ثم هيَّج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله : ﴿ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة ، وإن لم تكن ذات النصب ، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم ، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين ، والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرَّقون ويودُّون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبًا لأسباب كثيرة منها : قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوِّهم ، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام ، وأشرف بقاع الأرض ، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال ، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلَّا بالمدينة لمّا صارت لهم دارًا ومنعة وأنصارًا ، ومع هذا لمّا أمروا بما كانوا يودُّونه جزع بعضهم منه ، وخافوا من مواجهة الناس خوفًا شديدًا ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ ﴾ أي لولا أخّرت فرضه إلى مدَّة أخرى ، فإنَّ فيه سفك الدماء ، ويُتْم الأولاد ، وتأيُّم النساء . عن ابن عبَّاس ، أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبيَّ ﷺ بمكة فقالوا : يا نبيَّ اللّه ، كنا في عزَّة ونحن مشركون ، فلمّا آمنَّا صرنا أذلَّة قال : « إِنِّي أُمِرْتُ بِالعَفْوِ فَلاَ تُقَاتِلُوا القَوْمَ » فلمّا حوَّله اللّه إلى المدينة أمره بالقتال فكفُّوا فأنزل اللّه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ ﴾ الآية [(٢)] . وعن السدِّي : لم يكن عليهم إلَّا الصلاة والزكاة ، فسألوا اللّه أن يفرض عليهم القتال ، فلمّا فرض عليهم القتال ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ ﴾ وهو الموت . قال اللّه تعالى : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ وقال مجاهد : إن هذه الآية نزلت في اليهود ، وقوله : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ أي آخرة المتقي خير من دنياه ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ أي من أعمالكم بل توفونها أتمَّ الجزاء ، وهذه تسلية لهم عن الدنيا ، وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد . وعن هشام قال : قرأ الحسن : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ قال : رحم اللّه عبدًا صحبها على حسب ذلك ، وما الدُّنيا كلُّها أوَّلها وآخرها إلَّا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحبُّ ثم انتبه . وقال ابن معين كان أبو مصهر ينشد :

وَلاَ خَيْرَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ... مِنَ اللَّه فِي دَارِ المُقَامِ نَصِيبُ
فَإِنْ تُعْجِب الدُّنْيَا رِجَالًا فَإِنَّها ... مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَالزَّوَالُ قَرِيبُ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٧) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٣/٦) والحاكم في المستدرك (٦٦/٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ أي : أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ، ولا ينجو منه أحد منكم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الآية ، والمقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة ، ولا ينجيه من ذلك شيء ، سواء جاهد أو لم يجاهد ، فإن له أجلًا محتومًا ، ومقامًا مقسومًا . كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه : لقد شهدت كذا وكذا موقفًا ، وما من عضو من أعضائي إلَّا وفيه جرح من طعنة أو رمية ، وها أنا أموت على فراشي ، فلا نامت أعين الجبناء . وقوله : ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ أي حصينة منيعة عالية رفيعة ، وقيل : هي بروج في السماء ، وهو ضعيف ، والصحيح أنها المنيعة أي : لا يغني حذر وتحصُّن من الموت . كما قال زهير بن أبي سلمى :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنَلْنَهُ ... وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

ثم قيل : المشيَّدة : هي المَشِيدة كما قال : ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ ، وقيل : بل بينهما فرق ، وهو أن المشيَّدة بالتشديد هي المطوَّلة ، وبالتخفيف هي المزينة بالشيد ، وهو الجصُّ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ أي خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك ﴿ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ : أي قحط وجدب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد ، أو نتاج أو غير ذلك ﴿ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾ : أي من قبلك ، وبسبب اتِّباعنا لك واقتدائنا بدينك ، كما قال تعالى عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾ وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهرًا ، وهم كارهون له في نفس الأمر ، ولهذا إذا أصابهم شرٌّ إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ . وقال السدِّي : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ والحسنة الخصب تنتج مواشيهم وخيولهم ويحسن حالهم وتلد نساؤهم الغلمان ، قالوا : ﴿ هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ ، والسيئة الجدب والضرر في أموالهم تشاءموا بمحمّد ﷺ وقالوا : هذه من عندك ، يقولون : بتركنا ديننا واتباعنا محمّد أصابنا هذا البلاء ، فأنزل اللَّه ﷻ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ فقوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ أي الجميع بقضاء اللَّه وقدره ، وهو نافذ في البرِّ والفاجر والمؤمن والكافر . وعن ابن عبَّاس : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ : أي الحسنة والسيئة . ثم قال تعالى منكرًا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شكٍّ وريب ، وقلة فهم وعلم وكثرة جهل وظلم ﴿ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ .

ثم قال تعالى مخاطبًا لرسوله ﷺ والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب : ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ أي من فضل اللَّه ومنِّه ولطفه ورحمته ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ أي فمن قِبَلِك ، ومن عملك أنت أي بذنبك ، وقال قتادة : عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك . قال : وذكر لنا أن النبيّ ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ وَلاَ حُزْنٌ ، وَلا نَصَبٌ حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُها إِلَّا كَفَّرَ اللَّه عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » (١) . وقال أبو صالح : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ أي بذنبك ، وأنا الذي قدّرتها عليك . وعن مطرف بن عبد اللَّه قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء ؟ ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾ أي من نفسك ، واللَّه ما وكلوا إلى القدر ، وقد أمروا وإليه يصيرون ، وهذا كلام متين قوي في الردِّ على القدرية والجبرية أيضًا ،

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٠) والترمذي في السنن (٩٦٥) .

ولبسطه موضع آخر . وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ أي تبلغهم شرائع الله وما يحبُّه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه . ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي على أنه أرسلك ، وهو شهيد أيضًا بينك وبينهم ، وعالم بما تبلغهم إياه ، وبما يردون عليك من الحق كفرًا وعنادًا .

﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمّد ﷺ ، بأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، وما ذاك إلَّا لأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلَّا وحي يوحى . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّه ، وَمَنْ أَطَاعَ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَى الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي »[(١)] . وقوله : ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي ما عليك منه ، إن عليك إلَّا البلاغ ، فمن اتبعك سَعِدَ ونجا ، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له ، ومن تولَّى عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء ، كما جاء في الحديث : « مَنْ يُطِعِ اللَّه وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشُدَ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّه وَرَسُولَهُ فَإِنَّهُ لا يَضُرُّ إلَّا نَفْسَهُ »[(٢)] . وقوله ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ ﴾ أي خرجوا وتواروا عنك ، ﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ﴾ أي استسرُّوا ليلًا فيما بينهم بغير ما أظهروه لك فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد ، والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرُّونه فيما بينهم ، وما يتفقون عليه ليلًا من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه ، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة ، وسيجزيهم على ذلك . وقوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم ، ولا تكشف أمورهم للناس ، ولا تخفْ منهم أيضًا ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي كفى به وليًّا وناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه وأناب إليه .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يقول تعالى آمرًا لهم بتدبُّر القرآن ، وناهيًا لهم عن الإعراض عنه ، وعن تفهُّم معانيه المحكمة ، وألفاظه البليغة ، ومخبرًا لهم ، أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب ولا تعارض ؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد ، فهو حقٌّ من حقٍّ . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ أي لو كان مفتعلًا مختلقًا ، كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا ﴾ أي اضطرابًا وتضادًّا كثيرًا ، أي وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله ، كما قال تعالى - مخبرًا عن الراسخين في العلم حيث قالوا - : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ أي محكمه ومتشابهه حقٌّ ، فلهذا ردُّوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا ، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٧) ومسلم في الإمارة (٣٣) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢١٥/٣) .

فغوَوا ، ولهذا مدح تعالى الراسخين وذمَّ الزائغين . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : لقد جلست أنا وأخي مجلسًا ما أحب أن لي به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ على باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرّق بينهم ، فجلسنا حجزة إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ مغضبًا حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول : « مَهْلًا يَا قَوْمُ بِهَذَا أُهْلِكَتِ الأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ ؛ بِاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَضَرْبِهِمُ الكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ ، إِنَّ القُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، إِنَّمَا نَزَلَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ »(١) . وعن عبد الله بن عمرو قال : هجرت إلى رسول الله ﷺ يومًا فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان في آية فارتفعت أصواتهما فقال : « إِنَّمَا هَلَكَتِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلاَفِهِمْ فِي الكِتَابِ »(٢)

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها ، وقد لا يكون لها صحة . فعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال : « كَفَى بِالمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ »(٣) . وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال : « بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا »(٤) وفي الصحيح : « مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ »(٥) . ومعنى يستنبطونه : أي يستخرجونه من معادنه ، يقال : استنبط الرجل العين : إذا حفرها واستخرجها من قعورها .

وقوله : ﴿ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، عن ابن عبّاس : يعني المؤمنين ، وعن قتادة : يعني كلكم .

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ .

يأمر تعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه ، ومن نكل عنه فلا عليه منه ، ولهذا قال : ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ عن أبي إسحاق قال : قلت للبراء : الرجل يحمل على المشركين ، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة ؟ قال : لا ، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ إنما ذلك في النفقة . وعن البراء قال : لما نزلت على النبيّ ﷺ : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية ، قال لأصحابه : « قَدْ أَمَرَنِي رَبِّي بِالقِتَالِ فَقَاتِلُوا »(٦) . وقوله : ﴿ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي على القتال ورغّبهم فيه وشجّعهم عليه ، فقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك : فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتى الزَّكَاةَ ، وَصَامَ رَمَضَانَ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا » قالوا :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٢) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩١/٢) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٩٢) والحاكم في المستدرك (١١٢/١) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٤) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٥/٤) والبغوي في شرح السنة (٢٦٦/١١) .
(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨٧/٢) .

يا رسول اللَّه أفلا نبشّر الناس بذلك ؟ فقال : « إِنَّ فِي الجَنَّةِ مَائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّه لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّه ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كما بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّه فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ؛ فَإِنَّهُ وَسَطُ الجَنَّةِ ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ » (١) . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول اللَّه ﷺ قال : « يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللَّه رَبًّا ، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا وَنَبِيًّا ؛ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ » قال : فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدْها عليَّ يا رسول اللَّه ، ففعل . ثم قال رسول اللَّه ﷺ : « وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّه العَبْدَ بِهَا مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » قال : وما هي يا رسول اللَّه ؟ قال : « الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه » (٢) .

وقوله : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مناجزة الأعداء ، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله ، ومقاومتهم ومصابرتهم . وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ أي من يسعى في أمر فيترتّب عليه خير ، كان له نصيب من ذلك . ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ أي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيّته ، كما ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال : « اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِي اللَّه عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ » (٣) وقال مجاهد بن جبر : نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض . وقوله : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ أي حفيظًا . وقال مجاهد : شهيدًا . وفي رواية عنه : حسيبًا . وقال سعيد بن جبير وابن زيد : قديرًا . وقال الضحاك : المقيت : الرزاق . وعن عبد اللَّه بن رواحة وسأله رجل عن قول اللَّه تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ قال : مقيت : لكل إنسان بقدر عمله .

وقوله : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ أي إذا سلَّم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلَّم ، أو ردوا عليه بمثل ما سلَّم ؛ فالزيادة مندوبة ، والمماثلة مفروضة . وعن سلمان الفارسي قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول اللَّه ، فقال : « وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللَّه » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول اللَّه ورحمة اللَّه ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول اللَّه ورحمة اللَّه وبركاته ، فقال له : « وَعَلَيْكَ » فقال له الرجل : يا نبي اللَّه ، بأبي أنت وأمي ، أتاك فلان وفلان فسلَّما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت عليَّ . فقال : « إِنَّكَ لَمْ تَدَعْ لَنَا شَيْئًا ، قَالَ اللَّه تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ فَرَدَدْنَاها عَلَيْكَ » (٤) . وعن عمران بن حصين ، أن رجلًا جاء إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : السلام عليكم يا رسول اللَّه ، فردَّ عليه ثم جلس فقال : « عَشْرٌ » ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة اللَّه يا رسول اللَّه ، فرد عليه ثم جلس فقال : « عِشْرُونَ » ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته ؛ فردَّ عليه ، ثم جلس فقال : « ثَلاثُونَ » (٥) .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١١٦) والنسائي في السنن (١٩/٦) .
(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٧) والنسائي في السنن (٧٨/٥) .
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨١٤) والطبراني في الكبير (٦١١٤) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٩/٤) .

وعن ابن عبّاس قال : من سلّم عليك من خلق الله فاردد عليه ، وإن كان مجوسيًا ، ذلك بأن الله يقول : ﴿ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ وقال قتادة ﴿ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ ﴾ يعني للمسلمين ﴿ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ يعني لأهل الذمة . وهذا التنزيل فيه نظر . كما تقدم في الحديث من أن المراد بأن يرد بأحسن مما حيّاه به ، فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام ردَّ عليه مثل ما قال ، فأمّا أهل الذمة فلا يبدأون بالسلام ولا يزادون ، بل يرد عليهم بما ثبت عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ اليَهُودُ فَإِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ : السَّامُ عَلَيْكُمْ ، فَقُلْ : وَعَلَيْكَ » [(١)] . وعن الحسن البصري قال : السلام تطوُّع والردُّ فريضة . وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة أن الردَّ واجب على من سلّم عليه ، فيأثم إن لم يفعل لأنه خالف أمر الله في قوله : ﴿ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ وقد جاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَفَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ » [(٢)] .

وقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات ، وتضمّن قسمًا لقوله : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وهذه اللام موطئة للقسم ، فقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيجازي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده ، فلا إله إلّا هو ولا ربَّ سواه .

﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين ، واختلف في سبب ذلك ، فقال عبد الله بن يزيد عن زيد بن ثابت : أن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحد ، فرجع ناس خرجوا معه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين ، فرقة تقول : نقتلهم ، وفرقة تقول : لا ، هم المؤمنون ، فأنزل الله : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّها طَيِّبَةٌ ، وَإِنَّها تَنْفِي الخَبَثَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ » [(٣)] . وقد ذكر محمّد بن إسحاق بن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي ابن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش ، رجع بثلاثمائة ، وبقي النبيُّ ﷺ في سبعمائة . وعن ابن عبّاس : نزلت في قوم كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام ، وكانوا يظاهرون المشركين ، فخرجوا من مكة يطلبون حجة لهم فقالوا : إن لقينا أصحاب محمّد فليس علينا منهم بأس ، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٧) . (٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٤) والترمذي في السنن (٢٦٨٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٤٩٠) وأحمد في مسنده (١٨٧/٥) .

المؤمنين : اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم ، وقالت فئة أخرى من المؤمنين : سبحان الله - أو كما قالوا - أتقتلون قومًا قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به ، من أجل أنهم لم يهاجروا ، ولم يتركوا ديارهم نستحلُّ دماءهم وأموالهم ؟ فكانوا كذلك فئتين والرسول عندهم لا ينهى واحدًا من الفريقين عن شيء ، فنزلت : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ . وقال زيد بن أسلم عن ابن لسعد بن معاذ : إنها نزلت في تقاول الأوس والخزرج في شأن عبد الله بن أبي حين استعذر منه رسول الله ﷺ على المنبر في قضية الإفك ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ أي ردَّهم وأوقعهم في الخطأ . قال ابن عبّاس : ﴿ أَرْكَسَهُم ﴾ أي أوقعهم . وقال قتادة : أهلكهم . وقال السدي : أضلهم . وقوله : ﴿ بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول ، واتباعهم الباطل ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ أي لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه .

وقوله : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ أي هم يودُّون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها ، وما ذاك إلّا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم ، ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي تركوا الهجرة ، وقال السدي : أظهروا كفرهم . ﴿ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك ، ثم استثنى الله من هؤلاء فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ أي إلّا الذين لجأوا وتحيَّزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة ، فاجعلوا حكمهم كحكمهم . عن سراقة بن مالك المدلجي ، قال : لمّا ظهر النبيُّ ﷺ على أهل بدر وأُحُد وأسلم من حولهم ، قال سراقة : بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج ، فأتيته فقلت : أنشدك النعمة ، فقالوا : صه ، فقال النبيُّ ﷺ : « دَعُوهُ ، مَا تُرِيدُ ؟ » قال : بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي ، وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام ، وإن لم يسلموا لم تخشن قلوب قومك عليهم ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال : « اذْهَبْ مَعَهُ فَافْعَل ما يُرِيدُ » . فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم ، فأنزل الله : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ (١) فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم ، وهذا أنسب لسياق الكلام . وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية ؛ فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم ، ومن أحب أن يدخل في صلح محمّد ﷺ وأصحابه وعهدهم (٢) . وقد روي عن ابن عبّاس أنه قال : نسخها قوله : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم ، وهم الذين يجيئون إلى المصاف ، وهم حصرة صدورهم : أي ضيقة صدورهم ، مبغضين أن يقاتلوكم ، ولا يهون عليهم أيضًا أن يقاتلوا قومهم معكم ، بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ﴾ أي من لطفه بكم أن كفَّهم عنكم . ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ أي المسالمة ﴿ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك ، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال ، وهم كارهون كالعباس ونحوه ، ولهذا نهى النبيّ ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره .

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٤٣٤١) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٨٠) .

وقوله : ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ﴾ الآية ، هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدَّمهم ، ولكن نيَّة هؤلاء غير نيَّة أولئك ، فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ، ويصانعون الكفَّار في الباطن ، فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم ، وهم في الباطن مع أولئك كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ الآية . وقال ههنا : ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾ أي انهمكوا فيها . وقال السدي : الفتنة ههنا : الشرك . وحكى ابن جرير عن مجاهد ، أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبيَّ ﷺ فيسلمون رياء ، ثم يرجعون إلى قريش ، فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا ، فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ المهادنة والصلح ﴿ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي عن القتال ﴿ فَخُذُوهُمْ ﴾ أسراء ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أي أين لقيتموهم ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ أي بيِّنًا واضحًا .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ .

يقول تعالى : ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه ، فعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ »[1] ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله ، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه . وقوله : ﴿ إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ قالوا : هو استثناء منقطع ، واختلف في سبب نزول هذه الآية ، فقال مجاهد وغير واحد : نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه – وهي أسماء بنت مخرمة – وذلك أنه قتل رجلًا يعذبه مع أخيه على الإسلام ، وهو الحارث بن يزيد الغامدي ، فأضمر له عياش السوء ، فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعياش لا يشعر ، فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه ، فحمل عليه فقتله ، فأنزل الله هذه الآية . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت في أبي الدرداء ؛ لأنه قتل رجلًا وقد قال كلمة الإيمان ، حين رفع عليه السيف فأهوى به إليه ، فقال كلمته ، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال : إنما قالها متعوذًا ، فقال له : « هَلْ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ ؟ » وهذه القصة في الصحيح لغير أبي الدرداء .

وقوله : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ ، أحدهما : الكفّارة لما ارتكبه من الذنب العظيم ، وإن كان خطأ ، ومن شروطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة . وحكى ابن جرير عن ابن عبّاس والشعبي وإبراهيم النخعي والحسن البصري أنهم قالوا : لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصدًا للإيمان ، وروي عن قتادة قال في مصحف أبي : فتحرير رقبة مؤمنة لا يجزئ فيها صبي ، واختار ابن جرير أنه إن كان مولودًا بين أبوين مسلمين أجزأ وإلَّا فلا ،

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨) ومسلم في القسامة (٢٥) .

والذي عليه الجمهور أنه متى كان مسلمًا صحّ عتقه عن الكفارة سواء كان صغيرًا أو كبيرًا . وعن رجل من الأنصار أنه جاء بأمَة سوداء فقال : يا رسول الله إن عليَّ عتق رقبة مؤمنة ، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : « أَتَشْهَدِينَ أَنَّ لاَ إِلَه إِلَّا الله ؟ » قالت : نعم ، قال : « أَتَشْهَدِينَ أَنِّي رَسُولُ الله ؟ » قالت : نعم ، قال : « أَتُؤْمِنِينَ بِالبعْثِ بَعْدَ المَوْتِ ؟ » قالت : نعم ، قال : « أَعْتِقْهَا »[(١)]

وقوله : ﴿ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتيل عوضًا لهم عما فاتهم من قتيلهم ، وهذه الدية إنما تجب أخماسًا . وعن ابن مسعود قال : قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكورًا ، وعشرين بنت لبون ، وعشرين جذعة ، وعشرين حقَّة . وقيل : تجب أرباعًا . وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله ، قال الشافعي رحمه الله : لم أعلم مخالفًا أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة ، وهو أكثر من حديث الخاصة . وهذا الذي أشار إليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث ، فمن ذلك ما ثبت عن أبي هريرة قال : اقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنينها غرَّة - عبد أو أمة - وقضى بدية المرأة على عاقلتها[(٢)] ، وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية ، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثًا لشبهة العمد . وعن عبد الله بن عمر قال : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فجعل خالد يقتلهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرفع يديه وقال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ » . وبعث عليًا فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم حتى ميلغة الكلب[(٣)] ، وهذا الحديث منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال . وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ أي فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلَّا أن يتصدقوا بها فلا تجب .

وقوله : ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ أي إذا كان القتيل مؤمنًا ولكن أولياؤه من الكفّار أهل حرب فلا دية لهم ، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير . وقوله : ﴿ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ الآية ، أي فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة ، أو هدنة ، فلهم دية قتيلهم ، فإن كان مؤمنًا فدية كاملة وكذا إن كان كافرًا أيضًا عند طائفة من العلماء ، وقيل : يجب في الكافر نصف دية المسلم ، وقيل : ثلثها ، كما هو مفصل في كتاب الأحكام . ويجب أيضًا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة . ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ أي لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما ، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف ، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا على قولين . وقوله : ﴿ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين ، واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام هل يجب عليه إطعام ستّين مسكينًا كما في كفارة الظهار ؟ على قولين :

أحدهما : نعم ، كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار ، وإنما لم يذكر ههنا لأن هذا مقام

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥١/٣) .
(٢) أخرجه النسائي في السنن (٤٣/٨) وأحمد في مسنده (٣٨٤/١) .
(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٨٩) .

تهديد وتخويف وتحذير ، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص .

والقول الثاني : لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجبًا لَمَا أخّر بيانه عن وقت الحاجة .

ثم لمَّا بيَّن تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد فقال : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ الآية ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله ، حيث يقول في سورة الفرقان : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الآية .

والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًّا ، فمن ذلك : عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أَوَّلُ ما يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ في الدِّمَاءِ » (١) . وفي حديث آخر : « لَزَوالُ الدُّنْيا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ » (٢) . وفي الحديث الآخر : « مَنْ أَعانَ عَلَى قَتْلِ المُسْلِمِ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّه » (٣) . وقد كان ابن عبّاس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدًا . وعن ابن جبير قال : اختلف فيها أهل الكوفة ، فرحلت إلى ابن عبّاس فسألته عنها فقال : نزلت هذه الآية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ هي آخر ما نزل وما نسخها شيء . وقال في هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ إلى آخرها قال : نزلت في أهل الشرك . وعنه أن رجلًا أتى إليه فقال : أرأيت رجلًا قتل رجلًا عمدًا ؟ فقال : ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ الآية ، قال : لقد نزلت من آخر ما نزل ، ما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحي بعد رسول الله ﷺ . قال : أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى ؟ قال : وأنى له بالتوبة وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ ، رَجُلٌ قَتَلَ رَجُلًا مُتَعَمِّدًا يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ آخِذًا قَاتِلَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ بِيَسَارِهِ - أَوْ آخِذًا رَأْسَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ بِشَمَالِهِ - تَشْخُبُ أَوْدَاجه دَمًا مِنْ قبل العَرْشِ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ سَلْ عَبْدَكَ فِيمَ قَتَلَنِي » (٤) .

وفي الباب أحاديث كثيرة ، منها : عن عبد الله بن مسعود عن النبيِّ ﷺ قال : « يَجِيءُ المَقْتُولُ مُتَعَلِّقًا بِقَاتِلِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ آخِذًا رَأْسَهُ بِيَدِهِ الأُخْرَى فَيَقُولُ : يَا رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ العِزَّةُ لَكَ ، فَيَقُولُ : فَإِنَّهَا لِي ، قَالَ : وَيَجِيءُ آخَرُ مُتَعَلِّقًا بِقَاتِلِهِ فَيَقُولُ : رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ العِزَّةُ لِفُلانٍ ؟ قَالَ : فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَهُ ، بُؤْ بِإِثْمِهِ ، قَالَ : فَيَهْوِي فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا » (٥) .

وعن أم الدرداء قالت : سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا ، أَوْ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا » (٦) وعن حميد قال : أتاني أبو العالية أنا وصاحب لي فقال لنا : هلمّا فأنتما أشب سنًّا مني ، وأوعى للحديث مني ، فانطلق بنا إلى بشر بن عاصم فقال له أبو العالية : حدث هؤلاء حديثك فقال : حدَّثنا عقبة بن مالك الليثي قال :

---

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٤) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٦١٩) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٦٢٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٠/١) .
(٥) أخرجه النسائي في السنن (٨٤/٧) وأحمد في مسنده (٣٦٧/٥) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٥) .

بعث رسول اللّه ﷺ سرية فأغارت على قوم ، فشدَّ مع القوم رجل فأتبعه رجل من السريّة شاهرًا سيفه ، فقال الشادُّ من القوم : إني مسلم ، فلم ينظر فيما قال ، قال : فضربه فقتله ، فنمي الحديث إلى رسول اللّه ﷺ فقال فيه قولًا شديدًا ، فبلغ القاتل ، فبينا رسول اللّه ﷺ يخطب إذ قال القاتل : واللّه ما قال الذي قال إلّا تعوذًا من القتل ، قال : فأعرض رسول اللّه ﷺ عنه وعمن قبله من الناس ، وأخذ في خطبته ، ثم قال أيضًا : يا رسول اللّه ما قال الذي قال إلّا تعوذًا من القتل ، فأعرض عنه وعمن قبله من الناس ، وأخذ في خطبته ، ثم لم يصبر حتى قال الثالثة ، واللّه يا رسول اللّه ما قال الذي قال إلّا تعوذًا من القتل ، فأقبل عليه رسول اللّه ﷺ تعرف المساءة في وجهه فقال : « إِنَّ اللّهَ أَبَى عَلَى مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا ثَلَاثًا » (١) والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين اللّه ﷻ ، فإن تاب وأناب ، وخشع وخضع ، وعمل عملًا صالحًا ، بدل اللّه سيئاته حسنات ، وعوّض المقتول من ظلامته ؛ وأرضاه عن ظلامته قال اللّه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ الآية ، وهذا خبر لا يجوز نسخه ، وحمله على المشركين ، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر ، ويحتاج حمله إلى دليل ، واللّه أعلم .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ الآية ، وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك وشكّ ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك ، كل من تاب من أي ذلك ؛ تاب اللّه عليه ، قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك ، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء واللّه أعلم . وثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ، ثم سأل عالمًا : هل لي من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ، ثم أرشده إلى بلد يعبد اللّه فيه ، فهاجر إليه فمات في الطريق ، فقبضته ملائكة الرحمة ... كما ذكرناه غير مرة ، وإذا كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى ؛ لأن اللّه وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم ، وبعث نبيّنا بالحنيفية السمحة . فأما الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ الآية . فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف : هذا جزاؤه إن جازاه ، ولكن لا يصح معنى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه ، وكذا كلّ وعيد على ذنب ، لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه على قولَي أصحاب الموازنة والإحباط ، وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد .

وبتقدير دخول القاتل في النار ، إمّا على قول ابن عبّاس ، ومن وافقه أنه لا توبة له ، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحًا ينجو به ، فليس بمخلّد فيها أبدًا ، بل الخلود ، هو المكث الطويل ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول اللّه ﷺ : « أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » (٢) . وأمّا حديث معاوية : « كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلَ يَمُوتُ كَافِرًا ، أَوِ الرَّجُلَ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا » (٣) فعسى للترجّي ، فإذا انتفى الترجّي في هاتين الصورتين لانتفى وقوع ذلك في أحدهما ، وهو القتل لما ذكرنا من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٨٨) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٩٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٩٩) والطبراني في الكبير (١٩/٣٦٥) .

الأدلة . وأما من مات كافرًا ؛ فالنص أن الله لا يغفر له البتة ، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة ، فإنه حق من حقوق الآدميين ، وهي لا تسقط بالتوبة ، ولكن لابد من ردها إليهم ، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه ، والمغصوب منه ، والمقذوف ، وسائر حقوق الآدميين ، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة ، ولكنه لا بد من ردها إليهم في صحة التوبة ، فإن تعذر ذلك فلا بد من المطالبة يوم القيامة ، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة ، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها ، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة ، أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها ، ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم . ثم لقاتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة ، فأما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ الآية ، ثم هم مخيَّرون بين أن يقتلوا ، أو يعفوا ، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثًا . ثلاثون حقة ، وثلاثون جذعة ، وأربعون خلفة ، كما هو مقرر في كتاب الأحكام ، واختلف الأئمة هل تجب عليه كفّارة عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ، على أحد القولين ، كما تقدم في كفارة الخطأ على قولين : فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون : نعم يجب عليه لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ ، فلأن تجب عليه في العمد أولى ، فطردوا هذا في كفارة اليمين الغموس ، واعتذروا بقضاء الصلاة المتروكة عمدًا ، كما أجمعوا على ذلك في الخطأ . وقال أصحاب الإمام أحمد وآخرون : قتل العمد أعظم من أن يكفر ، فلا كفّارة فيه ، وكذا اليمين الغموس ، ولا سبيل إلى الفرق بين هاتين الصورتين ، وبين الصلاة المتروكة عمدًا ؛ فإنهم يقولون بوجوب قضائها إذا تُركت عمدًا ، وقد احتجَّ من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه واثلة بن الأسقع قال : أتي النبيَّ ﷺ نفر من بني سليم فقالوا : إن صاحبًا لنا قد أوجب ، قال : « فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً يَفْدِي اللَّه بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ » (١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : مرَّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبيِّ ﷺ يرعى غنمًا له فسلم عليهم ، فقالوا : لا يسلم علينا إلّا ليتعوَّذ منا فعمدوا إليه فقتلوه ، وأتوا بغنمه النبيَّ ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ إلى آخرها (٢) .

وأما قصة محلم بن جثامة : فعن القعقاع بن عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم ، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي ومحلم بن جثامة بن قيس ، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مرَّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له ، معه متيع له ووطب من لبن ، فلما مرَّ بنا سلَّم علينا ، فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه ، وأخذ بعيره ومتيعه فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ خَبِيرًا ﴾ (٣) .

وعن ابن عبّاس قال : بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد بن الأسود ، فلما أتوا القوم وجدوهم

(١) أخرجه أحمد في مسنده(١٠٧/٤) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده(٣٤١/٢) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده(١١/٦) .

قد تفرّقوا وبقي رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال : أشهد أن لا إله إلّا اللّه ، وأهوى إليه المقداد فقتله ، فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلًا شهد أن لا إله إلّا اللّه ؟ واللّه لأذكرن ذلك للنبي ﷺ ، فلما قدموا على رسول اللّه ﷺ قالوا : يا رسول اللّه : إن رجلًا شهد أن لا إله إلّا اللّه فقتله المقداد ، فقال : « ادْعُوا لِي المِقْدَادَ ، يَا مِقْدَادُ أَقَتَلْتَ رَجُلًا يَقُولُ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللّهُ ؟ فَكَيْفَ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللّه غَدًا ؟! » قال : فأنزل اللّه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ ، فقال رسول اللّه ﷺ للمقداد : « كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيمَانَهُ فَقَتَلْتَهُ ، وَكَذَلِكَ كُنْتَ تُخْفِي إِيمَانَكَ بِمَكَّةَ قَبْلُ » (١) .

وقوله : ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ أي خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام ، وأظهر لكم الإيمان ، فتغافلتم عنه واتهمتموه بالمصانعة والتقيّة ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، فما عند اللّه من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يسِرُّ إيمانه ويخفيه من قومه . وهذا مذهب سعيد بن جبير قال في قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾ تخفون إيمانكم في المشركين . وفي رواية : تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعي بإيمانه ، وهذا اختيار ابن جرير . وقال ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي تاب عليكم ، فحلف أسامة لا يقتل رجلًا يقول : لا إله إلّا اللّه بعد ذلك الرجل وما لقي من رسول اللّه ﷺ فيه . وقوله : ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ تأكيد لما تقدم . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ قال سعيد بن جبير : هذا تهديد ووعيد .

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وعن البراء قال : لمّا نزلت ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال النبيُّ ﷺ : « ادْعُ فُلَانًا » ، فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف ، فقال : « اكْتُبْ لا يستوي القاعدون من المؤمنين المجاهدين في سبيل اللّه » وخلف النبيّ ﷺ ابن أم مكتوم ، فقال : يا رسول اللّه أنا ضرير ، فنزلت مكانها ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (٢) .

وعن عبد اللّه بن الحارث أن ابن عبّاس أخبره : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر (٣) . ولما نزلت غزوة بدر قال عبد اللّه بن جحش وابن أم مكتوم : إنا أعميان يا رسول اللّه ، فهل لنا رخصة ؟ فنزلت ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾ وفضّل اللّه المجاهدين على القاعدين درجة فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ ﴾ على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر (٤) . فقوله : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كان مطلقًا ، فلما

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣١/١٢) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٩٤) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٩٥) .
(٤) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠٣٢) .

نزل بوحي سريع ﴿ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ صار ذلك مخرجًا لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرض عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين ، قال ابن عبّاس : غير أولي الضرر ، وكذا ينبغي أن يكون ، كما ثبت عن حميد بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ وَلاَ قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ » . قَالُوا : وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ يَا رَسُولَ اللَّه ؟ قال : « نَعَمْ ؛ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » (١). وفي هذا المعنى قال الشاعر :

يَا رَاحِلِينَ إِلَى البَيْتِ العَتِيقِ لَقَدْ ... سِرْتُمْ جُسُومًا وَسِرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحا

إِنَّا أَقَمْنَا عَلَى عُذْرٍ وَعَنْ قَدَرٍ ... وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ فَقَدْ رَاحَا

وقوله : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي الجنة والجزاء الجزيل . وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين ، بل هو فرض على الكفاية . قال تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات ، في غرف الجنات العاليات ، ومغفرة الذنوب والزلّات ، وأحوال الرحمة والبركات ، إحسانًا منه وتكريمًا ولهذا قال : ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » (٢) . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فَلَهُ أَجْرُهُ دَرَجَةٌ » فقال رجل : يا رسول الله وما الدرجة ؟ فقال : « أَمَا إِنَّها لَيْسَتْ بِعَتَبَةِ أُمِّكَ ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ مِائَةُ عَامٍ » (٣) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

قال محمّد بن عبد الرّحمن أبو الأسود : قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه ، فلقيت عكرمة مولى ابن عبّاس فأخبرته فنهاني عن ذلك أشدَّ النهي ، قال : أخبرني ابن عبّاس أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله ، أو يضرب عنقه فيقتل ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (٤) وعن ابن عبّاس قال : كان قوم من أهل مكة أسلموا ، وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم ، قال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية . قال : فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم ، قال : فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم التقية ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ الآية . قال عكرمة : نزلت

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠) والترمذي في السنن (٢٥٣٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٢٥) . (٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٩٦) .

هذه الآية في شباب من قريش كانوا تكلموا بالإسلام بمكة ، منهم علي بن أمية بن خلف وأبو قيس بن الوليد ابن المغيرة وأبو منصور بن الحجاج والحارث بن زمعة . قال الضحاك : نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة ، وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب ، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين ، وهو قادر على الهجرة ، وليس متمكنًا من إقامة الدين ، فهو ظالم لنفسه ، مرتكب حرامًا بالإجماع . وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي بترك الهجرة ﴿ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ أي لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد ، ولا الذهاب في الأرض ﴿ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾ الآية .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ »[1] . وقال السدي : لمَا أُسِر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ للعباس : « افْدِ نَفْسَكَ وَابْنَ أَخِيكَ » فقال : يا رسول الله ألم نصل إلى قبلتك ، ونشهد شهادتك ؟ قال : « يَا عَبَّاسُ إِنَّكُم خَاصَمْتُمْ فَخُصِمْتُمْ » ثم تلا عليه هذه الآية ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾ الآية[2] ، وقوله : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ إلى آخر الآية ، هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة ، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق ، ولهذا قال : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ يعني طريقًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ أي يتجاوز الله عنهم بترك الهجرة ، وعسى من الله موجبة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ فعن أبي هريرة قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال : « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَه » ، ثم قال قبل أن يسجد : « اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَام ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدَ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْها سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ »[3] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ وهذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين ، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصَّن فيه . والمُراغم مصدر ، تقول العرب : راغم فلان قومه مراغمًا ومراغمة .

وقال ابن عبَّاس : المرَاغم : التحوُّل من أرض إلى أرض . وقال مجاهد : ﴿ مُرَاغَمًا كَثِيرًا ﴾ يعني مُتَزَحْزَحًا عمّا يكره ، وقال سفيان بن عيينة : يعني بروجًا . والظاهر والله أعلم أنه المانع الذي يتخلص به ويراغم به الأعداء . وقوله : ﴿ وَسَعَةً ﴾ يعني الرزق . وقوله : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي ومن يخرج من منزله بنيَّة الهجرة ، فمات في أثناء الطريق ، فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر . وعن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّه وَرَسُولِهِ ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّه وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيا يُصِيبُها ، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُها فَهِجْرَتُهُ إِلَى ما هَاجَرَ إِلَيْهِ »[4] . وهذا عامٌ في

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧٨٧) والبغوي في شرح السنة (١٠/٣٧٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٥٣). (٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٢).

(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١).

الهجرة وفي جميع الأعمال . ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ، ثم أكمل بذلك العابد المائة ، ثم سأل عالمًا هل له من توبة ؟ وقال له : ومَن يحُول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد أخرى يعبد الله فيه . فلما ارتحل من بلده مهاجرًا إلى البلد الأخرى أدركه الموت في أثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقال هؤلاء : إنه جاء تائبًا ، وقال هؤلاء : إنه لم يصل بعد ، فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيّهما كان أقرب فهو منها ، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه ، وهذه أن تبعد ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر ، فقبضته ملائكة الرحمة [١] . وعن عبد الله بن عتيك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُجَاهِدًا في سَبِيلِ اللَّه - ثُمَّ قَالَ : وَأَيْنَ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه - فَخَرَّ عَنْ دَابَّتِهِ فَمَاتَ ؛ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّه ، أَوْ لَدَغَتْهُ دَابَّةٌ فَمَاتَ ؛ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّه ، أَوْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ ؛ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّه - يَعْنِي بِحَتْفِ أَنْفِهِ عَلَى فِرَاشِهِ وَاللَّه إِنَّها لَكَلِمَةٌ مَا سَمِعْتُهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ قَبْلَ رَسُولِ اللَّه ﷺ - وَمَنْ قُتِلَ قَعْصًا ؛ فَقَدِ اسْتَوْجَبَ الْجَنَّةَ » [٢] .

وعن ضمرة بن العيص الزرقي الذي كان مصاب البصر وكان بمكة فلما نزلت ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾ فقلت : إني لغني ، وإني لذو حيلة ، فتجهّز يريد النبيَّ ﷺ فأدركه الموت بالتنعيم ، فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ ﴾ الآية . وعن أبي مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّه قَالَ : مَنِ انْتَدَبَ خَارِجًا في سَبِيلِي ، غَازِيًا ابْتِغَاءَ وَجْهِي ، وَتَصْدِيقِ وَعْدِي ، وَإِيمَانًا بِرُسُلِي فَهُوَ في ضَمَانٍ عَلَى اللَّه ، إِمَّا أَنْ يَتَوَفَّاهُ بِالْجَيْشِ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَإِمَّا أَنْ يَرْجِعَ في ضِمانِ اللَّه ، وَإِنْ طَالَبَ عَبْدًا فَنَغَصَهُ حَتَّى يَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، وَنَالَ مِنْ فَضْلِ اللَّه فَمَاتَ ، أَوْ قُتِلَ ، أَوْ رَفَصَتْهُ فَرَسُهُ ، أَوْ بَعِيرُهُ ، أَوْ لَدَغَتْهُ هَامَّةٌ ، أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ بِأَيِّ حَتْفٍ شَاءَ اللَّه ، فَهُوَ شَهِيدٌ » [٣] .

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي سافرتم في البلاد . وقوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية ، كما فهمه الجمهور من هذه الآية ، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك ، فمن قائل : لابد أن يكون سفر طاعة من جهاد ، أو حجّ ، أو عمرة ، أو طلب علم ، أو زيارة ، أو غير ذلك ؛ لظاهر قوله : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ . ومن قائل : لا يشترط سفر القربة . بل لابد أن يكون مباحًا لقوله : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ الآية . كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصيًا بسفره ، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة . ومن قائل : يكفي مطلق السفر سواء كان مباحًا أو محظورًا حتى لو خرج لقطع الطريق ، وإخافة السبيل ترخص لوجود مطلق السفر ، وهذا قول أبي حنيفة والثوري وداود لعموم الآية ، وخالفهم الجمهور .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٧٢/٣) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده(٣٠٦/٤) . (٣) أخرجه الطبراني في الكبير(٣٢٠/٣) .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية ، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة ، بل ما كانوا ينهضون إلّا إلى غزو عامٍّ ، أو في سريَّة خاصة ، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله ، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة ، فلا مفهوم له كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ .

عن يعلى بن أُمية قال : سألت عمر بن الخطاب قلت له : قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ وقد أمن الناس ، فقال لي عمر ﷺ : عجبتُ مما عجبتَ منه ، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّه بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ » (١) . وعن ابن عبّاس قال : صلَّينا مع رسول اللّه ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف بينهما ركعتين ركعتين . وعن يحيى بن أبي إسحاق قال : سمعت أنسًا يقول : خرجنا مع رسول اللّه ﷺ من المدينة إلى مكة ، فكان يصلِّي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة ، قلت : أقمتم بمكة شيئًا ؟ قال : أقمنا بها عشرًا (٢) . وعن عبد الرَّحمن بن يزيد يقول : صلى بنا عثمان بن عفّان ﷺ بمنى أربع ركعات ، فقيل في ذلك لعبد اللّه بن مسعود ﷺ فاسترجع ، ثم قال : صليت مع رسول اللّه ﷺ بمنى ركعتين ، وصليت مع أبي بكر بمنى ركعتين ، وصليت مع عمر بن الخطاب بمنى ركعتين ، فليت حظِّي من أربع ركعات ركعتان متقبَّلتان (٣) .

فهذه الأحاديث دالة صريحًا على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف ، ولهذا قال مَن قال مِن العلماء : إن المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية ، وهو قول مجاهد والضحاك والسّدي ، واعتضدوا أيضًا بما رواه الإمام مالك ، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر ، فأقرّت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر (٤) . فإذا كان أصل الصلاة في السفر هي الثنتين فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية ؟ لأن ما هو الأصل لا يقال فيه : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وأصرح من ذلك دلالة على هذا ما روي عن عمر ﷺ قال : صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الأضحى ركعتان ، وصلاة الفطر ركعتان ، وصلاة الجمعة ركعتان ، تمام غير قصر على لسان محمّد ﷺ (٥) . وعن عبد اللّه بن عباس قال : فرض اللّه الصلاة على لسان نبيِّكم محمّد ﷺ في الحضر أربعًا وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة ، فكما يصلي في الحضر قبلها وبعدها ، فكذلك يصلي في السفر (٦) . فهذا ثابت عن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، ولا ينافي ما تقدم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان ، ولكن زيد في صلاة الحضر ، فلما استقر ذلك صح أن يقال : إن فرض صلاة الحضر كما قاله ابن عبّاس واللّه أعلم . لكن اتفق حديث ابن عبّاس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان ، وأنها تامة غير مقصورة ، كما هو مصرح به في حديث عمر ﷺ .

وإذا كان كذلك فيكون المراد بقوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ قصر الكيفية كما في صلاة الخوف ، ولهذا قال : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ الآية . ولهذا قال بعدها : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الآية ، فبيَّن المقصود من القصر ههنا وذكر صفته وكيفيَّته ، ولهذا لما عقد

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/١) .
(٢) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١٠٨١) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (١٩٦٥) .
(٤) أخرجه النسائي في السنن (٢٢٥/١) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧/١) .
(٦) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٤٧) .

البخاري كتاب صلاة الخوف صدَّره بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (١) وعن الضحاك في قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ ﴾ قال : ذاك عند القتال ، يصلي الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه . وقال : إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر فهي تمام التقصير ، لا يحلّ إلّا أن يخاف الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة ، فالتقصير ركعة . وقال مجاهد : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ ﴾ يوم كان النبيّ ﷺ وأصحابه بعسفان والمشركون بضجنان فتوافقوا ، فصلّى النبيّ ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بركوعهم وسجودهم ، وقيامهم معًا جميعًا ، فهمَّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأثقالهم .

وعن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر : إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف ، ولا نجد قصر صلاة المسافر ؟ فقال عبد الله : إنا وجدنا نبيًّا ﷺ يعمل عملًا عملنا به (٢) . فقد سمَّى صلاة الخوف مقصورة ، وحمل الآية عليها لا على قصر صلاة المسافر . وأقرّه ابن عمر على ذلك ، واحتجَّ على قصر الصلاة بفعل الشارع لا بنص القرآن . وأصرح من هذا ما رواه شعبة بن سماك الحنفي قال : سألت ابن عمر عن صلاة السفر : فقال : ركعتان تمام غير قصر ، إنما القصر في صلاة المخافة ، فقلت : وما صلاة المخافة ؟ فقال : يصلي الإمام بطائفة ركعة ، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء ، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء فيصلّي بهم ركعة ، فيكون للإمام ركعتان ، ولكل طائفة ركعة ركعة .

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ .

صلاة الخوف أنواع كثيرة ، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة ، وتارة يكون في غير صوبها . والصلاة تارة تكون رباعية ، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب ، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر ، ثم تارة يصلون جماعة ، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة ، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ورجالًا وركبانًا ، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة . ومن العلماء من قال : يصلون والحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عبّاس المتقدم ، وبه قال أحمد بن حنبل قال المنذري في الحواشي : وبه قال عطاء وجابر والحسن ومجاهد والحكم وقتادة وحماد ، وإليه ذهب طاوس والضحاك . وقد حكي عن محمّد بن نصر المروزي ، أنه يرى ردَّ الصبح إلى ركعة في الخوف ، وإليه ذهب ابن حزم أيضًا . وقال إسحاق بن راهويه : أما عند المسايفة فيجزيك ركعة واحدة تومئ بها إيماء ، فإن لم تقدر فسجدة واحدة لأنها ذكر الله . وقال آخرون : يكفي تكبيرة واحدة فلعله أراد ركعة واحدة ، كما قاله الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه . وبه قال جابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وكعب وغير واحد من الصحابة ، والسدي ، ورواه ابن جرير ، ولكن الذي حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة كما هو مذهب إسحاق بن راهويه ، وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بخت

---

(١) صحيح البخاري (كتاب صلاة الخوف) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٣٦/٣) .

المكي حتى قال : فإن لم يقدر على التكبير ، فلا يتركها في نفسه يعني بالنية .

ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة كما أخّر النبيّ ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر ، فصلاهما بعد الغروب ، ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء ، وكما قال بعدها يوم بني قريظة حين جهز إليهم الجيش : « لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ العَصْرَ إِلاَّ في بَنِي قُرَيْظَةَ » فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق ، فقال منهم قائلون : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلَّا تعجيل المسير ، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق . وأخّر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب ، ولم يعنّف رسول الله ﷺ أحدًا من الفريقين [١] . وقد تكلمنا على هذا في كتاب السيرة ، وبيّنّا أن الذين صلُّوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمر ، وإن كان الآخرون معذورين أيضًا ، والحجة ههنا في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد من الطائفة الملعونة اليهود ، وأما الجمهور فقالوا : هذا كله منسوخ بصلاة الخوف ، فإنها لم تكن نزلت بعد ، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك . قال الأوزاعي : إن كان تهيَّأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلُّوا إيماء كل امرئ لنفسه ، فإن لم يقدروا على الإيماء أخَّروا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين ، فإن لم يقدروا صلُّوا ركعة وسجدتين ، فإن لم يقدروا فلا يجزيهم التكبير ، ويؤخرونها حتى يأمنوا . وبه قال مكحول ، وقال أنس بن مالك : حضرت عند مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر ، واشتد اشتعال القتال فلم يقدروا على الصلاة ، فلم نصل إلَّا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبي موسى ففتح لنا ، قال أنس : وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها . انتهى ما ذكره ، ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب ، ثم بحديث أمره إياهم أن لا يصلوا العصر إلَّا في بني قريظة وكأنه كالمختار لذلك والله أعلم . ولمن جنح إلى ذلك له أن يحتج بصنيع أبي موسى وأصحابه يوم فتح تستر فإنه يشتهر غالبًا ، ولكن كان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب ، ولم ينقل أنه أنكر عليهم ، ولا أحد من الصحابة والله أعلم . قال هؤلاء : وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق ؛ لأن غزوة ذات الرقاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السِّيَر والمغازي ، وممَّن نصَّ على ذلك محمّد بن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدي ومحمّد بن سعد كاتبه وخليفة بن الخياط وغيرهم . وقال البخاري وغيره : كانت ذات الرقاع بعد الخندق لحديث أبي موسى وما قدم إلَّا في خيبر [٢] والله أعلم . والعجب كل العجب أن المزني وأبا يوسف القاضي وإبراهيم بن إسماعيل بن علية ذهبوا إلى أن صلاة الخوف منسوخة بتأخيره عليه الصلاة والسلام الصلاة يوم الخندق ، وهذا غريب جدًّا ، وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف ، وحمل تأخير الصلاة يومئذ على ما قاله مكحول والأوزاعي أقوى وأقرب ، والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي إذا صليت بهم إمامًا في صلاة الخوف ، وهذه حالة غير الأولى ، فإن تلك قصرها إلى ركعة - كما دل عليه الحديث - فرادى ورجالًا وركبانًا ، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد ، وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة ، فلولا أنها واجبة ما ساغ

(١) أخرجه البخاري في صلاة الخوف (٩٤٦) .
(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب (٣٢) .

ذلك . وأما من استدل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبيِّ ﷺ لقوله : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ ﴾ فبعده تفوت هذه الصفة فإنه استدلال ضعيف ، ويرد عليه مثل قول مانعي الزكاة الذين احتجوا بقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ قالوا : فنحن لا ندفع زكاتنا بعده ﷺ إلى أحد ، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه ، ولا ندفعها إلَّا إلى من صلاته - أي دعاؤه سكن لنا - ومع هذا ردَّ عليهم الصحابة وأبوا عليهم هذا الاستدلال ، وأجبروهم على أداء الزكاة ، وقاتلوا من منعها منهم .

ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولًا قبل ذكر صفتها : عن أبي عياش الزرقي قال : كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان ، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة ، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر ، فقالوا : لقد كانوا على حال لو أصبنا غرّتهم ، ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم ، قال : فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ قال : فحضرت ، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح قال : فصففنا خلفه صفَّين قال : ثم ركع فركعنا جميعًا ، ثم رفع فرفعنا جميعًا ، ثم سجد النبيّ ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما سجدوا وقاموا . جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم ركع فركعوا جميعًا ثم رفع فرفعوا جميعًا ، ثم سجد النبيّ ﷺ والصفُّ الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا ، ثم سلم عليهم ، ثم انصرف . قال : فصلَّاها رسول الله ﷺ مرّتين ؛ مرة بعسفان ، ومرة بأرض بني سليم (١) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة ، فجاء رجل منهم يقال له : غورث بن الحارث حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ قال : « الله » فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ فقال : « وَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ » قال : كن خير آخذ ، قال : « أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ » قال : لا ، ولكن أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلَّى سبيله ، فقال : جئتكم من عند خير الناس ، فلما حضرت الصلاة صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف ، فكان الناس طائفتين ، طائفة بإزاء العدو ، وطائفة صلوا مع رسول الله ﷺ فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين وانصرفوا ، فكانوا مكان الطائفة الذين كانوا بإزاء العدو ، ثم انصرف الذين كانوا بإزاء العدو فصلوا مع رسول الله ﷺ ركعتين ، فكان لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتين ركعتين (٢) . وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف ، فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية ، وهو أحد قولَي الشافعي ، ويدل عليه قول الله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾ أي بحيث تكونوا على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٣٦) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٣٦) .

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف ، وإن كان مشروعًا مرغَّبًا فيه أيضًا بعد غيرها ، ولكن ها هنا آكد ، لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب ، وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها ، كما قال تعالى في الأشهر الحرام : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ وإن كان هذا منهيًا عنه في غيرها ، ولكن فيها آكد لشدَّة حرمتها وعظمها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ أي في سائر أحوالكم . ثم قال تعالى : ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ أي فإذا أمنتم ، وذهب الخوف ، وحصلت الطمأنينة ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ أي فأتموها وأقيموها ، كما أُمرتم بحدودها ، وخشوعها ، وركوعها ، وسجودها ، وجميع شؤونها . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ قال ابن عبّاس : أي مفروضًا ، وقال أيضًا : إن للصلاة وقتًا كوقت الحج . وقال ابن مسعود : إن للصلاة وقتًا كوقت الحج . وقال زيد بن أسلم : ﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ قال : منجّمًا ؛ كلما مضى نجم جاء نجم ، يعني كلما مضى وقت جاء وقت . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم ، بل جدُّوا فيهم ، وقاتلوهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ أي كما يصيبكم الجراح والقتل ، كذلك يحصل لهم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ أي أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم ، من الجراح والآلام ، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد ، كما وعدكم إياه في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، وهو وعد حق ، وخبر صدق ، وهم لا يرجون شيئًا من ذلك ، فأنتم أولى بالجهاد منهم ، وأشدُّ رغبة فيه ، وفي إقامة كلمة الله وإعلائها ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي هو أعلم وأحكم فيما يقدِّره ويقضيه وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية والشرعية ، وهو المحمود على كل حال .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا لرسول الله محمّد ﷺ : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ ﴾ أي هو حقٌّ من الله ، وهو يتضمن الحقَّ في خبره وطلبه . وقوله : ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ اللَّهُ ﴾ احتجَّ به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية ، وبما ثبت عن أم سلمة قالت : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درست ليس عندهما بيّنة ، فقال : رسول الله ﷺ : « إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بها انْتِظَامًا فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » : فبكى الرجلان وقال كلٌّ منهما : حقِّي لأخي ، فقال رسول الله ﷺ : « أَمَّا إِذَا قُلْتُمَا فَاذْهَبَا فَاقْتَسِمَا ، ثُمَّ تَوَخَّيَا الْحَقَّ بَيْنَكُمَا ، ثُمَّ اسْتَهِمَا ، ثُمَّ لِيُحْلِلْ كُلٌّ مِنْكُما صَاحِبَهُ » [1] .

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠) ومسلم في الأقضية (٤) .

وعن قتادة بن النعمان ﷺ قال : كان أهل بيت منا يقال لهم : بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر ، وكان بشير رجلًا منافقًا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم ينحله لبعض العرب ، ثم يقول : قال فلان : كذا وكذا ، وقال فلان : كذا وكذا ، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا : والله ما يقول هذا الشعر إلَّا هذا الرجل الخبيث ، أو كما قال الرجل ، وقالوا : ابن الأبيرق قالها ، قالوا : وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام ، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار ، فقدمت ضافطة من الشام من الدرمك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملًا من الدرمك فجعله في مشربة له ، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف ، فعُدي عليه من تحت البيت ، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح . فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال : يا ابن أخي إنه قد عُدي علينا في ليلتنا هذه ، فنُقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا ، قال : فتحسَّسنا في الدار وسألنا فقيل لنا : قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ، ولا نرى فيما نرى إلَّا على بعض طعامكم . قال : وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار - والله ما نرى صاحبكم إلَّا لبيد بن سهل ؛ رجلًا منا له صلاح وإسلام ، فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال : أنا أسرق ؟! والله ليخالطنَّكم هذا السيف ، أو لتبينن هذه السرقة !!! قالوا : إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها ، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها ، فقال لي عمي : يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، قال قتادة : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمِّي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه ، فليردوا علينا سلاحنا ، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه ، فقال النبيّ ﷺ : « سَآمُرُ فِي ذَلِكَ » فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلًا منهم يقال له : أسيد بن عروة فكلَّموه في ذلك ، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا : يا رسول الله : إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت ، قال قتادة : فأتيت النبي ﷺ فكلمته فقال : « عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلَاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبْتٍ وَلَا بَيِّنَةٍ » قال : فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك ، فأتاني عمي رفاعة فقال : يا ابن أخي ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال : الله المستعان ، فلم نلبث أن نزل القرآن ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ يعني بني أبيرق ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ ﴾ أي مما قلت لقتادة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ ﴾ إلى قوله : ﴿ رَّحِيمًا ﴾ أي لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ . قوله للبيد : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فلما نزل القرآن أتي رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة ، فقال قتادة : لما أتيت عمي بالسلاح ، وكان شيخًا قد عمي أو عشي - الشك من أبي عيسى في الجاهلية - وكنت أرى إسلامه مدخولًا ، فلما أتيته بالسلاح قال : يا ابن أخي هي في سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه كان صحيحًا ، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين ، فنزل على سلافة

بنت سعد بن سمية ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ فلما نزل على سلافة بنت سعد هجاها حسان بن ثابت بأبيات من شعر ، فأخذت رحله فوضعته على رأسها ، ثم خرجت به فرمته في الأبطح ، ثم قالت : أهديت لي شعر حسان ؟! ما كنت تأتيني بخير [١] .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ الآية ، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم ، ويجاهرون الله بها مع أنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم ، ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ تهديد لهم ووعيد ، ثم قال تعالى : ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الآية ، أي هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدي لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر ، وهم متعبدون بذلك ، فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ يوم القيامة في ترويج دعواهم ؟ أي لا أحد يومئذ يكون لهم وكيلًا ، ولهذا قال : ﴿ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان . فقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ عن ابن عبّاس : أنه قال في هذه الآية : أخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه ، وسعة رحمته ، ومغفرته ، فمن أذنب ذنبًا ، صغيرًا كان أو كبيرًا ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال . وقال عبد الله : كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنبًا ، أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه ، وإذا أصاب البول منه شيئًا قرضه بالمقراض ، فقال رجل : لقد آتى الله بني إسرائيل خيرًا ، فقال عبد الله ﷺ : ما آتاكم الله خير مما آتاهم ، جعل الماء لكم طهورًا ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ وقال : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ . عن حبيب بن أبي ثابت قال : جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل فسألته عن امرأة فجرت فحبلت ، فلما ولدت قتلت ولدها ، قال عبد الله بن مغفل : لها النار ، فانصرفت وهي تبكي ، فدعاها ، ثم قال : ما أرى أمرك إلّا أحد أمرين ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ قال : فمسحت عينها ثم مضت . قال علي ﷺ : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا نفعني الله فيه بما شاء أن ينفعني منه . وحدّثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ لِذَلِكَ الذَّنْبِ ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ » وقرأ هاتين الآيتين ﴿ وَمَن يَعْمَلْ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٣٦) .

﴿ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ﴾ الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ الآية [1] .

وقوله : ﴿ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ ﴾ الآية ، يعني أنه لا يغني أحد عن أحد ، وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ أي من علمه وحكمته ، وعدله ورحمته كان ذلك . ثم قال : ﴿ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا ﴾ الآية ، يعني كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح وهو لبيد بن سهل كما تقدم في الحديث ، أو زيد بن السمين اليهودي على ما قاله الآخرون ، وقد كان بريئًا وهم الظلمة الخونة ، كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ ، ثم هذا التقريع ، وهذا التوبيخ عامٌّ فيهم وفي غيرهم ممن اتَّصف بصفتهم فارتكب مثل خطيئتهم ، فعليه مثل عقوبتهم . وقوله : ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ وعن قتادة بن النعمان ، وذكر قصة بني أبيرق فأنزل الله ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ يعني أسيد بن عروة وأصحابه ، يعني بذلك لما أثنوا على بني أبيرق ، ولاموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء ، ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاءها لرسول الله ﷺ ، ثم امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال ، وعصمته له ، وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن والحكمة ، وهي السنّة ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ ﴾ أي قبل نزول ذلك عليك ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾ .

﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ ﴾ يعني كلام الناس ﴿ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ أي إلَّا نجوى من قال ذلك ، وعن محمّد بن يزيد بن حنيش قال : دخلنا على سفيان الثوري نعوده ، فدخل علينا سعد بن حسان ، فقال له الثوري : الحديث الذي كنت حدثتنيه عن أم صالح ردِّده عليَّ فقال : حدَّثتني أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ : « كَلامُ ابْنِ آدَمَ كُلُّهُ عَلَيْهِ لا لَهُ ، إِلَّا ذِكرَ اللَّه ﷻ ، أَوْ أَمر بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ نَهْي عَنْ مُنْكَرٍ » فقال سفيان : أو ما سمعت الله في كتابه يقول : ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ فهو هذا بعينه ، أو ما سمعت الله يقول : ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴾ فهو هذا بعينه ، أو ما سمعت الله يقول في كتابه : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾ إلخ فهو هذا بعينه [2] . وعن أمِّ كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا ، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا » وقالت : لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلَّا في ثلاث : في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها . قال : وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ [3] . وعن أم الدرداء قالت : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨/١) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤١٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٢) ومسلم في البر والصلة (١٠١) .

بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ ، وَالصَّلاةِ ، وَالصَّدَقَةِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « إِصْلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ » قال : « وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ »[1] . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ أي مخلصًا في ذلك ، محتسبًا ثواب ذلك عند الله ﷻ ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ثوابًا جزيلًا كثيرًا واسعًا .

وقوله : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شقٍّ ، والشرع في شقٍّ ، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحقُّ وتبيَّن له واتضح له ، وقوله : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى ، ولكن قد تكون المخالفة لنصِّ الشارع ، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقًا ، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفًا لهم وتعظيمًا لنبيِّهم ، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك قد ذكرنا منها طرفًا صالحًا في كتاب أحاديث الأصول ، ومن العلماء من ادَّعى تواتر معناها ، والذي عوَّل عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرِّم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروِّي والفكر الطويل ، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها ، وكان بعضهم قد استشكل ذلك ، فاستبعد الدلالة منها على ذلك ، ولهذا توعَّد تعالى على ذلك بقوله : ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ، ونزيِّنها له استدراجًا له كما قال تعالى : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وجعل النار مصيره في الآخرة ، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلَّا إلى النار يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ الآية .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ .

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة وهي قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ الآية . وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة . عن علي رضي الله عنه أنه قال : ما في القرآن آية أحب إليّ من هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ أي فقد سلك غير الطريق الحق ، وضل عن الهدى ، وبعد عن الصواب ، وأهلك نفسه ، وخسرها في الدنيا والآخرة ، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة . وقوله : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ وعن عائشة ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ قالت : أوثانًا . وعن الضحاك في الآية : قال المشركون للملائكة : بنات الله ، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، قال : فاتخذوهن أربابًا وصوروهن جواري فحكموا وقلدوا ، وقالوا : هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده يعنون الملائكة ، وهذا التفسير شبيه بقول الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ الآيات . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن(٢٥٠٩) وأحمد في مسنده(٦/٤٤٤) .

ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ ﴾ الآية . وقال : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبًاۚ ﴾ الآيتين . وعن ابن عبّاس ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ قال : يعني موتى . وقال الحسن : الإناث كل شيء ميت ليس فيه روح ، إما خشبة يابسة ، وإما حجر يابس . وقوله : ﴿ وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك وحسَّنه وزيَّنه لهم ، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر كما قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ ﴾ الآية . وقال تعالى إخبارًا عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادَّعوا عبادتهم في الدنيا : ﴿ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ ﴾ أي طرده وأبعده من رحمته ، وأخرجه من جواره ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا ﴾ أي معيَّنًا مقدَّرًا معلومًا . قال قتادة : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة . ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ ﴾ أي عن الحق ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ ﴾ أي أزين لهم ترك التوبة ، وأعدهم الأماني ، وآمرهم بالتسويف والتأخير ، وأغرهم من أنفسهم . قوله : ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ : يعني تشقيقها وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ ﴾ . قال ابن عبَّاس : يعني بذلك خصي الدواب . وقد ورد في حديث النهي عن ذلك ، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري : يعني بذلك الوشم ، وفي صحيح مسلم : النهي عن الوشم في الوجه (١) ، وفي لفظ : لعن اللَّه من فعل ذلك (٢) ، وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : لعن اللَّه الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتنمصات ، والمتفلِّجات للحسن المغيرات خلق اللَّه ﷻ . ثم قال : ألا ألعن من لعن رسول اللَّه ﷺ وهو في كتاب اللَّه ﷻ يعني قوله : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ (٣) . وقال ابن عبَّاس في رواية عنه ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي والحسن وغيرهم في قوله : ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ ﴾ : يعني دين اللَّه ﷻ ، وهذا كقوله : ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ﴾ على قول من جعل ذلك أمرًا ، أي لا تبدلوا فطرة اللَّه ودعوا الناس على فطرتهم ، كما ثبت عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كما تَلِدُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تَجِدُونَ بِها مِنْ جَدْعَاءَ ؟! » (٤) . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانًا مُّبِينًا ﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة ، وتلك خسارة لا جبر لها ، ولا استدراك لفائتها .

وقوله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وهذا إخبار عن الواقع ، فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنِّيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة ، وقد كذب وافترى في ذلك ، ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ كما قال تعالى مخبرًا عن إبليس يوم المعاد : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي المستحسنون له فيما وعدهم ومنَّاهم ﴿ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ ﴾ أي مصيرهم

---

(١) أخرجه مسلم في اللباس (١٠٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢٩٧) والحاكم في المستدرك (٤/٢٩٠) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣١) ومسلم في اللباس (١٢٠) .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) وأبو داود في السنن (٤٧١٤) .

ومآلهم يوم القيامة ﴿ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ أي ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف ، ولا خلاص ، ولا مناص . ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء وما لهم من الكرامة التامة فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي صدقت قلوبهم ، وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات ، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ﴾ أي يصرفونها حيث شاؤوا وأين شاءوا ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي بلا زوال ولا انتقال ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ أي هذا وعد من الله ، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة ، ولهذا أكَّده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر ، وهو قوله : ﴿ حَقًّا ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ أي لا أحد أصدق منه قولًا أي خبرًا ، لا إله إلَّا هو ، ولا ربَّ سواه ، وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته : «إِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كَلَامُ اللَّه ، وَخَيْرُ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ » (١) .

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ .

قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبيُّنا قبل نبيِّكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، ونبيُّنا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله ؛ فأنزل الله ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ الآية . ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان . وقال مجاهد : قالت العرب : لن نبعث ولن نعذَّب ، وقالت اليهود والنصارى : ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ وقالوا : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ والمعنى في هذه الآية : أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال ، وليس كلُّ من ادَّعى شيئًا حصل له بمجرد دعواه ، ولا كلُّ من قال : إنه هو على الحقِّ سُمع قوله بمجرد ذلك ، حتى يكون له من الله برهان . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرَّد التمنِّي ، بل العبرة بطاعة الله سبحانه ، واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام ، ولهذا قال بعده : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ .

وقد روي أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة ، فعن أبي بكر بن أبي زهير قال : أخبرت أن أبا بكر ﷺ قال : يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ فكلُّ سوء عملناه جزينا به ؟ فقال النبيّ ﷺ : « غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَسْتَ تَمْرَضُ ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ ، أَلَسْتَ تَحْزَنُ ، أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللأْوَاءُ ؟! » قال : بلى ، قال : « فَهُوَ مِمَّا تُجْزَوْنَ بِهِ » (٢) . قال عبد الله بن عمر : انظروا المكان الذي فيه عبد الله بن الزبير مصلوبًا ،

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٣/١٨٨) وأحمد في مسنده (٣/٣١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/١١) والحاكم في المستدرك (٣/٧٤) .

فلا تمرّن عليه ، قال : فسها الغلام فإذا عبد الله بن عمر ينظر إلى ابن الزبير ، فقال : يغفر الله لك ثلاثًا ، أما والله ما علمتك إلّا صوّامًا قوّامًا وصّالًا للرحم ، أما والله إني لأرجو مع مساوئ ما أصبت أن لا يعذبك الله بعدها ، قال : ثم التفت إليّ فقال : سمعت أبا بكر الصديق يقول : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا فِي الدُّنْيَا يُجزَ بِهِ » (١) . وعن ابن عمر يحدث عن أبي بكر الصديق قال : كنت عند النبيّ ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « يا أَبَا بَكْرٍ أَلا أُقرِئُكَ آيَةً أُنْزِلَتْ عَلَيَّ ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، قال : فأقرأنيها فلا أعلم أني قد وجدت انفصامًا في ظهري حتى تمطّيت لها ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ » قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأيّنا لم يعمل السوء ؟ وإنا لمجزيّون بكل سوء عملناه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أَمَّا أَنْتَ يا أَبَا بَكْرٍ وَأَصْحَابُكَ الْمُؤْمِنُونَ : فَإِنَّكُمْ تُجْزَوْنَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيا حَتَّى تَلْقَوا اللهَ لَيْسَ لَكُمْ ذُنُوبٌ ، وَأَمَّا الآخَرُونَ : فَيُجْمَعُ ذَلِكَ لَهُمْ حَتَّى يُجْزَوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) .

وعن علي بن زيد عن ابنته أنها سألت عائشة عن هذه الآية ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ فقالت : ما سألني أحد عن هذه الآية منذ سألت عنها رسول الله ﷺ ، سألت رسول الله ﷺ فقال : « يا عَائِشَةُ هَذِهِ مُبَايَعَةُ اللهِ لِلْعَبْدِ مِمَّا يُصِيبُهُ مِنَ الحُمَّى وَالنَّكْبَةِ وَالشَّوْكَةِ ، حَتَّى البِضَاعَة ، فَيَضَعُها في كُمِّهِ فَيَفْزَعُ لَهَا فَيَجِدُها في جَيْبِهِ ، حَتَّى إِنَّ المُؤْمِنَ لَيَخْرُجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَمَا أَنَّ الذَّهَبَ يَخْرُجُ مِنَ الكِيرِ » (٣) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : لما نزلت ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ شقّ ذلك على المسلمين ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « سَدِّدُوا وَقَارِبُوا ، فَإِنَّ فِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ المُسْلِمُ كَفَّارَةٌ ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُها وَالنَّكْبَةُ يُنْكَبُها » (٤) . وعن أبي سعيد وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول : « مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ سَقَمٍ وَلاَ حَزَنٍ حَتَّى الهَمِّ يُهِمُّهُ إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بها مِنْ سَيِّئَاتِهِ » (٥) .

وعن الحسن ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ قال : الكافر ثم قرأ : ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ . وروي عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير أنهما فسرا السُّوء ههنا بالشِّرك أيضًا . وقوله : ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ قال ابن عبّاس : إلّا أن يتوب فيتوب الله عليه . والصحيح أن ذلك عامٌّ في جميع الأعمال لما تقدّم من الأحاديث ، وهذا اختيار ابن جرير والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الآية ، لمّا ذكر الجزاء على السيّئات وأنه لابد أن يأخذ حقّها من العبد إما في الدنيا وهو الأجود له ، وإمّا في الآخرة والعياذ بالله من ذلك ، ونسأله العافية في الدنيا والآخرة ، والصفح والعفو والمسامحة ، شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكرانهم وإناثهم بشرط الإيمان ، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير ، وهو النقرة التي تظهر في ظهر نواة التمرة . وقد تقدم الكلام على الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٦/١) والحاكم في المستدرك (٧٥٣/٣) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٣٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٩٥/٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٨/٢) والترمذي في السنن (٢١٤١) ومسلم في صفات المنافقين (٧٨) .
(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٢) والبخاري في المرض (٥٦٤١) وأحمد في مسنده (١٨٠/٣) .

وهذا النقير ، وهما في نواة التمرة ، والقطمير وهو اللفافة التي على نواة التمرة ، والثلاثة في القرآن .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ أي أخلص العمل لربه ﷻ ، فعمل إيمانًا واحتسابًا ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له ، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحقّ . وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما ، أي يكون خالصًا صوابًا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون متابعًا للشريعة ، فيصحُّ ظاهره بالمتابعة ، وباطنه بالإخلاص ، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد ، فمن فقد الإخلاص كان منافقًا ، وهم الذين يراءون الناس ، ومن فقد المتابعة كان ضالًا جاهلًا ، ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ وهم محمّد وأتباعه إلى يوم القيامة . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ الآية . والحنيف هو المائل عن الشِّرك قصدًا ، أي تاركٌ له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكليّته ، لا يصده عنه صادٌّ ، ولا يردُّه عنه راد .

وقوله : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه ؛ لأنه إمام يقتدى به ، حيث وصل إلى غاية ما يتقرّب به العباد له ، فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة ، وما ذاك إلّا لكثرة طاعته لربّه ، كما وصفه به في قوله : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ . قال كثير من علماء السلف : أي قام بجميع ما أمر به ، ووفّى كل مقام من مقامات العبادة ، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير ، ولا كبير عن صغير ، وإنما سمّي خليل الله لشدّة محبّته لربّه ﷻ ، لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها . ولهذا روي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال : « أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ : فَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا ، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ »[(١)] . وعن ابن عبّاس قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج ، حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم ، وإذا بعضهم يقول : عجب إن الله اتخذ من خلقه خليلًا فإبراهيم خليله ، وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلّم موسى تكليمًا ، وقال آخر : فعيسى روح الله وكلمته ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم فسلّم وقال : « قَدْ سَمِعْتُ كَلامَكُمْ وَتَعَجُّبَكُمْ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ ، وَمُوسَى كَلِيمُهُ ، وَعِيسَى رُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ ، وَآدَمَ اصْطَفَاهُ اللَّه ، وَهُوَ كَذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ : أَلاَ وَإِنِّي حَبِيبُ اللَّهِ ولا فَخر ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ ولا فخر ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حَلَقَةَ الجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللَّه وَيُدْخِلُنِيها وَمَعِي فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ ولا فَخر ، وَأَنا أَكرمُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ ولا فَخر»[(٢)] .

وعن إسحاق بن يسار قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلًا ألقى في قلبه الوجل ، حتى إن خفقان قلبه ليسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير في الهواء ، وهكذا جاء في صفة رسول الله ﷺ ، أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل إذا اشتد غليانها من البكاء[(٣)] .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وخلقه ، وهو المتصرّف في

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٥٦) ومسلم في فضائل الصحابة (٢ - ٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٦١٦) والدارمي في السنن (٢٦/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/٤) ، والنسائي في السنن (١٣/٣) .

جميع ذلك ، لا رادَّ لما قضى ، ولا معقب لما حكم ، ولا يسأل عما يفعل ، لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته . وقوله : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك ، لا تخفى عليه خافية من عباده ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ، ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر ، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين وما توارى .

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ .

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ قالت عائشة : هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليُّها ووارثها فأشركته في ماله حتى في العذق ، فيرغب أن ينكحها ، ويكره أن يزوِّجها رجلًا فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها ، فنزلت هذه الآية [(١)] . وعنها أيضًا قالت : وقول اللّه ﷻ : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلَّا بالقسط من أجل رغبتهم عنهنَّ [(٢)] . والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحلُّ له تزويجها ، فتارة يرغب في أن يتزوجها فأمره اللّه أن يمهرها أسوة بأمثالها من النساء ، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء فقد وسع اللّه ﷻ ، وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة ، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر ، فنهاه اللّه ﷻ أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها . وقال في قوله : ﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات ، وذلك قوله : ﴿ لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ فنهى اللّه عن ذلك ، وبين لكل ذي سهم سهمه ، فقال : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ صغيرًا أو كبيرًا ، وقال سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها ، كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فانكحها واستأثر بها . وقوله : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ تهييجًا على فعل الخيرات ، وامتثالًا للأوامر ، وأن اللّه ﷻ عالم بجميع ذلك وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمَّه .

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا ومشرعًا من حال الزوجين : تارة في حال نفور الرجل عن المرأة ، وتارة في حال اتفاقه معها ، وتارة في حال فراقه لها . فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها ، فلها أن تسقط عنه حقَّها أو بعضه ، من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه ، وله أن يقبل ذلك منها فلا حرج عليها في بذلها ذلك له ، ولا عليه في قبوله منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٠) . (٢) أخرجه مسلم في التفسير (٦) .

جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ ثم قال : ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ أي من الفراق . وقوله : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق ، ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها ، فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة ، فقبل ذلك منها وأبقاها على ذلك .

عن ابن عبّاس قال : خشيت سودة أن يطلّقها رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله لا تطلّقني واجعل يومي لعائشة ، ففعل ، ونزلت هذه الآية ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ ﴾ الآية . قال ابن عبّاس : فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز [(١)] . وعن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت له : يا ابن أختي : كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا ، وكان قلَّ يوم إلَّا وهو يطوف علينا ، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها ، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنَّت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ : يا رسول الله يومي هذا لعائشة ، فقبل ذلك رسول الله ﷺ ، قالت عائشة : ففي ذلك أنزل الله : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ [(٢)] .

وعن ابن سيرين قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فسأله عن آية فكرهه فضربه بالدرَّة ، فسأله آخر عن هذه الآية ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ ثم قال : مثل هذا فاسألوا ، ثم قال : هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنِّها ، فيتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها ، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز . وعن خالد بن عرعرة قال : جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فسأله عن قول الله ﷻ : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ ﴾ قال عليٌّ : يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه عنها من دمامتها ، أو كبرها ، أو سوء خلقها ، أو قذذها ؛ فتكره فراقه ، فإن وضعت له من مهرها شيئًا حل له ، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج [(٣)] . وكذا فسرها ابن عبّاس وعبيدة السلماني ومجاهد ابن جبير والشعبي ، وسعيد بن جبير وعطاء ، وعطية العوفي ومكحول والحسن والحكم بن عتبة وقتادة وغير واحد من السلف والأئمة ، ولا أعلم في ذلك خلافًا أن المراد بهذه الآية هذا ، والله أعلم .

وقال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار إن السنّة في هاتين الآيتين اللتين ذكر الله فيهما نشوز الرجل وإعراضه عن امرأته في قوله : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ إلى تمام الآيتين ، أن المرء إذا نشز عن امرأته وآثر عليها ، فإن من الحق أن يعرض عليها أن يطلقها أو تستقر عنده على ما كانت من أثرة في القسم من ماله ونفسه ، صلح له ذلك ، وكان صلحها عليه ، كذلك ذكر سعيد بن المسيب وسليمان الصلح الذي قال الله ﷻ : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ وقد ذكر لي أن رافع بن خديج الأنصاري - وكان من أصحاب النبيّ ﷺ - كانت عنده امرأة حتى إذا كبرت تزوج عليها فتاة شابة وآثر عليها الشابة ، فناشدته الطلاق ، فطلقها تطليقة ثم أمهلها ، حتى إذا كادت تحل راجعها ، ثم عاد فآثر عليها الشابة ، فناشدته الطلاق فقال لها : ما شئتِ إنما بقيت لك تطليقة واحدة ، فإن شئتِ استقررت على ما ترين من الأثرة ، وإن شئتِ فارقتك ؟ فقالت : لا بل أستقر على الأثرة فأمسكها على ذلك ، فكان ذلك صلحهما ، ولم ير رافع عليه إثمًا حين رضيت أن تستقر عنده على الأثرة فيما آثر به عليها .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٤٠) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٣٥) والحاكم في المستدرك (١٨٩/٢) .
(٣) تفسير الطبري (٤١٣/٥ ، ٤١٤) .

وقوله : ﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني التخيير أن يخير الزوج لها بين الإقامة والفراق ، خير من تمادي الزوج على أثرة غيرها عليها ، والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقّها للزوج ، وقبول الزوج ذلك ، خير من المفارقة بالكلية ، كما أمسك النبيّ ﷺ سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة رضي الله عنها ولم يفارقها ، بل تركها من جملة نسائه ، وفعله ذلك لتتأسّى به أمّته في مشروعية ذلك وجوازه ، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام ، ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال : ﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ ﴾ بل الطلاق بغيض إليه ﷺ ، ولهذا جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أَبْغَضُ الحَلاَلِ إِلَى اللَّهِ الطَّلاَقُ » (١) . وقوله : ﴿ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، وتقسموا لهن أسوة أمثالهن ، فإن اللّه عالم بذلك ، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ ﴾ أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه ، فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة ، فلابد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع ، وعن ابن أبي مليكة قال : نزلت هذه الآية ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ ﴾ في عائشة ، يعني أن النبيّ ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها ، كما جاء في الحديث ؛ فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ ، فَلاَ تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ » يعني القلب (٢) . وقوله : ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ ﴾ أي فإذا ملتم إلى واحدة منهنّ فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ ﴾ أي فتبقى هذه الأخرى معلقة . قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن والضحاك والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وآخرون : معناه : لا ذات زوج ولا مطلقة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فمال إِلَى إِحْدَاهُمَا ؛ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَّيْهِ سَاقِطٌ » (٣) . وقوله : ﴿ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ أي وإن أصلحتم في أموركم ، وقسمتم بالعدل فيما تملكون ، واتقيتم اللّه في جميع الأحوال ؛ غفر اللّه لكم ما كان في ميل إلى بعض النساء دون بعض . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴾ وهذه هي الحالة الثالثة ، وهي حالة الفراق ، وقد أخبر اللّه تعالى أنهما إذا تفرّقا فإن اللّه يغنيه عنها ويغنيها عنه ، بأن يعوّضه اللّه من هو خير له منها ، ويعوضها عنه بما هو خير لها منه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴾ أي واسع الفضل ، عظيم المنّ ، حكيمًا في جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ۝ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ۝ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه الحاكم فيهما ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢١٠٨) وأبو داود في السنن (٢١٧٨) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١١٤٠) وأبو داود في السنن (٢١٣٤) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٣٣) والدارمي في السنن (١٤٣/٢) .

مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ ﴾ أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله ﷻ بعبادته وحده لا شريك له ، ثم قال : ﴿ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ الآية .كما قال تعالى إخبارًا عن موسى أنه قال لقومه : ﴿ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وقال : ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴾ أي غنيٌّ عن عباده ﴿ حَمِيدٗا ﴾ أي محمود في جميع ما يقدِّره ويشرعه . وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي هو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب الشهيد على كل شيء . وقوله : ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ﴾ أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه ، قال بعض السلف : ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره ، وقال تعالى : ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴾ أي وما هو عليه بممتنع .

وقوله : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ أي يا من ليس له همة إلَّا الدنيا ، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك ، وقد زعم ابن جرير أن المعنى في هذه الآية ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي من المنافقين الذين أظهروا الإيمان لأجل ذلك ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ وهو ما حصل لهم من المغانم وغيرها مع المسلمين . وقوله : ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ أي وعند الله ثواب الآخرة وهو ما ادَّخره لهم من العقوبة في نار جهنم ، ولا شك أن هذه الآية معناها ظاهر ، وأما تفسيره الآية الأولى بهذا ففيه نظر ، فإن قوله : ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ ظاهر في حصول الخير في الدنيا والآخرة ، أي بيده هذا وهذا ، فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط ، بل لتكن همَّته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضرُّ والنفع ، وهو الله لا إله إلَّا هو ، الذي قد قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة ، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممَّن يستحقُّ هذا وممن يستحق هذا . ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يمينًا ولا شمالاً ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه . وقوله : ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ كما قال : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ﴾ أي أدُّوها ابتغاء وجه الله ، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقًّا ، خالية من التحريف والتبديل والكتمان ، ولهذا قال : ﴿ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ أي اشهد الحق ولو عاد ضررها عليك ، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحقَّ فيه ولو عادت مضرَّته عليك ، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجًا ومخرجًا من كل أمر يضيق عليه . وقوله : ﴿ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ ﴾ أي وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها ، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم ، فإن الحق حاكم على كل أحد وقوله : ﴿ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ ﴾ أي لا ترعاه لغناه ، ولا تشفق عليه لفقره ، الله يتولاهما ، بل هو أولى بهما منك . وأعلم بما فيه صلاحهما . وقوله : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ ﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أمركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان ، ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبيّ ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم

وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ ، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه ، وبغضي لكم ، على أن لا أعدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض . وقوله : ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف : ﴿ تَلْوُۥٓا۟ ﴾ أي تحرّفوا الشهادة وتغيّروها ، واللّيّ هو التحريف وتعمُّد الكذب . والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها ، وقال النبيّ ﷺ : « خَيْرُ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا » [(١)] ولهذا توعّدهم الله بقوله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أي وسيجازيكم بذلك .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه ، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل ، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه ، كما يقول المؤمن في كل صلاة : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي بصّرنا ، وزدنا هدى ، وثبّتنا عليه ، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة ، وقال في القرآن : ﴿ نَزَّلَ ﴾ لأنه نزل مفرقًا منجمًا على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم ، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة ؛ لهذا قال تعالى : ﴿ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى ، وبعُد عن القصد كل البعد .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ۝١٣٧ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ .

يخبر تعالى عمّن دخل في الإيمان ، ثم رجع عنه ثم عاد فيه ، ثم رجع واستمرّ على ضلاله وازداد حتى مات ، فإنه لا توبة بعد موته ، ولا يغفر الله له ، ولا يجعل له مما هو فيه فرجًا ولا مخرجًا ولا طريقًا إلى الهدى ، ولهذا قال : ﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا ﴾ قال : تمادوا على كفرهم حتى ماتوا . وعن علي ﷺ أنه قال : يُستتاب المرتدُّ ثلاثًا ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ ثم قال : ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يعني أن المنافقين من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرُّون إليهم بالمودة ، ويقولون لهم ، إذا خلوا بهم : إنا نحن معكم إنما نحن مستهزئون ، أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة . قال الله تعالى منكرًا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين : ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ ثم أخبر الله تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له ، ولمن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٣/٥) .

جعلها له ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ والمقصود من هذا التهييج على طلب العزّة من جناب الله ، والإقبال على عبوديته ، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . ويناسب هنا أن نذكر الحديث الذي روي عن أبي ريحانة أن النبيّ ﷺ قال : « مَنِ انْتَسَبَ إِلَى تِسْعَةِ آبَاءٍ كُفَّارٍ يُرِيدُ بِهِمْ عِزًّا وَفَخْرًا فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ » (١) .

وقوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها ، وأقررتموهم على ذلك ، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه . فلهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ في المأثم كما جاء في الحديث : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللَّه وَاليَوْم الآخِرِ فَلاَ يَجْلِسْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الخَمْرُ » (٢) . والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ الآية . قال مقاتل بن حيان ، حين نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام يعني نسخ قوله : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ لقوله : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ أي كما أشركوهم في الكفر ، كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبدًا ، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين لا الزلال .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربَّصون بالمؤمنين دوائر السوء ، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم ، وظهور الكفرة عليهم ، وذهاب ملَّتهم ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي نصر وتأييد وظفر وغنيمة ﴿ قَالُوٓا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أي يتودَّدون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ أي إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان كما وقع يوم أحد ، فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة ﴿ قَالُوٓا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ساعدناكم في الباطن ، وما ألوناهم خبالًا وتخذيلًا حتى انتصرتم عليهم . وقال السدي : ﴿ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ : نغلب عليكم ، وهذا أيضًا تودُّد منهم إليهم ؛ فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم ، وما ذاك إلَّا لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم . قال تعالى : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة ، فلا تغترّوا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهرًا في الحياة الدنيا لما له في ذلك من الحكمة ، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم ، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصَّل ما في الصدور . وقوله : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . عن سبيع الكندي قال : جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال : كيف هذه الآية ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . فقال علي ﷺ : أدْنه أدْنه ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . وعن ابن عبَّاس ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ أي حجَّة . ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ أي في الدنيا بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية ، وإن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٣/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٠١) .

حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الآية ، وعلى هذا يكون ردًّا على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين ، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفًا على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم كما قال تعالى : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ نَٰدِمِينَ ﴾ وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء وهو المنع من بيع العبد المسلم للكافرين ، لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال ، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه في الحال ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ لا شك أن الله لا يخادع ، فإنه العالم بالسرائر والضمائر ، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم ، كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهرًا ، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة ، وأن أمرهم يروج عنده ، كما أخبره تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد ، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا ، وكذلك يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وقد ورد في الحديث : « مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ رَايَا رَايَا اللَّهُ بِهِ » [(١)] . وقوله : ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ الآية ، هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهي الصلاة ؛ إذا قاموا وهم كسالى عنها ؛ لأنهم لا نيّة لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ولا خشية ، ولا يعقلون معناها . كما روي عن ابن عبّاس قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ، ولكن يقوم إليها طلق الوجه ، عظيم الرغبة ، شديد الفرح ؛ فإنه يناجي الله ، وإن الله تجاهه يغفر له ويجيبه إذا دعاه ، ثم يتلو هذه الآية : ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ . فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ هذه صفة ظواهرهم .

ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة فقال : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي لا إخلاص لهم ، ولا معاملة مع الله ، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة . ولهذا يتخلفون كثيرًا عن الصلاة التي لا يُرون فيها غالبًا ، كصلاة العشاء في وقت العتمة ، وصلاة الصبح في وقت الغلس ، كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « أَثْقَلُ الصَّلاةِ على المُنَافِقِينَ صَلاةُ العِشَاءِ وَصَلاةُ الفَجْرِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ ما فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلاةِ فَتُقَامَ ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّي بِالنَّاسِ ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ وَمَعَهُمْ حزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لا يَشْهَدُونَ الصَّلاةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ » [(٢)] . وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحْسَنَ الصَّلاةَ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ ، وَأَسَاءَها حَيْثُ يَخْلُو ، فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ اسْتَهانَ بِها رَبَّهُ ﷻ » [(٣)] .

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٧) والترمذي في السنن (١٠٩٧) وأحمد في مسنده (٤٥/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٦٣) وأحمد في مسنده (٢٤٢/٢) . (٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢٩٠/٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي في صلاتهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون ، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون ، وعمّا يراد بهم من الخير معرضون . وقد روي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « تِلْكَ صَلاةُ المُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلاةُ المُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلاةُ المُنَافِقِ ؛ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَي الشَّيْطَانِ ، قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا لا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا » [1] .

وقوله : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني المنافقين محيَّرين بين الإيمان والكفر ، فلا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا ، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا ، بل ظواهرهم مع المؤمنين ، وبواطنهم مع الكافرين ، ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ الآية . وقال مجاهد ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني أصحاب محمّد ﷺ ﴿ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يعني اليهود . عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ قال : « مَثَلُ المُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العَائِرَةِ بَيْنَ الغَنَمَيْنِ ، تُعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً ، وَلاَ تَدْرِي أَيَّهُمَا تَتْبَعُ » [2] .

وعن قتادة ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يقول : ليسوا بمؤمنين مخلصين ، ولا مشركين مصرِّحين بالشرك ، قال : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلًا للمؤمن وللمنافق وللكافر ، كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر ، فوقع المؤمن فقطع ، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر : أن هلم إليّ فإني أخشى عليك ، وناداه المؤمن أن هلم إلي فإن عندي وعندي يحظى له ما عنده ، فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى أذى فغرَّقه ، وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك . قال : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « مَثَلُ المُنَافِقِ كَمَثَلِ ثَاغِيَةٍ بَيْنَ غَنَمَيْنِ رَأَتْ غَنَمًا عَلَى نَشَزٍ فَأَتَتْهَا وَشَامَتْهَا فَلَمْ تعرفْ ، ثُمَّ رَأَتْ غَنَمًا على نَشَزٍ فَأَتَتْهَا فَشَامَتْهَا فَلَمْ تعرفْ » [3] ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ أي ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ فإنه ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾ والمنافقون الذين أضلّهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم ، ولا منقذ لهم مما هم فيه ؛ فإنه تعالى لا معقب لحكمه ، ولا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسألون .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ الْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ۝ إِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يعني مصاحبتهم ، ومصادقتهم ، ومناصحتهم وإسرار المودَّة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ أي يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه ، ولهذا قال ها هنا : ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ أي حجّة عليكم في عقوبته إياكم . وعن ابن عبّاس قوله : ﴿ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ قال :

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٩٥) والترمذي في السنن (١٦٠) .

(٢ ، ٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (١٧) بلفظ : « مثل المنافقين كمثل الشاة بين الغنمين .. » والنسائي في السنن (٢٢٤/٨) .

كلُّ سلطان في القرآن حجَّة . ثم أخبر تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ . قال ابن عبّاس : ﴿ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ : أي في أسفل النار ، وقال غيره : النار دركات ، كما أن الجنة درجات ، وعن أبي هريرة : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ قال : الدرك الأسفل : بيوت لها أبواب تطبق عليهم ، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم . وعن عبد اللّه بن مسعود ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ قال : في توابيت من نار تطبق عليهم ، أي مغلقة مقفلة .

ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب عليه ، وقبل ندمه إذا أخلص في توبته ، وأصلح عمله ، واعتصم بربّه في جميع أمره ، فقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ أي بدلوا الرياء بالإخلاص ، فينفعهم العمل الصالح وإن قلَّ . وعن معاذ بن جبل : أن رسول اللّه ﷺ قال : « أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ القَلِيلُ مِنَ العَمَلِ »[1] ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي في زمرتهم يوم القيامة ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، ثم قال تعالى : مخبرًا عن غناه عمّا سواه ، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم ، فقال تعالى : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ أي أصلحتم العمل وآمنتم باللّه ورسوله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أي مَن شكر شكر له ، ومَن آمن قلبه به ، علمه وجازاه على ذلك أوفر الجزاء .

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۝ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ .

عن ابن عبّاس في الآية يقول : لا يحب اللّه أن يدعو أحد على أحد إلَّا أن يكون مظلومًا ، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه ، وذلك قوله : ﴿ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ وإن صبر فهو خير له . وعن عائشة قالت : سرق لها شيء فجعلت تدعو عليه ، فقال النبيّ ﷺ : « لاَ تُسَبِّخِي عَنْهُ »[2] . وقال الحسن البصري : لا يدعو عليه ، وليقل : اللّهمّ أعني عليه ، واستخرج حقّي منه . وفي رواية عنه قال : قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه . وقال عبد الكريم بن مالك الجزري : في هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه لقوله : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ . وعن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « المُسْتَبَّانِ ما قالا : فَعَلَى البَادِئ مِنْهُما ما لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُومُ »[3] . وعن مجاهد في قوله : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ قال : ضاف رجل رجلًا لم يؤدِّ إليه حقَّ ضيافته ، فلما خرج أخبر الناس فقال : ضفت فلانًا فلم يؤد إليّ حق ضيافتي ، قال : فذلك الجهر بالسوء من القول إلَّا من ظلم ، حتى يؤدي الآخر إليه حق ضيافته . وعن عقبة بن عامر قال : قلنا : يا رسول اللّه إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يُقرونا ، فما ترى في ذلك ؟ فقال : « إِذَا نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي للضَّيْفِ فَاقْبَلُوا مِنْهُم ، وَإِنْ لم يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ »[4] .

وعن أبي هريرة أن رجلًا أتي النبيّ ﷺ فقال : إن لي جارًا يؤذيني ، فقال له : « أَخْرِجْ مَتَاعَكَ فَضَعْهُ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٠٦/٤) والمنذري في الترغيب (٥٤/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥/٦) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٨١) وأبو داود في السنن (٤٨٩٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٩/٤) .

عَلَى الطَّرِيقِ » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق ، فكلّ من مرّ به قال : ما لك ؟ قال : جاري يؤذيني ، فيقول : اللّهمّ العنه اللهمَّ اخزه ، قال : فقال الرجل : ارجع إلى منزلك والله لا أؤذيك أبدًا (١) .

وقوله : ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ أي إن أظهرتم أيها الناس خيرًا أو أخفيتموه أو عفوتم عمّن أساء إليكم ، فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم ، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ ، ولهذا ورد في الأثر أن حملة العرش يسبّحون الله فيقول بعضهم : سبحانك على حلمك بعد علمك ، ويقول بعضهم : سبحانك على عفوك بعد قدرتك . وفي الحديث الصحيح : « مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَلاَ زَادَ اللّه عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَنْ تَوَاضَعَ للّه رَفَعَهُ » (٢) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

يتوعّد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى حيث فرّقوا بين الله ورسله في الإيمان ، فآمنوا ببعض الأنبياء ، وكفروا ببعض بمجرد التشهّي والعادة وما ألفوا عليه آباءهم ، لا عن دليل قادهم إلى ذلك ، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك ، بل بمجرد الهوى والعصبية . فاليهود - عليهم لعائن الله - آمنوا بالأنبياء إلّا عيسى ومحمّد عليهما الصلاة والسلام ، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمّد ﷺ ، والسامرة لا يؤمنون بنبيٍّ بعد يوشع خليفة موسى بن عمران ، والمجوس يقال : إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له زرادشت ، ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم والله أعلم . والمقصود أن من كفر بنبيٍّ من الأنبياء ، فقد كفر بسائر الأنبياء ، فإن الإيمان واجب بكل نبيٍّ بعثه الله إلى أهل الأرض ، فمن ردَّ نبوّته للحسد أو العصبية أو التشهي تبيَّنَ أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًا ، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ فوسمهم بأنهم كفّار بالله ورسله ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي في الإيمان ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ أي طريقًا ومسلكًا .

ثم أخبر تعالى عنهم فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ أي كفرهم محقّق لا محالة بمن ادَّعوا الإيمان به ؛ لأنه ليس شرعيًا ؛ إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره ، وبمن هو أوضح دليلًا وأقوى برهانًا منه ، أو نظروا حقَّ النظر في نبوّته . وقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه ، وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه ، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوّته ، كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ ، حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة وخالفوه وكذبوه وعادوه وقاتلوه ، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ في الدنيا والآخرة .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٦٥/٤) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٢٩) والطبراني في الكبير (٤٠٥/١١) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ يعني بذلك أمة محمّد ﷺ فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله ، وبكل نبيّ بعثه الله ، كما قال تعالى : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ الآية ، ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل ، والثواب الجليل ، والعطاء الجميل ، فقال : ﴿ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي لذنوبهم أي إن كان لبعضهم ذنوب .

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

وقال محمّد بن كعب القرظي والسدي وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء ، كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة . قال ابن جريج : سألوه أن ينزل عليهم صحفًا من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به ، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنُّت والعناد والكفر والإلحاد ، كما سأل كفّار قريش قبلهم نظير ذلك ، كما هو مذكور في سورة سبحان : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ الآيات . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أي بطغيانهم وبغيهم ، وعتوّهم وعنادهم ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أي من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى ﵇ في بلاد مصر ، وما كان من إهلاك عدوّهم فرعون وجميع جنوده في اليمّ ، فما جاوزوه إلّا يسيرًا حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ الآية . ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة الأعراف وفي سورة طه بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله ﷿ ، ثم لما رجع وكان ما كان جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه أن يقتل من لم يعبد العجل منهم مَن عبده ، فجعل يقتل بعضهم بعضًا ، ثم أحياهم الله ﷿ . وقال الله تعالى : ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة ، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى ﵇ ، رفع الله على رؤوسهم جبلًا ، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا ، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم ، ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أي فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل ، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجدًا ، وهم يقولون حطَّة ، أي اللهم حطَّ عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه ، حتى تهنا في التيه أربعين سنة ، فدخلوا يزحفون على أستاهم وهم يقولون : حنطة في شعرة ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾ أي وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم ما دام مشروعًا لهم ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أي شديدًا فخالفوا وعصوا وتحيّلوا على ارتكاب ما حرَّم الله ﷿ .

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ

ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ .

وهذا من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى ، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم ، وكفرهم بآيات الله - أي حججه وبراهينه - والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام . قوله : ﴿ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله ، فإنهم قتلوا جمًّا غفيرًا من الأنبياء عليهم السلام . وقولهم : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقتادة وغير واحد : أي في غطاء ، وهذا كقول المشركين ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ الآية . وقيل : معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غلف للعلم ، أي أوعية للعلم قد حوته وحصلته . فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول ؛ لأنها في غلف وفي أكنة ، قال الله : بل هي مطبوع عليها بكفرهم . وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة : ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي تمرنت قلوبهم على الكفر والطغيان ، وقلة الإيمان ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ قال ابن عبّاس : يعني أنهم رموها بالزنا . وكذلك قال السدي وجويبر ومحمّد بن إسحاق وغير واحد وهو ظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم ، فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك ، زاد بعضهم : وهي حائض ، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي هذا الذي يدَّعي لنفسه هذا المنصب قتلناه ، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء . وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه ، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبيِّنات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، ويصوِّر من الطين طائرًا ، ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل ، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها وأجراها على يديه ، ومع هذا كذبوه وخالفوه ، وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم ، حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلدة ، بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام ، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان - وكان رجلًا مشركًا من عبدة الكواكب ، وكان يقال لأهل ملته اليونان - وأنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلًا يفتن الناس ، ويضلُّهم ويفسد على الملك رعاياه ، فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور ، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ، ويكف أذاه عن الناس ، فلما وصل الكتاب امتثل والي بيت المقدس ذلك ، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام ، وهو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر ، وقيل : سبعة عشر نفرًا ، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت فحصروه هنالك ، فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم ، قال لأصحابه : أيُّكم يُلقى عليه شبهي وهو رفيقي في الجنّة ، فانتدب لذلك شاب منهم ، فكأنه استصغره عن ذلك ، فأعادها ثانية وثالثة ، وكلُّ ذلك لا ينتدب إلّا ذلك الشاب ، فقال : أنت هو ، وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو ، وفتحت روزنة من سقف البيت ، وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم ، فرُفع إلى السماء وهو كذلك ، كما قال

الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ الآية ، فلما رُفع خرج أولئك النفر ، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى ، فأخذوه في الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه ، وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجّحوا بذلك ، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم ، ما عدا من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه ، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم ، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت ، ويقال : إنه خاطبها ، والله أعلم . وهذا كله من امتحان الله عباده ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبيّنه وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم المؤيد بالمعجزات والبيّنات والدلائل الواضحات ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين ، ورب العالمين المطّلع على السرائر والضمائر ، الذي يعلم السّرَّ في السموات والأرض ، العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أي رأوا شبهه فظنّوه إياه . ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ يعني بذلك من ادّعى أنه قتله من اليهود ، ومن سلمه إليهم من جهّال النصارى ، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ أي وما قتلوه متيقّنين أنه هو ، بل شاكين متوهّمين ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا ﴾ أي منيع الجناب ، لا يرام جنابه ولا يضام من لاذ ببابه ﴿ حَكِيمًا ﴾ أي في جميع ما يقدّره ويقضيه من الأمور التي يخلقها ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم .

عن ابن عبّاس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه ، وفي البيت اثنا عشر رجلًا من الحواريّين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، قال : ثم قال : أيّكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي ؟ فقام شاب من أحدثهم سنًّا ، فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب ، فقال : أنا ، فقال : هو أنت ذاك ، فألقي عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء ، قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق ، فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمّدًا ﷺ .

وقوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في معنى ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ يعني قبل موت عيسى ، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال ، فتصير الملل كلها واحدة ، وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام .

ذكر من قال ذلك : عن ابن عبّاس ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال : قبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام . وقال أبو مالك : ذلك عند نزول عيسى ، وقبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام ، لا يبقى أحد من

أهل الكتاب إِلَّا آمن به . وعن ابن عبّاس ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ يعني اليهود خاصة . وقال الحسن البصري : يعني النجاشي وأصحابه . وعن الحسن قال : قبل موت عيسى ، والله إنه لحيٌّ الآن عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون . وعن جويرية بن بشير ، قال : سمعت رجلًا قال للحسن : يا أبا سعيد قول الله ﷻ : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال : قبل موت عيسى ، إن الله رفع إليه عيسى وهو باعثه قبل يوم القيامة مقامًا يؤمن به البرُّ والفاجر . وهذا القول هو الحقُّ ، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع .

قال ابن جرير ، وقال آخرون : يعني بذلك ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾ بعيسى قبل موت صاحب الكتاب .

ذكر من كان يوجه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل ؛ لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبيَّن له الحق من الباطل في دينه . وعن مجاهد : كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته ، قبل موت صاحب الكتاب . وعن ابن عبّاس قال : لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله ولو عجل عليه بالسلاح . وقال : لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى عليه السلام ، وإن ضرب بالسيف تكلم به ، قال : وإن هوى تكلم به وهو يهوي . فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عبّاس ، وكذا صح عن مجاهد وعكرمة ومحمّد بن سيرين . وعن الحسن قال : لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت ، وهذا يحتمل أن يكون مراد الحسن ما تقدم عنه ، ويحتمل أن يكون مراده ما أراد هؤلاء .

وقال ابن جرير ، وقال آخرون : معنى ذلك : وإن من أهل الكتاب إِلَّا ليؤمنن بمحمّد ﷺ قبل موت صاحب الكتاب .

قال عكرمة : لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمّد ﷺ ، وقوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ .

ثم قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول ، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إِلَّا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام . ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح ؛ لأنه المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وتسليم من سلَّم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك ، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ، ثم إنه رفعه إليه وإنه باق حي ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التي سنوردها إن شاء الله قريبًا فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل إِلَّا الإسلام أو السيف . فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم . ولهذا قال : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ أي قبل موت عيسى عليه السلام الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أي بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء ، وبعد نزوله إلى الأرض . فأما من فسّر هذه الآية بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمّد عليهما الصلاة والسلام فهذا هو الواقع ، وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلًا به فيؤمن به ،

ولكن لا يكون ذلك إيمانًا نافعًا له إذا كان قد شاهد المَلَك ، كما قال تعالى في أول هذه السورة : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ ، وهذا يدل على ضعف ما احتج به ابن جرير في ردِّ هذا القول حيثِ قال : ولو كان المراد بهذه الآية هذا لكان كل من آمن بمحمّد ﷺ أو بالمسيح ممن كفر بهما يكون على دينهما ، وحينئذ لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه ، لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته ، فهذا ليس بجيد ؛ إذ لا يلزم من إيمانه في حالة لا ينفعه إيمانه أنه يصير بذلك مسلمًا ، ألا ترى قول ابن عبّاس : ولو تردى من شاهق أو ضرب بالسيف أو افترسه سبع فإنه لابد أن يؤمن بعيسى ، فالإيمان به في هذه الحال ليس بنافع ، ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمناه والله أعلم . ومن تأمل هذا جيدًا وأمعن النظر اتضح له أنه هو الواقع ، لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا ، بل المراد بها الذي ذكرناه من تقرير وجود عيسى ﷺ وبقاء حياته في السماء ، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه ، وتصادمت وتعاكست وتناقضت وخلت عن الحقِّ ، ففرط هؤلاء اليهود ، وأفرط هؤلاء النصارى ، تنقصه اليهود بما رموه به وأمه من العظائم ، وأطراه النصارى بحيث ادَّعوا فيه ما ليس فيه ، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علوًّا كبيرًا ، وتنزه وتقدس لا إله إلا هو .

ذِكْرُ الأَحَادِيثِ الوَارِدَةِ في نُزُوْلِ عِيْسَى ابن مَرَيَم

إلى الأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ في آخرِ الزَّمَان قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ وأَنَّهُ يَدْعُو إِلى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَه لا شريكَ له .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ ، وَيُفِيضُ المَالَ حَتَّى لا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ ، وَحَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (١) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ بِكُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمْ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ ؟! » (٢) .

وعن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال : « الأَنْبِياءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنِّي أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَإِنَّه نَازِلٌ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ ، رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلى الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لم يُصِبْهُ بَلَلٌ ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلى الإِسْلامِ ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ في زَمَانِهِ المِلَلَ كُلَّها إِلَّا الإِسْلامَ ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ في زَمَانِهِ المَسِيحَ الدَّجَّالَ ، ثُمَّ تَقَعُ الأَمَنَةُ عَلَى الأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الأُسُودُ مَعَ الإِبِلِ ، وَالنِّمَارُ مَعَ البَقَرِ ، وَالذِّئَابُ مَعَ الغَنَمِ ، وَيَلْعَبُ الصِّبْيَانُ بِالحَيَّاتِ لا تَضُرُّهُمْ ، فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يتوفى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ » (٣)

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٨) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٣٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٠٦) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَنزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ أَوْ بِدابِق ، فَيَخْرُجَ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ المَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ : خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ ، فَيَقُولُ المُسْلِمُونَ : لا وَاللَّه لا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا ، فَيُقَاتِلُوهُمْ فَيُهْزَمُ ثُلُثٌ لا يَتُوبُ اللَّه عَلَيْهِمْ أَبَدًا وَيُقْتَلُ ثُلُثٌ هُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّه ، وَيُفْتَحُ الثُّلُثُ لا يُفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْسِمُونَ الغَنَائِمَ قَدْ عَلَّقُوا سيوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ : إِنَّ المَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ فَيَخْرُجُونَ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّامَ خَرَجَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّون الصُّفُوفَ ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلاةُ فينزل عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَؤُمُّهُمْ ، فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللَّه ذَابَ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ ، وَلكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّه بِيَدِهِ فيُريهم دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ »[1] .

وعن ابن مسعود عن رسول اللَّه ﷺ قال : « لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى عليهم السلام ، فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ : لاَ عِلْمَ لِي بِهَا ، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى مُوسَى فَقَالَ : لاَ عِلْمَ لِي بِهَا ، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِيسَى فَقَالَ : أَمَّا وَجْبَتُهَا فَلاَ يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّه ، وَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي عز وجل أَنَّ الدَّجَّالَ خَارِجٌ وَمَعِي قَضِيبَانِ ، فَإِذَا رَآنِي ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ ، قَالَ : فَيُهْلِكُهُ اللَّه إِذَا رَآنِي ، حَتَّى إِنَّ الحَجَرَ وَالشَّجَرَ يَقُولُ : يَا مُسْلِمُ إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ ، قَالَ : فَيُهْلِكُهُمُ اللَّه ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَطَؤُونَ بِلادَهُمْ ، فَلاَ يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكُوهُ ، وَلاَ يَمُرُّونَ عَلَى مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ ، قَالَ : ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ يَشْكُونَهُمْ فَأَدْعُو اللَّه عَلَيْهِمْ فَيُهْلِكُهُمْ وَيُمِيتُهُمْ ، حَتَّى تَجْوَى الأَرْضُ مِنْ نَتَنِ رِيحِهِمْ ، وَيُنْزِلُ اللَّه المَطَرَ فَيَجْتَرِفُ أَجْسَادَهُمْ حَتَّى يَقْذِفَهُمْ فِي البَحْرِ ، فَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي عز وجل أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَنَّ السَّاعَةَ كَالحَامِلِ المُتِمِّ لاَ يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تُفَاجِئُهُمْ بِوِلاَدِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا »[2] .

وعن أبي نضرة قال : أتينا عثمان بن أبي العاص في يوم جمعة لنعرض عليه مصحفًا لنا على مصحفه ، فلما حضرت الجمعة أمرنا فاغتسلنا ، ثم أتينا بطيب فتطيَّبنا ، ثم جئنا المسجد فجلسنا إلى رجل فحدَّثنا عن الدجال ، ثم جاء عثمان بن أبي العاص فقمنا إليه فجلسنا فقال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « يَكُونُ لِلْمُسْلِمِينَ ثَلاثَةُ أَمْصَارٍ : مِصْرٌ بِمُلْتَقَى البَحْرَيْنِ ، وَمِصْرٌ بِالحِيرَةِ ، وَمِصْرٌ بِالشَّامِ ، فَفزِع النَّاسُ ثَلاَثَ فَزَعَاتٍ ، فَيَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ فَيُهْزَمُ مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ ، فَأَوَّلُ مِصْرٍ يرده المِصْرُ الَّذِي بِمُلْتَقَى البَحْرَيْنِ ، فَيَصِيرُ أَهْلُهَا ثَلاثَ فِرَقٍ : فِرْقَةٌ تَقُولُ نُقِيمُ نشامه نَنْظُرُ مَا هُوَ ، وَفِرْقَةٌ تَلْحَقُ بِالأَعْرَابِ ، وَفِرْقَةٌ تَلْحَقُ بِالمِصْرِ الَّذِي يَلِيهِمْ . وَمَعَ الدَّجَّالِ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ التِّيجَانُ ، وَأَكْثَرُ مَنْ مَعَهُ اليَهُودُ وَالنِّسَاءُ ، وَيَنْحَازُ المُسْلِمُونَ إِلَى عَقَبَةِ أفيق فَيَبْعَثُونَ سَرْحًا لَهُمْ فَيُصَابُ سَرْحُهُمْ ، فَيَشْتَدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَيُصِيبُهُمْ مَجَاعَةٌ شَدِيدَةٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَحْرِقُ وَتَرَ قَوْسِهِ فَيَأْكُلُهُ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنَ الشَّجَرِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَاكُمُ الغَوْثُ - ثلاثًا - فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّ هَذَا

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن(٣٤) والحاكم في المستدرك(٤/٤٨٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(١/٣٧٥) وابن ماجه في السنن(٤٠٨١)

لَصوتُ رجلٍ شَبْعَان ، وَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ عِنْدَ صَلاةِ الفجْرِ ، فَيَقُولُ لَهُ أَمِيرُهُمْ ، يَا رُوحَ اللّه تَقَدَّمْ صَلِّ ، فَيَقولُ : هَذِهِ الأُمَّةُ أُمَرَاءُ ، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَيَتَقَدَّمُ أَمِيرُهُمْ فَيُصَلِّي ، حَتَّى إِذَا قَضَى صَلاتَهُ أَخَذَ عِيسَى حَرْبَتَهُ فَيَذْهَبُ نَحْوَ الدَّجَّالِ ، فَإِذَا رَآهُ الدَّجَّالُ ذَابَ كَمَا يُذَابُ الرَّصاصُ ، فَيَضَعُ حَرْبَتَهُ بَيْنَ ثَنْدُوَتِهِ فَيَقْتُلُهُ وَيَهْزِمُ أَصْحَابَهُ ، فَلَيْسَ يَوْمَئِذٍ شَيْءٌ يُوَارِي مِنْهُمْ أَحَدًا ، حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ تَقُولُ : يَا مُؤْمِنُ هَذَا كَافِرٌ ، وَيَقُولُ الحَجَرُ : يَا مُؤْمِنُ هَذَا كَافِرٌ » [١] .

وعن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول اللّه ﷺ الدجالَ ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا ، فقال : « مَا شَأْنُكُم ؟! » قلنا : يا رسول اللّه ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل ، قال : « غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ ، وَاللّه خَلِيفَتِي على كُلِّ مُسْلِم . إِنَّه شَابٌّ قَطَطٌ ، عَيْنُهُ طَافِيَةٌ ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ العُزَّى ابْنِ قَطَنٍ ، مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ ، إِنَّهُ خَارِجٌ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالعِرَاقِ ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمالاً ، يا عِبَادَ اللّه فَاثْبُتوا » قلنا : يا رسول اللّه فما لبثه في الأرض ؟ قال : « أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، يَوْمٌ كَسَنَةٍ ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ » قلنا : يا رسول اللّه وذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : « لاَ ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ » قلنا : يا رسول اللّه وما إسراعه في الأرض ؟ قال : « كَالغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي عَلَى قَوْمٍ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرى وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ . ثُمَّ يَأْتِي القَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ . وَيَمُرُّ بِالخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فتتبعه كنوزها كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الغَرَضِ ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ وَيَضْحَكُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللّه المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ المَنَارَةِ البَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ كَجُمانِ اللُّؤْلُؤِ ، وَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ (بِبَابِ لُدٍّ) فَيَقْتُلُهُ ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ﷺ قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ اللّه مِنْهُ ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الجَنَّةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللّه ﷻ إِلَى عِيسَى أَنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ ، وَيَبْعَثُ اللّه يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوَّلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ ، وَيَحْضُرُ نَبِيُّ اللّه عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ اليَوْمَ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللّه عِيسَى وَأَصْحَابُهُ ، فَيُرْسِلُ اللّه عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللّه عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٦/٤) .

شِبْرٍ إِلَّا مَلأَ زَهَمُهُمْ وَنَتَنُهُمْ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّه عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّه ، فَيُرْسِلُ اللَّه طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّه ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّه مَطَرًا لا يَكُن مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ ، فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزُّلْفَةِ . ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ : أَخْرِجِي ثَمرَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا ، وَيُبَارِكُ اللَّه في الرسلِ حَتَّى إِنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّه رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ ، فَيَقْبِضُ اللَّه رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ » (١) .

وعن عبد اللَّه بن عمرو وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تحدِّث به : تقول إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان اللَّه - أو لا إله إلَّا اللَّه أو كلمة نحوهما - لقد هممت أن لا أحدِّث أحدًا شيئًا أبدًا ، إنما قلت إنكم سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا : يحرق البيت ويكون ويكون ثم قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يَخرُجُ الدَّجَّالُ في أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللَّه تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّه رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ فَلا يَبْقَى عَلَى وَجْه الأَرْضِ أَحَدٌ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ - أَوْ إِيمانٍ - إِلَّا قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ في كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ » قال : سمعتها من رسول اللَّه ﷺ : « فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ في خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلامِ السِّباعِ ، لا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا ولا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، فَيَقُولُ : أَلاَ تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرُنا ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ ، وَهُمْ في ذَلِكَ دارٌّ رِزْقُهُمْ ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ، ثُمَّ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَلا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا ، قَالَ : وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ ، قَالَ : فَيُصْعَقُ وَيُصْعَقُ النَّاسُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّه - أو قال : يُنْزِلُ اللَّه مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ ، أو قال : الظل - نعمان الشاك - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى إِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . ثُمَّ يُقَالُ : أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلى رَبِّكُمْ ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ ثُمَّ يُقَالُ : أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ ، فَيُقَالُ : مِنْ كَمْ ؟ فَيُقَالُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ ، قَالَ : فَذلِكَ يَوْم يَجْعلُ الوِلْدَانَ شِيبًا ، وَذَلِكَ يَوْم يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » (٢) .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول اللَّه ﷺ من عرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال : « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آياتٍ : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها ، وَالدُّخانُ ، وَالدَّابَّةُ ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَالدَّجَّالُ ، وَثَلاثَةُ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ - أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا » (٣) .

فهذه أحاديث متواترة عن رسول اللَّه ﷺ وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام ، بل

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) وأحمد في مسنده (١٨٢/٤) والترمذي في السنن (٢٢٤٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١١٦) والحاكم في المستدرك (٥٥٠/٤) وأحمد في مسنده (١٦٦/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٤) .

بدمشق عند المنارة الشرقية ، وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح ، وقد بنيت في هذه الأعصار في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأموي بيضاء من حجارة منحوتة ، عوضًا عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، وكان أكثر عمارتها من أموالهم ، وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، فلا يقبل إلّا الإسلام وهذا إخبار من النبيّ ﷺ بذلك ، وتقرير وتشريع وتسويغ له على ذلك في ذلك الزمان ، حيث تنزاح عللهم ، وترتفع شبههم من أنفسهم ، ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام متابعين لعيسى عليه السلام وعلى يديه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ الآية ، وهذه الآية كقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ وقرئ ﴿ لَعَلَمٌ ﴾ بالتحريك أي أمارة ودليل على اقتراب الساعة ، وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال فيقتله الله على يديه ، كما ثبت في الحديث : إن الله لم يخلق داء إلّا أنزل له شفاء [1] . ويبعث الله في أيامه يأجوج ومأجوج فيهلكهم الله تعالى ببركة دعائه ، وقد قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية .

صِفَة عِيسَى عليه السلام

روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي لَقِيتُ مُوسَى » قال : فنعته فإذا رجل أحسبه قال : « مُضْطَرِبٌ رَجِلُ الرَّأْسِ كَأَنَّه مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ » قال : « وَلَقِيتُ عِيسَى » فنعته النبيّ ﷺ فقال : « رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ » يعني الحمام « وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ » [2] . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « رَأَيْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ ، فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ . وَأَمَّا مُوسَى فَآدَمُ جَسِيمٌ سَبِطٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الزُّطِّ » [3] . وعن سالم عن أبيه قال : لا والله ما قال النبيّ ﷺ لعيسى أحمر ولكن قال : « بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أَطُوفُ بِالكَعْبَةِ فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ سَبِطُ الشَّعَرِ ، يَتَهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ يَنْطُفُ رَأْسُهُ مَاءً - أَوْ يُهْرَاقُ رَأْسُهُ مَاءً - فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالُوا : ابْنُ مَرْيَمَ فَذَهَبْتُ أَلْتَفِتُ فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ ، جَعْدُ الرَّأْسِ ، أَعْوَرُ عَيْنِهِ اليُمْنَى ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ ، قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : الدَّجَّالُ وَأَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا - ابْنُ قَطَنٍ - » قال الزهري : رجل من خزاعة هلك في الجاهلية [4] . هذه كلها ألفاظ البخاري رحمه الله ، وقد تقدم في حديث أبي هريرة أنّ عيسى عليه السلام يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون . وفي حديث عبد الله بن عمر أنه يمكث سبع سنين ، فيحتمل والله أعلم أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله ، فإنه رفع وله ثلاث وثلاثينَ سنة في الصحيح ، وقد ورد ذلك في حديث في صفة أهل الجنة أنهم على صورة آدم ، وميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة . وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٠١/٤) والطبراني في الكبير (١٥٣/١١) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩٤) .
(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٨) وأحمد في مسنده (٢٩٦/١) .
(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤١) .

ترجمة عيسى ابن مريم من تاريخه عن بعض السلف أنه يدفن مع النبيّ ﷺ في حجرته فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله ، وأقرّ بعبودية الله ﷻ .

﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة ، حرّم عليهم طيّبات كان أحلّها لهم . عن عمرو قال : قرأ ابن عباس : طيّبات كانت أحلّت لهم ، وهذا التحريم قد يكون قدريًا ، بمعنى أنه تعالى قيّضهم لأن تأولوا في كتابهم وحرّفوا وبدّلوا أشياء كانت حلالًا لهم ، فحرموها على أنفسهم تشديدًا منهم على أنفسهم وتضييقًا وتنطعًا . ويحتمل أن يكون شرعيًا بمعنى أنه تعالى حرم عليهم في التوارة أشياء كانت حلالًا لهم قبل ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ وقد قدمنا الكلام على هذه الآية وأن المراد أن الجميع من الأطعمة كانت حلالًا من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل وألبانها ، ثم إنه تعالى حرّم أشياء كثيرة في التوراة كما قال في سورة الأنعام : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أي إنما حرمنا عليهم ذلك لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه ، ولهذا قال : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ أي صدُّوا الناس وصدُّوا أنفسهم عن اتّباع الحقّ ، وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه ، ولهذا كانوا أعداء الرسل ، وقتلوا خلقًا من الأنبياء ، وكذبوا عيسى ومحمّدًا صلوات الله وسلامه عليهما .

وقوله : ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ أي أن الله قد نهاهم عن الرّبا فتناولوه وأخذوه ، واحتالوا عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشبه ، وأكلوا أموالَ الناس بالباطل . قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾ أي الثابتون في الدِّين لهم قدم راسخة في العلم النافع . ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ عطف على الراسخين وخبره ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ قال ابن عبّاس : أنزلت في عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسد بن سعية وأسد بن عبيد الذين دخلوا في الإسلام وصدقوا بما أرسل الله به محمّدًا ﷺ .

وقوله : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ هكذا هو في جميع مصاحف الأئمة ، وكذا هو في مصحف أُبيّ ابن كعب ، وذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود - والمقيمون الصلاة - قال : والصحيح قراءة الجميع ، رد على من زعم أن ذلك من غلط الكتّاب ، ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم : هو منصوب على المدح كما جاء في قوله : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ قال : وهذا سائغ في كلام العرب كما قال الشاعر :

لاَ يَبْعُدَنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُو ... أُسْدُ العُدَاةِ وَآفَةُ الجُزْرِ

النَّـازِلِـينَ بِـكُـلِّ مُـعْـتَـرَكٍ وَالـطَّـيِّـبُـونَ مَـعَـاقِـدَ الأزرِ

وقال آخرون : هو مخفوض عطفًا على قوله : ﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ يعني وبالمقيمين الصلاة ، وكأنه يقول : وبإقامة الصلاة ، أي يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم . أو أن المراد بالمقيمين الصلاة : الملائكةُ ، وهذا اختيار ابن جرير يعني ، يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالملائكة ، وفي هذا نظر والله أعلم . وقوله : ﴿ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ ﴾ يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال ويحتمل زكاة النفوس ، ويحتمل الأمرين والله أعلم . ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي يصدقون بأنه لا إله إلّا الله ، ويؤمنون بالبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرِّها . وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعني الجنة .

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

عن ابن عبّاس قال : قال سكن وعدي بن زيد : يا محمّد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى ، فأنزل الله في ذلك من قولهما : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ إلى آخر الآيات[1] . وهي رد عليهم لما سألوا النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ ثم ذكر فضائحهم ومعايبهم وما كانوا عليه وما هم عليه الآن من الكذب والافتراء ، ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمّد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين فقال : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أي من قبل هذه الآية ، يعني في السور المكية وغيرها ، وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن وهم : آدم ، وإدريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، ويونس ، وداود ، وسليمان ، وإلياس ، واليسع ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين ، وسيدهم محمّد ﷺ . وقوله : ﴿ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أي خلقًا آخرين لم يذكروا في القرآن وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين ، والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الغفاري الطويل في عدد الأنبياء عليهم السلام قال : دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده ، فجلست إليه فقلت : يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة قال : « الصَّلاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ فَاسْتَكْثِرْ أَوِ اسْتَقِلَّ » قال : قلت : يا رسول الله فأيُّ الأعمال أفضل ؟ قال : « إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ » قلت : يا رسول الله فأيُّ المؤمنين أفضل ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » ، قلت : يا رسول الله ، فأيُّ المسلمين أسلم ؟ قال :

(١) ذكره ابن هشام في السيرة (٥٦٢/٢) والطبري في التفسير (٣٨/٦) .

« مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » قلت : يا رسول الله فأيُّ الهجرة أفضل ؟ قال : « مَنْ هَجَرَ السَّيِّئَاتِ » قلت : يا رسول الله أيُّ الصلاة أفضل ؟ قال : « طُولُ القُنُوتِ » فقلت : يا رسول الله فأيُّ الصيام أفضل ؟ قال : « فَرْضٌ مُجْزِئٌ وَعِنْدَ اللهِ أَضْعَافٌ كَثِيرَةٌ » قلت : يا رسول الله فأيُّ الجهاد أفضل ؟ قال : « مَنْ عُقِرَ جَوَادُهُ وَأُهْرِيقَ دَمُهُ » قلت : يا رسول الله ، فأيُّ الرقاب أفضل ؟ قال : « أَغْلاَهَا ثَمَنًا وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا » قلت : يا رسول الله ، فأيُّ الصدقة أفضل ؟ قال : « جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ ، وسرٌّ إِلَى فَقِيرٍ » قلت : يا رسول الله ، فأي آية ما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آيةُ الكُرْسِيِّ » ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ وَمَا السَّمواتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلاَةٍ ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلاَةِ عَلَى الحلَقَةِ » قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « مائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا » قال : قلت : يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال : « ثَلاثُمِائَةٍ وَثَلاثَة عَشَرَ جَمٌّ غَفِيرٌ كَثِيرٌ طَيِّبٌ » قلت : فمن كان أولهم ؟ قال : « آدمُ » قلت : أنبي مرسل ؟ قال : « نَعَمْ خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَسَوَّاهُ قَبِيلًا » ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرْبعة سِرْيَانِيُّونَ : آدمُ وَشِيثٌ وَخَنُوخُ وَهُوَ إِدْرِيسُ - وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِقَلَم - وَنُوحٌ ، وَأَرْبَعَةٌ مِنَ العَرَبِ : هُودٌ وَشُعَيْبٌ وَصَالِحٌ وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ ، وَأَوَّلُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوسَى ، وآخِرُهُمْ عِيسَى ، وَأَوَّلُ الرُّسُلِ آدَمُ ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ » قال : قلت : يا رسول الله كم كتاب أنزله الله ؟ قال : « مِائَةُ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ ، أَنْزَلَ اللهُ عَلَى شِيث خَمْسِينَ صَحِيفَةً ، وَعَلَى خَنُوخَ ثَلاثِينَ صَحِيفَةً ، وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ عَشْرَ صَحَائِفَ ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى مِنْ قَبْلِ التَّوْرَاةِ عَشْرَ صَحَائِفَ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالفُرْقَانَ » قال : قلت : يا رسول الله ، ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : « كَانَتْ كُلُّهَا يَا أَيُّهَا المَلِكُ المُسَلَّطُ المُبْتَلَى المَغْرُورُ إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَلكِنِّي بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دعوة المَظْلُوم فَإِنِّي لاَ أَرُدُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ ، وَكَانَ فِيهَا أَمْثَالٌ ، وَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ ، سَاعَةٌ يُنَاجِي فيها رَبَّهُ ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ ، وَسَاعَةٌ يُفكِّرُ فِي صُنْعِ اللهِ ، وَسَاعَة يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ . وَعَلَى العَاقِلِ أَنْ لاَ يَكُونَ ظَاعِنًا إِلَّا لِثَلاثٍ : تَزَوُّد لِمَعَادٍ ، أَوْ مَرَمَّة لِمَعَاشٍ ، أَوْ لَذَّة في غَيْرِ مُحَرَّم ، وَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ ، مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ ، حَافِظًا لِلِسَانِهِ ، وَمَنْ حَسَبَ كَلاَمَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلاَمُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ » قال : قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟ قال : « كَانَتْ عِبَرًا كُلُّهَا ، عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالمَوْتِ ثُمَّ هُوَ يَفْرَحُ ، عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَنْصَبُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يَرَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا ثُمَّ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالحِسَابِ غَدًا ثُمَّ هُوَ لاَ يَعْمَلُ » قال : قلت يا رسول الله ، فهل في أيدينا شيء مما كان في أيدي إبراهيم وموسى وما أنزل الله عليك ؟ قال : « نَعَمْ اقْرَأْ يَا أَبَا ذَرٍّ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ » قال : قلت : يا رسول الله فأوصني قال : « أوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ » ، قال : قلت : يا رسول الله زدني قال : « عَلَيْكَ بِتِلاَوَةِ القُرْآنِ وَذِكْرِ اللهِ ؛ فَإِنَّهُ ذِكْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ وَنُورٌ لَكَ فِي الأَرْضِ » قال : قلت : يا رسول الله زدني ، قال : « إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ ، فَإِنَّهُ يُمِيتُ القَلْبَ وَيَذْهَبُ بِنُورِ الوَجْهِ » قلت : يا رسول الله زدني قال : « عَلَيْكَ بِالجِهَادِ فَإِنَّه رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي » قلت : زدني ، قال : « عَلَيْكَ بِالصَّمْتِ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ ، فَإِنَّهُ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيْطَانِ وَعَوْنٌ لَكَ

عَلَى أَمْرِ دِينِكَ » قلت : زدني قال : « انْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ تَحْتَكَ وَلاَ تَنْظُرْ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ لَكَ أَنْ لاَ تَزْدَرِيَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ » قلت : زدني ، قال : « أَحْبِبِ المَسَاكِينَ وَجَالِسْهُمْ ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرِي نِعْمَةَ اللَّه عَلَيْكَ » قلت : زدني ، قال : « صِلْ قَرَابَتَكَ وَإِنْ قَطَعُوكَ » قلت : زدني ، قال : « قُلِ الحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا » قلت : زدني ، قال : « لاَ تَخَفْ فِي اللَّه لَوْمَةَ لاَئِم » قلت : زدني قال : « يَرُدُّكَ عَنِ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَلاَ تَجِد عَلَيْهِمْ فِيمَا تُحِبُّ ، وَكَفَى بِكَ عَيْبًا أَنْ تَعْرِفَ مِنَ النَّاسِ مَا تَجْهَلُ مِنْ نَفْسِكَ ، أَوْ تَجِدَ عَلَيْهِمْ فِيمَا تُحِبُّ » ثم ضرب بيده صدري فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ لاَ عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ ، وَلاَ وَرَعَ كَالكَفِّ ، وَلاَ حَسَبَ كَحُسْنِ الخُلُقِ » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ، ولهذا يقال له : الكليم . وعن عبد الجبار بن عبد الله قال : جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال : سمعت رجلًا يقرأ (وَكَلم اللَّهَ مُوسَى تَكْلِيمًا) فقال أبو بكر : ما قرأ هذه إلَّا كافر ، قرأت على الأعمش وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ وإنَّما اشتدَّ غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك لأنه حرَّف لفظ القرآن ومعناه . وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون اللَّه كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحدًا من خلقه ، كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ (وَكَلم اللَّهَ مُوسَى تَكْلِيمًا) - بنصب لفظ الجلالة - فقال له : يا ابن اللخناء كيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل .

وقوله : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي يبشِّرون من أطاع اللَّه واتبع رضوانه بالخيرات ، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب . وقوله : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة ، وبيَّن ما يحبُّه ويرضاه مما يكرهه ويأباه ، لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ عن ابن مسعود قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّه ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وَمَا بَطَنَ ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللَّهِ عز وجل ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ » [٢] .

﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

لما تضمن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ إلى آخر السياق إثبات نبوَّته ﷺ والردَّ على من أنكر نبوَّته من المشركين وأهل الكتاب قال اللَّه تعالى : ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك ، فاللَّه يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم الذي

---

(١) ذكره أحمد بنحو من هذا السياق (٥/٢٦٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٤) ومسلم في التوبة (٣٣ ، ٣٤) .

﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ولهذا قال : ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ ، أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البيّنات والهدى والفرقان ، وما يحبّه اللَّه ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبيٌّ مرسل ولا ملك مقرَّب ، إلَّا أن يعلمه اللَّه به ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ وعن عطاء بن السائب قال : أقرأني أبو عبد الرَّحمن السلمي القرآن ، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال : قد أخذت علم اللَّه فليس أحد اليوم أفضل منك إلَّا بعمل - ثم يقرأ قوله : ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ . قوله : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ ﴾ أي بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك ، مع شهادة اللَّه تعالى بذلك ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ أي كفروا في أنفسهم فلم يتبعوا الحقَّ ، وسعوا في صدِّ الناس عن اتباعه والاقتداء به ، قد خرجوا عن الحق وضلُّوا عنه وبعدوا منه بعدًا عظيمًا شاسعًا . ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله ، الظالمين لأنفسهم بذلك وبالصدِّ عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه ، بأنه لا يغفر لهم ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ أي سبيلًا إلى الخير ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ﴾ الآية .

ثم قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ ﴾ أي قد جاءكم محمّد صلوات اللَّه وسلامه عليه بالهدى ودين الحق والبيان الشافي من اللَّه ﷻ ، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيرًا لكم . ثم قال : ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي فهو غنيٌّ عنكم وعن إيمانكم ، ولا يتضرَّر بكفرانكم ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أي بمن يستحق منكم الهداية فيهديه ، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿ حَكِيمًا ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلوِّ والإطراء ، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحدَّ في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه اللَّه إياها ، فنقلوه من حيِّز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون اللَّه يعبدونه كما يعبدونه . بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فادَّعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه : سواء كان حقًّا أو باطلًا ، أو ضلالًا أو رشادًا ، أو صحيحًا أو كذبًا ، ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية . عن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لا تُطْرُوني كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّما أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا : عَبْدُ اللَّه وَرَسُولُهُ » (١) . وعن أنس بن مالك أن رجلًا قال : يا محمّد يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَيُّها النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِقَوْلِكُمْ ، وَلا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ : أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّه ، عَبْدُ اللَّه وَرَسُولِهِ ، وَاللَّه ما أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّه ﷻ » (٢) .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٣) والألباني في الصحيحة (١٠٩٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولدًا تعالى الله ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا وتنزّه وتقدّس وتوحّد في سؤدده وكبريائه وعظمته ، فلا إله إلَّا هو ولا ربَّ سواه ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي إنما هو عبد من عباد الله ، وخلق من خلقه ، قال له : كن ، فكان ، ورسول من رسله ، وكلمته ألقاها إلى مريم أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل ﷺ إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه ﷻ ، فكان عيسى بإذنه ﷻ ، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها ، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم ، والجميع مخلوق لله ﷻ ، ولهذا قيل لعيسى : إنه كلمة الله وروح منه ؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه ، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها : كن ، فكان ، والروح التي أرسل بها جبريل . قال الله تعالى : ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ ، وقال تعالى إخبارًا عن المسيح : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ الآية . وقال قتادة : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ هو كقوله : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ وقال شاذ بن يحيى في قول الله : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ قال : ليس الكلمة صارت عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى ، وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله : ﴿ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ أي أعلمها بها كما زعمه في قوله : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي يعْلِمك بكلمة منه ، ويجعل ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى ﷺ .

وعن عبادة بن الصامت عن النبيّ ﷺ قال : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّه وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ اللَّه الجنَّةَ عَلَى ما كَانَ مِنَ العَمَلِ » (١) . فقوله في الآية والحديث : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ كقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ أي من خلقه ومن عنده ، وليست « من » للتبعيض كما تقوله النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة ، بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى ، وقد قال مجاهد في قوله : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي ورسول منه ، وقال غيره : ومحبّة منه ، والأظهر الأول ، وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة ، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف ، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله : ﴿ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ وفي قوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ وكما روي في الحديث : « فَأَدْخُلُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ » (٢) أضافها إليه إضافة تشريف ، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد .

وقوله : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد ، لا ولد له ولا صاحبة ، واعلموا وتيقّنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمّه مع الله شريكين ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا . والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابط ، ولا لكفرهم حد ، بل أقوالهم وضلالهم منتشر ، فمنهم من يعتقده إلهًا ، ومنهم من يعتقده شريكًا ، ومنهم من يعتقده ولدًا ، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة ، وأقوال غير مؤتلفة .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الكفالة (٢٢٩٧) .

ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال : لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولًا .

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق - بترك الإسكندرية - في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم - وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة - وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة ، وأنهم اختلفوا عليه اختلافًا لا ينضبط ولا ينحصر ، فكانوا أزيد من ألفين أسقفًا ، فكانوا أحزابًا كثيرة ، كل خمسين منهم على مقالة ، وعشرون على مقالة ، ومائة على مقالة ، وسبعون على مقالة ، وأزيد من ذلك وأنقص . فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلثمائة بثمانية عشر نفر ، وقد توافقوا على مقالة ، فأخذها الملك ونصرها وأيّدها ، وكان فيلسوفًا داهية ، ومحق ما عداها من الأقوال ، وانتظم دست أولئك الثلثمائة والثمانية عشر وبنيت لهم الكنائس ، ووضعوا لهم كتبًا وقوانين ، وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعمّدونهم عليها ، وأتباع هؤلاء هم الملكانية . ثم إنهم اجتمعوا مجمعًا ثانيًا فحدث فيهم اليعقوبية ، ثم مجمعًا ثالثًا فحدث فيهم النسطورية ، وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح ، ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا أو ما اتحدا ، أو امتزجا أو حلّ فيه ، على ثلاث مقالات ، وكلٌّ منهم يكفّر الفرقة الأخرى ، ونحن نكفّر الثلاثة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ أي يكن خيرًا لكم ، ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أي تعالى وتقدّس عن ذلك علوًّا كبيرًا ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي الجميع ملكه وخلقه ، وجميع ما فيهما عبيده وهم تحت تدبيره وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد ؟.

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

عن ابن عبّاس قوله : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ﴾ لن يستكبر . ﴿ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال : ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ وليس له في ذلك دلالة ؛ لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح ، لأن الاستنكاف هو الامتناع ، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح ؛ فلهذا قال : ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل . وقيل : إنما ذكروا لأنهم اتُّخذوا آلهةً مع اللّه ، كما اتُّخذ المسيح ، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده وخلق من خلقه ، ولهذا قال : ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ، ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه ولا يحيف . ولهذا قال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه . ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ أي امتنعوا عن طاعة اللّه وعبادته ، واستكبروا عن ذلك ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا جميع الناس ، ومخبرًا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعذر ، والحجّة المزيلة للشُّبه ، ولهذا قال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ أي ضياء واضحًا على الحقّ وهو القرآن ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكّل على الله في جميع أمورهم ، وقال ابن جريج : آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة ، ويزيدهم ثوابًا ومضاعفة ورفعًا في درجاتهم من فضله عليهم ، وإحسانه إليهم ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أي طريقًا واضحًا قصدًا قوامًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات . فعن عليّ ابن أبي طالب ﷺ عن النبيّ ﷺ أنه قال : « الْقُرْآنُ صِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَحَبْلُ اللهِ الْمَتِينِ » [١] .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء ، قال : آخر سورة نزلت : براءة ، وآخر آية نزلت : يستفتونك[٢] . وعن جابر بن عبد الله قال : دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل ، قال : فتوضأ ثم صبَّ عليّ – أو قال : صبوا عليه – فعقلت ، فقلت : إنه لا يرثني إلّا كلالة فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض [٣] . والكلالة مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد ، ومن الناس من يقول : الكلالة : من لا ولد له كما دلّت عليه هذه الآية ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهدًا ننتهي إليه : الجد ، والكلالة ، وباب من أبواب الربا[٤] . وعن معدان بن أبي طلحة قال : قال عمر بن الخطاب : ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بإصبعه في صدري وقال : « يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتي فِي آخرِ سُورَةِ النِّسَاءِ » [٥] .

وكأن المراد بآية الصيف أنها نزلت في فصل الصيف والله أعلم ، ولما أرشده النبيّ ﷺ إلى تفهّمها فإن فيها كفاية نسي أن يسأل النبيّ ﷺ عن معناها ، ولهذا قال : فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٠٦) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٥) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٨/٣) .
(٤) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٥٨٨) ومسلم في التفسير (٣٢) .
(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٤٢) .

عنها أحبُّ إليَّ من أن يكون لي حمر النعم . قال قتادة : وذكر لنا أن أبا بكر الصدِّيق قال في خطبته : ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد ، والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم ، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم ، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله مما جرت الرحم من العصبة (١) .

ذكر الكلام على معناها : وبالله المستعان وعليه التكلان : قوله تعالى : ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ ﴾ أي مات . وقوله : ﴿ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ تمسك به مَن ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد ، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد ، وهو رواية عن عمر بن الخطاب رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه (٢) ، ولكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصِّدِّيق أنه الذي لا ولد له ولا والد ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئًا لأنه يحجبها بالإجماع ، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ، ولا والد بالنص عند التأمّل أيضًا ، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد ، بل ليس لها ميراث بالكلِّيَّة . فعن زيد بن ثابت أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم ، فأعطى الزوج النِّصف ، والأخت النِّصف ، فكلِّم في ذلك فقال : حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك (٣) . وعن ابن عبَّاس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتًا وأختًا : إنه لا شيء للأخت لقوله : ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ قال : فإذا ترك بنتًا فقد ترك ولدًا فلا شيء للأخت . وخالفهما الجمهور ، فقالوا في هذه المسألة : للبنت النصف بالفرض ، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بدليل غير هذه الآية ، وهذه الآية نصَّت أن يفرض لها في هذه الصورة ، وأما وراثتها بالتعصيب فلما رواه الأسود قال : قضى فينا معاذ ابن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت ، والنصف للأخت . ثم قال سليمان : قضى فينا ولم يذكر على عهد رسول الله ﷺ (٤) . وعن هزيل بن شرحبيل قال : سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت ؟ فقال : للابنة النصف ، وللأخت النصف ، وأتوا ابن مسعود فسيتابعني ، فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال : لقد ضللت إذًا وما أنت من المهتدين ، أقضي فيها بما قضى النبيّ ﷺ النصف للبنت ، ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين ، وما بقي فللأخت ، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال : لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم (٥) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالة وليس لها ولد ، أي ولا والد ؛ لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئًا ، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ من أم ، وصرف الباقي إلى الأخ لما ثبت عن ابن عبَّاس أن رسول الله ﷺ قال : « أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِها ، فَمَا أَبْقَتِ الفَرَائِضُ فَلأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ » (٦) .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣١/٦) .
(٢) تفسير الطبري (٥٤/٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٨/٥) .
(٤) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٤١) .
(٥) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٦) .
(٦) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٥) ومسلم في الفرائض (٢) .

وقوله : ﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أي فإن كان لمن يموت كلالة أختان فرض لهما الثلثان ، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما ، ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين ، كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله : ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ هذا حكم العصبات من البنين وبني البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم ، أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين وقوله : ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي يفرض لكم فرائضه ، ويحدُّ لكم حدوده ، ويوضح لكم شرائعه . وقوله : ﴿ أَن تَضِلُّواْ ﴾ أي لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها ، وما فيها من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى .

عن حذيفة قال : نزلت آية الكلالة على النبيّ ﷺ وهو في مسير له ، فوقف النبيّ ﷺ وإذا هو بحذيفة وإذا رأس ناقة حذيفة عند ردف راحلة النبيّ ﷺ ، فلقَّاها إيّاه ، فنظر حذيفة فإذا عمر ﵁ فلقَّاها إيّاه ، فلما كان في خلافة عمر نظر عمر في الكلالة ، فدعا حذيفة فسأله عنها فقال حذيفة : لقد لقَّانيها رسول الله ﷺ فلقَّيتكها كما لقاني رسول الله ﷺ ، والله إني لصادق ووالله لا أزيدك على ذلك شيئًا أبدًا [(١)] .

وعن سعيد بن المسيب أن عمر سأل رسول الله ﷺ كيف تورث الكلالة ؟ قال : فأنزل الله ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ الآية ، قال : فكأن عمر لم يفهم ، فقال لحفصة : إذا رأيت من رسول الله ﷺ طيب نفس فسليه عنها ، فرأت منه طيب نفس ، فسألته عنها ، فقال : « أَبُوكِ ذَكَرَ لَكِ هَذَا ؟ مَا أَرَى أَبَاكِ يَعْلَمُهَا » قال : فكان عمر يقول : ما أراني أعلمها ، وقد قال رسول الله ﷺ ما قال [(٢)] .

وعن عمر بن الخطاب قال : لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عن ثلاث أحبُّ إليّ من حمر النعم : من الخليفة بعده ؟ وعن قوم قالوا : نُقرُّ بالزكاة في أموالنا ولا نؤدِّيها إليك أيحلُّ قتالهم ؟ وعن الكلالة [(٣)] . وعن ابن عبّاس قال : كنت آخر الناس عهدًا بعمر بن الخطاب قال : اختلفت أنا وأبو بكر في الكلالة ، والقول ما قلت ، قال : وذكر أن عمر شرك بين الإخوة للأم والأب ، وبين الإخوة للأم في الثلث إذا اجتمعوا ، وخالفه أبو بكر ﵄ . وعن سعيد بن المسيب أن عمر كتب في الجدّ والكلالة كتابًا ، فمكث يستخير الله يقول : اللهم إن علمت فيه خيرًا فأمضه ، حتى إذا طُعن دعا بكتاب فمحي ولم يدرِ أحدٌ ما كتب فيه ، فقال : إني كنت كتبت كتابًا في الجد والكلالة ، وكنت أستخير الله فيه ، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه [(٤)] . وقد روي عن عمر ﵁ أنه قال : إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر ، وكان أبو بكر ﵁ يقول : هو ما عدا الولد والوالد . وهذا الذي قاله الصدِّيق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه ، وهو مذهب الأئمة الأربعة ، والفقهاء السبعة ، وقول علماء الأمصار قاطبة ، وهو الذي يدلّ عليه القرآن كما أرشد الله أنه قد بيَّن ذلك ووضَّحه في قوله : ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبري (٦/٥٥ - ٥٦) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٤٩) والهندي في كنز العمال (٣٠٦٨٨) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٠٣) .

(٤) تفسير الطبري (٦/٥٧) .

سورة المائدة

عن أسماء بنت يزيد قالت : إني لآخذة بزمام العضباء - ناقة رسول الله ﷺ - إذ نزلت عليه المائدة كلها ، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة [١] . وعن عبد الله بن عمرو قال : أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته ، فلم تستطع أن تحمله ، فنزل عنها [٢] . وعن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة فقالت لي : يا جبير تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم ، فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه [٣] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ① يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

عن معن وعوف أو أحدهما أن رجلًا أتى عبد الله بن مسعود فقال : اعهد إلي ، فقال : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك ، فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه .

وكتب رسول الله ﷺ كتابًا لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنة ، ويأخذ صدقاتهم ، فكتب له كتابًا وعهدًا وأمره فيه بأمره فكتب « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ عَهْدٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » [٤] .

قوله تعالى : ﴿ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني بالعقود العهود . والعهود ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ : يعني العهود ، يعني ما أحل الله وما حرّم وما فرض ، وما حدّ في القرآن كله ، ولا تغدروا ، ولا تنكثوا ، ثم شدد في ذلك فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ إلى قوله : ﴿ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ وقال الضحاك : ﴿ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ قال : ما أحل الله وحرّم ، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي والكتاب ، أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض ، من الحلال والحرام . وقال زيد بن أسلم : ﴿ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ قال : هي ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين . وقد استدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية ﴿ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ قال : فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته ، ويقتضي نفي خيار المجلس ، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك ، وخالفهما في ذلك الشافعي وأحمد والجمهور ، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٥٥/٦) . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٦/٢) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٨٨/٦) .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٥٣/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٥/٨) .

عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا »[١] وفي لفظ آخر للبخاري : « إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالخِيَارِ ، مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا »[٢] وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع ، وليس هذا منافيًا للزوم العقد ، بل هو من مقتضياته شرعًا ، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود .

وقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ هي الإبل والبقر والغنم ، قاله قتادة وغير واحد . قال ابن جرير : وكذلك هو عند العرب . وقد استدل ابن عمر وابن عبّاس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتًا في بطن أمه إذا ذبحت ، وقد ورد في ذلك حديث في السنن عن أبي سعيد قال : قلنا : يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين ، أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : « كُلُوهُ إِنْ شِئْتُمْ فَإِنَّ ذَكَاتَهُ ذَكَاةُ أُمِّهِ »[٣] . وعن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال : « ذَكَاةُ الجَنِينِ ذَكَاةُ أُمِّهِ »[٤] .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير . وقال قتادة : يعني بذلك الميتة ، وما لم يذكر اسم الله عليه ، والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلّا أنها تحرم بهذه العوارض ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ يعني منها ، فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إلّا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال .

وقوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ قال بعضهم : هذا منصوب على الحال ، والمراد بالأنعام ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم ، وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر ، فاستثنى من الإنسي ما تقدم ، واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام . وقيل : المراد أحللنا لكم الأنعام إلّا ما استثني منها لمن التزم تحريم الصيد ، وهو حرام لقوله : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي أبحنا تناول الميتة للمضطر ، بشرط أن يكون غير باغ ولا متعد ، وهكذا هنا ، أي كما أحللنا الأنعام في جميع الأحوال ، فحرموا الصيد في حال الإحرام ، فإن الله قد حكم بهذا ، وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني بذلك مناسك الحج . وقال مجاهد : الصفا والمروة ، والهدي والبدن من شعائر الله . وقيل : شعائر الله محارمه ، أي لا تحلوا محارم الله التي حرمها الله تعالى ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه ، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال ، وتأكيد اجتناب المحارم ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ الآية . وعن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع : « إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَامٌ ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو القَعْدَةِ وَذُو

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٤) ومسلم في البيوع (٤٧) .
(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٢) ومسلم في البيوع (٤٥) والإمام أحمد في مسنده (١١٩/٢) .
(٣) أخرجه أحمد مسنده (٣١/٣) وابن ماجه في السنن (٣١٩٩) وأبو داود في السنن (٢٨٢٧) .
(٤) أخرجه أحمد مسنده (٣٩/٣) .

الحِجَّةِ وَالمُحَرَّمِ ، وَرَجَبُ مُضَر الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَان »[1] وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت كما هو مذهب طائفة من السلف . وقال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ : يعني لا تستحلوا القتال فيه . وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ ، وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ قالوا : فلم يستثن شهرًا حرامًا من غيره . وقد حكى الإمام أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام ، فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء ، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها ، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ولهذا لما حجَّ رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة وهو وادي العقيق ، فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعًا ، ثم اغتسل وتطيّب وصلى ركعتين ، ثم أشعر هديه وقلّده وأهلَّ للحج والعمرة ، وكان هديه إبلًا كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ وقال بعض السلف : إعظامها استحسانها واستسمانها . قال علي بن أبي طالب : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن[2] . وقال مقاتل بن حيان : قوله : ﴿ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ فلا تستحلوها ، وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر ، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجره فيأمنون به . وعن ابن عباس ﷺ قال : نسخ من هذه السورة آيتان ، آية القلائد ، وقوله : ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أي : ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمنًا ، وكذا من قصده طالبًا فضل الله ، وراغبًا في رضوانه ، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه . قال مجاهد وعطاء في قوله : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني بذلك التجارة ، وهذا كما تقدم في قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَرِضْوَٰنًا ﴾ قال ابن عباس : يترضون الله بحجهم . وقد ذكر عكرمة والسدي وابن جرير أن هذه الآية نزلت في الحطم بن هند البكري كان قد أغار على سرح المدينة ، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا في طريقه إلى البيت ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾ .

وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان ، وإن أمَّ البيت الحرام أو بيت المقدس ، وأن هذا الحكم منسوخ في حقهم والله أعلم . فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع لما أمَّر الصدِّيقَ على الحجيج عليًا ، وأمره أن ينادي على سبيل النيابة عن رسول الله ﷺ ببراءة ، وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان[3]

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٦٢) ومسلم في القسامة (٢٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٩٥) وأبو داود في السنن (٢٨٠٤) وابن ماجه في السنن (٣١٤٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٦٩) ومسلم في الحج (٤٣٥) .

وقال ابن عباس : قوله ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ ﴾ يعني من توجه قبل البيت الحرام ، فكان المؤمنون والمشركون يحجون ، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدًا من مؤمن أو كافر ، ثم أنزل الله بعدها ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ فنفى المشركين من المسجد الحرام . وقال قتادة في قوله : ﴿ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ ﴾ قال : منسوخ ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلّد من الشجر فلم يعرض له أحد ، فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد ، وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت ، فأمروا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت ، فنسخها قوله : ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ ﴾ أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرمًا عليكم في حال الإحرام من الصيد ، وهذا أمر بعد الحظر ، وقوله : ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ ﴾ أي لا يحملنّكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام - وذلك عام الحديبية - على أن تعتدوا حكم الله فيهم ، فتقتصوا منهم ظلمًا وعدوانًا ، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد . وهذه الآية كما سيأتي من قوله : ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ . وعن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدّهم المشركون عن البيت ، وقد اشتد ذلك عليهم ، فمرّ بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة ، فقال أصحاب النبيّ ﷺ : نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم ، فأنزل الله هذه الآية . والشنآن هو البغض قاله ابن عباس وغيره ، وهو مصدر من شنأته أشنؤه شنآنًا بالتحريك .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات وهو التقوى ، وينهاهم عن التناصر على الباطل ، والتعاون على المآثم والمحارم . قال ابن جرير : الإثم : ترك ما أمر الله بفعله ، والعدوان مجاوزة ما حدّ الله في دينكم ومجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » قيل : يا رسول الله هذا نصرته مظلومًا ، فكيف أنصره إذا كان ظالمًا ؟ قال : « تَحْجزُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْم ، فَذَاكَ نَصْرُهُ » [١] . وعن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ أنه قال : « الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ » [٢] وفي الحديث : « الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ » [٣] وفي الصحيح : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْم الْقِيَامَةِ لا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا . وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » [٤] .

﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ

---

(١) أخرجه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢) وأحمد في مسنده (٣/٩٩ ، ٢٠١) والترمذي في السنن (٢٢٥٥) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٦٥) وابن ماجه في السنن (٤٠٣٢) والبيهقي في السنن (١٠/٨٩) .
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/٢٣٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٦٦) .
(٤) أخرجه مسلم في العلم (١٦) وأحمد في مسنده (٢/٣٩٧) والترمذي في السنن (٢٦٧٤) .

ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى عباده خبرًا متضمنًا النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة ، وهي ما مات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد ، وما ذاك إلَّا لما فيها من المضرة لما فيها من الدم المحتقن ، فهي ضارة للدين وللبدن ، فلهذا حرمها الله ﷻ ، ويستثنى من الميتة السمك فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها ، لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر فقال : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ، الحلّ مَيْتَتُهُ »[(١)] . وقوله : ﴿ وَٱلدَّمُ ﴾ يعني به المسفوح كقوله ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ قال عكرمة عن ابن عبّاس أنه سئل عن الطحال فقال : كلوه ، فقالوا : إنه دم ، فقال : إنما حرم عليكم الدم المسفوح . وعن عائشة قالت : إنما نهي عن الدم السافح . وقد قال رسول الله ﷺ : « أُحِلَّ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمانِ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالسَّمَكُ وَالْجَرَادُ ، وَأَمَّا الدَّمانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ »[(٢)] وعن أبي أمامة - وهو صدي بن عجلان - قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي أدعوهم إلى الله ورسوله ، وأعرض عليهم شرائع الإسلام ، فأتيتهم فبينما نحن كذلك إذا جاؤوا بقصعة من دم ، فاجتمعوا عليها يأكلونها ، فقالوا : هلم يا صدي فكل ، قال : ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم ، فأقبلوا عليه قالوا : وما ذاك فتلوت عليهم هذه الآية ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾ الآية . وما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق :

وَإِيَّـاكَ وَالْمَيْـتَـاتِ لا تَـقْـرَبَـنَّـهَـا وَلاَ تَأْخُذَنَّ عَظْمًا حَدِيدًا فَتَفْصِدَا

أي لا تفعل فعل الجاهلية ، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع يأخذ شيئًا محددًا من عظم ونحوه فيفصد به بعيره أو حيوانًا من أي صنف كان ، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه ، ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة .

وقوله : ﴿ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ يعني إنسيه ووحشيه ، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم ، ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم ههنا ، وتعسفهم في الاحتجاج بقوله : ﴿ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا ﴾ يعنون قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير حتى يعم جميع أجزائه ، وهذا بعيد من حيث اللغة ، فإنه لا يعود الضمير إلَّا إلى المضاف دون المضاف إليه ، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب ، ومن العرف المطرد . وفي الصحيح عنه ﷺ قال : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَه فِي لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَدَمِهِ »[(٣)] فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس ، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به ، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ » فقيل : يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٣٧ ، ٣٦٧) ومالك في الموطأ (١/٢٢) ، وأبو داود في السنن (١/٢٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٩٧) وابن ماجه في السنن (٤/٣٣١) . (٣) أخرجه مسلم في الشعر (١٠) .

السفن ، وتدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس فقال : « لا ، هُوَ حَرَامٌ » (١) .

وقوله : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ أي ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله ، فهو حرام ؛ لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم ، فمتى عدل بها عن ذلك ، وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات ، فإنها حرام بالإجماع .

وقوله : ﴿ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ ﴾ وهي التي تموت بالخنق ، إما قصدًا ، وإما اتفاقًا ، بأن تتخبل في وثاقتها فتموت به ، فهي حرام . وأما ﴿ ٱلۡمَوۡقُوذَةُ ﴾ : فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت ، كما قال ابن عبّاس وغير واحد : هي التي تضرب بالخشبة حتى يوقذها فتموت . قال قتادة : أهل الجاهلية يضربونها بالعصي ، حتى إذا ماتت أكلوها . وفي الصحيح أن عدي بن حاتم قال : قلت يا رسول الله : إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب ، قال : « إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَرَقَ فَكُلْهُ ، وَإِنْ أَصَابَ بَعَرْضِهِ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيذٌ فلا تَأْكُلْهُ » (٢) ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق ونحوه بحده فأحلّه ، وما أصاب بعرضه فجعله وقيذًا لم يحله ، وهذا مجمع عليه عند الفقهاء ، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه على قولين ، هما قولان للشافعي رحمه الله : أحدهما لا يحل كما في السهم والجامع أن كلًّا منهما ميت بغير جرح فهو وقيذ والثاني : أنه يحل ، لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب ولم يستفصل ، فدل على إباحة ما ذكرناه ؛ لأنه قد دخل في العموم .

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى ، فيما إذا أرسل كلبًا على صيد فقتله بثقله ولم يجرحه أو صدمه هل يحل أم لا ؟ على قولين :

أحدهما : أن ذلك حلال لعموم قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ وهذا قول حكاه الأصحاب عن الشافعي رحمه الله ، وصححه بعض المتأخرين منهم كالنووي والرافعي قلت : وليس ذلك بظاهر من كلام الشافعي في الأم والمختصر ، فإنه قال في كلا الموضعين : يحتمل معنيين ، ثم وجه كلًّا منهما فحمل ذلك الأصحاب منه ، فأطلقوا في المسألة قولين عنه ، اللهم إلا أنه في بحثه للقول بالحل رشحه قليلًا ولم يصرح بواحد منهما ولا جزم به .

والقول الثاني : أن ذلك لا يحل ، وهو أحد القولين عن الشافعي رحمه الله ؛ وذلك لحديث رافع بن خديج قلت : يا رسول الله ، إنا لاقو العدو غدًا ، وليس معنا مدى أفنذبح بالقصب ؟ قال : « مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ » الحديث بتمامه (٣)

وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل في حكم آية التحليل ، وإن لم يجرحه ، بل صدمه أو قتله فهو نطيح أو في حكمه فلا يكون حلالًا .

فإن قيل : فلم لا فصل في حكم الكلب ، فقال : ما ذكرتم إن جرحه فهو حلال ، وإن لم يجرحه فهو حرام ؟ فالجواب أن ذلك نادر ، لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابه أو بهما معًا ، وأما اصطدامه هو

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٣٦) ومسلم في المساقاة (٧١) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيد (١) والبيهقي في السنن (٢٣٥/٩) .

(٣) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٠٣) ومسلم في الأضاحي (٢٠) .

والصيد فنادر ، وكذا قتله إياه بثقله فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره ، أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وأما السهم والمعراض فتارة يخطئ لسوء رمي راميه أو للهو أو لنحو ذلك ، بل خطؤه أكثر من إصابته ، فلهذا ذكر كلًّا من حكميه مفصلًا والله أعلم .

ولهذا لما كان الكلب من شأنه أنه قد يأكل من الصيد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد ، فقال : « إِنْ أَكَلَ فَلاَ تَأْكُلْ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ » [1] ، وهو أيضًا مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين ، فقالوا : لا يحل ما أكل عنه الكلب ، حكي ذلك عن أبي هريرة وابن عباس وإليه ذهب أبو حنيفة وصاحباه وأحمد بن حنبل والشافعي في المشهور عنه ، وروى ابن جرير في تفسيره عن علي وسعيد وسلمان وأبي هريرة وابن عمر وابن عبّاس أن الصيد يؤكل وإن أكل منه الكلب ، حتى قال سعيد وسلمان وأبو هريرة وغيرهم : يؤكل ولو لم يبق منه إلّا بضعة ، وإلى ذلك ذهب الشافعي في قوله بإسناد جيد قوي ، عن أبي ثعلبة الخشني عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب : « إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ ، فَكُلْ وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ ، وَكُلْ ما رَدَّتْ عَلَيْكَ يَدُكَ » [2] .

فأما الجوارح من الطيور ، فنص الشافعي على أنها كالكلب ، فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور ، ولا يحرم عند الآخرين ، واختار المزني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور والجوارح ، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد ، قالوا : لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب ونحوه ، وأيضًا فإنها لا تعلم إلّا بأكلها من الصيد فيعفى عن ذلك ، وأيضًا فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير .

وأما ﴿ ٱلْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ فهي التي تقع من شاهق أو موضع عالٍ فتموت بذلك ، فلا تحل قال ابن عبّاس : المتردية التي تسقط من جبل ، وقال قتادة : هي التي تتردى في بئر .

وأما ﴿ ٱلنَّطِيحَةُ ﴾ فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها ، فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها ، والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة أي منطوحة ، وأكثر ما ترد هذه البنية في كلام العرب بدون تاء التأنيث ، فيقولون : عين كحيل وكف خضيب ، ولا يقولون : كف خضيبة ولا عين كحيلة ، وأما هذه فقال بعض النحاة : إنما استعمل فيها تاء التأنيث ؛ لأنها أجريت مجرى الأسماء ، كما في قولهم طريقة طويلة ، وقال بعضهم : إنما أتي بتاء التأنيث فيها لتدل على التأنيث من أول وهلة بخلاف عين كحيل وكف خضيب ؛ لأن التأنيث مستفاد من أول الكلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب ، فأكل بعضها فماتت بذلك فهي حرام ، وإن كان قد سال منها الدم ولو من مذبحها فلا تحل بالإجماع ، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة أو نحو ذلك ، فحرم الله ذلك على المؤمنين .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة ، وذلك إنما يعود على قوله : ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ : إلّا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح فكلوه فهو ذكي ، وعن

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٤٧٦) ومسلم في الصيد (٢ ، ٣) وأحمد في مسنده (٢٥٨/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيد (٣) وأحمد في مسنده (٢٥٦/٤) والطبراني في الكبير (١٧/١٧) .

علي في الآية قال : إن مصعت بذنبها أو ركضت برجلها أو طرفت بعينها فكل . وعن علي أيضًا قال : إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة وهي تحرك يدًا أو رجلًا فكلها ، وهكذا روي عن طاوس والحسن وقتادة أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهي حلال ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد ابن حنبل . قال ابن وهب : سئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السبع حتى تخرج أمعاؤها ، فقال مالك : لا أرى أن تذكى ، أي شيء يذكى منها ؟ وسئل مالك عن الضبع يعدو على الكبش فيدق ظهره ، أترى أن يذكى قبل أن يموت فيؤكل ؟ فقال : إن كان قد بلغ السحر فلا أرى أن يؤكل ، وإن كان أصاب أطرافه فلا أرى بذلك بأسًا ، هذا مذهب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ ، وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك رَحِمَهُ اللَّهُ من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها فيحتاج إلى دليل مخصص للآية والله أعلم .

وفي الصحيحين عن رافع بن خديج أنه قال : قلت : يا رسول الله إنا لاقو العدو غدًا وليس معنا مدى أفنذبح بالقصب ؟ فقال : « مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ لَيْسَ السِنَّ وَالظُّفْرَ . وَسَأُحَدِّثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ وَأَمَّا الظُّفُرُ فَمدَى الْحَبَشَةِ » [1] ، وروي عن عمر موقوفًا وهو أصح : « أَلا إِنَّ الذَّكَاةَ في الحلق وَاللَّبَّةِ ولا تعَجَلُوا الأَنْفُسَ أَنْ تُزْهَقَ » [2] وفي الحديث عن أبي العشراء الدارمي عن أبيه قال : قلت يا رسول الله : أما تكون الذكاة إلَّا من اللبة والحلق ؟ فقال : « لَوْ طَعَنْتَ فِي فَخِذِهَا لأَجْزَأَ عَنْكَ » [3] . وهو حديث صحيح ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الحلق واللبة .

وقوله : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ قال مجاهد وابن جريج : كانت النصب حجارة حول الكعبة ، قال ابن جريج : وهي ثلاثمائة وستون نصبًا ، كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب ، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، وينبغي أن يحمل هذا على هذا ؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ﴾ أي حرم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام ، واحدها زلم ، وقد تفتح الزاي فيقال : زَلم ، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك ، وهي عبارة عن قداح ثلاثة على أحدها مكتوب : افعل ، وعلى الآخر : لا تفعل ، والثالث : غفل ليس عليه شيء . ومن الناس من قال : مكتوب على الواحد أمرني ربي ، وعلى الآخر نهاني ربي ، والثالث غفل ليس عليه شيء ، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله أو النهي تركه وإن طلع الفارغ أعاد . والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام . وعن ابن عباس . ﴿ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ﴾ قال : والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور ، وذكر محمّد بن إسحاق وغيره أن أعظم أصنام قريش صنم

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٠٣) ومسلم في الأضاحي (٢٠) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٧٨/٩) والألباني في إرواء الغليل (١٧٦/٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٢٥) والترمذي في السنن (١٤٨١) .

كان يقال له : هبل منصوب على بئر داخل الكعبة فيها توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه ، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم ، فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه ، وقد ورد أن النبيّ ﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها وفي أيديهما الأزلام فقال : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا أَبَدًا » (١) . وروي أن سراقة بن مالك بن جعشم لما خرج في طلب النبيّ ﷺ وأبي بكر وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين ، قال : فاستقسمت بالأزلام هل أضرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره لا تضرهم ، قال : فعصيت الأزلام واتبعتهم ، ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة كل ذلك يخرج الذي يكره لا تضرهم ، وكان كذلك وكان سراقة لم يسلم إذ ذاك ثم أسلم بعد ذلك (٢) . ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ أي تعاطيه فسق وغي وضلالة وجهالة وشرك ، وقد أمر اللَّه المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه ثم يسألوه في الأمر الذي يريدونه ، كما روي عن جابر بن عبد اللَّه قال : كان رسول اللَّه ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ويقول : « إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ ، ثُمَّ لِيَقُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ - وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِله - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ، فَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ » (٣) .

وقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني يئسوا أن يراجعوا دينهم . وكذا روي عن عطاء بن أبي رباح والسدي ومقاتل بن حيان ، وعلى هذا المعنى قد ورد أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنْ بِالتَّحْرِيشِ بَيْنَهُم » (٤) ويحتمل أن يكون المراد أنهم يئسوا من مشابهة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله ، ولهذا قال تعالى آمرًا لعباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار ، ولا يخافوا أحدًا إِلَّا اللَّه فقال : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ أي : لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم ، واخشوني أنصركم عليهم وأؤيدكم وأظفركم بهم وأشف صدوركم منهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ هذه أكبر نعم اللَّه تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات اللَّه وسلامه عليه ، ولهذا جعله اللَّه تعالى خاتم الأنبياء ، وبعثه إلى الإنس والجن ، فلا حلال إِلَّا ما أحله ، ولا حرام إِلَّا ما حرّمه ، ولا دين إِلَّا ما شرعه ، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ أي صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأوامر

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٤/١) والبيهقي في السنن (١٥٨/٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥/٤ ، ١٧٦) .
(٣) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٢) وأحمد في مسنده (٣٤٤/٣) وأبو داود في السنن (١٥٣٨) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٤/٣) والهندي في كنز العمال (١٢٤٦) والسيوطي في الدر المنثور (٢٥٧/٢) .

والنواهي ، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم ، فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه . وقال ابن عبّاس : قوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ وهو الإسلام أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا ، وقد أتمّه الله فلا ينقصه أبدًا ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا . وقال السدي : نزلت هذه الآية يوم عرفة ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام .

وقال ابن جرير : مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يومًا . وعن هارون بن عنترة عن أبيه قال : لما نزلت ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ وذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر ، فقال له النبيّ ﷺ : « مَا يُبْكِيكَ ؟ » قال : أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شيء إلّا نقص ، فقال : « صَدَقْتَ » ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت : « إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ » [١] وعن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا . قال : وأي آية ؟ قال : قوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ فقال عمر : والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ ، عشية عرفة في يوم جمعة [٢] . ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية قال : قالت اليهود لعمر : إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدًا ، فقال عمر : إني لأعلم حين أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت : يوم عرفة وأنا والله بعرفة . قال سفيان : وأشك كان يوم الجمعة أم لا ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الآية [٣] . قال كعب : لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيدًا يجتمعون فيه ، فقال عمر : أي آية يا كعب ؟ فقال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فقال عمر : قد علمت اليوم الذي أنزلت فيه ، والمكان الذي أنزلت فيه ، نزلت في يوم الجمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد .

وقال عمار - وهو مولى بني هاشم - أن ابن عبّاس قرأ ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ فقال يهودي : لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيدًا ، فقال ابن عبّاس : فإنها نزلت في يوم عيدين اثنين ، يوم عيد ويوم جمعة .

وقوله : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك ، فله تناوله والله غفور رحيم له ؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك ، فيتجاوز عنه ويغفر له ، وعن ابن عمر مرفوعًا قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ » [٤] ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجبًا في بعض الأحيان ، وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها ،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٦) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/١) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٢) والبيهقي في السنن (١٤٠/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٢/٣) .

وقد يكون مندوبًا ، وقد يكون مباحًا بحسب الأحوال ، واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق ، أو له أن يشبع ، أو يشبع ويتزود ؟ على أقوال ؛ كما هو مقرر في كتاب الأحكام ، وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير أو صيدًا وهو محرم ، هل يتناول الميتة أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء ، أو ذلك الطعام ويضمن بدله ، على قولين هما قولان للشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ . وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعامًا ، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم ، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له ، وقد قال حسان بن عطية : عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا يا رسول الله : إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة فمتى تحل لنا بها الميتة ؟ فقال : « إِذَا لَمْ تَصْطَبِحُوا ، وَلَمْ تَغْتَبِقُوا ، وَلَمْ تَحْتَفِئُوا بِهَا بَقلًا فَشَأْنكُمْ بِهَا »(١) . وقال ابن جرير : يروى هذا الحرف يعني قوله « أَوْ تَحْتَفِئُوا » على أربعة أوجه : تحفئوا بالهمزة ، وتحتفيوا بتخفيف الياء والحاء ، وتحتفُّوا بتشديد ، وتحتفوا بالحاء وبالتخفيف ، ويحتمل الهمز كذا رواه في التفسير .

قال النجيع العامري أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : ما يحل لنا من الميتة ، قال : « مَا طَعَامُكُمْ ؟ » قلنا : نصطبح ونغتبق (٢) . وقال أبو نعيم : فسره لي عقبة : قدح غدوة وقدح عشية قال : ذاك وأبي الجوع ، وأحل لهم الميتة على هذه الحال . وكأنهم كانوا يصطبحون ويغتبقون شيئًا لا يكفيهم فأحل لهم الميتة لتمام كفايتهم ، وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع ، ولا يتقيد ذلك بسد الرمق ، والله أعلم .

وعن جابر عن سمرة أن رجلًا نزل الحرة ومعه أهله وولده ، فقال له رجل : إن ناقتي ضلت فإن وجدتها فأمسكها ، فوجدها ولم يجد صاحبها . فمرضت فقالت له امرأته : انحرها فأبى فنفقت ، فقالت له امرأته : اسلخها حتى تقدد شحمها ولحمها فنأكله ، قال : لا ، حتى أسأل رسول الله ﷺ ، فأتاه فسأله فقال : « هَلْ عِنْدَكَ غِنىً يُغْنِيكَ » ؟ قال : لا ، قال : « فَكُلُوهَا » قال : فجاء صاحبها فأخبره الخبر فقال : هلا كنت نحرتها ؟ قال : استحييت منك (٣) . وقد يحتج به من يجوز الأكل والشبع والتزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها والله أعلم .

وقوله : ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴾ أي متعاط لمعصية الله فإن الله قد أباح ذلك له ، وسكت عن الآخر كما قال في سورة البقرة : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقد استدل بهذه الآية من يقول : بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر لأن الرخص لا تنال بالمعاصي والله أعلم .

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها إما في بدنه أو في دينه أو فيهما ، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ قال بعدها : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث . فعن سعيد بن جبير أن عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين ، سألا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٥) والبيهقي في السنن (٣٥٦/٩) والحاكم في المستدرك (١٢٥/٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨١٧) . (٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨١٦) .

رسول الله ﷺ ، فقالا : يا رسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ؟ فنزلت ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ قال سعيد : يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم . وقال مقاتل : الطيبات ما أحلّ لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ أي أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها ، والطيبات من الرزق ، وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح ، وهي الكلاب والفهود والصقور وأشباهها ، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة . وعن ابن عمر قال : أما ما صاد من الطير البازات وغيرها من الطير فما أدركت فهو لك ، وإلّا فلا تطعمه ، قلت : والمحكي عن الجمهور أن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب ؛ لأنها تكلب الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب فلا فرق ، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم ، واختاره ابن جرير واحتج في ذلك بما رواه عدي بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال : « مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَكُلْ »[١] .

واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود لأنه عنده مما يجب قتله ، ولا يحل اقتناؤه لما روي عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال : « يَقْطَعُ الصَّلاَةَ الْحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ وَالْكَلْبُ الأَسْوَدُ » فقلت : ما بال الكلب الأسود من الأحمر ؟ فقال : « الْكَلْبُ الأَسْوَدُ شَيْطَانٌ »[٢] . وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب ، ثم قال : « مَا بَالُهُمْ وَبَالُ الْكِلاَبِ اقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بَهِيمٍ »[٣] وعن سلمى أم رافع عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب فقتلت ، فجاء الناس فقالوا : يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ فسكت ، فأنزل الله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ الآية ، فقال النبيّ ﷺ : « إِذَا أَرْسَلَ الرَّجُلُ كَلْبَهُ وَسَمَّى فَأَمْسَكَ عَلَيْهِ فَلْيَأْكُلْ مَا لَمْ يَأْكُل »[٤] .

وقوله : ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ يحتمل أن يكون حالًا من الضمير في ﴿ عَلَّمْتُم ﴾ فيكون حالًا من الفاعل ، ويحتمل أن يكون حالًا من المفعول وهو الجوارح ، أي وما علّمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها ، فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته وبمخلابه وظفره أنه لا يحل له كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء ، ولهذا قال : ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل ، وإذا أشلاه استشلى ، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسكه لنفسه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ فمتى كان الجارح معلمًا وأمسك على صاحبه ، وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله ، حل الصيد وإن قتله بالإجماع . وقد وردت السنّة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة كما ثبت في الصحيحين : عن عدي بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله ، فقال : « إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ » قلت :

(١) أخرجه الدارمي في السنن (٨٩/٢) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧/٦) والهندي في كنز العمال (٤٠٠١١) .
(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٩٣) والنسائي في السنن (٣٣٧) .
(٤) أخرجه مسلم في الصيد (٣) وأحمد في مسنده (٣٧٩/٤) والسيوطي في الدر المنثور (٥٩/٢) .

وإن قتلن ؟ قال : « وَإِنْ قَتَلْنَ ، مَا لَمْ يَشْرَكْهَا كَلْبٌ لَيْسَ مِنْهَا فَإِنَّكَ إِنَّمَا سَمَّيْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى غَيْرِهِ » قلت له : فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب ؟ فقال : « إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَزَقَ فَكُلْهُ ، وَإِنْ أَصَابَهُ بِعَرْضٍ فَإِنَّهُ وَقِيذٌ فَلا تَأْكُلْهُ »(١) وفي لفظ لهما « إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ فَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ فَإِنْ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَأَدْرَكْتَهُ حَيًّا فَاذْبَحْهُ وَإِنْ أَدْرَكْتَهُ قَدْ قَتَلَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ فَكُلْهُ فَإِنَّ أَخْذَ الْكَلْبِ ذَكَاتُهُ »(٢) وفي رواية لهما : « فَإِنْ أَكَلَ فَلاَ تَأْكُلْ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ »(٣) .

ذكر الآثار بذلك

عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين ، فقال النبيّ ﷺ : « أما إِنَّهُ لَوْ كَانَ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ لَكَفَاكُمْ فَإِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ ، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلَه وَآخِره »(٤) .

وعن أبي حذيفة قال : كنا إذا حضرنا مع النبي على طعام لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله فيضع يده ، وإنا حضرنا معه طعامًا فجاءت جارية كأنما تدفع ، فذهبت تضع يدها في الطعام ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها ، وجاء أعرابي كأنما يدفع فذهب يضع يده في الطعام فأخذ رسول الله بيده فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ إِذَا لَمْ يُذْكَر اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا ، وَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعْ يَدِهِمَا »(٥) .

وعن جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ قال : « إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ : لا مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ ، وَإِذَا دَخَلَ وَلَمْ يَذْكُر اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ : أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ ، فَإِذَا لَمْ يَذْكُر اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ أَدْرَكْتُم الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ »(٦) .

وعن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلًا قال للنبي ﷺ : إنا نأكل وما نشبع ، قال : « فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ . اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ »(٧) .

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات ، قال بعده : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى ، فقال : ﴿ وَطَعَامُ

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٤٨٧) ومسلم في الصيد (١) والبيهقي في السنن (٢٣٥/٩) .
(٢) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٤٨٤) ومسلم في الصيد (٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٨/٤) والطبراني في الكبير (٧٤/١٧) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٣/٦) وابن ماجه في السنن (٣٢٦٤) والبيهقي في السنن (٢٧٦/٧) .
(٥) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٢) وأحمد في مسنده (٣٨٢/٥) وأبو داود في السنن (٣٧٦٦) .
(٦) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٣) وأحمد في مسنده (٣٨٣/٣) وأبو داود في السنن (٣٧٦٥) .
(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠١/٣) وأبو داود في السنن (٣٧٦٤) وابن ماجه في السنن (٣٢٨٦) .

﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قال ابن عبَّاس : يعني ذبائحهم . وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء : إن ذبائحهم حلال للمسلمين ؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير اللَّه ولا يذكرون على ذبائحهم إلَّا اسم اللَّه ، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه تعالى وتقدس . وقد روي عن عبد اللَّه بن مغفل قال : أدلي بجراب من شحم يوم خيبر فحضنته وقلت : لا أعطي اليوم من هذا أحدًا ، والتفت فإذا النبيّ ﷺ يتبسم . فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة وهذا ظاهر . واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم ، فالمالكية لا يجوزون للمسلمين أكله لقوله تعالى : ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قالوا : وهذا ليس من طعامهم واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث ، وفي ذلك نظر لأنه قضية عين ويحتمل أن يكون شحمًا يعتقدون حله كشحم الظهر والحوايا ونحوهما واللَّه أعلم .

وقد ورد أن أهل خيبر أهدوا لرسول اللَّه ﷺ شاة مصلية ، وقد سموا ذراعها ، وكان يعجبه الذراع فتناوله فنهش منه نهشة فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه ، وأثر ذلك في ثنايا رسول اللَّه ﷺ وفي أبهره وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات ، فقتل اليهودية التي سمتها [(١)] وكان اسمها زينب ، ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ولم يسألها هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا ، وفي الحديث الآخر أن رسول اللَّه ﷺ أضافه يهودي على خبز شعير وأهالة سنخة يعني ودكًا زنخًا [(٢)] ، وعن مكحول قال : أنزل اللَّه ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ثم نسخه الرب ﷻ ورحم المسلمين فقال : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب .

وقوله تعالى : ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ أي : ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم ، وليس هذا إخبارًا عن الحكم عندهم اللهم إلَّا أن يكون خبرًا عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم اللَّه عليه ، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها ، والأول أظهر في المعنى أي : ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم ، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة ، كما ألبس النبيّ ﷺ ثوبه لعبد اللَّه بن أبي ابن سلول حين مات ودفنه فيه ، قالوا : لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه فجازاه النبيّ ﷺ ذلك بذلك ، فأما الحديث الذي فيه : « لاَ تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلاَ يَأْكُل طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ » [(٣)] فمحمول على الندب والاستحباب واللَّه أعلم .

وقوله : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات ، وذكر هذا توطئة لما بعده وهو قوله تعالى : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فقيل : أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء ، حكاه ابن جرير عن مجاهد وإنما قال مجاهد : المحصنات الحرائر ، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه ، ويحتمل أن يكون أراد بالحرة العفيفة كما قال في الرواية الأخرى عنه ، وهو قول الجمهور ههنا والأشبه لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهي مع ذلك غير عفيفة ، فيفسد حالها

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٥٠٨) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٣/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/٣) والدارمي في السنن (١٠٣/٢) والهندي في كنز العمال (٢٤٧٨٥) .

بالكلية ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل « حشفًا وسوء كيلة » ، والظاهر من الآية أن المراد من المحصنات العفيفات عن الزنى ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ ، ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ هل يعم كل كتابية عفيفة سواء كانت حرة أو أمة ، حكاه ابن جرير ، وقيل : المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات ، وهو مذهب الشافعي ، وقيل : المراد بذلك الذميات دون الحربيات ؛ لقوله : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ الآية . وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية ، ويقول : لا أعلم شركًا أعظم من أن تقول : إن ربها عيسى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ الآية . وعن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ قال : فحجز الناس عنهن حتى نزلت الآية التي بعدها ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فنكح الناس نساء أهل الكتاب ، وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ، ولم يروا بذلك بأسًا أخذًا بهذه الآية الكريمة ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها ، وإلّا فلا معارضة بينها وبينها ؛ لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع كقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي مهورهن ، أي كما هن محصنات عفائف ، فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس .

وقوله : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ فكما شرط الإحصان في النساء وهي العفة عن الزنى ، كذلك شرطها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضًا محصنًا عفيفًا ، ولهذا قال : غير مسافحين وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ولا يردون أنفسهم عمن جاءهم ، ولا متخذي أخدان أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلّا معهن كما تقدم في سورة النساء سواء ، ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغي حتى تتوب ، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف ، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقلع عما هو فيه من الزنى لهذه الآية ، وللحديث : « لا يَنْكِح الزَّاني المَجْلُودُ إلَّا مِثْلَهُ » (١) . قال عمر بن الخطاب : لقد هممت أن لا أدع أحدًا أصاب فاحشة في الإسلام أن يتزوج محصنة ، فقال له أبي بن كعب : يا أمير المؤمنين الشرك أعظم من ذلك ، وقد يقبل منه إذا تاب .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

قال كثيرون من السلف في قوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ يعني وأنتم محدثون ، وقال آخرون : إذا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤/٢) وأبو داود في السنن (٢٠٥٢) والهندي في كنز العمال (٤٤٦٩٧) .

قمتم من النوم إلى الصلاة وكلاهما قريب . وقال آخرون : بل المعنى أعم من ذلك فالآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المحدث واجب ، وفي حق المتطهر ندب ، وقد قيل إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجبًا في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ . وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان النبيّ ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر : يا رسول الله إنك فعلت شيئًا لم تكن تفعله قال : « إِنِّي عَمْدًا فَعَلْتُهُ يا عُمَرُ »[(١)] .

وعن الفضل بن المبشر قال : رأيت جابر بن عبد الله يصلي الصلوات بوضوء واحد ، فإذا بال أو أحدث توضأ ومسح بفضل طهوره الخفين ، فقلت : أبا عبد الله أشيءٌ تصنعه برأيك ؟ قال : بل رأيت النبيّ ﷺ يصنعه ، فأنا أصنعه كما رأيت رسول الله يصنعه .

وعن ابن سيرين أن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة ، وقال عكرمة : كان علي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ويقرأ هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الآية .

وقال أنس : توضأ عمر بن الخطاب وضوءًا فيه تجوز خفيفًا ، فقال : هذا وضوء من لم يحدث . وعن عمرو بن عامر الأنصاري ، سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبيّ ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، قال : قلت : فأنتم كيف كنتم تصنعون ؟ قال : كنا نصلي الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم نحدث[(٢)] ، وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَوَضَّأَ عَلَى طُهْرٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ »[(٣)] .

وقد قال قوم : إن هذه الآية نزلت إعلامًا من الله أن الوضوء لا يجب إلَّا عند القيام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال ؛ وذلك لأنه ﷺ كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ . وعن عبد الله بن علقمة بن وقاص عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أراق البول نكلمه فلا يكلمنا ، ونسلم عليه فلا يرد علينا ، حتى نزلت آية الرخصة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ قد استدل طائفة من العلماء بقوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ على وجوب النية في الوضوء ؛ لأن تقدير الكلام ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ لها كما تقول العرب : إذا رأيت الأمير فقم أي له . وقد ثبت في الصحيحين حديث : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى »[(٤)] ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه ، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة عن النبيّ ﷺ أنه قال : « لا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ »[(٥)] . ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء ، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم لما ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلاَ يُدْخِلْ يده في الإِنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَغْسِلَهَا ثَلاَثًا فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لاَ يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ »[(٦)] . وحدّ الوجه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٨/٥) والسيوطي في الدر المنثور (٢٦١/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢١٤) وأحمد في مسنده (١٣٢/٣) وأبو داود في السنن (١٧١) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٦٢) والترمذي في السنن (٥٩ ، ٦١) وابن ماجه في السنن (٥١٢) .
(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١) ومسلم في الإمارة (١٥٥) وأحمد في مسنده (٢٥/١) .
(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/٥) وأبو داود في السنن (١٠٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٨/١) .
(٦) أخرجه مسلم في الطهارة (٨٧) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢ ، ٤٥٥) وأبو داود في السنن (١٠٥) .

عند الفقهاء ما بين منابت شعر الرأس – ولا اعتبار بالصلع ولا بالغمم – إلى منتهى اللحيين والذقن طولًا ، ومن الأذن إلى الأذن عرضًا . وفي المسترسل من اللحية يستحب إفاضة الماء عليها وتخليلها .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفًا من ماء فأدخله تحت حنكه ، يخلل به لحيته وقال : « هَكَذَا أَمَرَنِي بِهِ رَبِّي ﷻ »[(١)] وقد ثبت عن النبيّ ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق ، فاختلف الأئمة في ذلك : هل هما واجبان في الوضوء والغسل كما هو مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله ، أو مستحبّان فيهما كما هو مذهب الشافعي ومالك لما ثبت في الحديث عن رفاعة بن رافع الزرقي أن النبيّ ﷺ قال للمسيء صلاته : « تَوَضَّأْ كَمَا أَمَرَكَ اللَّه »[(٢)] ، أو يجبان في الغسل دون الوضوء كما هو مذهب أبي حنيفة ، أو يجب الاستنشاق دون المضمضة ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ تَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْشِقْ »[(٣)] وفي رواية : « إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي مِنْخَرَيْهِ مِنَ الْمَاءِ ثُمَّ لِيَنْتَثِرْ »[(٤)] والانتثار هو المبالغة في الاستنشاق .

وعن ابن عبّاس أنه توضأ فغسل وجهه ، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر ، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا – يعني أضافها إلى يده الأخرى فغسل بها وجهه – ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى ، ثم مسح رأسه ، ثم أخذ غرفة من ماء ، ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يعني يتوضأ . وقوله : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ أي مع المرافق ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ .

ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه ، لما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ »[(٥)] وعن أبي هريرة أيضًا قال : سمعت خليلي ﷺ يقول : « تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ »[(٦)] . وقوله : ﴿ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ اختلفوا في هذه الباء هل هي للإلصاق وهو الأظهر ، أو للتبعيض وفيه نظر على قولين ، ومن الأصوليين من قال : هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنّة ، وقد ورد عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أن رجلًا قال لعبد الله بن زيد بن عاصم كان من أصحاب النبيّ ﷺ : هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد : نعم ، فدعا بوضوء فأفرغ على يديه ، فغسل يديه مرتين ثم مضمض واستنشق ثلاثًا وغسل وجهه ثلاثًا ، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر ، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه ثم غسل رجليه . وهذا دلالة لمن ذهب إلى

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٤٥) والبيهقي في السنن (٥٤/١) والهندي في كنز العمال (١٧٨٣٤) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٨٦١) وذكره الزيلعي في نصب الراية (٣٦٧/١) .
(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٢) وأحمد في مسنده (٣١٦/٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦١) ومسلم في الطهارة (٢٢) ومالك في الموطأ (١٩) .
(٥) أخرجه البخاري في الوضوء (١٣٦) ومسلم في الطهارة (٣٥) .
(٦) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٠) وأحمد في مسنده (٣٧١/٢) والبيهقي في السنن (٥٧/١) .

وجوب تكميل مسح جميع الرأس كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن . وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس وهو مقدار الناصية وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح ولا يتقدر ذلك بحد ، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه ، واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة قال : تخلف النبيّ ﷺ فتخلفت معه ، فلما قضى حاجته قال : هل معك ماء فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه ، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة ، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه ، فغسل ذراعيه ومسح بناصيته ، وعلى العمامة وعلى خفيه . فقال لهم أصحاب الإمام أحمد : إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة ، ونحن نقول بذلك ، وأنه يقع عن الموقع ، كما وردت بذلك أحاديث كثيرة ، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين فهذا أولى وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة والله أعلم .

ثم اختلفوا في أنه هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثًا كما هو المشهور من مذهب الشافعي ، وإنما يستحب مسحة واحدة كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه على قولين ، فعن حمران بن أبان قال : رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثًا فغسلهما ثم تمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثًا ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثًا ثم غسل اليسرى مثل ذلك ، ثم مسح برأسه ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثًا ثم اليسرى ثلاثًا مثل ذلك ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم قال : « مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (١) . وعن عثمان في صفة الوضوء : ومسح برأسه مرة واحدة .

وقوله : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ قرئ ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ . وعن ابن عباس أنه قرأها ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ يقول : رجعت إلى الغسل ، وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل كما قاله السلف (٢) ، ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما هو مذهب الجمهور ، خلافًا لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ثم وجهه أجزأه ذلك ؛ لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء ، والواو لا تدل على الترتيب .

ومنهم من قال : لما ذكر الله تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب فقطع النظير عن النظير وأدخل الممسوح بين المغسولين دل ذلك على إرادة الترتيب ، وأما القراءة الأخرى وهي قراءة من قرأ ﴿ وأرجلِكم ﴾ بالخفض ، فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين ؛ لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس . وقد روي عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح .

وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام ، كما في قول العرب : (جحر ضب خرب) وكقوله تعالى : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ وهذا ذائع شائع في لغة العرب سائغ ، ومنهم من قال : هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهم الخفان ، قاله أبو عبد الله

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٥٩) ومسلم في الطهارة (١٢) وأحمد في مسنده (٥٩/١) .
(٢) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب وحفص والكسائي بالنصب والباقون بالجر (انظر تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٧) .

الشافعي رحمه الله ، ومنهم من قال : هي دالة على مسح الرجلين ، ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف كما وردت به السنّة ، وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضًا لابد منه للآية والأحاديث التي سنوردها ، فعن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر ثم قعد في حوائج الناس في رحبة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر ، ثم أتي بكوز من ماء فأخذ منه حفنة واحدة فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه ، ثم قام فشرب فضلته وهو قائم ، ثم قال : إن ناسًا يكرهون الشرب قائمًا وإن رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ، وقال : « هَذَا وُضُوءُ مَنْ لَمْ يُحدثْ » (١) .

ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف فقد ضل وأضل ، وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضًا ، ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث وأوجب مسحهما للآية فلم يحقق مذهبه في ذلك فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب دلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء ؛ لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك فأوجب دلكهما ليذهب ما عليهما ، ولكنه عبر عن الدلك بالمسح فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما ، فحكاه من حكاه كذلك ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور ، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل ، سواء تقدمه أو تأخر عليه ؛ لاندراجه فيه ، وإنما أراد الرجل ما ذكرته والله أعلم . ثم تأملت كلامه أيضًا فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله : ﴿ وأرجلِكم ﴾ خفضًا على المسح وهو الدلك ونصبًا على الغسل فأوجبهما أخذًا بالجمع بين هذه وهذه .

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لابد منه

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه ، إما مرة وإما مرتين أو ثلاثًا على اختلاف رواياتهم ، وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه ثم قال : « هَذَا وُضُوءٌ لاَ يَقْبَلُ اللَّه الصَّلاةَ إلَّا بِهِ » (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها ، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة صلاة العصر ونحن نتوضأ ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته : « أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ ، وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ » (٣) ، وعن عبد الله بن الحارث بن حرز أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « وَيْلٌ لِلأَعْقَاب وَبُطُونِ الأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ » (٤) وعن أبي إسحاق أنه سمع سعيد بن أبي كرب أو شعيب بن أبي كرب قال : سمعت جابر بن عبد الله وهو على جبل يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « وَيْلٌ لِلعَرَاقِيبِ مِنَ النَّارِ » (٥) .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧٥/١) وابن خزيمة في صحيحه (١٦) .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣٩/١) وذكره ابن حجر في فتح الباري (٢٣٣/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٥) ومسلم في الطهارة (٢٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٩١/٤) والترمذي في سننه (٤١) .

(٥) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٩) وأحمد في مسنده (٣٦٩/٣) .

وروي عن عاصم بن لقيط بن صبرة عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله أخبرني عن الوضوء فقال : « أَسْبِغِ الْوُضُوءَ وَخَلِّلْ بَيْنَ الأَصَابِعِ ، وَبَالِغْ فِي الاسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا »[١] .

وعن عمرو بن عبسة قال : قلت : يا رسول الله أخبرني عن الوضوء ؟ قال : « ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُقَرِّبُ وُضُوءَهُ ثُمَّ يَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ وَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَاهُ مِنْ فَمِهِ وَخَيَاشِيمِهِ مَعَ الْمَاءِ حِينَ يَنْتَثِرُ ، ثُمَّ يَغْسِلُ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ أَنَامِلِهِ ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا قَدَمَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ مَعَ الْمَاءِ ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ، ثُمَّ يَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ ، إِلَّا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » قال أبو أمامة : يا عمرو انظر ما تقول سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، أيعطى هذا الرجل كله في مقامه ؟ فقال عمرو بن عبسة : يا أبا أمامة لقد كبرت سني ورق عظمي واقترب أجلي وما بي حاجة أن أكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ ، لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلَّا مرة أو مرتين أو ثلاثًا ، لقد سمعته سبع مراتٍ أو أكثر من ذلك[٢] . ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن علي أن رسول الله ﷺ رش على قدميه الماء وهما في النعلين ، فدلكهما ، إنما أراد غسلًا خفيفًا وهما في النعلين ، ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها ، ولكن في هذا رد على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين .

وقد صح عنه ﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض القاطع عذر من انتهى إليه وبلغه ، ولما كان القرآن آمرًا بغسل الرجلين كما في قراءة النصب وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليها ، توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين . وقد روي ذلك عن علي بن أبي طالب ولكن لم يصح إسناده ، ثم الثابت عنه خلافه وليس كما زعموه ، فإنه قد ثبت أن النبيّ ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة . عن جرير بن عبد الله البجلي قال : أنا أسلمت بعد نزول المائدة ، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت[٣] . وعن همام قال : بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل : تفعل هذا ؟ فقال : نعم رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه . قال الأعمش : قال إبراهيم : فكان يعجبهم هذا الحديث ؛ لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة[٤] .

وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولًا منه وفعلًا كما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير ، مع ما يحتاج إلى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه كما هو مبسوط في موضعه ، وقد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند ، بل بجهل وضلال مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٥] كما ثبت في الصحيحين

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٥٥) والترمذي في سننه (٧٨٨) وابن ماجه في سننه (٤٤٨) .
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٩٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/٤٥٥) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/٣٩٣) . (٤) أخرجه مسلم في الطهارة (٧٢) .
(٥) انظر صحيح مسلم في الطهارة (٨٥) وفيه أن رسول الله ﷺ جعل مدة المسح ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ، ويومًا وليلة للمقيم .

عنه عن النبيّ ﷺ النهي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها[١] ، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة ، وهم مخالفون لذلك كله وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر ولله الحمد ، وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين ، فعندهم أنهما في ظهر القدم فعندهم في كل رجل كعب ؛ وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم .

وقوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء .

وقوله تعالى : ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر ، بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم ورحمة بكم ، وجعله في حق من شرع له يقوم مقام الماء إلّا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه وكما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير .

وقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة ، وقد وردت السنّة بالحث على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة ، كما روي عن عقبة بن عامر قال : كانت علينا رعاية الإبل فجاءت نوبتي فروحتها بعشي ، فأدركت رسول الله ﷺ قائمًا يحدث الناس فأدركت من قوله : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلًا عَلَيْهِما بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ » قال : قلت : ما أجود هذه فإذا قائل بين يدي يقول : التي قبلها أجود منها ، فنظرت فإذا عمر رضي الله عنه ، فقال : إني قد رأيتك جئت آنفًا ، قال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الوُضُوءَ يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّه ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّها شَاءَ »[٢] .

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ .

يقول تعالى مذكرًا عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم ، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته ، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه فقال تعالى : ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم كما قالوا : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله ،

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٢٣) وأحمد في مسنده (٧٩/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٤/٧) .
(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١٧) .

وقيل : هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمّد ﷺ والانقياد لشرعه ، رواه ابن عبّاس . وقيل : هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ والقول الأول أظهر ، وهو المحكي عن ابن عبّاس ، قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال ، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ أي كونوا قوامين بالحق لله ﷻ لا لأجل الناس والسمعة ، وكونوا ﴿ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل لا بالجور ، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان ابن بشير أنه قال : نحلني أبي نحلًا ، فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي ، فقال : « أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحلتَ مِثْلَهُ ؟ » قال : لا ، فقال : « اتَّقُوا اللَّه وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ » ، وقال : « إِنِّي لاَ أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ » قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقًا كان أو عدوًّا ، ولهذا قال : ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه كما في نظائره من القرآن وغيره ، وقوله : ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ وكقول بعض الصحابيات لعمر : أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ (٢) ، ثم قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي وسيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده ، لا ينالونها بأعمالهم بل برحمة منه وفضل ، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم ، وهو تعالى الذي جعلها أسبابًا إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه ، فالكل منه وله ، فله الحمد والمنة . ثم قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وهذا من عدله تعالى وحكمته وحكمه الذي لا يجور فيه ، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير .

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ عن جابر أن النبيّ ﷺ نزل منزلًا وتفرق الناس في العضاه يستظلون تحتها ، وعلق النبيّ ﷺ سلاحه بشجرة فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسله ، ثم أقبل على النبيّ ﷺ فقال : من يمنعك مني ؟ قال : « اللَّه ﷻ » قال الأعرابي مرتين أو ثلاثًا : من يمنعك مني ؟ والنبيّ ﷺ يقول : « اللَّه » ، قال فشام الأعرابي السيف ، فدعا النبيّ ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه (٣) . وقال معمر : كان قتادة يذكر نحو هذا ويذكر أن قومًا

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٨٦) ومسلم في الهبات (١٣) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٩٤) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٢) والإمام أحمد في مسنده (١٧١/١) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٣٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٦٥/٣ ، ٣٩٠) .

من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ ، فأرسلوا هذا الأعرابي وتأول ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ الآية . وقصة هذا الأعرابي وهو غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح[١] ، وقال العوفي : عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ وذلك أن قومًا من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعامًا ليقتلوهم ، فأوحى الله إليه بشأنهم فلم يأت الطعام ، وأمر أصحابه فأتوه[٢] . وقال مجاهد وعكرمة وغير واحد أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين ، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك ، وأمروه إن جلس النبيّ ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده ، أن يلقي تلك الرحى من فوقه ، فأطلع الله النبيّ ﷺ على ما تمالؤوا عليه ، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه ، فأنزل الله في ذلك هذه الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ يعني من توكل على الله كفاه الله ما أهمه وحفظه من شر الناس وعصمه ، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدو إليهم فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمّد ﷺ ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل ، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى ، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم ، وطردًا عن بابه وجنابه ، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق وهو العلم النافع والعمل الصالح ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه ، وقد ذكر ابن عباس أن هذا كان لما توجه موسى ﷺ لقتال الجبابرة ، فأمر بأن يقيم نقباء من كل سبط نقيب .

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيبًا ، ثلاثة من الأوس وهم : أسيد بن الحضير وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر ، ويقال بدله : وأبو الهيثم بن التيهان ﷺ ، وتسعة من الخزرج وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة ورافع بن مالك بن العجلان والبراء بن معرور وعبادة بن الصامت وسعد بن عبادة وعبد الله بن عمرو بن حرام والمنذر بن عمر بن

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة . (٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٦٦) .

خنيس ﷺ ، والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذ عن أمر النبيّ ﷺ لهم بذلك ، وهم الذين ولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة . وعن مسروق قال : كنا جلوسًا عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن هل سألتم رسول الله ﷺ كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبد الله : ما سألني منها أحد منذ قدمت العراق قبلك ، ثم قال : نعم ولقد سألنا رسول الله ﷺ فقال : « اثْنَا عَشَرَ كَعِدَّةِ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ » (١) . وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سمرة قال : سمعت النبيّ ﷺ يقول : « لاَ يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً » ثم تكلم النبيّ ﷺ بكلمة خفيت علي ، فسألت أي ماذا قال النبيّ ﷺ ؟ قال : « كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ » (٢) ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحًا يقيم الحق ويعدل فيهم ، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم ، بل قد وجد أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ ، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة ، وبعض بني العباس ، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة ، والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره ، فذكر أنه يواطئ اسمه اسم النبيّ ﷺ واسم أبيه ، فيملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا ، وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامرا ؛ فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية ، بل هو من هوس العقول السخيفة ، وتوهم الخيالات الضعيفة ، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض لجهلهم وقلة عقلهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ أي : بحفظي وكلاءتي ونصري ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي ﴾ أي : صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ أي : نصرتموهم وآزرتموهم على الحق ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وهو الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ أي ذنوبكم أمحوها وأسترها ولا أؤاخذكم بها ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ أي : أدفع عنكم المحذور وأحصل لكم المقصود . وقوله : ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي : فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده ، وشذه وجحده وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح ، وعدل عن الهدى إلى الضلال . ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده فقال : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ ﴾ أي : فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم ، أي أبعدناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ﴾ أي : فلا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ أي : فسدت فهومهم وساء تصرفهم في آيات الله وتأولوا كتابه على غير ما أنزله ، وحملوه على غير مراده ، وقالوا عليه ما لم يقل عياذًا بالله من ذلك ﴿ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي : وتركوا العمل به رغبة عنه ، ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك ، وقال مجاهد وغيره : يعني بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله ﷺ ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر ، كما قال بعض السلف : ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق ، ولعل الله

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٨/١) . (٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٦) وأحمد في مسنده (٩٩/٥ ، ١٠٠) .

أن يهديهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعني به الصفح عمن أساء إليك ، وقال قتادة : هذه الآية ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾ منسوخة بقوله : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ أي : ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام وليسوا كذلك ، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومناصرته وموازرته واقتفاء آثاره ، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق ونقضوا العهود ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضًا ، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة ، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضًا ويلعن بعضهم بعضًا ، فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها ، ثم قال تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله ، وما نسبوه إلى الرب عز وجل وتعالى وتقدَّس عن قولهم علوًّا كبيرًا من جعلهم له صاحبة وولدًا ، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة : أنه قد أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم ، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل فقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أي : يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه ، ويسكت عن كثير مما غيّروه ولا فائدة في بيانه ، وعن ابن عبّاس رضي الله عنه قال : من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب . قوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ فكان الرجم مما أخفوه (١) ، ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيّه الكريم فقال : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ أي : طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي : ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور ، ويحصل لهم أحب الأمور ، وينفي عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٩٥/٤) .

يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا وحاكيًا بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم وهو عبد من عباد الله وخلق من خلقه أنه هو الله ، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا ، ثم قال مخبرًا عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه : ﴿ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ ﴾ أي : لو أراد ذلك فمن ذا الذي كان يمنعه منه ، أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك ، ثم قال : ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ أي : جميع الموجودات ملكه وخلقه وهو القادر على ما يشاء ، لا يُسأل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته ، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . ثم قال تعالى رادًّا على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم : ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ ﴾ أي : نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا ، ونقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم : إني ذاهب إلى أبي وأبيكم - يعني ربي وربكم - ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها في عيسى عليه السلام ، وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده ، ولهذا قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه .

قال الله تعالى رادًّا عليهم : ﴿ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ ﴾ أي : لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه ، فلم أعدَّ لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم ؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فلم يرد عليه ، فتلا عليه الصوفي هذه الآية ﴿ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ ﴾ وهذا الذي قاله حسن ، وله شاهد عن أنس قال : مر النبيُّ ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ ، فأقبلت تسعى وتقول : ابني ، ابني ، وسعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ما كانت هذه لتُلقي ولدها في النار ، قال : فحفظهم النبيّ ﷺ فقال : « لاَ وَاللَّهِ مَا يُلْقِي حَبِيبَهُ فِي النَّارِ »[1] . ﴿ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ ﴾ أي : لكم أسوة أمثالكم من بني آدم وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ ﴾ أي : هو فعّال لما يريد لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ ﴾ أي : الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه ﴿ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ أي : المرجع والمآب إليه ؛ فيحكم في عباده بما يشاء وهو العادل الذي لا يجور . وعن ابن عبّاس قال : وأتى رسولَ الله ﷺ نعمان بن آصا وبحر بن عمرو وشاس بن عدي ، فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته ، فقالوا : ما تخوفنا يا محمّد نحن والله أبناء الله وأحباؤه ، كقول النصارى ، فأنزل الله فيهم ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ ﴾ إلى آخر الآية[2] . أما قولهم : نحن أبناء الله ، فإنهم قالوا : إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدك بكري من الولد فيدخلهم النار فيكونون فيها أربعين ليلة ، حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ، ثم ينادي منادٍ أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل ، فأخرجوهم فذلك قولهم : لن تمسنا النار إلَّا أيامًا معدودات .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٠٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٨٣) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٦/٢٢٤) .

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا أهل الكتاب من اليهود والنصارى : بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمّدًا ﷺ خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ولا رسول ، بل هو المعقب لجميعهم ، ولهذا قال : ﴿ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ أي : بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم ، وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي فقال أبو عثمان النهدي وقتادة في رواية عنه : كانت ستمائة سنة ، ورواه البخاري عن سلمان الفارسي وعن قتادة خمسمائة وستون سنة ، وقال الضحاك : أربعمائة وبضع وثلاثون سنة ، والمشهور هو القول الأول وهو أنها ستمائة سنة ، ومنهم من يقول : ستمائة وعشرون سنة ، ولا منافاة بينهما ، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية والآخر أراد قمرية ، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين ، ولهذا قال تعالى في قصة أهل الكهف : ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ أي : قمرية لتكميل ثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب .

وكانت الفترة بين عيسى ابن مريم ، آخر أنبياء بني إسرائيل ، وبين محمّد خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق ، كما ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ » (١) . وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له : خالد بن سنان كما حكاه القضاعي وغيره .

وعن عياض بن حماد المجاشعي ﷺ أن النبيّ ﷺ خطب ذات يوم ، فقال في خطبته : « وَإِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا ، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتَتْهُمْ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ يَا رَبِّ : إِذَنْ يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً ، فَقَالَ : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ ، وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةَ أَمْثَالِهِ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ مُتَصَدِّقٌ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ ، وَرَجُلٌ عَفِيفٌ فَقِيرٌ ذُو عِيَالٍ ، وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا دِينَ لَهُ ، وَالَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعٌ أَوْ تَبَعًا - شَكَّ يَحْيَى - لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ » . وذكر البخيل أو الكذاب والشنظير الفاحش (٢) . والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله : « وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَجَمَهُمْ وَعَرَبَهُمْ إِلَّا بقايا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ، وفي لفظ مسلم « من أهل الكتاب » وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمّدًا ﷺ ،

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٤) ومسلم بنحوه في الجنة (٦٣) .

فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور ، وتركهم على المحجة البيضاء والشريعة الغراء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ أي : لئلا تحتجوا وتقولوا : يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر فقد جاءكم بشير ونذير ، يعني محمدًا ﷺ ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال ابن جرير : معناه إني قادر على عقاب من عصاني وثواب من أطاعني .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۞ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۞ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۞ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۞ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ﷺ فيما ذكّر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ ﴾ أي : كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده ، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته حتى ختموا بعيسى ابن مريم ﷺ ، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسل على الإطلاق محمّد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم ﷺ وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ قال : الخادم والمرأة والبيت ، ﴿ وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ ، وعن ابن عبّاس قال : كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمي ملكا ، وقال السدي في قوله : ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله .

وقد ورد في الحديث « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » (١) وقوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يعني عالمي زمانكم ، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم كما قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ والمقصود أنهم كانوا أفضل زمانهم وإلّا فهذه الأمة أشرف منهم وأفضل عند الله وأكمل شريعةً وأقوم منهاجًا وأكرم نبيًا وأعظم ملوكًا وأغزر أرزاقًا وأكثر أموالًا وأولادًا وأوسع مملكة وأدوم عزًّا . قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ . ﴿ وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يعني أمة محمّد ﷺ والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه ، وهو محمول على عالمي زمانهم .

ثم قال تعالى مخبرًا عن تحريض موسى ﷺ لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٩/١٠) .

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ أي المطهرة ، وعن ابن عبّاس قال : هي الطور وما حوله ، وكذا قال مجاهد وغير واحد ، وروى سفيان الثوري عن ابن عبّاس قال : هي أريحاء ، وفي هذا نظر لأن أريحاء ليست هي المقصودة بالفتح ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس .

وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك اللَّه عدوهم فرعون إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ أي : التي وعدكموها اللَّه على لسان أبيكم إسرائيل أنه وراثة من آمن منكم ﴿ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ ﴾ أي : ولا تنكلوا عن الجهاد ﴿ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ أي : اعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها قومًا جبارين ذوي خلق هائلة وقوى شديدة ، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها ، فإن يخرجوا منها دخلناها وإلّا فلا طاقة لنا بهم .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخبارًا من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثون ذراعًا وثلث ذراع تحرير الحساب ، وهذا شيء يستحى من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه خَلَقَ آدَمَ وَطُولُهُ ستُّونَ ذِرَاعًا ، ثُمَّ لَمْ يَزَل الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ » [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ﴾ أي : فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة اللَّه ومتابعة رسول اللَّه موسى ﷺ حرضهم رجلان للَّه عليهما نعمة عظيمة ، وهما ممن يخاف أمر اللَّه ويخشى عقابه . وقرأ بعضهم ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يُخافون ﴾[(٢)] أي : ممن لهم مهابة وموضع من الناس ، ويقال : إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ، قاله ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة . ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ أي : إن توكلتم على اللَّه واتبعتم أمره ووافقتم رسوله نصركم اللَّه على أعدائكم وأيّدكم وظفركم بهم ، ودخلتم البلد التي كتبها اللَّه لكم فلم ينفع ذاك فيهم شيئًا ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ وهذا نكول منهم عن الجهاد ومخالفة لرسولهم وتخلّف عن مقاتلة الأعداء . وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسول اللَّه ﷺ حين استشارهم في قتال النفير الذين جاؤوا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان ، فلما فات اقتناص العير واقترب منهم النفير وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة والبيض واليلب ، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن ، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ، ورسول اللَّه ﷺ يقول : « أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا المُسْلِمُونَ » وما يقول ذلك إلّا ليستعلم ما عند الأنصار ؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ ، فقال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يا رسول اللَّه ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء(٣٣٢٦) وأحمد في مسنده(٢٥١/١) .
(٢) نُسِبت هذه القراءة إلى ابن عباس ، كذا في البحر المحيط(٤٥٥/٤) .

غدًا ، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء ، لعل اللَّه أن يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة اللَّه . فسر رسول اللَّه ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك [١] .

وعن أنس أن رسول اللَّه ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار : يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول اللَّه ﷺ ، قالوا : إذًا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك .

وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام . وقال داعيًا عليهم : ﴿ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ ﴾ أي : ليس أحد يطيعني منهم فيمتثل أمر اللَّه ويجيب إلى ما دعوت إليه إلَّا أنا وأخي هارون ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ قال العوفي عن ابن عبّاس : يعني اقض بيني وبينهم . وكذا قال الضحاك : اقض بيننا وبينهم وافتح بيننا وبينهم ، وقال غيره : افرق افصل بيننا وبينهم كما قال الشاعر :

يَـا رَبِّ فَـافْـرُقْ بَـيْـنَهُ وَبَـيْـنِي أَشَـدَّ مَـا فَـرَّقْـتَ بَـيْـنَ اثْـنَـيْـنِ

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ الآية ، قال : لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم اللَّه بتحريم دخولها عليهم قدر مدة أربعين سنة ، فوقعوا في التيه يسرون دائمًا لا يهتدون للخروج منه ، وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام وإنزال المنّ والسلوى عليهم ، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة ، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينًا تجري لكل شعب عين ، وغير ذلك من المعجزات التي أيّد اللَّه بها موسى بن عمران . وهناك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام ، وعملت قبة العهد ، ويقال لها : قبة الزمان . وعن سعيد بن جبير ، سألت ابن عبّاس عن قوله : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ الآية ، قال : فتاهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار ، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المنّ والسلوى وهذا قطعة من حديث الفتون ، ثم كانت وفاة هارون عليه السلام ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام ، وأقام اللَّه فيهم يوشع بن نون عليه السلام نبيًا خليفة عن موسى بن عمران ، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة ، ويقال : إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب ، ومن هنا قال بعض المفسرين في قوله : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ ﴾ هذا وقف تام ، وقوله : ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ ﴾ منصوب بقوله : ﴿ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني ، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها ، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر ، فلما تضيفت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم قال : إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علي . فحبسها اللَّه تعالى حتى فتحها ، وأمر اللَّه يوشع ابن نون أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجدًا وهم يقولون : حطة ، أي :

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (٨٣) .

حط عنا ذنوبنا فبدلوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون : حبة في شعرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ تسلية لموسى ﷺ عنهم أي : لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به فإنهم مستحقون ذلك . وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعتهما فيما أمراهم به من الجهاد ، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان ، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم ، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون لتقرَّ به أعينهم وما بالعهد من قدم ، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر ، لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم ، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام ، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ، ولا يسترها الذيل ، هذا وهم في جهلهم يعمهون ، وفي غيهم يترددون ، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه ، ويقولون مع ذلك : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود ، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود ، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجوه .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مبيِّنًا وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور ، وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغيًا عليه وحسدًا له فيما وهبه الله من النعمة ، وتقبّل القربان الذي أخلص فيه لله ﷻ ، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين ، فقال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ، وقوله : ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ، ولا وهم ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ، أن الله تعالى شرع لآدم ﷺ أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا : كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى ، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيل دميمة وأخت قابيل وضيئة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانًا فمن تقبل منه فهي له فتقبّل من هابيل ولم يتقبّل من قابيل فكان من أمرهما ما قصّه الله في كتابه .

ذكر أقوال المفسرين ههنا

عن ابن عبّاس وابن مسعود وناس من أصحاب النبيِّ ﷺ أنه كان لا يولد لآدم مولود إلَّا ولد معه جارية . فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر ، حتى ولد له ابنان يقال لهما : هابيل وقابيل ، وكان قابيل صاحب زرع وكان هابيل صاحب ضرع ، وكان قابيل أكبرهما وكان له أخت أحسن من أخت هابيل ، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه ، وقال : هي أختي ولدت معي وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها ، فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى ، وأنهما قربا قربانًا إلى الله ﷻ أيهما أحق بالجارية ، وكان آدم عليه السلام قد غاب عنهما ، أتى مكة ينظر إليها . قال الله ﷻ : هل تعلم أن لي بيتًا في الأرض ؟ قال : اللهم لا ، قال : إن لي بيتًا في مكة فأته ، فقال آدم للسماء : احفظي ولدي بالأمانة فأبت ، وقال للأرض فأبت ، وقال للجبال فأبت ، فقال لقابيل : فقال : نعم ، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك ، فلما انطلق آدم قربا قربانًا ، وكان قابيل يفخر عليه فقال : أنا أحق بها منك ، هي أختي وأنا أكبر منك ، وأنا وصي والدي ، فلما قربا قرّب هابيل جذعة سمينة وقرّب قابيل حزمة سنبل ، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها ، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختي ، فقال هابيل : إنما يتقبل الله من المتقين .

وروى العوفي عن ابن عبّاس قال : من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه ، وإنما كان القربان يقربه الرجل ، فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا لو قربنا قربانًا ، وكان الرجل إذا قرب قربانًا فرضيه الله أرسل إليه نارًا فتأكله ، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقربا قربانًا وكان أحدهما راعيًا وكان الآخر حراثًا ، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها ، وقرب الآخر بعض زرعه ، فجاءت النار فنزلت بينهما ، فأكلت الشاة وتركت الزرع ، وإن ابن آدم قال لأخيه : أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قربانًا فتقبل منك ورد علي ، فلا والله لا ينظر الناس إلي وأنت خير مني ، فقال : لأقتلنك فقال له أخوه : ما ذنبي إنما يتقبل الله من المتقين . فهذا الأثر يقتضي أن تقريب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارؤ في امرأة كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم ، وهو ظاهر القرآن ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فالسياق يقتضي أنه إنما غضب عليه وحسده بقبول قربانه دونه ، ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرب الشاة هو هابيل ، وأن الذي قرب الطعام هو قابيل ، وأنه تقبّل من هابيل شاته حتى قال ابن عبّاس وغيره : إنها الكبش الذي فدي به الذبيح وهو مناسب والله أعلم ، ولم يتقبّل من قابيل . كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف .

ومعنى قوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : ممن اتقى الله في فعله ذلك ، وقال أبو الدرداء : لأن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة أحب إليّ من الدنيا وما فيها .

وقوله : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين توعده أخوه بالقتل عن غير ما ذنب منه إليه : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ أي : لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا

وأنت سواء في الخطيئة ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي : من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب ، قال عبد الله بن عمرو : وايم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج ، يعني الورع . ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » قالوا : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » [(١)] . وعن بشر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي » قال : أفرأيت إن دخل على بيتي فبسط يده إليّ ليقتلني فقال : « كُنْ كَابْنِ آدَمَ » [(٢)] .

وعن أبي ذر قال : ركب النبيّ ﷺ حمارًا وأردفني خلفه وقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ شَدِيدٌ لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ مِنْ فِرَاشِكَ إِلَى مَسْجِدِكَ كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « تَعَفَّفْ » قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوْتٌ شَدِيدٌ يَكُونُ الْبَيْتُ فِيهِ بِالْعَبْدِ يَعْنِي الْقَبْرَ كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم قال : « اِصْبِرْ » قَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَعْنِي حَتَّى تَغْرَقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ مِنَ الدِّمَاءِ كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم قال : « اقْعُدْ فِي بَيْتِكَ وَأَغْلِقْ عَلَيْكَ بَابَكَ » قال : فإن لم أنزل قال : « فَأْتِ مَنْ أَنْتَ مِنْهُمْ فَكُنْ مِنْهُمْ » قال : فآخذ سلاحي قال : « فَإِذًا تُشَارِكُهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ وَلَكِنْ إِذَا خَشِيتَ أَنْ يَرُدَعَكَ شُعَاعُ السَّيْفِ فَأَلْقِ طَرَفَ رِدَائِكَ عَلَى وَجْهِكَ كَيْ يَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ » [(٣)] . وقوله : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال ابن عباس والسدي في قوله : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ أي : بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك . قاله ابن جرير . وقال آخرون : يعني بذلك : إني أريد أن تبوء بخطيئتي فتتحمل وزرها وإثمك في قتلك إياي ، وهذا قول وجدته عن مجاهد وأخشى أن يكون غلطًا ، لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه ، يعني ما رواه سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي ﴾ قال بقتلك إياي ﴿ وَإِثۡمِكَ ﴾ قال : بما كان منك قبل ذلك ، وروى عن مجاهد ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ يقول : إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي .

قلت : وقد يتوهم كثيرٌ من الناس هذا القول ، ويذكرون في ذلك حديثًا لا أصل له « مَا تَرَكَ الْقَاتِلُ عَلَى الْمَقْتُولِ مِنْ ذَنْبٍ » . قد روى الحافظ أبو بكر البزّار حديثًا يشبه هذا ولكن ليس به : عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « قَتْلُ الصَّبْرِ لاَ يَمُرُّ بِذَنْبٍ إِلَّا مَحَاهُ » [(٤)] وهذا بهذا لا يصح ولو صح فمعناه أن الله يكفّر عن المقتول بألم القتل ذنوبه ، فأما أن تحمل على القاتل فلا ، ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب ، فإن المقتول يطالب القاتل في العرصات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته ، فإن نفدت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطرحت على القاتل فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلّا وضعت على القاتل ، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٣) ومسلم في الفتن (١٤) وأبو داود (٤٢٦٨) .
(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١٣) وأحمد في مسنده (١٨٥/١) والسيوطي في الدر المنثور (٢٧٤/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٩/٥) .
(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٦/٦) .

كلها ، والقتل من أعظمها وأشدّها والله أعلم . وأما ابن جرير فقال : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن تأويله إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي وذلك هو معنى قوله : ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ وأما معنى ﴿وَإِثۡمِكَ﴾ فهو إثمه يعني قتله ، وذلك كمعصية الله عَجَّلَ في أعمال سواه ، وإنما قلنا : ذلك هو الصواب لإجماع أهل التأويل عليه ، وأن الله عَجَّلَ أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه ، وإذا كان هذا حكمه في خلقه فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذًا بها القاتل ، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبها بنفسه دون ما ركبه قتيله .

هذا لفظه ، ثم أورد على هذا سؤالًا حاصله كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله وإثم نفسه مع أن قتله له محرم ، وأجاب بما حاصله أن هابيل أخبر عن نفسه بأن لا يقاتل أخاه إن قاتله ، بل يكف عنه يده طالبًا إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه ، قلت : وهذا الكلام متضمن موعظةً له لو اتعظ ، وزجرًا له لو انزجر ، ولهذا قال : ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ أي : تتحمل إثمي وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقال ابن عبّاس : خوّفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر .

وقوله تعالى : ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي : فحسنت وسوّلت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله أي بعد هذه الموعظة وهذا الزجر ، أنه قتله بحديدة في يده . وقال السدي : عن ابن عبّاس وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فطلبه ليقتله فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال ، فأتاه يومًا من الأيام وهو يرعى غنمًا له وهو نائم ، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات فتركه بالعراء .

وقوله : ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي : في الدنيا والآخرة وأي خسارة أعظم من هذه . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتْلَ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ قال السدي : لما مات الغلام تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن ، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثى عليه ، فلما رآه قال : ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ وقال ابن عبّاس : جاء غراب إلى غراب ميت فحثى عليه من التراب حتى واراه ، فقال الذي قتل أخاه : ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ وقال الضحاك عن ابن عبّاس : مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة حتى بعث الله الغرابين فرآهما يبحثان فقال : ﴿أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾ فدفن أخاه .

وقوله : ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ قال الحسن البصري : علاه الله بندامة بعد خسران فهذه أقوال المفسّرين في هذه القصة وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه كما هو ظاهر القرآن ، وكما نطق به الحديث في قوله : « إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ» وهذا ظاهر جلي ولكن قال ابن جرير : عن الحسن - هو البصري - قال : كان الرجلان اللذان في القرآن

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥) ومسلم في القسامة (٢٧) .

اللذان قال الله : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾ من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه وإنما كان القربان من بني إسرائيل ، وكان آدم أول من مات . وهذا غريب جدًا وفي إسناده نظر . وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ ابْنَيْ آدَمَ عليه السلام ضَرَبَا لِهَذِهِ الأُمَّةِ مَثَلًا فَخُذُوا بالخَيْرِ مِنْهُمَا » (١) .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۝ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلمًا وعدوانًا ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي : شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أي : من قتل نفسًا بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعًا ؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، ومن أحياها أي حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ، ولهذا قال : ﴿ فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ عن أبي هريرة قال : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت : جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين ، فقال : يا أبا هريرة أيسرّك أن تقتل الناس جميعًا وإياي معهم ؟ قلت : لا ، قال : فإنك إن قتلت رجلًا واحدًا فكأنما قتلت الناس جميعًا ، فانصرف مأذونًا لك مأجورًا غير مأزور . قال : فانصرفت ولم أقاتل . وقال ابن عبّاس : هو كما قال الله تعالى : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وإحياؤها ألا يقتل نفسًا حرمها الله ، فذلك الذي أحيا الناس جميعًا ، يعني أنه من حرم قتلها إلا بحقٍّ حيي الناس منه ومن أحياها أي : كف عن قتلها . وقال العوفي : عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ : من قتل نفسًا واحدة حرمها الله فهو مثل من قتل الناس جميعًا ، وقال عكرمة والعوفي عن ابن عبّاس : من قتل نبيًا أو إمام عدلٍ فكأنما قتل الناس جميعًا ، ومن شد على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعًا . وعن عبد الله بن عمرو قال : جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله اجعلني على شيء أعيش به ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا حَمْزَةُ نَفْسٌ تُحْيِيهَا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ نَفْسٌ تُمِيتُهَا » قال : بل نفس أحييها ، قال : « عَلَيْكَ بِنَفْسِكَ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم ، بعد علمهم بها كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بني قينقاع ممن حول المدينة من اليهود ، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذ وقعت بينهم الحروب في الجاهلية ، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروه وودوا من قتلوه ، قوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٧٥) والهندي في كنز العمال (٤٣٠٢٧) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٧٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/١٥٩) وذكره الهندي في كنز العمال (٤٣١٤٨) .

ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية . المحاربة هي المضادة والمخالفة وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر ، حتى قال كثير من السلف : منهم سعيد بن المسيب : إن قبض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ ثم قال بعضهم : نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين ، كما ورد عن عكرمة والحسن البصري قالا : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ - إلى - أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ نزلت هذه الآية في المشركين ، فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه لم يكن عليه سبيل ، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد في الأرض ، أو حارب الله ورسوله ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه ، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصاب . وعن ابن عبّاس ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ نزلت في المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصابه[1] ، وقال علي بن أبي طلحة : عن ابن عبّاس في الآية قال : كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبيّ ﷺ عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض ، فخيّر الله رسوله إن شاء أن يقتل وإن شاء أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف[2]

والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات ، كما روي من حديث أبي قلابة - عن أنس بن مالك أن نفرًا من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا المدينة ، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك ، فقال : « أَلَا تَخْرُجُونَ مَع رَاعِينَا في إبِلِهِ فَتُصِيبُوا مِنْ أَبْوَالِها وَأَلْبَانِهَا » فقالوا : بلى ، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها ، فصحوا فقتلوا الراعي وطردوا الإبل ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم ، فأدركوا فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا[3] .

وعن أنس بن مالك أن ناسًا من عرينة قدموا المدينة فاجتووها ، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها ، ففعلوا ، فصحوا ، فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعي وساقوا الإبل ، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم ، فجيء بهم فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمر أعينهم وألقاهم في الحرة ، قال أنس : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشًا حتى ماتوا ، ونزلت : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الآية .

عن جرير ، قال : قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة حفاة مضرورين ، فأمر بهم رسول الله ﷺ ، فلما صحوا واشتدوا قتلوا رعاء اللقاح ، ثم خرجوا باللقاح عامدين بها إلى أرض قومهم ، قال جرير : فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين حتى أدركناهم بعدما أشرفوا على بلاد قومهم ، فقدمنا بهم على رسول الله ﷺ ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسمل أعينهم ، فجعلوا

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٣٧٢) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٧٩/٦)
(٣) أخرجه مسلم في القسامة (١٠) وأحمد في مسنده (١٨٦/٣) والنسائي في سننه (٤٠٢٤)

يقولون : الماء ، ورسول الله ﷺ يقول : النار ، حتى هلكوا ، قال : وكره الله ﷻ سمل الأعين ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ إلى آخر الآية [(١)] . هذا حديث غريب ، وفي إسناده الربذي وهو ضعيف ، وفي إسناده فائدة وهو ذكر أمير هذه السرية وهو جرير بن عبد الله البجلي . وأما قوله : فكره الله سمل الأعين فأنزل الله هذه الآية ، فإنه منكر ، وقد تقدم في صحيح مسلم أنهم سملوا أعين الرعاء ، فكان ما فعل بهم قصاصًا والله أعلم . وعن أبي هريرة قال : قدم على رسول الله ﷺ رجال من بني فزارة قد ماتوا هزلًا ، فأمرهم النبيّ ﷺ إلى لقاحه ، فشربوا منها حتى صحوا ثم عمدوا إلى لقاحه فسرقوها ، فطلبوا ، فأتي بهم النبيّ ﷺ ، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم . قال أبو هريرة : ففيهم نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فترك النبيّ ﷺ سمر الأعين بعد .

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العرنيين هل هو منسوخ أو محكم ، فقال بعضهم : هو منسوخ بهذه الآية وزعموا أن فيها عتابًا للنبي ﷺ كما في قوله ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ ومنهم من قال : هو منسوخ بنهي النبيّ ﷺ عن المثلة ، وهذا القول فيه نظر ثم قائله مطالب ببيان تأخر الناسخ الذي ادعاه عن المنسوخ ، وقال بعضهم : كان هذا قبل أن تنزل الحدود ، قال محمّد بن سيرين ؛ وفيه نظر فإن قصته متأخرة . وفي رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها فإنه أسلم بعد نزول المائدة ، ومنهم من قال : لم يسمل النبيّ ﷺ أعينهم وإنما عزم على ذلك حتى نزل القرآن فبين حكم المحاربين ، وهذ القول أيضًا فيه نظر فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سمل ، وفي رواية سمر أعينهم . وقال الوليد بن مسلم : ذاكرت الليث بن سعد ما كان من سمل النبيّ ﷺ أعينهم وتركه حسمهم حتى ماتوا ، فقال : سمعت محمّد بن عجلان يقول : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبة في ذلك ، وعلمه عقوبة مثلهم من القتل والقطع والنفي ولم يسمل بعدهم غيرهم ، قال : وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو - يعني الأوزاعي - فأنكر أن يكون نزلت معاتبة ، وقال : بل كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم ، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم . ورفع عنهم السمل ، ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن حكم المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ وهذا مذهب مالك والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل ، حتى قال مالك في الذي يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتًا فيقتله ويأخذ ما معه : إن هذه محاربة ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول ولا اعتبار بعفوه عنه في إسقاط القتل . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا تكون المحاربة إلّا في الطرقات فأما في الأمصار فلا ؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث ، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه .

وقوله تعالى : ﴿ أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس في الآية : من شَهَرَ السلاح في فئة الإسلام ، وأخاف السبيل ، ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار : إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله ، وكذا قال سعيد بن المسيّب ومجاهد وعطاء والحسن البصري ، ومستند هذا القول أن ظاهر ﴿ أَوْ ﴾ للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن كقوله في كفارة الفدية : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٦/٢٨٢) .

رَأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ ﴾ وهذه كلها على التخيير ، فكذلك فلتكن هذه الآية ، وقال الجمهور : هذه الآية منزلة على أحوال كما قال ابن عبّاس في قطاع الطريق : إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض . وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة ، واختلفوا هل يصلب حيًا ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب ، أو بقتله برمح أو نحوه ، أو يقتل أولًا ثم يصلب تنكيلًا وتشديدًا لغيره من المفسدين ، وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل أو يترك حتى يسيل صديده ، في ذلك كله خلاف محرر في موضعه وبالله الثقة وعليه التكلان ، ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره إن صح سنده عن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية ، فكتب إليه يخبره أنها نزلت في أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة ، قال أنس : فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل ، وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام ، قال أنس : فسأل رسول الله ﷺ جبرائيل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب ، فقال : من سرق مالًا وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته ورجله بإخافته ، ومن قتل فاقتله ، ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه (١) .

وأما قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ﴾ قال بعضهم : هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام (٢) . وقال آخرون : هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية ، وقال الشعبي : ينفيه - كما قال ابن هبيرة - من عمله كله ، وقال عطاء الخراساني : ينفى من جند إلى جند سنين ولا يخرج من دار الإسلام . وكذا قال سعيد بن جبير : أنه ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام . وقال آخرون : المراد بالنفي ههنا السجن ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم ، خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا ، مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة ، وهذا يؤيد قول من قال : إنها نزلت في المشركين ، فأما أهل الإسلام ، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا يعضه بعضنا بعضًا ، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب ، فهو كفارة له ، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذّبه وإن شاء عفا عنه (٣) . وعن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا في الدُّنْيَا فَعُوقِبَ بِهِ فاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّيَ عُقُوبَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ ، وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا في الدُّنْيَا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ في شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ » (٤) . وقال ابن جرير في قوله : ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى ٱلدُّنْيَاۖ ﴾ يعني شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة ﴿ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا ، ففي الآخرة مع الجزاء الذي

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٦/٢٨٣) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٦/٢٩٥) .
(٣) أخرجه مسلم في الحدود (٤٣) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٥٩) .

جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها في الدنيا عذاب عظيم ، يعني عذاب جهنم ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أما على قول من قال : إنها في أهل الشرك فظاهر ، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل ، وهل يسقط قطع اليد أم لا ؟ فيه قولان للعلماء وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع وعليه عمل الصحابة ، كما قال الشعبي : كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة ، وكان قد أفسد في الأرض وحارب فكلم رجالًا من قريش ، منهم الحسن بن علي وابن عبّاس وعبد الله بن جعفر ، فكلموا عليًا فيه فلم يؤمنه ، فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره ، ثم أتى عليًا فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فسادًا فقرأ حتى بلغ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾ قال : فكتب له أمانًا .

قال الليث : حدَّثني موسى بن إسحاق المدني وهو الأمير عندنا ، أن عليًا الأسدي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال ، فطلبه الأئمة والعامة ، فامتنع ، ولم يقدروا عليه حتى جاء تائبًا ، وذلك أنه سمع رجلًا يقرأ هذه الآية : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فوقف عليه فقال : يا عبد الله أعد قراءتها فأعادها عليه ، فغمد سيفه ثم جاء تائبًا حتى قدم المدينة من السحر ، فاغتسل ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ ، فصلى الصبح ثم قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه ، فلما أسفروا عرفه الناس فقاموا إليه ، فقال : لا سبيل لكم علي ، جئت تائبًا من قبل أن تقدروا عليّ ، فقال أبو هريرة : صدق ، وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة في زمن معاوية ، فقال : هذا علي جاء تائبًا ولا سبيل لكم عليه ولا قتل فترك من ذلك كله ، قال : وخرج عليّ تائبًا مجاهدًا في سبيل الله في البحر ، فلقوا الروم ، فقربوا سفينته إلى سفينة من سفنهم فاقتحم على الروم في سفينتهم فهربوا منه إلى شقها الآخر ، فمالت به وبهم فغرقوا جميعًا .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه ، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف من المحارم وترك المنهيات ، وقد قال بعدها : ﴿ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قال سفيان الثوري : عن ابن عبّاس أي القربة . وقال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه .

والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ، والوسيلة أيضًا علم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش . وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ ، وَالصَّلاةِ القَائِمَةِ ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ ، إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ » (١) .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٤) وأحمد في مسنده (٣/٣٥٤) والنسائي في سننه (٦٨٠) .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أنه سمع النبيّ ﷺ يقول : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا لِيَ الوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ » [(١)] .

وقوله : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء ، من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم ، والتاركين للدين القويم ، ورغبهم في ذلك بالذي أعدّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ، ولا تحول ، ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة ، الآمنة الحسنة مناظرها الطيبة مساكنها التي من سكنها ينعم ، لا ييأس ، ويحيى لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه . ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفّار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبًا وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب اللَّه الذي قد أحاط به ، وتيقن وصوله إليه ، ما تقبل ذلك منه ، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص ، ولهذا قال : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : موجع ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك ، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد ، فيردوهم إلى أسفلها ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي : دائم مستمر لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُقَالُ لَهُ : يا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجَعَكَ ؟ فَيَقُولُ : شَرَّ مَضْجَع ، فَيُقَالُ : هَلْ تَفْتَدِي بِقُرَابِ الأَرْضِ ذَهَبًا ؟ قالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَبْتَ ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ تَفْعَلْ ، فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ » [(٢)]

قال يزيد الفقير : جلست إلى جابر بن عبد اللَّه وهو يحدث ، فحدث أن ناسًا يخرجون من النار قال : وأنا يومئذٍ أنكر ذلك ، فغضبت وقلت : ما أعجب من الناس ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمّد ، تزعمون أن اللَّه يخرج ناسًا من النار واللَّه يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ﴾ الآية ، فانتهرني أصحابه وكان أحلمهم ، فقال : دعوا الرجل إنما ذلك للكفار ، فقرأ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى قد جمعته ، قال : أليس اللَّه يقول : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ فهو ذلك المقام ، فإن اللَّه تعالى يحتبس أقوامًا بخطاياهم في النار ما شاء لا يكلمهم فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم ، قال : فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة(١٠) وأبو داود في السنن(٥٢٣) والترمذي في السنن(٣٦١٤)
(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين(٥٢)

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى حاكمًا وآمرًا بقطع يد السارق والسارقة وقد كان القطع معمولًا به في الجاهلية فقرر في الإسلام وزيدت شروط أخر ، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه وزيادات هي من تمام المصالح . وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئًا قطعت يده به سواء كان قليلًا أو كثيرًا ، لعموم هذه الآية ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ فلم يعتبروا نصابًا ولا حرزًا ، بل أخذوا بمجرد السرقة ، وقد سئل ابن عباس في قوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ أخاص أم عام ؟ فقال : بل عام . وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عبّاس لما ذهب إليه هؤلاء ، ويحتمل غير ذلك فالله أعلم . وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَعَنَ اللّٰه السَّارِقَ يَسْرِقُ البَيْضَةَ فَتُقْطَعَ يَدُهُ ، وَيَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعَ يَدُهُ » (١) وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره ، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة ، فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة ، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه وجب القطع ، واحتج في ذلك بما روي عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قطع في مجن (٢) ثمنه ثلاثة دراهم . وقطع عثمان رضي الله عنه في أترجة قومت بثلاثة دراهم (٣) ، وهو أحب ما سمعت في ذلك قال أصحاب مالك : ومثل هذا الصنيع يشتهر ولم ينكر ، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافًا للحنفية ، وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافًا لهم في أنه لابد من عشرة دراهم ، وللشافعية في اعتبار ربع دينار ، والله أعلم . وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعدًا ، والحجة في ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا » (٤) قال أصحابنا : فهذا الحديث فاصل في المسألة ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه . قالوا : وحديث ثمن المجن ، وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا ؛ لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهمًا فهي ثمن ربع دينار ، فأمكن الجمع بهذا الطريق ، ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم وبه يقول عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي وأصحابه ، وإسحاق بن راهويه في رواية عنه وأبو ثور وداود بن علي الظاهري رحمهم الله .

وذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في رواية عنه إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعي ، فمن سرق واحدًا منهما أو ما يساويه قطع عملًا بحديث ابن عمر وبحديث عائشة رضي الله عنها ، ووقع في لفظ عند الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « اقْطَعُوا

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٣) ومسلم في الحدود (٧) .

(٢) المِجَنّ : هو اسم لما يستجن به أي يستتر .

(٣) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٩٧) ومسلم في الحدود (٦) .

(٤) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٩) ومسلم في الحدود (٤) .

فِي رُبعِ دِينَارٍ وَلا تَقْطَعُوا فِيمَا هُوَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ »[١] وكان ربع الدينار يومئذٍ ثلاثة دراهم والدينار اثني عشر درهمًا ، فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم ، والله أعلم .

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه أبو يوسف ومحمّد وزفر وكذا سفيان الثوري رحمهم الله فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة ، واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ كان ثمنه عشرة دراهم . وقد روي عن ابن عبّاس قال : كان ثمن المجن على عهد النبيّ ﷺ عشرة دراهم ، فهذا ابن عبّاس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن ، فالاحتياط الأخذ بالأكثر لأن الحدود تدرأ بالشبهات . وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة : « يَسْرِقُ البَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ ، وَيَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ »[٢] بأجوبة أحدها : أنه منسوخ بحديث عائشة وفي هذا نظر ؛ لأنه لابد من بيان التاريخ . والثاني : أنه مؤول ببيضة الحديد ، وحبل السفن . والثالث : أن هذه وسيلة إلى التدرّج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده ، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية ، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير ، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهينة . وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد اشتهر عنه أنه أورد إشكالًا على الفقهاء في جعلهم نصابَ السرقة ربع دينار ، ونظم في ذلك شعرًا دل على جهله وقلة عقله فقال :

يد بخمسِ مئينَ عسجد وديت ... ما بالُها قطعت في ربع دينار

تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له ... وأن نعوذ بمولانا من النار

ولما قال ذلك واشتهر عنه تطلبه الفقهاء فهرب منهم ، وقد أجابه الناس في ذلك فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله أنه قال : لما كانت أمينة كانت ثمينة ، فلما خانت هانت ، ومنهم من قال : هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة ؛ فإنه في باب الجنايات ناسب أن تعظم قيمةاليد بخمسمائة دينار ؛ لئلا يجنى عليها ، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار ؛ لئلا يتسارع الناس في سرقة الأموال ، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب ؛ ولهذا قال : ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : مجازاة على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم ، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿ نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي : تنكيلًا من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي : في انتقامه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي : في أمره ونهيه وشرعه وقدره .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، فأما أموال الناس فلابد من ردّها إليهم أو بدلها عند الجمهور ، وقال أبو حنيفة : متى قطع وقد تلفت في يده فإنه لا يرد بدلها ، وقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتي بسارق قد سرق شملة فقال : « ما إخاله سرق » ، فقال السارق : بلى يا رسول الله ، قال : « اذْهَبُوا بِهِ فَاقْطَعُوهُ ثُمَّ احْسِمُوهُ ثُمَّ ائْتُونِي بِهِ » فقطع فأتي به ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٨٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٣) ومسلم في الحدود (٧) .

فقال : « تُبْ إِلَى اللَّه » فقال : تبت إلى اللَّه ، فقال : « تَابَ اللَّه عَلَيْكَ » (١) . وعن عائشة ، أن قريشًا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبيّ ﷺ في غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول اللَّه ﷺ ، فقالوا : ومن يجترئ عليه إلّا أسامة بن زيد حب رسول اللَّه ﷺ ؟ فأتي بها رسول اللَّه ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول اللَّه ﷺ فقال : « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّه ﷻ » فقال له أسامة : استغفر لي يا رسول اللَّه ، فلما كان العشي قام رسول اللَّه ﷺ فاختطب فأثنى على اللَّه بما هو أهله ، ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِم الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها ، قالت عائشة : فحسنت توبتها بعد وتزوجت ، وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول اللَّه ﷺ (٢) ، ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : هو المالك لجميع ذلك الحاكم فيه الذي لا معقب لحكمه وهو الفعّال لما يريد ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ .

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر الخارجين عن طاعة اللَّه ورسوله المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع اللَّه ﷻ ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : أظهروا الإيمان بألسنتهم ، وقلوبهم خراب خاوية منه ، وهؤلاء هم المنافقون ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ أعداء الإسلام وأهله وهؤلاء كلهم ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أي : مستجيبون له منفعلون عنه ﴿ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ أي : يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمّد ، وقيل : المراد أنهم يتسمعون الكلام ، وينهونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ أي : يتأولونه على غير تأويله ويبدلونه من بعدما عقلوه ، وهم يعلمون ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾ قيل : نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلًا ، وقالوا : تعالوا حتى نتحاكم إلى محمّد ، فإن حكم بالدية فاقبلوه ، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه ، والصحيح أنها

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (١٠٢/٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧١/٨) .
(٢) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٨) ومسلم في الحدود (٩) .

نزلت في اليهوديين اللذين زنيا ، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم ، فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة ، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين ، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم : تعالوا حتى نتحاكم إليه ، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله ، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك ، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك ، وقد وردت الأحاديث بذلك . عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ ، فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ : «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ ؟ » فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، قال عبد الله بن سلام : كذبتم إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفع يده ، فإذا آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمّد فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة (١) . وعند مسلم أن رسول الله ﷺ أتي بيهودي ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال : « مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى ؟ » قالوا : نسوِّد وجوههما ونحممهما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما ، قال : ﴿ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ قال : فجاءوا بها فقرؤوها ، حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ : مره فليرفع يده ، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما . قال عبد الله بن عمر : كنت فيمن رجمهما ، فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه (٢) .

وعن جابر بن عبد الله ، قال : زنى رجل من أهل فدك ، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمّدًا عن ذلك ، فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه ، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه ، فسألوه عن ذلك فقال : « أَرْسِلُوا إِلَيَّ أَعْلَمَ رَجُلَيْنِ فِيكُمْ » فجاءوا برجلٍ أعور يقال له : ابن صوريا ، وآخر فقال لهما النبيّ ﷺ : « أَنْتُمَا أَعْلَمُ من قبلكما » فقالا : قد دعانا قومنا لذلك ، فقال النبيّ ﷺ لهما : « أَلَيْسَ عِنْدَكُمَا التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكمُ اللَّه » قالا : بلى ، فقال النبيّ ﷺ : « فَأُنْشِدُكُمْ بِالَّذِي فَلَقَ الْبَحْرَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَظَلَّلَ عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَأَنْزَلَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ » فقال أحدهما للآخر : ما نشدت بمثله قط ، ثم قالا : نجد ترداد النظر زنية والاعتناق زنية والتقبيل زنية ، فإذا شَهِد أربعة أنهم رأوه يبدئ ويعيد ، كما يدخل الميل في المكحلة ، فقد وجب الرجم ، فقال النبيّ ﷺ : « هُوَ ذَاكَ » فأمر به فرجم فنزلت ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٣) ، ولهذا قالوا : ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا ﴾ أي : الجلد والتحميم ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ أي : اقبلوه ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ﴾ أي : من قبوله واتباعه .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أي : الباطل

(١) أخرجه البخاري في المحاربين من أهل الكفر (٦٨١٩) ومسلم في الحدود (٢٦) ومالك في الموطأ (٨١٩) .
(٢) أخرجه مسلم في الحدود (٢٦) . (٣) أخرجه أبو داود في سننه (٤٤٥٢) .

﴿ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ أي : الحرام وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد ، أي : ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه ، وأنى يستجيب له ، ثم قال لنبيه : ﴿ فَإِن جَآءُوكَ ﴾ أي : يتحاكمون إليك ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ﴾ أي : فلا عليك أن لا تحكم بينهم ؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم . قال ابن عبّاس ومجاهد وعكرمة وغير واحد : هي منسوخة بقوله : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي : بالحق والعدل ، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ . ثم قال تعالى منكرًا عليهم في آرائهم الفاسدة ومقاصدهم الزائغة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدًا ، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم ، فقال : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران فقال : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ أي لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ﴿ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ أي : وكذلك الربانيون منهم - وهم العلماء العبّاد - والأحبار ، وهم العلماء ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أي : بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به ﴿ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ أي : لا تخافوا منهم وخافوا مني ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما .

سبب آخر في نزول هذه الآيات الكريمات :

عن ابن عبّاس قال : إن الله أنزل ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ و ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : أنزلها الله في الطائفتين من اليهود ، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقًا ، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق ، فكانوا على ذلك حتى قدم النبيّ ﷺ فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلًا ، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق ، فقالت الذليلة : وهل كان في حيين دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية بعض ؟ إنما أعطيناكم هذا ضيمًا منكم لنا وفرقًا منكم ، فأما إذ قدم محمّد فلا نعطيكم ، فكادت الحرب تهيج بينهما ، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم ، ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ما محمّد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلّا ضيمًا منا وقهرًا لهم ، فدسوا إلى محمّد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه ، فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناسًا من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ ، فلما جاءوا رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا ، فأنزل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ ففيهم والله أنزل وإياهم عنى [1] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٦/١).

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ قال البراء بن عازب اليمان وابن عبّاس وغيرهم . نزلت في أهل الكتاب زاد الحسن البصري : وهي علينا واجبة ، وعن إبراهيم قال : نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ورضي الله لهذه الأمة بها .

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

وهذا أيضًا مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه ، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس ، وهم يخالفون حكم ذلك عمدًا وعنادًا ، ويقيدون النضري من القرظي ، ولا يقيدون القرظي من النضري ، بل يعدلون إلى الدية ، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن ، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ، ولهذا قال هناك : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصدًا منهم وعنادًا وعمدًا ، وقال ههنا : ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه ، فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضًا . وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأها : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ والعينُ بِٱلْعَيْنِ ﴾ نصب النفس ورفع العين [١] ، وقد استدل كثير ممن ذهب في الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكي مقررًا ولم ينسخ ، كما هو المشهور عن الجمهور .

وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة ، وكذا ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم « أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ » [٢] وفي الحديث الآخر : « الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ » [٣] وهذا قول جمهور العلماء ، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلَّا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية ؛ لأن ديتها على النصف من دية الرجل ، ورواية عن أحمد : أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها ، بل تجب ديتها ، وهكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمي ، وعلى قتل الحر بالعبد ، وقد خالفه الجمهور فيهما ، فعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ » [٤] أما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة أنهم لم يكونوا يقيدون العبد من الحر ولا يقتلون حرًا بعبد ، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح ، وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك ، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلَّا بدليل مخصص للآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ قال ابن عبّاس : تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح ، فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم - رجالهم ونساؤهم - إذا كان عمدًا في النفس وما دون النفس ، ويستوي فيه

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ونافع وعاصم وحمزة ﴿ والعينَ ﴾ بالنصب ، وقرأ الكسائي ﴿ والعينُ ﴾ بالرفع (انظر : حجة القراءات ص ٢٢٥) والحديث أخرجه أحمد في مسنده (٣/٢١٥) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٤٨٥٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٥١) وابن ماجه في السنن (١٦٨٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٢٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/٧٩) وأبو داود في السنن (١٥٦) والترمذي في السنن (١٤١٢ ، ١٤١٣) .

العبيد - رجالهم ونساؤهم - فيما بينهم إذا كان عمدًا في النفس وما دون النفس .

قاعدة مهمة : الجراح تارة تكون في مفصل ، فيجب فيه القصاص بالإجماع كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك ، وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل ، بل في عظم ، فقال مالك رحمه الله : فيه القصاص إلَّا في الفخذ وشبهها ؛ لأنه مخوف خطر ، وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يجب القصاص في شيء من العظام إلَّا في السن ، وقال الشافعي : لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقًا ، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابن عبّاس ، وبه يقول عطاء والشعبي والحسن البصري والزهري وإبراهيم النخعي ، وإليه ذهب سفيان الثوري والليث بن سعد وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد ، وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بحديث الربيع ابنة النضر على مذهبه أنه لا قصاص في عظم إلَّا في السن ، وحديث الربيع لا حجة فيه ؛ لأنه ورد بلفظ كسرت ثنية جارية ، وجائز أن تكون سقطت من غير كسر ، فيجب القصاص والحالة هذه بالإجماع ، وتمموا الدلالة مما رواه جارية بن ظفر الحنفي أن رجلًا ضرب رجلًا على ساعده بالسيف من غير المفصل فقطعها ، فاستعدى النبيّ ﷺ فأمر له بالدية ، فقال : يا رسول اللَّه أريد القصاص ، فقال : « خذ الدية بارك اللَّه لك فيها » ولم يقض له بالقصاص [(١)] ، ثم قالوا : لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجنيّ عليه ، فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه فلا شيء له ، والدليل على ذلك ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رجلًا طعن رجلًا بقرن في ركبته ، فجاء إلى النبيّ ﷺ فقال : أقدني فقال : « حَتَّى تَبْرَأَ » ثم جاء إليه فقال : أقدني ، فأقاده ، فقال : يا رسول اللَّه عرجت ، فقال : « قَدْ نَهَيْتُكَ فَعَصَيْتَنِي ، فَأَبْعَدَكَ اللَّه وَبَطَلَ عَرَجُكَ » ثم نهى رسول اللَّه ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه [(٢)] .

مسألة : فلو اقتص المجني عليه من الجاني فمات من القصاص فلا شيء عليه عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وقال أبو حنيفة : تجب الدية في مال المقتص ، وقال عامر والشعبي وعطاء وطاووس والزهري والثوري : تجب الدية على عاقلة المقتص له ، وقال ابن مسعود وإبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة وعثمان البيتي : يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ويجب الباقي في ماله .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ قال ابن عبّاس : فمن عفا عنه وتصدّق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب ، وعن ابن عبّاس : فمن تصدّق به فهو كفارة للجارح وأجر المجروح على اللَّه عز وجل ثم قال : وروي عن خيثمة بن عبد الرّحمن ومجاهد وإبراهيم في أحد قوليه وعامر الشعبي وجابر بن زيد نحو ذلك .

وعن أبي السفر قال : دفع رجل من قريش رجلًا من الأنصار فاندقت ثنيته ، فرفعه الأنصاري إلى معاوية ، فلما ألح عليه الرجل قال : شأنك وصاحبك قال : وأبو الدرداء عند معاوية ، فقال أبو الدرداء : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَابُ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ فَيَهَبُهُ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّه دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهِ خَطِيئَةً» فقال الأنصاري : أنت سمعته من رسول اللَّه ﷺ ؟ فقال : سمعته أذناي

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه(٢٦٣٦) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده(٢/٢١٧) .

ووعاه قلبي ، فخلى سبيل القرشي . فقال معاوية : مروا له بمال [١] . وعن المحرر بن أبي هريرة عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ قال : « مَنْ أُصِيبَ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ فَتَرَكَهُ لِلَّهِ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ » [٢] .

وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ عن طاوس وعطاء أنهما قالا : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أي : أتبعنا على آثارهم يعني أنبياء بني إسرائيل ﴿ بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أي : مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ أي : هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أي : متبعًا لها غير مخالف لما فيها إلّا في القليل مما بيّن لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه ، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح : أنه قال لبني إسرائيل : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء : أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة . وقوله تعالى : ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أي : زاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ قرئ ﴿ وليحكمَ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي ، أي : وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم وقرئ ﴿ وَلْيَحْكُمْ ﴾ بالجزم على أن اللام لام الأمر [٣] أي : ليؤمنوا بجميع ما فيه ، وليقيموا ما أمروا به فيه ومما فيه البشارة ببعثة محمّد ، والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد ، ولهذا قال ههنا : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أي : الخارجون عن طاعة ربهم المائلون إلى الباطل التاركون للحق وهذه الآية نزلت في النصارى وهو ظاهر من السياق .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه ، ومدحها ، وأثنى عليها ، وأمر باتباعها ، حيث كانت سائغة الاتباع ، وذكر الإنجيل ، ومدحه ، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه ، شرع في ذكر القرآن

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٤٤٨/٦) والهندي في كنز العمال(٦٨٤٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٤١٢/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب(٣٠٦/٣) .

(٣) قرأ حمزة ﴿وليحكم ﴾ بكسر اللام ونصب الميم والباقون بإسكانها(تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٧)

العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند اللّه ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أي : من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه ، وأنه سينزل من عند اللّه على عبده ورسوله محمّد ﷺ ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقًا عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر اللّه ، واتبعوا شرائع اللّه ، وصدقوا رسل اللّه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ أي : إن كان ما وعدنا اللّه على ألسنة رسله المتقدمة من مجيء محمّد عليه الصلاة والسّلام لمفعولًا ، أي : لكائنا لا محالة ولابد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ عن ابن عبّاس : أي : مؤتمنًا عليه . قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله . وقال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل ، وعن ابن عبّاس ﴿ وَمُهَيْمِنًا ﴾ أي : شهيدًا . وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها ، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ فأما ما حكاه مجاهد أنهم قالوا في قوله : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ يعني : محمّدًا ﷺ أمين على القرآن ؛ فإنه صحيح في المعنى ، ولكن في تفسير هذا بهذا نظر ، وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضًا نظر ، وبالجملة فالصحيح الأول . وقوله تعالى : ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي : فاحكم يا محمّد بين الناس ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم ، بما أنزل اللّه إليك في هذا الكتاب العظيم ، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي : آراءهم التي اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل اللّه على رسله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : لا تنصرف عن الحق الذي أمرك اللّه به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء . وقوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ قال ابن عبّاس : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ﴾ سبيلًا ﴿ وَمِنْهَاجًا ﴾ قال : وسنة ، وكذا روي عن ابن عباس ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ سبيلًا وسنة . فتفسير قوله : ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس ، واللّه أعلم . ثم هذا إخبارٌ عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث اللّه به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام ، المتفقة في التوحيد .

كما ثبت عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ إِخْوَةٌ لِعلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ »[1] يعني بذلك التوحيد الذي بعث اللّه به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ الآية ، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي ، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حرامًا ، ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس ، وخفيفًا فيزاد في الشدة في هذه دون هذه ، وذلك لما له تعالى في ذلك من

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء(٣٤٤٣) ومسلم في الفضائل(١٤٥) وأحمد في مسنده(٢/٤٠٦)

الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، وقيل : المخاطب بهذه الآية هذه الأمة ، ومعناه : لكل جعلنا القرآن منكم أيتها الأمة شرعةً ومنهاجًا ، أي : هو لكم كلكم تقتدون به ، وحذف الضمير المنصوب في قوله : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ أي جعلناه - يعني القرآن - شرعةً ومنهاجًا ، أي : سبيلًا إلى المقاصد الصحيحة ، وسنةً ، أي : طريقًا ومسلكًا واضحًا بينًا ، هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله ، والصحيح القول الأول ، ويدل على ذلك قوله تعالى بعده : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فلو كان هذا خطابًا لهذه الأمة لما صح أن يقول : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ وهم أمة واحدة ولكن هذا خطابٌ لجميع الأمم ، وإخبارٌ عن قدرته تعالى العظيمة ، التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيء منها ، ولكنه تعالى شرّع لكل رسول شريعةً على حدة ، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده ، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمّدًا ﷺ ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبةً وجعله خاتم الأنبياء كلهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ أي : أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله ، وقال عبد اللّه بن كثير : ﴿ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ يعني من الكتاب .

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها فقال : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ وهي طاعة اللّه واتباع شرعه الذي جعله ناسخًا لما قبله والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله ، ثم قال تعالى : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي : معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق فيجزي الصادقين بصدقهم ، ويعذّب الكافرين الجاحدين المكذّبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان ، بل هم معاندون للبراهين القاطعة ، والحجج البالغة والأدلة الدامغة ، وقال الضحاك : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ يعني أمة محمّد ﷺ ، والأول أظهر .

وقوله : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والنهي عن خلافه ، ثم قال : ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أي : واحذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور ، فلا تغتر بهم فإنهم كذبة كفرة خونة ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي : عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع اللّه ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة اللّه وحكمته فيهم ، أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ أي : إن أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناكبون عنه .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ينكر تعالى على من خرج عن حكم اللّه المحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء ، والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة اللّه ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ؛ من اليهودية

والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله ، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير .

قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ ﴾ أي : يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي : ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به ، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء . عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : « أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ﷻ مَنْ يَبْتَغِي فِي الإِسْلامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ ، وَطَالِبَ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُرِيقَ دَمَهُ »[1] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ .

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ، الذين هم أعداء الإسلام وأهله قاتلهم الله ، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ الآية . وعن ابن عبّاس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب ، قال : كل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي : شك وريب ونفاق ، ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أي : يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ أي : يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين ، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك . عند ذلك قال الله تعالى : ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ ﴾ يعني القضاء والفصل ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿ فَيُصْبِحُوا۟ ﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ من الموالاة نادمين ، أي : على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئًا ولا دفع عنهم محذورًا ، بل كان عين المفسدة ، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين ، بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم ، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين ، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ، ويحلفون على ذلك ويتأولون ، فبان كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ وقد اختلف القراء في هذا الحرف ، فقرأه الجمهور بإثبات الواو في قوله : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ﴾ ثم منهم من رفع ويقول على الابتداء ، ومنهم من نصب عطفًا على قوله : ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾[2] فتقديره أن يأتي وأن يقول ، وقرأ أهل المدينة : ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ بغير واو ، وكذلك هو في مصاحفهم على ما ذكره

---

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٨٢) .

(٢) قرأ المدنيان وابن كثير وابن عامر ﴿ يقول ﴾ بغير واو ، والباقون ﴿ ويقول ﴾ بالواو ، وقرأ البصريان بنصب اللام ﴿ ويقولَ ﴾ والباقون بالرفع (تقريب النشر ص : ١٠٧)

ابن جرير ، قال ابن جريج عن مجاهد : ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ تقديره حينئذٍ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ .

واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، فذكر السدي أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد : أما أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام فآوي إليه وأتنصر معه ، فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ . وقال عكرمة : نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة ، فسألوه ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه ، أي أنه الذبح . وقيل : نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول ، كما قال عطية بن سعد : جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبي : إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي : « يَا أَبَا الحُبَابِ مَا بَخِلْتُ بِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُود عَلَى عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ فَهُوَ لَكَ دُونَهُ » قال : قد قبلت ، فأنزل الله ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ الآيتين [١] .

وعن عبادة بن الصامت ، قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان أحد بني عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي ، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم ، وقال : يا رسول الله أبرأ إلى الله وإلي رسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم ، ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [٢] .
وعن أسامة بن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي نعوده ، فقال له النبيّ ﷺ : «قَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ حبِّ يَهُودَ » فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات [٣] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة : أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فإن الله سيستبدل به من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلًا ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي : بممتنع ولا صعب . وقال تعالى ههنا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ أي : يرجع عن الحق إلى الباطل . وقال الحسن البصري : نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ قال الحسن : هو والله أبو بكر وأصحابه . وقال ابن عبّاس : ناس من أهل اليمن ثم من كندة ثم من السكون . وعن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ

(١ ، ٢) ذكره الطبري في تفسيره (٦/٣٧٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٠١) وأبو داود في السنن (٣٠٩٤) والحاكم في المستدرك (١/٣٤١) .

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال :« هَؤُلاَءِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ ثُمَّ مِنْ كِنْدَةَ ثُمَّ مِن السَّكُونِ ثُمَّ مِنْ تُجِيب»[١]

وقوله تعالى ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه ، متعززًا على خصمه وعدوه كما قال تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وفي صفة رسول الله ﷺ أنه الضحوك القتال ، فهو ضحوك لأوليائه قتّال لأعدائه . وقوله ﷻ : ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ أي : لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يردهم عن ذلك راد ، ولا يصدهم عنه صاد ، ولا يحيك فيهم لوم لائم ، ولا عذل عاذل . وعن أبي ذر قال : أمرني خليلي ﷺ بسبع ؛ أمرني بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ، ولا أنظر إلى من هو فوقي ، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت ، وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرًا ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول : لا حول ولا قوة إلّا بالله ، فإنهن من كنز تحت العرش[٢] . وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : بايعني رسول الله ﷺ خمسًا وواثقني سبعًا ، وأشهد الله على أني لا أخاف في الله لومة لائم . قال أبو ذر : فدعاني رسول الله ﷺ ، فقال :« هَلْ لَكَ إِلَى بَيْعَةٍ وَلَكَ الجَنَّةُ ؟» قلت : نعم وبسطت يدي ، فقال النبي ﷺ وهو يشترط علي :« أَنْ لاَ تَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا» قلت : نعم قال :« وَلاَ سَوْطَكَ وَإِنْ سَقَطَ مِنْكَ» يعني تنزل إليه فتأخذه[٣] .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ :« لاَ يَحْقِرَن أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا للهِ فِيهِ مَقَالٌ فَلاَ يَقُول فِيهِ ، فَيُقَالُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكُونَ قُلْتَ فِي كَذَا كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُول : مَخَافَةَ النَّاسِ ، فَيَقُولُ : إِيَّايَ أَحَقُّ أَنْ تَخَافَ»[٤] . وثبت في الصحيح« مَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» قالوا : وكيف يذل نفسه يا رسول الله ؟ قال :« يَتَحَمَّلُ مِنَ البَلاَءِ مَا لاَ يُطِيقُ»[٥] ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ أي : من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي : واسع الفضل بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي : ليس اليهود بأوليائكم بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين . وقوله : ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي : المؤمنون المتصفون بهذه الصفات ، من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام ، وهي له وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين . وأما قوله : ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله : ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي : في حال ركوعهم ، ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره ؛ لأنه ممدوح ، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى ، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثرًا عن علي بن أبي طالب أن هذه الآية نزلت فيه ، وذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه فأعطاه خاتمه .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور(٢/٢٩٢) (٢) أخرجه أحمد في مسنده(٥/١٥٩) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده(٥/١٧٢) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده(٣/٣٠ ، ٤٧) وابن ماجه في السنن(٤٠٠٨) والبيهقي في السنن الكبرى(١٠/٩٠)
(٥) أخرجه أحمد في مسنده(٥/٤٠٥) وابن ماجه في السنن(٤٠١٦)

وعن عقبة بن حكيم في قوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال : هم المؤمنون . وقال مجاهد : نزلت في علي بن أبي طالب تصدق وهو راكع ، وقال ابن عبّاس : نزلت في علي بن أبي طالب .

ثم روي عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ نزلت في المؤمنين وعلي بن أبي طالب أولهم . وقد تقدم : أن الآية نزلت في عبادة بن الصامت ﷺ حين تبرأ من حلف اليهود ورضي بولاية اللّٰه ورسوله والمؤمنين ولهذا قال بعدا هذا ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ فكل من رضي بولاية اللّٰه ورسوله والمؤمنين ، فهو مفلح في الدنيا والآخرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ .

هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين ، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وآخروي ، يتخذونها هزوًا يستهزئون بها ، ولعبًا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ ﴾ من ههنا لبيان الجنس كقوله : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ وقرأ بعضهم والكفار بالخفض عطفًا ، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [1] تقديره : ولا الكفار أولياء أي : لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء ، والمراد بالكفار ههنا المشركون ، وكذلك وقع في قراءة ابن مسعود فيما رواه ابن جرير (لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا) وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : اتقوا اللّٰه أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع اللّٰه الذي اتخذه هؤلاء هزوًا ولعبًا ، وقوله : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ أي : وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب ﴿ اتَّخَذُوهَا ﴾ أيضًا ﴿ هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ معاني عبادة اللّٰه وشرائعه ، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي إذا سمع الأذان أدبر وله حصاص أي ضراط ، حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضي التأذين أقبل ، فإذا ثوّب للصلاة أدبر ، فإذا قضي التثويب أقبل – حتى يخطر بين المرء وقلبه ، فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكر ، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلّى ، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل السلام [2] ، وقال الزهري : قد ذكر اللّٰه التأذين في كتابه فقال : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ۝ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ۝ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن

---

(١) قرأ البصريان والكسائي ﴿والكفار أولياء﴾ بخفض الراء وهم على أصلها في الإمالة والباقون بالنصب(تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٧) .
(٢) أخرجه البخاري في السهو (١٢٣١) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٨٣) وأحمد في مسنده (٤١٣/٢) .

قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمّد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من أهل الكتاب : ﴿ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ ﴾ أي : هل لكم علينا مطعن أو عيب إلَّا هذا ؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة ، فيكون الاستثناء منقطعًا كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ وفي الحديث : « مَا يَنْقُمُ ابنُ جَمِيلٍ إلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّه » (١) .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ معطوف على ﴿ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ ﴾ أي : وآمنا بأن أكثركم فاسقون ، أي خارجون عن الطريق المستقيم .

ثم قال : ﴿ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ أي : هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله : ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي : أبعده من رحمته ﴿ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ ﴾ أي : غضبًا لا يرضى بعده أبدًا ﴿ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ ﴾ كما تقدم بيانه في سورة البقرة ، وعن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي مما مسخ الله ، فقال : « إِنَّ اللَّه لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا - أَوْ قَالَ لَمْ يَمْسَخْ قَوْمًا - فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا وَلاَ عَقِبًا وَإِنَّ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ » (٢) . وعن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال : سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي من نسل اليهود ، فقال : « لاَ ، إِنَّ اللَّه لَمْ يَلْعَنْ قَوْمًا قَطّ فَيَمْسَخَهُمْ فَكَانَ لَهُمْ نَسْلٌ ، وَلكِنَّ هَذَا خَلْقٌ كَانَ ، فَلَمَّا غَضِبَ اللَّه عَلَى اليَهُودِ فَمَسَخَهُمْ ، جَعَلَهُمْ مِثْلَهُمْ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ ﴾ قرئ ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ ﴾ على أنه فعل ماض ، والطاغوت منصوب به ، أي : وجعل منهم من عبد الطاغوت ، وقرئ ﴿ عَبْدَ الطاغوتِ ﴾ بالإضافة على أن المعنى وجعل منهم خدم الطاغوت أي خدامه وعبيده ، وقرئ ﴿ عُبُدَ ٱلطَّٰغُوتِۚ ﴾ على أنه جمع لجمع عبد وعبيد وعبد مثل ثمار وثمر . وحكي عن أبي جعفر أنه كان يقرؤها و ﴿ عُبِدَ الطاغوتُ ﴾ على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ، ثم استبعد معناها (٤) ، والظاهر أنه لا بعد في ذلك لأن هذا من باب التعريض بهم ، أي : وقد عبدت الطاغوت فيكم وأنتم الذين فعلتموه ، وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه ، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر ، ولهذا قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا ﴾ أي : مما تظنون بنا ﴿ وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة ، كقوله ﷻ : ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ وَقَد دَّخَلُواْ ﴾ أي : عندك يا محمّد ﴿ بِٱلۡكُفۡرِ ﴾ أي : مستصحبين الكفر في قلوبهم ، ثم خرجوا وهو كامن فيها ، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم ، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر ، ولهذا قال : ﴿ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ ﴾ فخصهم به دون غيرهم . وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴾ أي : عالم بسرائرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم ، وإن

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٨) ومسلم في الزكاة (١١) وأحمد في مسنده (٣٢٢/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في القدر (٣٣) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٥/١ ، ٣٩٦) .

(٤) قرأ حمزة ﴿ وعبد ﴾ بضم الباء ، والطاغوت بالخفض ، والباقون بالفتح والنصب (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٧) .

أظهروا لخلقه خلاف ذلك ، وتزينوا بما ليس فيهم ، فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء . وقوله : ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ أي : يبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكلهم أموالهم بالباطل ، ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : لبئس العمل كان عملهم وبئس الاعتداء اعتداؤهم .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ يعني هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار منهم عن تعاطي ذلك ؟ والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم ، والأحبار هم العلماء فقط ، وعن ابن عبّاس قال : ما في القرآن آية أشد توبيخًا من هذه الآية ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ قال : كذا قرأ [(١)] . وعن المنذر بن جرير عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مَنْ يَعْمَلُ بِالمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُ وَأَمْنَعُ وَلَمْ يَغَيِّرُوا ؛ إِلَّا أَصَابَهُم الله مِنْهُ بِعَذَابٍ » [(٢)] .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - بأنهم وصفوه تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا ، بأنه بخيل ، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء ، وعبروا عن البخل بأن قالوا : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ قال ابن عبّاس ﴿ مَغْلُولَةٌ ﴾ أي : بخيلة ، وقال ابن عبّاس : لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، ولكن يقولون بخيل ، يعني أمسك ما عنده بخلًا ، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا . وقرأ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ : يعني أنه ينهى عن البخل وعن التبذير وهو زيادة الإنفاق في غير محله ، وعبر عن البخل بقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله ، وقال عكرمة : إنها نزلت في فنحاص اليهودي عليه لعنة الله ، وقد تقدم أنه الذي قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ فضربه أبو بكر الصدِّيق ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ وقد رد الله ﷻ عليهم ما قالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه ، فقال : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ وهكذا وقع لهم ، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم ، ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾ الآية . ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ أي : بل هو الواسع الفضل الجزيل العطاء الذي ما من شيء إلّا عنده خزائنه ، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه ، في ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفي جميع

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٤٠٣/٦ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٤) .

أحوالنا ، كما قال : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ والآيات في هذا كثيرة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إِنَّ يَمِينَ اللّه مَلأَى لاَ يُغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهار ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ » قَالَ : « وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَفِي يَدِهِ الأُخْرَى الفَيْضُ - أَوِ القَبْضُ - يَرْفَعُ وَيُخْفِضُ » . وَقَالَ : « يَقُولُ اللّه تَعَالَى : أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ ﴾ أي : يكون ما آتاك اللّه يا محمّد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد به المؤمنون تصديقًا وعملًا صالحًا وعلمًا نافعًا ، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغيانًا ، وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء ، وكفرًا أي : تكذيبًا . وقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم ، بل العداوة واقعة بين فرقهم بعضهم في بعض دائمًا ؛ لأنهم لا يجتمعون على حق ، وقد خالفوك وكذبوك ، وقال إبراهيم النخعي : وألقينا بينهم العداوة والبغضاء ، قال : الخصومات والجدال في الدين .

وقوله : ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ ﴾ أي : كلما عقدوا أسبابًا يكيدونك بها ، وكلما أبرموا أمورًا يحاربونك بها ، أبطلها اللّه ورد كيدهم عليهم وحاق مكرهم السيئ بهم ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي : من سجيتهم أنهم دائمًا يسعون في الإفساد في الأرض ، واللّه لا يحب من هذه صفته . ثم قال جلّ وعلا : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ أي : لو أنهم آمنوا باللّه ورسوله ، واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي : لأزلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس وغيره : هو القرآن ﴿ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ ﴾ أي : لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث اللّه به محمّدًا ﷺ ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتمًا لا محالة . وقوله تعالى : ﴿ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض ، وعن ابن عبّاس ﴿ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ يعني لأرسل السماء عليهم مدرارًا ﴿ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ ﴾ يعني يخرج من الأرض بركاتها ، وقال بعضهم : معناه ﴿ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ ﴾ يعني من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء .

عن جبير بن نفير أن رسول اللّه ﷺ قال : « يُوشِكُ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ » فقال زياد بن لبيد : يا رسول اللّه وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا ؟ فقال : « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابنَ لَبِيدٍ ! إِنْ كُنْتُ لأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ المَدِينَةِ ، أَوَلَيْسَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ بِأَيْدِي اليَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ حِينَ تَرَكُوا أَمْرَ اللّه ؟ » ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٩) ومسلم في الزكاة (٣٦) وأحمد في مسنده (٢١٣/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٠/٤) والسيوطي في الدر المنثور (٢٩٧/٢) .

يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ وكقوله عن أتباع عيسى : ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ الآية فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة ، وفوق ذلك رتبة السابقين كما في قوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ الآية ، والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، كلهم يدخلون الجنّة .

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمّدًا ﷺ باسم الرسالة وآمرًا له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به ، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، وقام به أتم القيام ، قال البخاري عند تفسير هذه الآية : عن مسروق عن عائشة ﵂ قالت : من حدَّثك أن محمّدًا كتم شيئًا مما أنزل الله عليه فقد كذب ، وهو يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الآية [١] . وفي الصحيحين عنها أيضًا أنها قالت : لو كان محمّد ﷺ كاتمًا شيئًا من القرآن لكتم هذه الآية ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [٢] . وعن هارون بن عنترة عن أبيه قال : كنت عند ابن عبّاس فجاء رجل فقال له : إن ناسًا يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئًا لم يبده رسول الله ﷺ للناس ، فقال ابن عبّاس : ألم تعلم أن الله تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، والله ما ورّثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء .

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُون ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت ، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول : « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » [٣] . وعن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ » قالوا : يوم حرام قال : « أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ » قالوا : بلد حرام قال : « فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ » قالوا : شهر حرام قال : « فَإِنَّ أَمْوَالَكُمْ وَدِمَاءَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا » ثم أعادها مرارًا ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال : « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » مرارًا ، فقال : يقول ابن عبّاس : والله لوصية إلى ربه ﷻ ، ثم قال : « أَلاَ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ ، لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » [٤] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ يعني وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به ، فما بلغت رسالته أي : وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع . عن ابن عبّاس : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته ، قال مجاهد : لما نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال : « يا رب كيف أصنع وأنا وحدي يجتمعون عليّ » فنزلت ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [٥] .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦١٢) .
(٢) أخرجه البخاري التوحيد (٧٤٢٠) ومسلم في الإيمان (٢٨٨) .
(٣) أخرجه مسلم في الحج (١٩) .
(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٩) وأحمد في مسنده (٢٣٠/١) .
(٥) ذكره الطبري في تفسيره ٤١٥/٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي : بلغ أنت رسالتي ، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ، ومظفرك بهم ، فلا تخف ، ولا تحزن ، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك ، وقد كان النبيّ ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحرَسُ ، كما روي أن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه ، قالت : فقلت : ما شأنك يا رسول الله ، قال : « لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ » قالت : فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح ، فقال : « مَنْ هَذَا ؟ » فقال : أنا سعد بن مالك فقال : « مَا جَاءَ بِكَ ؟ » قال : جئت لأحرسك يا رسول الله ، قالت : فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه [1] . وعن عائشة قالت : كان النبيّ ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ قالت : فأخرج النبيّ ﷺ رأسه من القبة وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » [2] .

والصحيح أن هذه الآية مدنية ، بل هي من أواخر ما نزل بها ، والله أعلم ، ومن عصمة الله لرسوله ، حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها ، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلًا ونهارًا بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة ، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا في قريش ، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية ، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها ، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه ، فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيرًا ، ثم قيض الله له الأنصار ، فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة ، فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود ، وكلما همّ أحد المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه ، كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم ، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء ، ولما سمّه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر أعلمه الله به وحماه منه .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : بلغ أنت والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء كما قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمّد : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ أي : من الدين ﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ ، أي : حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء ، وتعملوا بما فيها ، ومما فيها الإيمان بمحمّد والأمر باتباعه ﷺ والإيمان بمبعثه والاقتداء بشريعته ، وقوله : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني القرآن العظيم ، وقوله : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ تقدم تفسيره ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : فلا تحزن عليهم ، ولا يهيبنك ذلك منهم ، ثم قال :

---

(١) أخرجه البخاري في التمني (٧٢٣١) ومسلم في فضائل الصحابة (٤٠) وأحمد في مسنده (١٤١/٦) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٤٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٩) .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهم مسلمون ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ وهم حملة التوراة ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع ، والصابئون طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين . وقال سعيد بن جبير : من اليهود والنصارى . وقال قتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى غير القبلة ، ويقرأون الزبور ، وأما النصارى فمعروفون وهم حملة الإنجيل ، والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر ، وهو الميعاد والجزاء يوم الدين ، وعملت عملًا صالحًا ، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقًا للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين ، فمن اتصف بذلك ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ، وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ها هنا .

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ .

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله ، فنقضوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع ، فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي : وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا فترتب ، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا ، فلا يسمعون حقًّا ولا يهتدون إليه ، ثم تاب الله عليهم أي : مما كانوا فيه ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ أي : بعد ذلك ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي : مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم .

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ .

قال تعالى حاكمًا بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ، ممن قال منهم : بأن المسيح هو الله ، تعالى الله عن قولهم وتنزّه وتقدس علوًّا كبيرًا ، هذا وقد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله ، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال : إني عبد الله ، ولم يقل : إني أنا الله ، ولا ابن الله ، بل قال : ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ إلى أن قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمرًا لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي : فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ أي : فقد أوجب له النار وحرم عليه الجنة ، وفي الصحيح أن النبيّ ﷺ بعث مناديًا ينادي في الناس : إن الجنة لا يدخلها إلَّا نفس

مسلمة ، وفي لفظ مؤمنة [(١)] .

وقوله : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ قال أبو صخر : هو قول اليهود : عزير ابن الله ؛ وقول النصارى : المسيح ابن الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة ، وهذا قول غريب في تفسير الآية أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى والصحيح أنها نزلت في النصارى خاصة ، قاله مجاهد وغير واحد : ثم اختلفوا في ذلك ، فقيل : المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة ، وهو أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا . قال ابن جرير وغيره : والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم ، وهم مختلفون فيها اختلافًا متباينًا ليس هذا موضع بسطه ، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى ، والحق أن الثلاثة كافرة . وقال السدي وغيره : نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار ، قال السدي : هي كقوله تعالى في آخر السورة : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ الآية وهذا القول هو الأظهر والله أعلم . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي : ليس متعددًا بل هو وحده لا شريك له ، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات ، ثم قال تعالى متوعدًا لهم ومتهددًا : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي : من هذا الافتراء والكذب ﴿ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : في الآخرة من الأغلال والنكال ، ثم قال : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا من كرمه تعالى ، وجوده ، ولطفه ، ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ أي : له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام ، كما قال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ وقوله : ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ أي : مؤمنة به مصدقة له وهذا أعلى مقاماتها ، فدل على أنها ليست بنبية كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى ونبوة أم عيسى ، استدلالًا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وهذا معنى النبوة ، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيًّا إلَّا من الرجال قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ أي : يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما ، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، ثم قال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي : نوضحها ونظهرها ﴿ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي : ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون ؟ وبأي قول يتمسكون ؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون ؟ .

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا قَدْ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان(١٧٨) وأحمد في مسنده(٣/١) وابن ماجه في السنن(١٧٢٠) .

وَضَلُّوا عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ، ومبينًا له أنها لا تستحق شيئًا من الإلهية فقال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي : يا محمّد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي : لا يقدر على دفع ضر عنكم ، ولا إيصال نفع إليكم ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوال عباده العليم بكل شيء ، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد ، لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يعلم شيئًا ، ولا يملك ضرًا ، ولا نفعًا لغيره ، ولا لنفسه ، ثم قال : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه ، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبي من الأنبياء ، فجعلتموه إلهًا من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم ، شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديمًا ﴿ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي : وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال .

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل ، فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه ، فقال تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي : كان لا ينهى أحدٌ منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم ، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يُركب مثل الذي ارتكبوه ، فقال : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ في المَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا ، فَجَالَسُوهُمْ في مَجَالِسِهِمْ » - قال يزيد : وأحسبه قال - « في أَسْوَاقِهِمْ ، وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ ، فَضَرَبَ اللَّه قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ » وكان رسول الله ﷺ متكئًا ، فجلس فقال : « لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطِرُوهُمْ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا » (١) . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ ما دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ ، فَيَقُولُ : يا هَذَا اتَّقِ اللَّه وَدَعْ ما تَصْنَعُ ؛ فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَكَ ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الغَدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ؛ ضَرَبَ اللَّه قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ » ثم قال : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَٰسِقُونَ ﴾ ثم قال : « كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا ، أَوْ تَقْصُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ قَصْرًا » (٢) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١) والترمذي في السنن (٣٠٤٧) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٣٣٦) .

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدًا ، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام : عن حذيفة بن اليمان أن النبيّ ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلاَ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ »(١) . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ قال مجاهد : يعني بذلك المنافقين وقوله : ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرين وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقًا في قلوبهم وأسخطت الله عليهم سخطًا مستمرًا إلى يوم معادهم ، ولهذا قال : ﴿ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وفسر بذلك ما ذمهم به ، ثم أخبر عنهم أنهم ﴿ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ يعني يوم القيامة ، عن الأعمش بإسناده ذكره قال : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاكُمْ وَالزِّنَى فَإِنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَالٍ ، ثَلاَثًا فِي الدُّنْيَا وَثَلاَثًا فِي الآخِرَةِ ، فَأَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا : فَإِنَّهُ يُذْهِبُ الْبَهَاءَ ، وَيُورِثُ الْفَقْرَ ، وَيُنْقِصُ الْعُمْرَ ، وَأَمَّا الَّتِي فِي الآخِرَةِ : فَإِنَّهُ يُوجِبُ سَخَطَ الرَّبِّ ، وَسُوءَ الْحِسَابِ ، وَالْخُلُودَ فِي النَّارِ » ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي : لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن ، لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه ﴿ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أي : خارجون عن طاعة الله ورسوله مخالفون لآيات وحيه وتنزيله .

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

قال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما : نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبيّ ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته ، فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه(٤) . قال السدي : فهاجر النجاشي فمات بالطريق ، وهذا من أفراد السدي ، فإن النجاشي مات وهو ملك الحبشة ، وصلى عليه النبيّ ﷺ يوم مات وأخبر به أصحابه ، وأخبر أنه مات بأرض الحبشة . ثم اختلف في عدة هذا الوفد ، فقيل : اثنا عشرة : سبعة قساوسة وخمسة رهابين ، وقيل بالعكس ، وقيل : خمسون ، وقيل : بضع وستون ، وقيل : سبعون رجلًا ، فالله أعلم . وقال عطاء بن أبي رباح : هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين ، وقال قتادة :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٩/٥) والترمذي في السنن (٢١٦٩) والطبراني في المعجم الكبير (١٨٠/١٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٧٨) وأحمد في مسنده (٢٠/٣) والترمذي في السنن (٢١٧٣) .
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٠٢/٢) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره ٤/٧ .

هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم ، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا ، واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها .

فقوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ ما ذاك إلَّا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيرًا من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول اللَّه ﷺ غير مرة ، وسموه وسحروه وألّبوا عليه أشباههم من المشركين ، عليهم لعائن اللَّه المتتابعة إلى يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ أي : الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله ، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة ، وما ذاك إلَّا لما في قلوبهم ، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ وفي كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . وليس القتال مشروعًا في ملتهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : يوجد فيهم القسيسون ، وهم خطباؤهم وعلماؤهم واحدهم قسيس وقس أيضًا ، وقد يجمع على قسوس ، والرهبان جمع راهب وهو العابد ، مشتق من الرهبة وهي الخوف ، كراكب وركبان وفارس وفرسان ، قال ابن جرير : وقد يكون الرهبان واحدًا وجمعه رهابين ، مثل قربان وقرابين وجرذان وجراذين ، وقد يجمع على رهابنة .

وعن سلمان في قول اللَّه تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ فقال : دع القسيس في البيع والخرب ، أقرأني رسول اللَّه ﷺ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ . عن جاثمة بن رئاب قال : سمعت سلمان وسئل عن قوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ فقال : هم الرهبان الذين هم في الصوامع والخرب ، فدعوهم فيها ، قال سلمان : وقرأت على النبيّ ﷺ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ فأقرأني : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ فقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع ، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف ، فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : مما عندهم من البشارة ببعثة محمّد ﷺ ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي : مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به ، وقد روي عن عبد اللَّه بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ . وروي عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي : مع محمّد ﷺ وأمته ، هم الشاهدون يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ ، وللرسل أنهم قد بلغوا (١) . وعنه أيضا في قول اللَّه تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾ قال : إنهم كرايين - يعني فلاحين - قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ رسول اللَّه ﷺ عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « لَعَلَّكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى أَرْضِكُمْ انْتَقَلْتُمْ إِلَى دِينِكُمْ » فقالوا : لن ننتقل عن ديننا ، فأنزل اللَّه ذلك من

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣١٣/٢ .

قولهم [١] : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ الآية . وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي : فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : ماكثين فيها أبدًا لا يحولون ولا يزولون ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان ، وأين كان ، ومع من كان ، ثم أخبر عن حال الأشقياء ، فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي : جحدوا بها وخالفوا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي : هم أهلها والداخلون فيها .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبيّ ﷺ قالوا : نقطع مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ ، فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك ، فقالوا نعم ، فقال النبيّ ﷺ : « لكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِسُنَّتِي فَهُوَ مِنِّي ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » [٢] . وعن ابن عبّاس أن رجلًا أتى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء ، وإني حرمت عليّ اللحم ، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [٣] .

وفي صحيح البخاري في قصة الصدِّيق مع أضيافه شبيه بهذا ، وفيه وفي هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلًا أو ملبسًا أو شيئًا ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ، ولا كفارة عليه أيضًا ، ولقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ولأن الذي حرم اللحم على نفسه كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبيّ ﷺ بكفارة ، وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلًا أو مشربًا أو ملبسا أو شيئًا من الأشياء ، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين كما إذا التزم تركه باليمين ، فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزامًا له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عبّاس ، وكما في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ثم قال : ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ الآية ، وكذلك ها هنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير والله أعلم وعن مجاهد قال : أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/٥٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٨) .
(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (٥) وأحمد في مسنده (٢/١٥٨) .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٥٤) .

ابن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ . وقال ابن جريج : عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالمًا مولى أبي حذيفة في أصحابه تبتلوا ، فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلَّا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل ، وهموا بالاختصاء ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ يقول : لا تسيروا بغير سنّة المسلمين ، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار ، وما هموا به من الاختصاء ، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّ لأَنْفُسِكُمْ حَقًّا ، وَإِنَّ لأَعْيُنِكُمْ حَقًّا ، صُومُوا وَأَفْطِرُوا وَصَلُّوا وَنَامُوا ، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ سُنَّتَنَا » فقالوا : اللَّهمّ سلمنا واتبعنا ما أنزلت [١] .

﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه : لا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم ، ويحتمل أن يكون المراد : كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ، ولا تجاوزوا الحد فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الآية فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه ، لا إفراط ولا تفريط ، ولهذا قال : ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ أي : في حال كونه حلالاً طيبًا ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي : في جميع أموركم واتبعوا طاعته ورضوانه ، واتركوا مخالفته وعصيانه ﴿ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

قد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنة ، وإنه قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله وبلى والله . وهذا مذهب الشافعي ، وقيل : هو في الهزل ، وقيل : في المعصية ، وقيل : على غلبة الظن ، وهو قول أبي حنيفة وأحمد ، وقيل : في اليمين في الغضب ، وقيل : في النسيان ، وقيل : هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك ، واستدلوا بقوله : ﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله : ﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ﴾ أي : بما صممتم عليه منها وقصدتموها ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ﴾ يعني محاويج من الفقراء ، ومن لا يجد ما يكفيه . وقوله : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعكرمة : أي من أعدل ما تطعمون أهليكم ، وقال عطاء الخراساني : من أمثل ما تطعمون أهليكم ، وعن ابن عبّاس قال : كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون ، وبعضهم قوتًا فيه سعة ، فقال الله تعالى : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ أي : من الخبز

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٧) والسيوطي في الدر المنثور (٣٠٨/٢) . والمسوح : جمع مِسْح ، وهو كساء شعر يلبسه الرهبان .

والزيت ، وعن ابن عمر قال : الخبز والسمن والخبز واللبن ، والخبز والزيت والخبز والتمر ، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز واللحم .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ أي : في القلة والكثرة ، ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم ، فعن علي ﷺ قال : يغديهم ويعيشهم . وقال الحسن ومحمّد ابن سيرين : يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزًا ولحمًا ، زاد الحسن : فإن لم يجد ، فخبزًا وسمنًا ولبنًا ، فإن لم يجد ، فخبزًا وزيتًا وخلًّا حتى يشبعوا . وقال آخرون : يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر ونحوهما ، فهذا قول عمر وعلي وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وميمون بن مهران وأبي مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبي قلابة ومقاتل بن حيان ، وقال أبو حنيفة : نصف صاع بر ، وصاع مما عداه ، وعن ابن عبّاس قال : كفّر رسول اللّه ﷺ بصاع من تمر وأمر الناس به ، ومن لم يجد فنصف صاع من بر .

وقال الشافعي : الواجب في كفارة اليمين مد بمد النبيّ ﷺ لكل مسكين ولم يتعرض للأدم ، واحتج بأمر النبيّ ﷺ للذي جامع في رمضان ، بأن يطعم ستين مسكينًا من مكتل يسع خمسة عشر صاعًا ، لكل واحد منهم مد .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ قال الشافعي رحمه الله : لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزأه ذلك ، واختلف أصحابه في القلنسوة هل تجزئ أم لا ؟ على وجهين : فمنهم من ذهب إلى الجواز احتجاجًا بما روي عن محمّد بن الزبير عن أبيه قال : سألت عمران بن الحصين عن قوله : ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ قال : لو أن وفدًا قدموا على أميركم ، فكساهم قلنسوة قلنسوة ، قلتم قد كسوا ، والصحيح عدم الإجزاء ، وقال مالك وأحمد بن حنبل : لابد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه إن كان رجلًا أو امرأة كل بحسبه واللّه أعلم ، وعن ابن عباس : عباءة لكل مسكين أو شملة ، وقال مجاهد : أدناه ثوب وأعلاه ما شئت ، وقال مجاهد : يجزئ في كفارة اليمين كل شيء إلّا التبان ، وقال الحسن وأبو جعفر الباقر وعطاء وطاوس وإبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وأبو مالك : ثوب ثوب ، وعن إبراهيم النخعي أيضًا : ثوب جامع كالملحفة والرداء ، ولا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعًا . وعن عائشة عن رسول اللّه ﷺ في قوله : ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ قال : « عَبَاءَة لِكُلِّ مِسْكِينٍ » (١) .

وقوله : ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها فقال : تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة ، وقال الشافعي وآخرون : لابد أن تكون مؤمنة ، وأخذ تقييدها بالإيمان من كفّارة القتل لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب ، ومن حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي ذكر أن عليه عتق رقبة ، وجاء معه بجارية سوداء فقال لها رسول اللّه ﷺ : « أَيْنَ اللّه » قالت : في السماء قال : « مَنْ أَنَا » قالت : رسول اللّه قال : « أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ » (٢) فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين أيها فعل

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٣/٧)

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٢٩١/٢) ومالك في الموطأ (٧٧٧) .

الحانث أجزأ عنه بالإجماع ، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة ، كما أن الكسوة أيسر من العتق ، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى ، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاثة كفّر بصيام ثلاثة أيام ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ . وروي عن سعيد بن جبير والحسن البصري أنهما قالا : من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلّا صام ، وقال ابن جرير حاكيًا عن بعض متأخري متفقهة زمانه : أنه جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف فيه لمعاشه ، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه ، ثم اختار ابن جرير أنه الذي لا يفضل عن قوته وقت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين . واختلف العلماء هل يجب فيها التتابع ، أو يستحب ولا يجب ويجزئ التفريق ؟ قولان : أحدهما : لا يجب ، وهذا منصوص الشافعي في كتاب الإيمان ، وهو قول مالك لإطلاق قوله : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة كما في قضاء رمضان ؛ لقوله : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ونص الشافعي في موضع آخر في الأم على وجوب التتابع ، كما هو قول الحنفية والحنابلة ؛ لأنه قد روي عن أبيّ بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرؤونها (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) . وقال إبراهيم في قراءة عبد الله بن مسعود : (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) متتابعات ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ أي : هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿ وَاحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ قال ابن جرير : معناه لا تتركوها بغير تكفير ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي : يوضحها ويفسرها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار ، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : الشطرنج من الميسر . وعن عطاء ومجاهد وطاوس قال سفيان : أو اثنين منهم قالوا : كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز . وعن ابن عمر قال : الميسر هو القمار ، وعن ابن عبّاس قال : الميسر هو القمار ، كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام ، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة ، وقال سعيد بن المسيب : كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين .

وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ » (١) وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ » (٢) وعن محمّد بن كعب وهو يسأل عبد الرّحمن يقول : أخبرني ما سمعت أباك يقول عن رسول الله ﷺ ؟ فقال عبد الرّحمن سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله

---

(١) أخرجه مسلم في الشعر(١٠) وأحمد في مسنده(٣٥٢/٥) وأبو داود في السنن(٤٩٣٩) وابن ماجه في السنن(٣٧٦٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٣٩٤/٤) وأبو داود في السنن(٤٩٣٨) وابن ماجه في السنن(٣٧٨٢)

ﷺ يقول : « مَثَلُ الَّذِي يَلْعَبُ بِالنَّرْدِ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي مَثَلُ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِالقَيْحِ وَدَمِ الخِنْزِيرِ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي »(١) .

وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر : إنه شر من النرد ، وتقدم عن علي أنه قال : هو من الميسر ، ونص على تحريمه مالك وأبو حنيفة وأحمد ، وكرهه الشافعي رحمهم الله تعالى ، وأما الأنصاب ، فقال ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والحسن وغير واحد : هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ، وأما الأزلام فقالوا أيضًا : هي قداح كانوا يستقسمون بها . وقوله تعالى : ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ : قال ابن عباس : أي سخط من عمل الشيطان ، وقال سعيد بن جبير : إثم . وقال زيد بن أسلم : أي شر من عمل الشيطان ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ الضمير عائد على الرجس أي : اتركوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وهذا ترغيب ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ وهذا تهديد وترهيب .

ذكر الأحاديث الواردة في تحريم الخمر : عن أبي هريرة قال : حرمت الخمر ثلاث مرات ، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما ، فأنزل الله : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ إلى آخر الآية ، فقال الناس : ما حرمه علينا إنما قال : ﴿ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ وكانوا يشربون الخمر ، حتى كان يومًا من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب ، فخلط في قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ منها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مغبق ، ثم أنزلت آية أغلظ منها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ قالوا : انتهينا ربنا ، وقال الناس : يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على سرفهم ، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجسًا من عمل الشيطان ، فأنزل الله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ إلى آخر الآية ، فقال النبيّ ﷺ : « لَوْ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ لَتَرَكُوهُ كَمَا تَرَكْتُمْ »(٢) .

وعن عمر بن الخطاب أنه قال لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في البقرة : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قال : حي علي الصلاة نادى : لا يقربن الصلاة سكران . فدعي عمر فقرئت عليه . فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا . فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعي عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ قول الله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ قال عمر : انتهينا انتهينا (٣) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٠/٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٢١٥/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٢/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥١/٥) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٦٧٠) والنسائي في السنن ٢٨٦/٨ .

وعن عبد الرحمن بن وعلة قال : سألت ابن عبّاس عن بيع الخمر ، فقال : كان لرسول الله ﷺ صديقٍ من ثقيف أو من دوس ، فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا فُلَانُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا ؟ » فأقبل الرجل على غلامه فقال : اذهب فبعها ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا فُلَانُ بِمَاذَا أَمَرْتَهُ ؟ » فقال : أمرته أن يبيعها ، قال : « إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا » فأمر بها ، فأفرغت في البطحاء (١) .

وعن أنس قال : كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح وأُبيّ بن كعب وسهيل بن بيضاء ونفرًا من أصحابه عند أبي طلحة حتى كاد الشراب يأخذ منهم ، فأتى آتٍ من المسلمين فقال : أما شعرتم أن الخمر قد حرمت؟ فقالوا : حتى ننظر ونسأل ، فقالوا : يا أنس اسكب ما بقي في إنائك ، فوالله ما عادوا فيها وما هي إلّا التمر والبسر وهي خمرهم يومئذ (٢) .

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَالَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ جَهَنَّمَ » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الخَمْرَ وَالمَيْسِرَ وَالكوبَةَ وَالغُبَيْرَاءَ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ » (٣) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لُعِنَتِ الخَمْرُ عَلَى عَشَرَةِ أَوْجُهٍ ، لُعِنَتِ الخَمْرُ بِعَيْنِهَا ، وَشَارِبُهَا ، وَسَاقِيهَا ، وَبَائِعُهَا ، ومبتاعُها ، وَعَاصِرُهَا ، وَمُعْتَصِرُهَا ، وَحَامِلُهَا ، وَالمحْمُولة إِلَيْهِ ، وَآكِلُ ثَمَنِهَا » (٤)

وعن ثابت أن يزيد الخولاني أنه كان له عم يبيع الخمر وكان يتصدق ، قال : فنهيته عنها فلم ينته ، فقدمت المدينة ، فلقيت ابن عبّاس ، فسألته عن الخمر وثمنها ، فقال : هي حرام وثمنها حرام ، ثم قال ابن عبّاس ﷺ : يا معشر أمة محمّد إنه لو كان كتاب بعد كتابكم ونبي بعد نبيكم لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم ، ولكن أخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة ، ولعمري لهو أشد عليكم . قال ثابت : فلقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر ، فقال : سأخبرك عن الخمر : إني كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد ، فبينما هو محتب على حبوته ، ثم قال : « مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ هَذِهِ الخَمْرِ شَيْءٌ فَلْيَأْتِنَا بِهَا » فجعلوا يأتونه ، فيقول أحدهم : عندي راوية ، ويقول الآخر : عندي زق أو ما شاء الله أن يكون عنده ، فقال رسول الله ﷺ : « اجْمَعُوهُ بِبَقِيعِ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ آذِنُونِي » ففعلوا ، ثم آذنوه ، فقام وقمت معه ومشيت عن يمينه وهو متكئ علي ، فلحقنا أبو بكر ﷺ ، فأخرني رسول الله ﷺ فجعلني عن شماله وجعل أبا بكر في مكاني ، ثم لحقنا عمر بن الخطاب ﷺ فأخرني وجعله عن يساره ، فمشى بينهما حتى إذا وقف على الخمر قال للناس : « أَتَعْرِفُونَ هَذِهِ ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله هذه الخمر قال : « صَدَقْتُمْ » ثم قال : « فَإِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الخَمْرَ ، وَعَاصِرَهَا ، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَشَارِبَهَا ، وَسَاقِيَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالمحْمُولَةَ إِلَيْهِ ، وَبَائِعَهَا ، وَمُشْتَرِيَهَا ، وَآكِلَ ثَمَنِهَا » ثم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/١) والدارمي في السنن (١١٤/٢ ، ١١٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٧/٣) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧١/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/٢) .

دعا بسكين فقال : « اشْحَذُوهَا » ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الزقاق ، قال : فقال الناس : في هذه الزقاق منفعة ، فقال : « أَجَلْ وَلَكِنِّي إِنَّمَا أَفْعَلُ ذَلِكَ غَضَبًا للَّهِ ﷻ لِمَا فِيهَا مِنْ سَخَطِهِ » فقال عمر : أنا أكفيك يا رسول الله ، قال : « لا » . قال ابن وهب : وبعضهم يزيد على بعض في قصة الحديث (١) .

وعن عمرو بن جابر قال : صبّح أناس غداة أُحد الخمر فقتلوا من يومهم جميعًا شهداء ، وذلك قبل تحريمها (٢) .

وعن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال : « كُلُّ مُخَمِّرٍ خَمْرٍ ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، وَمَنْ شَرِبَ مُسْكِرًا ؛ بخسَتْ صَلاتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ » قيل : وما طينة الخبال يا رسول الله ؟ قال : « صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ ، وَمَنْ سَقَاهُ صَغِيرًا لاَ يَعْرِفُ حَلاَلَهُ مِنْ حَرَامه ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ » (٣) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، وَمَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا ؛ لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ » (٤)

وقال عبد الله بن عمر : قال رسول الله ﷺ : « ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ : العَاقُّ لِوَالِدَيْهِ ، وَالمُدْمِنُ الخَمْرَ ، وَالمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى » (٥) .

وعن عثمان بن عفان يقول : اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة غوية ، فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة ، فدخل معها ، فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه ، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر ، فقالت : إني والله ما دعوتك لشهادة ، ولكن دعوتك لتقع عليّ أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر ، فسقته كأسًا ، فقال : زيدوني فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر ، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلّا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه (٦) . وعن عبد الله بن مسعود أن النبيّ ﷺ قال : لما نزلت ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ﴾ فقال النبيّ ﷺ : « قِيلَ لِي : أَنْتَ مِنْهُمْ » (٧) . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَهَاتَانِ الكَعْبَتَانِ المَوْسُومَتَانِ اللَّتَانِ تَزْجُرَانِ زَجْرًا ؛ فَإِنَّهُمَا مَيْسِرُ العَجَمِ » (٨) .

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبري (٢٨٦/٨ ، ٢٨٧) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦١٨) .
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٦٨٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٦/٢) والترمذي في السنن (١٨٦١) .
(٥) أخرجه البيهقي في الكبري (٢٨٨/٨) .
(٦) أخرجه البيهقي في الكبري (٢٨٧/٨ ، ٢٨٨) .
(٧) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٠٩) والحاكم في المستدرك (١٤٣/٤) .
(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ .

عن ابن عبّاس قوله : ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ قال : هو الضعيف من الصيد وصغيره ، يبتلي اللَّه به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم ، فنهاهم اللَّه عن أن يقربوه ، وقال مجاهد : ﴿ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني صغار الصيد وفراخه ﴿ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ يعني كباره ، وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية ، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم اللَّه عن قتله وهم محرمون ﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم ، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًا وجهرًا لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره جهره ، وقوله ها هنا : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ قال السدي وغيره : يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ﴿ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : لمخالفته أمر اللَّه وشرعه ، ثم قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام ، ونهي عن تعاطيه فيه ، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ، ولو ما تولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر ، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها ، والجمهور على تحريم قتلها أيضًا ، ولا يستثنى من ذلك إلَّا ما ثبت عن عائشة أم المؤمنين أن رسول اللَّه ﷺ قال : « خَمْس فَوَاسِق يُقْتَلْنَ في الحِلِّ وَالحرم : الغُرَابُ وَالحِدَأَةُ وَالعَقْرَبُ وَالفَأْرَةُ وَالكَلْبُ العَقُورُ »[١] وعن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال : « خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِ لَيْسَ عَلَى المحْرِمِ في قَتْلِهِنَّ جُنَاحٌ : الغُرَابُ وَالحِدَأَةُ وَالعَقْرَبُ وَالفَأْرَةُ وَالكَلْبُ العَقُورُ »[٢] . ومن العلماء كمالك ، وأحمد من ألحق بالكلب العقور الذئب والسبع والنمر والفهد ؛ لأنها أشد ضررًا منه ، فاللَّه أعلم . وقال : زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة : الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها ، واستأنس من قال بهذا بما روي أن رسول اللَّه ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال : « اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ بِالشَّامِ »[٣] فأكله السبع بالزرقاء ، قالوا : فإن قتل ما عداهن فداه كالضبع والثعلب والوبر ونحو ذلك ، قال مالك : وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها ، وصغار الملحق بها من السباع العوادي ، وقال الشافعي : يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه ، ولا فرق بين صغار وكباره ، وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل ، وقال أبو حنيفة : يقتل المحرم الكلب العقور والذئب ؛ لأنه كلب بري ، فإن قتل غيرهما فداه ، إلَّا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه ، وهذا قول الأوزاعي والحسن بن صالح بن حيي ، وقال زفر بن الهذيل : يفدي ما سوى ذلك وإن صال عليه ، وقال بعض الناس : المراد بالغراب ها هنا الأبقع ، وهو الذي في بطنه وظهره بياض ، دون الأدرع وهو الأسود ، والأعصم وهو الأبيض ، لما روي عن عائشة عن النبيّ ﷺ قال : « خَمْسٌ يَقْتُلُهُنَّ المحْرِمُ :

(١) أخرجه مسلم في الحج (٦٨) وأحمد في مسنده (٦/٩٧) والنسائي في سننه (٢٨٨١) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٧٦) ومالك في الموطأ (٣٥٦) .

(٣) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٤/٣٩) .

الحَيَّةُ وَالفَأْرَةُ والحِدَأَةُ وَالغُرَابُ الأَبْقَعُ وَالكَلْبُ العَقُورُ »[١] والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك ؛ لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه ، وقال مالك رحمه الله : لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه ، وقال مجاهد بن جبر وطائفة : لا يقتله بل يرميه ، ويروى مثله عن علي .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد الناسي لإحرامه ، فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه فذلك أمره أعظم من أن يكفر ، وقد بطل إحرامه ، والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه ، وقال الزهري : دل الكتاب على العامد وجرت السنّة على الناسي ، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله : ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾ وجاءت السنّة من أحكام النبيّ ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ ، كما دّل الكتاب عليه في العمد ، وأيضًا فإن قتل الصيد إتلاف ، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان ، لكن المتعمد مأثوم والمخطئ غير ملوم . وقوله تعالى : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ قرأ بعضهم بالإضافة ، وقرأ آخرون بعطفها ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ وحكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأ ﴿فجزاؤه مثل ما قتل من النعم ﴾[٢] وفي قوله : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي خلافًا لأبي حنيفة رحمه الله ، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثليًا أو غير مثلي ، قال : وهو مخير ، إن شاء تصدق بثمنه وإن شاء اشترى به هديًا ، والذي حكم به الصحابة في المثل الأولى بالاتباع ، فإنهم حكموا في النعامة ببدنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز ، وذكر قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر في كتاب الأحكام ، وأما إذا لم يكن الصيد مثليًا ؛ فقد حكم ابن عبّاس فيه بثمنه يحمل إلى مكة .

وقوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين ، واختلف العلماء في القاتل ، هل يجوز أن يكون أحد الحكمين على قولين : أحدهما : لا ، لأنه قد يتهم في حكمه على نفسه وهذا مذهب مالك ، والثاني : نعم لعموم الآية وهو مذهب الشافعي وأحمد ، واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكومًا عليه في صورة واحدة ، وعن ميمون بن مهران أن أعرابيًا أتى أبا بكر ، فقال : قتلت صيدًا وأنا محرم فما ترى عليّ من الجزاء ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه لأبيّ بن كعب وهو جالس عنده : ما ترى فيها ؟ قال : فقال الأعرابي : أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك فإذا أنت تسأل غيرك ؟ فقال أبو بكر : وما تنكر ؟ يقول الله تعالى : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به ، فبيّن له الصدّيق الحكم برفق وتؤدة لما رآه أعرابيًا جاهلًا ، وإنما دواء الجهل التعليم ، فأما إذا كان المعترض منسوبًا إلى العلم ، فقد روي عن قبيصة بن جابر قال : خرجنا حجاجًا فكنا إذا صلينا الغداة اقتدنا رواحلنا فنتماشى نتحدث ، قال : فبينما نحن ذات غداة إذ سنح لنا ظبيٌ أو برح ، فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ حشاه فركب وودعه ميتًا ، قال : فعظمنا عليه ، فلمّا قدمنا مكة خرجت معه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣) وأبو داود في سننه (١٨٤٨) .

(٢) قرأ الكوفيون ﴿ فجزاء ﴾ بالتنوين (مثل ما) برفع اللام والباقون بغير تنوين والخفض (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٨) .

حتى أتينا عمر بن الخطاب ﷺ ، فقص عليه القصة ، فقال : وإذا إلى جنبه رجل كأن وجهه قلب فضة يعني عبد الرحمن بن عوف ، فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه ، قال : ثم أقبل على الرجل ، فقال : أعمدًا قتلته أم خطأ ؟ فقال الرجل : لقد تعمدت رميه وما أردت قتله ، فقال عمر : ما أراك إلَّا قد أشركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذبحهما وتصدّق بلحمها واستبق إهابها ، قال : فقمنا من عنده فقلت لصاحبي : أيها الرجل عظم شعائر اللَّه فما دري أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه ، اعمد إلى ناقتك فانحرها فلعل ذلك يعني أن يجزئ عنك ، قال قبيصة : ولا أذكر الآية من سورة المائدة ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ فبلغ عمر مقالتي ، فلم يفجأنا منه إلَّا ومعه الدرة ، قال : فعلا صاحبي ضربًا بالدرة . أقتلت في الحرم وسفهت في الحكم ، قال : ثم أقبل عليّ فقلت : يا أمير المؤمنين لا أحل لك اليوم شيئًا يحرم عليك مني ، فقال : يا قبيصة بن جابر إني أراك شاب السن فسيح الصدر بيّن اللسان ، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الحسنة ، فإياك وعثرات الشباب ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ وفي هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين ، كما قاله الشافعي وأحمد رحمهما اللَّه ، واختلفوا هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم ، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل وإن كان قد حكم في مثله الصحابة أو يكتفي بأحكام الصحابة المتقدمة ؟ على قولين : فقال الشافعي وأحمد : يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة وجعلاه شرعًا مقررًا لا يعدل عنه ، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين ، وقال مالك وأبو حنيفة : بل يجب الحكم في كل فرد فرد سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ أي : واصلًا إلى الكعبة ، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرق لحمه على مساكين الحرم ، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة .

وقوله : ﴿ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ أي : إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم ، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال ، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام كما هو قول مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمّد بن الحسن وأحد قولي الشافعي ، والمشهور عن أحمد رحمهم اللَّه لظاهر « أو » بأنها للتخيير ، والقول الآخر أنها على الترتيب ، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة فيُقوَّمُ الصيد المقتول عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه وحماد وإبراهيم ، وقال الشافعي : يقوّم مثله من النعم لو كان موجودًا ، ثم يُشْتَرى بِهِ طعامٌ فيتصدق به ، فيصرف لكل مسكين مد منه عند الشافعي ومالك وفقهاء الحجاز ، واختاره ابن جرير وقال أبو حنيفة وأصحابه : يطعم كل مسكين مدين وهو قول مجاهد ، وقال أحمد : مد من حنطة أو مدان من غيره ، فإن لم يجد أو قلنا بالتخيير ؛ صام عن إطعام كل مسكين يومًا ، وقال ابن جرير : وقال آخرون : يصوم مكان كل صاع يومًا كما في جزاء المترفه بالحلق ونحوه ، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقًا بين ستة أو يصوم ثلاثة أيام والفرق ثلاثة آصع ، واختلفوا في مكان هذا الإطعام ، فقال الشافعي : مكانه الحرم ، وهو قول عطاء ، وقال مالك : يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد أو أقرب الأماكن إليه ، وقال أبو حنيفة : إن شاء أطعم في الحرم وإن شاء أطعم في غيره .

ذكر أقوال السلف في هذا المقام : عن ابن عبّاس في قول اللّه تعالى : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ قال : إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم ، فإن لم يجد نظركم ثمنه ثم قوم ثمنه طعامًا ، فصام مكان كل نصف صاع يومًا ، قال اللّه تعالى : ﴿ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ قال : إنما أريد بالطعام والصيام ، فإنه إذا وجد الطعام وجد جزاؤه ، عن ابن عبّاس ﴿ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ إذا قتل المحرم شيئًا من الصيد حكم عليه فيه ، فإن قتل ظبيًا أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة ، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فإن قتل إيلًا أو نحوه فعليه بقرة ، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكينًا فإن لم يجد صام عشرين يومًا ، وإن قتل نعامةً أو حمار وحشٍ أو نحوه فعليه بدنة من الإبل ، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكينًا ، فإن لم يجد صام ثلاثين يومًا ، ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ قالوا : إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدي . رواه ابن جرير وكذا روي ابن جريج عن مجاهد وأسباط عن السدي أنها على الترتيب . وفي رواية الضحاك وإبراهيم النخعي : هي على الخيار . وهي رواية الليث عن مجاهد عن ابن عبّاس ، وقوله : ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾ أي : أوجبنا عليه الكفارة ليذوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ أي : في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع اللّه ولم يرتكب المعصية ، ثم قال : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾ أي : ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ قال ابن جريج : قلت لعطاء : ما ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ ؟ قال : عما كان في الجاهلية قال : قلت : وما ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾ قال : ومن عاد في الإسلام فينتقم اللّه منه وعليه مع ذلك الكفارة ، قال : قلت : فهل في العود من حد تعلمه ؟ قال : لا ، قال : قلت : فترى حقًا على الإمام أن يعاقبه ؟ قال : لا هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين اللّه ﷻ ، ولكن يفتدى ، رواه ابن جرير . وقيل : معناه فينتقم اللّه منه بالكفارة ، قاله سعيد بن جبير وعطاء : ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء ، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد ، وقال ابن عبّاس : من قتل شيئًا من الصيد خطأً وهو محرم يحكم عليه فيه كما قتله ، فإن قتله عمدًا يحكم عليه فيه مرة واحدة ، فإن عاد يقال له : ينتقم اللّه منك ، كما قال اللّه ﷻ . ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ يقول عز ذكره : واللّه منيع في سلطانه لا يقهره قاهر ، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع ؛ لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره له العزة والمنعة . وقوله : ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ ﴾ : يعني ما يصطاد منه طريًا ﴿ وَطَعَامُهُۥ ﴾

ما يتزود منه مليحًا يابسًا ، وقال ابن عبّاس في الرواية المشهورة عنه : صيده ما أخذ منه حيًّا ﴿ وَطَعَامُهُۥ ﴾ ما لفظه ميتًا ، وهكذا روي عن أبي بكر الصدِّيق وزيد بن ثابت وعبد اللَّه بن عمرو وأبي أيوب الأنصاري ﷺ وعكرمة وأبي سلمة بن عبد الرَّحمن وإبراهيم النخعي والحسن البصري . وعن ابن عبّاس قال : خطب أبو بكر الناس فقال : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ ﴾ وطعامه ما قذف . وقال سعيد بن المسيب : طعامه ما لفظه حيًّا أو حسر عنه فمات ، وعن نافع أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال : إن البحر قد قذف حيتانًا كثيرة ميتة أفنأكلها ؟ فقال : لا تأكلوها ، فلما رجع عبد اللَّه إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة فأتى هذه الآية ﴿ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ فقال : اذهب فقل له : فليأكله فإنه طعامه . وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه . وقوله : ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ أي : منفعة وقوتًا لكم أيها المخاطبون ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ وهم جمع سيار قال عكرمة : لمن كان بحضرة البحر والسفر ، وقال غيره : الطري منه لمن يصطاده من حاضرة البحر ، وطعامه ما مات فيه ، أو اصطيد منه وملح ، وقد يكون زادًا للمسافرين والنائين عن البحر .

وقد استدل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة وبما روي عن جابر بن عبد اللَّه ، قال : بعث رسول اللَّه ﷺ بعثًا قبل الساحل فأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة وأنا فيهم ، قال : فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق ، فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش ، فجمع ذلك كله ، فكان مزودي تمر ، قال : فكان يقوتنا كل يوم قليلًا قليلًا حتى فني ، فلم يكن يصيبنا إلَّا تمرة تمرة ، فقال : فقد وجدنا فقدها حين فنيت ، قال : ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب ، فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة ، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ، ثم أمر براحلة فرحلت ومرت تحتهما فلم تصبهما [١] .

وقد روي عن أبي هريرة قال : كنا مع رسول اللَّه ﷺ في حج أو عمرة ، فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربهن بعصينا وسياطنا فنقتلهن ، فسقط في أيدينا فقلنا : ما نصنع ونحن محرمون ، فسألنا رسول اللَّه ﷺ فقال : « لاَ بَأْسَ بِصَيْدِ البَحْرِ » [٢] . وقد روى الشافعي عن سعيد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عبّاس أنه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم ، وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر ، ولم يستثن من ذلك شيئًا وقد تقدم عن الصدِّيق أنه قال : طعامه كل ما فيه . وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها لما روي عن أبي عبد الرحمن بن عثمان التيمي ، أن رسول اللَّه ﷺ نهى عن قتل الضفدع [٣] . وعن عبد اللَّه بن عمرو ، قال : نهى رسول اللَّه ﷺ عن قتل الضفدع ، وقال : نقيقها تسبيح [٤] . وقال آخرون : يؤكل من صيد البحر السمك ولا يؤكل الضفدع ، واختلفوا فيما سواهما فقيل : يؤكل سائر ذلك ، وقيل : لا يؤكل ،

---

(١) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٨٣) وأحمد في مسنده (٣٠٦/٣) ومالك في الموطأ (٩٣٠/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٦/٢) وابن ماجه في سننه (٣٢٢٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٣/٣) وأبو داود في سننه (٥٢٦٩) .

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٤١/٤ .

وقيل : ما أكل شبهه من البر أكل مثله في البحر ، وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل ، وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ، وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى : لا يؤكل ما مات في البحر ، كما لا يؤكل ما مات في البر ، لعموم قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل بحديث : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحلُّ ميتتُهُ »[1] . وروي عن ابن عمر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ ؛ فَأَمَّا المَيْتَتَانِ : فَالحُوتُ وَالجَرَادُ ؛ وَأَمَّا الدَّمَانِ : فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ »[2] .

وقوله : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ أي : في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد ، ففيه دلالة على تحريم ذلك ، فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمدًا أثم وغرم ، أو مخطئًا غرم وحرم عليه أكله ؛ لأنه في حقه كالميتة ، وكذا في حق غيره من المحرمين والمحلين عند مالك والشافعي في أحد قوليه ، وبه يقول عطاء والقاسم وسالم وأبو يوسف ومحمّد بن الحسن وغيرهم ، فإن أكله أو شيئًا منه فهل يلزمه جزاء ثان ؟ فيه قولان للعلماء أحدهما : نعم ، عن عطاء قال : إن ذبحه ثم أكله فكفارتان ، وإليه ذهب طائفة . والثاني : لا جزاء عليه في أكله ، نص عليه مالك بن أنس وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار وجمهور العلماء ، ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ ثم وطئ ثم وطئ قبل أن يحد ، فإنما عليه حد واحد ، وقال أبو حنيفة : عليه قيمة ما أكل ، وقال أبو ثور : إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه ، وحلال أكل ذلك الصيد ، إلَّا أنني أكرهه للذي قتله للخبر عن رسول اللَّه ﷺ : « صَيْدُ البَرِّ لَكُمْ حَلالٌ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لَكُمْ »[3] وهذا الحديث سيأتي بيانه ، وقوله بإباحته للقاتل غريب ، وأما لغيره ففيه خلاف قد ذكرنا المنع عمن تقدم ، وقال آخرون بإباحته لغير القاتل سواء المحرمون والمحلون ؛ لهذا الحديث ، واللَّه أعلم .

وأما إذا صاد حلال صيدًا ، فأهداه إلى محرم ، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقًا ، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده من أجله أم لا ، حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة والزبير بن العوام . وعن أبي هريرة ، أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال ، أيأكله المحرم ؟ قال : فأفتاهم بأكله ، ثم لقي عمر بن الخطاب ، فأخبره بما كان من أمره ، فقال : لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك ، وقال آخرون : لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية ، ومنعوا من ذلك مطلقًا لعموم هذه الآية الكريمة ، وعن ابن عبّاس أنه كره أكل الصيد للمحرم وقال : هي مبهمة ، يعني قوله : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ وعن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال ، وبه قال طاوس وجابر بن زيد ، وإليه ذهب الثوري وإسحاق بن راهويه . وقد روي نحوه عن علي بن أبي طالب ، عن سعيد بن المسيب : أن عليًا كره أكل لحم الصيد للمحرم على كل حال ، وقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في رواية والجمهور : إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد لم يجز للمحرم أكله ، لحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى للنبي

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٢) والحاكم في المستدرك (١٠٠/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (١ ، ٣ ، ٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩٧/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٥٤/١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٢/٣) وأبو داود في سننه (١٨٥١) .

ﷺ حمارًا وحشيًا وهو بالأبواء أو بودان ، فرده عليه ، فلما رأى ما في وجهه قال : « إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّا حُرُمٌ » ، قالوا : فوجهه أن النبيّ ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله فرده لذلك[1] . فأما إذا لم يقصده بالاصطياد ؛ فإنه يجوز له الأكل منه ، لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وحش وكان حلالًا لم يحرم ، وكان أصحابه محرمين ، فتوقفوا في أكله ، ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال : « هَلْ كَانَ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَشَارَ إِلَيْهَا أَوْ أَعَانَ فِي قَتْلِهَا ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَكُلُوا » وأكل منها رسول الله ﷺ[2] .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : وقال قتيبة في حديثه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صَيْدُ البَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ - قَالَ سَعِيدُ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ - مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لَكُمْ »[3] .

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴾ .

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُل ﴾ يا محمّد ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ ﴾ أي : يا أيها الإنسان ﴿ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار ، كما جاء في الحديث « مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى »[4] . وعن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا ، فقال النبيّ ﷺ : « قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لا تُطِيقُهُ »[5] ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ أي : يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة ، وتجنبوا الحرام ودعوه واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، ثم قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور بما ساءتهم وشق عليهم سماعها ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ »[6] . وعن أنس بن مالك ، قال : خطب رسول الله خطبة ما سمعت مثلها قط ، وقال فيها : « لَوْ تَعْلَمُوا مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم حنين ، فقال رجل : من أبي ؟ قال : « فُلَانٌ » . فنزلت هذه الآية ﴿ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾[7] . وعن قتادة في قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ قال : إن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة ، فخرج عليهم ذات يوم ، فصعد المنبر فقال : « لا تَسْأَلُونِي اليَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ » فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (٥٠) ومالك في الموطأ (٣٥٣) . (٢) أخرجه أبو داود في سننه (١٨٥١) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٢/٣) والترمذي في سننه (٨٤٦) والنسائي في سننه (٢٨٢٧) .
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢٥/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٥/١٠) .
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٦١/٣) .
(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/١) وأبو داود في سننه (٤٨٦٠) .
(٧) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٦) وأحمد في مسنده (٣١٢/٢) والحاكم في المستدرك (٥٧٩/٤) .

قد حضر ، فجعلت لا ألتفت يمينًا ولا شمالًا إلَّا وجدت كلًّا لافًّا رأسه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل كان يلاحي فيدعى إلى غير أبيه ، فقال : يا نبي الله من أبي ؟ قال : « أَبُوكَ حُذَافَةُ » قال : ثم قام عمر أو قال : فأنشأ عمر فقال : رضينا بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمّد رسولًا عائذًا بالله ، أو قال : أعوذ بالله من شر الفتن ، قال : وقال رسول الله ﷺ : « لَمْ أَرَ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ ، صُوِّرَتْ لِيَ الجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا دُونَ الحَائِطِ »[١] .

وعن علي قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ قالوا : يا رسول الله أفي كل عام ؟ فسكت ، فقالوا : أفي كل عام ؟ فسكت ، قال : ثم قالوا : أفي كل عام ؟ فقال : « لاَ ، وَلَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ » فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ الآية[٢] ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الحَجَّ » فقال رجل : أفي كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثًا فقال : « مَنِ السَّائِلُ ؟ » فقال : فلان ، فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَوَ وَجَبَتْ عَلَيْكُمْ مَا أَطَقْتُمُوهُ ، وَلَوْ تَرَكْتُمُوهُ لَكَفَرْتُمْ » فأنزل الله ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ حتى ختم الآية[٣] وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته ، فالأولى الإعراض عنها وتركها ، وما أحسن الحديث الذي روي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لاَ يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ »[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم ﴿ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ثم قال : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ أي : عما كان منكم قبل ذلك ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ وقيل : المراد بقوله : ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ أي : لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها ، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق ، وقد ورد في الحديث : « أَعْظَمُ المُسْلِمِينَ جرمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ »[٥] ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة ، فسألتم عن بيانها بينت لكم حينئذٍ لاحتياجكم إليها ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ أي : ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه ، فاسكتوا أنتم كما سكت عنها ، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ »[٦] وفي الحديث أيضًا : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ

---

(١) أخرجه : البخاري في الدعوات (٦٣٦٢) ومسلم في الفضائل (١٣٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٣/١) وابن ماجه في سننه (٢٨٨٤) وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢٩٤/٢) .

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه (٢٨٢/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/١) والترمذي في سننه (٣٨٩٦) وأبو داود في سننه (٤٨٦٠) .

(٥) أخرجه مسلم في الفضائل (١٣٢ ، ١٣٣) وأحمد في مسنده (١٧٩/١) وأبو داود في سننه (٤٦١٠) .

(٦) أخرجه مسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٢٤٧/٢) وابن ماجه في سننه (٢) .

عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلاَ تَسْأَلُوا عَنْهَا » [(١)] ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ أي : قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها ، ثم لم يؤمنوا بها ، فأصبحوا بها كافرين أي بسببها ، أي : بينت لهم فلم ينتفعوا بها ؛ لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء والعناد .

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . قال : وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « رَأَيْتُ عَمْرَو بنُ عَامِرِ الخُزَاعِيِّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبِ » [(٢)] والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ، ثم تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامي .

عن عبد الله بن مسعود عن النبيِّ ﷺ قال : « إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ وَعَبَدَ الأَصْنَامَ أَبُو خُزَاعَةَ عَمْرُو بنُ عَامِرٍ ، وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجُرُّ أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ » [(٣)] . فعمرو هذا هو ابن لحي بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم ، وكان أول من غيَّر دين إبراهيم الخليل ، فأدخل الأصنام إلى الحجاز ، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرّب بها ، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها ، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ إلى آخر الآيات في ذلك . فأما البحيرة فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما : هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس ، فإن كان ذكرًا ذبحوه فأكله الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى جدعوا آذانها ، فقالوا : هذه بحيرة . وأما السائبة : فقال مجاهد : هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة إلَّا أنها ما ولدت من ولد كان بينها وبينه ستة أولاد كانت على هيئتها ، فإذا ولدت السابع ذكرًا أو ذكرين ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم ، وقال محمّد بن إسحاق : السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر ، سيبت ، فلم تركب ، ولم يجزّ وبرها ، ولم يحلب لبنها إلَّا لضيف . وقال أبو روق : السائبة : كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته سيب من ماله ناقة أو غيرها ، فجعلها للطواغيت ، فما ولدت من شيء كان لها ، وقال السدي : كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته أو عوفي من مرض أو كثر ماله سيب شيئًا من ماله للأوثان ، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٢٢/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (١٣/١٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٥١) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/١) .

وأما الوصيلة : فقال ابن عبّاس : هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع ، فإن كان ذكرًا وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى استحيوها ، وإن كان ذكرًا وأنثى في بطن واحد استحيوهما ، وقالوا : وصلته أخته فحرمته علينا . عن سعيد بن المسيب ﴿ وَلَا وَصِيلَةٍ ﴾ قال : فالوصيلة من الإبل كانت الناقة تبتكر بالأنثى ، ثم ثنت بأنثى فسموها الوصيلة ، ويقولون : وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر فكانوا يجدعونها لطواغيتهم ، وكذا روي عن الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ، وقال محمّد بن إسحاق : الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن توأمين توأمين في كل بطن سميت الوصيلة ، وتركت فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكور دون الإناث ، وإن كانت ميتة اشتركوا فيها ، وأما الحامي : فقال ابن عبّاس : كان الرجل إذا لقح فحله عشرًا قيل : حام فاتركوه ، وعنه أيضا : وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده ، قالوا : حمى هذا ظهره ، فلا يحملون عليه شيئًا ، ولا يجزون له وبرًا ، ولا يمنعونه من حمى رعي ، ومن حوض يشرب منه ، وإن كان الحوض لغير صاحبه ، وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : أما الحام : فمن الإبل ، كان يضرب في الإبل ، فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه ، وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي : ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة ، ولكن المشركون افتروا ذلك ، وجعلوه شرعًا لهم وقربة يتقربون بها إليه ، وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو وبال عليهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ أي : إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه ، وترك ما حرمه ، قالوا : يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ أي : لا يفهمون حقًّا ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه ، فكيف يتبعونهم والحالة هذه ؟ لا يتبعهم إلّا من هو أجهل منهم وأضل سبيلًا .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ، ومخبرًا لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريبًا منه أو بعيدًا . قال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : يقول تعالى : إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام ، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به . فقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ نصب على الإغراء ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : فيجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكنًا . عن قيس قال : قام أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوا الْمُنْكَرَ وَلَا يُغَيِّرُونَهُ يُوشِكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ » قال : وسمعت أبا بكر يقول : يا أيها الناس إياكم والكذب ، فإن الكذب مجانب

الإيمان [١] . وعن أبي أمية الشعباني ، قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت : قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرًا ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ؛ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعِ الْعَوَامَّ ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُمْ » قال عبد الله بن المبارك : وزاد غير عتبة قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلًا منا أو منهم ؟ قال : « بَلْ أَجْر خَمْسِينَ مِنْكُمْ » [٢] .

وعن أبي العالية عن ابن مسعود في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ ﴾ الآية قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوسًا ، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس ، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه ، فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر ، فقال آخر إلى جنبه : عليك بنفسك فإن الله يقول : ﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ الآية قال : فسمعها ابن مسعود فقال : مه لم يجئ تأويل هذه بعد ، إن القرآن أنزل حيث أنزل ، ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آي قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ، ومنه أي قد وقع تأويلهن بعد النبيّ ﷺ بيسير ، ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم ، ومنه آي تأويلهن عند الساعة ما ذكر من الساعة ، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب ما ذكر من الحساب والجنة والنار ، فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعًا ولم يذق بعضكم بأس بعض ، فأمروا وانهوا ، وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعًا وذاق بعضكم بأس بعض ، فامرؤ ونفسه ، وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل : إنه منسوخ ، رواه العوفي عن ابن عبّاس وقال حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم : إنها منسوخة ، وقال آخرون وهم الأكثرون : فيما قاله ابن جرير ، بل هو محكم ومن ادعى نسخه فعليه البيان ، فقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ﴾ هذا هو الخبر لقوله : شهادة بينكم ، فقيل : تقديره شهادة اثنين ، حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وقيل : دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان ، وقوله تعالى : ﴿ ذَوَا عَدۡلٖ ﴾ وصف الاثنين بأن يكون عدلين ، وقوله : ﴿ مِّنكُمۡ ﴾ أي : من المسلمين ، قاله الجمهور ، وعن ابن عبّاس ﷺ قال : من المسلمين ﴿ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ أي : من أهل الموصي ، وقوله : ﴿ أَوۡ ءَاخَرَانِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/١) وابن ماجه في سننه (٤٠٠٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٥٨) وأبو داود في سننه (٤٣٤١) وابن ماجه في سننه (٤٠١٤) .

﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : من غير المسلمين ، يعني أهل الكتاب ، ﴿ مِّنكُمْ ﴾ أن المراد من قبيلة الموصي يكون المراد ههنا ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي : من غير قبيلة الموصي ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : سافرتم ﴿ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك في سفر ، وأن يكون في وصية ، كما صرح بذلك شريح القاضي ، قال ابن جرير : لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلّا في سفر ، ولا تجوز في سفر إلّا في الوصية ، وروي نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ تعالى ، وهذه المسألة من أفراده ، وخالفه الثلاثة فقالوا : لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين ، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضًا .

وقال ابن جرير : اختلف في قوله : ﴿ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ هل المراد به أن يوصي إليهما أو يشهدهما ؟ على قولين :

أحدهما : أن يوصي إليهما . سئل ابن مسعود ﷺ عن هذه الآية ، قال : هذا رجل سافر ومعه مال فأدركه قدره ، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته ، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين .

والقول الثاني : إنهما يكونان شاهدين وهو ظاهر سياق الآية الكريمة ، فإن لم يكن وصي ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان الوصاية والشهادة ، كما في قصة تميم الداري وعدي بن بداء .

وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين ، قال : لأنا لا نعلم حكمًا يحلف فيه الشاهد ، وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ، وهو حكم مستقل بنفسه ، لا يلزم أن يكون جاريًا على قياس جميع الأحكام ، على أن هذا حكم خاص بشهادة خاصة في محل خاص ، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره ، فإذا قامت قرينة الريبة حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني صلاة العصر ، وقال الزهري : يعني صلاة المسلمين ، وقال السدي عن ابن عبّاس : يعني صلاة أهل دينهما ، والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ ﴾ أي : فيحلفان بالله ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ أي : إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلّا ، فيحلفان حينئذٍ بالله ﴿ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ﴾ أي : بأيماننا ﴿ ثَمَنًا ﴾ أي : لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ أي : ولو كان المشهود عليه قريبًا لنا لا نحابيه ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾ وأضافها إلى الله تشريفًا لها وتعظيمًا لأمرها وقال بعضهم : ﴿ ولا نكتم شهادةِ اللَّه ﴾ مجرورًا على القسم رواها ابن جرير عن عامر الشعبي ، وحكي عن بعضهم أنه قرأها ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾ والقراءة الأولى هي المشهورة[1] ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴾ أي : إن فعلنا شيئًا من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية ، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ أي : فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين ، أنهما خانا أو غلا شيئًا من المال الموصى به إليهما وظهر عليهما بذلك ﴿ فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ ﴾ هذه قراءة الجمهور ﴿ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ ﴾ وروي عن علي وأُبيّ والحسن البصري أنهم قرؤوها ﴿ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأولان ﴾ وعن علي

(١) قرأ عامة قراء الأمصار بإضافة الشهادة إلى الله وخفض اسم الله وقرأ بعضهم ﴿ شهادةً الله ﴾ الطبري في تفسيره الآية ١٠٧) .

ابن أبي طالب ﷺ أن النبيّ ﷺ قرأ ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ ﴾ وقرأ بعضهم ومنهم ابن عباس ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأوليين ﴾ [1] فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك : أي : متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح خيانتهما فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة ، وليكونا من أولى من يرث ذلك المال ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا ﴾ أي : لقولنا : إنهما خانا ، أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿ وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ ﴾ أي : فيما قلنا فيهما من الخيانة ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي : إن كنا قد كذبنا عليهما وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما ، والحالة هذه كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل ، فيقسم المستحقون على القاتل ، فيدفع برمته إليهم كما هو مقرر في باب القسامة من الأحكام .

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، عن ابن عبّاس عن تميم الداري في هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ قال : برئ الناس منها غيري وغير عدي ابن بداء ، كانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له : بديل بن أبي مريم بتجارة ، معه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته ، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله ، قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام ، فبعناه بألف درهم واقتسمناه أنا وعدي ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا ، وفقدوا الجام فسألونا عنه ، فقلنا : ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره ، قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمائة درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها ، فوثبوا عليه ، فأمرهم النبيّ ﷺ أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه ، فحلف ، فنزلت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا ، فنزعت الخمسمائة من عدي بن بداء [2] .

ومن الشواهد لصحة هذه القصة ما روي عن الشعبي أن رجلًا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه ، قال : فحضرته الوفاة ولم يجد أحدًا من المسلمين يشهده على وصيته ، فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، قال : فقدما الكوفة ، فأتيا الأشعري - يعني أبا موسى الأشعري ﷺ - فأخبراه ، وقدما الكوفة بتركته ووصيته ، فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ، قال : فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيّرا وأنها لوصية الرجل وتركته ، قال : فأمضى شهادتهما . فقوله هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ، الظاهر والله أعلم أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بداء ، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري ﷺ كان سنة تسع من الهجرة ، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخرًا يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام ، والله أعلم .

وقال أسباط : عن السدي في الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ قال : هذا في الوصية عند الموت ، يوصي ويشهد رجلين من المسلمين على ماله وما

---

(١) قرأ حمزة ويعقوب وخلف وأبو بكر (الأولين) بالجمع والباقون (الأوليان) على التثنية (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٨) .
(٢) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٠٥٩) .

عليه ، قال : هذا في الحضر ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ في السفر ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ هذا الرجل يدركه الموت في سفره وليس بحضرته أحد من المسلمين ، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس فيوصي إليهما ، ويدفع إليهما ميراثه ، فيقبلان به ، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا ما لصاحبهم تركوهما ، وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان ، فذلك قوله تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ قال عبد الله بن عبّاس ﷺ : كأني أنظر إلى العلجين حين انتهى بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره ، ففتح الصحيفة فأنكر أهل الميت وخوفوهما ، فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر ، فقلت : إنهما لا يباليان صلاة العصر ، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما ، فيوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما ، فيحلفان بالله لا نشتري به ثمنًا قليلًا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله إنا إذًا لمن الآثمين ، أن صاحبهم لبهذا أوصى وأن هذه لتركته ، فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا : إنكما إن كتمتما أو خنتما فضحكتما في قومكما ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما ، فإذا قال لهما ذلك : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾ .

وقال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد العصر بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمنًا قليلًا ، فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما ، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، وإنا لم نعتد ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ يقول : إن اطلع على أن الكافرين كذبًا ﴿ فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ يقول : من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، وأنا لم نعتد ، فترد شهادة الكافرين وتجوز شهادة الأولياء ، ثم قال ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي : في جمع أموركم ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ أي : وأطيعوا ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي : الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ .

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم كما قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وقول الرسل : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ قال مجاهد والحسن البصري والسدي : إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم .

وقال السدي : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ ذلك أنهم نزلوا منزلًا ذهلت فيه العقول ، فلما سئلوا قالوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ ثم نزلوا منزلًا آخر فشهدوا على قومهم . عن ابن جريج في قوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ أي : ماذا عملوا بعدكم وما أحدثوا بعدكم ؟ قالوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ . وعن ابن عبّاس ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ يقولون للرب ﷻ : لا علم لنا إلّا علم أنت أعلم به منا . رواه ابن جرير ، ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة ، ولاشك أنه قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الرب ﷻ ، أي : لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء ، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا من أجابنا ، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه ، وأنت العليم بكل

شيء المطلع على كل شيء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم فإنك ﴿ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ .

يذكر تعالى ما منَّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات ، فقال : ﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ ﴾ أي : في خلقي إياك من أم بلا ذكر ، وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ حيث جعلتك لها برهانًا على براءتها مما نسبه الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ وهو جبريل عليه السلام ، وجعلتك نبيًا داعيًا إلى الله في صغرك وكبرك فأنطقتك في المهد صغيرًا ، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب ، واعترفت لي بالعبودية ، وأخبرت عن رسالتي إياك ، ودعوت إلى عبادتي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ ﴾ أي : تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك ، وضمَّن ﴿ تُكَلِّمُ ﴾ تدعو لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب ، وقوله : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي : الخط والفهم ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم ، وقد يرد لفظ التوراة في الحديث ويراد به ما هو أعم من ذلك ، وقوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى ﴾ أي: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ، ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ ﴾ أي : فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك ، فتكون طيرًا ذا روح تطير بإذن الله وخلقه .

وقوله تعالى : ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ ﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته . وقوله : ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ ﴾ أي : تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته ، وقد قال أبو الهذيل : كان عيسى ابن مريم عليه السلام إذا أراد أن يحيي الموتى صلى ركعتين يقرأ في الأولى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ وفي الثانية ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ﴾ السجدة ، فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه ، ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديم ، يا خفي ، يا دائم ، يا فرد ، يا وتر ، يا أحد ، يا صمد ، وكان إذا أصابته شديدة دعا بسبعة أخر : يا حي ، يا قيوم ، يا ألله ، يا رحمن ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا نور السموات والأرض وما بينهما ، ورب العرش العظيم يا رب ، وهذا أثر عظيم جدًا . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم ، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر ، وسعوا في قتلك وصلبك ، فنجيتك منهم ورفعتك إليّ وطهرتك من دنسهم وكفيتك شرّهم ، وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء ، أو يكون هذا الامتنان واقعًا يوم القيامة وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة ، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها نبيّه محمّدًا صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ وهذا أيضًا من الامتنان عليه ، عليه الصلاة والسلام بأن جعل له أصحابًا وأنصارًا . ثم قيل : إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية وهو وحي إلهام بلا خلاف ، وكما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ الآية وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أي : ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا ، قال الحسن البصري : ألهمهم الله ﷿ ذلك ، وقال السدي : قذف في قلوبهم ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك ، فقالوا : ﴿ ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة ، فيقال : سورة المائدة ، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها ، فأنزل الله آية باهرةً وحجةً قاطعةً، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الإنجيل ، ولا يعرفها النصارى إلّا من المسلمين ، فالله أعلم . فقوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم أتباع عيسى ﵇ ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ هذه قراءة كثيرين وقرأ آخرون ﴿ هَلْ تستطيع رَبَّكَ ﴾ [(١)] أي : هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ والمائدة هي الخوان عليه طعام ، وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم ، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون بها ويتقوون بها على العبادة ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : فأجابهم المسيح ﵇ قائلًا لهم : اتقوا الله ولا تسألوا هذا ، فعساه أن يكون فتنةً لكم ، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ أي : نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقًا لنا من السماء ﴿ وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أي : ونزداد إيمانًا بك وعلمًا برسالتك ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي : ونشهد أنها آية من عند الله ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ قال السدي : أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيدًا نعظمه نحن ومن بعدنا ، وقال سفيان الثوري : يعني يومًا نصلي فيه ، وقال قتادة : أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم ، وعن سلمان الفارسي : عظة لنا ولمن بعدنا ، وقيل : كافية لأولنا وآخرنا ﴿ وَآيَةً مِنْكَ ﴾ أي : دليلًا تنصبه على قدرتك على الأشياء ، وعلى إجابتك لدعوتي فيصدقوني فيما أبلغه عنك ﴿ وَارْزُقْنَا ﴾ أي : من عندك رزقًا هنيئًا بلا كلفة ولا تعب ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ ﴾ أي : فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : من

---

(١) قرأ الكسائي (تستطيع) بالخطاب (ربك) بالنصب والباقون بالرفع والغيب (انظر تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٨) .

عالمي زمانكم كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ وقد روي عن عبد الله بن عمرو قال : إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون (١) .

ذكر أخبار رويت عن السلف في نزول المائدة على الحواريين

عن ابن عبّاس ، أنه كان يحدث عن عيسى أنه قال لبني إسرائيل : هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يومًا ، ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم ؟ فإن أجر العامل على من عمل له ، ففعلوا ، ثم قالوا : يا معلم الخير ، قلت لنا : إن أجر العامل على من عمل له ، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يومًا ففعلنا ، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يومًا إلّا أطعمنا حين نفرغ طعامًا ، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال عيسى : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم . وعن عمار بن ياسر عن النبيّ ﷺ قال : « نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم ، وأمروا أن لا يخونوا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير » (٢) .

وهذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم ، إجابة من الله لدعوته كما دلّ على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ الآية .

وقال قائلون : إنها لم تنزل ، فروي عن مجاهد في قوله : ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال : هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء . وعن مجاهد ، قال : مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا ، فأبوا أن تنزل عليهم وعن الحسن أنه قال في المائدة : إنها لم تنزل . وعن قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قالوا : لا حاجة لنا فيها فلم تنزل ، وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن ، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما توفر الدواعي على نقله وكان يكون موجودًا في كتابهم متواترًا ولا أقل من الآحاد ، والله أعلم ، ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت وهو الذي اختاره ابن جرير ، قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى : ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : ووعد الله ووعيده حق وصدق ، وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب كما دلّت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم ، وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر ، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق ، فمات وهي في الطريق ، وحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده ، فرآها الناس فتعجبوا منها كثيرًا لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة ، ويقال : إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليه السلام فالله أعلم .

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٢/٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٦١) .

وعن ابن عبّاس قال : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك قال : « وَتَفْعَلُونَ ؟ » قالوا : نعم ، قال : فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : « بَلْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ » (١) .

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

هذا أيضًا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله : ﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد ، وقال السدي : هذا الخطاب والجواب في الدنيا ، وصوبه ابن جرير قال : وكان ذلك حين رفعه إلى السماء ، واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين أحدهما : أن الكلام بلفظ الماضي . والثاني : قوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وهذا الدليلان فيهما نظر ؛ لأن كثيرًا من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضي ليدل على الوقوع والثبوت ، ومعنى قوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ الآية ، التبري منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله ، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه كما في نظائر ذلك من الآيات ، والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر والله أعلم ، أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة .

وقوله : ﴿ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل كما روي عن أبي هريرة قال : يلقي عيسى حجته ولقاه الله تعالى في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال أبو هريرة عن النبيّ ﷺ ﴿ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ إلى آخر الآية (٢) . وقوله : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ أي : إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب ، فإنه لا يخفى عليك شيء ، فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته ولهذا قال : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾ بإبلاغه ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي : ما دعوتهم إلّا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي : هذا هو الذي قلت لهم . وقوله : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أي : كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . عن ابن عبّاس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ ﷻ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلْقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيم ، أَلَا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي ، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، فَأَقُولُ : أَصْحَابِي ،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٣/١) والطبراني في الكبير (١٥٢/١٢) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٦٢) .

فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : كما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فيقال : إنَّ هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » (١)

وقوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله ﷻ ، فإنه الفعّال لما يشاء الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا لله ندًّا ، وصاحبة ، وولدًا ، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب .

عن أبي ذر ﷺ قال : صلى النبيّ ﷺ ذات ليلة ، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فلما أصبح قلت : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : « إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِمَنْ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا » (٢) .

وعن جسرة بنت دجاجة أنها انطلقت معتمرة فانتهت إلى الربذة ، فسمعت أبا ذر يقول : قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء فصلى بالقوم ، ثم تخلف أصحاب له يصلون ، فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله ، فلما رأى القوم قد أخلوا المكان رجع إلى مكانه يصلي ، فجئت فقمت خلفه ، فأومأ إليّ بيمينه ، فقمت عن يمينه ، ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه ، فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله ، فقمنا ثلاثتنا يصلي كل واحد منا بنفسه ونتلو من القرآن ما شاء الله أن نتلو ، وقام بآية من القرآن يرددها حتى وصل الغداة ، فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة ، فقال ابن مسعود بيده : لا أسأله عن شيء حتى يحدث إليّ ، فقلت : بأبي وأمي قمت بآية من القرآن ومعك القرآن ، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه قال : « دَعَوْتُ لِأُمَّتِي » قلت : فماذا أجبت أو ماذا رد عليك ؟ قال : « أُجِبْتُ بِالَّذِي لَوْ اطَّلَعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْهُم طَلْعَةً تَرَكُوا الصَّلاَةَ » قلت : أفلا أبشر الناس ؟ قال : « بَلَى » فانطلقت معنقًا قريبًا من قذفة بحجر ، فقال عمر : يا رسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادات ، فناداه أن : « ارجع » فرجع ، وتلك الآية : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبيّ ﷺ تلا قول عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فرفع يديه فقال : « اللَّهُمَّ أُمَّتِي » وبكى ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمّد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيه فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمّد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك (٤) .

﴿ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٥) ومسلم في الجنة (٥٨) والترمذي في السنن (٣١٦٧) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/١٤٩) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده ٥/١٧٠ .
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٦) والبيهقي في السنن (٧/٢٠٥) .

عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ .

يقول تعالى مجيبًا لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ﴾ قال الضحاك : عن ابن عبّاس يقول : يوم ينفع الموحدين توحيدهم ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ أي : ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون رضي الله عنهم ورضوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾ عن أنس مرفوعًا قال : قال رسول الله ﷺ فيه : «ثُمَّ يَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ جل جلاله فَيَقُولُ سَلُونِي أُعْطِكُمْ - قَالَ - فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا فَيَقُولُ : رِضَايَ أَحلَّكُمْ دَارِي وَأَنَالَكُمْ كَرَامَتِي فَسَلُونِي أُعْطِكُمْ ، فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا ، قَالَ : فَيُشْهِدُهُمْ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ سبحانه » (١).

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي : هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه كما قال تعالى : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ وكما قال : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ أي : هو الخالق للأشياء ، المالك لها ، المتصرف فيها ، القادر عليها ، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته ، فلا نظير له ، ولا وزير ، ولا عديل ، ولا والد ، ولا ولد ، ولا صاحبة ، ولا إله غيره ولا رب سواه . وعن عبد الله ابن عمر قال : آخر سورة أنزلت سورة المائدة (٢).

---

(١) ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/١٥١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٦٣) والحاكم في المستدرك (٢/٣١١) .

سورة الأنعام

عن ابن عبّاس قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلًا جملة واحدة حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح (١) . وعن أسماء بنت يزيد قالت : نزلت سورة الأنعام على النبيّ ﷺ جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبيّ ﷺ ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة . وعن أسماء ، قالت : نزلت سورة الأنعام على رسول اللَّه ﷺ وهو في مسير في زجل من الملائكة ، وقد طبقوا ما بين السماء والأرض (٢) . وعن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول اللَّه ﷺ ثم قال : « لَقَدْ شَيَّعَ هَذِهِ السُّورَةَ مِنَ المَلائِكَةِ مَا سَدَّ الأُفُقَ » (٣) . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « نَزَلَتْ سُورَةُ الأَنْعَامِ مَعَهَا مَوْكِبٌ مِنَ المَلائِكَةِ سَدَّ مَا بَيْنَ الخَافِقَيْنِ لَهُمْ زَجَلٌ بِالتَّسْبِيحِ وَالأَرْضُ بِهِمْ تَرْتَجُّ » ورسول اللَّه يقول : « سُبْحَان اللَّه العَظِيمِ سُبْحَانُ اللَّه العَظِيم » (٤) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ .

يقول اللَّه تعالى مادحًا نفسه الكريمة وحامدًا لها على خلقه السموات والأرض قرارًا لعباده . وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم ، فجمع لفظ الظلمات ووحد لفظ النور لكونه أشرف كقوله تعالى : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ وكما قال في آخر هذه السورة : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : ومع هذا كله كفر به بعض عباده ، وجعلوا له شريكًا وعدلًا ، واتخذوا له صاحبة وولدًا تعالى اللَّه ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ يعني أباهم آدم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني الموت ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ يعني الآخرة ، وقول الحسن في رواية عنه ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ وهو ما بين أن يخلق إلى أن يموت ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث وهو يرجع إلى ما تقدم ، وهو تقدير الأجل الخاص ، وهو عمر كل إنسان ، وتقدير الأجل العام وهو عمر الدنيا بكمالها ، ثم انتهائها وانقضائها وزوالها وانتقالها والمصير إلى الدار الآخرة . وعن ابن عبّاس ومجاهد ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ يعني مدة الدنيا ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ يعني عمر الإنسان إلى حين موته ، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ الآية ، ومعنى قوله : ﴿ عِندَهُۥ ﴾ أي : لا يعلمه إلَّا هو كقوله : ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ قال السدي وغيره : يعني تشكون في أمر الساعة . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٢/٣١٥ .   (٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/١٧٨ .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك(٢/٣١٥) والبيهقي في الشعب ٢/ ٤٧٠ .

(٤) أخرجه : الطبراني في الأوسط ٦/٢٩٢ ، والبيهقي في الشعب ٢/ ٤٧٠ .

ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول القائلين : - تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا - بأنه في كل مكان ، حيث حملوا الآية على ذلك ، فالأصح من الأقوال : أنه المدعو اللَّه في السموات وفي الأرض أي : يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض ، ويسمونه اللَّه ، ويدعونه رغبًا ورهبًا ، إلَّا من كفر من الجن والإنس ، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٌ ﴾ أي : هو إله من في السماء وإله من في الأرض ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ ﴾ خبرًا أو حالًا .

والقول الثاني : أن المراد أنه اللَّه الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض من سر وجهر ، فيكون قوله : ﴿ يَعۡلَمُ ﴾ متعلقًا بقوله : ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ تقديره وهو اللَّه يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ، ويعلم ما تكسبون .

والقول الثالث : أن قوله : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال : ﴿ وَفِى ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ ﴾ وهذا اختيار ابن جرير . وقوله : ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴾ أي : جميع أعمالكم خيرها وشرّها .

﴿ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارًا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين المكذبين المعاندين : أنهم كلما أتتهم من آية أي - دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية اللَّه وصدق رسله الكرام - فإنهم يعرضون عنها فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق ، بأنه لابد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، وليجدن غبه وليذوقن وباله ، ثم قال تعالى واعظًا لهم ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالًا وأولادًا واستعلاءً في الأرض وعمارة لها فقال : ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ ﴾ أي : من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود ، ولهذا قال : ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارًا ﴾ أي : شيئًا بعد شيء ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهِمۡ ﴾ أي : أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض ، أي : استدراجًا وإملاءً لهم ﴿ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ ﴾ أي : بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها ﴿ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ أي : فذهب الأولون كأمس الذاهب ، وجعلناهم أحاديث ﴿ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ أي : جيلًا آخر لنختبرهم ، فعملوا مثل أعمالهم فأهلكوا كإهلاكهم ، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فما أنتم بأعز على اللَّه منهم ، والرسول الذي كذبتموه أكرم على اللَّه من رسولهم ، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه .

﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبًا فِى قِرۡطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّبِينٌ ۝ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ۝ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝ قُلۡ سِيرُواْ

فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهاتهم ومنازعتهم فيه : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي : عاينوه ورأوا نزوله وباشروا ذلك ﴿ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وهذا كما قال تعالى مخبرًا عن مكابرتهم للمحسوسات ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي : ليكون معه نذيرًا قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ أي : لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب كما قال الله تعالى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ أي : ولو أنزلنا مع الرسول البشريّ ملكا ، أي لو بعثنا إلى البشر رسولًا ملكيًا ، لكان على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري كقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلًا منهم ليدعو بعضهم بعضًا وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ عن ابن عبّاس في الآية يقول : لو أتاهم ملك ما أتاهم إلّا في صورة رجل ؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ أي : ولخلطنا عليهم ما يخلطون ، وقال الوالبي عنه ، ولشبهنا عليهم .

وقوله : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذّبه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : فكروا في أنفسكم ، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم ، من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين .

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

يخبر تعالى : أنه مالك السموات والأرض ومن فيهما ، وأنه قد كتب على نفسه المقدّسة الرحمة ، كما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبيّ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » (١) . وقوله : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم ، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده ﴿ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه ، أي : لا شك عند عباده المؤمنين ، فأما الجاحدون المكذبون ، فهم في ريبهم يترددون . وفي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٣٠) وابن ماجه في سننه (٤٢٩٥) .

رواية « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً » (١) . وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي : كل دابة في السموات والأرض ، الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه وتدبيره ، لا إله إلّا هو ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم ، ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمّد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم ، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط اللّٰه المستقيم : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ والمعنى لا أتخذ وليًا إلّا اللّٰه وحده لا شريك له ، فإنه فاطر السموات والأرض ، أي : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ أي : وهو الرزّاق لخلقه من غير احتياج إليهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الآية وقرأ بعضهم هاهنا ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ ﴾ أي : لا يأكل ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبيّ ﷺ على طعام فانطلقنا معه ، فلما طعم النبيّ ﷺ وغسل يديه قال : « الحَمْدُ للّٰه الذي يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ، وَمَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ ، وَكَسَانَا مِن العُرْيِ ، وَكُلَّ بَلاَءٍ حَسَنٍ أَبْلانَا . الحَمْدُ للّٰه غَيْرَ مُوَدَّعٍ رَبِّي وَلاَ مَكْفِيٍّ وَلاَ مَكْفُورٍ وَلا مُسْتَغْنىً عَنْهُ . الحَمْدُ للّٰه الَّذِي أَطْعَمَنَا مِنَ الطَّعَامِ ، وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ ، وَكَسَانَا مِنَ العُرْيِ ، وَهَدَانَا مِنَ الضَّلاَلِ ، وَبَصَّرَنَا مِنَ العَمَى ، وَفَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقَ تَفْضِيلًا ، الحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العَالَمِينَ » (٢) . ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أي : من هذه الأمة ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ أي العذاب ﴿ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ﴾ يعني فقد رحمه اللّٰه ﴿ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ كقوله : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ والفوز حصول الربح ونفي الخسارة .

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا أنه مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ الآية . وفي الصحيح : أن رسول اللّٰه ﷺ كان يقول : « اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ » (٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ أي : هو الذي خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ، ودانت له الخلائق ، وتواضعت

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٤٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٦/٤) والحاكم في المستدرك (٥٤٦/١) .
(٣) أخرجه مسلم في المساجد (١٣٧ ، ١٣٨) وأحمد في مسنده (٩٣/٤ ، ٩٥) والترمذي في سننه (٢٢٩) .

عظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي : في جميع أفعاله ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطي إلّا من يستحق ولا يمنع إلّا من يستحق ، ثم قال : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ﴾ أي : من أعظم الأشياء شهادة ﴿ قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي : هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلون لي ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ أي : وهو نذير لكل من بلغه ، قال محمد بن كعب في قوله : ﴿ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ من بلغه القرآن فكأنما رأى النبيّ ﷺ ، وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ .

قال الربيع بن أنس : حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذي أنذر .

وقوله : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ ﴾ أيها المشركون ﴿ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ ﴾ كقوله : ﴿ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ثم قال تعالى مخبرًا عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء ، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمّد ﷺ ونعته وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته ، ولهذا قال بعده : ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : خسروا كل الخسارة ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ، ونوهت به في قديم الزمان وحديثه ، ثم قال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ أي : لا أظلم ممن تقوّل على الله ، فادعى أن الله أرسله ، ولم يكن أرسله ، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أي : لا يفلح هذا ولا هذا ، لا المفتري ولا المكذب .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلًا لهم : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ كقوله تعالى في سورة القصص : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي : حجتهم ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ عن ابن عبّاس ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي : حجتهم . وعن ابن جريج عن ابن عبّاس : أي قيلهم ، ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وقال ابن جرير : والصواب ، ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم اعتذارًا عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ . وعن ابن عبّاس قال : أتاه رجل فقال : يا ابن عبّاس سمعت الله يقول : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ . قال : أما قوله : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلّا أهل الصلاة ، فقالوا : تعالوا فلنجحد فيجحدون ، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثًا . فهل في قلبك الآن شيء ؟ إنه ليس من القرآن

شيء إلَّا ونزل فيه شيء ولكن لا تعلمون وجهه . ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ كقوله : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ أي : يجيؤون ليستمعوا قراءتك ولا تجزي عنهم شيئًا لأن الله جعل ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أي : أغطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي : صممًا عن السماع النافع لهم . وقوله : ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ أي : مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين لا يؤمنوا بها ، فلا فهم عندهم ولا إنصاف كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ﴾ أي : يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : ما هذا الذي جئت به إلَّا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم ، وقوله : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ في معنى ينهون عنه قولان ؛ **أحدها** : أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن ﴿ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي : ويبعدون هم عنه فيجمعون بين الفعلين القبيحين ، لا ينتفعون ولا يدعون أحدًا ينتفع . قال ابن عبّاس : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ يردون الناس عن محمّد ﷺ أن يؤمنوا به . وقال محمّد ابن الحنفية : كان كفار قريش لا يأتون النبيّ ﷺ وينهون عنه . **والقول الثاني** : قال : نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن النبيّ ﷺ أن يؤذى ، وقال محمد بن كعب القرظي : أي ينهون الناس عن قتله . وقوله : ﴿ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي : يتباعدون منه ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلَّا عليهم وهم لا يشعرون .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال ، فعند ذلك قالوا : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملًا صالحًا ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : بل ظهر لهم حينئذٍ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة كما قال قبله بيسير ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه كقوله مخبرًا عن فرعون وقومه ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ويبطنون الكفر ، ويكون هذا إخبارًا عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار ، ولا ينافي هذا كون هذه السور مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة

مكية وهي العنكبوت ، فقال : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ وعلى هذا فيكون إخبارًا عن قول المنافقين في الدار الآخرة حين يعاينون العذاب ، فظهر لهم حينئذٍ غِبُّ ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق ، والله أعلم . وأما معنى الإضراب في قوله : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان بل خوفًا من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ، ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان ، ثم قال مخبرًا عنهم : إنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : في قولهم : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ، أي : لعادوا لما نهوا عنه ، ولقالوا : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ أي : ما هي إلَّا هذه الحياة الدنيا ، ثم لا معاد بعدها ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أي : أوقفوا بين يديه ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾ ؟ أي : أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : بما كنتم تكذبون به ، فذوقوا اليوم مسه ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن خسارة من كذب بلقائه ، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتةً ، وعن ندامته على ما فرط من العمل وما أسلف من قبيح الفعل ؛ ولهذا قال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة ، أي : في أمرها ، وقوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي : يحملون ، وقال قتادة : يعملون ، وعن أبي مرزوق قال : يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره كأقبح صورة رأيتها وأنتنه ريحًا ، فيقول : من أنت ، فيقول : أو ما تعرفني ؟ فيقول : لا والله إلا أنَّ الله قبح وجهك ، وأنتن ريحك ، فيقول : أنا عملك الخبيث ، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه ، فطالما ركبتني في الدنيا ، هلم أركبك ، فهو قوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ﴾ الآية ، وقال السدي : ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلَّا جاءه رجل قبيح الوجه أسود اللون منتن الريح وعليه ثياب دنسة حتى يدخل معه قبره ، فإذا رآه قال : ما أقبح وجهك ، قال : كذلك كان عملك قبيحًا ، قال : ما أنتن ريحك ، قال : كذلك كان عملك منتنًا ، قال : ما أدنس ثيابك ، قال : فيقول : إن عملك كان دنسًا ، قال له : من أنت ؟ قال : عملك ، قال : فيكون معه في قبره ، فإذا بعث يوم القيامة قال له : إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات وأنت اليوم تحملني ، قال : فيركب على ظهره ، فيسوقه حتى يدخله النار ، فذلك قوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي : إنما غالبها كذلك ﴿ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ

مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ أي : قد أحطنا علمًا بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم ، كقوله : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي : لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي : ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم ، كما قال سفيان الثوري : قال أبو جهل للنبي ﷺ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [1] وقال أبو صالح وقتادة : يعلمون أنك رسول الله ويجحدون ، وذكر محمّد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبيّ ﷺ من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب ، والأخنس بن شريق ولا يشعر أحد منهم بالآخر ، فاستمعوها إلى الصباح ، فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق ، فقال كل منهم للآخر : ما جاء بك ؟ فذكر له ما جاء به ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم ، لئلا يفتتنوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية ، جاء كل منهم ظنًّا أنه صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا ، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضًا ، فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمّد ، قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها وما يراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمّد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدّقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذّبه من قومه ، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ووعد له بالنصر كما نصروا ، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ اللَّهِ ﴾ أي : التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين ، كما قال : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم ، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٦٤) .

عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي : إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال ابن عبّاس : النفق السرب ، فتذهب فيه ، فتأتيهم بآية ، أو تجعل لك سلمًا في السماء ، فتصعد فيه ، فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به فافعل ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ قال : إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره اللّه أنه لا يؤمن إلّا من قد سبق له من اللّه السعادة في الذكر الأول ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي : إنما يستجيب لدعائك يا محمّد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه .

قوله : ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يعني بذلك الكفار ؛ لأنهم موتى القلوب ، فشبههم اللّه بأموات الأجساد ، فقال : ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ وهذا من باب التهكم بهم والازدراء عليهم .

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين أنهم كانوا يقولون : لولا نزل عليه آية من ربه ، أي : خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يتعنتون كقولهم : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ الآيات ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : هو تعالى قادر على ذلك ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك ؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة ، كما فعل بالأمم السالفة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ قال مجاهد : أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها . وقال قتادة : الطير أمة والإنس أمة ، والجن أمة ، وقال السدي : ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ أي : خلق أمثالكم .

وقوله : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : الجميع علمهم عند اللّه ،ولا ينسى واحدًا من جميعها من رزقه وتدبيره سواء كان بريًّا أو بحريًّا ، كقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها ، وحاصر لحركاتها وسكناتها ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : حشرها الموت ، وقال عكرمة عن ابن عبّاس : موت البهائم حشرها .

والقول الثاني : إن حشرها هو بعثها يوم القيامة ؛ لقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ وعن أبي ذر قال : بينما نحن عند رسول اللّه ﷺ إذ انتطحت عنزان فقال رسول اللّه ﷺ : « أَتَدْرُونَ فِيمَ انْتَطَحَتَا ؟ » قالوا : لا ندري قال : « لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا » (١) . وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « إِنَّ الجَمَّاءَ لَتَقْتَصُّ مِنَ القَرْنَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ » (٢) وعن أبي هريرة في قوله : ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥٢/١٠) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٧٢/١ والهندي في كنز العمال (٣٨٩٨٦) .

فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله يومئذٍ أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كوني ترابًا ، فلذلك يقول الكافر : ﴿ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ أي : مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم ، وهو الذي لا يسمع ، أبكم وهو الذي لا يتكلم ، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه كقوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ولهذا قال : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي : هو المتصرف في خلقه بما يشاء .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد ، المتصرف في خلقه بما يشاء ، وأنه لا معقب لحكمه ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه ، بل هو وحده لا شريك له الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء ، ولهذا قال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي أتاكم هذا أو هذا ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي : لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه ، ولهذا قال : ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي : في اتخاذكم آلهة معه ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ أي : في وقت الضرورة لا تدعون أحدًا سواه ، وستذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ ﴾ يعني الفقر والضيق في العيش ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي : يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ أي : فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكوا لدينا ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : ما رقت ولا خشعت ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : من الشرك والمعاندة والمعاصي ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي : أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون ، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم ، عياذًا بالله من مكره ، ولهذا قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ﴾ أي : من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ أي : على غفلة ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ أي : آيسون من كل خير . وعن ابن عبّاس : المبلس : الآيس ، وقال الحسن البصري : من وسّع الله عليه ، فلم ير أنه يمكر به ، فلا رأي له ، ومن قتر عليه ، فلم ير أنه ينظر له ، فلا رأي له ، ثم قرأ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ قال : مكر بالقوم ورب الكعبة أعطوا حاجتهم ثم أخذوا ، وقال قتادة : بغت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قومًا قط إلّا عند

سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون .

وقال مالك : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ رخاء الدنيا ويسرها ، وعن عقبة بن عامر عن النبيّ ﷺ ، قال : « إذا رَأَيْتَ اللَّهُ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ » ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ »(١) وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ كان يقول : إذا أراد الله بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصد والعفاف ، وإذا أراد بقوم اقتطاعًا فتح لهم - أو فتح عليهم - باب خيانة(٢) ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ كما قال : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ۝ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : قل لهؤلاء المكذبين المعاندين ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ أي : سلبكم إياها كما أعطاكموها . كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ الآية ، ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي ، ولهذا قال : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم ﴾ كما قال : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ وقوله : ﴿ مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ أي : هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، ولهذا قال : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أي : نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله ، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ أي : ثم هم مع البيان يصدفون أي : يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن اتباعه ، وعن ابن عبّاس : يصدفون أي : يعدلون ، وقال مجاهد وقتادة : يعرضون ، وقال السدي : يصدون .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً ﴾ أي : وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ أي : ظاهرًا عيانًا ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله ، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وقوله : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي : مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات ، ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أي : فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : بالنسبة لما يستقبلونه ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي : بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها ، الله وليهم فيما خلفوه وحافظهم فيما تركوه ، ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي : ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل وخرجوا عن أوامر الله وطاعته وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٤٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢٠) .
(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (١٥٩٦٠) .

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ .

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ أي : لست أملكها ولا أتصرف فيها ﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ أي : ولا أقول لكم إني أعلم الغيب ، إنما ذاك من علم الله ﷻ ، ولا أطلع منه إلَّا على ما أطلعني عليه ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي : ولا أدعي أني ملك ، إنما أنا بشر من البشر ، يوحى إلي من الله ﷻ ، شرَّفني بذلك وأنعم عليّ به ، ولهذا قال : ﴿ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ أي : لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴾ أي هل يستوي من اتبع الحق وهدي إليه ، ومن ضل عنه فلم ينقد له ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ ﴾ أي : وأنذر بهذا القرآن يا محمّد ﴿ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لَيۡسَ لَهُم ﴾ أي : يومئذٍ ﴿ مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ ﴾ أي : لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم ﴿ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ أي : أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلَّا الله ﷻ ﴿ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ فيعملون في هذه الدار عملًا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ أي : لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك ، وقوله : ﴿ يَدۡعُونَ رَبَّهُم ﴾ أي : يعبدونه ويسألونه ﴿ بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ ﴾ المراد به الصلاة المكتوبة ، وهذا كقوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ أي : أتقبل منكم وقوله : ﴿ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾ أي : يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم ، وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات .

وقوله : ﴿ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ ﴾ كقول نوح عليه السلام في جواب الذين قالوا : ﴿ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ قال : ﴿ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴾ أي : إنما حسابهم على الله ﷻ وليس عليّ من حسابهم من شيء ، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء ، وقوله : ﴿ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : إن فعلت هذا والحالة هذه . وعن ابن مسعود قال : مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وخباب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا : يا محمّد أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل فيهم القرآن ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ - إلى قوله - أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [(١)] . وعن المقدام بن شريح عن أبيه قال : قال سعد : نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبيّ ﷺ منهم ابن مسعود ، قال : كنا نستبق إلى رسول الله ﷺ وندنو منه ونسمع

(١) أخرجه : الطبراني في الكبير (١٠٥٢٠) والبزار في مسنده (٢٢٠٩) . وبنحوه .

منه ، فقالت قريش تدني هؤلاء دوننا ، فنزلت ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أي : ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض ﴿ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلّا قليل ، كما قال قوم نوح لنوح : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ الآية وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، فقال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال : بل ضعفاؤهم ، فقال : هم أتباع الرسل ، والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أي : ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير لو كان ما صاروا إليه خيرًا ويدعنا ، وقوله : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي : أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وفي الحديث الصحيح : « إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَى أَلْوَانِكُم ، وَلكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ »[(٢)] . وعن عكرمة في قوله : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ الآية . قال : جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحارث بن نوفل وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل في أشراف من بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب ، فقالوا : يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمّدًا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا ، فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا ، كان أعظم في صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له ، قال : فأتى أبو طالب النبيّ ﷺ فحدَّثه بذلك ، فقال عمر بن الخطاب ﷺ : لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون وإلى ما يصيرون من قولهم ، فأنزل الله ﷻ هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ قال : وكانوا بلالًا وعمار بن ياسر وسالمًا مولى أبي حذيفة وصبيحًا مولى أسيد ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو ومسعود وابن القاري وواقد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد عمرو وذو الشمالين ومرثد بن أبي مرثد ، وأبو مرثد الغنوى حليف حمزة بن عبد المطلب وأشباههم من الحلفاء ، ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ الآية ، فلما نزلت أقبل عمر ﷺ فأتى النبيّ ﷺ فاعتذر من مقالته ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ الآية[(٣)] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : فأكرمهم برد السلام عليهم وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ، ولهذا قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ أي : أوجبها على نفسه الكريمة تفضلًا منه وإحسانًا وامتنانًا ﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ، وعن أبان بن عكرمة قال : الدنيا كلها جهالة ﴿ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤٥ ، ٤٦) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٤) وأحمد في مسنده (٢/٢٨٥) وابن ماجه في سننه (٤١٤٢) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره ٧/٢٦٥ .

أي : رجع عما كان عليه من المعاصي وأقلع وعزم على أن لا يعود ، وأصلح العمل في المستقبل ﴿ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا قَضَى اللَّهُ عَلَى الخَلْقِ كَتَبَ فِي كِتَابٍ ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي » (١) وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ القَضَاءِ بَيْنَ الخَلْقِ أَخْرَجَ كِتَابًا مِنْ تَحْتِ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً أَوْ قَبْضَتَيْنِ فَيُخْرِجُ مِنَ النَّارِ خَلْقًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا مَكْتُوبٌ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ عُتَقَاءُ اللَّهِ » (٢) وعن سلمان في قوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ قال : إنا نجد في التوراة عطفتين أن الله خلق السموات والأرض وخلق مائة رحمة أو جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة ، قال : فبها يتراحمون وبها يتعاطفون وبها يتباذلون وبها يتزاورون وبها تحن الناقة وبها تبخ البقرة وبها تثغو الشاة وبها تتتابع الحيتان في البحر ، فإذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده ورحمته أفضل وأوسع ، ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضًا قوله ﷺ لمعاذ بن جبل : « أتدري ما حق الله على العباد ؟! أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا » ، ثم قال : « أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟! أن لا يعذبهم » (٣) .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

يقول تعالى : وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي : التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل وقرئ ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (٤) أي : ولتستبين يا محمّد أو يا مخاطب سبيل المجرمين . وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أي : على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إليّ ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ﴾ أي : بالحق الذي جاءني من الله ﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ﴾ أي : من العذاب ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أي : إنما يرجع أمر ذلك إلى الله ، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأجلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ، ولهذا قال : ﴿ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ أي : وهو خير من فصل القضايا وخير الفاتحين في الحكم بين عباده .

وقوله : ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ ﴾ أي : لو كان مرجع ذلك إليّ لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٤) ومسلم في التوبة (١٦) وأحمد في مسنده (٢/٢٦٠ ، ٤٣٣) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٠) والترمذي في السنن (٢٦٤٣) وأحمد في مسنده ٥/٢٣٠ .

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر (ولتستبين) بالتذكير والباقون بالتأنيث و (سبيل) قرأ المدنيان بنصب اللام والباقون بالرفع (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٠) .

وبين ما ثبت عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد ؟ فقال : «لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد ظللتني ، فنظرت ، فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين » ، فقال رسول الله ﷺ : « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا »(١) فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأنى بهم ، وسأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئًا ، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ فالجواب والله أعلم أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم ، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبًا وشمالاً ، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق بهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ »(٢) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ . وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أي : محيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وقوله : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ أي : ويعلم الحركات حتى من الجمادات ، فما ظنك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم ، وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ قال : ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها يكتب ما يسقط منها . وقوله : ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ قال عبد الله بن الحارث : ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها ، رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴾ .

يقول تعالى : إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل ، وهذا هو التوفي الأصغر كما قال تعالى :

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١) ومسلم في الجهاد والسيرة (١١١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٧) وأحمد في مسنده (٢٤/٢) .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى ، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أي : ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم ، في حال سكونهم وحال حركتهم كما قال : ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ وقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أي : ما كسبتم من الأعمال فيه ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي : في النهار ، قال عبد الله بن كثير : أي : في المنام ، والأول أظهر ، عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال : « مَعَ كُلِّ إِنسَانٍ مَلَكٌ إِذَا نَامَ أَخَذَ نَفْسَهُ وَيُرَدُّ إِلَيْهِ ، فَإِنْ أَذِنَ اللَّه فِي قَبْضِ رُوحِهِ قَبَضَهُ وَإِلَّا رُدَّ إِلَيْه »(١) . فذلك قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ يعني به أجل كل واحد من الناس ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم ﴾ أي : يخبركم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : ويجزيكم على ذلك إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أي : وهو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ أي : من الملائكة يحفظون بدن الإنسان كقوله : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ وحفظه يحفظون عمله ويحصونه ، كقوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي : احتضر وحان أجله ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أي : ملائكة موكلون بذلك ، قال ابن عبّاس : لملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد ، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم ، وقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ أي : في حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله ﷻ ، إن كان من الأبرار ففي عليين ، وإن كان من الفجار ففي سجين ، عياذًا بالله من ذلك .

وقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ قال ابن جرير : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا ﴾ يعني الملائكة ﴿ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ عن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَان ، فَلاَ تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيَسْتَفْتَحُ لَهَا ، فَيُقَالُ : من هذا ؟ فيقال فلان ، فيقال : مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَان ، فَلا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوءُ قالوا : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً ، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وآخر مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ، فَلاَ تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيَسْتَفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ : مَنْ هَذَا ؟ فَيُقَالُ : فلانٌ ، فيقالُ : لا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ ارْجِعِي ذَمِيمَةً ؛ فَإِنَّهُ لاَ يُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ،

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/١٥) .

فَتَرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلى القَبْرِ ، فيجلسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَيُقَالُ لَهُ مِثْلَ ما قِيلَ في الحَدِيثِ الأَوَّلِ ، وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السَّوءُ فَيقالُ لَهُ مِثْلَ مَا قِيلَ في الحَدِيثِ الثَّاني » (١) ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ ﴾ يعني الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة فيحكم فيهم بعدله ولهذا قال : ﴿ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنًا على عباده في إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر ، أي الحائرين الواقعين في المهامه البرية وفي اللجج البحرية إذا هاجت العاصفة ، فحينئذٍ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له ، كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الآية ، وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أي : جهرًا وسرًا ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا ﴾ أي : من هذه الضائقة ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ أي : بعدها ، قال الله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ ﴾ أي : بعد ذلك ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ أي : تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى . وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ لما قال : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ عقبه بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ﴾ أي : بعد إنجائه إياكم . قال الحسن : في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : هذه للمشركين . وقيل : لأمة محمّد ﷺ وعفا عنهم ، ونذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك والآثار وبالله المستعان وعليه التكلان وبه الثقة .

قال البخاري رحمه الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يلبسكم : يخلطكم من الالتباس ، يلبسوا : يخلطوا ، شيعًا : فرقًا (٢) وعن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هَذِهِ أَهْوَنُ - أَوْ - أَيْسَرُ » (٣) .

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية ، فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه ، فناجى ربه ﷻ طويلًا ثم قال : « سَأَلْتُ رَبِّي ثَلاثًا ، سَأَلْتُهُ أَنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا » (٤) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٤/٢ ، ٣٦٥) .
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن باب قوله ﴿ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ ﴾ وأحمد في مسنده (٣٠٩/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٨) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥/١) والهندي في كنز العمال (٦٠/٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٧/٣ ، ١٨) .

وعن خباب بن الأرت مولى بني زهرة وكان قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ أنه قال : وافيت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها حتى كان مع الفجر ، فسلم رسول الله ﷺ من صلاته ، فقلت : يا رسول الله لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَجَل إِنَّهَا صَلاةُ رَغَبٍ وَرَهَبٍ ، سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ فِيهَا ثَلاثَ خِصَالٍ ، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً ، سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ لا يُهْلِكَنَا بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الأُمَمَ قَبْلَنَا فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ لا يُظْهِرَ عَلَيْنَا عَدُوًّا مِنْ غَيْرِنَا فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ لا يَلْبِسَنَا شِيَعًا فَمَنَعَنِيهَا »[1] .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : فقام النبيّ ﷺ ، فتوضأ ثم قال : « اللَّهُمَّ لا تُرْسِلْ عَلَى أُمَّتِي عَذَابًا مِنْ فَوْقِهِمْ وَلاَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَلاَ تُلْبِسْهُمْ شِيَعًا وَلا تُذِقْ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ » قال : فأتاه جبريل فقال : يا محمّد إن الله قد أجار أمتك أن يرسل عليهم عذابًا من فوقهم أو من تحت أرجلهم[2] .

وعن أُبيّ بن كعب ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : فهي أربع خلال منها اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة ، ألبسوا شيعًا وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنتان لابد منهما واقعتان الرجم والخسف ، وعن الحسن في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ ﴾ الآية ، قال : حسبت عقوبتها حتى عمل ذنبها فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك والسدي وابن زيد وغير واحد : في قوله : ﴿ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ يعني الرجم ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ يعني الخسف ، وهذا هو اختيار ابن جرير ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : كان عبد الله بن مسعود يصيح وهو في المسجد أو على المنبر ، يقول : ألا أيها الناس إنه قد نزل بكم ، إن الله يقول : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحدًا ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ لو خسف بكم الأرض أهلككم ولم يبق منكم أحد ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث .

وقوله : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ يعني يجعلكم متلبسين شيعًا فرقًا متخالفين . وعن ابن عبّاس يعني الأهواء ، وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال : « وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً »[3] . وقوله تعالى : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال ابن عبّاس : يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل . وقوله تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي : نبيّنها ونوضحها مرة ونفسرها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ أي : يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه . قال زيد بن أسلم : لما نزلت ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ الآية ، قال رسول الله ﷺ : « لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ بِالسَّيْفِ » قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله ؟ قال : « نَعَمْ » فقال بعضهم : لا يكون هذا أبدًا أن يقتل بعضنا بعضًا ونحن مسلمون ، فنزلت : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝٦٥ وَكَذَّبَ بِهِۦ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده ١٣٤/٥ ، ١٣٥ . (٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٣٠/٤) .

قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ ﴾ أي : بالقرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان ﴿ قَوْمُكَ ﴾ يعني قريشًا ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : الذي ليس وراءه حق ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ أي : لست عليكم بحفيظ ولست بموكل بكم ، كقوله : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ أي : إنما عليّ البلاغ وعليكم السمع والطاعة ، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة ، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ قال ابن عبّاس وغير واحد : أي لكل نبأ حقيقة ، أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين ، كما قال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴾ وقال : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد ، ولهذا قال بعده : ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي : بالتكذيب والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ أي : حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ، والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها ، فإن جلس أحد معهم ناسيًا ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ بعد التذكر ﴿ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ولهذا ورد في الحديث : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ ، وَالنِّسْيَانُ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ أي : إذا تجنبوهم ، فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم وخلصوا من إثمهم ، وعن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ قال : ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك ، أي : إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم ، وقال آخرون : بل معناه : وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء ، وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية وهي قوله : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ وعلى قولهم يكون قوله : ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذٍ تذكيرًا لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه .

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلًا فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم ، ولهذا قال : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ ﴾ أي : ذكر الناس بهذا القرآن وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٢١) ومسلم في الإيمان (١١٩ ، ١٢٠) وأحمد في مسنده (١/٢٣٠) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠٤٣) .

كَسَبَتْ ﴾ أي : لئلا تبسل ، وعن مجاهد وعكرمة والحسن والسدي : تبسل : تسلم ، وعن ابن عبّاس : تفتضح . وقال قتادة : تحبس . وقال مرة بن زيد : تؤاخذ . وقال الكلبي : تجزى . وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة في المعنى ، وحاصلها الإسلام للهلكة والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب ، كقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ وقوله : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي : لا قريب ولا أحد يشفع فيها : ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ أي : ولو بذلك كل مبذول ما قبل منها كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا ﴾ الآية ، وكذا قال ههنا : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

قال السدي : قال المشركون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمّد ، فأنزل اللّه ﷻ : ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا ﴾ أي : في الكفر ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض ، يقول : مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضلّ الطريق ، فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون : ائتنا فإنا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمّد ﷺ ، ومحمّد هو الذي يدعو إلى الطريق ، والطريق هو الإسلام . وقال قتادة : ﴿ ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أضلته في الأرض يعني استهوته سيرته ، كقوله : ﴿ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ الآية ، هذا مثل ضربه اللّه للآلهة ومن يدعو إليها ، والدعاة الذين يدعون إلى هدى اللّه ﷻ ، كمثل رجل ضل عن طريق تائهًا ، إذ ناداه منادٍ يا فلان ابن فلان هلم إلى الطريق ، وله أصحاب يدعونه يا فلان هلم إلى الطريق ، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة ، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق ، وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان ، يقول : مثل من يعبد هذه الآلهة من دون اللّه ، فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت ، فيستقبل الندامة والهلكة .

وقوله : ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجده فيتبعها ، وهو يرى أنه في شيء فيصبح وقد رمته في هلكة ، وربما أكلته ، أو تلقيه في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشًا ، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون اللّه ﷻ . وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ ﴾ هو الذي لا يستجيب لهدى اللّه ، وهو رجل أطاع الشيطان ، وعمل في الأرض بالمعصية وحاد عن الحق وضل عنه ، وله أصحاب يدعونه إلى الهدى ويزعمون أن الذي يأمرونه به هدى ، يقول اللّه : ذلك لأوليائهم من الإنس ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى

ٱللَّهِ ﴾ والضلال ما يدعو إليه الجن . قال : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ كما قال : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ وقال : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : نخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أي : وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي : يوم القيامة .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : بالعدل ، فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما . وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ يعني يوم القيامة الذي يقول الله كن فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب ، ويوم منصوب إما على العطف على قوله : واتقوه ، وتقديره : واتقوا يوم يقول : كن فيكون ، وإما على قوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي : وخلق يوم يقول : كن فيكون ، فذكر بدء الخلق وإعادته وهذا مناسب . وإما على إضمار فعل تقديره : واذكر يوم يقول كن فيكون ، وقوله : ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ جملتان محلهما الجر على أنهما صفتان لرب العالمين ، وقوله : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ يحتمل أن يكون بدلًا من قوله : ويوم يقول كن فيكون يوم ينفخ في الصور ، ويحتمل أن يكون ظرفًا لقوله : ﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ كقوله : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ واختلف المفسرون في قوله : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ فقال بعضهم : المراد بالصور هنا جمع صورة ، أي يوم ينفخ فيها فتحيا . قال ابن جرير : كما يقال سور : لسور البلد وهو جمع سورة والصحيح أن المراد بالصور ، القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . قال ابن جرير : والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ إِسْرَافِيلَ قَدِ الْتَقَمَ الصُّورَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ »(١) وعن عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابي : يا رسول الله ما الصور ؟ قال : « قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ »(٢) .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر ، وإنما كان اسمه تارخ . وعن عكرمة عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ يعني بآزر الصنم ، وأبو إبراهيم اسمه تارخ وأمه اسمها شاني وامرأته اسمها سارة وأم إسماعيل اسمها هاجر وهي سرية إبراهيم ، وهكذا قال غير واحد من علماء النسب : أن اسمه تارخ ، وقال مجاهد والسدي : آزر اسم صنم ، قلت : كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم فالله أعلم ، وقال ابن جرير وقال آخرون : هو سب وعيب بكلامهم ومعناه معوج ولم يسنده ولا حكاه عن أحد . وقد ذكر عن معتمر بن سليمان سمعت أبي يقرأ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ قال : بلغني أنها أعوج ، وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم عليه السلام ، ثم قال ابن جرير : والصواب

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٦/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٢) والترمذي في سننه (٣٢٤٤) والدارمي في سننه (٣٢٥/٢) .

أن اسم أبيه آزر ، ثم أورد على نفسه قول النسابين : أن اسمه تارخ ، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان كما لكثير من الناس ، أو يكون أحدهما لقبًا ، وهذا الذي قاله جيد قوي ، والله أعلم .

واختلف القراء في أداء قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ فحكى ابن جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنهما كانا يقرآن ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ معناه يا آزر أتتخذ أصنامًا آلهة ، وقرأ الجمهور بالفتح إما على أنه علم أعجمي لا ينصرف ، وهو بدل من قوله : لأبيه ، أو عطف بيان وهو أشبه ، وعلى قول من جعله نعتًا لا ينصرف أيضًا كأحمر وأسود ، فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولًا لقوله : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ﴾ تقديره يا أبت أتتخذ آزر أصنامًا آلهة ، فإنه قول بعيد في اللغة ، فإن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله لأن له صدر الكلام (1) . وهو مشهور في قواعد العربية ، والمقصود أن إبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام وزجره عنها ونهاه فلم ينته كما قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ؟ ﴾ أي : أتتأله لصنم تعبده من دون الله ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ ﴾ أي : السالكين مسلكك ﴿ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : تائهين لا يهتدون أين يسلكون ، بل في حيرة وجهل وأمركم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل سليم . وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۝ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته ، فلما مات على الشرك وتبينّ إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه ، وثبت في الصحيح : أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة ، فيقول له آزر : يا بني اليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : أي رب ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقال : يا إبراهيم انظر ما وراءك ، فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار (2) .

وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله ﷻ في ملكه وخلقه ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، كقوله : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ فإنه تعالى جلا له الأمر سره وعلانيته ، فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق ، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله : إنك لا تستطيع هذا ، فرده كما كان قبل ذلك ، فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره حتى رأى ذلك عيانًا ، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده ، وتحققه وعرفه وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة ، كما في حديث المنام : « أَتَانِي رَبِّي في أَحْسَنِ صُورَةٍ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَى ؟ فَقُلْتُ : لا أَدْرِي يا رَبِّ ، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ

---

(1) قرأ يعقوب(آزر) بالرفع والباقون بالنصب .(تقريب النشر ص ١١١) . (2) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء(٣٣٥٠) .

وَعَرَفْتُ ذَلِكَ »[1] . وقوله : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ قيل : الواو زائدة تقديره : وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين ، كقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وقيل : بل هي على بابها ، أي : نريه ذلك ليكون عالمًا وموقنًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ أي : تغشاه وستره ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ أي : نجمًا ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ أي : غاب . قال محمّد بن إسحاق بن يسار : الأفول : الذهاب ، وقال ابن جرير : يقال : أفل النجم يأفل ويأفل أفولًا وأفلًا إذا غاب .

ويقال : أين أفلت عنا ؟ بمعنى أين غبت عنا ﴿ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ قال قتادة : علم أن ربه دائم لا يزول ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أي : طالعًا ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ أي : هذا المنير الطالع ربي ﴿ هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ أي : جرمًا من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾ أي : غابت ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي : خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿ حَنِيفًا ﴾ أي : في حال كوني حنيفًا أي : مائلًا عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وقد اختلف المفسرون في هذا المقام ، هل هو مقام نظر أو مناظرة ، فروي عن ابن عبّاس ما يقتضي أنه مقام نظر ، واختاره ابن جرير مستدلًا بقوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى ﴾ الآية ، وقال محمّد بن إسحاق : قال ذلك حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه حين تخوفت عليه من نمورذ بن كنعان ، لما كان قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه ، فأمر بقتل الغلمان عامئذ ، فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها ، ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد ، فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك ، وذكر أشياء من خوارق العادات ، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف .

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرًا لقومه ، مبينًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبيَّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية . ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم ، الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة ، وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة ، فبين أولًا صلوات اللّه وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يمينًا ولا شمالًا ، ولا تملك لنفسها تصرفًا ، بل هي جرم من الأجرام خلقها اللّه منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة ، وهي تطلع من الشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال ، ومثل هذه لا تصلح للإلهية ، ثم انتقل إلى القمر ، فبيَّن فيه مثل ما بيَّن في النجم ، ثم انتقل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٨/١) .

إلى الشمس كذلك ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي : أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعًا ثم لا تنظرون ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه .

وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظرًا في هذا المقام ، وهو الذي قال الله في حقه : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ وقد ثبت عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ » (١) وعن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال : « قَالَ اللهُ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ » (٢) وقال الله في كتابه العزيز : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ﴾ كما سيأتي بيانه . فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين ناظرًا في هذا المقام ، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلاشك ولا ريب ، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرًا قوله تعالى :

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد وناظروه بشبه من القول أنه قال : ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ ﴾ أي : تجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو ، وقد بصرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه ، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة ، وشبهكم الباطلة ، وقوله: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ ﴾ أي : ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه : أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئًا وأنا لا أخافها ولا أباليها ، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظرون ، بل عاجلوني بذلك . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ ﴾ استثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلا الله ﷻ ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ ﴾ أي : أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : فيما بينته لكم ، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة ، فتنزجروا عن عبادتها ، وقوله : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ أي : كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ ﴾ قال ابن عبّاس : أي حجة وقوله : ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : فأي طائفتين أصوب ، الذي عبد من بيده الضر والنفع أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) وأحمد في مسنده (٢/٢٣٣) وأبو داود في سننه (٤١٧٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/٢٦٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٦) .

دليل ، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة لا شريك له . قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي : هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئًا ، هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وعنه أيضا قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : « إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ : ﴿ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ إِنَّما هُوَ الشِّرْكُ » [١] .

وعن جرير بن عبد الله قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا فقال رسول الله ﷺ : « كَأَنَّ هَذَا الرَّاكِبَ إِيَّاكُمْ يُرِيدُ » فانتهى إلينا الرجل ، فسلم فرددنا عليه ، فقال له النبيّ ﷺ : « مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ » قال : من أهلي وولدي وعشيرتي قال : « فَأَيْنَ تُرِيدُ ؟ » قال : أريد رسول الله ﷺ قال : « فَقَدْ أَصَبْتَهُ » قال : يا رسول الله علمني ما الإيمان ؟ قال : « أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ البَيْتَ » قال : قد أقررت ، قال : ثم إن بعيره دخلت يده في جحر جرذان ، فهوى بعيره ، وهوى الرجل ، فوقع على هامته فمات ، فقال رسول الله ﷺ : « عَلَيَّ بِالرَّجُلِ » فوثب إليه عمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه ، فقالا : يا رسول الله قبض الرجل ، قال : فأعرض عنهما رسول الله ﷺ ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ : « أَمَا رَأَيْتُمَا إِعْرَاضِي عَنِ الرَّجُلِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ مَلَكَيْنِ يَدُسَّانِ فِي فِيهِ مِنْ ثِمَارِ الجَنَّةِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَاتَ جَائِعًا » ثم قال رسول الله ﷺ : « هَذَا مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّه ﷻ فِيهِمْ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ الآية ، ثم قال : « دُونَكُمْ أَخَاكُمْ » فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنطاه وكفناه وحملناه إلى القبر ، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال : « أَلْحِدُوا وَلا تَشُقُّوا فَإِنَّ اللَّحْدَ لَنَا وَالشَّقَّ لِغَيْرِنَا » [٢] .

وعن ابن عبّاس قال : كنا مع رسول الله ﷺ في مسير ساره ، إذ عرض له أعرابي ، فقال : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لقد خرجت من بلادي وتلادي ومالي لأهتدي بهداك وآخذ من قولك ، وما بلغتك حتى ما لي طعام إلَّا من خضر الأرض فاعرض علي ، فعرض عليه رسول الله ﷺ فقبل ، فازدحمنا حوله ، فدخل خف بكره في بيت جرذان ، فتردى الأعرابي فانكسرت عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « صَدَقَ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ لَقَدْ خَرَجَ مِنْ بِلاَدِهِ وَتِلاَدِهِ وَمَالِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهُدَايَ ، وَيَأْخُذَ مِنْ قَوْلِي وَمَا بَلَغَنِي حَتَّى مَا لَهُ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ خُضَرِ الأَرْضِ ، أَسَمِعْتُمْ بِالَّذِي عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا ؟ هَذَا مِنْهُمْ . أَسَمِعْتُمْ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يلْبسُوا إِيمَانهمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُون ؟

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٠) ومسلم في الإيمان (١٩٧) وأحمد في مسنده (١/٤٤٤) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٥٩) والهندي في كنز العمال (٤٢٣٧٧) .

فَإِنَّ هَذَا مِنْهُمْ » [(١)] . وعن عبد الله بن سخبرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ وَمُنِعَ فَصَبَرَ وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ وَظُلِمَ فَغَفَرَ » وسكت قال : فقالوا : يا رسول الله ما له ؟ قال : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [(٢)] .

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ أي : وجهنا حجته عليهم ، قال مجاهد وغيره : يعني بذلك قوله : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ الآية ، وقد صدقه الله وحكى له بالأمن والهداية فقال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ ثم قال بعد ذلك كله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ قرئ بالإضافة وبلا إضافة [(٣)] ، كما في سورة يوسف ، وكلاهما قريب في المعنى . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : حكيم في أقواله وأفعاله ، عليم أي : بمن يهديه ومن يضله ، وإن قامت عليه الحجج والبراهين كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن وأيس هو وامرأته سارة من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك ، وقالت : ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ فبشروهما مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلًا وعقبًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة وقال : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أي : ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما ، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب ، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام ، حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه لتقر بهم عينه ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٩١) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١٦٧) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٨٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/٢٧٨) .

(٣) قرأ الكوفيون (نرفع درجات من) هنا وفي يوسف بالتنوين ووافقهم يعقوب هنا والباقون بغير تنوين (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١١) .

﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ وقال ههنا : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ وقوله : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبله هديناه كما هديناه ووهبنا له ذرية صالحة ، وكل منهما له خصوصية عظيمة ، أما نوح عليه السلام ، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه في السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذريته ، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبيًّا إلا من ذريته ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ أي : وهدينا من ذريته ﴿ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ الآية ، وعود الضمير إلى نوح لأنه أقرب المذكورين ظاهر لا إشكال فيه ، فإنه ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه هاران بن آزر ، اللهم إلا أن يقال : إنه دخل في الذرية تغليبًا كما في قوله : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ فإسماعيل عمه دخل في آبائه تغليبًا ، وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل ؛ لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام ، فإنه لا أب له . فعن أبي حرب بن أبي الأسود قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر ، فقال : بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبيّ ﷺ تجده في كتاب الله ، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟ قال : أليس تقرأ سورة الأنعام ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ قال : بلى ، قال : أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب ؟ قال : صدقت . فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته ، أو وقف على ذريته ، أو وهبهم ، دخل أولاد البنات فيهم ، فأما إذا أعطى الرجل بنيه ، أو وقف عليهم ، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه واحتجوا بقول الشاعر العربي :

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَجَانِبِ

وقال آخرون : ويدخل بنو البنات فيهم أيضًا لما ثبت أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي : « إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » [1] فسماه ابنًا ، فدل على دخوله في الأبناء . وقال آخرون : هذا تجوز . وقوله : ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم ، وذوي طبقتهم وأن الهداية أو الاجتباء شملهم كلهم ، ولهذا قال : ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي : إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الآية ، وهذا شرط والشرط لا يقتضي جواز الوقوع . وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ أي : أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفًا منا بالخليقة ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أي : بالنبوة ، ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا على هذه الأشياء الثلاثة ، الكتاب

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٣٨/٥) .

والحكم والنبوة . وقوله : ﴿ هَٰؤُلَاءِ ﴾ يعني أهل مكة ، قاله ابن عبّاس وغير واحد ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أي : إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين وكتابيين ، فقد وكلنا بها قومًا آخرين ، أي : المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ﴿ لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أي : لا يجحدون منها شيئًا ولا يردون منها حرفًا واحدًا ، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه وإحسانه .

ثم قال تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمّدًا ﷺ : ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ أي : هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ أي : اقتد واتبع ، وإذا كان هذا أمر للرسول ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به ، وسئل ابن عبّاس أفي (ص) سجدة ؟ فقال : نعم ثم تلا ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ ثم قال : هو منهم [1] . وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي : لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجرًا ، أي : أجرة ولا أريد منكم شيئًا ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : يتذكرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى ، ومن الغي إلى الرشاد ومن الكفر إلى الإيمان .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ .

يقول اللّه تعالى : وما عظموا اللّه حق تعظيمه إذ كذبوا رسله إليهم ، قال ابن عبّاس : نزلت في قريش ، وقيل : نزلت في طائفة من اليهود . وقيل : في فنحاص ، رجل منهم ، وقيل : في مالك ابن الصيف ﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ والأول أصح ؛ لأن الآية مكية ، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمّد ﷺ لأنه من البشر ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي : قل يا محمّد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند اللّه في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة ﴿ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ ﴾ وهو التوراة التي قد علمتم وكل أحد أن اللّه قد أنزلها على موسى ابن عمران ﴿ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ، أي : ليستضاء بها في كشف المشكلات ويهتدى بها من ظلم الشبهات . وقوله : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ أي : تجعلون جملتها قراطيس ، أي : قطعًا تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم ، وتحرفون منها ما تحرفون ، وتبدلون وتتأولون وتقولون هذا من عند اللّه ، أي : في كتابه المنزل ، وما هو من عند اللّه ، ولهذا قال : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ أي : ومن أنزل القرآن الذي علمكم اللّه فيه من خبر ما سبق ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك لا أنتم ولا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٢) .

آباؤكم ، وقد قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب .

وقال مجاهد : هذه للمسلمين ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ قال ابن عبّاس : أي : قل : الله أنزله ، وهذا الذي قاله ابن عبّاس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة ، لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معنى ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أي : لا يكون خطابك لهم إلّا هذه الكلمة كلمة « الله » وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمرًا بكلمة مفردة من غير تركيب ، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها .

وقوله ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي : ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين ، فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين ؟ .

وقوله : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ ﴾ يعني القرآن ﴿ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ يعني مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وقال : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي » وذكر منهن : « وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (١) ولهذا قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي : كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمّد وهو القرآن ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي : يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي : لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فجعل له شركاء ، أو ولدًا ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾ قال عكرمة وقتادة : نزلت في مسيلمة الكذاب ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي : ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتريه من القول : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي : في سكراته وغمراته وكرباته ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : بالضرب ، وقال الضحاك وأبو صالح : باسطو أيديهم أي بالعذاب كقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، ولهذا يقولون لهم : ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم ، فتتفرق روحه في جسده وتعصى وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم : ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٣) .

﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية ، أي : اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله ، وقد وردت الأحاديث المتواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر ، وهي مقررة عند قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي : يقال لهم يوم معادهم هذا ، كما قال : ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي : كما بدأناكم أعدناكم وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه فهذا يوم البعث ، وقوله : ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي : من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا وراء ظهوركم ، وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ »[1] . ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد ، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب ، وانزاح الضلال ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ويناديهم الرب ﷻ على رؤوس الخلائق . ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ؟ ويقال لهم : ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي : في العبادة لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم ، ثم قال تعالى : ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرئ بالرفع أي شملكم وبالنصب[2] أي لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي : ذهب عنكم ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رجاء الأصنام والأنداد .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى ، أي : يشقه في الثرى ، فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب ، والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى ، ولهذا فسر قوله : ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ بقوله : ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي : يخرج النبات الحي من الحب والنوى الذي هو كالجماد الميت كقوله : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إلى قوله : ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله : ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ معطوف على ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ ثم فسره ثم عطف عليه قوله : ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى ، فمن قائل : يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه ، ومن قائل: يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه ، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها .

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٣) وأحمد في مسنده (٢٤/٤) والحاكم في المستدرك (٥٣٤/٢) .

(٢) قرأ المدنيان والكسائي وحفص بنصب النون والباقون بالرفع (تقريب النشر ص : ١١١) .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي : فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : كيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل ، فتعبدون معه غيره . وقوله : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أي : خالق الضياء والظلام كما قال في أول السورة : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ أي : فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضيء الوجود ، ويستنير الأفق ، ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه ، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه ، كقوله : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه ، فذكر أنه ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ وقابل ذلك بقوله : ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أي : ساجيًا مظلمًا لتسكن فيه الأشياء كما قال : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ وقال : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ وقال صهيب الرومي ﷺ لامرأته وقد عاتبته في كثرة سهره : إن الله جعل الليل سكنًا إلا لصهيب ، إن صهيبًا إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه . وقوله : ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ أي : يجريان بحساب مقنن مقدر لا يتغير ولا يضطرب ، بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء ، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولًا وقصرًا ، كما قال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ أي : الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف ، العليم بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وكثيرًا ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم ، كما ذكر في هذه الآية وكما في قوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن في أول سورة حم السجدة قال : ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجومًا للشياطين ، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر . وقوله : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي : قد بيناها ووضحناها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ يعني آدم عليه السلام ، كما قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ وقوله : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ اختلفوا في معنى ذلك ، فعن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ أي : في الأرحام قالوا ، أو أكثرهم ﴿ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أي : في الأصلاب ، وعن ابن مسعود وطائفة عكسه ، وعن ابن مسعود أيضًا وطائفة : فمستقر في الدنيا ومستودع حيث يموت . وعن ابن مسعود : ومستودع في

الدار الآخرة والقول الأول أظهر ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ أي : يفهمون ويعون كلام الله ومعناه ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي : بقدر مباركًا ورزقًا للعباد وإحياء وغياثًا للخلائق رحمة من الله بخلقه ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ أي : زرعًا وشجرًا أخضر ، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ أي : يركب بعضه بعضًا كالسنابل ونحوها ﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ أي : جمع قنو وهي عذوق الرطب ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أي : قريبة من المتناول ، كما قال ابن عبّاس ﴿ قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ يعني بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ أي : ونخرج منه جنات من أعناب ، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز ، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا ، كما امتن الله بهما على عباده في قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ وكان ذلك قبل تحريم الخمر ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ قال قتادة : وغير متشابه في الورق والشكل ، قريب بعضه من بعض ، ومتخالف في الثمار شكلًا وطعمًا وطبعًا ، وقوله تعالى : ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ أي : نضجه ، قال البراء بن عازب وابن عبّاس وغيرهم ، أي : فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود بعد أن كان حطبًا صار عنبًا ورطبًا ، وغير ذلك مما خلق ﷻ من الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، كقوله تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ الآية . ولهذا قال ها هنا : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ لَآيَٰتٍ ﴾ أي : دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يصدقون به ويتبعون رسله .

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره وأشركوا به في عبادته أن عبدوا الجن ، فجعلوهم شركاء له في العبادة ، تعالى الله عن شركهم وكفرهم . فإن قيل : فكيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب أنهم ما عبدوها إلّا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك كقوله : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الآية وقال إبراهيم لأبيه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ أي : وقد خلقهم فهو الخالق وحده لا شريك له ، فكيف يعبد معه غيره كقول إبراهيم : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ومعنى الآية أنه ﷻ هو المستقل بالخلق وحده ، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له وقوله تعالى : ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ينبه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى

بأن له ولدًا ، كما يزعم من قال من اليهود في عزير ، ومن قال من النصارى في عيسى ، ومن قال من مشركي العرب في الملائكة : إنها بنات الله ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ومعنى ﴿ وَخَرَقُوا ﴾ أي : اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا وكذبوا كما قال علماء السلف ، قال ابن عبّاس ﴿ وَخَرَقُوا ﴾ يعني تخرصوا . وقال : جعلوا له بنين وبنات ، وقال مجاهد : ﴿ وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ ﴾ قال : كذبوا ، ولهذا قال : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي : تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء .

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ أي : مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق كما قال مجاهد والسدي ، ومنه سميت البدعة بدعة ؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أي : كيف يكون له ولد ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ أي : والولد إنما يكون متولدًا بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه ؛ لأنه خالق كل شيء ، فلا صاحبة له ، ولا ولد ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فبيّنَ تعالى أنه الذي خلق كل شيء ، وأنه بكل شيء عليم ، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه ، وهو الذي لا نظير له ، فأنى يكون له ولد ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ ﴾ أي : الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ ﴾ أي : فاعبدوه وحده لا شريك له ، وأقروا له بالواحدانية ، وأنه لا إله إلّا هو ، وأنه لا ولد له ولا والد ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي : حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار . وقوله : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف أحدها : لا تدركه في الدنيا وإن كانت تراه في الآخرة ، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن ، كما قال مسروق : عن عائشة أنها قالت : من زعم أن محمّدًا أبصر ربه فقد كذب ، وفي رواية : على الله ، فإن الله تعالى قال : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ ﴾ (١) . وثبت عن عائشة من غير وجه ، وخالفها ابن عبّاس ، فعنه إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين ، ويحيى ابن معين قال : سمعت إسماعيل ابن عُليّة يقول في قول الله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ قال : هذا في الدنيا ، وذكر أبي عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك . وقال آخرون : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي : جميعها ، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة .

وقال آخرون من المعتزلة بمقتضي ما فهموه من هذه الآية : أنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة ، فخالفوا أهل السنّة والجماعة في ذلك مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنّة رسوله .

---

(١) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٠٦٨) .

أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وقال تعالى عن الكافرين : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ قال الإمام الشافعي : فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى . أما السنّة فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجريج وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبيّ ﷺ أن المؤمنين يرون اللَّه في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات ، جعلنا اللَّه تعالى منهم بمنه وكرمه آمين .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ أي : العقول ، وقيل : إن الإدراك في معنى الرؤية .

وقال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك فإن الإدراك أخص من الرؤية ، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم ، ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ما هو ؟ فقيل : معرفة الحقيقة ؛ فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ؛ فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى . وقال آخرون : المراد بالإدراك الإحاطة .

قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ وفي صحيح مسلم : « لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » ولا يلزم منه عدم الثناء فكذلك هذا . قال ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ قال : لا يحيط بصر أحد بالملك ، وقال عكرمة أنه قيل له : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ قال : ألست ترى السماء ؟ قال : بلى ، قال : فكلها ترى ؟ وقال قتادة في الآية ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ : هو أعظم من أن تدركه الأبصار .

وعن عطية العوفي في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قال : هم ينظرون إلى اللَّه لا تحيط أبصارهم به من عظمته ، وبصره محيط بهم ، فذلك قوله : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ .

وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ قال : اللطيف لاستخراجها ، الخبير بمكانها ، واللَّه أعلم ، وهذا كما قال تعالى إخبارًا عن لقمان فيما وعظ به ابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ .

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

البصائر : هي البيّنات والحجج التي اشتمل عليها القرآن وما جاء به الرسول ﷺ ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ كقوله : ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ لما ذكر البصائر قال : ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي : إنما يعود وباله عليه ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أي : بحافظ ولا رقيب ، بل إنما أنا مبلغ واللَّه يهدي من يشاء ويضل من يشاء وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أي : وكما فصلنا الآيات في هذه السورة من بيان التوحيد ، وأنه لا إله إلَّا هو ، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبيّنها في كل موطن لجهالة الجاهلين ، وليقول المشركون والكافرون المكذبون : دارست يا محمّد من قبلك من أهل الكتاب ، وقارأتهم وتعلمت منهم ، هكذا قاله ابن عبّاس[1] ،

(١) تفسير الطبري ٣٩٨/٧ .

وقال ابن عباس : دارست : تلوت ، خاصمت ، جادلت وهذا كقوله تعالى إخبارًا عن كذبهم وعنادهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ الآية وقال تعالى إخبارًا عن زعيمهم وكاذبهم : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه والباطل فيجتنبونه ، فللَّه تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء ، كقوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ الآية . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين ، وأنه يضل به من يشاء ويهدي به من يشاء ، ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقرأ بعضهم ﴿ دَرَسْتَ ﴾ قال التميمي : عن ابن عبّاس درست أي : قرأت وتعلمت ، وقال الحسن ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسَتْ ﴾ : تقادمت وانمحت ، وعن عمرو بن دينار قال : سمعت ابن الزبير يقول : إن صبيانًا يقرؤون ها هنا دارست وإنما هي دَرَسَتْ [1] ، قال ابن جرير : ومعناه انمحت وتقادمت ، أي : أن هذا الذي تتلوه علينا قد مر بنا قديمًا وتطاولت مدته .

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته : ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي : اقتد به واقتف أثره واعمل به ، فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مرية فيه ؛ لأنه لا إله إلَّا هو ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح اللَّه لك وينصرك ويظفرك عليهم ، واعلم أن للَّه حكمة في إضلالهم ، فإنه لو شاء لهدى الناس جميعًا ، ولو شاء لجمعهم على الهدى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ أي : بل له المشيئة والحكمة فيما يشاءه ويختاره ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي : حافظًا تحفظ أقوالهم وأعمالهم ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي : موكل على أرزاقهم وأمورهم ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ .

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول اللَّه تعالى ناهيًا لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين : وإن كان فيه مصلحة إلَّا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ؛ وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين وهو ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ كما قال ابن عبّاس في هذه الآية قالوا : يا محمّد لتنتهينَّ عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك ، فنهاهم اللَّه أن يسبوا أوثانهم ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [2] . وعن قتادة : كان المسلمون يسبون أصنام

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (دارست) بألف بعد دال وإسكان السين وبفتح التاء وابن عامر ويعقوب بغير ألف وفتح السين وإسكان التاء والباقون بغير ألف وبإسكان السين وفتح التاء (تقريب النشر ص ١١١) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره ٧/٤٠٣ .

الكفار فيسب الكفار الله عدوًا بغير علم فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ .

عن السدي أنه قال في تفسير هذه الآية : لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش : انطلقوا فلندخل على هذا الرجل ، فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه ، فإنا نستحيي أن نقتله بعد موته ، فتقول العرب : كان يمنعهم فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث ، وأمية وأُبي ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البختري ، وبعثوا رجلًا منهم يقال له : المطلب قالوا : استأذن لنا على أبي طالب ، فأتى أبا طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك ، فأذن لهم عليه فدخلوا عليه ، فقالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا ، وإن محمّدًا قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه ، فدعاه فجاء النبيّ ﷺ فقال له أبو طالب : هؤلاء قومك وبنو عمك ، قال رسول الله ﷺ : « مَا تُرِيدُونَ ؟ » قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا ولندعك وإلهك ، فقال النبيّ ﷺ : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ هَذَا هَلْ أَنْتُمْ مُعْطِيَّ كَلِمَةً إِنْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكْتُمْ بِهَا العَرَبَ وَدَانَتْ لَكُمْ بِهَا العَجَم وَأَدَّتْ لَكُمْ الخَرَاجَ » قال أبو جهل : وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها ، قالوا : فما هي ؟ قال : « قُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه » فأبوا واشمأزوا ، قال أبو طالب : يا ابن أخي قل غيرها فإن قومك قد فزعوا منها ، قال : « يَا عَمّ مَا أَنا بِالَّذِي يَقُولُ غَيْرَهَا حَتَّى يَأْتُوا بِالشَّمْسِ فَيَضَعُوهَا فِي يَدِي ، وَلَوْ أَتَوْا بِالشَّمْسِ فَوَضَعُوهَا فِي يَدِي ما قُلْتُ غَيْرَهَا » إرادة أن يؤيسهم ، فغضبوا وقالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمن من يأمرك ، فذلك قوله : ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [1] ومن هذا القبيل ، وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ، ما جاء رسول الله ﷺ قال : « مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ » قالوا : يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال : « يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ » [2] أو كما قال ﷺ . وقوله : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أي : وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار ، كذلك زينا لكل أمة أي من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤوه ويختاره ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾ أي : معادهم ومصيرهم ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : يجازيهم بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى إخبارًا عن المشركين : أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أي : حلفوا أيمانًا مؤكدة ﴿ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ أي : معجزة وخارق ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ أي : ليصدقنها ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي : قل يا محمّد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتًا وكفرًا وعنادًا لا على سبيل الهدى والاسترشاد : إنما مرجع هذه الآيات إلى الله ، إن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم ، فعن محمّد بن كعب القرظي ، قال : كلم رسول الله ﷺ قريش فقالوا : يا محمّد تخبرنا أن موسى كان معه عصا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٣٨) والطبري في تفسيره ٧/٤٠٥ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٦) أحمد في مسنده (٢/١٦٤) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/٢٣٥) .

يضرب بها الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدقك ، فقال رسول الله ﷺ : « أَيّ شَيْءٍ تُحِبُّونَ أَنْ آتِيَكُمْ بِهِ » ، قالوا : تجعل لنا الصفا ذهبًا فقال لهم : « فَإِنْ فَعَلْتُ تُصَدِّقُونِي » قالوا : نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون ، فقام رسول الله ﷺ يدعو ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له : ما شئت إن شئت أصبح الصفا ذهبًا ، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا ذلك ليعذبنهم ، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم . فقال رسول الله ﷺ : « بَلْ يَتُوبُ تَائِبُهُمْ » فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قيل : المخاطب بما يشعركم المشركون ، وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول : وما يدريكم بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها ، وعلى هذا فالقراءة ﴿ إنها إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بكسر إنها على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها ، وقرأ بعضهم ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا تُؤْمِنُونَ ﴾ بالتاء المثناة من فوق [2] ، وقيل : المخاطب بقوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ المؤمنون يقول : وما يدريكم أيها المؤمنون ، وعلى هذا فيجوز في قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم ، وعلى هذا فتكون لا في قوله : ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ صلة كقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ . وقوله ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي ؛ ما منعك أن تسجد ؛ إذ أمرتك ، وحرام أنهم لا يرجعون ، وتقديره في هذه الآية وما يدريكم أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصًا على إيمانهم أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ، قال بعضهم : إنها بمعنى لعلها ، قال ابن جرير : وذكروا أن ذلك كذلك في قراءة أُبيّ بن كعب ، قال : وقد ذكر عن العرب سماعًا اذهب إلى السوق إنك تشتري لنا شيئًا ، بمعنى لعلك تشتري .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قال ابن عبّاس في هذه الآية : لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردّت عن كل أمر ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ ونحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ، وقال ابن عبّاس رضي الله عنه : أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه وقال : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ جل وعلا ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يكونوا على الهدى ، وقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وقال : ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا ، وقوله : ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ أي : نتركهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ ، قال ابن عبّاس والسدي : في كفرهم . وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة : في ضلالهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ قال الأعمش : يلعبون ، وقال ابن عبّاس ومجاهد وأبو العالية والربيع وأبو مالك وغيره : في كفرهم يترددون .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٣٩) وابن الجوزي في زاد المسير (٣/١٠٣) .

(٢) قرأ ابن كثير والبصريان وخلف وأبو بكر بخلاف عنه (إنها إذا) بكسر الهمزة من أنها والباقون بالفتح ، وقرأ ابن عامر وحمزة (لا يؤمنون) بالخطاب والباقون بالغيب (تقريب النشر ص ١١١) .

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها فنزلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا فقالوا : ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ و ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي : فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا ﴾ قرأ بعضهم قبلًا بكسر القاف وفتح الباء من المقابلة والمعاينة ، وقرأ آخرون بضمهما [(١)] قيل : معناه من المقابلة والمعاينة أيضًا ، كما روي عن ابن عبّاس وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد ، وقال مجاهد : ﴿ قُبُلًا ﴾ أي : أفواجًا قبيلًا قبيلًا أي : تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به ﴿ مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي : إن الهداية إليه لا إليهم بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعّال لما يريد ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته وهذه الآية كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وكما جعلنا لك يا محمّد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك ، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضًا أعداء ، فلا يحزنك ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الآية ، وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ : إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلّا عودي ، وقوله : ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ بدل من ﴿ عَدُوًّا ﴾ أي : لهم أعداء من شياطين الإنس والجن ، والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر ، ولا يعادي الرسل إلّا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم ، وعن قتادة في قوله : ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ قال : من الجن شياطين ومن الإنس شياطين يوحي بعضهم إلى بعض ، قال قتادة : وبلغني أن أبا ذر كان يومًا يصلي فقال النبيّ ﷺ : « تَعَوَّذْ يا أبا ذَرٍّ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ » فقال : أو إن من الإنس شياطين !؟ فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ » [(٢)] ، وروي عن أبي ذر قال : أتيت النبيّ ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ ؟ » قلت : لا قال : « قُمْ فَصَلِّ » قال : فقمت فصليت ثم جلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْ بالله مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ » قال : قلت : يا رسول الله وللإنس شياطين ؟ قال : « نَعَمْ » وذكر تمام الحديث بطوله [(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ أي : يلقي بعضهم إلى بعض القول

(١) قرأ المدنيان وابن عامر (قبلا) بكسر القاف وفتح الباء والباقون بضمهما (تقريب النشر ص ١١١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨/٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٩/٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٩/١) .

المزين المزخرف ، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أي : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أي : فدعهم ﴿ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : يكذبون . أي : دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم ، فإن الله كافيك وناصرك عليهم . وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ أي : ولتميل إليه . قاله ابن عبّاس ﴿ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي : قلوبهم وعقولهم وأسماعهم ، وقال السدي : قلوب الكافرين ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ أي : يحبوه ويريدوه ، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ قال ابن عبّاس : وليكتسبوا ما هم مكتسبون ، وقال السدي وابن زيد : وليعملوا ما هم عاملون .

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ أي بيني وبينكم ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ أي : مبينًا ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي : من اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، أي : بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ كقوله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أَشُكُّ وَلاَ أَسْأَلُ »[1] . وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ قال : صدقًا فيما قال وعدلًا فيما حكم ، يقول : صدقًا في الأخبار وعدلًا في الطلب ، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة ، كما قال تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ إلى آخر الآية ﴿ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي : ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ لأقوال عباده ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله .

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ فإن الخرص هو الحزر ومنه خرص النخل وهو حزر ما عليها من التمر ، وذلك كله عن قدر الله ومشيئته ﴿ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ فييسره لذلك ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ فييسرهم لذلك

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣١٧/٣) وعبد الرزاق في مصنفه (١٠٢١١) .

وكل ميسر لما خلق له .

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه ، ومفهومه أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات وأكل ما ذبح على النصب وغيرها ، ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه ، وقرأ بعضهم فصل بالتشديد ، وقرأ آخرون بالتخفيف [(١)] ، والكل بمعنى البيان والوضوح ﴿ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي : إلَّا في حال الاضطرار فإنه يباح لكم ما وجدتم ، ثم بيَّن تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى فقال : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي : هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم .

﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ المعصية في السر والعلانية ، وفي رواية عنه : هو ما ينوى مما هو عامل ، وقال قتادة : ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ أي : سره وعلانيته قليله وكثيره، وقال السدي : ظاهره الزنى مع البغايا ذوات الرايات ، وباطنه الزنى مع الخليلة والصدائق والأخدان ، وقال عكرمة: ظاهره نكاح ذوات المحارم ، والصحيح أن الآية عامة في ذلك كله وهي كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ الآية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾ أي : سواء كان ظاهرًا أو خفيًّا فإن الله سيجزيهم عليه ، وعن النواس بن سمعان قال : سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال : « الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَيْهِ » [(٢)] .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ .

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلمًا ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال : فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة وسواء ترك التسمية عمدًا أو سهوًا ، وهو مروي عن ابن عمر ونافع مولاه ، وهو رواية عن الإمام مالك ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين ، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية وبقوله في آية الصيد : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ثم قد أكد في هذه الآية بقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ ، والضمير قيل : عائد على الأكل ، وقيل : عائد على الذبح لغير الله ، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديثي عدي

(١) قرأ عامة الكوفيين بفتح الفاء وتشديد الصاد في (فصل) وقرأ عطية العوفي بتخفيف الصاد (الطبري في تفسير سورة الأنعام آية ١١٩) .
(٢) أخرجه مسلم في البر (١٤ ، ١٥) وأحمد في مسنده (١٨٢/٤) والترمذي في سننه (٢٣٨٩) .

ابن حاتم وأبي ثعلبة : « إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ المُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ » (١) ، وحديث رافع بن خديج : « مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ » (٢) أيضًا ، وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن : « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » (٣) ، وحديث جندب بن سفيان البجلي قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ حَتَّى صَلَّيْنَا فَلْيَذْبَحْ باسْمِ اللَّه » (٤) وعن عائشة رضي الله عنها أن ناسًا قالوا : يا رسول الله إن قومًا يأتوننا باللحم لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ قال : « سَمُّوا عَلَيْهِ أَنْتُمْ وَكُلُوا » قالت : وكانوا حديثي عهد بالكفر (٥) . ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لابد منها ، وخشوا أن لا يكون وجدت من أولئك لحداثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت ، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد والله أعلم .

والمذهب الثاني في المسألة : أنه لا يشترط التسمية بل هي مستحبة ، فإن تركت عمدًا أو نسيانًا لا يضر ، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل . وهو رواية عن الإمام مالك ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه ، وحكي عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح ، والله أعلم . وحمل الشافعي الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى : ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ وقال عطاء ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان ، وينهى عن ذبائح المجوس ، وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي قوي ، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو في قوله ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ حالية ، أي : لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقًا ولا يكون فسقًا حتى يكون قد أهل به لغير الله . ثم ادعى أن هذا متعين ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة لأنه يلزم منه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية ، وهذا ينتقض عليه بقوله : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ فإنها عاطفة لا محالة ، فإن كانت الواو التي ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال امتنع عطف هذه عليها ، فإن عطفت على الطلبية ورد عليها ما أورد على غيره ، وإن لم تكن الواو حالية بطل ما قال من أصله ، والله أعلم ، وعن ابن عبّاس في الآية ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال : هي الميتة . وقد استدل لهذا المذهب بما روي عن الصمت السدوسي مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم ابن حبان في كتاب الثقات قال : قال رسول الله ﷺ : « ذَبِيحَةُ المُسْلِمِ حَلَالٌ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ أَوْ لَمْ يَذْكُرْ ، إِنَّهُ إِنْ ذَكَرَ ، لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا اسْمَ اللَّه » (٦) . وما روي عن ابن عبّاس أنه قال : « إِذَا ذَبَحَ المُسْلِمُ

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٧٥) ومسلم في الصيد (١) .
(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (٢٠) وأحمد في مسنده (١٤٢/٤) والترمذي في سننه (١٤٩١) .
(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥٠) .
(٤) أخرجه البخاري في الأضاحي (٥٥٦٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٦٢/٩) .
(٥) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٠٧) والدارمي في سننه (٨٣/٢) .
(٦) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٤٠/٩) .

وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ فَلْيَأْكُلْ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ فِيهِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ » (١) واحتج البيهقي أيضًا . بحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم أن ناسًا قالوا : يا رسول الله : إن قومًا حديثي عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقالوا : « سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُوا » (٢) قال : فلو كان وجود التسمية شرطًا لم يرخص لهم إلّا مع تحققها والله أعلم .

المذهب الثالث في المسألة : إن ترك البسملة على الذبيحة نسيانًا لم يضر ، وإن تركها عمدًا لم تحل ، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه ، وهو محكي عن علي وابن عبّاس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرّحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمّد وربيعة بن أبي عبد الرّحمن . ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه الهداية الإجماع قبل الشافعي على تحريم متروك التسمية عمدًا ، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ : لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع ، وهذا الذي قاله غريب جدًّا ، وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعي والله أعلم . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : من حرم ذبيحة الناسي فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك ، يعني ما روي عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ قال : « الْمُسْلِمُ يَكْفِيهِ اسْمُهُ إِنْ نَسِيَ أَنْ يُسَمِّي حِينَ يَذْبَحُ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَلْيَأْكُلْهُ » (٣) وهذا الحديث رفعه خطأ ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزري ، فإنه وإن كان من رجال مسلم إلّا أن سعيد بن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدي روياه عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن أبي الشعثاء عن عكرمة عن ابن عبّاس من قوله : فزادا في إسناده أبا الشعثاء ووثقاه وهذا أصح ، نص عليه البيهقي وغيره من الحفاظ، ثم نقل ابن جرير وغيره عن الشعبي ومحمّد بن سيرين أنهما كرها متروك التسمية نسيانًا ، والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيرًا والله أعلم . إلّا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفًا لقول الجمهور فيعده إجماعًا فليعلم هذا والله الموفق . وعن جهير بن يزيد قال : سئل الحسن ، سأله رجل أتيت بطير كذا ، فمنه ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه ومنه ما نسي أن يذكر اسم الله عليه واختلط الطير ، فقال الحسن : كله كلّه ، قال : وسألت محمّد بن سيرين فقال : قال الله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ (٤) » وفيه نظر والله أعلم ، وقد روي عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي ، فقال النبيّ ﷺ : « اسْمُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » (٥) .

قال ابن جرير : وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل نسخ من حكمها شيء أم لا ؟ فقال

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (٤/٢٩٦) .

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (٢/٨٣) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٣٩) والدارقطني في سننه (٤/٢٩٦) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠٤٥) .

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٤٠) .

بعضهم : لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما عنيت به ، وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم ، وروي عن عكرمة والحسن البصري قالا : قال الله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك فقال : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ فعن مكحول قال : أنزل الله في القرآن ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب . ثم قال ابن جرير : والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه ، وهذا الذي قاله صحيح ، ومن أطلق من السلف النسخ ها هنا فإنما أراد التخصيص ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ قال أبو إسحاق : قال رجل لابن عمر : إن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال : صدق وتلا هذه الآية ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ قوله ﴿ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ وعن ابن عبّاس قال : جاءت اليهود إلى النبيّ ﷺ فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ الآية وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة :

أحدهما : أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا .

الثاني : أن الآية من الأنعام وهي مكية .

الثالث : أن هذا الحديث رواه الترمذي عن ابن عبّاس بلفظ أتى ناس النبي ﷺ ، فذكره وقال : حسن غريب وروي عن سعيد بن جبير مرسلًا .

وعن ابن عبّاس قال : لما نزلت ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمّدًا وقولوا له : فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال ، وما ذبح الله ﷻ بشمشير من ذهب يعني الميتة فهو حراما ، فنزلت هذه الآية ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (١) أي : وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش ، وعن ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ يقولون : ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم فكلوه ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ أي : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك كقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية وقد روي عن عدي بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ما عبدوهم ، فقال : « بَلَى إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِم الحَلالَ فَاتَّبَعُوهُمْ فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ » (٢) .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا أي : في الضلالة هالكًا حائرًا فأحياه الله ، أي :

(١) تفسير الطبري (٨/٢٢) والشمشير هو السكين .

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٥) .

أحيا قلبه بالإيمان وهداه ووفقه لاتباع رسله ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ أي : يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرف به والنور هو القرآن كما روي عن ابن عبّاس ، وقال السدي : الإسلام ، والكل صحيح ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ أي : الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ أي : لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه ، وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَه فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ »(1) كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : حسّن لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة قدرًا من الله وحكمة بالغة لا إله إلا هو وحده لا شريك له .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وكما جعلنا في قريتك يا محمّد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك ، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ، ثم لهم العاقبة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ الآية قيل : معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرناهم ، وقيل : أمرناهم أمرًا قدريًّا ، كما قال ههنا : ﴿ لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾ عن ابن عبّاس ﴿ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ﴾ قال : سلطنا شرارهم فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب . وقال مجاهد وقتادة : ﴿ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ عظماؤها . قلت : وهكذا قوله تعالى : ﴿ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال ، كقوله تعالى إخبارًا عن قوم نوح : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : وما يعود وبال مكرهم وإضلالهم من أضلوه إلّا على أنفسهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ أي : إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ أي : حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل .

وقوله : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ أي : هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ ﴾ الآية ، يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم ﴿ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ ﴾ أي : من مكة والطائف ، وذلك أنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيًا وحسدًا ، وعنادًا واستكبارًا كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ

(1) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٧/٢) والحاكم في المستدرك (٣٠/١) .

رَسُولًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه ، وطهارة بيته ومرباه ، ومنشئه - صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه - ، حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه « الأمين » ، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم وكيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا .

وعن واثلة بن الأسقع ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ » [1] وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا حَتَّى بُعِثْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ » [2] وعن المطلب بن أبي وداعة قال : قال العباس : بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس ، فصعد المنبر فقال : « مَنْ أَنَا ؟ » قالوا ؟ أنت رسول الله ، فقال : « أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا ، وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا » [3] صدق صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله تعالى : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ ﴾ الآية ، هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به ، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار وهو الذلة الدائمة ، كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلًّا يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي : صاغرين ذليلين حقيرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ لما كان المكر غالبًا إنما يكون خفيًا وهو التلطف في التحيل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاءً وفاقًا ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ أي : تظهر المستترات والمكنونات والضمائر ، وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ استه يَوْمَ الْقِيَامَةِ [4] فَيُقَالُ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ » والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيًا لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علمًا منشورًا على صاحبه بما فعل .

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ أي : ييسره له وينشطه ويسهله لذلك ، فهذا علامات على الخير كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٠٧) .
(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٧) وأحمد في مسنده (٢/٣٧٣) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢١٠) والترمذي في جامعه (٣٥٣٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الفتن (٧١١١) وأحمد في مسنده (٢/٧٠) والترمذي في سننه (٢١٩١) .

هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ وقال ابن عبّاس ﷺ في قوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ يقول تعالى : يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وعن أبي جعفر قال : سئل رسول اللّه ﷺ أي المؤمنين أكيس ؟ قال : « أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَكْثَرُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا » [١] قال : وسئل النبيّ ﷺ عن هذه الآية ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول اللّه ؟ قال : « نُورٌ يَقْذِفُ فِيهِ فَيَنْشَرِحُ لَهُ وَيَنْفَسِحُ » قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : « الإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الخُلُودِ وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ المَوْتِ » [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ قرئ بفتح الضاد وتسكين الياء والأكثرون ﴿ ضَيِّقًا ﴾ بتشديد الياء وكسرها وهما لغتان كهين وهيِّن ، وقرأ بعضهم ﴿ حَرِجًا ﴾ بفتح الحاء وكسر الراء [٣] قيل : بمعنى آثم ، قاله السدي ، وقيل : بمعنى القراءة الأخرى ﴿ حَرَجًا ﴾ بفتح الحاء والراء وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه . وقد سأل عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة ؟ فقال : هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء ، فقال عمر ﷺ : كذلك قلب المنافقين لا يصل إليه شيء من الخير . وقال ابن عبّاس : يجعل اللّه عليه الإسلام ضيقًا والإسلام واسع وذلك حين يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ يقول : ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق ، وقال مجاهد والسدي : ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ شاكا ، وقال عطاء الخراساني : ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ أي : ليس للخير فيه منفذ ، وقال ابن جريج ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ بلا إله إلّا اللّه حتى لا يستطيع أن تدخل قلبه كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه ، وقال سعيد بن جبير : ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ قال : لا يجد فيه مسلكا إلّا صعدًا ، وقال السدي : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ من ضيق صدره .

وقال عطاء الخراساني : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يقول : مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد إلى السماء ، وعن ابن عبّاس ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يقول : فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله اللّه في قلبه ، وقال الأوزاعي : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ كيف يستطيع من جعل اللّه صدره ضيقًا أن يكون مسلمًا . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : وهذا مثل ضربه اللّه لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه ، يقول : فمثله في امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه ؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته ، وقال في قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يقول : كما يجعل اللّه صدر من أراد إضلاله ضيقًا حرجًا كذلك يسلط اللّه الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان باللّه ورسوله ، فيغويه ويصده عن سبيل اللّه ، وعن ابن عبّاس : الرجس الشيطان ، وقال

(١) أخرجه : ابن ماجه في السنن (٤٢٥٩) والحاكم في المستدرك ٥٤٠/٤ ، والطبراني في الكبير ٤١٧/١٢ .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣١١/٤ .
(٣) عامة القراء كانوا يقرأونها (ضيقا) بالتشديد وبعض المكيين بالتسكين (الطبري الأثر ١٠٧٩٧) .

مجاهد : الرجس كل ما لا خير فيه ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرجس : العذاب .

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها نبّه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق فقال تعالى : ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ منصوب على الحال أي : هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمّد بما أوحينا إليك هذا القرآن وهو صراط الله المستقيم ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي : وضحناها وبيناها وفسرناها ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي : لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ وهي الجنة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي يوم القيامة ، وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم ، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ أي : حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : واذكر يا محمّد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، ويعوذون بهم ويطيعونهم ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ أي : يقول : يا معشر الجن ، وسياق الكلام يدل على المحذوف ومعنى قوله : ﴿ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ أي : من إغوائهم وإضلالهم كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ عن ابن عبّاس : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ يعني أضللتم منهم كثيرًا . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة . ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ يعني أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا . عن الحسن في هذه الآية قال : استكثرتم من أهل النار يوم القيامة فقال أولياؤهم من الإنس : ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ ، قال الحسن : وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلّا أن الجن أمرت وعملت الإنس . ﴿ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ قال السدي : يعني الموت ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾ أي : مأواكم ومنزلكم أنتم وإياهم وأولياؤكم ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ أي : ماكثين فيها مكثًا مخلدًا إلّا ما شاء الله . قال بعضهم : يرجع معنى الاستثناء إلى البرزخ ، وقال بعضهم : هذا رد إلى مدة الدنيا ، ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ قال : إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا نارًا .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ .

قال قتادة في تفسيرها : إنما يولي الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان ، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي . وعن قتادة في تفسير

الآية يولي الله بعض الظالمين بعضًا في النار يتبع بعضهم بعضًا . وقال مالك بن دينار : قرأت في الزبور أني أنتقم من المنافقين بالمنافقين ، ثم أنتقم من المنافقين جميعًا وذلك في كتاب الله . قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا ﴾ قال : ظالمي الجن وظالمي الإنس . وقرأ ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ قال : ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس .

ومعنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم .

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ .

وهذا أيضًا مما يقرع الله به كافري الجن والإنس يوم القيامة حيث يسألهم - وهو أعلم - هل بلغتهم الرسل رسالاته وهذا استفهام تقرير ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي : من جملتكم والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل . وقال ابن عبّاس : الرسل من بني آدم ومن الجن نزر . وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أنه في الجن رسلًا ، واحتج بهذه الآية الكريمة ، وفيه نظر لأنها محتملة وليست بصريحة والله أعلم ، والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ إلى قوله ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ وقوله تعالى عن إبراهيم : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته ، ولم يقل أحد من الناس إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل ثم انقطعت عنهم ببعثته ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ وقال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب ، وقال تعالى في هذا الآية الكريمة : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ أي : أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك ، وأن هذا اليوم كائن لا محالة ، وقال تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : وقد فرطوا في حياتهم الدنيا وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها ﴿ وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ أي : في الدنيا بما جاءتهم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ أي : إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة ، ولكن أعذرنا إلى الأمم وما عذبنا أحدًا إلا بعد إرسال الرسل إليهم كما قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ وقوله :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير : ويحتمل قوله تعالى : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ وجهين :

أحدهما : ذلك من أجل أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه وهم غافلون ، يقول : لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولًا ينبههم على حجج اللَّه عليهم وينذرهم عذاب اللَّه يوم معادهم ، ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة فيقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير .

والوجه الثاني : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ يقول : لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر ، فيظلمهم بذلك واللَّه غير ظلام لعبيده ، ثم شرع يرجح الوجه الأول ولا شك أنه أقوى ، واللَّه أعلم .

قال : وقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ أي : ولكل عامل من طاعة اللَّه أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه اللَّه إياها ويثيبه بها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر . قلت : ويحتمل أن يعود قوله : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ أي : من كافرين الجن والإنس أي : لكل درجة في النار بحسبه كقوله : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ وقوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي وكل ذلك من عملهم يا محمّد بعلم من ربك يحصيها ويثبتها لهم عنده ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ يا محمّد ﴿ الْغَنِيُّ ﴾ أي : عن جميع خلقه من جميع الوجوه وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ أي : وهو مع ذلك رحيم بهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أي : إذا خالفتم أمره ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ ﴾ أي : قومًا آخرين ، أي : يعملون بطاعته ﴿ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ أي : هو قادر على ذلك سهل عليه يسير لديه كما أذهب القرون الأولى وأتى بالذي بعدها ، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : أخبرهم يا محمّد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : ولا تعجزون اللَّه بل هو قادر على إعادتكم وإن صرتم ترابًا ورفاتًا وعظامًا ، هو قادر لا يعجزه شيء ، عن أبي سعيد الخدري ﵁ عن النبيّ ﷺ أنه قال : « يَا بَنِي آدَمَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » (١) .

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٧/٣) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ هذا تهديد شديد ووعيد أكيد أي : استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي كقوله : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ : عن ابن عبّاس ﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ ناحيتكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي : أتكون لي أو لكم ، وقد أنجز اللَّه موعده لرسوله صلوات اللَّه عليه ، أي : فإنه تعالى مكنه في البلاد وحكّمه في نواصي مخالفيه من العباد وفتح له مكة وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين وكل ذلك في حياته ، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه ﵃ أجمعين ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، وقد فعل اللَّه ذلك بهذه الأمة المحمدية وله الحمد والمنة أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا .

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

هذا ذم وتوبيخ من اللَّه للمشركين الذين ابتدعوا بدعًا وكفرًا وشركًا وجعلوا للَّه شركاء وجزءًا من خلقه وهو خالق كل شيء ﷻ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أي : مما خلق وبرأ ﴿ مِنَ ٱلْحَرْثِ ﴾ أي : من الزرع والثمار ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ أي : جزءًا وقسمًا ﴿ فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾ قال ابن عبّاس في تفسير هذه الآية : إن أعداء اللَّه كانوا إذا حرثوا حرثًا أو كانت لهم ثمرة جعلوا للَّه منه جزءًا وللوثن جزءًا ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئًا جعلوه للَّه ؛ جعلوا ذلك للوثن ، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه للَّه فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ، ولم يردوه إلى ما جعلوه للَّه ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للَّه فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن ، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمونه قربة للَّه ، فقال اللَّه تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ الآية . وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم في الآية : كل شيء يجعلونه للَّه من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبدًا حتى يذكروا معه أسماء الآلهة ، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم اللَّه معه ، وقرأ الآية حتى بلغ ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : ساء ما يقسمون فإنهم أخطأوا أولًا في القسم ؛ لأن اللَّه تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وله الملك ، وكل شيء له وفي تصرفه ، وتحت قدرته ومشيئته لا إله غيره ولا رب سواه ، ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة لم يحفظوها بل جاروا فيها كقوله جلَّ وعلا : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ

دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا ، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ووأد البنات خشية العار ، قال ابن عبّاس ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ زينوا لهم قتل أولادهم . وقال مجاهد : شركاؤهم شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العيلة ، وقال السدي : أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات إما ليردوهم فيهلكوهم ، وإما ليلبسوا عليهم دينهم أي : فيخلطوا عليهم دينهم . وهذا كقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ وقد كانوا أيضًا يقتلون الأولاد من الإملاق وهو الفقر ، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم في تلف المال ، وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك ، وإنما كان هذا كله من تزيين الشياطين وشرعهم ذلك ، قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أي : كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونًا وله الحكمة التامة في ذلك ، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم .

﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : الحِجْر الحرام مما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا ، وقال قتادة : ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم وتغليظ وتشديد ولم يكن من الله تعالى ، وقال ابن زيد بن أسلم : ﴿ حِجْرٌ ﴾ إنما احتجزوها لآلهتهم ، وقال السدي : ﴿ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ يقولون : حرام أن يطعم إلا من شئنا ، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ وقال السدي : أما الأنعام التي حرمت ظهورها ، فهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها قال : لا إذا ولدوها ولا إن نحروها . وعن عاصم بن أبي النجود قال لي أبو وائل: أتدري ما في قوله : ﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ قلت : لا ، قال : هي البحيرة كانوا لا يحجون عليها ، وقال مجاهد : من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها لا إن ركبوا ، ولا إن حلبوا ولا إن حملوا ولا إن نتجوا ولا إن عملت شيئًا . ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ أي : على الله وكذبًا منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضيه منهم ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي : عليه ويسندون إليه .

﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن عبّاس : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ الآية ، قال : اللبن . كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم ، وكانت الشاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه وكان للرجال

دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء ، فنهى الله عن ذلك ، وقال الشعبي : البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ قال : هي السائبة والبحيرة ، وقال أبو العالية ومجاهد وقتادة في قول الله : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي : قولهم الكذب في ذلك يعني كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ ﴾ الآية . ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ أي : في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأعمال عباده من خير وشر وسيجزيهم عليها أتم الجزاء .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم وضيقوا عليهم في أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، وأما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى مبينًا أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها وجزّأوها فجعلوا منها حرامًا وحلالًا ، فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ قال ابن عباس : معروشات مسموكات ، وفي رواية : فالمعروشات ما عرش الناس ، وغير معروشات ما خرج في البر والجبال من الثمرات ، وقال : معروشات ما عرش من الكرم ، وغير معروشات ما لم يعرش من الكرم ، وقال ابن جريج ﴿ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ ، قال : متشابهًا في المنظر وغير متشابه في المطعم ، وقال محمّد بن كعب : ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ قال : من رطبه وعنبه ، وقوله تعالى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم : هي الزكاة المفروضة . وعن يزيد بن درهم قال : سمعت أنس بن مالك يقول : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال : الزكاة المفروضة ، وقال ابن عبّاس : يعني الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله ، وقال العوفي عن ابن عبّاس : وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده لم

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٢٤) .

يخرج مما حصد شيئًا ، فقال اللَّه تعالى : ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد وما يلقط الناس من سنبله ، وقد روي عن جابر بن عبد اللَّه : أن النبيّ ﷺ أمر من كل جاذٍ عشرة أوسق من التمر بقنو يعلق في المسجد للمساكين [1] ، وقال الحسن البصري : هي الصدقة من الحب والثمار . وكذا قال زيد بن أسلم ، وقال آخرون : هو حق آخر سوى الزكاة ، وروي عن ابن عمر في قوله : ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ قال : كانوا يعطون شيئًا سوى الزكاة .

وقال مجاهد : إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه ، وقال : عند الزرع يعطي القبضة وعند الصرام يعطي القبضة ويتركهم فيتبعون آثار الصرام ، وقال سعيد بن جبير : كان هذا قبل الزكاة للمساكين القبضة والضغث لعلف دابته ، وقال آخرون : هذا شيء كان واجبًا ثم نسخه اللَّه بالعشر أو نصف العشر قلت : وفي تسمية هذا ناسخًا نظر ؛ لأنه قد كان شيئًا واجبًا في الأصل ، ثم إنه فصل بيانه وبَيَّنَ مقدار المخرج وكميته . قالوا : وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة ، فاللَّه أعلم . وقد ذم اللَّه سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون ، كما ذكر عن أصحاب الجنّة في سورة « ن » ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ أي : كالليل المدلهم سوداء محترقة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ قيل : معناه لا تسرفوا في الإعطاء فتعطوا فوق المعروف ، وقال أبو العالية : كانوا يعطون يوم الحصاد شيئًا ثم تباروا فيه وأسرفوا ، فأنزل اللَّه ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ وقال ابن جريج : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جذ نخلًا له فقال : لا يأتيني اليوم أحد إلَّا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ، فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ . وقال سعيد بن المسيب في قوله : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم ، ثم اختار ابن جرير قول عطاء : إنه نهى عن الإسراف في كل شيء ، ولا شك أنه صحيح لكن الظاهر - واللَّه أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى : ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ أن يكون عائدًا على الأكل أي : لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ الآية ، وفي الحديث : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَة » [2] ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ أي : وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش ، قيل : المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل والفرش الصغار منها . قوله : ﴿ حَمُولَةً ﴾ ما حمل عليه من الإبل ، والفرش الصغار من الإبل ، وقال ابن عبّاس : الحمولة هي الكبار ، والفرش الصغار من الإبل . وقال : أما الحمولة : فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه ، أما الفرش : فالغنم ، واختاره ابن جرير ، قال : أحسبه إنما سمي فرشًا لدنوه من الأرض . وقال الربيع بن أنس وغيره : الحمولة الإبل والبقر ، والفرش الغنم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحمولة ما تركبون ، والفرش ما تأكلون وتحلبون ؛ شاة لا تحمل تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافًا وفرشًا ، وهذا الذي قاله عبد الرّحمن في تفسير هذه الآية

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٥٩) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٦٠٥) .

الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي : من الثمار والزروع والأنعام فكلها خلقها الله وجعلها رزقًا لكم .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي : طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله من الثمار والزروع افتراء على الله ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ ﴾ أي : إن الشيطان أيها الناس لكم ﴿ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي : بيِّن ظاهر العداوة .

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام وجعلوها أجزاء وأنواعًا بحيرة وسائبة ووصيلة وحامًا وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار ، فبيَّن أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض الضأن وسواد وهو المعز ذكره وأنثاه ، إلى إبل ذكورها وإناثها ، وبقر كذلك ، وأنه تعالى لم يحرم شيئًا من ذلك ولا شيئًا من أولادها ، بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلًا وركوبًا وحمولة وحلبًا وغير ذلك من وجوه المنافع كما قال : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ رد عليهم في قولهم : ﴿ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي : أخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ﴾ فهذه أربعة أزواج ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ يقول : لم أحرم شيئًا من ذلك ﴿ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ فهذه أربعة أزواج ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ يعني : هل يشتمل الرحم إلَّا على ذكر أو أنثى ، فلم تحرمون بعضًا وتحلون بعضًا ؟ ﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يقول تعالى : كله حلال . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : لا أحد أظلم منه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لحي بن قمعة ؛ لأنه أول من غيّر دين الأنبياء وأول من سيّب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي .

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عبده ورسوله محمّدًا ﷺ : ﴿ قُل ﴾ يا محمّد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ﴿ لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾ أي : آكل يأكله ، قيل : معناه لا

أجد شيئًا مما حرمتم حرامًا سوى هذه ، وقيل : معناه لا أجد من الحيوانات شيئًا حرامًا سوى هذه ، فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة وفي الأحاديث الواردة رافعًا لمفهوم هذه الآية ، ومن الناس من يسمي هذا نسخًا والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخًا ؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل والله أعلم ، وقال ابن عباس : ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ يعني المهراق ، وقال عكرمة في قوله : ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ لولا هذه الآية لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود [(١)] . وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأسًا والحمرة والدم يكونان على القدر بأسًا ، وقرأت هذه الآية [(٢)] .

وعن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرًا ، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه ، فما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، وقرأ هذه الآية : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ﴾ الآية [(٣)] .

وعنه أيضا قال : ماتت شاة لسودة بنت زمعة ، فقالت : يا رسول الله ماتت فلانة تعني الشاة ، قال : « فَلِمَ لاَ أَخَذْتُمْ مِسْكَهَا ؟ » قالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا قَالَ اللَّه ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ وَإِنَّكُمْ لاَ تُطْعِمُونَه أَنْ تَدْبِغُوهُ فَتَنْتَفِعُوا بِهِ » فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته ، فاتخذت منه قربة حتى تخرقت عندها [(٤)] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ أي : فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : غفور له رحيم به ، والغرض من سياق هذه الآية الكريمة ، الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، فأمر رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم ، وإنما حرم ما ذكر في هذه الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، وما عدا ذلك فلم يحرم ، وإنما هو عفو مسكوت عنه ، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله ؟ وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا ، كما جاء النهي عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذي مخلب من الطير على المشهور من مذاهب العلماء .

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : يقول تعالى : وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر ، وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط [(٥)] . قال ابن عباس : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٨/٩٣ .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره ٨/٩٤ .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/١١٥ .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٢٧) .
(٥) تفسير الطبري ٨/٩٦ .

كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ وهو البعير والنعامة ، وقال سعيد بن جبير : هو الذي ليس منفرج الأصابع ، وفي رواية عنه : كل متفرق الأصابع ومنه الديك ، وقال مجاهد : كل ذي ظفر قال : النعامة والبعير شقًّا شقًّا ، قلت للقاسم بن أبي بزة وحدثته : ما شقًّا شقًّا ؟ قال : كل ما لا ينفرج من قوائم البهائم ، قال : وما انفرج أكلته ، قال : انفرجت قوائم البهائم والعصافير ، قال : فيهود تأكله ، قال : ولم تنفرج قائمة البعير - خفه - ولا خف النعامة ولا قائمة الوز فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعامة ولا الوز ولا كل شيء لم تنفرج قائمته ولا تأكل حمار الوحش ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ قال السدي : يعني الثرب وشحم الكليتين ، وكانت اليهود تقول : إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه ، وقال ابن عبّاس : ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ ﴾ يعني ما علق بالظهر من الشحوم ، وقال السدي وأبو صالح : الألية مما حملت ظهورهما وقوله تعالى : ﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير : الحوايا جمع ، واحدها حاوياء وحاوية وحوية : وهو ما تحوّى من البطن فاجتمع واستدار ، وهي بنات اللبن ، وهي المباعر ، وتسمى المرابض ، وفيها الأمعاء . قال : ومعنى الكلام : ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما . وما حملت الحوايا . وعنه : ﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾ وهي المبعر ، وقال عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد : الحوايا المرابض التي تكون فيها الأمعاء تكون وسطها ، وهي بنات اللبن ، وهي في كلام العرب تدعى المرابض ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ يعني : إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحللناه لهم ، وقال ابن جريج : شحم الألية ما اختلط بالعصعص فهو حلال وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ أي : هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاة على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا ، كما قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ وإنا لعادلون فيما جازيناهم به ، وقال عبد اللَّه بن عباس : بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن سمرة باع خمرًا ، فقال : قاتل اللَّه سمرة ألم يعلم أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لَعَنَ اللَّه اليَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ الشُّحُومُ فَجَمَّلُوهَا فَبَاعُوهَا » (١) . قال عطاء بن أبي رباح : سمعت جابر بن عبد اللَّه يقول : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول عام الفتح : « إِنَّ اللَّه وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الخَمْرِ وَالمَيْتَة وَالخِنْزِير وَالأَصْنَام » فقيل : يا رسول اللَّه أرأيت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس ، فقال : « لاَ هُوَ حَرَامٌ » ثم قال رسول اللَّه ﷺ عند ذلك : « قَاتَلَ اللَّه اليَهُودَ إِنَّ اللَّه لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِم شُحُومَهَا جملُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ وَأَكَلُوا ثَمَنَهُ » (٢) .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٣) ومسلم في المساقاة (٧٢) وأحمد في مسنده (١/٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٣) ومسلم في المساقاة (٧١) وأحمد في مسنده (٣/٢١٣) .

يقول تعالى : فإن كذبك يا محمّد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم فقل : ﴿ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن ، كما قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ .

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى ، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا ، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه ، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره ، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك ، ولهذا قالوا : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾ الآية ، وقال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ أي : بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء ، وهي حجة داحضة باطلة ؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام وأذاق المشركين من أليم الانتقام ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أي : بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ أي : فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ أي : الوهم والخيال والمراد بالظن ها هنا الاعتقاد الفاسد ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ تكذبون على الله فيما ادعيتموه ، قال ابن عبّاس : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ وقال : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ فإنهم قالوا : عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى ، فأخبرهم الله أنها لا تقربهم فقوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ يقول تعالى : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمّد ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ أي : له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من ضل ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره . وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ﴾ أي : أحضروا شهداءكم ﴿ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾ أي : هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه ﴿ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أي : لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبًا وزورًا ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : يشركون به ويجعلون له عديلًا .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم

مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال ابن مسعود ﷺ ، من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ إلى قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وقال ابن عباس : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ الآيات [1] . وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى ثَلاَثٍ ؟ » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ حتى فرغ من الآيات « فَمَنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّه وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ اللَّه بِهِ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتَهُ ، وَمَنْ أُخِّرَ إِلَى الآخِرَةِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّه ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَه ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ » [2] ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ تَعَالَوْا۟ ﴾ أي : هلموا وأقبلوا ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ أي : أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقًّا لا تخرصًا ولا ظنًّا بل وحيًا منه وأمرًا من عنده ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ وكأن في الكلام محذوفًا دل عليه السياق وتقديره وأوصاكم ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ ولهذا قال في آخر الآية : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

وعن أبي ذر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّه شَيْئًا مِنْ أُمَّتِكَ دَخَلَ الجَنَّةَ ، قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَق . قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَق ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ، قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَق ، وَإِنْ شَرِبَ الخَمْرَ » وفي بعض الروايات أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ وأنه عليه الصلاة والسلام قال في الثالثة : « وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ » [3] فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : « وَإِنْ رَغِمَ أَنْف أَبِي ذرٍّ » . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « يقولُ تعالى : يا ابنَ آدمَ إنكَ ما دعوتَني ورجوتَني فإنِّي أغفرُ لكَ على ما كان منكَ ولا أبالي ، ولو أتيتني بقرابِ الأرضِ خطيئةً أتيتكَ بقرابها مغفرةً ما لم تشرك بي شيئًا ، وإن أخطأتَ حتى تبلغَ خطاياكَ عنانَ السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك » [4] ولهذا شاهد في القرآن قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ . وعن ابن مسعود « مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّه شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ » [5] .

وقوله تعالى : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ ﴾ أي : وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانًا أي : أن تحسنوا إليهم كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ وعن ابن مسعود ﷺ أنه قال : سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : « الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا » قلت : ثم أي ؟ قال : « بِرُّ الوَالِدَيْنِ » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّه » قال ابن مسعود : حدَّثني بهن رسول

(١) أخرجه : الحاكم في المستدرك ٣١٧/٢ .
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨) ومسلم في الحدود (٤١ ، ٤٣) .
(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٨٧) ومسلم في الإيمان (١٥٣) والترمذي في السنن (٢٦٤٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٥) . (٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥١) وأحمد في مسنده (٥٩/٥) .

الله ﷺ ولو استزدته لزادني [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يئدون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ، ولهذا ورد عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ للّه نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خِشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تُزَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ ﴾ [٢] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ ﴾ قال ابن عبادة وقتادة والسدي وغيره : هو الفقر ، أي : ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل ، وقال في سورة الإسراء : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ ﴾ أي : لا تقتلوهم خوفًا من الفقر في الآجل ، ولهذا قال هناك : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم أي : لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله ، وأما هنا فلما كان الفقر حاصلًا قال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾ لأنه الأهم ههنا ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ عن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللّه ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيدًا ، وإلَّا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقد جاء عن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يَحِلُّ دَمَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللّه وَأَنِّي رَسُولُ اللّه إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ : الثَّيِّبُ الزَّانِي ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلجَمَاعَةِ » وفي لفظ لمسلم : « وَالَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ لاَ يَحِلُّ دمُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ » [٤] وذكره . وروي عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ يَحِلُّ دمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثِ خِصَالٍ : زَانٍ مُحْصنٌ يُرْجَمُ ، وَرَجُلٌ قَتَلَ مُتَعَمِّدًا فَيُقْتَلُ ، وَرَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ الإِسْلاَمِ وَحَارَبَ اللّه وَرَسُولَهُ فَيُقْتَلُ أَوْ يُصْلَبُ أَوْ يُنْفَى مِنَ الأَرْضِ » [٥] . وروي عن عبد الله بن عمرو ﵄ عن النبيِّ ﷺ مرفوعًا : « مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا » [٦] وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٢) وأحمد في مسنده (٤٤٨/١) .
(٢) أخرجه البخاري في المحاربين (٦٨١١) ومسلم في الإيمان (١٤١) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٤) ومسلم في التوبة (٣٣ ، ٣٤) وأحمد في مسنده (٤٣٦/١) .
(٤) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨) ومسلم في القسامة (٢٤) وأحمد في مسنده (٦١/١) .
(٥) أخرجه النسائي في السنن ٩٢/٧ ، وأبو داود في السنن (٤٥٠٢) والحاكم في المستدرك ٣٥٠/٤ .
(٦) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة (٣١٦٦) وأحمد في مسنده (٣٦/٥) وابن ماجه في سننه (٢٦٨٦) .

أي : هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون من اللّه أمره ونهيه .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : لما أنزل اللّه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ و ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ﴾ الآية ، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول اللّه فأنزل اللّه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ قال : فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم [(١)] ، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ قال الشعبي ومالك : يعني حتى يحتلم ، وقال السدي : حتى يبلغ ثلاثين سنة ، وقيل : أربعون سنة ، وقيل : ستون سنة ، وقال : وهذا كله بعيد ها هنا ، واللّه أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء ، كما توعد على تركه في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول اللّه ﷺ لأصحاب الكيل والميزان : « إِنَّكُمْ وَلِّيتُمْ أَمْرًا هَلَكَتْ فِيهِ الأُمَمُ السَّالِفَةُ قَبْلَكُمْ » [(٢)] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي : من اجتهد في أداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ اللّه تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال .

وقوله : ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ قال ابن جرير : يقول : وبوصية اللّه التي أوصاكم بها فأوفوا وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم وتعملوا بكتابه وسنّة رسوله ، وذلك هو الوفاء بعهد اللّه ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يقول تعالى : هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا ، وقرأ بعضهم بتشديد الذال وآخرون بتخفيفها [(٣)] .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس في قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ : أمر اللّه المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين اللّه ، وعن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال : خط رسول اللّه ﷺ خطًّا بيده ثم قال : « هَذَا سَبِيلُ اللّهِ مُسْتَقِيمًا » وخط عن يمينه وشماله ثم قال : « هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ »

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٨٧١) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (١٢١٧) بلفظ : « إنكم قد وليتم أمرين » .

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص (تَذَكَّرون) بتخفيف الذال ، حيث وقع إذا كان بالخطاب وحسن ما تائه تاء أخرى ، والباقون (تذَّكرون) بالتشديد (انظر : تقريب النشر ص : ١١٢ ، ١١٣) .

ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (١) .

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَنْ جَنْبَتَي الصِرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ ، وَعَلَى بَابِ الصِرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ ادْخُلُوا الصِرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِرَاطِ ، فَإِذَا أَرَادَ الإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ : قَالَ وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ ، فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلِجْهُ ، فَالصِّرَاطُ الإِسْلاَمُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ ، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ إنما وحد سبيله ، لأن الحق واحد ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ . وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى هَؤُلاَءِ الآيَاتِ الثَّلاَثِ » ثم تلا : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ حتى فرغ من ثلاث آيات ثم قال : « وَمَنْ وَفَى بِهِنَّ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتَهُ ، وَمَنْ أَخَّرَهُ إِلَى الآخِرَةِ كَانَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ : إِنْ شَاءَ أَخَذَهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ » (٣) .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ تقديره ثم قل يا محمّد مخبرًا عنا : أنا آتينا موسى الكتاب بدلالة قوله : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ (٤) . قلت : وفي هذا نظر ، وثم ههنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب ههنا .

وههنا لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها فقال : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وكثيرًا ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ ﴾ وبعدها ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ الآية ، وقال تعالى مخبرًا عن المشركين : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا ﴾ أي : آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تمامًا كاملًا جامعًا لما يحتاج إليه في شريعته كقوله : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ أي : جزاء على إحسانه في العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ أحسن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٥/١) وابن ماجه في سننه (١١) والدارمي في السنن (٦٧/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢/٤) .
(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨) ومسلم في الحدود (٤١ ، ٤٣) .
(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١١٨/٨) .

فيما أعطاه الله ، وقال قتادة : من أحسن في الدنيا تمم له ذلك في الآخرة ، واختار ابن جرير أن تقديره ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا ﴾ على إحسانه ، فكأنه جعل الذي مصدرية كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ أي : كخوضهم .

وقال آخرون : الذي ههنا بمعنى الذين ، قال عبد الله بن مسعود أنه كان يقرؤها ﴿ تمامًا على الذين أحسنوا ﴾ [1] وقال مجاهد : تمامًا على الذي أحسن ، قال : على المؤمنين والمحسنين ، وكذا قال أبو عبيدة ، وقال البغوي : المحسنون الأنبياء والمؤمنون ، يعني أظهرنا فضله عليهم ، قلت : كقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل عليه السلام لأدلة أخرى ، وروي أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرؤها ﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أحسنُ وَتَفْصِيلًا ﴾ رفعًا بتأويل على الذي هو أحسن ، ثم قال : وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها وإن كان لها في العربية وجه صحيح ، وقيل : معناه تمامًا على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن إليه ، حكاه ابن جرير والبغوي ولا منافاة بينه وبين القول الأول ، وبه جمع ابن جرير كما بيناه ولله الحمد .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليهم ﴿ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فيه الدعوة إلى اتباع القرآن يرغب سبحانه عباده في كتابه ، ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه ، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة لأنه حبل الله المتين .

﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا : ﴿ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ يعني لينقطع عذركم ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى ، وكذا قال مجاهد والسدي وقتادة وغير واحد ، وقوله : ﴿ وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ أي : وما كنا نفهم ما يقولون ؛ لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه . وقوله : ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ أي : وقطعنا تعللكم أن تقولوا : لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه ، كقوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ الآية ، ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ يقول : فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أي : لم ينتفع بما جاء به الرسول

(١) تفسير الطبري ١١٨/٨ .

ولا اتبع ما أرسل به ولا ترك غيره ، بل صدف عن اتباع آيات الله أي : صرف الناس وصدهم عن ذلك ، قاله السدي ، وعن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة : ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أعرض عنها ، وقول السدي ههنا فيه قوة لأنه قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ كما تقدم في أول السورة ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ﴾ ﴿ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ وقد يكون المراد فيما قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أي : لا آمن بها ولا عمل بها كقوله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على اشتمال الكافر على التكذيب بقلبه وترك العمل بجوارحه ، ولكن كلام السدي أقوى وأظهر والله أعلم ؛ لأن الله قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا للكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ وذلك كائن يوم القيامة ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئًا من أشراط الساعة ، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية : عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا » فذلك حين ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ (١) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلاَثٌ إِذَا خَرَجْنَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدَّجَّالُ ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ » (٢) .

وعن أبي ذر جندب بن جنادة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ ؟ » قلت : لا أدري ، قال : « إِنَّهَا تَنْتَهِي دُونَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً ، ثُمَّ تَقُومُ حَتَّى يُقَالَ لَهَا : ارْجِعِي ، فَيُوشِكُ يَا أَبَا ذَرٍّ أَنْ يُقَالَ لَهَا : ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ وَذَلِكَ حِينَ ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ (٣) .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال رسول الله ﷺ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ : طُلُوع الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدُّخَانُ ، وَالدَّابَّةُ ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ، وَخُرُوجُ الدَجَّالِ ، وَثَلاَثَة خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٦) ومسلم في الإيمان (٧٢) وأبو داود في السنن (٤٣١٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٩) وأحمد في مسنده (٤٤٥/٢) والترمذي في السنن (٣٠٧٣) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٥٠) وأحمد في مسنده (١٦٥/٥) .

تَسُوقُ - أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ ؛ تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا » [١] .

وعن ابن السعدي أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ مَا دَامَ العَدُوُّ يُقَاتِلَ » فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ إِحْدَاهُمَا تَهْجُرُ السَّيِّئَاتِ وَالأُخْرَى تُهَاجِرُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلاَ تَنْقَطِعُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ ، وَلَا تَزَالُ التَّوْبَةُ تُقْبَلُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ ؛ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ ، وَكُفِيَ النَّاسُ العَمَلَ » [٢] .

فقوله تعالى : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ أي : إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذٍ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمنًا قبل ذلك فإن كان مصلحًا في عمله فهو بخير عظيم ، وإن لم يكن مصلحًا فأحدث توبة حينئذٍ لم تقبل منه توبته .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ أي : ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملًا به قبل ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك . وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لاقتراب الساعة وظهور أشراطها كما قال : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي : نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى ، وقال ابن عبّاس في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمّد ﷺ فتفرقوا فلما بعث محمّد ﷺ أنزل الله عليه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ الآية . والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له ؛ فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق . فمن اختلف فيه ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ أي فرقًا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ؛ فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه ، وهذه الآية كقوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ الآية ، وفي الحديث : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» [٣] فهذا هو الصراط المستقيم وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له ، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر ، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء ، والرسل براء منها .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الآية ، ثم بيّن لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى :

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٤) والترمذي في السنن (٢١٨٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢) ومسلم في فضائل (١٤٣) وأحمد في مسنده ٤٦٣/٢ .

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى وهي قوله : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية ، فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى : « إِنَّ رَبَّكُمْ عز وجل رَحِيمٌ ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ . وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةً أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ عز وجل ، وَلاَ يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ » (١) . وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ عز وجل : مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَجَزَاؤُهُ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ ، وَمَنْ عَمِلَ قِرَابَ الأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِيَنِي لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً ، وَمَنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » (٢) . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَة وَاحِدَةً » (٣) .

واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارة يتركها لله فهذا تكتب له حسنة على كفِّه عنها لله تعالى ، وهذا عمل ونيَّة ، ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح « فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي » (٤) أي من أجلي . وتارة يتركها نسيانًا وذهولًا عنها فهذا لا له ولا عليه ؛ لأنه لم ينو خيرًا ولا فعل شرًّا . وتارة يتركها عجزًا وكسلًا عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها فهذا بمنزلة فاعلها ، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » قالوا : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » (٥) .

وعن خريم بن فاتك الأسدي أن النبيّ ﷺ قال : « إِنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةٌ وَالأَعْمَال سِتَّةٌ ، فَالنَّاسُ مُوسَّعٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمُوَسَّعٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا مَقْتُورٌ عَلَيْهِ فِي الآخِرَةِ ، وَمَقْتُورٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مُوَسَّعٌ لَهُ فِي الآخِرَةِ ، وَشَقِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَالأَعْمَالُ مُوجِبَتَانِ ، وَمِثلٌ بِمِثلٍ ، وَعَشَرَةُ أَضْعَافٍ ، وَسَبْعُمَائَةُ ضِعْفٍ ، فَالْمُوجِبَتَانِ : مَنْ مَاتَ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ، وَمَنْ مَاتَ كَافِرًا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَعَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ أَشْعَرَهَا قَلْبَهُ وَحَرِصَ عَلَيْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَلَمْ تُضَاعَفْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ عَمِلَ حَسَنَةً كَانَتْ عَلَيْهِ بِعَشرِ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ عز وجل كَانَتْ بِسَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ » (٦)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٧٩) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/١٥٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٦) وأحمد في مسنده (١/٢٧٩) .

(٤) أخرجه : مسلم في الإيمان (٢٠٥) وأحمد في مسنده ٢/٣١٧ .

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان (٣١) ومسلم في الفتن (١٥) وابن ماجه في السنن (٣٩٦٤) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٤٥) .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبيّ ﷺ قال : « يَحْضُرُ الجُمُعَةَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ : رَجُلٌ حَضَرَهَا بِلَغْوٍ فَهُوَ حَظُّهُ مِنْهَا ، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِدُعَاءٍ ؛ فَهُوَ رَجُلٌ دَعَا اللَّهَ فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُ ، وَرَجُلٌ حَضَرَهَا بِإِنْصَاتٍ وَسُكُوتٍ ، وَلَمْ يَتَخَطَّ رَقَبَةَ مُسْلِمٍ ، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا ؛ فَهِيَ كَفَّارَةٌ لَهُ إِلَى الجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (١) . وعن أبي ذر ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ فَقَدْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ » وزاد الترمذي : « فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ اليَوْمُ بِعَشْرَةِ أَيَّامٍ » (٢) ، وقال ابن مسعود : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ من جاء بلا إله إلّا اللَّه ومن جاء بالسيئة يقول بالشرك .

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ أي : قائمًا ثابتًا ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ وليس يلزمه من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية ، أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قام بها قيامًا عظيمًا وأكملت له إكمالًا تامًّا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال ، ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل ﷺ . وعن ابن أبزى عن أبيه قال : كان رسول اللَّه ﷺ إذا أصبح قال : « أَصْبَحْنَا عَلَى مِلَّةِ الإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ » (٣) وعن ابن عبّاس ﷺ أنه قال : قيل لرسول اللَّه ﷺ : أي الأديان أحب إلى اللَّه تعالى ؟ قال : « الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ » (٤) . وعن عائشة ﷺ قالت : وضع رسول اللَّه ذقني على منكبه لأنظر إلى زفن الحبشة حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه (٥) . وعن عائشة قالت : قال رسول اللَّه ﷺ يومئذ : « لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً ؛ إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ » (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير اللَّه ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك ، فإن صلاته للَّه ونسكه على اسمه وحده لا شريك له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أي : أخلص له صلاتك وذبحك ، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمره اللَّه تعالى بمخالفتهم والانحراف

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١١١٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٢١٩/٣) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٥) والترمذي في السنن (٣٠٧٣) وابن ماجه في السنن (١٧٠٨) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٦/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٦/١٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٦/١) والطبراني في المعجم الكبير (٢٢٧/١١) .
(٥ ، ٦) أخرجه أحمد في مسنده (١١٦/٦) .

عما هم فيه ، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى . قال مجاهد في قوله : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ النسك الذبح في الحج والعمرة . وقال سعيد بن جبير ﴿ وَنُسُكِي ﴾ قال : ذبحي ، وعن جابر بن عبد الله قال : ضحّى رسول الله ﷺ في يوم عيد النحر بكبشين ، وقال حين ذبحهما : «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » (١) .

وقوله ﷺ : ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ قال قتادة : أي من هذه الأمة وهو كما قال ؛ فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضًا ، إلى أن نسخت بشريعة محمّد ﷺ التي لا تنسخ أبد الآبدين ، ولا تزال قائمة منصورة وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أَوْلاَدُ عَلاَّتٍ ديننا وَاحِدٌ » (٢) فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى ؛ فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات ، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا : بنو الأم الواحدة من آباء شتى ، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة ، والله أعلم .

وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا كبّر استفتح ثم قال : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ إلى آخر الآية « اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ » (٣) .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾ أي : أطلب ربًّا سواه ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يربيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري ، أي : لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه ؛ لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر . ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١ ، ٢٠٢) والترمذي في السنن (٣٤٢١) والدارمي في السنن (١/٢٨٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢) ومسلم في الفضائل (١٤٣) وأحمد في مسنده ٢/٤٦٣ جميعهم بنحوه .
(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١) والدارقطني في السنن (١/٢٦٧) .

له ، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرًا في القرآن ، كقوله تعالى مرشدًا لعباده أن يقولوا له : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر ، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد ، وهذا من عدله تعالى كما قال : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ قال علماء التفسير : أي فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته . وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه ، فستعرضون ونعرض عليه وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا كقوله : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ أي : جعلكم تعمرونها جيلًا بعد جيل ، وقرنًا بعد قرن وخلفًا بعد سلف . وقوله : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أي : فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك كقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ أي : ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به ، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره والفقير في فقره ويسأله عن صبره . عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ مَاذَا تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خير وطلب . وكثيرًا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وعن أبي هريرة مرفوعًا أن رسول الله ﷺ قال : « لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ أَحَدٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، خَلَقَ اللهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ ، فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ يَتَرَاحَمُونَ بِهَا ، وَعِنْدَ اللهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ » (٢) .

وعن العلاء قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) وأحمد في مسنده (٣٦٤/٦) والترمذي في السنن (٢٩١٩) .
(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٣) وأحمد في مسنده (٣٣٤/٢) والترمذي في السنن (٣٥٤٢) .

العَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي »[1] .

وعنه أيضًا قال : سمعت رسولِ اللّه ﷺ يقول : « جَعَلَ اللّه الرَّحْمَةَ مائَةَ جُزْءٍ ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعينَ جُزْءًا ، وَأَنْزَلَ في الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الخَلَائِقُ حَتَّى تَرْفَعُ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ »[2] .

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (١٤) وأحمد في مسنده (٢٦٠/٢) .

(٢) مسلم في التوبة (١٧) والدارمي في السنن (٣٢١/٢) .

فهرس المجلد الأول